

نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ

غَضَنِ الْأَنْدَلِسِ الرَّطِيبِ

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد القرني التلياني

حقيقته

الدكتور اجسان عباس

المجلد الرابع

دار صادر
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ ۱۹۶۸ م

نفع الطيب

٤

الكتاب الثاني

الباب السابع

(تتمة)

٤٧٦ - وقال ابن ظافر^١ : أخبرني مَنْ أثق به قال : اجتمع الوزير أبو بكر ابن القبطرنة والأستاذ أبو العباس ابن صارة في يوم جلا ذهب برقه ، وأذاب ورق ودّقه ، والأرض قد ضحكت لتعيس السماء ، واهترت وربّت عند نزول الماء ، فترافدا في صفتها ، فقال ابن صارة :

هذي البسيطة كاعب أبرادها حُللُ الربيعِ وحلّيتها النوارُ

فقال ابن القبطرنة :

وكانّ هذا الجوّ فيها عاشقٌ قد شقّه التعذيبُ والإضرارُ

فقال ابن صارة :

فإذا شكّا فالبرقُ قلبٌ خافقٌ وإذا بكى فدموعُه الأمطارُ

فقال ابن القبطرنة :

فمن آجلِ عزةٍ ذا وذلةٍ هذه تبكي الغمامُ وتضحكُ الأزهارُ

١ البدائع ١ : ١٨٦ وهذا مكرر ، انظر ج ٣ : ٣٥٥ .

٤٧٧ - وقال أبو بكر محمد بن [الحسن] الزبيدي النحوي^١ صاحب الشرطة
 يخاطب الوزير أبا الحسن جعفر بن عثمان المصحفي لما كتب كتاباً له فيه « فاضت
 نفسه » بالضاد - مبيناً له الخطأ دون تصريح :

قل للوزير السني محتده	لي ذمة منك أنت حافظها
عناية بالعلوم معجزة	قد بهظ الأولين باهظها
يقر لي عمرها ومعمرها	فيها ونظامها وجاحظها
قد كان حقاً قبول حرمتها	لكن صرف الزمان لافظها
وفي خطوب الزمان لي عظة	لو كان يثي النفوس واعظها
إن لم تحافظ عصابة نسبت	إليك قدماً فمن يحافظها
لا تدعن حاجتي بمطرحة	فإن نفسي قد فاظ فائظها

فأجابه المصحفي :

خفص فواقاً فأنت أوحدها	علماً ونقأها وحافظها
كيف تضيع العلوم في بلد	أبناؤها كلهم يحافظها
ألفاظهم كلها معطلة	ما لم يعول عليك لافظها
من ذا يساويك إن نطقت وقد	أقر بالعجز عنك جاحظها
علم ثنى العالمين عنك كما	ثني عن الشمس من يلاحظها
وقد أتتني فديت شاغلة	للنفس أن قلت فاظ فائظها
فأوضحننا تفز بنادرة	قد بهظ الأولين باهظها

فأجابه الزبيدي ، وضمن شعره الشاهد على ذلك :

أتاني كتاب من كريم مكرم
 فنفس عن نفس تكاد تفيظ

١ الجذرة : ٤٣ - ٤٥ .

فَسَرَ جَمِيعَ الْأَوْلِيَاءِ وَرُودَهُ
لَقَدْ حَفِظَ الْعَهْدَ الَّذِي قَدْ أَضَاعَهُ
وَبَايَعْتَنِي عَنْ فَاظَتْ وَقَبْلِي قَالَهَا
رَوَى ذَلِكَ عَنْ كَيْسَانَ سَهْلًا وَأَشْدُوا
« وَسَمِيَتْ غِيَاظًا وَلَسْتُ بِغَاظٍ
« فَلَا رَحِمَ الرَّحْمَنُ رُوحَكَ حَيَّةً
وَسِيءَ رِجَالٍ آخِرُونَ وَغِيظُوا
لَدَيَّ سِوَاهُ وَالكَرِيمُ حَفِيزُ
رِجَالٍ لَدَيْهِمْ فِي الْعُلُومِ حِظُوظُ
مِقَالَ أَبِي الْغِيَاظِ وَهُوَ مَغِيظُ
عَدُوًّا وَلَكِنْ لِلصِّدِّيقِ تَغِيظُ
وَلَا هِيَ فِي الْأَرْوَاحِ حِينَ تَغِيظُ

قلت : وفي خطاب الوزير بهذا البيت وإن حكى عن قائله ما لا ينبغي أن
اجتنابه المطلوب ، على أنه قد يقال « فاضت نفسه » بالضاد ، كما ذكره ابن
السكيت في خلل « الألفاظ » له ، والله أعلم .

وكتب الزبيدي المذكور إلى أبي مسلم ابن فهدي :

أَبَا مُسْلِمٍ إِنَّ الْفَتَى بِجَنَانِهِ
وَمِقْوَلِهِ ، لَا بِالْمَرَكَبِ وَاللَّبْسِ
وَلَيْسَتْ ثِيَابُ الْمَرْءِ تَغْفِي قَلَامَةً
إِذَا كَانَ مَقْصُورًا عَلَى قِصْرِ النَّفْسِ
وَلَيْسَ يَفِيدُ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالْحُجْمِي
أَبَا مُسْلِمٍ طُولُ الْقَعُودِ عَلَى الْكُرْسِيِّ

وقال ، وقد استأذن الحكم المستنصر في الرجوع إلى أهله بإشبيلية ولم يأذن
له ، فكتب إلى جاريته سلمى^٢ :

وَيَحْكُ يَا سَلْمَى لَا تُرَاعِي
لَا تَحْسِبِي صَبْرَتُ إِلَّا
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ عَذَابٍ
مَا بَيْنَهَا وَالْحِمَامِ فَرَقٌ
لَا بَدْءَ لِلْبَيْنِ مِنْ زَمَاعٍ
كَصَبْرِ مَيْتٍ عَلَى التَّرَاعِ
أَشَدَّ مِنْ وَقْفَةِ الْوَدَاعِ
لَوْلَا الْمُنَاحَاتُ وَالنَّوَاعِي

١ الجذوة : ٤٣ .

٢ المصدر نفسه .

إن يفترق شملنا وشيكاً من بعد ما كان ذا اجتماع
فكل شمل إلى افتراق وكل شعب إلى انصداع
وكل قرب إلى بعد وكل وصل إلى انقطاع

٤٧٨ - واجتمع جماعة من الأدباء فيهم أبو الحسن سهل بن مالك والمهر
ابن الفرس وغيرهما بمدينة سبتة سنة ٥٨١ ، فتذاكروا محبوباً لهم يسكن الجزيرة
الخضراء أمامهم ، فقالوا : ليقل كل واحد منكم شيئاً فيه ، فقال سهل بن
مالك^١ :

لما حطت^٢ بسبتة قتب النوى والقلب يرجو أن يحول حاله
والجو مصقول الأديم كسأتما يُبدي الخفي من الأمور صقاله
عابت من بلد الجزيرة مكنساً والبحر يمنع أن يُصاد غزاله
كالشكل في المرأة تبصره وقد قربت مسافته وعز ماله

فقال الجماعة : والله لا يقول أحد منا بعد هذا شيئاً .

٤٧٩ - ولما قرأ أبو محمد عبد الله بن مطروح البلسنسي صداق إمالك ،
وغير فيه حال القراءة لفظة « غير » برفع ما كان منصوباً أو بالعكس ، أنشد بديهاً
بعد الفراغ معتذراً عن لحنه :

غيرت غيراً فصرتُ عيرا وهكذا من يجد سيرا

فأجابه الحافظ أبو الربيع ابن سالم الكلاعي ، وكان إلى جانبه ، بديهة :

ما أنت ممن يُظن فيه بذاك جهل فظن خيرا

١ اختصار القدح : ٦٢ .

٢ القدح : أنخت .

٤٨٠ - ووقف أبو أمية ابن حمّدون بباب الأستاذ الشلوين ، فكتب في ورقة « أبو أمية بالباب » ودفع الورقة لخدام الأستاذ ، فلمّا نظر إليها الأستاذ نوّن تاء أمية ، ولم يزد على ذلك ، وأمر الخادم بدفع الورقة إليه ، فلمّا نظر فيها أبو أمية انصرف ، علماً منه أن الأستاذ صرفه ، فانظر إلى فِطْنَةِ الشيخ والتلميذ ، مع أن الشيخ منسوب إلى التغفل في غير العلم .

٤٨١ - ومن حكايات أهل الأندلس في العفو أن المعتصم بن صُمّاح كان قد أحسن للنحلي البَطَلِيَّوسِي ، ثمّ إن النحلي سار إلى إشبيلية ، فمدح المعتضد ابن عباد بشعر قال فيه :

أباد ابنُ عبّادِ البريرا وأفنى ابنُ معنٍ دجاجِ القرى

ونسى ما قاله ، حتى حلّ بالمرية ، فأحضره ابن صمّاح لمنادمته ، وأحضر للعشاء موائد ليس فيها غير دجاج ، فقال النحلي : يا مولاي ، ما عندكم في المرية لحم غير الدجاج ؟ فقال : إنّما أردتُ أن أكذبك في قولك :

وأفنى ابنُ معنٍ دجاجِ القرى

فطار سكر النحلي ، وجعل يعتذر ، فقال له : خفّضْ عليك ، إنّما ينفق مثلك بمثل هذا ، وإنما العتب على من سمعه فاحتمله منك في حقّ مَنْ هو في نصابه . ثمّ أحسن إليه وخاف النحلي ، ففر من المرية ، ثمّ ندم فكتب إلى المعتصم :

رضى ابن صمّاحَ فارقتُهُ فلم يُرضني بعده العالمُ
وكانت مَرِيَّتُهُ جَنَّةً فجئتُ بما جاءه آدمُ

فما زال يتفقده بالإحسان على بُعد دياره ، وخروجه عن اختياره ، انتهى .

٤٨٢ - وقال في بلنسية أبو عبد الله الرصافي ، وقد خرج منها صغيراً :

بلادي التي ريشت قويدمتي بها فريخاً وأوتني قرارها وكرا
مهادي ولين العيش في ريتي الصبا أبا الله أن أنسى اعتيادي بها خيرا

٤٨٣ - وقال أبو بكر محمد بن يحيى الشلطي^١ :

وفاةُ المرءِ سرّاً لم يكشف
ولم تثبت حقيقته درايةً
سيفني كلُّ ذي شبحٍ ونفسٍ
وتلتحقُ النهايةُ بالبدايةُ
وينصدعُ الجميعُ إلى صدوعٍ
تعودُ به البريةُ كالبرايةُ
كأن مصائبَ الدنيا سهامٌ
لها الأيامُ أغراضُ الرمايهُ
فنلّ ما شئت إن الفقرَ حدٌ
وعش ما شئت إن الموتَ غايهُ

٤٨٤ - وقال أبو بكر محمد بن العطار الياسي ، وهو من رجال الذخيرة :

أمطيتَ عزمكَ منه متنَ ساجحةٍ
خلتَ الحبابَ على لبتاها لبيبا
تبدو على الموجِ أحيانا ويضميرُها
كالعيسِ تعتسف الأهضامِ والكثبا

٤٨٥ - وقال محمد بن الحسن الجبلي النحوي^٢ :

وما الأُنسُ بالناسِ الذين عهدتُهُمُ
بأنسٍ ولكن فقد رؤيتهم أنسُ
إذا سلّمتَ نفسي وديني منهمُ
فحسبي أن العريضَ مني لهم ترسُ

٤٨٦ - وقال محمد بن حرب^٣ :

طوبى لروضةِ جنةٍ
لك قد نويتَ ورودها
نظمتَ على لبتاها
أيدي الغمامِ عقوقها

١ يعرف بابن القابلة ، انظر المغرب ١ : ٣٥٢ والمسالك ١١ : ٢٢٧ .

٢ الجذوة : ٤٧ .

٣ هو محمد بن مروان بن حرب (الجذوة : ٨٥ ومقطوعته وردت فيها) .

وسقتُ بماءِ الوردِ والـ مسكِ الفَتَيْتِ صعيدها
والطيرُ تشدو في الغصو نِ المائداتِ قصيدها
وتعيرُ سمعَ المستعيرِ رِ نظيمها ونشيدَها

٤٨٧ - وكان في دار محمد بن اليسع شاعر الدولة العامرية وردة^١ ، وكان يهدي وردها كلَّ عام إلى عارض الجيش أحمد بن سعيد^٢ ، فغاب العارض سنة فقال :

قال لي الوردُ وقد لا حَظُّتُهُ في روضَتَيْهِ
وهو قد أُبْنِعَ طيباً جَمَعَ الحسَنَ لديه
أين مولاي الذي قد كنتَ تهديني إليه
قلتُ غابَ العامَ فأيأسُ أن تُرى بينَ يَدَيْهِ
فبدا يذبلُ حتى ظَهَرَ الحُزْنُ عليه

٤٨٨ - وقال أحمد بن أفلح^٣ :

ما أستريحُ إلى حالٍ فأحمدُها بالينِ قلبي وقبلَ البينِ قد ذهبها
إن كان لي أربُّ في العيشِ بعدكمُ فلا قَضَيْتُ إذنَ من حبكمُ أربا

٤٨٩ - وقال أحمد بن تليد الكاتب^٤ :

لم أرضَ بالذلِّ وإنْ قَلَا والحرُّ لا يحتملُ الذلَّ
ياربُّ خيلٍ كان لي خاملٍ صار إلى العزَّةِ فاحولاً
حرَّمتُ للمامي على بابهِ ووَصَلُهُ لم أَرَهُ حِلًّا

١ ترجمته ومقطوعته في الجذوة : ٩٠ - ٩١ .

٢ الجذوة : سعد .

٣ ترجمته وشعره في الجذوة : ١١٠ ؛ زاد في م : وهو من الشعراء المجيدين .

٤ الجذوة : ١١١ .

تأبى عليّ النفسُ من أن أرى يوماً على مستنقلٍ كلاً

٤٩٠ - وقال إسحاق بن المنادي ، وقد أهدى له مَنْ يهواه تفاعحة^١ :

جمالُ العينِ في وردِ الحدودِ يُذكرُ طيبَ جنّاتِ الخلودِ
وآرجةٌ من التفاحِ تزهو بطيبِ النشْرِ والحسنِ الفريدِ
أقول لها فَضَحَّتِ المسكَ طيباً فقالتُ لي بطيبِ أبي الوليدِ

٤٩١ - وقال غالب بن عبد الله الثَّغْرِي^٢ :

يا راحلاً عن سوادِ المقتلينِ إلى سوادِ قلبِ عن الأضلاعِ قد رحلا
غدا كجسمٍ وأنتَ الروحُ فيه فما ينفكُ مرتحلاً ما دمت^٣ مرتحلاً
وللفراقِ جَوَى لو مرَّ أبردُه من بعد فرقتكم بالماءِ لا اشتعلا^٤

٤٩٢ - وقال الوزير أبو الحسن ابن الإمام الغرناطي يهجو مراکش
المحروسة^٥ :

يا حضرةَ الملك ما أشهاك لي وطناً لولا ضروبُ بلائِ فيكِ مَصْبوبِ
ماءِ زُعاقٍ وجوُّ كلِّه كدَرٍ وأكلةٌ من بذنجانِ ابنِ معيوبِ
وابن معيوب هذا كان من خدام أبي العلاء ابن زُهْر ، يزعم الناس أنه سمَّ

١ الجذوة : ١٥٨ - ١٥٩ .

٢ الجذوة : ٣٠٦ .

٣ الجذوة : إذ ظلت ؛ م ب : ما دام .

٤ الجذوة : بجماد الماء مر البرق .

٥ زاد في م بعد هذه الأبيات : وقال المذكور من قصيدة وهو بديع :

وما شجاني أني كنت نائماً أعلل من فرط الكرى بالتنم

(في أربعة أبيات . . .)

٦ هو أبو الحسن علي بن الإمام الغرناطي كاتب تميم بن يوسف بن تاشفين (المغرب ٢ : ١١٦) .

ابن باجة لعداوته لابن زهر في باذنجان .

٤٩٣ - ولما بنى الفقيه أبو العباس ابن القاسم^١ قصره بسلا وشيّدَه وصَفَتَه الشعراء ، وهنّته به ، ودعت له ، وكان بالحضرة حينئذٍ الوزير أبو عامر ابن الحمارة ، ولم يكن أعدّ شيئاً ، فأفكر قليلاً ثم قال :

يا واحدَ الناسِ قد شيّدتَ واحدةً فحلّ فيها محلّ الشمسِ في الحملِ
فَمَا كَدَارِكَ في الدُّنيا لذي أَمَلٍ ولا كَدَارِكَ في الأخرى لذي عملِ

وفيهما^٢ يقول ابن بقيّ في موشحته الشهيرة التي آخرها^٣ :

إن جئتَ أرضَ سَلا تلقاكَ بالمكارمِ فتِيانُ^٤
همُ سطورُ العُـسلا ويوسفُ بن القاسمِ عنوان

٤٩٤ - وكان محمد بن عبادة بالمرية ، ومعه ابن القابلة السبتي ، فنظر إلى غلام وسيم يسبح ، وقد تعلق بمركب ، فقال ابن عبادة^٥ :

انظر إلى البدرِ الذي لاح لك^٥

فقال ابن القابلة :

في وَسَطِ اللجّةِ تحتِ الحلكِ^٥

قد جعل الماء مكان السما واتخذ الفلّك مكان الفلّك^٥

١ أبو العباس ابن القاسم من بني عشرة أعيان سلا وقد مدحهم كثيرون من شعراء الأندلس والمغرب ومن مداحهم الأعشى التطيلي وابن بقي .

٢ يريد بني عشرة .

٣ انظر هذه الموشحة في ديوان التطيلي : ٢٧٢ .

٤ م : فيدان .

٥ انظر ما تقدم ج ٣ : ٦١٠ .

٤٩٥ - وقال ابن خروف ، ويروى لغيره ^١ :

أيتها النفسُ إليه اذهبي فحبهُ المشهورُ من مذهبي
مفصَّضُ الثغرِ له شامةٌ مسكيةٌ في خدّه المذهبِ
أيأسني التوبةَ من حُبِّه طلوعهُ شمساً من المغربِ

٤٩٦ - واجتمع في بستان واحد ثلاثة من شعراء الأندلس ، وهم : ابن خفاجة ، وابن عائشة ، وابن الزقاق ، فقال ابن خفاجة يصف الحال هنالك ^٢ :

لله نوريةُ المحيّا تحملُ ناريةَ الحميّا
دُرنا بها تحتَ ظلِّ دَوْحٍ قد راق مرأى وطابَ ريتا
تجسّمَ النورُ فيه نوراً فكلُّ غصنٍ به ثريّا

وقال ابن عائشة ^٣ :

ودوحةٌ قد علتُ سماءَ تطلُعُ أزهارها نجوما
هفا نسيمُ الصِّبا علينا فخلتها أرسلتُ رجوما
كأما الأفقُ غار لما بدتْ فأغرى بها النسيما

وقال ابن الزقاق ^٤ :

ورياضٍ من الشقائقِ أضحتْ يتهدى بها نسيمُ الرياحِ
زرتها والغمامُ يجلدُ منها زهراتٍ تفوقُ لونَ الراحِ

١ نسبها ابن سعيد (في القم الخاص بصقلية) لأبي القاسم ابن طلحة الصقلي وكان في دولة منصور

بني عبد المؤمن .

٢ ديوان ابن خفاجة : ٧٢ .

٣ المغرب ٢ : ٣١٤ .

٤ ديوانه : ١٢٥ وقد مرت الأبيات ج ٣ : ٢٠٠ ، ٣٥٦ .

قلتُ ما ذنبها فقال مجيباً سرقتُ حمرةَ الحدودِ الملاحِ

٤٩٧ - وقال الأديب أبو الحسن ابن زنون : وقع بيدي وأنا أسير بقيجاطة^١
- أعادها الله تعالى دار إسلام - كتابُ ترجمته « كتاب التحف والطرف » لابن
عفيون فوجدت فيه : قال الحسين بن الضحاك^٢ :

ما كان أحوجني يوماً إلى رجلٍ في وسطه ألفُ دينارٍ على فرسٍ
في كفه حربةٌ يقري الدروعَ بها وصارمٌ مرهفٌ الحدين كالقبسِ
فلو رجعتُ ولم أظفرُ بمهجتهِ وقد خضبتُ ذبابَ الصارمِ الشكسِ
فلا اغتبطتُ بعيشٍ وابتليتُ بما يحولُ بيني وبين الشادنِ الأنسِ

ووقف على هذه القطعة أبو نواس فقال :

ما كان أحوجني يوماً إلى خنثٍ حلوا الشمائل في باقٍ من الغلسِ
في كفه قهوةٌ يسي^٣ النفوسَ بها محكمٌ الطرفِ للألبابِ مختلسِ
فلو رجعتُ ولم أظفرُ بتكتهِ وقد رويتُ من الصهباءِ كالقبسِ
فلا هنتُ بعيشٍ وابتليتُ بما يكونُ منه صدودُ الشادنِ الأنسِ
هذا ألدُّ وأشهى من منى رجلٍ في وسطه ألفُ دينارٍ على فرسِ

ووقف على ذلك الوزير أبو عامر ابن يتق فقال :

ما كان أحوجني يوماً إلى رجلٍ يرددُ الذكرَ في باقٍ من الغلسِ
في حلقه غنّةٌ يشفي النفوسَ بها وفي الحشا زفرةٌ مشبوبةُ القبسِ
فلو رجعتُ ولم أوتر تلاته ولم أوتر تلاته على سماعِ غناءِ الشادنِ الأنسِ

١ تعد قيجاطة من أعمال جيان ، وكانت مدينة نزهة في نهاية من الحصب .

٢ لم ترد في ديوانه ، جمع الأستاذ عبد الستار فراج .

٣ ق : يثني .

فلا حمدت إذن نفسي ولا اعتمدتُ
بي النجائبُ قصدَ البيتِ والقدسِ^١
ولا أسلتُ بقبرِ المصطفى مُقللاً^٢
تبكي عليه بهامي الدمعِ منبجسِ

فوقفت على ذلك - يقول ابن زنون - فقلت : وكلُّ ينفق ممّا عنده ، ومن
عجائب الله أنه عند فراغي من كتّيب هذه القطعة وصل الفكاك إليّ ، وحل قيودي
وأخرجني إلى بلاد المسلمين ، وهي :

ما كان أحوجني يوماً إلى رجلٍ
يفكُّ قيدي وغلّي غير مرتقبٍ
وقوله لي تأنيساً وتسليّةً^١
فلو جبّنتُ ولم أقبلْ مقاتلتهُ
إذن خلعتُ لباسَ المجدِ من عنقي
وأخلفتني أمانيّ التي طمّحتُ^٢
يأتي فينبهني في فحمةِ الغلسِ
ولا مبالٍ^٢ من الحجابِ والحرسِ
هذا سلاحيّ فالبسهُ وذا فرسي
وأمتطي الطّرفَ وثباً فعل مفترسِ
وصار حظيّ منه حظّاً مختلسِ
نفسيّ إليها وإحساني لكلِّ مُسي

٤٩٨ - وقال أبو بكر ابن حبيش ، وقد زاره بعضُ أودائه في يوم عيد فطر :

أكلُّ ذَا الإجمالِ في ذَا الجمالِ^١
يا مالكا بالبرِّ رقيّ أما
سرتَ إلى ربّعي زوراً كما
العيدُ لي وحدي بين الوري
صومي مقبولٌ وبرهانهُ^٢
الله أستحفظُ ذاكَ الكمالِ^١
يكفيك أن تملكني بالوصالِ^٢
سرى إلى المهجورِ طيفُ الخيالِ^١
حقاً لأنّي قد رأيتُ الهلالِ^٢
أنّي أدخلتُ جنانَ الوصالِ^١

٤٩٩ - وقال أبو بكر ابن يوسف اللخمي ، وقد عادته في شكايه فتى وسيم

من الأعيان كان والده خطيب البلد :

١ ق ب : في القدس ؛ وأثبتنا رواية م .
٢ ب : ولا يبالي ؛ والبيت متأخر عن تاليه في م .

يا عائدي وهو أصل ما بي أفديك من ممرض طيب
أصميت لما رميت قلبي بسهم الحاظك المصيب
وجتني منكرًا لسقمي وتلك من عادة الحبيب
يا ساعة قد غفرتُ فيها ما كان للدهر من ذنوب
ما كان في فضلها مقال لو لم تكن جلسة الخطيب

٥٠٠ - وخاطب أبو زيد ابن أبي العافية أبا عبد الله ابن العطار القرطبي بقصيدة منها هذا البيت :

وكيف يُفِيقُ ذو صبرٍ قصيرٍ حليفٌ وساوسٍ حُولٍ طوالٍ

يعرّض له بطوله وحوله ، ولصاحبه أبي محمد ابن بلال بقصره ، فراجعه أبو عبد الله المذكور بهذه الأبيات يعرّض له فيها بجرّبه ، وكان أبو زيد أصابه جرّبٌ كثير :

أجلُ يا نافثَ السحرِ الحلالِ أتاني منك نظمٌ كاللآلي
يروكّ أولاً لفظاً ومعنى ويلدغُ آخرأ لدغِ الصلّالِ
تعرّضُ فيه أنك ذو مطال حليفٌ وساوسٍ حُولٍ طوالِ
كأنك لم تجرّبُ قطُ خلقاً ولم تعرف بتجربة الليالي
أنسيتَ التجاربَ إذ تجاري بهنّ الحرياء مع الشمالِ
فلا تغفل عن التجريب يوماً ولو أعطيت فيه جراب مالِ
وجرّب جار بيتك واختبره وجرّ برجله إن كان قالي
وجارُ بنيك لا تستحي منه ومن نجّار بابك لا تبالِ
وأجرِ ببالك الحرباء تبصرُ نجوم الأفق تجري بانتقالِ
وجرّب أهل جربة تلف قوماً أبوا لبس الجوارب والتعالِ
تجاراً باعةً تجرّوا بزيتٍ تسموا بالتجارِ بغير مالِ

إذا سمعوا بتمرٍ في جريبٍ جَرَوْا ببطاء ذي التمر^١ البوالي
إذا جَرَبْتَ هذا الخَلْقَ أبدى لك التجريبُ أجْرِبَةً خوالي
جرى بالنُّجْحِ دهرًا جرَّ بؤساً عليكَ وجار بالنُّوبِ الثقالِ

٥٠١ - وخرج ثلاثة أدباء لنزهة خارج مرسية ، وصلّوا خلف إمام بمسجد
قرية ، فأخطأ في قراءته ، وسها في صلاته ، فلما خرج أحدهم كتب على حائط
المسجد :

يا خَجَلْتِي لصلاةٍ صَلَّيْتُهَا خَلْفَ خَلْفٍ^٢
فلما خرج الثاني كتب تحته :

أَغْضُ عَنْهَا حَيَاةً من المهيمِنِ طَرْفِي
فلما خرج الثالث كتب تحته :

فليسَ تُقْبَلُ مِنَّا لو أنها ألفُ ألفِ

٥٠٢ - وقال أبو إسحاق ابن خفيف الأندلسي^٣ في أحدب أخذ مع صبي
في خلوة فضرّبا ، وطيفَ بهما ، والأحدب على عنق الصبي :

رَأَيْتُ الْيَوْمَ مَحْمُولًا وَأَعْجِبُ مِنْهُ مَنْ حَمَلَهُ
جِمالُ الناسِ تحملهم وهذا حاملُ جَمَلِهِ

٥٠٣ - وقال أبو الصلت الأندلسي^٤ :

١ ب : ابطاء للتمر ؛ م : ببطانة التمر .

٢ الخلف : المتخلف الذي لا خير فيه .

٣ الأندلسي : زيادة من م .

٤ مر البيتان ج ٣ : ٣٥٦ وزاد بعدهما في م : وقوله أيضاً فيما قرب من هذه :

وقائلة ما لي أراك مجانباً أموراً وفيها للتجارة مريع

فقلت لها ما لي برجعك حاجة ونحن أناس بالسلامة نفرح

وقائلة ما بالٌ مثلكَ خاملاً
فقلتُ لها ذنبي إلى القومِ أنتي
أأنتَ ضعيفُ الرأي أم أنتَ عاجزُ
لما لم يجوزوه من المعجِدِ حائزُ

٥٠٤ - وكتب بعض المغاربة لأبي العباس ابن مضاء يذكره بحاله :

يا غارساً لي ثمارِ مجدٍ سقيتها العذبَ من زلالكُ
أخافُ مِن زهرِها سقوياً إن لم يتكُنْ سقِيها ببالكُ

٥٠٥ - وكتب الكاتب أبو عبد الله القرطبي مستنجزاً وعداً :

أبا عبد الإله وعدتَ وعداً فأجزُ تريحِ الشكرَ الحزيبلا
ولا تاملُ فإنَّ المَطلَ يمحو من الإحسانِ رونقهُ الصقبلا
إذا كانَ الحميلُ يُحبُّ طبعا فإني أكره الصبرَ الحميلا

٥٠٦ - وكتب ابن هذيل الفزاري للغني بالله سلطان لسان الدين بن الخطيب :

ليسَ يا مولايَ لي من جابرٍ إذ غدا قلبي من البلى جُذاذا
غيرَ صلكِ أحمرٍ تكتبُ لي فيه يمينكُ اعتناء : صحَّ هذا

٥٠٧ - وقال أبو الحسن ابن الزقاق في غلام يهودي كان يجلس معه ويناديه
يوم سبت^١ :

وحبَّبتَ يومَ السبتِ عندي أنتي ينادمني فيه الذي أنا أحببتُ
ومن أعجب الأشياءِ أنتي مسلمٌ حنيفٌ، ولكن خيرُ أيامي السبتُ

٥٠٨ - وقال أبو حيان^٢ :

ويعجبني رشفُ تلكَ الشفاهِ وعضُ الخدودِ وهصرُ القوامِ

١ ديوان ابن الزقاق : ١١٣ .

٢ زاد في م : النحوي في الأوصاف .

محاسنُ فاتتْ قضيبَ الأراكِ ووردَ الرياضِ وكأسَ المدامِ

٥٠٩ - وكتب أحد الأدباء بمُرْسِيَةٍ إلى فتى وسيم من أعيانها كان يلازم حانوت بعض القضاة بها للتفقه عليه ، بأبيات في غرض ، فراجعه عنه أبو العباس ابن سعيد بقوله :

ما للمحبِّ لديٍّ غير صبايةٍ تقضي عليه ولتوعةٍ وغرامِ
فدع الطماعةَ واسترحْ باليأسِ من وصلٍ عليك إلى المماتِ حرامِ

٥١٠ - وقال السمسِرُ ١ :

قربانةُ السوءِ شرٌّ داؤً فاحملْ أذاهمْ تعشْ حميدا
ومن تكنْ قُرْحَةً بفيهِ يصبرْ على مصهِّ الصديدا

٥١١ - وقال ابن خفاجة ٢ :

إنَّ للجنَّةِ بالأندلسِ مجتلى عين وريّا نفسِ
فستنا صبُحَّتْها من شنبِ ودُجى ليلتها من لعسِ
فإذا ما هبَّتْ الريحُ صباً صِحتْ واشوقى إلى الأندلسِ

٥١٢ - وقال بعض الأندلسيين ممن لم يحضرني اسمه الآن :

إذا صال ذو ودٍ بودّ صديقه فيا أيها الخلُّ المصاحبُ لي صلُّ بي
فإتني مثلُ الماءِ ليناً لصاحبي وناهيك للأعداءِ من رَجُلٍ صلِّبِ

٥١٣ - وقال أبو يحيى ابن هشام القرطبي :

وخائِطٍ رائعٍ جمالاً وصاله غايةٌ اقتراحي

١ زاد في م : الشاعر ، في قرباء السوء .

٢ ديوان ابن خفاجة : ١٣٦ وزاد في م : السابق ذكره أولا .

تنعمُ منه الخيوطُ فتلاً
 تراه في السلمِ ذا طعانٍ
 حلقتهُ أشبهتُ فؤادي
 لكثرةِ الوخرِ^١ في النواحي
 تُقَطِّعُ الثوبَ راحتاه
 كصنعِ الحَاطِظِ الملاحِ
 فقبله ما رأيتُ بديراً
 ممزقاً بُردةَ الصباحِ

٥١٤ - وقال أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البلنسي^٢ :

غصبتُ الثرياً في البعادِ مكانها
 وأودعتُ في عينيَّ صادقَ نوئها
 وفي كلِّ حالٍ لم تترالي بخيلةً
 فكيف أعرتِ الشمسَ حُلَّةَ ضوئها

قال ابن الأثير: أنشد مؤلف «قلائد العقيان» هذين البيتين لأبي جعفر
 النبي اليعمري، وأحدهما غلط من قبل اشتباه نسبهما، والفرقة بينهما مستوفاة في
 تأليفي المسمى بـ «هداية المعتسف في المؤلف والمختلف» انتهى.

وأبو جعفر ابن عبد الولي المذكور أحرقة القنيطور - لعنه الله تعالى - حين
 تغلبه بالروم على بلنسية. قال ابن الأثير: وذلك في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة،
 وقيل: إن إحراقه كان سنة تسعين وأربعمائة، انتهى.

٥١٥ - وقال أبو العباس القيجاطي فيما أنشده له ابن الطيلسان^٣ :

ليسَ الخمولُ بعارٍ على امرئٍ ذي جلالٍ
 فليلهُ القدرِ تخفَى وتلك خيرُ الليالي

١ ب : الوجد .

٢ التكملة : ٢٤ ؛ وفي م : وكتب أبو جعفر ابن عبد المولى إلى أحمد البلنسي ؛ وانظر ج ٣ : ٤٨٧ .

٣ التكملة : ٤٦ .

٥١٦ - وقال أبو محمد ابن جحاف المَعافري البِلَسْنسي^١ :

أقولُ وقد خوَّفوني القِرانَ وما هو من شرِّهِ كائنُ
ذنوبي أخافُ وأما القِرانُ فإِنِّي مِن شرِّهِ آمِنُ

وأبوه أبو أحمد هو المحرِّق ببلنسية كما ذكرناه في غير هذا الموضع .

٥١٧ - وقال أبو العباس المالقي^٢ :

وبينَ ضلوعي للصبابةِ لوعةٌ بحكمِ الهوى تقضي عليَّ ولا أقضي
جنى ناظري منها على القلبِ ما جنى فيا مَنْ رأى بعضاً يُعِينُ على بعضِ

٥١٨ - ودخل أبو القاسم ابن عبد المنعم ، وكان أزرق وسيماً ، ومعه أبو
عبد الله الشاطبي وأبو عثمان سعيد بن قوشرة ، على صاحب كتاب « مشاهد
الأفكار في مآخذ النُّظَّار » فقال ابن قوشرة :

عابوهُ بالزَّرَقِ الذي بِجفونهِ والماءُ أزرقُ والسِّنَّانُ كذلكا

فقال الشاطبي :

والماءُ يُهدِي للنفوسِ حياتها والرمحُ يشرعُ للمنون مسالكا

فقال أبو بكر ابن طاهر صاحب كتاب « المشاهد » :

وكذاك في أجفانه سببُ الردى لكنْ أرى طيبَ الحياة هنالكا

وهذا من بارع الإجازة ، وكَمَ لأهل الأندلس من مثل هذا الديباج
الحُسْرُواني ، رحمهم الله تعالى وسامحهم .

١ التكملة : ٥٦ .

٢ التكملة : ٦٩ .

٥١٩ - وكتب الشيخ الإمام العالم العلامة أبو عبد الله محمد بن الصائغ الأندلسي النحوي عند قول الحريري^١ «أما أن يُعززا بثالث» ما نصّه : قد جيء لهما بثالث ورابع في قافيتهما ، وهو قول بعض الفضلاء :

ما الأمةُ اللّكعَاءُ بينَ الوري كسَلِمِ حُرِّ أتي مَلَأَمَه
فَمَهْ إذا استَجِدَيْتَ من قولٍ لا فالحرُّ لا يملأُ منها فَمَه
ثم قال : وبخامس وسادس :

انقَدَّ مَهْوَى أزرِهِ فأنثي مَهْ يا عذولي في الذي انقَدَمَه
مَنَدَمَه قتلُ المعنى فلا تُرْسِلْ سهامَ اللحظ تَأْمَنُ دَمَه

قلت : رأيت في المغرب^٢ في هذا المعنى ما ينيف على سبعين بيتاً كلّها مُسَاجِلَةٌ لبيتي الحريري ، رحمه الله تعالى^٣ .

٥٢٠ - وقال أبو بكر عبادة الشاعر في أبي بكر والد الوزير أبي الوليد ابن زيدون :

أي ركنٍ من الرياسةِ هِيضاً وجمُومٍ من المكارمِ غِيضاً
حملوه من بلدةٍ نحو أخرى كي يوافقوا به ثراهُ الأريضا
مثل حملِ السحابِ ماءً طيبياً لتداوي به مكاناً مريضاً

وكان المذكور توفي في ضيعة له ، ونُقل تابوته إلى قَرْطُبَةَ فدفن في الرَّبَضِ سنة ٤٠٥ ، وولد سنة ٣٠٤ .

٥٢١ - وقال أبو بكر ابن قزمان صاحب الموشحات^٤ :

١ ق : قول بيتي الحريري .
٢ أكبر الظن أنه يعني هنا بلاد المغرب لا كتاب المغرب .
٣ انظر الذيل والتكملة ٤ : ٤٩ - ٥٣ حيث أورد نماذج من هذه المساجلة لبيتي الحريري .
٤ الأصح أن يقول : صاحب الأزجال .

وعهدي بالشبابِ وحُسنِ قَدَيِ حكي أَلِفَ ابنِ مُقَلَّةِ في الكتابِ
فصرتُ اليومَ منحنياً كأنِّي أفتشُ في الترابِ على شبابي

وقال^١ :

يا ربَّ يومٍ زارني فيه مَنْ
ذو شَفَةِ لَمِيَاءِ معسولةٍ
قلتُ له هَبْ لي بها قَبْلَةً
فدقتُ شيئاً لم أذقْ مثلهُ
أطلع من غُرَّتِه كوكبا
يشعُ من خَدَّيهِ ماءُ الصبا
فقال لي مبتسماً مَرَحَبَا
لله ما أحلى وما أعذبا
يا سعدني الله بإسعادهِ
يا شقوتي يا شقوتي لو أبى

قال لسان الدين : كان ابن قزمان نسيجَ وَحْدِه أدبياً وظهرَ فاعلاً ولو ذاعية وشهرة ، قال ابن عبد الملك : كان أديباً بارعاً ، حلو الكلام ، مليح التندير ، مبرزاً في نظم الزجل^٢ ، قال لسان الدين : وهذه الطريقة الزجلية بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع ، وتنفسح لكثير مما يضيِّق على الشاعر سلوكه ، وبلغ فيها أبو بكر ، رحمه الله تعالى ، مبلغاً حَجَرَه الله عن سواه ، فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وفارسها المُعَلِّم ، والمبتدئ فيها والمتمم .

وقال الفتح في حقه^٣ : مبرز في البيان ، ومُحَرِّزٌ للسَّبْقِ عند تسابق الأعيان ، اشتمل عليه المتوكِّل على الله فرقاؤه^٤ إلى مجالس ، وكساه ملابس ، فامتطى أسنى الرتب وتبوأها ، ونال أسنى الخطط^٥ وما تمَّ لأها ، وقد أثبت

١ م : وقال المذكور أيضاً في زيارة الحبيب .

٢ قال لسان . . . الزجل : سقطت هذه العبارة من ق .

٣ القلائد : ١٨٧ .

٤ القلائد : الحصل .

٥ القلائد : اشتمالا أرقاه إلى . . .

٦ القلائد : المخطوط .

له ما يُعلم به رفيع قدره^١ ، ويُعرف كيف أساء له الزمان بغدْره ، كقوله :
 ركبوا السيولَ من الخيولِ وركبوا فوقَ العوالي السُّمُرِ زُرُقَ نطافِ
 وتجلَّلوا الغدرانَ من ماذِيهِمْ مرتجَّةً إلا على الأكتافِ^٢
 والمأذي : العسل ، والنطاف : جمع النطفة ، وهي الماء الصافي قل أو كثر .

٥٢٢ - [نقول من المطمح]

١ - وقال الفقيه أبو بكر ابن القوطية صاحب « الأفعال » في اللغة
 والغريب ، في زمن الربيع^٣ :

ضحك الثرى وبدا لك استبشاره^٤ فاخضرَ شاربُه وطَرَ عِذارُه
 ورنَتْ حدائقُه وزرَرَ نبتُه^٥ وتعطرتْ أنواره^٦ وثمارُه
 واهتزَّ ذابيلُ كلِّ ماءٍ قرارة^٧ لما أتى متطلعاً آذارُه
 وتعمَّمتْ صلُعُ الرُّبى بنباته وترنمتْ من عُجْمَةِ أطيارُه

وقال في المطمح في حق ابن القوطية المذكور^٦ : إنّه ممّن له سلَف ، وثنية^٧
 كلّها شَرَف ، وهو أحد المجتهدين في الطلب ، والمشتهرين بالعلم والأدب ،
 والمنتدبين للعلم والتصنيف ، والمرتبّين له بحسن الترتيب والتأليف ، وكان له
 شعر نبيه ، وأكثره أوصاف وتشبيه ، انتهى .

٢ - وقال القاضي الأجلُّ يونس بن عبد الله بن مغيث^٧ :

١ القلائد : ما تعلم به حقيقة قدره .

٢ ب : الأعطاف .

٣ المطمح : ٥٩ والبديع : ٢٠ .

٤ المطمح : ودنت ... وآزر ... ؛ البديع : وربت ... وآزر ... وتفطرت .

٥ البديع : كل نبت .

٦ المطمح : ٥٨ .

٧ المطمح : ٥٩ .

أتوا حسبةً إذ قيل جدّ نُحوله فلم يبقَ من لحمٍ عليه ولا عظمٍ
 فعادوا قميصاً في فراشٍ فلم يروا^١ ولا لمسوا شيئاً يدلُّ على جسمٍ
 طواه الهوى في ثوبٍ سقمٍ من الضنى وليس بمحسوسٍ بعينٍ ولا وهمٍ

وقال في المطمح فيه : إنّه قاضي الجماعة بقرطبة ، فاضل ورع مبرز في
 النسّاك والزهاد ، دائم الأرق في التخشع والسُّهاد ، مع التحقق بالعلم والتمييز
 بحمله^٢ ، والتحيز إلى فئة الورع وأهله ، وله تآليف في التصوّف والزهد^٣ ، منها
 كتاب « المنقطعين إلى الله » وكتاب « المجتهدين » وأشعار في هذا المعنى ، منها
 قوله :

فرتُ لِيك من ظلمي لنفسي وأوحشني العبادُ وأنت أنسي
 قصدتُ لِيكَ منقطعاً غريباً لتؤنسَ وُحْدتي في قعرٍ رمسي
 وللعُظمى من الحاجاتِ عندي قصدتُ وأنتَ تعلمُ سرَّ نفسي

ولما أراد المستنصر بالله غزو الروم تقدم إلى أبي محمد والده بالكون في
 صحبته ، ومسايرته في غزواته ، فاعتذر بعذر يجده ، وألم لا ينجده ، فقال له
 الحكم : إن ضمن لي أن يؤلف في أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب
 الصولي في أشعار خلفاء بني العباس أعفيتها من الغزاة ، وجازيته أفضل المُجازاة ،
 فأجابته إليه على أن يؤلفه بالقصّر ، فزعم أنه رجل مزور ، وأن ذلك الموضع
 ممتنع على من يُلمُّ به ويزور ، فألّفه بدار الملك المطلّة على النهر ، وأكمله فيما
 دون شهر ، وتوفي والمستنصر بعدُ في غزاته^٤ .

١ م ق ب : فلم يجد .

٢ المطمح : والتمييز بفضله .

٣ المطمح : وله تصانيف في الزهد والتصوف .

٤ في الأصول : وتوفي المستنصر إذ ذاك ؛ وهو خطأ واضح لأن المستنصر توفي سنة ٣٦٦ ؛ وفي

المطمح : وتوفي بعد المستنصر في غزاته .

3 - وقال ابن سيده صاحب « المحكم » يخاطب إقبال الدولة :

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى سبيل^١ فإن الأمن في ذلك واليمننا

قال في المطمح^١ : الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن سيده إمام في اللغة والعربية ، وهمام في الفقه الأدبية ، وله في ذلك أوضاع ، لأفهام أخلافها استدرار واسترضاع ، حررها تحريراً ، وأعاد طرف الذكاء بها قديراً ، وكان منقطعاً إلى الموفق صاحب دانيّة ، وبها أدرك أمانيه ، ووجد تجرده للعلم وفراغه ، وتفرد بتلك الإراغة ، ولا سيما كتابه المسمى بالمحكم ، فإنه أبدع كتاب^٢ وأحكم ، ولما مات الموفق راثش جناحه ، ومثبت غرره وأوضاحه ، خاف من ابنه إقبال الدولة ، وأطاف به مكروهاً^٣ بعض من كان حوله ، إذ أهل الطلب كحيات مساورة ، ففر إلى بعض الأعمال المجاورة ، وكتب إليه منها مستعظماً :

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى
فتنضى هموم^١ طلّحته خطوبها
غريب^٢ نأى أهله عنه^٣ وشقّه
فيا ملك^٤ الأملاك^٥ إتي^٦ محلأ^٧
تحققت^٨ مكروهاً^٩ فأقبلت^{١٠} شاكياً
وإن تتأكد^{١١} في دمي لك نية^{١٢}
إذا ما غدا من حرّ سيفك بارداً
وهل هي^{١٣} إلا ساعة^{١٤} ثم^{١٥} بعدها

سبيل^١ فإن الأمن في ذلك واليمننا
ولا غارباً^٢ يبّقين^٣ منه ولا متنا
هواهم^٤ فأمسى لا يقر^٥ ولا يهنا
عن الورد^٦ لا عنه^٧ أذاد^٨ ولا أدنى
لعمري^٩ أمأذون^{١٠} لعبدك أن يعنى
فإتي^{١١} سيف^{١٢} لا أحب^{١٣} له جفنا
فقدماً^{١٤} غدا من برد^{١٥} نعماكم^{١٦} سخنا
ستقرع^{١٧} ما عمّرت^{١٨} من ندم^{١٩} سننا

١ المطمح : ٦٠ .

٢ المطمح : كتاب في اللغة ؛ م : في فنه .

٣ المطمح : مكروه .

وما لي من دهري حياة ألدّها فتجعلها نُعمى عليّ وتمتتا
إذا ميتة أَرْضتكَ عَنّا فهاتها حبيبٌ إلينا ما رَضيتَ به عَنّا

4 - وقال الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد الأندلسي المخزومي المالقي^١ :

صَبْرُ فؤادِكَ للمحبوبِ منزلةٌ سَمُّ الخياطِ مجالٌ للمحبِّينِ
ولا تسامحُ بغيضاً في معاشرَةٍ فقلّما تسعُ الدنيا بغيضينِ

وله :

الصبرُ أولى بوقارِ الفتي من قلّتي يهتكُ سترَ الوقارِ
مَنْ لزمَ الصبرَ على حالةٍ كانَ على أيامِهِ بالخيارِ

وقال في المطمح فيه : إنّه عالم مُتفَرِّس ، وفقه مُدَرِّس ، وأستاذ متجرّد^٢ ،
وإمام لأهل الأندلس مجود ، وأمّا الأدب فكان جُلّ شِرْعَتِهِ ، ورأس بغيته ،
مع فضل وحسن طريقة ، وجدّ في جميع الأمور وحقيقة ، انتهى .

5 - وقال المحدث الحافظ أبو عمر ابن عبد البر يوصي ابنه بمقصورة^٣ :

تَجافَ عن الدنيا وهونَ لقدرها ووفَّ سبيلَ الدين بالعروة الوثقى

١ المطمح : ٦٠ - ٦١ ؛ وفي م لم يرو هذين البيتين له وأورد بدلها قوله :

أهل الخرابة والفساد من الورى يعزون في التشبيه للذكار
مرآهم ذكراً إذا ما أبصروا فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار
لو عم فضل الله جملة خلقه ما كان أكثرهم من أهل النار

وقوله : الصبر أولى بوقار الفتي

والأولان وردا في ج ٣ : ٢٦٥ ، ٣٩٨ ، ٤٤٧ ، والتاليان وردا في ج ٣ : ٣٩٨ .

٢ المطمح : مجود .

٣ المطمح : ٦٢ ، وترجمة ابن عبد البر : ٦١ .

وسارعُ بتقوى الله سرّاً وجهرَةً
ولا تنسَ شكرَ الله في كلِّ نعمةٍ
فدعُ عنك ما لا حظَّ فيه لعاقلي
وشحَّ بأيّامٍ بقينَ قلائلي
ألم ترَ أنّ العمرَ يمضي مولياً
نخوضُ ونلهو غفلةً وجهالةً
تواصلنا فيهِ الحوادثُ بالردى
عجبتُ لنفسٍ تبصرُ الحقَّ بيّناً
وتسعى لما فيهِ عليها مضرّةٌ
ذنوبيَ أخشاهما ولستُ بآيس
وإن كانَ ربي غافراً ذنبَ من يشا

فلا ذمة أقوى هُديتَ من التقوى
يَمُنُّ بها فالشكرُ مستجلبُ النعمى
فإنَّ طريقَ الحقِّ أبلجُ لا يخفى
وعمرٌ قصيرٌ لا يدومُ ولا يبقى
فجدته تبلى ومدته تنفى
ونشرُ أعمالاً وأعمارنا تُطوى
وتتأبنا فيهِ النوائبُ بالبلوى
لديها وتأبى أن تفارقَ ما تهوى
وقد علمتُ أن سوف تجزى بما تسعى
وربِّي أهلٌ أن يُخافَ وأن يُرجى
فإنّي لا أدري أأكرمُ أم أخزى

وقال في المطمح^١ : الفقيه الإمام العالم الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، إمام الأندلس وعالمها ، الذي التاحت به معالمها ، صحح المتن والسند ، وميز المرسل من المسند ، وفرق بين الموصول والقاطع ، وكسا الملة منه نوراً ساطع ، حصر الرواة ، وأحصى الضعفاء منهم والثقات ، وجدّد في تصحيح السقيم ، وجدد منه ما كان كالكهف والرقيم ، مع معلّلات العلل ، وإرهاف ذلك العلل ، والتنبيه والتوقيف ، والإتقان والتثقيف ، وشرح المغفل ، واستلراك المغفل ، وله فنون هي للشريعة رتاج ، وفي مفرق الملة تاج ، أشهرت للحديث ظبي ، وفرعت لمعرفة ربّي ، وهبت لتفهّمه شمال^٢ وصبا ، وشفّت منه وصبا ، وكان ثقة ، والأنفس على تفضيله متفّقة ، وأما أدبه فلا تُعبّرُ

١ م : وقال في حقه .

٢ المطمح : شمالا .

لجته ، ولا تُدحض حُجته ، وله شعر لم نجد منه إلا ما نفث به أنفة ، وأقصى^١
فيه عن معرفة ، فمن ذلك قوله — وقد دخل إشبيلية فلم يلقَ فيها مبرة ، ولم يلقَ
من أهلها تهللَ أسيرةً ، فأقام بها حتى أخلقه مقامه ، وأطبقه اغتمامه ، فارتحل
وقال :

تتكَّرَ مَنْ كُنَّا نُسْرُ بِقَرْبِهِ وعاد زعافاً بَعْدَمَا كَانَ سَلْسَلَا
وَحَقَّ لِحَارِهِ لَمْ يُوَافِقْهُ جَارُهُ ولا لاءمتهُ الدارُ أَنْ يَتَحَوَّلَا
بُلَيْتٌ بِمَحْمَصٍ وَالْمَقَامُ بِبِلْدَةٍ طويلاً لِعَمْرِي مَخْلُقٌ يورث البلي
إِذَا هَانَ حُرٌّ عِنْدَ قَوْمٍ أَتَاهُمْ ولم يئأ عنهم كان أعمى وأجهلا
وَلَمْ تُضْرَبِ الْأَمْثَالُ إِلَّا لِعَالِمٍ وما عوتبَ الإنسانُ إِلَّا ليعقلا

6 — وقال الفقيه أبو بكر ابن أبي الدوس^٢ :

إِلَيْكَ أبا يَحْيَى مَدَدْتُ يَدَ الْمُنَى وقديماً غدتُ عن جود غيرك تُقبضُ
وَكَانَتْ كَنُورِ الْعَيْنِ يَلْمَعُ بِالِدَجِي فلماً دعاه الصبحُ لبَّاهُ يَنْهَضُ

وقال في المطمح : إنّه من أبدع الناس خطأً ، وأصحهم نقلاً^١ وضبطاً ،
اشتهر بالإقراء ، واقتصر بذلك على الأمراء ، ولم ينحطّ لسواهم ، ومطلّ
الناسَ بذلك ولتواهم ، وكان كثير التحوّل ، عظيم التحوّل ، لا يستقر في بلد ،
ولا يستظهر على حرمانه بجألد ، فقدفته النوى ، وطرده عن كل ثوا ، ثم
استقر آخر عمره بأغبات ، وبها مات ، وكان له شعر بديع يصونه أبداً ، ولا
يمدّ به يداً . أخبرني مَنْ^٣ دخل عليه بالمريّة فرآه في غاية الإملاق ، وهو في
ثياب أخلاق ، وقد توارى في منزله توارى المذنب ، وقعد عن الناس قعود

١ المطمح : وأوصى .

٢ المطمح : ٦٤ ؛ وفي ق : ابن الدوس ، وانظر ترجمته في المطمح : ٦٣ .

٣ م : أخبرني من أثق به أنه .

مجتنب ، فلماً علم ما هو فيه ، وترفعه عن بجتديه ، عاتبه في ذلك الاعتزال ،
 وأخذَه حتى استنزله بفيض الاستنزال ، وقال له : هلا كتبت إلى المعتصم ،
 فما في ذلك ما يصم ، فكتب إليه : إليك أبا يحيى مددت يد المني - البيتين ،
 انتهى .

7 - وقال الفقيه القاضي الفاضل أبو الفضل ابن الأعلم ، حين ألق وأتاب ،
 وودع ذلك الجناب ، وتزهد وتنسك ، وتمسك من طاعة الله بما تمسك ، وتذكر
 يوماً يتجرد من أمله ، وينفرد فيه بعمله :

الموتُ يشغلُ ذكرهُ	عن كلِّ معلومٍ سواه
فاعمرْ له ربَّع ادِّكا	ركَ في العشيَّةِ والغداةِ
واكحلْ به طَرْفَ اعتبا	ركَ طولَ أيامِ الحياةِ
قبلَ ارتكاضِ النفسِ ما	بين الترائبِ واللِّهاهِ
فيقالُ هذا جعفرُ	رهنُ بما كسبتْ يداهُ
عصفتْ به ریحُ المنو	ن فصيرتُهُ كما تراه
فضعُّوه في أكفانِهِ	ودعُوهُ يجني ما جناهُ
وتمتعُّوا بمتاع	ه المخزونِ واحوُّوا ما حواه
يا منظرأُ مستبشعأ	بلغ الكتابُ به مداه
لُقِّيتُ فيه بشارةٌ	تشفي فؤادي من جواه
ولقيتُ بعدك خيرَ مَنْ	نَبَّاهِ ربِّي واجتباهُ
في دارِ خَفْضٍ ما اشتهدتْ	نفسُ المقيمِ بها أتاه

وقال في المطمح : إنّه كهلُ الطريقة ، وقتي الحقيقة ، تدرع الصيانة ،

وبرع في الورع والديانة ، وتماسك عن الدنيا عَفَافاً ، وما تماسك^١ التماساً بأهلها
 والتفافاً ، فاعتقل النهي ، وتنقل في مراتبها حتى استقر فيها في السُّها ، وعطل
 أيام الشباب ، ومطل فيها سعاد وزينب والرباب ، إلا ساعات وقَّعها على المدام ،
 وعطفها إلى الندام ، حتى تخلت عن ذلك واترك ، وأدرك من المعلومات ما
 أدرك ، وتعري من الشبهات ، وسرى إلى الرشد مستيقظاً من تلك السَّنات ،
 وله تصرف في شتى الفنون ، وتقدم في معرفة المفروض والمسنون ، وأما
 الأدب فلم يُجاره في ميّدانه أحد ، ولا استولى على إحسانه فيه حصّر ولا حدّ ،
 وجدّه أبو الحجاج الأعم هو خلكد منه ما خلّد ، ومنه تقلّد ما تقلّد ، وقد
 أثبت لأبي الفضل هذا ما يسقيك ماء الإحسان زُلالاً^٢ ، ويريك سحرَ البيان حلالاً ،
 فمن ذلك ما كتب به إليّ ، وقد مررتُ على شنت مرية بعدما رحل عنها وانتقل ،
 واعتقل من نوانا^٢ وبسّينا ما اعتقل ، وشنت مرية هذه داره ، وبها كمل هلاله
 وإبداره ، وفيها استقضي ، وشيم مضاهه وانتضي ، فالتقينا بها على ظهر ،
 وتعاطينا ذكر ذلك الدهر ، فجددتُ من شوقه ، ما كان قد شبَّ عن طوقه ،
 فرامني على الإقامة ، وسامني على ذلك بكل كرامة ، فأبيت إلا النوى ، وانثنت
 عن الثوا ، فودّعني ، ودفع إلي تلك القطعة حين شيعني :

بشراي أطلعتِ السعودُ على	آفاقِ أنسي بَدَرها كَبَلَا
وكسا أديمَ الأرضِ منه سَنًا	فكستُ بسائطها به حُلَلَا
إيه أبا نصرٍ ، وكمَ زمنٍ	قصر ادكارُكَ عندي الأملَا
هل تذكُرَنَ والعهدُ ينجَلني	هل تذكُرَنَ أيامنا الأولَا
أيامَ نعرُ في أعنتنا	ونجرُ من أبرادنا خيَلَا
ونخلُ روضِ الأنسِ مؤتَنفًا	ونخلُ شمسٍ مرادنا الحملَا

١ المطح : وما تمالك .

٢ ب : ثوانا .

ونرى ليالينا مساعفةً تدعو إلينا رفقنا الحفلي
زمنٌ نقول على تذكره ما تم حتى قيلَ قد رحلاً
عرضت لزورتكم وما عرضت إلا لتمحقَ كلَّ ما فعلاً

ووافيته عشيةً من العشايا أيام ائتلافنا ، وعودنا إلى مجلس الطلب واختلافنا ،
فرايته مستشرفاً متطلعاً ، يرتاد موضعاً يقيم به لثغور الأنس مرتشفاً ولثديه
مرتضعاً ، فحين مقلي^١ ، تقلدني إليه واعتقلي ، وملنا إلى روضة قد سندس
الربيعُ في بساطها ، ودبَّج الزهر درآنك أوساطها ، وأشعرت النفوسَ فيها
بسرورها وانبساطها ، فأقمنا بها نتعاطى كؤوس أخبار ، ونتهادى أحاديثَ
جهايزة وأخبار ، إلى أن نثر زعفران العشي ، وأذهب الأنس خوف العالم
الوحشي ، فقامت وقام ، وعودُ الربيع من ألسنتنا ما كان استقام ، وقال :

وعشيّة كالسيفِ إلاَّ حدّه بسَطَ الربيعُ بها لتعلي خدّه
عاطيتُ كأسَ الأنسِ فيها واحداً ما ضرّه أن كان جمعاً وحادّه

وتتزه يوماً بحديقة من حدائق الحضرة قد اطرد نهرها ، وتوقد زهرها ،
والريحُ يسقطه فينظم بلبّة الماء ، ويتبسم به فتخاله كصفحة خضرة السماء ،
فقال :

انظر إلى الأزهار كيف تطلعتُ بسماوة الروضِ المجدودِ نُجوماً
وتساقطتُ فكانَ مسترقاً دنا للسمع فانقضتُ عليه رُجوماً
وإلى مسيلِ الماءِ قد رقمتُ به صنعُ الرياحِ من الحبابِ رُقوماً
ترمي الرياحُ لها نثيراً زهره فتمدّه في شاطئيه رقيماً

وله يصف قلم يراعة ، وبرع في صفته أعظم براعة :

١ ب : رمقي .

ومهفهف ذليق صليب المكسر سبب لنيل المطلب المتعذر
 متألّق تنبيك صفرة لونه بقديم صحبته لآل الأصفر
 ما ضره أن كان كعب براعة وبحكمه اطردت كعوب السّمهري

وله عندما شارف الكهولة ، واستأنف قطع صرة كانت موصولة :

أما أنا فقد ارعويتُ عن الصبا وعرضتُ من ندمٍ عليه بناني
 فأطعتُ نَصَاحِي ورُبَّ نصيحةٍ جاءوا بها فلججتُ في العصيانِ
 أيامَ أسحبُ من ذيولِ شيبتي مَرَحاً وأعثرُ في فُضولِ عَناني
 وأجلُّ كَأسي أن تُرى موضوعةً فعلى يدي أو في يَدَي ندماني
 أيامَ أحيا بالغواني والغنا وأموتُ بينَ الراح والريحانِ
 في فتيةٍ فرضوا اتصالَ هواهُمُ فمناهمُ دنٌّ من الأذنانِ
 هزّتْ علاهمُ أريحياتُ الصبا فهي النسيمُ وهمُ غصونُ البانِ
 من كلِّ مخلوعِ الأعنةِ لم يُبسلْ في غيّهِ بمصارفِ الأزمانِ

إلى أن قال : ومن نثره يصف فرساً : انظر إليه سليم الأديم ، كريم
 القديم ، كأنما نشأ بين الغبراء واليحموم^١ ، نجم إذا بدا ، ووهم إذا عدا ،
 يستقبل بغزال ، ويستدبر برال ، ويتحلّى بشيات^٢ تقسيمات الجمال .

وله يصف سرجاً : بزة جياذ ، ومركب أجواد ، جميل الظاهر ، رحيب
 ما بين القادمة والآخر ، كأنما قدّ من الحدود أديمه ، واختص بإتقان الحُبك
 تقويمه .

وله في وصف لحام : متناسب الأشلاء ، صريح الانتماء ، إلى ثريّ السماء ،
 فكلّه نكال ، وسائره جمال .

١ م ب : والنجوم .

٢ ب : شيبات ؛ المطمح ؛ بشتات .

وله في وصف رمح : مُطَرَّد الكعوب ، صحيح اتصال الغالب والمغلوب ،
أخ ينوب كلما استنيب ويصيب .
وله في وصف قميص : كافوري الأديم ، بابلي الرسوم ، تباشر منه الجسوم ،
ما يباشر الروض من النسيم .
وله في وصف بغل : مُقَرَّف^١ النسب ، مستخبر الشرف ، آمن الكعب ،
إن ركب امتنع اعتماله ، أو ركب استقل به أخواله .
وله في وصف حمار : وثيق المفاصل ، عتيق النهضة إذا وَّتتِ المراسل ،
انتهى ببعض اختصار .

8 - وقال الأديب الشاعر أبو عمر^٢ يوسف بن هرون الكندي ، المعروف
بالرمادي^٣ :

أومى لتقبيل البساط خنوعا	فوضعتُ خدي في التراب خضوعا
ما كان مذهبه الخنوع لعبده	إلا زيادة قلبه تقطيعا
قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلماً	يمنن علي بردة مصدوعا
العبد قد يعصي ، وأحلف أني	ما كنتُ إلا سامعاً ومطيعا
مولاي يحيى في حياة كاسمه	وأنا أموتُ صباةً وولوعا
لا تنكروا غيثَ الدموع فكلُّ ما	ينحلُّ من جسمي يكونُ دموعا

والرمادي المذكور عرَّف به غير واحد ، منهم الحافظ أبو عبد الله الحميدي
في كتابه « جذوة المقتبس » وقال^٤ : أظن أن أحد آبائه كان من أهل الرمادة ،
وهي موضع بالمغرب ، وهو قرطبي ، كثير الشعر ، سريع القول ، مشهور عند

١ م ق ب : مترف .

٢ ق : أبو عمرو .

٣ المطمح : ٧١ .

٤ جذوة المقتبس : ٣٤٦ .

الخاصة والعامة هنالك ، لسلوكه في فنون من المنظوم والمنثور مسالك ، حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فُتِحَ الشعر بِكِنْدَةَ ، وَخُتِمَ بِكِنْدَةَ ، يعنون امرأ القيس والمتنبي ويوسف بن هرون ، على أن في كون المتنبي من كِنْدَةَ القبيلة كلاماً مشهوراً .

وأخذ أبو عمر ابن عبد البر عن الرمادي هذا قطعة من شعره ، وضمَّنها بعض تأليفه .

قال ابن حيَّان : توفي الرمادي سنة ٤٠٣ ، وذكر ابن سعيد في « المغرب » أن الرمادي اكتسب صناعة الأدب من شيخه أبي بكر يحيى بن هذيل الكفيف عالم أدباء الأندلس ، وهو القائل رحمه الله تعالى :

لا تلمني على الوقوفِ بدارِ أهلها صيروا السَّقامَ ضجيجي
جعلوا لي إلى هواهم سبيلاً ثمَّ سدُّوا عليَّ بابَ الرجوعِ

وروى الرمادي عن أبي عليّ كتاب « النوادر » ومدح أبا علي بقصيدة كما أشرنا إليه في غير هذا الموضع .

وقال في المطمح^١ : إنَّه شاعر مُفْلِق ، انفرج له من الصناعة المُغْلَق ، ومَمَّصَ له برقعها المؤتلق ، وسال بها طبعه كالماء المندفق ، فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق ، فتارة يُحزِن وأخرى يُسهل ، وفي كليهما بالبدیع يعلُّ وينهل ، فاشتهر عند الخاصة والعامة بانطباعه في الفريقين ، وإبداعه في الفريقين ، وكان هو وأبو الطيب متعاصرين ، وعلى الصناعة متغايرين ، وكلاهما من كِنْدَةَ ، وما منهما إلا من اقتدح في الإحسان زَنَدَه ، وتمادى بأبي عمر^٢ ، طَلَّقُ العَمر ، حتى أفردَه صاحبه ونديمه ، وهَرِيقَ شِبابه واستثنى أديمه ،

١ المطمح : ٦٩ .

٢ ق ب والمطح : عمرو .

ففارق تلك الأيام وبهجتها ، وأدرك الفتنة فحاض لحتها ، وأقام فرقاً من هيجانها ،
 شرقاً بأشجانها ، ولحقته فيها فاقة نهكتته ، وبعدت عنه الإفاقة حتى أهلكته ،
 وقد أثبت من محاسنه ما يعجبك سرده ، ولا يمكنك نقده ، فمن ذلك قوله :

شطت نواهم بشمس في هوداجهم لولا تالأؤها في ليلهن عشاوا
 شكت محاسنها عيني وقد غدرت لأنها بضمير القلب تنجمش
 شعراً ووجه تبارى في اختلافهما بحسن هذا وذاك الروم والحباش
 شككت في سقمي منها أفي فرشي منها نكست وإلا الطيف والفرش

إلى أن قال : وكان كلفاً بفتى نصراني استسهل^١ لباس زنتاره ، والخلود معه
 في ناره ، وخلع بروده لمسوحه ، وتسوغ الأخذ عن مسيحه^٢ ، وراح في
 بيعته ، وغدا من شيعته ، ولم يشرب نصيبه ، حتى حط عليه صليبه ، فقال :

أدرها مثل ريقك ثم صلب كعادتهم^٣ على وهمي وكاسي
 فيقضى ما أمرت به اجتلاباً لسروري وزاد خضوع^٤ راسي

وله في مثله :

ورأيت فوق النحر در عاً فاقعاً من زعفران
 فزجرتُه لونا سقا مي بالنوى ، والزجر شاني
 يا من نأى عني كما تنأى العيون الفرقدان
 فأرى بعيني الفرقدي ن ولا أراه ولا يراني

-
- ١ المطمح : استحسن .
 ٢ خطأ في الأصلين ؛ وأثبتنا عبارة المطمح .
 ٣ المطمح : كعادتكم .
 ٤ المطمح : فقضى . . . خنوع ؛ م : خنوع .
 ٥ المطمح : ينأى لعيني .

لا قُدِّرَتْ لَكَ أوبةٌ حتى يَتُوبَ القارِظانِ
هل ثمَّ إلا الموتُ فر دأ لا تكونُ منيَّتانِ

وله أيضاً :

اشربِ الكاسِ يا نصيرُ وهاتِ
بأبي غرَّةٌ ترى الشخصَ فيها
تنزعُ^١ الناسَ نحوها بازدحامِ
هاها يا نصيرُ إننا اجتمعنا
إنما نحنُ في مجالسِ لهوٍ
فإذا ما انقضتِ دنانةُ ذا الله
لومضى الدهرُ دونَ راحٍ وقصفِ
لعددنا هذا من السيئاتِ
إنَّ هذا النهارَ منْ حسناتي
في صفاءِ أصفى من المرآةِ
كازدحامِ الحجيجِ في عرَفاتِ
بقلوبِ في الدينِ مختلفاتِ
نشربُ الراحَ ثمَّ أنتِ مُواتي
واعتمدنا مواضعَ الصلواتِ
لعددنا هذا من السيئاتِ

وشاعت عنه أشعار في دولة الخلافة^٣ وأهلها ، سدد إليهم صائبات نبلها ،
وسقاهم كؤوس نهلها ، أوغرت عليه الصُّلور ، ونفرت^٤ عليه المنايا ولكن
لم يساعدها المقدر ، فسجنته الخليفةُ دهرأ ، وأسكنه^٥ من النكبة وعراً ، فاستعطفه
أثناء ذلك واستلطفه ، وأجناه كل زهر من الإحسان وأقطفه ، فما أصغى إليه ،
ولا ألغى موجدته عليه ، وله في السجن أشعار صرَّح فيها ببئته ، وأفصح
فيها عن جُلِّ الخطب لفقده صبره ونكته ، فمن ذلك قوله :

لك الأمنُ من شجوٍ يزيدُ تشوُّقي

١ ق : تنزع ؛ المطمح : تسرع ؛ م : تنزع .

٢ المطمح : دنان على اللهو ؛ م : دنانات ذا اللهو .

٣ المطمح : الخليفة .

٤ المطمح : ونفرت .

٥ المطمح : وأسلكه .

ومنها :

فوافوا بنا الزهراء في حال خالغ الـ
وحولي من أهل التأديب مأم^١
فلو أن في عيني الحمام كروضها
ونادى حمامي مهجتي لتقلقت^٢
أعيني إن كانت لدمعي فضلة^٢
فلو ساعدت قالت أمن عُدَّةِ الأسي

ومنها :

وقالت تظنُّ الدهرَ يجمع بيننا
ولكنني فيما زجرتُ بمقلتي
فقد كانت الأشفارُ في مثلِ بُعدنا
أباكيةً يوماً ولم يأتِ وقتهُ
إلى أن قال : وله أيضاً :

على كبري همي السحابُ وتذرفُ
كأنَّ السحابَ الواكفاتِ غواسلي
ألا ظعننُ ليلي وبانِ قطينها
وآنستُ في وجه الصباحِ ليينها
وأقربُ عهدٍ رشفةً بَلَّتِ الحشا
وكانت على خوفٍ فولتْ كأنَّها
ومن جزعي تبكي الحمامُ وتهتفُ
وتلك على فقدي نوائحُ هُتِفُ
ولكنني باقٍ فلو مَوا وعَنَفُوا
نحولاً كأنَّ الصبحَ مثلي مُدْتَفُ
فعاد شتاءً بارداً وهو صيْفُ
من الرَدْفِ في قيدِ الخلاخلِ ترسِفُ

١ المطمح : حلة ثلاثم .

٢ المطمح : فتغافلت .

وله :

قَبَلْتَهُ قُدَّامَ قَسِيهِ شَرِبْتُ كَاسَاتٍ بِتَقْدِيدِهِ
يَقْرَعُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِي لَهُ مِنْ فَرَطِ شَوْقِي قَرَعُ نَاقُوسِهِ

وسُجِنَ معه غلامٌ من أولاد العبيدِ فيه مَجَالٌ ، وفي نفسٍ متأمله من لوعته
أوجالٌ ، فكتب يخاطب الموكل بالسجن بقطعة منها :

جَلِيسُكَ مَمَّنْ أَتَلَفَ الحُبُّ قَلْبَهُ وَيَلْدَعُ قَلْبِي حَرَقَةٌ دُونَهَا الجَمْرُ
هَالِلٌ وَفِي غَيْرِ السَّمَاءِ طَلُوعُهُ وَرِيمٌ وَلَكِنْ لَيْسَ مَسْكَنُهُ القَفْرُ
تَأَمَّلْتُ عَيْنِيهِ فَخَامِرُنِي السَّكْرُ وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ العُيُونََ هِيَ الخَمْرُ
أُنَاطِقُهُ كَيْمَا يَقُولَ ، وَإِنَّمَا أُنَاطِقُهُ عَمَدًا لِيَتَثَّرَ الدَّرُّ
أَنَا عَبْدُهُ وَهُوَ المَلِيكُ كَمَا اسْمُهُ فلي منه شَطْرٌ كَامِلٌ وَله شَطْرٌ

انتهى باختصار .

9 - وقال محمد بن هاني^١ :

قَدُّ مَرَرْنَا عَلَى مَغَانِيكَ تِلْكَ فَرَأَيْنَا بِهَا مَشَابِهَ مَنْكَ
عَارِضَتْنَا المَهَا الخَوَازِلُ سِرْبًا عِنْدَ أَجْرَاعِهَا فَلَمْ نَسْلُ عَنْكَ
لَا يُرَعُ لِمَهَا بِذِكْرِكَ سِرْبٌ أَشْبَهَتْكَ فِي الوَصْفِ إِنْ لَمْ تَكُنْكَ
كُنْ عَذِيرِي لَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاجِي يَوْمَ تَبْكِي بِالجَزَعِ وَلِهُيَ^٢ وَأَبْكِي
بِجَنِّينَ مَرَجَّعٍ وَتَشَكَّ وَأَنْبِيْنَ مَوْجِيعٍ كَتَشَكِّي

وقال صاحب المطمح في حقته : الأديب أبو القاسم محمد بن هاني^٣ ، ذخر^٣

١ المطمح : ٧٧ ، وترجمته ص : ٧٤ .

٢ المطمح : وجدأ .

٣ المطمح : علق .

خطير ، وروضُ أدبِ مطيرٍ ، غاص في طلب الغريب حتى أخرج درّه
المكنون ، وبه شرج بافتنانه فيه كلّ الفنون ، وله نظم تتمنى الثريا أن تتوج به
وتتقلد ، ويودُّ البدرُ أن يكتب ما اخترع فيه ووَلد ، زهت به الأندلس وتاهت ،
وحاسنت ببدائعه الأشمس وباهت ، فحسد المغرب فيه المشرق ، وغصّ به
منّ بالعراق وشرق ، غير أنّه نبت به أكنافها ، وشمخت عليه آناقها ،
وبرث منه ، وزوَّيت الخيرات فيها عنه ، لأنّه سلك مسلك المعري ، وتجرّد
من التدين وعري ، وأبدى الغلو ، وتعدّى الحقّ المجلو ، فمجّته الأنفس ،
وأزعجته الأندلس ، فخرج على غير اختيار ، وما عرّج على هذه الديار ،
إلى أن وصل الزاب واتصل بجعفر ابن الأندلسية ، مأوى تلك الجنسية ، فناهيك
من سعد وردّ عليه فكّرّع ، ومن باب ولج فيه وما قرّع ، فاسترجع عنده
شبابه ، وانتجع وبّله وربّابه ، وتلقاه بتأهيل ورُحّب ، وسقاه صوب تلك
السُّحب ، فأفرط في مدحه فيه في الغلو وزاد ، وفرّع عنده تلك المزاد ، ولم
يتورع ، ولا ثناه ذو ورّع ، وله بدائع يتحير فيها ويبحار ، ويخال لرقتها أنّها
أسحار ، فإنّه اعتمد التهذيب والتحرير ، واتّبع في أغراضه الفرزدق مع جرير ،
وأما تشبيهاته فخرّق فيها المعتاد ، وما شاء منها اقتاد ، وقد أثبت له ما تحنّ
له الأسماع ، ولا تتمكّن منه الأطماع ، فمن ذلك قوله :

أليتنا إذ أرسلتُ وارداً وحفاً	وبتنا نرى الجوزاء في أذنّها شنفاً
وبات لنا ساقٍ يقومُ على الدجى	بشمعةٍ صُبْحٍ لا تُقَطُّ ولا تُطفا
أغنُّ غضيضٌ خفّف اللينُ قدّه	وثقلتِ الصهباءُ أجفانهُ الوطفا
ولم يُبقِ إرعاشُ المدام له يداً	ولم يُبقِ إعناتُ الثني له عِطفا
نزيفٌ نضاه السكرُ إلاّ ارتجاجةً	إذا كلّ عنها الحصرُ حملها الردفا
يقولون حِصفٌ فوقه خيزرانةٌ	أما يعرفون الخيزرانةَ والحقفا
جعلنا حشايانا ثياباً مُدامنا	وقدّدتُ لنا الأزهارُ من جلدها لحفا

فمن كبد توحى إلى كبد هوى
ومن شفة تُومي إلى شفة رَشفا
ومنها :

كأنَّ السَّماكين اللِّذين تراهُما
فذا رامحٌ يهُوي إليه سنانهُ
كأنَّ سُهَيْلاً في مطالعِ أفقهِ
كأنَّ بني نعشٍ ونعشاً مطافلُ
كأن سُهَهاها عاشقٌ بين عودِ
كأن قُدَامي النسرِ والنسرُ واقعُ
كأن أخاه حينَ حومَ طائرُ
كأن ظلامَ الليلِ إذ مالَ مَيْلَةً
كأن عمودَ الصبحِ خاقانُ معشرِ
كأن لواءَ الشمسِ غرَّةُ جعفرِ
وله أيضاً :

فُتِقَتْ لكم رِيحُ الجِلادِ بعنبرِ
وجنيمُ ثمرِ الوقائعِ يانِعاً
أبني العوالي السمهريَّةِ والسيوِ
مَنْ منكمُ الملكُ المطاعُ كأنَّهُ
جيشٌ تعدُّ له الليوثُ وفوقها
وكأنَّما سَلَبَ القشاعمَ ريشها
لحقَ القبولَ معَ الدبورِ وسارَ في

وأمدِّكم فلقُ الصباحِ المسفرِ
بالنصرِ من علقِ الحديدِ الأحمرِ
فِ المَشْرِفيَّةِ والعديدِ الأكثرِ
تحتَ السوابغِ تَبَعٌ في حَميرِ
كالغيلِ من قَصَبِ الوشيجِ الأخضرِ
مما يشقُّ من العجاجِ الأكلرِ
جمعَ الهرقلِ وعزمةِ الإسكندرِ

١ المطمح : لطفاً .

٢ المطمح : ورق .

في فتيّة صدأ الحديد لباسهم في عبقرى البيض جنة عبقر
وكفاه من حبّ السماحة أنّه منها بموضع مقلة من محجر

ومنها :

نعاوّه من رحمة ، ولباسه من جنة ، وعطاؤه من كوثر

وله أيضاً من قصيدة في جعفر بن علي :

ألا أيها الوادي المقدس بالندى ١ وأهل الندى قلبي إليك مشوق
ويا أيها القصر المنيف قبابه ٢ على الزاب لا يسدّد إليك طريق
ويا ملك الزاب الرفيع عماده ٣ بقيت لجمع المجد وهو فريق
فما أنس لا أنس الأمير إذا غدا تروع بحوراً فلكه وتروق ٢
ولا الجود يجري من صفيحة وجهه إذا كان من ذاك الجين شروق
وهزته للمجد حتى كأنما جرّت في سجايه العذاب رحيق
أما وأبي تلك الشمائل إنهما دليل على أن النجار عتيق
فكيف بصبر النفس عنه ودونه ٤ من الأرض مغبرّ الفجاج عميق
فكن كيف شاء الناس أو شئت دائماً فليس لهذا الملك غيرك فوق
ولا تشكر الدنيا على نيل رتبة ٥ فما نلتها إلا وأنت حقيق

وله من أخرى :

خليلي أين الزاب مني وجعفر ٦ وجنات عدن بنت عنها وكوثر
فقبلي نأى عن جنة الخلد آدم ٧ فما راقه من جانب الأرض منظر
لقد سرّني أنني أمرّ بباله ٨ فيخبرني عنه ٣ بذلك مخبر

١ الملمح : بالطوى .

٢ هذا الشطر مضطرب في الأصل ، ولا يزال - على التصويب - قلقاً .

٣ ب : فيخبره غني .

وقد ساءني أني أراهُ ببلدة
وقد كان لي منه شفيحٌ مشفعٌ
أتى الناسُ أفواجاً إليك كأنما
فأنت لمن قد مزقَ اللهُ شمله

بها منسكٌ منه عظيمٌ ومشعرٌ
به يمحصُ الله الذنوبَ ويغفرُ
من الزاب بيتٌ أو من الزاب محشرٌ
ومعشرهُ والأهلَ أهلٌ ومعشرُ

وله أيضاً :

ألا طرقتنا والنجومُ ركودُ
وقد أعجلَ الفجرُ الملمعُ خطوها
سرت عاطلاً غضبي على الدرِّ وحدهُ
فما برحتُ إلا ومن سلك أدمعي
ويا حسنها في يومٍ نصت سوالفاً
ألم يأتها أنا كبرنا عن الصبا
ولا كالليالي ما- لهن مواتقُ
ولا كالمعزِّ ابنِ النبيِّ خليفةُ

وفي الحيِّ أيقاظٌ وهن هجودُ
وفي أخريات الليل منه عمودُ
ولم يدرِ نحرٌ ما دهاهُ وجيدُ
قلائدُ في لباتها وعقودُ
تريعُ إلى أتربها وتحيدُ
وأنا بلبينا والزمانُ جديدُ
ولا كالغواني ما لهن عهودُ
له اللهُ بالفخرِ المينِ شهيدُ

وله من قصيدة يمدح بها يحيى بن علي بن رمان :

قفا بي فلامسرى سريتنا ولانسري
قفا نئين أين ذا البرق منهم
لعل ثرى الوادي الذي كنت مرة
وإلا فما وادٍ يسيلُ بعنبرِ
أكلُ كِناسٍ بالصريمِ تظنهُ
وهل عجبوا أتى أسائلُ عنهم
وهل علموا أتى أيممُ أرضهم
ولي سكنُ تأتي الحوادثُ دونهُ

وإلا نرى مثنى القطا الوارد الكدرِ
ومن أين تأتي الريح طيبة النشرِ
أزورهم فيه توضع للسفرِ
وإلا فما تدري الركابُ ولا ندري
كيناسَ الأطباءِ الدُّعجِ والشَّدنِ العُقرِ
وهم بين أحناء الجوانحِ والصدرِ
وما لي بها غيرُ التعسفِ من خبرِ
فيبعدُ عن عيني ويقربُ من فكري

إذا ذكرته النفسُ جاشتُ بذكره
فلا تسألاني عن زماني الذي خَلا
وآليتُ لا أعطي الزمانَ مَقادتي
حيني إليه ظاعناً ومُخيماً
كما عثرَ الساقِي بِجامٍ من الحمرِ
فوالعصرِ إنِّي قبلَ يَجيبِي لفي خُسْرِ
على مثلِ يَجيبِي ثم أغضي على الوترِ
وليس حينُ الطيرِ إلاّ إلى الوكرِ

وله من قصيدة :

فنكاتُ طرفكِ أم سيوفُ أبيكِ
أجلادُ مرهفةٍ وفتكُ محاجرِ
يا بنتَ ذي السيفِ الطويلِ نجادهُ
عينكِ أم مغناكِ موعدنا ، على
وكؤوسُ خمركِ أم مرَاشفُ فيكِ
لا أنتِ راحمةٌ ولا أهلكِ
أكذا يجوزُ الحكمُ في ناديكِ
وادي الكرى ألقاكِ أم واديكِ

وله أيضاً :

أحبُّ بهاتيكِ القبابِ قبابا
فيها قلوبُ العاشقينَ تخالها
والله لولا أن يعنّفني الهوى
لكسرتُ دُمْلجها بضيقِ عناقها
بنمّ فلولا أن أُغيّرَ لمتي
لخَصَبْتُ شيئاً في مفارقِ لمتي
وخضبتُ مبيضَ الحدادِ عليكمُ
وإذا أردتَ على المشيبِ وفادةً
فلتأخذنَّ من الزمانِ حمامةً
لا بالحدادةِ ولا الركابِ ركابا
عَمّاً بأيدي البيضِ أو عُنابا
ويقولَ بعضُ العاذلينَ تصابى
ورشفتُ من فيها البرودِ رُضابا
عبثاً وألقاكمُ عليّ غِضابا
ومحوتُ محوَ النّفسِ عنه شُبابا
لو أنتي أجدُ البياضَ خضابا
فاحثُ مطيِّكِ دونهُ الأحقابا
ولتبعنَّ إلى الزمانِ غرابا

ومنها :

قد طيّبَ الأقطارَ طيبُ ثنائهِ
لم تُدنيني أرضُ إليك وإنّما
من أجلِ ذا نجدُ الثغورَ عذابا
جئتُ السماءَ ففتحتُ أبوابا

ورأيتُ حولي وقدَ كلَّ قبيلةٍ حتَّى توهمتُ العراقَ الزابا
 أرضٌ وطئتُ الدرَّ من رضاضها والمسكَ تريباً والرياضَ جنابا
 ورأيتُ أجبلَ أرضِها منقاداً فحسبتها مدَّتْ إليك رقابا
 سدَّ الإمامُ بها الثغورَ وقبلها هزمَ النبيُّ بقومك الأحزابا
 وقال ابن هانئ يصف الأسطول :

مُعَطِّفَةَ الأعناقِ نحوَ مُتُونِها كما نَبَّهتْ أَيْدِي الحِوَاةِ الأفاعِيا
 إذا ما وردنَ الماءَ شوقاً لبرِّدهِ صدرنَ ولم يشربنَ غرقاً صوادِيا
 إذا أعملوا فيها المجاذيفَ سرعةً ترى عقرباً منها على الماء ماشِيا

10 - وقال الأديب أبو عمر أحمد بن فرج الجياني رحمه الله تعالى¹ :

وطائفةِ الوصالِ عدوتُ عنها وما الشيطانُ فيها بالمطاعِ
 بدتُ في الليلِ ساترةً ظلامِ ال دياجي منه² سافرةً القناعِ
 وما من لحظةٍ إلّا وفيها إلى فِتْنِ القلوبِ لها دَوَاعِي
 فملكْتُ النهيَ جمّحاتِ³ شوقي لأجري بالعفافِ على طباعي
 وبتُّ بها مبيتَ الطفلِ يظما فيمنعه الفطامُ عن الرِّضَاعِ
 كذاكِ الروضُ ليس بهِ لمثلي سوى نظيرِ وشمِّ مسنِّ متاعِ
 ولستُ من السوائِمِ مهمّلاتِ فأتحذَّ الرياضَ من المراعي

وقال :

للروضِ حسنٌ فقِفْ عليهِ واصرفِ عنانَ الهوى إليهِ

١ المطمح : ٨٠ ، وقد سقطت القطعة من ب م ، وألحقت التالية بأشعار ابن هانئ ؛ وانظرها في

ج ٣ : ١٩٦ .

٢ ق : ظلام الليالي وهي ؛ المطمح : ساترة دياجي ظلام الليل .

٣ ق : حجاج .

أما ترى نرجساً نضيراً يرنو إليه بمقلتيه
نشرُ حبيبي على رباه وصفرتي فوق وجنتيه

وقال :

بمهلكة يستهلكُ الحمدُ عَفْوَهَا ويتركُ شملَ العزمِ وهو مُبَدَّدُ
ترى عاصفَ الأرواحِ فيها كأنها من الأينِ تمشي ظالعٌ أو مقيدٌ

وقال فيه في المطمح : مُحْرِزِ الخصل ، مُبَرَّرِ في كل معنى وفصل^١ ،
متميز بالإحسان ، مُنْتَمِ إلى فئة البيان ، ذكي الخلد مع قوة العارضة ، والمنة
الناهضة ، حضر مجلس بعض القضاة وكان مشتهر الضبط منتهراً^٢ لمن انبسط فيه
بعض البسط ، حتى إن أهله لا يتكلمون فيه إلا رمزاً ، ولا يخاطبون إلا
إيماء فلا تسمع لهم ركزاً ، فكلّم فيه خصماً له كلاماً استطال به عليه لفضل
بيانه ، وطلاقة لسانه ، ففارق عادة المجلس في رفض الأنفة ، وخفض الحجة
المؤتفة ، وهز عطفه وحسر عن ساعده ، وأشار بيده ، مادّ آ بها لوجه خصمه ،
خارجاً عن حد المجلس ورسمه ، فهم الأعوان بتقويمه وتثقيفه ، ووزعهم
رهبة منه وخشية ، حتى تناوله القاضي بنفسه ، وقال له : مهلاً عافاك الله
اخفيض صوتك ، واقبض يدك ، ولا تفارق مركزك ، ولا تعد حقتك ،
وأقصر عن إدلاك^٣ ، فقال له : مهلاً يا قاضي ، أمن المخدرات أنا فأخفض
صوتي وأستر يدي ، وأعطي معاصمي لديك ؟ أم من الأنبياء أنت فلا يُجهر
بالقول عندك ؟ وذلك لم يجعله الله تعالى إلا لرسوله عليه الصلاة والسلام ، لقول
الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ -

١ المطمح : وفضل .

٢ في الأصول والمطمح : مشهراً .

٣ المطمح : انتمائك وإدلاك .

إلى قوله : لا تَشْعُرُونَ ﴿ (الحجرات : ٢) ولستَ به ولا كرامة ، وقد ذكر الله تعالى أن النفوس تُجَادِلُ في القيامة في موقف الهَوَلِ الذي لا يَعْدِلُهُ مَقَامٌ ، ولا يشبه انتقامه انتقام ، فقال تعالى ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا - إلى قوله تعالى : وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ (النحل : ١١١) . لقد تعديت طَوْرَكَ ، وَعَلَوْتَ في متراك ١ ، وإنما البيان ، بعبارة اللسان ، وبالنطق يستبين الحق من الباطل ، ولا بد في الخصام ، من إفصاح الكلام . وقام وانصرف . فبُهِتَ القاضي ، ولم يُحِرْ جواباً . وكان في الدولة صدرأً من أعيانها ، وناسق درر تبيانها ، ونَفَقَ في سوقها وصنّف ، وقرّطَ محاسنها وشنّف ، وله الكتاب الرائق ، المسمى بالحدائق ، وأدرکه في الدولة سَعِي ، ورُفِضَ له فيها الرَّعِي ، واعتقله الخليفة وأوثقه في مكان أخيه فلم يَوْمِضَ له عَقْو ، ولم يشب كدر حاله صَفْو ، حتى قضى معتقلاً ، ونُعيَ للنائبات نَعِيّاً مثكلاً ، وله في السجن أشعار كثيرة ، وأقوال مُبْدَعَات منيرة ، فمن ذلك ما أنشده ابن حزم يصف خيالاً طرّقه ، بعدما أسهره الوجد وأرقّه :

بأيهما أنا في الشُّكْرِ بادي بشُكْرِ الطَّيْفِ أم شكر الرقادِ
سَرَى وازداد في أملي ولكن عَفِيفْتُ فلم أجِدْ منه مُرَادِي
وما في النومِ من حرج ولكن جريت من العفافِ على اعتيادي

11 - وقال الشاعر المشهور أبو عبد الله محمد بن الحدّاد ٢ :

يا غائباً حَطَرَاتُ القَلْبِ مَحْضَرُهُ الصبرُ بعدك شيءٌ لستُ أقدرُهُ
تركتَ قلبي وأشواقِي تُفَطِّرُهُ ودمعُ عَيْني وأحدأني تُحَدِّرُهُ
لو كنتَ تبصرُ في تدميرِ حالتنا إذنٌ لأشفتَ مما كنتَ تبصرُهُ

١ المطمح : منزلتك .

٢ المطمح : ٨١ ؛ وترجمته ص : ٨٠ - ٨٢ .

فالعينُ دونك لا تحلّي بلذتها والدهرُ بعدك لا يصفو تكدرهُ
أخفي اشتياقي وما أطويه من أسفٍ عن البريةِ والأنفاسُ تُظهرهُ

قال في المطمح : هو شاعر مباح ، وعلى أيك الندى صادق ، لم ينطقه
إلا معن^١ أو صُمادح ، فلم يرمِ مثنواهما ، ولم ينتجع سواهما ، واقتصر
على المرية ، واختصر قطع المهامه وخوض البرية ، فعكف فيها ينثر درره
في ذلك المنتدَى ، ويرشِف أبدأً ثغورَ ذلك الندَى ، مع تميّزه بالعلم ،
وتحيّزه إلى فئة الوقار والحلم ، وانتمائه إلى آية سلف ، ومذهبه مذاهب أهل
الشرف ، وكان له لسنٌ ورؤاء يشهدان له بالنباهة ، ويقلدان كاهله ما شاء
من الوجاهة ، وقد أثبت له بعض ما قذفه من درره ، وفأه به من محاسن غرره ؛
فمن ذلك قوله :

إلى الموت رُجعي بعد حين فإن أمت فقد خُلدَت خُلدَ الزمان مناقبي
وذكرِي في الآفاقِ طار كأنه بكلِّ لسانٍ طيبُ عذراءِ كاعيبِ
ففي أيِّ علمٍ لم تبرزُ سوابقي وفي أيِّ فنٍّ لم تبرزُ كتائبي

وحضر مجلس المعتصم بحضور ابن اللبّانة فأنشد فيه قصيداً أبرز به من عُرَى
الإحسان ما لم ينقصم واستمر فيها يستكمل بدائعها وقوافيها ، فإذا هو قد أغار
على قصيد ابن الحداد الذي أوّله :

عُجُّ بالحمى حيثُ الطباءُ^٢ العينُ

فقال ابن الحداد مرتجلاً :

حاشا لعدلك يا ابن معنٍ أن يُرى في سلكِ غيري دريِّ المكنونُ

١ المطمح : جود معن .

٢ المطمح : الحماس .

وإليها تشكو استلابَ مطيها
فاحكم لها واقطع لساناً لا يدا
عُجْ بالحمى حيثُ الطباءُ العينُ
فلسانُ من سَرَقَ القريضَ يمينُ
وله :

إنَّ المدامعَ والزفيرُ
فعلامَ أخفي ظاهراً
قد أعلننا ما في الضميرُ
هبْ لي الرضى من ساخطٍ
سَقَمي عليَّ به ظهيرُ
قلبي بساحتِهِ الأسيرُ
وله أيضاً :

أيتها الواصلُ هجري
ليت شعري أيُّ نفعٍ
أنا في هجرانِ صبري
لكَ في إدمانِ ضُرِّي
وله أيضاً :

يا مُشبهَ الملكِ الجَعديّ تسميةً
ومُخجِلَ القمرِ البدريّ أنوارا
وله ١ :

تُطالبني بنفسي بما فيه صَوْنُها
ووالله ما يَخْفَى عليَّ ضلالها
فأعصي ويسطو شوقها فأطيعها
ولكنها تهوي فلا أستطيعها
وقال :

بِخَافِقَةِ القُرطينِ قلبكَ خافقُ
وفي مشرقِ الصُّدغينِ للبدرِ مغربُ
وعن خَرَسِ القُلُبينِ دمعكَ ناطقُ
ومُحَلَّاةٌ عنهُ الطباءُ السوابقُ
وبينَ حصىِ الياقوتِ ماءٌ وسامةٌ

١ سقط البيتان من ق .

وحشوا قباب الرقم أحوى مقرطق^١ كما أس روض عطفه^٢ والقراطق^٣
انتهى باختصار .

12 - وقال الأسعد بن بليظة^١ :

برامة ريم^٢ زارني بعدما شطاً
رعى من أفانين الهوى ثمر الحشا
خيال لمقوم غريب برامة
فأكسبني من خدّها روضة الجنى
وباتت ذراعها نجاداً لعاتقي
وسلّ اهتصاري غصنها من مخصر^٣
وقد غاب كحل الليل^٤ في دمع فجره
ومنها في وصف الديك :

وقام لها ينعى الدجى ذو شقيقة
إذا صاح أضغى سمعه لأذانه
كان أنوشروان أعلاه تاجه
سبي حلة الطاووس حسن لباسها
ومن غزلها :

غلامية جاءت وقد جعل الدجى
فقلت أحاجيها بما في جفونها
محيرة العينين من غير سكرة
لحاتم فيها فصّ غالية خطأ
وما في الشفاه العس من حسن المعطى
متى شربت الحاظ عينيك إسفنطا

١ المطلع : ٨٣ - ٨٤ .

٢ ب : العين .

أرى نكهة المسواك في حُمْرة اللَّمَى وشاربك المخضّر بالمسكِ قد خطّاً
عسى فَرْحٌ قَبْلَتِهِ فإِخَالَهُ على الشفةِ اللّمياءِ قد جاء مَحْطّاً

وقال في المطمح في تحلية الأسعد : إنّه سرّدَ البدائع أحسن السّرّد ،
وافقرس المعاني كالأسد الوَرْد ، وأبرَزَ درر المحاسن من صدفها ، وحاز من
بحر الإجابة وشرفها ، ومدح ملوكاً طَوَّقَهُم من مدائحه قلائد ، وزفَّ إليهم
منها خَرَائِد ، وجلاها عليهم كواعب ، بالألباب لواعب ، فأسالت العوّارف ،
وما تقلّصَ له من الحظوة ظلِّ وارف ، وقد أثبتُّ له ما يعترف بحقه ، ويُعرف
به مقدار سَبْقِهِ ، فمن ذلك قوله :

لو كنتَ شاهدنا عشيةَ أمسنا والمُزْنُ بيكينا بعينيْ مذنبِ
والشمسُ قد مدّتْ أديمَ شعاعها في الأرضِ تجنحُ غير أن لم تغربِ
وقوله :

وتلدُّ تعذبي كأنكَ خلّتي عوداً فليس يطيبُ ما لم يُحرقِ
وهو مأخوذ من قول ابن زيدون :

تظنونني كالعودِ حقاً وإنّما تطيبُ لكم أنفاسه حين يُحرقُ
انتهى ببعض اختصار^١ .

13 - وقال الأديب أبو بكر عبادة بن ماء السماء ، وهو كما في المطمح^٢ :
من فحول الشعراء ، وأئمتهم الكبراء ، وكان منتجعاً بشعره ، مسترجعاً من
صروف دهره ، وكانت له همّة أطالت همّه ، وأكثرت كمدّه وغمّه :

١ هو كما في المطمح المطبوع دون اختصار .

٢ المطمح : ٨٤ .

يؤرقني الليلُ الذي أنا نائمُهُ فتجهلُ ما ألقى وطرفك عالمُهُ
وفي الهودج المرقوم وجهٌ طوى الحشا على الحزن فيه الحسن قد حار راقمه
إذا شاء وفقاً أرسل الحسنُ فرعهُ يُضِلُّهم عن منهجِ القصدِ فاحمه
أظلماً رأوا تقليده الدرّ أم زرواً بتلك اللآلي أنهنّ تئاتمه

14 - وقال الأديب أبو عبد الله ابن عائشة في فتي طرزت غلالة خده ،
ورُكب من عارضه سنان على صعّدة قده¹ :

إذا كنت تهوى خدّه وهو روضةٌ بهِ الوردُ غَضٌّ والأقاحُ مفلجُ
فردٌ كلّفاً فيهِ وفِرطَ صبايةِ فقد زيدَ فيه من عذارِ بنفسجُ

وحلّاه في المطمح بأن قال : اشتهر صوناً وعفافاً ، ولم يخطب بعقيلة
حصّرة زفافاً ، فأثر انقباضاً وسكوناً ، واعتمد إليها ركوناً ، إلى أن أنهضه
أميرُ المسلمين إلى بساطه فهبّ من مرقد خموله ، وشبّ بلبلوغ مأموله ، فبدا
منه في الحال انزواء ، في تسنم تلك الرسوم والتواء ، وقعود عن مراتب الأعلام ،
وجمود لا يُحمد فيه ولا يُلام ، إلاّ أن أمير المسلمين ألقى عليه منه محبته ،
جلبت إليه مسرّى الظهور ومهّبتة ، وكان له أدب واسع المدى ، يانع
كالزهر بلّله الندى ، ونظم مشرق الصفحة ، عبقّ النّفحة ، إلاّ أنّه قليلاً
ما كان يحلُّ ربه ، وينديل له طبعه ، وقد أثبت له منه ما يدع الألباب حائرة ،
والقلوب إليه طائرة ، فمن ذلك قوله في ليلة سمحت له بفتى كان يهواه ،
ونفحت له هبةً وصلّ بردتُ جواه :

لله ليلٌ باتَ عندي بهِ طوعَ يدي منْ مُهَجِّي في يديه
وبتُ أسقيه كؤوس الطلّا ولم أزل أسهرُ شوقاً إليّهُ
عاطيته حمراء ممزوجةً كأنّها تُعصّرُ من وجنتيه

1 المطمح : ٨٤ - ٨٦ .

وخرج من بِلَنْسِيَّةِ يوماً إلى منية الوزير الأجلَّ أبي بكر ابن عبد العزيز ، وهي من أبداع منازل الدنيا ، وقد مدَّت عليها أدواحُها الأفيا ، وأهدت إليها أزهارُها العَرَفَ والرِّيا ، والنهر قد غص بمائه ، والروض قد خص بمثل أنجم سمائه ، وكانت لبني عبد العزيز فيها أطراب ، تهاهم فيها من الأيام آراب ، فلبسوا فيها الأشرَ حتى أبلوه ، ونشروا فيها الأُنسَ وطَوَّوه ، أيام كانوا بذلك الأفق طلوعاً ، لم تضمَّ عليهم النَّوْبُ ضلوعاً ، فقعد أبو عبد الله مع لُمة من الأدباء تحت دَوْحَةٍ من أدواحها ، فهبَّت ريح أنس من أرواحها ، سطت بإعصارها ، وأسقطت لؤلؤها على باسم أزهارها ، فقال :

ودوحة قد علَّتْ سماءَ تطلعُ أزهارها نجوما
هفا نسيمُ الصِّبا عليها فأرسلتْ فوقنا رجوما
كأنما الجوّ غار لَمَّا بدتْ فأغرى بها النسيما

وكان في زمان عطلته ، ووقت اصفراره وعلته ، ومُقاساته من العيش أنكدته ، ومن التخوف أجهدته ، كثيراً ما ينشرح بجزيرة شُقْرُ ويستريح ، ويستطيب تلك الريح ، ويَجُولُ في أجارع وادياها ، وينتقل من نواديها إلى بَوادياها ، فإنها صحيحة الهواء ، قليلة الأدواء ، خَضِلة العُشْب والأزهار^١ ، قد أحاط بها نهرها كما تحيط بالمعاصم الأساور ، والأيكُ قد نشرت ذوائبها على صفيحه ، والروض قد عَطَّر جوانبه^٢ بريجه ، وأبو إسحاق ابن خفاجة هو كان منزع نفسه ، ومصرع أنسه ، نفح له بالمنى عَبَق وشذا ، ومسح عن عيون مَسْرَّاته القَدَى ، وغدا على ما كان وراح ، وجرى متهافتاً في ميدان ذلك المراح ، قريب عهدٍ بالفطام ، ودهره ينقاد في خطام ، فلما اشتعل رأسه شيباً ، وزرَّت عليه الكهولة جيباً ، أقصر عن تلك الهنات ، واستيقظ من تلك السَّنات ، وشبَّ

١ المطح : زاهية الأزاهر .

٢ المطح : جوانبها .

عن ذلك الطوق ، وأقصر عن الهوى والشوق ، وقنع بأدنى تحية ، وما يستشعره
في وصف تلك العهاد من أريحية ، فقال :

ألا خلتباني والأسى والقوافيا أرددُها شجوي^١ وأجهشُ باكيا
أمن شخصاً للمسةً باديأ وأندبُ رسماً للشيبة باليا
تولتني الصبأ إلا توالي فكرة قدحتُ بها زنداً وما زلتُ واريأ
وقد بان حلو العيش إلا تعلقةً تحدثني عنها الأمانئُ خاليا^٢
ويا بترد هذا الماء هل منك قطرة تهلُّ فيستسقى غمامك صاديا
وهيهات حالت دون حزوى وأهلها ليال وأيامٌ تُخالُ اللياليا
فقل في كبير عاده صائد الظبا إليهن مهتاجاً وقد كان ساليا
فيا راكباً يستعمل الخطو قاصداً ألا عَجُ بشقير راثعاً أو مغاديا
وقف حيثُ سال النهرُ ينساب أرقماً وهب نسيم الأيكِ ينفثُ راقيا
وقل لأثيلاتٍ هناك وأجرع سقيت أثيلاتٍ وحييت واديا
انتهى ببعض اختصار^٣ .

وابن عائشة أشهر من أن يطال في أمره ، وليس الخبر كالعيان .

٥٢٣ - وقال أبو عمرو يزيد بن عبد الله بن أبي خالد اللخمي الإشبيلي

الكاتب في فتح المهديّة سنة ٦٠٢ :

كم غادر الشعراء من متردّم ذخيرتُ عظامه لخيرٍ معظّم
تبعاً للذخورِ الفتوحِ فإنه جاءت له بخوارقٍ لم تُعلم
من كلّ سامية المنالِ إذا انتمت رفعت إلى اليرموكِ صوتَ المنتمى

١ ب : شكوى ؛ م : شجوا .

٢ المطمح : خواليا .

٣ لم يختصر شيئاً من المطمح المطبوع .

وتوسّطت في النهروان بنسبةٍ كَرُمَتْ ففازت بالمحلّ الأكرمِ

قال ابن الأبار في «تحفة القادم»^١ : هو صدر في نبهائها وأدبائها ، يعني إشبيلية ، وممن له قدر في منجبيها ونجباتها ، وإلى سلفه ينسب المعقل المعروف بحجر أبي خالد^٢ ، وتوفي بها سنة ٦١٢ ، وأورد له قوله :

ويا للجوّاري المنشآت وحسّنها طوائرَ بينَ الماءِ والجوّ عوّمًا
إذا نشرتُ في الجوّ أجنحةً لها رأيتَ بهِ روضاً ونوراً مكمّما
وإن لم تهجه الريحُ جاء مصافحاً فمدت له كفاً خضيباً ومعصما
مجازفُ كالحياتِ مدّت رؤوسها على وجلٍ في الماءِ كي تروي الظما
كما أسرعَت عدّاً أناملُ حاسبٍ بقبضٍ وبسطٍ يسبقُ العينَ والفما
هي الهدبُ في أجفانٍ أتكلّ أوطفٍ فهل صنعتُ من عندمٍ أو بكت دما

قال ابن الأبار : أجاد ما أراد في هذا الوصف ، وإن نظر إلى قول أبي عبد الله ابن الحداد يصف أسطول المعتصم بن صُمّادح :

هام صرّف الردى بهامِ الأعادي أن سمّت نحوهم لها أجيادُ
وتراءتُ بشرعها كعيونٍ دأبها مثلُ خائفها سُهادُ
ذات هُدبٍ من المجاذيفِ حاك هُدبَ باكٍ لدمعه إسعادُ
حُممٌ فوقها من البيضِ نارٌ كلُّ من أرسلت عليه رمادُ
ومن الخطّ في يدي كلّ درٍ أليفٌ خطّها على البحرِ صادُ

قال : وما أحسن قول شيخنا أبي الحسن ابن حريق في هذا المعنى من قصيدة أنشدنيها :

١ تحفة القادم : ١٢٠ وفيه الأشار حتى قوله : انتهى ؛ والنص هنا أوفى مما هو في المقتضب .
٢ كذا في الأصول ؛ وفي التحفة : ابن أبي خالد .

وكأتما سكن الأرقامُ جوفها من عهدِ نوحٍ خشيةَ الطوفانِ
فإذا رأين الماءَ يطفحُ نضنضتُ من كلِّ خرْقٍ حيةً بلسانِ

قال : ولم يسبقهم إلى الإحسان ، وإنما سبقهم بالزمان ، عليُّ بن محمد
الإيادي التونسي في قوله :

شرعوا جوانبها مجاذفَ أتعبتُ شادي الرياح لها ولما تتعبِ
تنصاعُ من كَثَبٍ كما نفر القطا طورا وتجتمع اجتماعَ الربربِ
والبحرُ يجمعُ بينها فكأنه ليلٌ يقربُ عقرباً من عقربِ
وعلى جوانبها أسودُ خلافةِ تختالُ في عددِ السلاحِ المذهبِ
وكأتما البحرُ استعارُ بزيمهم ثوبَ الجمالِ من الربيعِ المعجبِ

ومن هذه القصيدة الفريدة في ذكر الشراع :

ولها جناحٌ يُستعارُ يُطيرها طوعَ الرياحِ وراحة المتطربِ
يلعبها حدبَ العبابِ مطاره في كلِّ لَجٍّ زاخرٍ معلولبِ
يسمو بأخر في الهواءِ منصّبِ عريانَ منسرحِ الذؤابةِ شوذبِ
يتنزلُ الملاحُ منه ذؤابةً لو رام يركبها القطا لم يركبِ
وكأتما رامَ استراقةَ مقعدِ للسمعِ إلاّ أنه لم يُشهبِ
وكأتما جينُ ابنِ داودِ همُّ ركبوا جوانبها بأعنفِ مركبِ
سجروا جواهرهم بينهم فتقاذفوا منها بألسنِ مارجِ متلهبِ
من كلِّ مسجونِ الحريقِ إذا انبرى من سجنه انصلت انصلات الكوكبِ
عريان يقدمهُ الدخانُ كأنه صُبْحٌ يكرُّ على ظلامِ غيبِ

ومن أولها :

١ م : وإن ؛ التحفة : وإن كان .

أعجِبَ بأسطول الإمامِ محمدٍ وبحسنه وزمانه المستغربِ
لبستُ به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ يبدو لعينِ الناظرِ المتعجِّبِ
من كلِّ مشرفةٍ على ما قابلتُ إشرافَ صدرِ الأجلِ المنتصبِ
ومنها :

جوفاء تحملُ موكباً في جوفها يومَ الرهانِ وتستقلُّ بموكبِ
وهي طويلة من غرر القصائد ، وقد سرَدَ جملة منها صاحب « المناهج »
وغيره .

وقال أبو عمر القسطلِّي^١ :

وحال الموجُ بينَ بني سبيلٍ يطيرُ بهمُ إلى الغولِ ابنُ ماء
أغرُّ له جناحٌ من صباحٍ يرفرفُ فوقِ جناحٍ من سماء
وأخذه أبو إسحاق ابن خفاجة فقال^٢ :

وجاريةٍ ركبْتُ بها ظلاماً يطيرُ من الصباحِ بها جناحُ
إذا الماءِ اطمأنَّ ورقٌ خصرأً علا من موجهٍ رِدْفُ رداحُ
وقد فغر الحِمَامُ هناكُ فاه وأتلعُ جيدةَ الأجلِ المُتاحُ
ولا يخفأكُ حُسنَ هذه العبارة الصقيلة المرأة ، فالله تعالى يرحم قائلها .
وقال ابن الأبار : وقد قلت أنا في ذلك :

يا حبذا من بناتِ الماءِ سابحةٌ تَطْفُو لما شبَّ أهلُ النارِ تطفئهُ
تطيرها الريحُ غريباناً بأجنحةٍ ال حمائمِ البيضِ للأشراكِ ترزؤه

١ ديوانه : ٣٢٣ ورفع الحجب ١ : ١٤٢ .

٢ ديوان ابن خفاجة : ١٣٨ .

من كلٍّ أدهمَ لا يُلْفَى به جَرَبٌ^١ فما لراكبه بالقسارِ يهنؤه
يدعى غراباً وللفتحاء سرعته وهو ابن ماءٍ وللشاهين جُوْجُوْه

واجتمع ابن أبي خالد وأبو الحسن ابن الفضل الأديب عند أبي الحجاج ابن
مرطير الطيب بحضرة مراکش ، وجرى ذكر قاضيتها حينئذ أبي عمران موسى
ابن عمران بينهم ، وما كان عليه من القصور والبعد عما أتبع له ، وأوثر به ،
فقال أبو الحجاج :

ليس فيه من أبي موسى شبهة

فقال أبو الحسن :

فأبوه فِضَّةٌ وهو شبهة

فقال ابن أبي خالد :

كم دعاه إذ رآه عُرَّةٌ وأباه إذ دعاهُ يا أبته

٥٢٤ - وقال أبو العباس الأعمى^١ :

بهيمة لو جرى في الخليل أكبرها لفاتت الريح في الأحجال والغرر^٢
تجرى فللماء ساقا عائم درب وللرياح جناحا طائر حذر^٣
قد قسمتها يدُ التقدير^٤ بينهما على السواء فلم تسبح ولم تطير

٥٢٥ - وقال عبد الجليل بن وهبون يصف الأسطول^٥ :

١ هو الأعمى التليلي ، انظر ديوانه : ٥١ .

٢ رواية الديوان :

بهيمة لو توفي كنه شرتها لفاتت الخليل في الأحجال والغرر

٣ الديوان : ذكر .

٤ الديوان : التدبير .

٥ الذخيرة (٢ : ٢٠٧) .

يا حسنها يوماً شهدتُ زفافها
ورقائه كانتُ أَيْكَةً فتصوّرتُ
حيثُ الغرابُ يجرُّ شملةَ عَجْبِهِ
من كلِّ لَابِسَةِ الشَّبَابِ مَلَاءَةً
شهدتُ لها الأعيانُ أنَّ شَواهِنا
من كلِّ ناشرةٍ قِوادمَ أَجْنُحِ
زارتُ زَيْبِرَ الأَسَدِ وهي صِوامتُ
ومَجاذفُ تحكي أرقامَ ربوةِ

٥٢٦ - وقال ابن خفاجة ٢ :

نسقياً لها من بطاحِ خَزْرٍ
فما ترى غيرَ وجهِ شمسٍ
ودَوْحِ نهرٍ بها مُطِيلٍ
أطلَّ فيه عِنداًرُ ظِلِّ

وهو من بديع الشعر ، وكم لابن خفاجة من مثله .

٥٢٧ - [قطعة منقولة عن المغرب]

١ - وقال عبيد الله بن جعفر الإشبيلي ، وقد زار صاحباً له مرات ولم
يزره هو ، فكتب على بابه ٣ :

يا من يُزارُ على بُعدِ المحلِّ ولا
زُرُ من يزورك واحذرْ قولَ عاذلةِ
يَزورنا مرّةً مِنْ بينِ مرّاتِ
تقولُ عنك : فتى يوتى ولا يأتي

١ ب : عسرة ؛ ق : عرة ؛ وأثبتنا رواية م .
٢ ديوانه : ١٤٠ وقد مر البيتان ج ١ : ١٩ .
٣ ترجمته والبيتان الأولان في المغرب ١ : ٢٦٢ .

ومن مجونياته ، ساعه الله تعالى :

وأغيدَ لَيْسَ تَعْلُوهُ الأمانِي ولو حَكَمَتَ عَلَيهِ بِاشْتِطَاطِ
سَقَيْتُ الرَّاحَ حَتَّى مَالَ سَكْرًا وَنَامَ عَلَى النَّمَارِقِ وَالْبَسَاطِ
وَأَسْلَمَ لِي عَلَى طُولِ التَّجْنِي وَأَمَكْنِي عَلَى فِرطِ التَّعَاطِي
فَأَوْلَجْتَ المَقَادِرُ جَيِّدَ بَكْرٍ وَلَا كَفْرَانَ فِي سَمِّ الخِيَاطِ
وَعَنَانِي بِصَوْتٍ مِنْ حَشَاهُ فَأُطْرِبُنِي وَبِالغِ فِي نَشَاطِي
فَمَا نَقَرُّ المَثَالِثِ وَالمَثَانِي بِأُطْرِبَ مِنْ تَلَاحِينِ الضَّرَاطِ
وَلَوْلَا الرِيْقُ لَمْ أَظْفِرُ بِشَيْءٍ عَلَى عَدَمِ اهْتِبَالِي وَاحْتِيَاظِي
فَلَا تَسْخَرُ بِرِيْقٍ بَعْدَ هَذَا فَإِنَّ الرِيْقَ مَفْتَاحُ اللَوَاطِ

2 - وقال أبو الحسن علي بن جحدر الزجاج¹ :

كَيْفَ أَصْبَحْتَ أَيْهَذَا الحَيِيبُ نَحْنُ مَرَضَى الهوى وَأَنْتَ الطَّيِّبُ
كُلُّ قَلْبٍ إِلَيْكَ يَهْوُ غَرَامًا وَيَحْهَى يَا عَلِيٌّ² مِنْكَ القُلُوبُ
إِنْ تَلَحُّ حَوَمْتُ عَلَيْكَ هِيَامًا أَوْ تَغِبْ حَنْهَا عَلَيْكَ الوَجِيبُ
غَيْرَ أَتَى مِنْ بَيْنِهِمْ مَسْتَرِيبُ حِينَ تَبْدُو وَليْسَ لِي مَا يَرِيبُ
كُلُّ مَا قَدْ أَلْقَاهُ مِنْكَ وَمَنِّي دُونَ هَذَا لَهُ تُشَقُّ الجُيُوبُ

3 - وقال أحمد المعروف بالكساد ، في موسى الذي كان يتغزل فيه شعراء

إشبيلية³ :

مَا لِمُوسَى قَدْ خَرَّ لَهِ لَمَّا فَاضَ نُورًا غَشَاهُ ضَوْءُ سَنَاهُ
وَأَنَا قَدْ صُعِقْتُ مِنْ نُورِ مُوسَى لَا أُطِيقُ الوُقُوفَ حِينَ أَرَاهُ

١ المغرب ١ : ٢٦٢ والقدرح : ١٧٢ .

٢ هذه رواية القدرح ؛ وفي الأصول : وتجانى علي .

٣ ترجمة الكساد ومقطعاته في المغرب ١ : ٢٨٨ .

ولله درّه في رثاء موسى المذكور إذ قال :

فرّا إلى الجنّة حوريّتها وارفع الحسنُ من الأرضِ
وأصبح العشاقُ في ماتمِّ بعضهمُ يبكي إلى بعضِ

وقوله فيه :

هتَفَ الناعي بشجورِ الأبدِ إذ نعى موسى بن عبد الصمدِ
ما عليهمُ ويجهمُ لو دفنوا في فؤادي قطعةً من كبدي
ولقّب بالكسادِ لقوله :

وبيع الشعرُ في سوقِ الكسادِ

4 - وقال أبو القاسم ابن أبي طالب الحضرمي المنيشي^٢ :

صاغتْ يمينُ الرياحِ محكمةً في نهرٍ واضحِ الأساريرِ
فكلّما ضاعفتْ بهِ حلقاً قام لها القطرُ بالمساميرِ

5 - وقال أبو زيد عبد الرحمن العثماني ، وهو من بيت إمارة^٣ :

لا تسلّني عن حالتي فهي هذي مثلُ حالِي لا كنتَ يا من يراني
ملّتي الأهلُ والأخلاءُ لما أنْ جفاني بعدَ الوصالِ زماني
فاعتبرِ بي ولا يغركَ دهرٌ ليس منه ذو غبطةٍ في أمانِ

6 - وقال أبو زكريا يحيى بن محمد الأركشي^٤ :

١ المغرب : رد .
٢ هو الملقب بمصا الأعمى لأنه كان في صحبة الأعمى التطيلي ، انظر المغرب ١ : ٢٨٩ .
٣ ترجم ابن سعيد في القدح : ١٩٦ لعبد الرحمن العثماني وقال فيه : « كان من الخواص في جميع ما به تلبس » إلا أنه كناه أبا القاسم . ويبدو أن ترجمته سقطت من المغرب .
٤ ترجمة الأركشي في المغرب ١ : ٣١٦ والتكملة رقم : ٢٠٥٣ . وصلة الصلة : ١٨٤ .

لا حبذا المالُ والإفضالُ يُتلفه والبخلُ يحميه والأقدارُ تعطيه

وقال :

لا تبكينَ لإخوانٍ تفارقهم فإنتي قبلك استخبرتُ إخواني ،
فما حمدتهمُ في حالٍ قريبهم فكيف في حالٍ إبعادٍ وهجرانٍ

7 - وقال أبو عمران موسى الطرياني لما دخلَ يومَ نيروز إلى بعض
الأكابر ، وعادتهم أن يصنعوا في مثل هذا اليوم مدائن من العجين لها صور
مستحسنة ، فنظر إلى صورة مدينة ، فأعجبه ، فقال له صاحب المجلس :
صفها وخذها^١ :

مدينةٌ مسورةٌ تحارُ فيها السحرةُ
لم تبنها إلاّ يدا عذراء أو مخدرةُ
بدتُ عروساً تجتلي من درمكٍ مزعفرهُ
وما لها مفاتحٌ إلاّ البنان العشرةُ

8 - وقال أبو عمرو ابن حكيم^٢ :

حاشا لمن أملككم أن يخيبَ ويتنفي نحوَ العدا مستريبُ
هذا وكم أقراني بيشركم ﴿نصرٌ من الله وفتحٌ قريب﴾

9 - وقال أبو الحسن علي بن الجعد القرموني^٣ :

إيّاك من زللِ اللسان فإنهُ قدَرُ الفتى في لفظه المسموعِ

١ ترجمته وشعره في المغرب ١ : ٢٩٤ والقدح : ٢٠٢ .

٢ ترجمة ابن حكيم وشعره في المغرب ١ : ٢٩٢ والقدح : ٢٠٠ ؛ وفي م : ابن حاكم .

٣ ترجمته في المغرب ١ : ٣٠٠ ، وقد جاءت هذه الفقرة في م بعد مقطعات ابن لبال .

فالمرء يخبّرُ الإناءَ بِنَقْرِهِ ليرى الصحيحَ به من المصدوعِ

10 - وقال الفقيه أبو الحسن علي بن لبال في محبرة عناب محلاة بفضة^١ :

مُنْعَلَةٌ بالهلالِ ، مُلْجَمَةٌ بالنَّسْرِ ، مجدولةٌ من الشَّفَقِ
كأنما حبرها تَمِيعٌ في فُرْضَتِها سائلاً من الغسقِ
فأنتَ مهما تردُّ تشبهها في كلِّ حالٍ فانظرْ إلى الأفقِ

وقال في محبرة ابنوس :

وخديمةٌ للعلم في أحشائها كَلَّفٌ يجمع حَرَامَهُ وحلاله
لبست رداء الليلِ ثمَّ توشحتُ بِنُجُومِهِ وتوجتُ بهلاله

11 - وقال أبو جعفر أحمد الشريشي^٢ :

على حُسنِ نورِ الباقلاءِ أدرهما على صَبِّ كَأْسِي خَمْرَةٍ وجفونِ
يذكرني بُلُوقِ الحَمَامِ وتارةً يُوَكِّدُ للأشجانِ شُهْلَ عيونِ

12 - وقال أبو العباس أحمد بن شكيل الشريشي^٣ :

تُفَاحَةٌ بتُّ بها لَيْتِي أبثها سرِّي والشكوى
أضْمُهُا معتقاً لائماً إذا ذكرتُ خَدَّ من أهوى

وقال :

تُفَاحَةٌ حامضةٌ عَضَّها في ثَمَلٍ مَن قَطَّبَ الوجها

١ المغرب ١ : ٣٠٣ ؛ والحاشية في مصادر ترجمته ؛ والذيل والتكملة ٥ : ١٦٩ .

٢ ترجمة أحمد الشريشي في المغرب ١ : ٣٠٤ .

٣ انظر المغرب ١ : ٣٠٤ .

ولم أخلّ من قبلها محسناً يُجزى عليه العَضّ والنجها

13 - وقال أبو عمرو ابن غياث^١ :

وقالوا مَشِيبٌ قلتُ واعجبا لكم أينكرُ صبحٌ قد تَخَلَّلَ غيها
وليسَ مَشِيباً ما تَرونَ وإنما كَمِيتُ الصِّبَا لما جرى عادُ أشها

14 - وقال الوزير أبو بكر محمد بن ذي الوزارتين أبي مروان عبد الملك

ابن عبد العزيز يخاطب ابن عبدون^٢ :

في ذمّة الفضلِ والعلياء مُرْتَحِلٌ فارقتُ صهري إذ فارقتُ موضعهُ
ضاءت به بُرْهَةٌ أرجاءُ قرطبةٍ ثمَّ استقلَّ فسدَّ البينُ مطلعَهُ
عذراً إلى المجد عني حين فارقتي ذاك الجلالُ فأعيا أن أشيعَهُ
قد كنتُ أصحبتُه قلبي وأقلدني ما كان أودعني عن أن أودَّعَهُ

وفيهم يقول ابن عبدون :

بحورٍ بلاغةٍ ونجومٍ عزٍّ وأطوادٍ رَؤاسٍ من جلالِ

15 - وقال الوزير الكاتب أبو القاسم ابن أبي بكر ابن عبد العزيز :

نديمي لا عدمتك من نديمٍ أدْرِها في دجى الليلِ البهيمِ
فخيرُ الأَنسِ أنسٌ تحتَ سترٍ يُصانُ عن السفهٍ أو الخليمِ

16 - وقال الثائر أبو عبد الله الجزيري^٣ :

في أمِّ رأسي سرٌّ يبدو لكم بعدَ حينِ

١ انظر المغرب ١ : ٣٠٥ وترجمته في التكملة : ٦١٠ والتحفة : ١٢٩ والوافي ٤ : ١٠ .

٢ المغرب ١ : ٣٠٧ .

٣ المغرب ١ : ٣٢٣ .

لأَبْلُغَنَّ مَرَادِي إِنْ كَانَ سَعْدِي مُعِينِي
أَوْ لَا فَأَكْتُبُ مِمَّنْ سَعَى لِإِظْهَارِ دِينِ

وسبب قوله هذا أن بني عبد المؤمن لما غيروا رَسْمَ مَهْدِيَّهِمْ ، وصيروا الخلافة مُلْكًا ، وتوسَّعوا في الرفاهية ، وأهملوا حقَّ الرعية ، جعل يتسَّر ، وقال هذه الأبيات ، وشاع سره في مدة ناصر بني عبد المؤمن ، فطلبه ، ففرَّ ، ولم يزل ينتقل مستخفياً مع أصحابه إلى أن حصل في حصن قولية من عمل مدينة بسطة ، فبينما هو ذات يومٍ في جامعها مع أصحابه وهم يأكلون بطيخاً ويرمون قشره في صحن الجامع ، إذ أنكر ذلك رجل من العامة ، وقال لهم : ما تتقون الله تعالى ؟ ! تنهانون بيت من بيوته ؟ فضحكوا منه ، واستهزأوا به ، وأهلُ تلك الجهة لا تحتمل شيئاً من ذلك ، فصاح بفتية من العامة ، فاجتمع جمع وحملوا إلى الوالي فكان عند الوالي مَنْ عَرَفَهُ ، فقتلوا جميعاً ، وأمر الناصر أن يُرْفَع عن جميع أرض قولية جميع تكاليف السلطان .

17 - ولَمَّا عَتَبَ المنصور بن أبي عامر على الكاتب عبد الملك الجزيري ، وسجنه في الزاهرة ، ثُمَّ صَفَحَ عَنْهُ ، قَالَ وَكُتِبَ بِهِ إِلَيْهِ ١ :

عَجِبْتُ مِنْ عَقْوِ أَبِي عَامِرٍ لَا بَدَّ أَنْ تَتَّبِعَهُ مِنْهُ
كَذَلِكَ اللَّهُ إِذَا مَا عَقَا عَنْ عِبْدِهِ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ

فاستحسن ذلك ، وأعادته إلى حاله .

وقال على لسان بهار العامرية ، وهو النرجس ٢ :

حَدِّقْ الْحَسَانَ تَقِيرٌ لِي وَتَغَارُ وَتَضَلُّ فِي وَصْفِي النَّهْيِ وَتَحَارُ

١ المغرب ١ : ٣٢١ وقد مر البيتان (ج ١ : ٤١٩) منسويين لغيره .

٢ تقدمت هذه الأبيات والقطعتان بعدها ، ج ١ : ٥٣١ ، ٥٨٨ .

طلعت على قضيبي عيونٌ تئامني مثلَ العيونِ تحفُّها الأشْفارُ
وأخصُّ شيءٍ بي إذا شبهتهُ دُرٌّ تمنطقَ سلكهُ دينارُ
أنا نرجسٌ ، حقاً بهرتُ عقولهم بيديع تركيبي فقيلَ بهارُ

وقال في بنفسجها :

شهدتُ لنوَّارِ البنفسجِ ألسنٌ من لونه الأحوى ومن إيناعه
بمشابهِ الشَّعرِ الأحمِّ أعاره الـ قمرُ المنيرِ الطلقُ نورُ شعاعه
ولربما جمد النجيجُ من الطُّلى في صارم المنصور يوم قيراعه
فحكاهُ غير مخالفٍ في لونه لا في روائحه وطيبِ طباعه

وقال في القمر حين جعل يخفي بالسحاب ويبدو أمام المنصور :

أرى بدر السماء يلوحُ حيناً فيظهرُ ثمَّ يلتحفُ السحابا
وذلك أنه لما تبدَّى وأبصر وجهك استحيا وغابا

18 - وقال الحِجاري في « المسهب »¹ : سألت أبا الحسن علي بن حفص

الجزيري أن ينشدني شيئاً من شعره ، فقال : يا أبا محمد ، إذا لم ينظم الإنسان
مثل قول ابن شرف :

لم يبقَ للجَورِ في أيامكم أثرٌ إلا الذي في عيونِ الغيدِ من جَوَرِ
فالأولى له أن يترك نظم الشعر . إلى أن خرجتُ معه يوماً إلى سيفِ الجزيرة
الخصراء ، فلقي غلاماً قد كدر روثقَ حسنه السفرُ ، وأثر في وجهه آثار
الكلف في القمر ، فصافحه ، ثم قال :

بأبي الذي صافحتهُ فتوردتُ وجناته وأناة نحوي قدُهُ

١ المغرب ١ : ٣٢٥ .

قمرٌ بدا ككَلَفِ السُّرى في خدّه لَمَّا توالى في الترحل جَهْدُهُ
لكنْ معلّمٌ حسنه تمت كما قد تم عن صدم الحسام فرنْدُهُ

فحفظتها من سمعه ، ثم قلت له : قد أخذت عنك من نظمك ، بغير شكر ، *
فضحك وقال : فاحفظ هذا ، وأنشد :

لا تقولنَّ فلانٌ صاحبٌ قبلَ اختبارِ
وانظرْ ويحك نقدَ الـ ليلِ فيه والنهارِ
أنا جرّبتُ فلم أُلْ فِ صديقاً باختيارِ

وأنشد :

كم قد بكرتُ إلى الرياضِ وقُضِبتُها قد ذكرتني موقفَ العشاقِ
يا حسنّها والريحُ يلحفُ بعضها بعضاً كأعناقِ إلى أعناقِ
والوردُ خدٌّ والأفاحي ميسمٌ وغدا البهار ينوبُ عن أحداقِ
لم أنفصلُ عنها بكأسِ مُدامةٍ حتى حملتُ محاسنَ الأخلاقِ

19 - ولما كتب أبو الحسن ابن سعيد إلى الأديب القائد أبي العباس أحمد
ابن بلال يستدعيه ليوم أنس بقوله ١ :

أبا العباس لو أبصرت حولي ندامي بادروا العيش الهنيئاً
يُسيحون المدامَ ولا انتقادٌ وقارهمُ ويزدادون غيئاً
وهم مع ما بدالك من عفافٍ يجبّون الصيبة والصييا
ويَهوونَ المثالثَ والمثاني وشربَ الراح صباحاً أو عشيا
على الروض الذي يهدي لطرْفِ وأنفٍ منظرأً بهجاً ورياً
فلا تَلَمَّ السريَّ على ارتياحٍ حكى طرباً بجانبه سرياً

١ المغرب ١ : ٣٢٦ والفتح : ٨٦ .

وبادرُ نحوَ نادٍ ما خلا من نذاك فقد عهدتك لَوذَعِيًّا
أجابه بقوله :

أبَيْتَ سَوَى المَعَالِي يَا عَلِيًّا فَمَا تَنفَكُ دَهْرَكَ أُرِيحِيًّا
تَمِيلُ إِذَا النَسِيمُ سَرَى كغصنٍ وتسري للمكارم مَشْرَفِيًّا
وَمِرْتاحُ ارْتِياحًا لِلْمَثَانِي ۱ وتقتنص الصبية والصبيا
وتَهْوَى الرَوْضَ قَلْدَهُ نَدَاهُ وألبسه مع الحُللِ الحليًّا
وإن غنَى الحَمَامُ فَلَاصْطَبَارُ وإن خفق الخليجُ فَنَيْتَ حَيًّا
تَذَكُرُنِي الشَّبَابَ فَلَسْتُ أُدْرِي أصبحاً حينَ تَذَكُرُ أمَ عَشِيًّا
فَلَوْ أُدْرِكْتَنِي وَالغَصْنُ غَضُّ ۲ لأدركتَ الذي تَهْوَى لَدَيًّا
وَلَمْ أَتْرُكْ وَحَقِّكَ قَدَرَ لِحَظٍ وقد ناديتني ذاك النديًّا

٥٢٨ ٢ - وقال بعض أهل الأندلس :

وَفَرَعٍ كَانَ يُوعِدُنِي بِأَسْرِ وَكَانَ القَلْبُ لَيْسَ لَهُ قَرَارُ
فَنَادَى وَجْهَهُ لَا خَوْفَ فَاسْكُنْ ۳ « كَلَامُ اللَّيْلِ يَمُحُوهُ النِّهَارُ »

ولست على يقين أن قائلهما أندلسي ، غير أنني رأيت في كلام بعض
الأفاضل نسبتها لأهل الأندلس ، والله تعالى أعلم .

20 - وقال أبو الوليد القسطلي ۳ :

وَفَوْقَ الدَّوْحَةِ الغَنَّا غَدِيرُ ۴ تَلَأُ صَفْحَةً وَسَجَا قَرَارًا
إِذَا مَا انصَبَّ أَرْقَ مُسْتَقِيمًا تَدَوَّرَ فِي البَحِيرَةِ فَاسْتَدَارًا
يُجَرِّدُهُ فَمُ الأَنْبُوبِ صَلْتًا حَسَامًا ثُمَّ يُفْلِتُهُ سَوَارًا

١ م : بالمشائي .

٢ ميزنا هذه القطعة برقم لأنها ليست من المغرب ثم يفود الترقيم إلى ما نقله المقرئ عن المغرب نفسه .

٣ المغرب ١ : ٣٢٨ والتكملة رقم : ٢١٠١ وزاد المسافر : ١٥-١٩ وانظر الخريدة ١/٤ : ٤٤٣ .

21 - ولأبي كثير الطريفي يمدح الناصر بن المنصور^١ :

فَتُوحٌ لَهَا يَهْتَرُ شَرْقٌ وَمَغْرِبٌ كَمَا اطَّرَدْتُ فِي السَّمْهَرِيَّةِ أَكْعُبُ
تَجَلَّتْ عَلَى الدُّنْيَا شَمُوسٌ مَنِيرَةٌ فَلَمْ يَبْقَ فِي لَيْلِ الْكَأَبَةِ غَيْهَبٌ
أَقَامَ بِهَا الْإِسْلَامُ شِدْوً وَمَغْرَدٍ وَظَلَّتْ بِأَرْضِ الشَّرْكِ بِالْخَطْبِ تَخْطُبُ
فَلَا سَمْعَ إِلَّا وَهُوَ قَدْ مَالَ نَحْوَهَا وَلَا قَلْبَ إِلَّا فِي مُنَاهَا يَقْلَبُ

22 - وقال أبو عامر ابن الجلد^٢ :

لِللَّهِ لَيْلَةٌ مُشْتَاقٌ ظَفَرْتُ بِهَا قَطَعْتُهَا بِوَصَالِ اللَّثْمِ وَالْقُبَلِ
نَعِمْتُ فِيهَا بِأَوْتَارٍ تَعَلَّلَنِي أَحْلَى مِنَ الْمَنِّ أَوْ أَمْنِيَةِ الْغَزْلِ
أَحْبَبْتُ إِلَيَّ بِهَا إِذْ كُلُّهَا سَحَرٌ أَرَا حَتَّى الصَّبِّ مِنْ عَذْرِ وَمِنْ عَذْلِ

23 - وقال الكاتب أبو عبد الله محمد الشُّلْبِي^٣ كاتب ملك إفريقية عبد

الواحد بن أبي حَفْص :

مَدَّ إِلَيَّ الْكَاسَ مَنْ لَحْظُهُ لَا يَجُوجُ الشَّرْبَ إِلَى الْكَاسِ
وَمَنْذُ حَيْثَانِي بَأْسٍ فَلَمْ أَيَّاسٌ وَلَكِنْ كَانَ لِي آسِي
وَقَالَ لَوْلَا النَّاسُ قَبْلْتُهُ مَا أَشَامَ النَّاسَ عَلَى النَّاسِ

24 - وقال أبو بكر محمد بن الملح^٤ ، وهو من رجال الذخيرة ، على لسان

حال سوار مذهب :

أَنَا مِنَ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ خَالِصَةٌ لَكِنْ دَهْتِي خَطُوبٌ غَيْرَتْ جَسْدِي

١ المغرب ١ : ٣١٩ واسمه عنده « كثير » ، والطريفي نسبة إلى جزيرة طريف .

٢ المغرب ١ : ٣٤٢ وبغية الوعاة : ٢٧٥ .

٣ لم يرد ذكره في المغرب في القسم الخاص بشلب .

٤ المغرب ١ : ٣٨٣ والقلائد : ١٨٧ والذخيرة (٢ : ١٨٢) ومسالك الأبصار ٨ : ٢٥٧ .

علقتُ غصناً على أحوى فأحسدني جرّي الوشاح وهدي صفرةُ الحسدِ

وما أحسن قوله من قصيدة في المعتضد والد المعتمد :

غُرَّتْهُ الشَّمْسُ وَالْحَيَا يَدُهُ بَيْنَهُمَا لِلنَّجِيعِ قَوْسٌ قُرْخٌ

25 - وأمّا ابنه أبو القاسم¹ فهو من رجال « المسهب » وكان اشتغل أوّل أمره بالزهد وكتب التصوّف ، فقال له أبوه : يا بني ، هذا الأمر ينبغي أن يكون آخر العمر ، وأمّا الآن فينبغي أن تعاشر الأدباء والظرفاء ، وتأخذ نفسك بقول الشعر ، ومطالعة كتب الأدب ، فلما عاشهم زينوا له الراح ، فتهتك في الخلاعة ، وفر إلى إشبيلية ، وتزوج بامرأة لا تليق بحاله ، وصار يضرب معها بالدف ، فكتب إليه أبوه :

يا سُخْنَةَ العَيْنِ يا بِنِيَا لَيْتَكَ ما كُنْتَ لي بِنِيَا
أَبَكَيْتَ عَيْنِي ، أَطَلْتَ حَزَنِي أَمَتَّ ذَكَرِي وَكَانَ حَيَا
حَطَطْتَ قَدْرِي وَكَانَ أَعْلَى فِي كُلِّ حَالٍ مِنَ الثَّرِيَا
أَما كَفَاكَ الزَّنا ارْتِكاِباً وَشَرِبُ مَشْمُولَةِ الحَمِيَا
حَتَّى ضَرَبْتَ الدَّفوفَ جَهراً وَقَلْتَ لِلشَّرِّ جِيءَ إِلِيَا
فَاليَوْمَ أَبَكَيْكَ مَلءَ عَيْنِي إِنْ كان يُغْنِي البِكاؤُ شَيَا

فأجاب أباه بقوله :

يا لائِمَ الصَّبِّ في التَّصابِي ما عَنكَ يُغْنِي البِكاؤُ شَيَا
أَوْجَعَتْ خَيْلَ العَتابِ نُحوي وَقَبْلُ أَوْثَبْتَهَا إِلِيَا
وَقَلْتَ هَذَا قَصرٌ عَميرٌ فَارْبَعُ مِنَ الدَّهْرِ ما تَهَيَا
قَد كُنْتُ أَرْجو المَتابَ مَما فَتُنْتُ جَهلاً بِهِ وَغِيَا

١ انظر المغرب ١ : ٣٨٤ .

لولا ثلاثُ شيوخُ سوء أنتَ وإبليسُ والحُمَيّا

26 - وقال أبو بكر محمد بن عبد القادر الشلبي^١ يستدعي :

فديتك باكرُ نحو قُبّةِ روضةٍ تسيحُ بها الأمواهُ والطيْرُ تهْتَفُ
وقد طلعتُ شمسُ الدنانِ بأفْقها ونحنُ لديها في انتظارك وُقِفُ
فلا تتخلفُ ساعةً عن محلةٍ صدودك عمن حلَّ فيها تخلفُ

27 - وقال أخو إمام نخاعة الأندلس أبي محمد عبد الله بن السيد البطلانيّوسي ،

وهو أبو الحسن عليُّ بن السيد^٢ :

يا رَبَّ ليلٍ قد هتكتُ حجابَهُ بزجاجةٍ وقّادةٍ كالكوكبِ
يسعى بها ساقٍ أغنُ كأنّها من خدّه ورُضابٍ فيه الأشنبِ
بدرانٍ بهرٌ قد أمنتُ غروبَهُ يسعى ببدرٍ جانحٍ للمغربِ
فاذا نعمتُ برشْف بدرٍ طالعٍ فانعمُ ببدرٍ آخِرٍ لم يغربِ
حتى ترى زهُرَ النجومِ كأنّها حولَ المجرةِ رَبَّربٌ في مشربِ
والليلُ منحفضٌ يطيرُ غرابُه والصبحُ يطرده بيازٍ أشهبِ

28 - ولما مدح أبو بكر محمد بن الروح الشلبي^٣ الأميرَ إبراهيمَ الذي

خطب به الفتح في القلائد ، وهو ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكان يُدلُّ عليه وينادمه ، بقصيدته التي أوّلها :

أنا شاعرُ الدنيا وأنتَ أميرُها فما لي لا يسْري إليَّ سرورُها

أشار الأمير إلى مضحك له كان حاضراً أن يحق له لقوله « أنا شاعر الدنيا »

١ لم ترد ترجمته في المغرب المطبوع بين رجال شلب .

٢ يعد ابن السيد من شلب في الأصل (انظر المغرب ١ : ٣٨٥) ، وكل هذا يدل على أن المقري ينقل نقلاً متتابعاً عن نسخة من المغرب غير التي وصلتنا .

٣ المغرب ١ : ٣٨٦ .

فقال له ابن الروح : على من حقت ؟ يعني أنه يحتمل أن يكون ذلك الفعل لقوله « أنا شاعر الدنيا » أو لقوله « وأنت أميرها » ، ففطن الأمير لما قصده ، وضحك وتغافل .

29 – وقال أبو بكر ابن المنخل الشلبي^١ :

كم ليلة دارت عليّ كواكبٌ للخمير تطلع ثم تغربُ في فمي
قبّلتها في كفّ مَنْ يسعى بها وخلطت قبّلتها بقبلة معصم
وكانَ حُسْنُ بنانه مع كأسه غيمٌ يشيرُ لنا ببعضِ الأنجم

30 – وقال ذو الوزارتين أبو بكر ابن عمّار^٢ :

قرأتُ كتابك مستشفعاً بوجهِ أبي الحُسْنِ من رده
ومن قبّلِ فضّ ختام الكتاب قرأتِ الشفاعة في خده

وقال :

غزا القلوبَ غزالٌ حَجَّتْ إليه العيونُ
قد خطّ في الخلدِ نوناً وآخِرُ الحسنِ نونُ

قال الحجاري : وإكثار ابن عمار في المعذّرين وإحسانه فيهم يدلّك على أنه ، كما قيل عنه ، كان مشغولاً بالكاس ، والاستلقاء من غير نُعاس .

31 – وكان أبو الفضل ابن الأعلم^٣ أجمل الناس وأذكّهم^٤ في علم الأدب والنحو ، وأقرأ علم النحو قبل أن يلتحي ، فقال ابن صارة فيه :

١ المغرب ١ : ٣٨٧ والوافي ٢ : ٧ وزاد المسافر : ٨٧ والتكملة : ٤٩٦ .

٢ المغرب ١ : ٣٨٨ .

٣ المغرب ١ : ٣٩٦ .

٤ م : وأذكّهم .

أَكْرَمَ بِجَعْفَرِ اللَّيْبِ فَإِنَّهُ
 مَاءَ الْجَمَالِ بَحْدَهُ مَتَرَقِّقٌ
 مَا خَدَّهُ جَرَحَتْهُ عَيْنِي ، إِنَّمَا
 اللَّهُ زَايَ زَبْرَجْدٍ فِي عَسْجِدِ
 ذِي طُرَّةٍ سَبَّجِيَّةٍ ، ذِي غُرَّةٍ
 رَشَأُ لَهُ خَدُّهُ الْبَرِيءِ وَلِحْظُهُ
 مَا زَالَ يُوَضِّحُ مُشْكَلَ «الإيضاح»
 فَالْعَيْنُ مِنْهُ تَجُولُ فِي ضَحْضَاحِ
 صَبَغَتْ غِلَالَتَهُ دِمَاءَ جِرَاحِي
 فِي جَوْهَرٍ فِي كَوْنِ فِي رَاخِ
 عَاجِيَّةٍ ، كَاللَّيْلِ وَالْإِصْبَاحِ
 أَبْدَأُ شَرِيكَ الْمَوْتِ فِي الْأَرْوَاحِ

32 - وقال الرمادي ١ :

نَوْءٌ وَغَيْثٌ مُسْبَلٌ
 تَدُورُ بَيْنَ فِتْيَةٍ
 وَالْأَفْقُ مِنْ سَحَابِهِ
 كَأَنَّهُ مِنْ فِضَّةٍ
 وَقَهْوَةٌ تَسَلْسَلُ
 بَخْلَقِهِمْ تَمَثَّلُ
 طَلٌّ ضَعِيفٌ يَنْزَلُ
 بُرَادَةٌ تَغْرَبَلُ

وقال ٢ :

بَدْرٌ بَدَا يَحْمِلُ شَمْسًا بَدَتْ
 تَغْرُبُ فِي فِيهِ وَلَكِنَّهَا
 وَحَدُّهَا فِي الْحَسَنِ مِنْ حَدِّهِ
 مِنْ بَعْدِ ذَا تَطْلَعُ فِي خَدِّهِ

33 - ومن نظم أبي الفضل ابن الأعلم السابق الذكر :

وَعَشِيَّةٌ كَالسَّيْفِ إِلَّا حَدَّهُ
 عَاطَيْتُ كَأَسِّ الْأَنْسِ فِيهَا وَاحِدًا
 بَسَطَ الرِّبِيْعُ بِهَا لِنَعْلِي خَدَّهُ
 مَا ضَرَّهُ أَنْ كَانَ جَمْعًا وَحَدَّهُ

وهو جعفر ابن الوزير أبي بكر محمد ابن الأستاذ الأعلم ، من رجال « القلائد »

١ المغرب ١ : ٣٩٢ والأبيات في كتاب التشبيهات : ٣٦ .

٢ المغرب : ٣٩٣ . والبيتان للصنوبري في الفوات ١ : ١١٢ وتهذيب ابن عساكر ١ : ٤٥٨

والروافي ٧ : ١٨٥ .

و « المسهب » و « سمط الجمان » ، وكان قاضي شنتميرية ، والأستاذ الأعلام هو إمام نخاعة زمانه أبو الحجاج يوسف بن عيسى من رجال « الصلة » و « المسهب » و « السمط » ، وهو شارح الأشعار الست ، ومن نظمه يخاطب المعتمد بن عباد :

يا من تملكني بالقول والعمل ومُبْلِغِي فِي الَّذِي أَمَلْتُهُ أَمَلِي
كيف الثناء وقد أعجزتني نعماً ما لي بشكري عليها الدهر من قِبَلِ
رفعت للوجودِ أعلاماً مشهورةً فبابك الدهر منها عامرُ السبلِ

34 - وقال أبو علي لإدريس بن اليماني العبدري^١ :

قُبلةٌ كانت على دَهَشٍ أَذْهَبَتْ مَا بِي مِنَ الْعَطَشِ
ولها في القلبِ منزلةٌ لو عَدَّتْهَا النَّفْسُ لَمْ تَعْشِ
طرقتني والدُّجَى لَبَسَتْ خِلَعاً مِنْ جِلْدَةِ الْحَبَشِ
وكانَ النَّجْمَ حِينَ بَدَأَ دَرَهْمٌ فِي كَفِّ مَرْتَعِشِ

وسأله المعتضد أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها ابن حمّود فقال له : أشعاري مشهورة ، وبنات صدري كريمة ، فمن أراد أن ينكح بكُرَّها ، فقد عرف مَهْرَها ، وكانت جائزته مائة دينار .

ومن مشهور شعره بالمغرب والمشرق قوله :

ثَقَلَتْ زَجَاجَاتُ أَتْنَا فَرَعًا حَتَّى إِذَا مَلُكْتُ بِصَرْفِ الرَّاحِ
خَفَّتْ فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ وَكَذَا الْجَسُومُ تُخَفُّ بِالْأُرُوحِ

35 - وكانت بين الأديب الحسيب أبي عمرو ابن طيغور والحافظ الهيثم

١ المغرب ١ : ٤٠٠ وانظر الجذوة : ١٦٠ والذخيرة ٣ : ١١٥ والمسالك ١١ : ٢٠٤ .

مُهَاجَاة ، فقال فيه الحافظ ١ :

لابن طيفورٍ قريضٌ فيه شوكٌ وغموضٌ
عُدِمَتْ فيه القوافي والمعاني والعروضُ

وقال فيه ابن طَيْفُور :

إنّما الهيمُ سفرٌ من كلام الناس ضخمٌ
لا تُطالبه بفهمٍ ليسَ للديوانِ فهمٌ

36 - وقال أبو عمران ابن سعيد : أخبرني والذي أنه زار ابن حمدين
بقرطبة في مدة يحيى بن غانية ، [قال] : فوجدته في هالة من العلماء والأدباء ،
فقام وتلقاني ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، ما هذا الجفاء ؟ فاعتذرت بأنّي أخشى
الثقل ، وأعلم أن سيدي مشغول بما هو مكبّ عليه ، فأطرق قليلاً ثم قال :

لو كنتَ تهوانا طلبتَ لقاءنا ليس المحبُّ عن الحبيب بصابرٍ
فدعِ المعاذرَ إنّما هي جنةٌ لمخادعٍ فيها ، ولستُ بعاذرٍ

فقلت : تصديق سيدي عندي أحبُّ إلي وإن ترتبت علي فيه الملامة من
منازعته منتصراً لحقي ، فاستحسن جوابي ، وقال لي : كرره فإنّه والله ماحٍ
لكل ذنب ، ثم سألته كتّبتَ البيتين عنه ، فقال لي : وما تكتب فيهما ؟ فقلت :
أليس في الإنعام ذلك لأجد ما أخبر به والذي إذا أبتُ إليه ؟ فأملاهما عليّ ،
فقلت : مَنْ قائلهما ؟ قال : قائلهما ، فعلمت أنّهما له ، وقعتُ بذلك .

٥٢٩ - وقال الحجاجي صاحب « المسهب في أخبار المغرب » :

كم بتُّ من أسرِ السَّهادِ بليَّةٍ ناديتُ فيها هل لجنحِكِ آخرُ

إذ قام هذا الصبحُ يُظهرُ ملّةً حكمتُ بأن ذُبِحَ الظلامُ الكافرُ

وعلى ذكر « المسهب » فقد كنت كثيراً ما أستشكل هذه التسمية ، لما قال غير واحد : إن المسهب إنما هو بفتح الهاء ، كقولهم سَيْلٌ مُفْعَمٌ — بفتح العين — والفقرة الثانية وهي « المغرب » تقتضي أن يكون بكسر الهاء ، ولم يزل ذلك يتردد في خاطري إلى أن وقفت على سؤال في ذلك رفعه المعتمد بن عبّاد سلطان الأندلس إلى الفقيه الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري المشهور بالأعلم ، ونص السؤال :

سألك — أبقاك الله — الوزيرُ الكاتبُ أبو عمرو ابن غطمش ، سلّمه الله ، عن « المسهب » وزعم أنك تقول بالفتح والكسر ، والذي ذكر ابن قتيبة في « أدب الكاتب » والزبيدي في « مختصر العين » أسهبَ الرجلُ فهو مُسْهَبٌ إذا أكثر الكلام ، بالفتح خاصة ، فبيّن لي — أبقاك الله تعالى — ما تعتقد فيه ، وإلى أي كتاب تسند القولين ، لأقف على صحّة من ذلك .

فأجابه : وصل إليّ — أدام الله تعالى توفيك — هذا السؤال العزيز ، ووقفت على ما تضمنه ، والذي ذكرته من قول ابن قتيبة والزبيدي في الكتابين موضوع كما ذكرته ، والذي أحفظه وأعتقده أن المسهب بالفتح المكثّر في غير صواب ، وأن المسهب بالكسر البليغ المكثّر من الصواب ، إلا أنني لا أسند ذلك إلى كتاب بعينه ، ولكني أذكره عن أبي علي البغدادي من كتاب « البارع » أو غيره ، معلقاً في عدّة نسخ من كتاب « البيان والتبيين » على بيت في صدره لمكي بن سواده وهو :

حَصِرَ مُسْهَبٌ جَرِيءٌ جَبَانٌ خَيْرَ عِيٍّ الرِّجَالِ عِيٌّ السُّكُوتِ

والعلقة : « تقول العرب : أسهب الرجل فهو مُسْهَبٌ وأحصن فهو مُحْصَنٌ وألّجج فهو مُلْجَجٌ ، إذا افتقر ، قال الخليل : يقال رجل مُسْهَبٌ ومُسْهَبٌ ، قال أبو علي : أسهب الرجل فهو مُسْهَبٌ بالفتح إذا أكثر في

غير صواب ، وأسهب فهو مُسْهَب بالكسر إذا أكثر وأصاب ، قال أبو عبيدة :
أسهب الرجل فهو مُسْهَب إذا أكثر من خرف وتلف ذهن ، وقال أبو عبيدة
عن الأصمعي : أسهب الرجل فهو مُسْهَب بالفتح إذا خرف وأهتر ، فإن
أكثر من الخطأ قيل : أفند فهو مُفند ، انتهت المعلقة . فرأيُ مملوكك
— أيدك الله تعالى — واعتقاده أن المُسْهَب بالفتح لا يوصف به البليغ المحسن ،
ولا المكثّر المصيب ، ألا ترى إلى قول الشاعر « حصر مسهب » أنه قرن فيه
المسهب بالحصر وذمه بالصفتين ، وجعل المسهب أحقّ بالعي من الساكت
والحصر فقال :

خيرُ عبيّ الرجالِ عبيّ السكوتِ

والدليل على أن المُسْهَب بالكسر يقال للبليغ المكثّر من الصواب أنهم
يقولون للجواد من الخيل مُسْهَب بالكسر خاصة لأنها بمعنى الإجادة والإحسان ،
وليس قول ابن قتيبة والزيدي في المُسْهَب بالفتح هو المكثّر من الكلام بموجب
أن المكثّر هو البليغ المصيب ، لأن الإكثار من الكلام داخل في معنى الذم ،
لأنه من الثرثرة والهذر ، ألا تراهم قالوا : رجل مِكْثَار ، كما قالوا : ثرثار ،
ومهدار ، وقال الشاعر :

فلا تُمارُونَ إن ماروا بإكثار

فهذا ما عندي ، والله تعالى الموفق للصواب .
قال الأعلام : ثمّ نظمت السؤال العزيز والجواب المذكور ، فقلت :

سلامُ الإلهِ وريحانهُ	على الملك المجتبي المتخلُّ
سلامَ امرئٍ ظلّ من سيّبه	خصيبَ الجنابِ رحيبَ المحلِّ
أتاني سؤالكَ أعزّزَ بهِ	سؤالَ مبرّ عليّ من سأل
يسائل عن حالتيّ مُسْهَبِ	ومُسْهَبِ المُبتلى بالعللِ

لم اختلفا في بناءيهما وحكمهما واحد في فعل
أتى ذا على مفعّل لم يُعلّ وذاك على مفعّلٍ قد أعلّ
فقلتُ مقالاً على صدقه شهيدٌ من العقل لا يستزلّ
بناء البليغ أتى سالماً سلامته من فضول الخطل
وأسهبَ ذلك مسيئاً فزلّ زليلاً ثني متته فانخذل
وأحسنَ ذا فجَرى وصفهُ على سننِ المحسن المستقل
فهذا مقالي مستبصراً ولستُ كمن قال حدساً فضل
تقلدتُ في رأيه مذهباً يخصك بين الطّبي والأسل
سموك في الروع مستشرفاً إلى مهجة المستميت البطل
كأنك فيها هلالُ السما يزيدُ بهاءً إذا ما أهلّ
بلّ أنتَ مطلٌ كبدرِ السماء يُمضي الظلام إذا ما أطلّ

قلت : رأيت في بعض الحواشي الأندلسية : أن ابن السكيت ذكر في بعض كتبه في بعض ما جعله بعضُ العرب فاعلاً وبعضهم مفعولاً : رجل مُسْهِبٌ ومُسْهِبٌ ، لكثير الكلام ، وهذا يدل على أنّهما بمعنى واحد ، انتهى .

٥٣٠ - وسأل بعضُ الأدباء الأستاذَ الأعلّم المذكور عن المسألة الزنبورية ، المقترنة بالشهادة الزورية ، الجارية بين سيويه والكسائي أو الفراء ، والقضاء بينهم فيها ، وهي « ظننت أن العقرَبَ أشدُّ لسعةً من الزنبور ، فإذا هو هي ، أو إياها » ، وعن نسب سيويه : هل هو صريح أو مَوْلَى ؟ وعن سبب لزومه الخليل بعد أن كان يطلب الحديث والتفسير ، وعن علّة تعرضه لمناظرة الكسائي والفراء ، وعن كتابه الجاري بين الناس : هل هو أولُ كتاب أو أنشأه بعد كتاب أولِ ضاع كما زعم بعض الناس ؟

فأجاب : أما المسألة الزنبورية الماثورة بين سيويه والكسائي ، أو بينه وبين

الفراء على حسب الاختلاف في ذلك ، بحضرة الرشيد ، أو بحضرة يحيى بن خالد البرمكي فيما يروى ، فقد اختلفت الرواة فيها : فمنهم من زعم أن الكسائي أو الفراء قال لسيبويه : كيف تقول « ظننت أن العقرب أشدُّ لسعةً من الزنبور ، فإذا هو هي ، أو إياها » ؟ فأجاب سيبويه - بعد أن أطرقَ شيئاً - « فإذا هو إياها » في بعض الأقاويل ، وزعم آخرون أنه قال « فإذا هو هي » ففيها من الاختلاف عنهم ما ترى ، فإن كان أجاب بإذا هو هي ، فقد أصاب لفظاً ومعنى ، ولم تدخل عليه في جوابه شُبُهَةٌ ، ولا علقمة لمعرض ، لأن « إذا » في المسألة من حروف الابتداء المتضمنة للتعليق بالخبر ، فإذا اعتبرت المضميرين بعدها بالاسمين المظهرين لزمك أن تقول « فإذا الزنبورُ العقربُ » أو « اللسعة اللسعة » أي مثلها سواء ، فلو قلت « فإذا هو إياها » بنصب الضمير الأخير للزمك أن تقول : فإذا الزنبورُ العقربَ ، بالنصب ، وهذا لا وجه له ، فإذا لم يجوز نصب الخبر المظهر فكيف يجوز نصب الخبر المضمّر الواقع موقعه ؟ ويروى في المسألة أن الكسائي أو الفراء قال لسيبويه بعد أن أجاب برفع الضميرين على ما يوجبه القياس : كيف تقول يا بصري « خرجت فإذا زيد قائم ، أو قائماً » ؟ فقال سيبويه : أقول « قائم » ولا يجوز النصب ، فقال الكسائي : أقول قائم وقائماً ، والقائمُ والقائمَ ، بالرفع والنصب في الخبر مع النكرة والمعرفة ، فتأول الكسائي والفراء في اختيارهما « فإذا هو إياها » حمل الخبر المضمّر في النصب على الخبر المظهر المعرفة مع الإعراب بوجه النصب ، فكأنه قال : فإذا الزنبور العقربَ ، كما تقول : فإذا زيد القائمَ ، فيجري المعرفة في النصب مجرى النكرة ، وقولهما في هذا خطأ من جهتين : إحداهما : أن نصب الخبر بعد إذا لا يكون إلاّ بعد تمام الكلام الأول في الاسم مع حرف المفاجأة ، ومع كون الخبر نكرة ، كقولك : خرجت فإذا زيد قائماً ، لأنك لو قلت « خرجت فإذا زيد » تمّ الكلام ، لتعلّق المفاجأة بزيد على معنى حضوره ، ثم تُبيّن حاله في المفاجأة المتعلقة به فتقول « قائماً » أي : خرجت ففاجأني زيد في هذا الحال ،

وقوله في المسألة « إياها » لا يتم الكلام في الاسم الأول دونها ، ألا ترى أنك لو قلت « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو » وسكت ، لم يتم الكلام أولاً ، ولا أفدت بذكر المفاجأة وتعليقها بالزنبور فائدة ، وإنما المفاجأة للضمير الآخر ، فلا بد من ذكره والاعتماد عليه ، وهذا يوجب الرفع في الخبر ؛ لأن الظرف له ، لا للمخبر عنه ، فهذا بيّن واضح ، والجهة الأخرى في غلطهما أن « إياها » معرفة ، والحال لا تكون إلا نكرة ، فقد اجتمع في قولهما مع أتياً بحال لم يتم الكلام دونها ، معرفة ، والحال لا تكون إلا بعد تمام الكلام ومع التنكير ، فقد تبين خطأهما وإصابة سبويه في لزوم الرفع في الخبر فقط .

وأما من زعم عن سبويه أنه قال « خرجت فإذا زيد قائم » بالرفع لا غير فباطل ، وكيف يُنسب إليه وهو علمنا أن الظرف إذا كان مستقراً للاسم المخبر عنه نصب الخبر ، وإذا كان مستقراً للمخبر رفع الخبر ، ونحن نقول « خرجت فإذا زيد » فيتم الكلام ، و « نظرت فإذا الهلال طالع » فيتبعه الخبر رفعاً ، كما تقول « في الدار زيد قائم ، وقائماً » و « اليوم سيرك سريع ، وسريعاً » ، ولكن الخبر إذا كان الظرف له ولم يتعلّق إلاّ به لم يكن إلا رفعاً ، كقولك « اليوم زيد منطلق ، وغداً عمرو خارج » لأن الظرف لا يكون مستقراً للاسم المخبر عنه إذا كان زماناً ، والمخبر عنه جثّة ، وكذلك المفاجأة إذا كانت للخبر لم يكن إلاّ مرفوعاً ، معرفة كان أو نكرة ، فإذا كانت للمخبر عنه والخبر نكرة انتصب على الحال ، فجرى قولك « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي ، وظننت زيداً عالماً فإذا هو جاهل » في لزوم الرفع في الخبر مجرى « اليوم زيد منطلق ، وغداً عمرو خارج » كما جرى « خرجت فإذا زيد قائم ، وقائماً » في جواز الرفع والنصب مجرى « في الدار زيد جالس ، وجالساً » ، فتأمل الفرق بينهما وحصله ، فإن النحويين المتقدمين والمتأخرين قد أغفلوا الفرق بين المفاجأتين .

وأما نصب الخبر المعرفة بعد إذا ، تم الكلام أو لم يتم ، فباطل لا تقوله

العرب ، ولا يجيزه إلا الكوفيون .

وإن كان سيبويه رحمه الله تعالى أجاب بقوله « فإذا هو إياها » كما روى بعضهم فظاهر جوابه مدخول ، لما قدمت ، والخطأ فيه بين من جهة القياس كما ذكرنا ، فإن كان قاله والترمه دون الرفع فقد أخطأ خطأ لا مخرج له منه ، وإن كان قد قاله وهو يرى أن الرفع أولى وأحق ، إلا أنه أثر النصب للإعراب حملاً على المعنى الخفي ، دون ما يوجبه القياس واللفظ الجلي ، فلجوابه عندي وجهان حسان :

أحدهما : أن يكون الضمير المنصوب وهو « إياها » كناية عن السعة ، لا عن العقرب ، والضمير المرفوع كناية عن الزنبور ، فكأنه قال « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا الزنبور لسعة العقرب » أي فإذا الزنبور يلسع لسعة العقرب ، فاختزل الفعل لما تقدم من الدليل عليه ، بعد أن أضمر للسعة متصلة بالفعل ، فكأنه قال « فإذا الزنبور يلسعها » فاتصل الضمير بالفعل لوجوده ، فلما اختزل الفعل انفصل الضمير ، لعدم الفعل .

ونظير هذا من كلام العرب قولهم « إنما أنت شرب الإبل » أي : إنما أنت تشرب شرب الإبل ، فاختزل الفعل ، وبقي عمله في المصدر ، ولم يرفع لأنه غير الاسم الأول ، فلو أضمرت شرب الإبل بعدما جرى ذكره فقلت « ما يشرب زيد شرب الإبل ، إنما أنت تشربه » لاتصل الضمير بالفعل ، فلو حذفته لانفصل الضمير فقلت « إنما أنت إياه » فتدبره تجده متقاداً صحيحاً .

والوجه الآخر : أن يكون قوله « فإذا هو إياها » محمولاً على المعنى الذي اشتمل عليه أصل الكلام من ذكر الظن أولاً وآخرأ ، لأن الأصل في تأليف المسألة « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فلماً لسعني الزنبور ظننته هو إياها » فاختصر الكلام لعلم المخاطب ، وحذف الظن آخرأ لما جرى من ذكره أولاً ، ودلت « إذا » لما فيها من المفاجأة على الفعل الواقع بعد لما الدالة على وقوع الشيء لوقوع غيره ، فإذا جاز حذف الكلام إثارة للاختصار مع وجود الدليل على

المحذوف كان قولنا « فإذا هو إياها » بمنزلة قولنا « فلماً لسعني الزنبور ظننته هو إياها » فحذف الظن مع مفعوله الأول ، وبقي الضمير الذي هو العماد والفصل مؤكداً للضمير المحذوف مع الفعل ودالاً على ما يأتي بعده من الخبر المحتاج إليه ، فيكون في حذف المخبر عنه لما تقدم من الدليل عليه مع الإتيان بالعماد والفصل المؤكد له المثبت لما بعده من الخبر المحتاج إليه مثل قوله ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (آل عمران : ١٨٠) فحذف البخل الذي هو المفعول الأول لقوله « يحسبن » وبقي الضمير مؤكداً له مثبتاً لما بعده من الخبر ، وجاز حذفه لدلالة « يبخلون » عليه ، والمعنى : لا يحسبن الذين يبخلون البخل هو خيراً لهم ، فهو في المسألة عماد مؤكد لضمير الزنبور المحمول على الظن المضمر ومثبت لما يجيء بعده من الخبر الذي هو « إياها » ففهمه فإنه متمكن من جهة المعنى ، وجاز من الاختصار لعلم المخاطب على قياس وأصل ، وشاهد القرآن في الحذف واستعمال العرب النظائر ، وهي أكثر من أن تحصى ، فمنها قولهم « ما أغفله عنك شيئاً » أي تثبت شيئاً ودع الشك ، وقولهم لمن أنكرك عليه ذكر إنسان ذكره « من أنت زيداً » أي : من أنت تذكر زيداً ، وربما قالوا « من أنت زيد » بالرفع على تقدير : من أنت ذكرك زيد ، فحذفوا الفعل مرة وأبقوا عمله ، وحذفوا المبتدأ أخرى وأبقوا خبره ، وكل ذلك اختصار ، لعلم المخاطب بالمعنى ، وكذلك قولهم « هذا ولا زعماتك » أي هذا القول والزمع الحق ولا أتوهم زعماتك ، فحذف هذا لعلم السامع مع تحصيل المعنى وقيامه عند المخاطب ، والحمل في كلامهم على المعنى أكثر من أن يحصى .

فإن كان الضمير الأول في المسألة للزنبور والضمير الآخر للعقرب لم يجوز البتة إلا رفع الضميرين بالابتداء والخبر ، على حد قولك « ظننت زيداً عاقلاً فإذا هو أحق ، وحسبت عبد الله قاعداً فإذا هو قائم » ولو تقدم ذكر الخبر والمخبر عنه لقلت « فإذا هو هو » ولم يجوز فإذا هو إياه البتة . ويجوز في المسألة

إذا قلت : فإذا هو ، لأبى أن يكون الضمير للزنبور والعقرب على حد قولك « الزنبور العقرب » ويجوز أن تقول « فإذا هي هو » على التقديم والتأخير على حد قولك « فإذا العقربُ الزنبورُ » أي سواء في شدة اللسعة كما تقول « خرجت فإذا قائم زيد » على تقدير فإذا زيد قائم ، ويجوز أن يكون « هو » كناية عن اللسع بدلالة اللسعة عليه ، وتكون « هي » كناية عن اللسعة على تقدير : فإذا لسع الزنبور لسعة العقرب ، ويجوز « فإذا هي هو » على إضمار اللسعة واللسع ، والتقدير : فإذا لسعة الزنبور لسع العقرب ، وهذا كله لا يجوز فيه إلا الرفع عند البصريين ؛ لأن الآخر هو الأول ، والخبر معرفة متعلّق بالمفاجأة فلا يجوز فيه الحال ، والكوفيون يميزون النصب كما تقدم ، وهو غلط بيّن ، وخطأ فاحش ، لا تقوله العرب ، ولا تعلق له بقياس ، فاعلمه .

ويجوز في المسألة « فإذا هو هو » على تقدير : فإذا اللسع اللسع ، ويجوز « فإذا هي هي » على تقدير : فإذا اللسعة اللسعة ، وفي هذا كفاية إن شاء الله تعالى .
وأما نسب سيبويه ففارسي مولى لبني الحارث بن كعب بن علة بن خلدة ابن مالك ، وهو مدّحج ، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر ، وكنيته أبو بشر ، ولقبه الذي شهر به سيبويه ، ومعناها بالفارسية رائحة التفاح ، وكان من أطيب الناس رائحة ، وأجملهم وجهاً ، وقيل : معنى « سي » ثلاثون ، ومعنى « بويه » رائحة ، فكأن معناها : الذي ضوعف طيب رائحته ثلاثين مرة .

وأما سبب تعويله على الخليل في طلب النحو - مع ما كان عليه من الميل إلى التفسير والحديث - فإنه سأل يوماً حماد بن سلمة فقال له : أحدّثك هشام ابن عروة عن أبيه في رجل رَعَفَ في الصلاة ، بضم العين ، فقال له حماد : أخطأت ، إنّما هو رَعَفَ بفتح العين ، فانصرف إلى الخليل ، فشكا إليه ما لقيه من حماد ، فقال له الخليل : صدق حماد ، ومثل حماد يقول هذا ، ورَعَفَ بضم العين لغة ضعيفة ، وقيل : إنّه قدِمَ البصرة من البسداء من قرى شيراز من عمل فارس ، وكان مولده ومنشؤه بها ، ليكتب الحديث ويرويه ، فلزم حلقة حماد

ابن سَلَمَة ، فبينما هو يستملي على حماد قولَ النبي صلى الله عليه وسلم « ليس مِن أصحابي إلاّ من لو شئتُ لأقدتُ عليه ، ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه « ليس أبو الدرداء » بالرفع ، وخصّته اسم ليس ، فقال له حماد : لحت يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، إنّما ليس ههنا استثناء ، فقال سيبويه : سأطلب علماً لا تلحنني فيه ، فلزم الخليل ، وبرع في العلم .

وأما سبب وفوده على الرشيد ببغداد وتعرّضه لمناظرة الكسائي والقراء ، فلما كانا عليه من تمكّن الحال ، والقرب من السلطان ، وعلوّ همّته ، وطلبه للظهور مع ثقته بعلمه ؛ لأنّه كان أعلم أهل زمانه ، وكان بينه وبين البرامكة أقوى سبب ، فوفد على يحيى بن خالد بن برمك وابنيه جعفر والفضل ، فعرض عليهم ما ذهب إليه من مناظرة الكسائي وأصحابه ، فسعوا له في ذلك ، وأوصلوه إلى الرشيد ، فجرى بينه وبين الكسائي والقراء ما ذكر واشتهر ، وكان آخر أمره أن الكسائي وأصحابه لما ظهروا عليه بشهادة الأعراب على حسب ما لقنوا أن قال يحيى بن خالد أو الكسائي للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن لا يرجع خائباً فعلت ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وانصرف إلى الأهواز ، ولم يُعرج على البصرة ، وأقام هنالك مدّة إلى أن مات كمدّاً ، ويروى أنّه ذرّبت معدته فمات ، فيرون أنّه مات غمّاً ، ويروى أن الكسائي لما بلغه موته قال للرشيد : ده يا أمير المؤمنين فإنّي أخاف أن أكون شاركتُ في دمه ، ولما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه فقطرت دمه من دموعه على خده ، فرفع عينيه وقال : أُخَيَيْنِ كُنَّا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا إِلَى الأمد الأقصى ، ومن يأمن الدهرا ؟

ومات على السنّة والجماعة ، رحمه الله تعالى .

وأما كتابه الجاري بين الناس فلم يصح أنّه أنشأه بعد كتاب آخر قبله ، على أن ذلك قد ذُكر .

فهذا ما حضر فيما سألت عنه ؛ فمن قرأه وأشرف فيه على تقصير فليبسط

العذر فإنه لساعتين من نهار ، إملأ يوم الثلاثاء عشي النهار لثمان خلون لصفر
سنة ٤٧٦ ، انتهى .

٥٣١ - وقال الإلييري ، رحمه الله تعالى ^١ :

لا شيء أخسرُ صَفْقَةً مِنْ عَالَمٍ لعبتُ بِهِ الدُّنْيَا مَعَ الْجَهَالِ
فَعِنْدَا يَفْرُقُ دِينَهُ أَيْدِي سَبَا ويذيله حرصاً يجمع المَالِ
لا خَيْرَ فِي كَسْبِ الْحَرَامِ ، وَقَلَّمَا يُرْجَى الْخِلَاصُ لِكَاسِبِ الْحَلَالِ
فَعِزُّ الْكِفَافِ وَلَا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ فَالْفَضْلُ تَسْأَلُ عَنْهُ أَيُّ سَوَالِ

٥٣٢ - وكان أبو الفضل ابن الأعلم من أحسن الناس وجهاً ، وأذكرهم
في علم النحو والأدب ، وأقرأ النحو في صباه ، وفيه يقول ابن صارة الأندلسي ،
رحمه الله تعالى ^٢ :

أَكْرَمُ بِجَعْفَرِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ ما زال يوضحُ مشكلَ «الإيضاح»
ماءُ الْجَمَالِ بِوَجْهِهِ مَتَرَفَرُقٌ فالعينُ منه تَجُولُ في ضَحْضَاحِ
ما خدُّهُ جَرَحَتْهُ عَيْنِي ، إِنَّمَا صبغتُ غِلَالَتَهُ دِماءَ جِراحِي
لِلَّهِ زَائِيُ زَبْرَجِدٍ فِي عَسْجِدِ في جَوْهَرٍ فِي كَوْثَرٍ فِي رَاحِ
ذِي طَيْرَةٍ سَبَجِيَّةٍ ، ذِي غُرَّةٍ عاجيةً ، كالليلِ والإصباحِ
رَشَأُ لَهُ خَدُّ الْبَرِيِّ ، وَلِحْظُهُ أبدأُ شريكُ الموتِ في الأرواحِ ^٣

٥٣٣ - وقال محمد بن هانيء الأندلسي من قصيدة ^٤ :

السافراتُ كأنهنَّ كواكبٌ والناعماتُ كأنهنَّ غصونُ

١ ديوان الإلييري : ٨١ .

٢ قد مر هذا ص : ٧٣ - ٧٤ من هذا الجزء .

٣ زاد في م بعده : وقد سبقَت هذه الأبيات قبل هذا .

٤ ديوان ابن هانيء : ١٧١ .

ماذا على حُلِّ الشقيق لَوَّأها
لأعطشنَ الروض بعدهمُ ولا
أعيرَ لخطَ العين بهجةَ منظرٍ
لا الجوّ جوَّ مشرقٌ وإن اكتسى
لا يبعدنَ إذ العبيرُ لهُ ثرى
الظلُّ لا متنقلٌ ، والحوضُ لا
عن لابسها في الخلود تينُ
يرويه لي دمعٌ عليه هَتُونُ
وأخونهم ؟ إنَّني إذنُ لَحَوُونُ
زهواً ، ولا الماءَ المعينُ معينُ
والبانُ روح ، والشموسُ قطينُ
متكدرٌ ، والأمنُ لا ممنونُ

٥٣٤ - وقال القَسْطَلِي في أسطول أنشأه المنصور بن أبي عامر من قصيدة ١ :

تَحَمَّلَ منهُ البحرُ بجرأ من القَنَا
بكلِّ ممالاتِ الشراعِ كأنَّها
إذا سابتْ شأوَ الرياحِ تخيلتُ
سحائبُ تزجها الرياحُ فإن وفَت
ظباءِ سمام ما لهنَّ مفاحصُ
سواكنُ في أوطانهنَّ كأنَّ سَمَا
كما رفعَ الآلُ الهوادجَ بالضحى
أراقمُ تحوي نافعَ السمِّ ما لها
يروعُ بها أمواجهُ ويهولُ
وقد حملتُ أسدَ الحقائقِ غيلُ
خيولاً مدى فرسانهن خيولُ
أطافتُ بأجبادِ النعامِ فيولُ
وزرق حمامٍ ما لهنَّ هديلُ
بها الموجُ حيثُ الراسياتُ نزولُ
غداةَ استقلتُ بالخليطِ حُمولُ
بما حملتُ دونَ العُداةِ مَقيلُ

وقد أظنبت الناس في وصف السفن وأطابوا ، وقرّطسوا القرىضَ
وأصابوا ، وقد ذكرنا نبذة من ذلك في هذا الكتاب .

٥٣٥ - وقال أبو بحر صَمَوَان بن إدريس التُّجِيبِي : حدثني بعض الطلبة
بمراكش أن أبا العباس الجراوي كان في حانوت ورّاق بتونس ، وهناك فني
يميل إليه ، فتناول الفتى سوسنة صفراء ، وأوماً بها إلى خديه مشيراً ، وقال :
أين الشعراء ؟ تحريكاً للجراوي ، فقال ارتجالاً :

١ ديوان ابن دراج : ٥ .

وعُلُوِيَّ الجِمالِ إذا تَبَدَّى أراكَ جِيسَنَهُ بدرًا أنارا
أشار بسوسنٍ يحكيه عَرَفًا ويحكي لونَ عاشِقِهِ اصفرارا

قال أبو بجر : ثم سألتني أن أقول في هذا المعنى ، فقلت بديهاً :

أومى إلى خدّه بسوسنة صفراء صيغت من وجنتي عبده
لم ترَ عيني من قبله غُصنًا سوسنُهُ نابتٌ إذا ورده
أعملتُ زَجْرِي فقلتُ ربّتما قرّب خدّ المشوق من خدّه

فحدثني المذكور أنه اجتمع مع أبي بكر ابن يحيى بن مجبر ، رحمه الله تعالى ،
قبل اجتماعه بي في ذلك الموضوع الذي اجتمع فيه بي بعينه ، فحدثه بالحكاية كما
حدثني ، وسأله أن يقول في تلك الحال ، فقال بديهاً :

بي رشاً وسنانٌ مهما انثني حار قضيبُ البان في قدّه
مُدٌّ ووليّ الحسنِ وسلطانهُ صارت قلوبُ الناس من جنده
أودع في وجنته زهرة كأنّها تجرّع من صدّه
وقد تفاءلتُ على فعله أني أرى خدي على خدّه

فتعجبت من توارده خاطرنا على معنى هذا البيت الأخير .

قال أبو بجر : ثم قلت في تلك الحال :

أبرزَ من وجنته وردةٌ أودعها سوسنةً صَفْرا
ولنّما صورتهُ آيةٌ ضمّنها من سوسنٍ عَشرا

٥٣٦ - وقال بعضهم^١ في الباذنجان :

ومستحسن عند الطعام مُدَحْرَجٍ غَدَاهُ نَمِيرُ الماءِ في كلِّ بستانٍ

١ م : بعض شعراء الأندلس .

تَطَّلَعَ فِي أَمْعَائِهِ فَكَأَنَّهُ قُلُوبُ نَعَاجٍ فِي مَخَالِبِ عَقْبَانٍ

٥٣٧ - وقال ابن خروف ، ويقال إنَّها في وصف دمشق :

إِذَا رَحَلَتْ عَرَّوبَةٌ عَنْ حِمَاها إِلَى سَبْتِ حَكِي فِرْعَوْنَ مُوسَى يَجْمَعُ كُلَّ سَحَّارٍ عَليْمٍ
فَتَبْصِرُ كُلَّ أُمَّلُودٍ قَوْمٍ يَمِيسُ بِكُلِّ ثَعْبَانٍ عَظِيمٍ
إِذَا انْسابَتْ أَراقِمُها عَلَيْها تَذَكُرنا بِها لَيْلَ السَّليْمِ
وَشاهَدنا بِها فِي كُلِّ حِينٍ حِبالاً أَلْقَيْتَ نَحْوَ الكَلِيمِ

٥٣٨ - وقال أبو القاسم ابن هشام^١ ارتجالاً في وسيم عض وردة ثم رمى

بها ، وسئل ذلك منه امتحاناً :

وَمعجَزِ الأوصافِ وَالوَصافِ فِي بُرْدَيَّ جِمالِ طُرُزًا بِالتَّيِّهِ
سَوسانُ أَمَلَهُ تَنَاولَ وَردَةً فغدا يَمزِقُها أَقاحي فِيهِ
فَكَأَنِّي سَهِبْتُ وَجَنَّتَهُ بِها فَرَمي بِها غُضْباً عَلى التَّشبيهِ

وقال أيضاً^٢ فيمن عض كلبٌ وجنتته :

وَأُعِيدَ وَضاحِ المَحاسِنِ بِاسمِ إِذا قامِرِ الأَسِيفِ نَاطِرُهُ قَمَرُ
تَعَمَدَ كَلْبٌ عَضَّ وَجَنَّتَهُ الَّتِي هِيَ الوَرْدُ إِيناعاً وَأَبقى بِها أَثَرُ
فَقَلْتُ لَشُهَبِ الأَفقِ كِيفَ صُماتِكم وَقَدِ أَثَرَ العَوَّاءِ فِي صَفحَةِ القَمَرِ

٥٣٩ - وقال آخر يصف شجّة في خد وسيم :

عذيري من ذي صفحةٍ يوسُفيّةٍ بِها شَجَّةٌ جَلَّتْ عَنِ اللِّثَمِ وَاللِّمَسِ

١ ترجمة أبي القاسم ابن هشام في زاد المسافر : ٦٢ .

٢ م : وقال آخر .

يقولون من عَجَبٍ : أَحْسَنُ وَصْفِهَا قُلْتُ : هَلَالٌ لَاحٌ فِي شَقِّ الشَّمْسِ

٥٤٠ - وقال القاضي أبو الوليد الوقشي فيمن طَرََّ شاربُهُ ١ :

قَدْ بَيَّنْتُ فِيهِ الطَّبِيعَةَ أَنَّهَا لَبْدِيعُ أَفْعَالِ المِهْنَدِسِ بَاهِرَةٌ
عُنِيَتْ بِمِسْمِهِ فَخَطَّتْ فَوْقَهُ بِالْمَسْكِ خَطًّا مِنْ مِحِيطِ الدَّائِرَةِ

٥٤١ - وقال أبو الحسن ابن عيسى :

عَابُوهُ أَسْمَرَ نَاحِلًا ذَا زَرْقَةٍ رَمَدًا وَظَنُّوْا أَنَّ ذَاكَ يَشِينُهُ
جَهَلُوا بِأَنَّ السَّمْهَرِيَّ شَبِيهَهُ وَخَضَابُهُ بَدَمِ القُلُوبِ يَزِينُهُ

٥٤٢ - وقال الأستاذ أبو ذر الحشني :

أَنْكَرَ صَحْبِي إِذْ رَأَوْا طَرْفَهُ ذَا حَمْرَةٍ يَشْفِي بِهَا المَغْرَمُ
لَا تَنْكُرُوا مَا أَحْمَرٌ مِنْ طَرْفِهِ فَالسَيْفُ لَا يُنْكَرُ فِيهِ الدَّمُ

٥٤٣ - وقال أبو عبد الله محمد^٢ بن أبي خالص الرندي :

يَا شَادِنًا بَرَزِ العِدَارُ بِخَدِّهِ وَازْدَادَ حُسْنًا ، لَيْتَهُ لَمْ يَبْرَزِ
الآنَ أَعْلَمُ حِينَ جَدَّ بِي الهَوَى كَمْ بَيْنَ مَخْتَصِرٍ وَبَيْنَ مَطْرَزِ

٥٤٤ - وقال أبو الحسين عبد الملك بن مفوِّز المَعَاوَرِي :

وَمَعْدَرٍ مِنْ خَدِّهِ وَرَقِيهِ شَغْلَانٌ حَلَاءً عَقْدَ كُلِّ عَزِيمَةٍ
خَدٌّ وَخَبٌّ عَيْلِ صَبْرِي مِنْهُمَا هَذَا بِنَمْنَمَةٍ وَذَا بِنَمِيمَةٍ

٥٤٥ - وقال أبو الوليد ابن زيدون فيمن أصابه جُدْرِي^٣ :

١ مر البيتان ، انظر ج ٣ : ٣٧٦ .

٢ محمد : سقطت من م .

٣ ديوان ابن زيدون : ١٢٤ .

قال لي اعتلّ من هويّ حَسودٍ قلتُ : أنت العليلُ ويحك لا هو
ما الذي قد نكرتَ من بثرات ضاعفتَ حسنهُ وزانتَ حلاهُ
جسمهُ في الصفاء والرقّة الما ء فَلَ غرَوَ أنْ حبابُ علاهُ

٥٤٦ - وقال الهيثم^١ :

قالوا : به جرَبٌ فقلت لهم قِفُوا تلكَ الندوبُ مواقعُ الأبصارِ
هو روضةٌ والقدُّ غصنٌ ناعمٌ أرايتمُ غصناً بلا نوارِ

٥٤٧ - وقال أبو بكر محمد بن عياض القرطبي^٢ في مخضوبة الأنامل :

وعَلِقْتُهَا فَتَانَةً أَعْطَافُهَا تُزْرِي بَغْضَنِ الْبَانَةِ الْمِيَادِ
من للغزاةِ والغزالِ بحسنيها في الخلدِ أو في العينِ أو في الهادي
خَضِبَتْ أَنَامِلُهَا السَّوَادَ وَقَلَمًا أَبْصَرْتُ أَقْلَامًا بِغَيْرِ مَدَادِ

٥٤٨ - وقال أبو الحسين النفزي^٣ :

بدا يوسفًا وشداً معبداً فللعينِ ما تشتهي والأذنُ
كَأَنَّ بِأَعْلَاهُ قُمْرِيَّةً تغردُ من قدّه في غُصْنِ

٥٤٩ - وقال ابنُ صارة :

مُقَامٌ حَرٌّ بِأَرْضِ هُونٍ عَجَزَ لِعَمْرِي مِنَ الْمَقِيمِ
سَافِرٌ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ كَرِيمًا فَمَنْ لَيْثِمٍ إِلَى لَيْثِمِ

١ زاد في م : في من اعتل يجرب .

٢ ترجمته في التكملة : ٥١٥ .

٣ م : وقال أبو الحسن النفزي في مهفهم أييف .

وقال المعتمد بن عباد ، رحمه الله تعالى ١ :

مولايَ أشكو إليك داءً أصبحَ قلبي به قريحاً
سخطك قد زادني سقاماً فابعثْ إليَّ الرضى مسيحاً

قال بعضهم : وقوله « مسيحاً » من القوافي التي يتحدى بها .
وكتب إلى أبيه جواباً عن تحفة ٢ :

يا مالكاً قد أصبحتُ كفهُ ساخرةً بالعارضِ الهاطلِ
قد أفحمتني منةٌ مثلها يضيِّقُ القولَ على القائلِ
وإن أكنُ قصرتُ في وصفها فحسنها عن وصفها شاغلي

وكتب إلى وزيره ابن عمار :

لما نأيتَ نأى الكرى عن ناظري ووددتهُ لما انصرفتُ عليهِ
طلبَ البشيرُ بشارةً يُجزى بها فوهبتُ قلبي واعتذرتُ إليه

وقال في جارية له كان يحبها ، وبينما هي تسقيه إذ لمع البرق فارتاعت :

يررُوعها البرقُ وفي كفِّها برقٌ من القهوةِ لتاعُ
ياليتَ شعري وهى شمس الضحى كيف من الأنوارِ ترتاعُ

ومن توارُد الخواطر أن ابن عبّاد أنشد عبدَ الجليل بن وهبون البيت
الأول ، وأمره أن يذيله ، فقال :

ولنَ ترى أعجبَ من أنسٍ مِنْ مثلِ ما يمسك يرتاعُ

١ ديوان المعتمد : ٣٣ .

٢ وردت هذه القطع في ديوان المعتمد ٤٢ ، ٦٣ ، ٣١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ٣ ، ١٠ ، ٢٥ ، ٧ .

وقال المعتمد ، رحمه الله تعالى :

داوى ثلاثته بلطف ثلاثة ففى بذاك رقيه لم يشعر
أسراره بتستر ، وأواره بتصبر ، وخباله بتوقر

وكانت له جارية اسمها « جوهرة » وكان يحبها ، فجرى بينهما عتاب ،
ورأى أن يكتب إليها يسترضيها ، فأجابته برقعة لم تعنونها باسمها ، فقال :

لم تصف لي بعد وإلا فلم
درت بأنني عاشق لاسمها
قلت : إذا أبصره ثابتاً
لم أر في عنوانها جوهرة
فلم ترد للغيب أن تذكره
قبله ، والله لا أبصره

وقال في هذه الجارية :

سرورنا بعدكم ناقص
والسعد إن طالعنا نجمه
سموك بالجوهر مظلومة
والعيش لا صاف ولا خالص
وغبت فهو الآفل الناكص
مثلك لا يدركه غائص

وقال فيها أيضاً :

جوهرة عذبي
فزفرتي في صعد
يا كوكب الحسن الذي
مسكنك القلب ، فلا
منك تمادي الغضب
وعبرتي في صباب
أزرى بيزهر الشهب
ترضي له بالوصب

وقال في جارية اسمها وداد :

اشرب الكأس في وداد ودادك
وتأانس بذكرها في انفرادك

قمرٌ غابَ عن جفونكَ مرآهُ وسكناهُ في سوادِ فؤادكُ

وقال ١ :

لكَ اللهُ كم أودعتَ قلبيَ من أسَى
لحاظكَ طولَ الدهرِ حربٌ لمهجتي
وكم لك ما بين الجوانح من كَلِمٍ
ألا رحمةٌ تشيك يوماً إلى سِلْمِي

وقال :

قلتُ : متى ترَحمني ؟ قال : ولا طولَ الأبدِ

قلتُ : فقد أياستي من الحياة ، قال : قدِ

٥٥١ - وأهدى أبو الوليد ابن زيدون باكورة تفاحٍ إلى المعتضد والد

المعتمد ، وكتب له معها ٢ :

يا من تزينت الريا سةُ حينَ ألبسَ ثوبها
جاءتكَ جامدةُ المدا مِ فعخذ عليها ذوبها

٥٥٢ - وقال المعتمد وقد أمره أبوه المعتضد أن يصف مجنّاً فيه كواكب

فضة ٣ :

مجنٌ حكي صانعه السما لتقصر عنه طوال الرماحُ
وقد صوروا فيه شبهة الثريا كواكبَ تقضي لهُ بالنجاحُ

٥٥٣ - وقال ابن اللبّانة : كنتُ بينَ يدي الرشيد ابن المعتمد في مجلس

أنسه ، فورد الخبر بأخذ يوسف بن تاشفين غرناطة سنة ٤٨٣ ، فتفجّع وتلهف ،

١ سقط البيتان من م .

٢ ديوان ابن زيدون : ٢٢١ .

٣ ديوان المعتمد : ٢٩ .

واسترجع وتأسّف ، وذكر قصر غرناطة ، فدعونا لقصره باللوام ، ولملكه
بتراخي الأيام ، وأمر عند ذلك أبا بكر الإشبيلي بالغناء ، فغنى :

يا دار مية بالعلياء فالسندِ أقوتَ وطال عليها سالفُ الأمدِ

فاستحالت مسرته ، وتجهمت أسرته ، وأمر بالغناء من ستارته ، فغنى :

إن شئت أن لا ترى صبراً لمصطبرٍ فانظرُ على أيِّ حالٍ أصبحَ الطلُّلُ

فتأكد تطيره ، واشتد أربدادُ وجهه وتغيره ، وأمر مغنية أخرى من

سراريه بالغناء ، فغنت :

يا لهفَ نفسي على مالٍ أفرقه على المقلِّين من أهلِ المروءاتِ
إنَّ اعتذاري إلى مَنْ جاء يسألني ما لست أملك من إحدى المصيباتِ

قال : فتلافتُ الحال بأن قلت :

محلُّ مكرمة لا هدًى مبناهُ وشَمَلُ مأثرة لا شتت اللهُ
البيتُ كالبيت لكن زاد شرفاً أنَّ الرشيدَ مع المعتدِّ ركناهُ
ثاو على أنجم الجوزاء مقعدهُ وراحلٌ في سبيل السعد مسراهُ
حم على الملك أن يقوى وقد وصلت بالشرق والغرب يُمناهُ ويُسراهُ
بأسٌ توقد ، فاحمرت لواحظهُ ونائلٌ شبٌّ ، فاخضرت عذاراهُ

فلعمري لقد بسطت من نفسه ، وأعادت عليه بعض أنسه ، على أتني وقعت

فيما وقع فيه الكل لقولي « البيت كالبيت » . وأمر إثر ذلك أبا بكر بالغناء ،

فغنى :

ولمَّا قضينا من منى كلِّ حاجةٍ ولم يبقَ إلا أن تزَمَّ الركائبُ

١ ب : لاشته .

فَأَيُّقِنَّا أَنْ هَذَا التَّطِيرُ ، يَعْقِبُهُ التَّغْيِيرُ .

٥٥٤ - وقد كان المعتضد بن عباد - حين تصرمت أيامه ، وتدانى حمامه - استحضر مغنياً يغنيه ليجعل ما يبدأ به فألاً ، وكان المغني السوسي ، فأول شعر قاله :

نَطْوِي المَنَازِلَ عِلْمًا أَنْ سَتَطْوِينَا فَشَعَشَعِيهَا بِمَاءِ المَزْنِ وَاسْقِينَا
فمات بعد خمسة أيام ، وكان الغناء من هذا الشعر في خمسة أبيات .

٥٥٥ - وقال المعتمد بعدما خلع وسجن^١ :

قَبِحَ الدَّهْرُ فَمَاذَا صَنَعَا كَلَّمَا أُعْطِيَ نَفِيسًا نَزَعَا
قَدْ هَوَى ظُلْمًا بِمَنْ عَادَاتُهُ أَنْ ينادي كلَّ مَنْ يهوي : لَعَا
مَنْ إِذَا قِيلَ الخِي صَمٌّ ، وَإِنْ نَطَقَ العَافُونَ هَمْسًا سَمَعَا
قُلْ لِمَنْ يَطْمَعُ فِي نَائِلِهِ قَدْ أَزَالَ اليَأْسُ ذَاكَ الطَّمَعَا
رَاحَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا دَعْوَةَ جَبَّرَ اللهُ العُقَاةَ الضُّيْعَا

٥٥٦ - وقال ابن البانة : كنت مع المعتمد بأغمات ، فلما قاربت الصِّدْرَ ، وأزمنت السفر ، صرف حيلته ، واستنفد ما قبيلته ، وبعث إليّ مع شرف الدولة ولده - وهذا من بنيه أحسنُ الناسِ سَمْتًا ، وأكثرهم صَمْتًا ، تخجله اللفظة ، وتجرحه اللحظة ، حريص على طلب الأدب ، مسارع في اقتناء الكتب ، مثابر على نسخ الدواوين ، مفتوح فيها من خطه زهر الرياحين - بعشرين مثقالاً مرابطية ، وثوبين غير مخيطين ، وكتب معها أبياتاً منها^٢ :

إِلَيْكَ النَّزْرَ مِنْ كَفِّ الأَسِيرِ وَإِنْ تَقْنَعُ تَكُنْ عَيْنَ الشُّكُورِ

١ ديوان المعتمد : ١٠٨ .

٢ ديوانه : ١٠٢ .

تَقَبَّلَ مَا يَذُوبُ لَهُ حَيَاءٌ وَإِنْ عَدَّرَتْهُ حَالَاتُ الْفَقِيرِ

فَامْتَنَعَتْ مِنْ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَأَجَبْتَهُ بِأَيَّامٍ مِنْهَا :

تَرَكْتُ هَوَاكَ وَهُوَ شَقِيقُ دِينِي لَئِنْ شُقَّتْ بُرُودِي عَنْ غَدُورِ
وَلَا كُنْتُ الطَّلِيقَ مِنَ الرِّزَايَا إِذَا أَصْبَحْتُ أُجْحَفُ بِالْأَسِيرِ
جَدِيمَةً أَنْتَ ، وَالزَّبَاءَ خَانَتُ وَمَا أَنَا مِنْ يَقْصِرُ عَنْ قَصِيرِ
تُصَرِّفُ فِي النَّدَى حَيْلَ الْمَعَالِي فَتَسْمَحُ مِنْ قَلِيلٍ بِالكَثِيرِ
وَأَعْجَبُ مِنْكَ أَنْتَ فِي ظِلَامِ وَتَرْفَعُ لِلْعُقَاةِ مَنَارَ نُورِ
رَوَيْدِكَ سَوْفَ تَوْسِعُنِي سُرُورًا إِذَا عَادَ ارْتِقَاؤُكَ لِلسَّرِيرِ
وَسَوْفَ تَحْلِيْنِي رَتَبَ الْمَعَالِي غَدَاةَ تَحُلُّ فِي تِلْكَ الْقُصُورِ
تَزِيدُ عَلَيَّ ابْنَ مَرْوَانَ عَطَاءً بِهَا وَأَزِيدُ ثُمَّ عَلَيَّ جَرِيرِ
تَأْتِبُ أَنْ تَعُودَ إِلَى طُلُوعِ فَلَيْسَ الْخَسْفُ مَلْتَرَمَ الْبَدُورِ

وَأَتَّبَعْتُهَا أَبْيَاتًا مِنْهَا :

حَاشَ لِلَّهِ أَنْ أُجِيعَ كَرِيمًا يَتَشَكَّى فَقْرًا وَقَدْ سَدَّ فَقْرًا
وَكَفَانِي كَلَامُكَ الرُّطْبُ نِيْلًا كَيْفَ أُلْغِي دِرًّا وَأَطْلُبُ تَبْرًا
لَمْ تَمْتُمْ إِنَّمَا الْمَكَارِمُ مَاتَتْ لَا سَقَى اللَّهُ بَعْدَكَ الْأَرْضَ قَطْرًا

ورأى ابن اللبانة أحد أبناء المعتمد ، وهو غلام وسيم ، وقد اتخذ الصياغة صناعة ، وكان يلقب أيام سلطانهم من الألقاب السلطانية بفخر الدولة ، فنظر إليه وهو ينفخ الفحم بقصبة الصائغ ، وقد جلس في السوق يتعلم الصياغة ، فقال :

شَكَاتُنَا لَكَ يَا فَخْرَ الْعُلَا عَظُمَتْ وَالرِّزْقُ يَعْظُمُ مِمَّنْ قَدَرُهُ عَظُمَا
طُبُوقَتْ مِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ مُخْنُقَةً ضَاقَتْ عَلَيْكَ وَكَيْمَ طَوْقُنَا نِعْمًا
وَعَادَ طَوْقُكَ فِي دُكَّانِ قَارِعَةٍ مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتَ فِي قَصْرِ حِكْمِي لِأَرَمَا

صرفت في آله الصواع أتملة
يد عهدتك للتقبيل تبسطها
يا صائغاً كانت العليا تُصاغ له
للتفخ في الصور هؤل ما حكاه سوى
وددت إذ نظرت عيني إليك به
ما حطك الدهر لما حط عن شرف
لح في العلا كوكباً، إن لم تلح قمرأ
واصبر فربما أحمدت عاقبة
والله لو أنصفتك الشهب أنكسفت
أبكى حديثك حتى الدر حين غدا
لم تدّر إلا الندى والسيف والقلم
فتستقل الثريا أن تكون فما
حلياً وكان عليه الحلي منتظماً
هول رأيتك فيه تنفخ الفحماً
لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى
ولا تحيف من أخلاقك الكرماً
وقم بها ربوة ، إن لم تقم علماً
من يلزم الصبر يحمد غب ما لزم
ولو وفى لك دمع الغيث لانسجماً
يحكيك رهطاً وأفاظاً ومبتسماً

٥٥٧ - وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى ١ : وقفت على قبر
المعتمد بن عباد بمدينة أغمات في حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية ،
باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة ٧٦١ ، وهو بمقبرة أغمات في نشز
من الأرض ، وقد حفّت به سدرّة ، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة
رُميكت ، وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الحمول من بعد الملك ، فلا تملك العين
دمعها عند رؤيتها ، فأنشدت في الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يداً
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه
أناف قبرك في هضب يميزه
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علاً
رأيت ذلك من أولى المهمات
ويا سراج الليالي المدهمات
إلى حياتي لحادت فيه أبياتي
فتنتحيه حفيات التحيات
فأنت سلطان أحياء وأموات

١ انظر مشاهدات لسان الدين : ١٣٣ نقلا عن نفاضة الجراب ، وأزهار الرياض ١ : ٢٩٧ وستأتي
القصيدة في الباب الخاص بشعر لسان الدين .

ماريء مثلك في ماضٍ ، ومعتقدي أن لا يُرى الدهرَ في حال وفي آت
وقد زرت أنا قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات سنة ١٠١٠ ، ورأيت فيه
مثل ما ذكره لسان الدين رحمه الله تعالى ، فسبحان من لا يبِيدُ ملكه ،
لا إله إلا هو .
وأخبار المعتمد كثيرة .

٥٥٨ - وقال وزيره أبو الوليد ابن زيدون^١ :

متى أخف الغرام يَصِفُهُ جِسمي بألسنة الضنى الخرسِ الفِصاحِ
فلو أن الثياب نَزَعْنَ عني خفيتُ خفاء خصرِكَ في الوِشاحِ
وقال يخاطب المعتمد :

وطاعةُ أمركَ فرضٌ أراهُ من كلِّ مُفْتَرَضٍ أوْ كَدَا
هي الشرعُ أصبحَ دينَ الضميرِ فلوَ قد عصاكَ لقد أَلْحَدَا
وقال فيه :

يا نَدَى يَمْنَى أبي القاسمِ عمِّ يا سنا بشرَ المحيّا أشمسِ
وارتشف معسولَ نغْرِ أشنبِ لحبيبٍ من عجاجِ العَسِ
وقال :

مهما امتدحتُ سواكَ قبلُ فإنّما مدّحي إلى مدّحي لك استطرادُ
تغشى الميادينَ الفوارسُ حَقَبَةً كيما يعلمها التزالَ طرادُ
وقال :

١ وردت هذه المقطعات في ديوان ابن زيدون : ٤٢٩ ، ٢١٦ ، ٢١٢ ، ٤٦٥ ، ٤٣٦ ، ٢٢٩ .

يحييني بريحانِ التجني ويصحبني مُعتقةَ السماحِ
فها أنا قد ثملتُ من الأيادي إذا اتصل اغتباقي باصطباحي
وكتب إلى أبي عامر يستدعيه :

أبا المعالي نحنُ في روضة فانقلُ إلينا القَدَمَ العالِيهَ
أنتَ الذي لو نشترى ساعةً منهُ بدهرٍ لَمْ تكنْ غاليهَ

وتذكرت هنا قولَ بعضِ المشاركة فيما أظنّ :

لله أيامٌ مضتْ مأنوسةً ما كان أحسنها وأنصرها معا
لو ساعةٌ منها تُباع شريئها ولو آتاه بيعتُ بعمرى أجمعا

رجع :

٥٥٩ - وقال أبو القاسم أسعد من قصيدة في المعتصم بن صُمدح^١ :

وقد ذابَ كحلُ الليلِ في دمعِ فجره إلى أن تبدَّى الليلُ كاللثةِ الشمطا
كأنَّ الدُّجى جيشٌ من الزنجِ نافذٌ وقد أرسل الإصباحُ في إثره القبطا

ومنها :

إذا سارَ سارَ الجُودُ تحتَ لوائه فليس يحطُّ المجدُ إلاَّ إذا حطَّا

٥٦٠ - وقال ابن خلصة المكفوف^٢ النحوي من قصيدة :

ملكٌ تملكُ حرَّ المجدِ، لا يدُه نالت بظلم ولا مالت إلى البخلِ
مهذبٌ الجد ماضي الحدِّ مضطلعٌ لما تحمَّله العلياءُ من ثقلِ

١ المطمح : ٨٣ وقد مرت بعض أبيات هذه القصيدة ص : ٥١ .

٢ ترجمة ابن خلصة في التحفة (ص : ١) والوافي ٣ : ٤٢ ، ٢٣٢ .

أغرُّ ، لا وعده يخشى لهُ أبداً
 قد جاوزتْ نطق الجوزاء همته
 يأبى لهُ أن يحلَّ الذمُّ ساحتَه
 ومنها :

إن لم تكن بكمُ حالي مُبدَّلةً
 فما انتفاعي بعلمِ الحالِ والبدلِ

٥٦١ - وقال ابن الحداد يمدح المعتصم بن صُماح :

عُجُّ بالحمى حيثُ الغياضُ العِينُ
 واستقبلنَ أرجَ النسيمِ فدارهمُ
 أفقٌ إذا ما رمتَ لحظَ شموسهِ
 أتى أراعُ لهمُ وبينَ جوانحي
 أتى يهابُ ضرابهمُ وطعانهمُ
 فكأنما بيضُ الصفاحِ جداولُ
 ذرني أسرُ بينَ الأسنةِ والظبي
 يا ربةَ القرطِ المعيرِ خفوقهُ
 توريدُ خدكِ للصبابةِ موردُ
 فإذا رمقتِ فوحيُ جبكِ مُنزلُ
 فعمى تعنُّ لنا مهاهُ العِينُ
 نديَّةُ الأرجاءِ لا دارينُ
 صدَّتْكَ للنقعِ المثارِ دُجونُ
 شوقُ يهونُ خطبهمُ فيهونُ
 صبُّ بالخطِ العيونِ طعينُ
 وكأنما سمرُ الرماحِ غصونُ
 فالقلبُ في تلكَ القبابِ رهينُ
 قلبي ، أما لحراكه تسكينُ ؟
 وفتورُ طرفكِ للنفوسِ فتونُ
 وإذا نطقتِ فإنهُ تلقينُ

ومنها في وصف قصر :

رأسُ بظهر النونِ إلا أنهُ
 هو جنةُ الدنيا تبواً نُزلها
 فكأنما الرحمنُ عجلها لهُ
 وكانَ بانيهُ سينمارُ فما
 سام ، فقبتَه بحيثُ النونُ
 ملكُ تملكهُ الثقي والدينُ
 ليرى بما قد كان ما سيكونُ
 يعدوه تحسينُ ولا تحصينُ

وجزاؤه فيه نقيضُ جزائه شتانَ ما الإحياءُ والتحيينُ

ومنها في المديح :

لا تُلْفَحُ الأحكامُ حَيْفًا عندهُ فكأنها الأفعالُ والتنوينُ

ومنها :

وبدا هلالُ الأفقِ أحنى ناسخاً عهدَ الصيامِ كأنه العُرْجُونُ
فكانَ بَيْنَ الصومِ خَطَطَ نحوه خطأ خفياً بانَ منه النونُ

٥٦٢ - وقال عبد الجليل بن وهبون :

زعموا الغزالَ حكاة قلتُ لهم : نعم في صدّه عن عاشقيه وهجره
وكذا يَقُولون المدامُ كريقه يا ربُّ ما علموا مذاقة ثغره

٥٦٣ - وقال أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي وهب الأندلسي :

قالوا : تدانيتَ من وداعهمُ ولم نَرَ الصبرَ عنك مغلوباً
فقلتُ : للعلمِ أنِّي بغدٍ أسمعُ لفظَ الوداعِ مغلوباً

وهذا كقول بعض شعراء اليتيمة^١ :

إذا دهاكَ الوداعُ فاصبرُ ولا يروعنَّكَ البعادُ
وانتظرِ العودَ عن قريبٍ فإنَّ قلبَ الوداعِ عادوا

٥٦٤ - وقال ابن اللبّانة^٢ :

إن تكنُ تبتغي القتالَ فدعني عنك في حومةِ القتالِ أحمي

١ مر البيتان في ج ١ : ٩٢ .

٢ زاد في م : في التورية .

خذ جناني عن جنةٍ ، ولساني عن سنانٍ ، وخاطري عن حسامٍ

٥٦٥ - وقال القزاز يمدح ابن صُمادح ، وخطب النسيب بالمديح :

نفى الحبُّ عن مقلتي الكرى كما قد نفى عن يديَّ العدمُ
فقد قرَّ حبُّك في خاطري كما قرَّ في راحتك الكرمُ
وفرَّ سلوكك عن فكري كما فرَّ عن عرضه كلُّ ذمِّ
فحبَّبي ومفخره باقيا لا يذهبان بطولِ القِدمِ
فأبقى لي الحبَّ خالٌ وجدُّ وأبقى له الفخرَ خالٌ وعمُّ

٥٦٦ - وقال أبو الحسن ابن الحاج :

أذوبُ اشتياقاً يومَ يحجبُ شخصهُ ولأني على ريبِ الزمانِ لقاسي
وأذعرُ منه هيئةٌ وهو المني كما يدعُرُ المخمورَ أولُ كاسِ

وقال :

من لي بطرفٍ كأنني أبداً منه بغيرِ المدامِ مخمورُ
ما أصدقَ القائلين حينَ بدا : عاشقُ هذا الجمالِ معذورُ

وقال ١ :

أبا جعفرٍ ، مات فيك الجمالُ فأظهرَ خسدكُ لبسَ الحدادِ
وقد كان يُنبِتُ نورَ الربيعِ فقد صار يُنبِتُ شوكَ القتادِ
فهل كنت من عبدِ شمسٍ فأخشى عليكَ ظهورَ شعارِ السوادِ

وقال ، وما أحكمه :

ما عجي من باعٍ دينتهُ بلدةٍ يبلغُ فيها هواه

١ انظر المغرب ٢ : ٢٨١ والقلائد : ١٤٤ .

وإنما أعجبُ من خاسرٍ يبيعُ أخراهُ بدنياهُ سواهُ

وقال من مُخَمَّسةٍ يرثي فيها ابن صمادح ، ويندب الأندلس زمن الفتنة :

من لي بمجبولٍ على ظلم البشرِ صَحَّفَ في أحكامه حاءَ الحورِ
مرَّ بنا يسحبُ أذيالَ الحفرِ ما أحسدَ الظبيَ لهُ إذا نقرُ
وأشبهَ الغُصنَ بهِ إذا خطرُ

كافورةٌ قد طرَّزتْ بمسكِ جوهرةٌ لم تمتهنُ بسلكِ
نبتتُ فيها ورعي ونسكي بعدَ لجاحي في التقى ومحكي
فاليومَ قد صحَّ رجوعي واشتهرُ

نهيتُ قديماً ناظري عن نظري علماً بما يجني ركوبُ الغرِ
وقلتُ: عرَّجْ عن سبيلِ الخطرِ فاليومَ قد عاينَ صدقَ الخبرِ
إذ باتَ وقفاً بينَ دمعٍ وسهرِ

سقى الحيا عهداً لنا بالطاقِ معتركِ الألبابِ والأحداقِ
وملتقى الأنفسِ والأشواقِ أياسٍ فيه الدهرُ عن تلاقِي
وربما ساءك دهرٌ ثمَّ سرَّ

أحسِنَ بهِ مُطلِعاً ما أغرباً قابلٍ من دجلةٍ مرأى معجبا
إن طلعتْ شمسٌ وقد هبتْ صباً حسبته ينشُرُ بُرداً مُذهباً
بمنظرٍ فيه جلاءٌ للبصرِ

ياربَّ أرضٍ قد خلتْ قصورها وأصبحتْ أهلةً قبورها
يُشغَلُ عن زائرها مزورها لا يأملُ العودةَ من يزورها
هيئات: ذاك الورد ممنوع الصدَّرُ

تنتحبُ الدنيا على ابنِ مَعْنٍ كَأَنهَا تُكَلِّبِي أَصِيْبَتُ بَابِنِ
أَكْرَمِ مَأْمُولٍ وَلَا أُسْتَفِي أَنِّي بِنِعْمَاهُ وَلَا أُثْنِي
وَالرُّوْضُ لَا يُنْكِرُ مَعْرُوفَ الْمَطْرِ

عَهْدِي بِهِ وَالْمَلِكُ فِي ذِمَارِهِ وَالنَّصْرُ فِيمَا شَاءَ مِنْ أَنْصَارِهِ
يَطْلَعُ بَدْرُ التَّمِّ مِنْ أَرْزَارِهِ وَتَكْمُنُ الْعَفَّةُ فِي إِزَارِهِ
وَيَحْضُرُ السُّؤْدُودُ أَيَّانَ حَضَرَ

قَلُّ لِلنَّوَى جَدًّا بِنَا انْطِلَاقُ مَا بَعْدَتْ مِصْرُ وَلَا الْعِرَاقُ
إِذَا حِدَا نَحْوَهُمَا اشْتِيَاقُ وَمِنْ دَوَاءِ الْمَلْلِ الْفِرَاقُ
وَمِنْ نَأَى عَنِ وَطَنِ نَالَ وَطَرُ

سَارَ بِنِي بَرْدٍ مِنَ الْإِصْبَاحِ رَاكِبٌ نَشْوَى ذَاتِ قِصْدٍ صَاحٍ
مَسْوَدَّةٍ مَبِيضَةِ الْجَنَاحِ تَسْبِحُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالرِّيَاحِ
بِزَوْرَهَا عَنِ طَافِحِ الْمَوْجِ زَوْرُ

يَقْتَحِمُ الْهَوْلَ بِهَا اغْتِرَارًا فِي فِتْيَةٍ تَحْسِبُهَا سُكَارَى
قَدْ افْتَرَشْنَ الْمَسَدَ الْمُغَارَا حَتَّى إِذَا شَارَفَتِ الْمَنَارَا
هَبَّ كَمَا بَلَّ الْعَلِيلُ الْمُحْتَضِرُ

يَوْمٌ عَدَلَ الْمَلِكَ الرُّضِيَّ الْهَاشِمِيَّ الطَّاهِرِ النَّقِيِّ
وَالْمَجْتَبِيَّ مَنْ ضَنْضَى النَّبِيَّ مِنْ وَلَدِ السَّفَاحِ وَالْمَهْدِيِّ
فَخَرَّ مَعْدًا وَنَزَارٍ وَمُضَرَّ

حَيْثُ تَرَى الْعَبَّاسَ يُسْتَسْقَى بِهِ وَالشَّرْفُ الْأَعْظَمُ فِي نِصَابِهِ
وَالْأَمْرَ مَوْقُوفًا عَلَى أَرْبَابِهِ وَالدِّينَ لَا تَخْتَلِطُ الدُّنْيَا بِهِ
وَسِيرَةَ الصِّدِّيقِ تَمْضِي وَعُمُرُ

وقال ابن خفاجة في صفة قوس^١ :

عوجاء تُعطفُ ثم تُرسلُ تارةً
فكأنما هي حيةٌ تنسابُ
وإذا انحنت، والسهمُ منها خارجٌ
فهي الهلالُ انقضَّ منه شهابُ

وقال :

وعسى الليلي أن تمنَّ بنظمنا
فكأنما هي حيةٌ تنسابُ
فلربما نُثرَ الجُمانُ تعمُّداً
ليعادَ أحسنَ في النظامِ وأجملاً

وهو من قول مهيار :

عسى اللهُ يجعلها فرقةً
تعودُ بأكملِ مُستجمع

وقول المتنبي :

سألتُ اللهَ يجعله رحيلاً
يعينُ على الإقامة في ذرأكا

وقال :

اقضِ على خلكَ أو ساعدِ
عشتَ بجدِّ في العلاءِ صاعدِ
فقدَ بكى جفني دماً سائلاً
حتى لقد ساعدَهُ ساعدي

وقال :

وأسودٍ يسبحُ في بركةٍ
لا تكتمُ الحصباءُ غدُرانها
كأنها في صفوها مقلَّةٌ
زرقاءُ ، والأسودُ إنسانها

١ راجع ديوان ابن خفاجة : ٣٦١ ، ٣٦٩ ، ٣٦٣ ، ٣٧٠ والثانية مرت في ج ١ : ٣١ .

وقال :

حيًا بها ونسيمها كنسيمه
مساغةً فكأنتها من ريقه
فشربتها من كفه في وده
حمرّةً فكأنتها من خده

وقال :

لعمري لو أوضعتُ في منهبج التقي
فما يستقيم الأمرُ ، والمملك جائر
وقال يرثي صديقاً من أبيات :

تيقنَ أنّ الله أكرمُ جيرةٍ
فإن أفقرتُ منه العيونُ فإنه
ولم أرَ أنساً قبله عادَ وحشةً
ومن تكُ أيامُ السرورِ قصيرةً
فأزمعَ عن دار الحياة رَحِيلاً
تعوّضَ منها بالقلوبِ بديلاً
وبرداً على الأكبادِ عادِ غليلاً
به كان ليلُ الحزنِ فيه طويلاً

وقال :

تفاوت نجيلاً أبي جعفر
فهذا يمينُ بها أكله
فمن متعالٍ ومن مُنْسَفِلٍ
وهذا شمالُ بها يغتسلُ

٥٦٨ - وقال ابن الرفاء :

ولمّا رأيتُ الغربَ قد غصّ بالدجى
توهمتُ أنّ الغربَ بحرٌ أخوضه
وفي الشرقِ مِن ضوءِ الصباحِ دلائلُ
وأنّ الذي يبئدو من الشرقِ ساحلُ

٥٦٩ - وقال أبو محمد ابن عبد البر الكاتب :

لا تُكثرنَّ تَأْمَلًا
وامسكْ عليك عِنانَ طَرْفِكَ

فلربما أرسلته فرماكَ في ميدانٍ حتفِكَ

٥٧٠ - وقال أبو القاسم السميسر^١ :

يا آكلًا كلَّ ما اشتهاهُ وشاتمَ الطَّبِّ والطَّيِّبِ
ثمَّار ما قد غرستَ تجني فانتظرِ السقمَ عن قريبِ
يجتمعُ الداءُ كلَّ يومٍ أغذيةُ سوءٍ كالذنوبِ

وكان كثير الهجاء ، وله كتاب سماه بـ « شفاء الأمراض في أخذ الأعراض »

والعياذ بالله تعالى .

ومن قوله :

ختمَ فهنمٌ وكم أهتمُّ زمانَ كنتمُ بلا عيونُ
فأنتمُ تحتَ كلِّ تحتٍ وأنتمُ دونَ كلِّ دونُ
سكنتمُ يا رياحَ عادٍ وكلُّ ريحٍ إلى سكونُ

وقال^٢ :

يا مشفقاً من خُمُولِ قومٍ ليسَ لهم عندنا خلاقُ
ذُلُّوا ويا طالما أذُلُّوا دعهمُ يذوقوا الذي أذاقوا

وقال :

وليتمَّ فما أحسنتُ مذ وليتمَّ ولا صنتمُ عمَّن يصونكمُ عِرْضاً
وكنتمُ سماء لا يُنالُ منالها فصرتمُ لدى من لا يسائلكم أرضاً
ستسرجعُ الأيامُ ما أقرضتكمُ ألا إنها تسرجعُ الدَّينَ والقرضا

١ الذخيرة ٢/١ : ٣٨٠ .

٢ الذخيرة ٢/١ : ٣٧٥ .

٥٧١ - وقال ابن شاطر السرقسطي :

قد كنتُ لا أدري لأيةِ علّةٍ صار البياضُ لباسَ كلِّ مصابٍ
حتى كساني الدهرُ سَحَقَ ملاءةٍ بيضاءَ مِن شبيبي لفقْدِ شَبَابِي
فبذا تبينَ لي إصابةُ مَنْ رَأَى لبسَ البياضِ على نَوَى الأَحْبابِ

٥٧٢ - وهذه عادة أهل الأندلس ، ولهذا قال الحُصْرِي :

إذا كان البياضُ لباسَ حُزْنٍ بأندلسٍ فذاك من الصوابِ
ألم تَرَتِّي لبستُ بياضَ شبيبي لأنِّي قد حزنتُ على الشَّبَابِ

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى :

لو كنتِ زائرتي لراعك منظرِي ورأيتِ بي ما يصنعُ التفريقُ
ولحال من دمعي وحرَّ تنفُسي بيّني وبينك بلحّةٌ وحرّيقُ

٥٧٣ - وقال ابن عبد الصمد يصف فرساً :

على سابحٍ فرْدٍ يفوتُ بأربعٍ له أربعاً منها الصبَا والشمائلُ
من الفُتُخِ خَوَارِ العنانِ كأنه مع البرقِ سارٍ أو مع السيلِ سائلُ

٥٧٤ - وقال ابن عبد الحميد البرجي :

أرِحْ مَنْ المهنّدِ والجوادِ فقدَ تعباً بجِدّكَ في الجهادِ
قضيتَ بعزيمةٍ حقَّ العوالي ففضَّ براحتهِ حقَّ الهوادي

٥٧٥ - وقال عبادة :

إنّما الفتحُ هلالٌ طالعٌ لاحَ من أزراره في فلّكِ
خدّهُ شمسٌ ، وليلٌ شعْرُهُ من رأى الشمسِ بدت في حلكِ

٥٧٦ - وقال ابن المطرف المنجم :

يرى العواقبَ في أثناء فكرته كأنّ أفكاره بالغيب كهُنّ
لا طرفةً منه إلا تحتها عملٌ كالدهرِ لا دورةٌ إلا لها شانٌ

٥٧٧ - وقال أبو الحسن ابن اليسع :

راموا ملامي ، وكانَ إغرا وذمّ حبي ، وكانَ إطرا
لو علم العاذلون ما بي لانقلبت فيه لامهم را

وقال :

لما قدّمتَ وعندي شطرٌ من الشوقِ وافي
قدّمتُ قلبي قبلي فصنّه حتى أوافي

٥٧٨ - ولما خاطب المستنصر ملك إفريقية ابن سيد الناس بقوله :

ما حالُ عينيكَ يا عينَ الزّمانِ فقد أورثتني حزنًا من أجلِ عينيكَا
وليس لي حيلةٌ غيرُ الدّعاءِ فيا ربّ براوي الصّحيحين حنايكَا

أجابه الحافظ أبو المطرف ابن عميرة المخزومي خدمة عن الحافظ أبي بكر ابن
سيد الناس :

مولايَ حالهما واللهِ صالحهٌ لما سألتَ فأعلى الله حاليكَا
ما كان من سفرٍ أو كان من حضرٍ حتى تكونَ الثريّا دونِ نعليكَا

٥٧٩ - وقال الأديب أبو العباس الرّصافي ، وهو من أصحاب أبي

حيّان :

هذا هلالُ الحسنِ أطلعَ بيننا وجميعنا بحلى محاسنه شغيفٌ

لَمَّا رَأَى صِلُّ الْعِدَارِ بَخْدَهُ مَاءَ النَّعِيمِ أَتَى إِلَيْهِ لِيَرْتَشِفُ
فَكَانَ ذَاكَ الْخَدَّ أَنْكَرَ أَمْرَهُ فَاحْمَرَّ مِنْ حَنْقٍ عَلَيْهِ وَقَالَ قِفْ

وقال :

وعشيّةً نعمتُ بها أرواحنا والحمْرُ قد أخذتُ هنالكَ حقّها
وكأنّما إبريقنا لَمَّا جئنا ألقى حديثاً للكؤوسِ وقهقها

٥٨٠ - وقال الإمام الحافظ أبو الربيع ابن سالم :

كأنّما إبريقنا عاشقٌ كلٌّ عن الخطوِّ فما أعمله
غازل من كأسٍ حبيباً له فكلّما قبله أُخجله

٥٨١ - وقال أبو القاسم ابن الأبرش :

رأيتُ ثلاثةً تحكي ثلاثاً إذا ما كنتَ في التشبيهِ تُنصِفُ
فتنّجوا النيلُ منفعةً وحسناً وشتريّنُ مصرُ ، وأنتَ يوسفُ

وقال في غريق ، وقيل : إنّه ممّا تمثل به ٢ :

الحمدُ لله على كلّ حالٍ قد أطفأ الماءُ سراجَ الجَمالِ
أطفأه ما كانَ محبباً له قد يطفىء الزيتُ ضياءَ الذبَالِ

وهو الفائل أيضاً :

لو لم يكن لي آباءُ أسودُ بهم ولم يؤسس رجالُ الغربِ لي شرفاً
ولم أنلُ عند ملكِ العصرِ منزلةً لكانَ في سيبويه الفخرُ لي وكفى
فكيفَ علمٌ ومجدٌ قد جمعتهما وكلُّ مختلقٍ في مثلِ ذا وقفا

١ كذا ولعله فتجو أي « تاجه » اسم النهر (Tagus) .

٢ وقيل . . . به : سقطت من م .

٥٨٢ - وقال أبو الحسن ابن حريق :

أصبحت تدميرُ مصرأ كاسمها وأبو يوسفَ فيها يوسفَا

٥٨٣ - وقال أبو القاسم ابن العطار الإشبيلي في بعض الموزنين وقد غرق

في نهر طلييرة عند فتحها^١ :

ولما رأوا أن لا مقرَّ لسيفه سوى هامهم لاذوا بأجرأ منهم
فكان من النهر المعين معينهم ومن ثلَم السد الحسام المثلَم
فيا عجباً للبحرِ غالته نُطفة وللأسدِ الضرغامِ أرداهُ أرقمُ

٥٨٤ - [نقول من التكملة]

١ - وقال أبو العباس اللص^٢ :

وقائلة والضنى شاملي علام سهرت ولم ترقد
وقد ذاب جسمك فوق الفرا شِ حتى خفيت على العودِ
فقلتُ : وكيف أرى نائماً ورائي المينة بالمرصدِ

ولما قرىء عليه ديوان أبي تمام ، ومرّ فيه وصف سيف ، قال : أنا أشعر
منه حيث أقول :

تراه في غداة الغيمِ شمساً وفي الظلماءِ نجماً أو ذبالا
يروعهمُ معاينةً ووهماً ولو ناموا لروّعهم خيالا

٢ - وقال أبو إسحاق الإلبيري^٣ :

١ الشعر في القلائد : ٢٨٨ والبيت الثالث في المغرب ١ : ٢٥٤ .

٢ القطعتان في التكملة : ٨٠ .

٣ التكملة : ١٣٧ وديوانه : ١٥٩ .

تمرُّ لِدَآئِي وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ وَأَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَهُمْ غَيْرُ خَالِدٍ
وَأَحْمَلُ مَوْتَاهُمْ وَأَشْهَدُ دَفْنَهُمْ كَأَنِّي بَعِيدٌ عَنْهُمْ غَيْرُ شَاهِدٍ
فَهَا أَنَا فِي عِلْمِي لَهُمْ وَجِهَالِي كَمَسْتَقِظٍ يَرْنُو بِمَقْلَةٍ زَائِدٍ

قيل : ولو قال في البيت الثاني :

كَأَنِّي عَنْهُمْ غَائِبٌ غَيْرُ شَاهِدٍ

لكان أحسن وأبداع وأبرع في الصنعة الشعرية ، قاله ابن الأبار رحمه الله تعالى .

3 - وقال الوزير أبو الوليد ابن مسلمة ^١ :

إِذَا خَانَكَ الرَّزْقُ فِي بِلْدَةٍ وَوَأْفَاكَ مِنْ هَمِّهَا مَا كَثُرُ
فَمِفْتَاحُ رِزْقِكَ فِي بِلْدَةٍ سِوَاهَا فَرْدَهَا تَنْتَلُ مَا يَسُرُ
كَذَا الْمِبْهَمَاتُ بَوْسَطِ الْكِنَا بَ مِفْتَاحُهَا أَبْدَأُ فِي الطَّرْرِ

4 - وقال أبو الطاهر إسماعيل الحشني الجياني المعروف بابن أبي ركب ، وقيل : إن أخاه الأستاذ أبا بكر هو المعروف بذلك ^٢ :

يَقُولُ النَّاسُ فِي مَثَلٍ تَذَكَّرُ غَائِبًا تَرَهُ
فَمَا لِي لَا أَرَى سَكْتِي وَلَا أَنْسَى تَذَكَّرَهُ

5 - وأنشد أبو المعالي الإشبيلي الواعظ بمسجد رجة القاضي من بِلَنْتَنِيَّةِ أبياتاً منها ^٣ :

- ١ التكملة : ١٨٤ .
٢ التكملة : ١٨٥ .
٣ التكملة : ١٩٦ .

أنا في الغربة أبكي ما بكت عينُ غريبِ
لم أكن يوماً خروجي من بلادي بمصيبِ
عجبا لي ولتَرَكي ووطناً فيه حَيبي

6 - وقال أبو القاسم ابن الأنقر السرقسطي^١ :

احفظ لسانكَ والجوارحَ كلَّها فلكلِّ جارحةٍ عليكَ لسانُ
واخزنُ لسانكَ ما استطعتَ فإنه ليثٌ هَصورٌ والكلامُ سِنانُ

7 - وقال أبو القاسم خلف بن يحيى بن خطاب الزاهد ، ممّا نسبهُ لأبي

وهب الزاهد^٢ :

قد تخيرتُ أن أكونَ مخفياً ليس لي من مطيهمُ غيرُ رجلي
فإذا كنتُ بين ركبٍ فقالوا قدّموا للرحيلِ قدّمتُ نعلي
حيثما كنتُ لا أخلفُ رحلاً من رأني فقد رأني ورحلي

8 - وقال أبو عبد الله ابن محمد بن فتح الأنصاري الثغري^٣ :

كَمْ من قويّ قويّ في قلبه مهذبُ الرأيِ عنه الرزقُ ينحرفُ
ومن ضعيفٍ ضعيفِ الرأيِ مختبلُ كأنه من خليجِ البحرِ يغترفُ

9 - وقال أبو القاسم محمد بن نصير الكاتب^٤ :

مضتْ أعمارنا ومضتْ سنونا فلم تظفرْ بذي ثقة يدانِ
وجربنا الزمانَ فلم يفدنا سوى التخويفِ من أهلِ الزمانِ

١ التكملة : ٣٠١ .

٢ التكملة : ٣٠٤ .

٣ التكملة : ٣٧٥ .

٤ التكملة : ٣٧٨ .

10 - وحكي عن الفقيه الأديب النحوي أبي عبد الله محمد بن ميمون الحسيني ، قال ^١ : كانت لي في صَبَوْتِي جارية ، وكنت مُغْرَى بها ، وكان أبي رحمه الله يَعْدِلني ويعرض لي ببيعها ، لأنها كانت تشغلي عن الطلب والبحث عليه ، فكان عَدْلُهُ يُزِيدني إغراء بها ، فرأيت ليلة في المنام كأن رجلاً يَأْتيني في زي أهل المشرق كلُّ ثيابه بيض ، وكان يُلقني في نفسي أنه الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما ، وكان ينشدني :

تَصَبُّوْا إِلَى مَيِّ ، وَمَيِّ لَا تَنِي تَزْهَوُ بِبِلَوَاكِ الَّتِي لَا تَنْقُضِي
وَفَخَارِكِ الْقَوْمِ الْأَلَى مَا مِنْهُمْ إِلَّا إِمَامٌ أَوْ وَصِيٌّ أَوْ نَبِيٌّ
فَأَنْ عَنَّانِكَ لِلْهُدَى عَنِ ذِي الْهَوَى وَخَفَ الْإِلَهَ عَلَيْكَ وَيَحْكُ وَارْعَوِي

قال : فانتبهت فرعاً مفكراً فيما رأيته ، فسألت الجارية : هل كان لها اسم قبل أن تتسمى بالاسم الذي أعرفه ؟ فقالت : لا ، ثم عاودتها حتى ذكرت أنها كانت تسمى مَيَّة ، فبعثتها حينئذ ، وعلمت أنه وعظُّ وعظني الله به ، عز وجل ، وبشرى .

11 - وقال ابن الحداد أول قصيدته « حديقة الحقيقة » ^٢ :

ذَهَبَ النَّاسُ فَاَنْفِرَادِي أَنَيْسِي وَكِتَابِي مَحْدَثِي وَجَلَيْسِي
صَاحِبٌ قَدْ أَمِنْتَ مِنْهُ مَلَايَاً وَاخْتِلَايَاً وَكُلَّ خَلْقِي بِئْسِي
لَيْسَ فِي نَوْعِهِ بِحَيٍّ وَلَكِنْ يَلْتَقِي الْحَيُّ مِنْهُ بِالْمَرْمُوسِي

12 - وقال بعض أهل الجزيرة الخضراء ^٣ :

١ التكملة : ٣٩٦ .
٢ التكملة : ٣٩٩ .
٣ التكملة : ٤١٥ .

ألحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الحدود
جرحٌ يجرحُ فاجعلوا ذا بدا فما الذي أوجبَ جرحَ الصدود

وقال ابن النعمة : إنهما لابن شرف ، وقد ذكرناهما مع جوابهما في غير هذا الموضع .

13 - وقال المعتمد بن عباد^١ :

أقنعَ بحظِّكَ في دنياكَ ما كانا وعزَّ نفسكَ إن فارقتَ أوطانا
في الله من كلِّ مفقودٍ مضى عيوضُ فأشعيرِ القلبِ سلواناً وإيماناً
أكلِّما سنحتَ ذكري طربتَ لها مَجَّتْ دموعُكَ في خديكَ طوفانا
أما سمعتَ بسُلطانِ شيبهيكَ قد بزَّتهُ سودُ خطوبِ الدهرِ سلطانا
وطنَّ على الكرهِ وارقبْ إثره فرجاً واستغفرِ الله تغمُّ منهُ غفرانا

14 - وقال أبو عامر البرياني في الصم الذي بشاطبة^٢ :

بقيةٌ من بقايا الرومِ معجبةٌ أبدى البُناةُ بها من علمهم حكما
لم أدر ما أضروا فيه سوى أمم تتابعتْ بعدُ سموه لنا صنما
كالبرد الفرد ما أخطأ مشبهه حقاً لقد بردَ الأيامَ والأمما
كأنه وأعظُّ طالَ الوقوفُ به ممّا يحدثُ عن عاد وعن إراما
فانظر إلى حَجَرٍ صلَّدَ يكلمنا أسمى وأوعظَ من قُسمٍ لمن فهما

قيل : لو قال مكان حكما علما لأحسن .

15 - وقال السمسير^٣ :

١ التكملة : ٤٢٧ وديوانه : ١١٤ .

٢ التكملة : ٤٣٦ .

٣ التكملة : ٤٧٠ وفيه القطعة التالية أيضاً .

إذا شئت إبقاء أحوالكا فلا تُجْرِ جاهاً على بالكا
وكن كالطريق لمجتازها يمرُّ وأنت على حالكا

وقال :

هَنْ إِذَا مَا نَلْتَ حَظًّا فَأَخُو الْعَقْلِ يَهُونُ
فَمَتَى حَطَّكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

16 - وقال أبو الربيع ابن سالم الكلاعي : أنشدني أبو محمد الشلبي ، أنشدني
أبو بكر ابن منخل ، لنفسه ^١ :

مضت لي ستّ بعد سبعين حجةً ولي حركاتٌ بعدها وسكونُ
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى يكونُ الذي لا بدّ أن سيكونُ

17 - وقال أبو محمد عبد الحق الإشبيلي ^٢ :

لا يحدّ عنك عن دين الهدى نقرٌ لم يرزقوا في التماسِ الحقّ تأييدا
عمي القلوب عروا عن كلّ فائدةٍ لأنّهم كفروا باللهِ تقليدا

18 - وقال أبو محمد ابن صارة ^٣ :

بنو الدنيا بجهلٍ عظّموها فعزّتْ عندهم وهي الحقيرةُ
يهارشُ بعضهم بعضاً عليها مُهارشةَ الكلابِ على العقيرةُ

وقال :

اسعد بمالك في الحياة ولا تكن تبقي عليه حدّارَ فقيرٍ حادثِ

١ التكملة : ٤٩٦ .

٢ التكملة : ٦٩٩ .

٣ التكملة : ٨١٧ وفيه القطعة التالية أيضاً .

فالبخلُ بينَ الحادِثينِ ، وإنّما مالُ البخيلِ لحادِثٍ أو وارثِ

19 - ودخل أبو محمد الطائي القرطبي على القاضي أبي الوليد ابن رشد ،
فأنشده ارتجالاً^١ :

قام لي السيّدُ الهمامُ قاضي قضاةِ الورى الإمامُ
فقلتُ قمُ بي ولا تقمُ لي فقلّما يوكلُ القيامُ

20 - وقال الحافظ أبو محمد ابن حزم^٢ :

لا تلمني لأنّ سُبِقْتُ لحظّةً فاتَ إدراكُهُ ذَوِي الألبابِ
يسبقُ الكلبُ وثبّةَ الليثِ في العَدُوِّ ويعلو النُخالُ فوقَ اللُّبابِ

21 - وقال أبو عبد الله الجبلي الطيب القرطبي^٣ :

اشددْ يديك على كلبِ ظفرتَ بهِ ولا تدعهُ فإنّ الناسَ قد ماتوا
قلت : تذكرت بهذا قول الآخر :

اشددْ يديك بكلبٍ إن ظفرتَ بهِ فأكثرُ الناسِ قد صاروا خنازيرا

22 - وقال محمد بن عبد الله الحضرمي مولى بني أمية :

عاشِرِ الناسَ بالحميةِ لِـ وسدّدْ وقاربِ
واحترس من أذى الكرا م وَجُدْ بالمواهبِ
لا يسودُّ الجميعَ من لَمْ يَقمْ بالنوائبِ
ويحوطُ الأذى وير عى ذِمَامَ الأقاربِ

١ التكملة : ٨٢٤ .

٢ التكملة : ٨٧٥ ومر البيتان ج ٢ : ٨٤ .

٣ التكملة : ٩٠٩ .

لا تواصل إلا الشرير
من له خير شاهد
واجتنب وصل كل وغد
ف الكرم المناصب
وله خير غائب
لدي دنيء المكاسب

[ابن الأبار]

٥٨٥ - وقال الكاتب الحافظ أبو عبد الله ابن الأبار :

لله نهر كالحباب
يصف السماء صفاؤه
وكأنما هو رقعة
غارت على شطيه أبد
والظل يبدو فوقه
لا بل أدار عليه خو
مثل المجرة جر في
ترقيشه سامي الحباب
فحصاه ليس بذئ احتجاب
من خالص الذهب المذاب
كار المني عصر الشباب
كالخال في خد الكعاب
ف الشمس منه كالنقاب
ها ذبله جون السحاب

وقال :

شتى محاسنه ، فمن زهر على
غربت به شمس الظهيرة لاني
حتى كساه الدوح من أفنانه
وكأنما لمع الظلال بمتنه
نهر تسلسل كالحباب تسلسلا
لأحراق صفتحه لهيباً مشعلا
برداً بمزن في الأصيل مسلسلا
قطع الدماء جمدن حين تحللا

وقال يمدح المستنصر صاحب إفريقية :

إن البشائر كلها جمعت
للدين والدنيا وللأمم

١ أزهار الرياض ٣ : ٢٢٣ وفيه القطعة التالية أيضاً .

في نعمتين جسيمتين هما براء الإمام وبيعة الحرم

قال ابن الأثير : وأخبرني بعض أصحابنا - يعني أبا عمرو ابن عبد الغني - أنه أنشدهما الخليفة فسبقه إلى عجز البيت الثاني ، فقلت له على البديهة :

فخر لشعري على الأشعار يحفظه خليفة الله كان الله حافظه

وأشار بقوله « وبيعة الحرم » إلى ما ذكره ابن خلدون وغير واحد من المؤرخين أن أهل مكة خطبوا للمستنصر صاحب تونس بعرفة ، وكتبوا له بيعة من إنشاء ابن سبطين المتصوف ، وقد ذكر ابن خلدون نص البيعة في ترجمة المستنصر ، فليراجعها من أرادها .

وقال ابن الأثير :

الأسمع في الأمير مقال صدق
متى يكتب ترد وسلاً أجاجاً
وخذه عن امرئ خدم الأميرا
وإن يركب ترد عذبا نيرا

وقال مجيباً للتجاني :

أيتها الصاحب الصفي ، مباح
إن عتاني إسعاف قصدك فيها
ولها شرطها فحافظ عليه
وتحام الإخلال جهلك ، لاقية
لك عني فيما نصصت الرواية
فلكم لم تزل بها ذا عنايه
ثم كافيء وصيتي بالكفايه
ت من الله عصمة وحمايه

ونص استدعاء التجاني :

إن رأى سيدي الذي حاز في العدا
وحوى المجد عن جلود كرام
أن أرى عنه بالإجازة أروي
م مع الحلم والعلا كل غايه
كلهم في السماح والفضل آيه
كل ما فيه لي تصح الروايه

من حديثٍ وكلَّ نظمٍ ونثرٍ وفنونٍ لهُ بهنٍ درايهُ
 فلهُ في ذاكَ الثوابُ من اللّاهِ ومنّا الثناء دونَ نهايهُ
 دام في رفعةٍ وعزٍّ وسعدٍ وأمانٍ ومُكنةٍ وحمايهُ
 ما تولّى جيشُ الظلامِ هزيماً وعلتْ للصّباحِ في الأفقِ رايهُ

ولابن الأَبّار ترجمة واسعة ذكرتها في «أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها ممّا يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض» فلترجع فيه .

٥٨٦ - وأمّا التجاني أبو عبد الله هذا المذكور فقد وصفه قريبه أبو الفضل محمد حفيد عمّه في كتابه «الحلى التيجانية والحلل التيجانية» ، قال ابن رشيد : وجمعه باسمنا حفظه الله تعالى وشكره ، وقال في موضع آخر : إنّه باسمه واسم صاحبه الوزير ابن الحكيم ، رحمهما الله تعالى ، انتهى .

٥٨٧ - وقال ابن مفورّ أبو الحسين :

إذا عرّتكَ عيِلّةٌ يَعْجِزُ عنها ما تجِدُ
 فلتَقْتَصِدْ فَإِنَّهُ ما عالَ قَطُّ مَقْتَصِدُ

وقال :

حازَ دُنْياهُ كلَّها مُحَرِّزاً أَكْبَرَ المِينِ
 مَنْ حوى قُوتَ يومِهِ آمِناً سَالمَ البَدَنِ

وقال :

أعِنْ أخاكَ في الَّذي يَأْمُلُهُ ويرتجيهُ
 فاللَّهُ في عَوْنِ الفَسيِّ ما كان في عَوْنِ أخيهُ

وقال :

أنفَسُ ما أودعتهُ قَلْبِكَ ذَكَرِي موقظهُ

وخيرُ ما أتلفتَهُ مالٌ أفادَ موعظتهُ

٥٨٨ - وقال أبو البركات القميحي : أنشدنا أبو العباس ابن مكنون .
وقد رأى اهتزاز الثمار وتمايها ، مرتجلاً :

حارتْ عقولُ الناسِ في إبداعها ألسُكرها أمْ سُكرها تتأودُ
فيقولُ أربابُ البطالةِ : تنثني ويقولُ أربابُ الحقيقةِ : تسجدُ

قال الشيخ أبو البركات القميحي : قلت لابن مكنون : ما الذي يدل على
أنهما في وصف الثمار ؟ فقال : وطىء أنت لهما ، فقلت :

يا من أتى متنزهاً في روضة أزهارها من حسنها تتوقدُ
انظرْ إلى الأشجارِ في دوحاتها والريحُ تنسفُ والطيورُ تغردُ
فترى الغصونَ تمايلتْ أطرافها وترى الطيورَ على الغصونِ تعربدُ

قال ابن رشيد : غلط المذكور في نسبه البيتين لابن مكنون ، وإنما هما
لأبي زيد الفازازي من قصيدة أولها :

نعمُ الإلهِ بشُكرِهِ تنقيدُ فاللهُ يُشكرُ في النوالِ ويُحمدُ
مدتْ إليه أكفُننا محتاجةً فأنا لها منْ جوده ما تعهدُ

والبيتان في أثنائها ، غير أن أولهما في ديوانه هكذا :

تاهتْ عقولُ الناسِ في حركاتها

انتهى .

ورأيت في « روضة التعريف » للسان الدين بعدهما بيتاً ثالثاً ، وهو :

وإذا أردتَ الجمعَ بينهما فقلْ في شكرِ خالقها تقومُ وتقعُدُ

٥٨٩ - وحكي أن حافظ الأندلس إمام الأدباء^١ ، رئيس المؤتلفين ، حسنة الزمان ، نادرة الإحسان ، أبا محمد عبد الله بن إبراهيم الصنهاجي الحِجاري صاحب كتاب « المسهب » كان سبب اتصاله بعبد الملك بن سعيد جدّ علي بن موسى صاحب « المغرب » أنّه وفد عليه في قلّعتة ، فلمّا وقف على بابه وهو بزّي بدّاوة ازدراف البوابون ، فقال لهم : استأذنوا لي على القائد ، فضحكوا به ، وقالوا له : ما كان وجَدَ القائد مَنْ يدخل عليه في هذه الساعة إلاّ أنت ؟ فمدّ يده إلى دواة في حزامه وسحاة ، وكتب بها : بباب القائد الأعلى - لا زال أهلاً بأهل الفضيلة - رجلٌ وفد عليه من شلبَ بقصيدة مطلعها :

عليكَ أحالي الذِّكرُ الجميلُ

فإن رأى سيدي أن يحجب مَنْ بلدُه شلبَ ومَنْ قصيدُه هذا فهو أعلم بما يأتي ويذرّ ، ولا عتب على القدر ، ورجب إلى أحد غلمانة ، فأوصل الورقة ، فلمّا وقف عليها القائدُ قال : من شلبَ ، وهذا مطلع قصيدته ، ما لهذا إلاّ شأن ، ولعلّه الوزير ابن عمّار ، وقد نُشِر إلى الدنيا ، عجلوا بالإذن له ، فأذنوا له ودخل وبقي واقفاً لم يسلم ولا كلّم أحداً ، فاستثقله الحاضرون ، واستبردوا مقصده ، ونسبوه للجهل وسوء الأدب ، فقال له أحدهم : ما لك لا تسلّم على القائد ، وتدخل مداخل الأدباء والشعراء ؟ فقال : حتى أُخجل جميعكم قدّر ما أُخجلتموني على الباب مع أقوام أنذال ، وأعلم أيضاً مَنْ هو الكثير الفضول من أصحاب القائد أعزه الله تعالى فأكون أتقيه إن قدر لي خدمته ، فقال له عبد الملك : أتأخذنا بما فعل السفهاء منا ؟ قال : لا ، والله ، بل أغفر لك ذنوب الدهر أجمع ، وإنّما هي أسباب نقصدها لنحاور بها مثلك أعزك الله تعالى ، ويتمكّن التأنيس ، وينحلّ قيد الهيبة ، ثمّ أنشد من رأسه ولا ورقة في يده :

١ ب : الأدب .

عَلَيْكَ أَحَالِي الذِّكْرُ الْجَمِيلُ فَصَحَّ الْعِزْمُ وَاقْتَضَى الرَّحِيلُ
 وَوَدَعْتُ الْحَبِيبَ بغيرِ صَبْرٍ وَلَمْ أَسْمَعْ لِمَا قَالَ الْعِنْدُولُ
 وَأَسْبَلْتُ الظَّلَامَ عَلَيَّ سِرًّا وَنَجْمُ الْأَفْقِ نَاطِرُهُ كَلِيلُ
 وَلَمْ أَشْكُ الْهَجِيرَ وَقَدْ دَعَانِي إِلَى أَرْجَائِكَ الظِّلُّ الظَّلِيلُ

وهي طويلة ، فأكرمه وقربه ، رحم الله تعالى الجميع .

٥٩٠ - وأهديت للمعتمد بن عباد شمعة ، فقال في وصفها أبو القاسم ابن
 مرزقان الإشبيلي وهو ممن قُتل في فتنة المعتمد :

مدينةٌ في شمعةٍ صوّرتُ قامتْ حُماةٌ فوقَ أسوارها
 وما رأينا قبلها روضةً تتقيدُ النارُ بنوارها
 تُصيرُ الليلَ نهاراً إذا ما أقبلتْ ترفلُ في نارها
 كأنها بعضُ الأيادي التي تحتَ الدجى تسري بأنوارها
 من ملكٍ معتمدٍ ماجدٍ بلادُهُ أوْطانُ زوارها

٥٩١ - وقال أبو الأصبح ابن رشيد الإشبيلي لما هطلت بإشبيلية سحابة
 بقطر أحمر يوم السبت الثالث عشر من صفر عام أربعة وستين وخمسمائة :

لقد آن للناس أن يُقلعوا ويمشوا على السننِ الأقومِ
 متى عهد الغيثُ يا غافلاً كلونِ العقيقِ أو العندمِ
 أظنُّ الغمامَ في جوّها بكتِّ رحمةٍ للورى بالدمِ

وفيهما أيضاً :

لا تكنْ دائمَ الكآبةِ ممّا قد غدا في الثرى نيمراً نجيعا

لَطَمَ البرقُ صفحةَ المزنِ حتى

سال منه على الرياضِ نجيعا

وله في دولاب :

وَمَنْجَنُونَ إذا دارت سمعت لها
كأنَّ أقداسَهَا ركبٌ إذا سمعوا

صوتاً أجشّ وظلّ الماءُ ينهملُ
منها حُداءً بكواً للبين وارتحلوا

وله فيمن اسمه مالك :

غزاليُّ الجفونِ شقيقُ بلبرِ
له نفحاتُ مسكٍ أيّ مسكٍ

تبسمَ عن عقيقِ فوقَ درّ
له نفثاتُ سحرٍ أيّ سحرٍ

شكوتُ له الهوى والهجرَ منه
تعلمتُ القساوةَ من سميّتي

فقال : عليك باسمي سوف تدري
وأحرقتُ القلوبَ بنار هجري

٥٩٢ - وقال أبو بكر ابن حجاج الغافقي في موسى وسيم إشبيلية الذي
كان شعراؤها يتغزلون فيه ١ :

من مُبلغُ موسى الملبّحِ رسالةً
ما كان خلتُ راعباً عن دينه

بُعثت له من كافرٍ عشاقه
لو لم تكن توراتُهُ من ساقه

وقال :

إنّ الزويليَّ فتى شاعرٌ
وأنت يا موسى قد اخترته

قد أعجب العالمَ من نظمه
واختار موسى قبلُ من قومه

وقال :

على مُعاذٍ قُرُونٌ لو يُعابنها
فرعونٌ ما قال أوقد لي على الطينِ

١ المغرب ١ : ٢٦١ .

قالت له عرسه إذ جاء ينكحها ماذا دُهِيتُ به من كلِّ عُنِينِ
هلاًّ استعنتُ بميمونٍ ، فقال لها إني استعنتُ على نفسي بميمون

٥٩٣ - وقال أبو وهب ابن عبد الرؤوف النحوي ، وكان له حظ في قرض
الشعر ، وكان سناً^١ :

لَيْسَ لَمَنْ لَيْسَتْ لَهُ لِحْيَةٌ بِأَسْ إِذَا حَصَلَتْهُ ، لَيْسَا
وَصَاحِبُ اللَّحْيَةِ مُسْتَقْبَحٌ يَشْبَهُ فِي طَلْعَتِهِ التَّيْسَا
إِنْ هَبَّتِ الرِّيحُ تَلَاهَتْ بِهِ وَمَاسَتْ الرِّيحُ بِهِ مَيْسَا

٥٩٤ - وقال أبو عبد الله محمد بن يحيى القلقاط :

يا غزلاً عَنَّ لِي قَابٌ تَرَّ قَلْبِي ثُمَّ وَلَّتِي
أَنْتِ مَنِّي بِفَوَادِي يَا مَنِي نَفْسِي أَوْلِي

٥٩٥ - وقال أحمد بن المبارك الحبيبي في الناصر قبل أن يلي عهد جده^٢ :

يا عابداً الرحمن فُكِّتَ الوريُّ بهذه العليا وهذا الكرمُ
ما جعل الله الندى في امرئ إلاّ وقد جنبه كلّ ذمّ

٥٩٦ - واستدعى الوزير عبيد الله بن إدريس أبا بكر أحمد بن عثمان
المرواني ، ونادمه ليلة ، فلماً قرب الصباح قال له : أين ما يحدث عنك من حسن
الشعر ؟ فهذا موضعه ، فقال : الدواة والقرطاس ، فأمر له بإحضارهما ، فجعل
يفكر ويكتب إلى أن أنشده هذه الأبيات :

بتنا نَدَامِي صَفَاءَ يَسْتَحْتُ لَنَا فِي جَامِدِ الْفِضَّةِ التَّبْرُ الَّذِي سُبِكَا

١ السناط : الذي ليس في عارضيه شعر .
٢ إلى هنا انتهت نسخة ب ، وسقطت سائر الأوراق منها .

كُلُّ مُصَيِّخٍ إِلَى مَا قَالَ صَاحِبُهُ وَلَا يَبَالِي أَصِدْقًا قَالَ أَمْ أَفْكَا
مَوْقَرُونَ خَفَافٌ عِنْدَ شَرِبِهِمْ وَلَا يَخَافُونَ فِيمَا أَحْدَثُوا دَرَكَا
لَا تَعْدَمَنَّ إِذَا أَبْصَرْتَهُمْ فَرِحًا أَمَا تَرَى الصَّبِيحَ مِنْ بَشَرٍ بِهِمْ ضَحْكَا

٥٩٧ - وقال أبو محمد عبد الله المرواني في الخيري :

عَجِبْتُ مِنَ الْخَيْرِيِّ يَكْتُمُ عَرَفَهُ نَهَارًا وَيَسْرِي بِالظَّلَامِ فَيُعْرَبُ
فَتَجْنِي عُرُوسَ الطَّيْبِ مِنْهُ يَدُ الدَّجِيِّ وَيَبْدُو لَهُ وَجْهُ الصَّبَاحِ فَيُحْجَبُ

٥٩٨ - وقال إبراهيم بن إدريس العلوي :

لِلْبَيْنِ فِي تَعْذِيبِ نَفْسِي مَذْهَبٌ وَلِنَائِبَاتِ الدَّهْرِ عِنْدِي مَطْلَبٌ
أَمَّا دِيُونُ الْحَادِثَاتِ فَإِنَّهَا تَأْتِي لَوْقَتٍ صَادِقٍ لَا يَكْذِبُ

٥٩٩ - وخرج الأديب النحوي هذيل الإشبيلي يوماً من مجلسه، فنظر إلى سائل
عاري الجسم ، وهو يُرْعَدُ وَيَصِيحُ : الجوع والبرد ، فأخذ بيده ، ونقله إلى
موضع بَلَغَتْهُ الشَّمْسُ ، وقال له : صِحِّحِ الْجُوعَ ، فقد كفاك الله مؤونة البرد .

٦٠٠ - ومر المعتمد بن عباد ليلة مع وزيره ابن عمّار بباب شيخ كثير
التهمك والتنذير ، يمزج ذلك بانحراف يُضْحِكُ الثَّكَلِيَّ ، فقال لابن عمّار :
تعال نضرب على هذا الشيخ الساقط بابه حتى نضحك معه ، فضربا عليه الباب ،
فقال : مَنْ هَذَا ؟ فقال ابن عباد : إنسان يرغب أن تَقْدِمَ لَهُ هَذِهِ الْفَتِيلَةَ ،
فقال : والله لو ضرب ابنُ عبادِ بَابِي فِي هَذَا الْوَقْتِ مَا فَتَحْتَهُ لَهُ ، فقال : فَإِنِّي
ابنُ عبادِ ، فقال : مصفوع ألف صفة ، فضحك ابن عباد حتى سقط إلى
الأرض ، وقال لوزيره : امض بنا قبل أن يتعدى الصفع من القول إلى الفعل ،
فهذا شيخ ركيك ؛ ولما كان من غد تلك الليلة وجّه له ألف درهم ، وقال

١ راجع هذه الحكاية في المغرب ١ : ٢٨٦ - ٢٨٧ .

لموصلها : قل له هذه حقُّ الألف صفقة التي كانت البارحة .

٦٠١ - وكان في زمان المعتمد السارق المشهور بالبازي الأشهب ، وكان لهُ في السرقة كلُّ غريبة ، وكان مسلطاً على أهل البادية ، وبلغ من سرقة أنه سرق وهو مصلوب ؛ لأن ابن عباد أمر بصلبه على ممرِّ أهل البادية لينظروا إليه ، فبينما هو على خشبته على تلك الحال إذ جاءت إليه زوجته وبناته ، وجعلن يبكين حوله ويقلن : لمن تركنا نضيع بعدك ؟ وإذا ببديوي على بغل وتحت حمل ثياب وأسباب ، فصاح عليه : يا سيدي ، انظر في أي حالة أنا ، ولي عندك حاجة فيها فائدة لي ولك ؛ قال : وما هي ؟ قال : انظر إلى تلك البئر ، لما أرهقني الشَّرط رميت فيها مائة دينار ، فعسى تحتال في إخراجها ، وهذه زوجتي وبناتي يُمسكن بَعْلِكَ خلالَ ما تخرجها ، فعمد البديوي إلى حَبْل ودلى نفسه في البئر بعدما اتَّفَق معه على أن يأخذ النصف منها ، فلما حصل أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبلَ ، وبقي حائراً يصيح ، وأخذت ما كان على البغل مع بناتها ، وفَرَّتْ به ، وكان ذلك في شدة حرِّ ، وما سَبَّب الله شخصاً يغيثه إلاّ وقد غيَّبَ عن العين وخلصن ، فتحيل ذلك الشخص مع غيره على إخراجها ، وسألوه عن حاله ، فقال : هذا الفاعل الصانع احتال عليّ حتى مضت زوجته وبناته بشيبي وأسبابي ، ورُفِعَت هذه القصة إلى ابن عباد ، فتعجب منها ، وأمر بإحضار البازي الأشهب ، وقال له : كيف فعلت هذا مع أنّك في قبضة الملكة ؟ فقال له : يا سيدي لو علمت قدر لذّتي في السرقة خليت ملكك واشتغلت بها ، فلعله وضحك منه ، ثم قال له : إن سَرَحْتك وأحسن إليك وأجريت عليك رزقاً يقلك أتتوب من هذه الصنعة الذميمة ؟ فقال : يا مولاي كيف لا أقبل التوبة وهي تخلصني من القتل ؟ فعاهده وقدمه على رجال أنجادٍ ،

١ م : ألف .

وصار من جملة حراس أحواز^١ المدينة .

٦٠٢ - ويحكى أن منصور بن عبد المؤمن لما أراد بناء صومعة إشبيلية العظيمة القدر أحضر لها العرفاء والصنّاع من مظانهم ، فعرف بشيخ مغفل صحيح المذهب عارف بالبناء الذي يجمله كثير من الصناع ، فأحضر ، فقال له المنصور : كم تقدّر أن يُنفق على هذه الصومعة ؟ فضحك وقال : يا سيدي ، البنيان إنّما هو مثل ذكر ليس يُقدّر حتى يقوم ، فكاد المنصور يفتضح من الضحك ، وصرف وجهه عنه ، وبقيت حكايته يضحك عليها زماناً .

٦٠٣ - وكان أحمد المقرئ المعروف بالكساد شاعراً وشاحاً زجالاً إشبيلياً ، وقال في موسى الذي تغزل^٢ فيه ابن سهّل^٣ :

ما لموسى قد خرّ لله لما فاض نور غشاه ضوء سناه
وأنا قد صعقت من نور موسى لا أطيق الوقوف حين أراه
وقال في رثائه^٤ :

فرّ إلى الجنة حوريتها وارتفع الحسن من الأرض
وأصبح العشاق في مأتم بعضهم يبكي على بعض
وقال فيه :

هتف الناعي بشجور الأبد إذ نعى موسى بن عبد الصمد
ما عليهم ويحهم لو دفنوا في فؤادي قطعة من كبدي

١ أحواز : سقطت من م .

٢ م : يتغزل .

٣ مر البيتان ص : ٦١ .

٤ هذه القطعة والتي تليها لم تردا في م ، وتعليل ذلك أنهما وردتا قبلا ص : ٦١-٦٢ ونسخة «م» قد جرى فيها بعض الحذف للكرّر ، كما أن فيها زيادات انفردت بها سننبتها في مواضعها .

ولابن سهيل الإسرائيلي في موسى هذا ما هو مثبت في ديوانه .

٦٠٤ - وكان محمد بن أحمد بن أبي بكر القرموطي المرسي من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة : المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب ، فيلسوفاً طبيباً ماهراً ، آية الله في المعرفة بالأندلس ، يقرىء الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها ، ولما تغلب طاغية الروم على مرسية عرف له حقه ، فبنى له مدرسة يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود ، وقال له يوماً وقد أدنى منزلته : لو تنصرت وحصلت الكمال كان لك عندي كذا ، وكنت كذا ، فأجابه بما أقنعه ؛ ولما خرج من عنده قال لأصحابه : أنا عمري كله أعبد إلهاً واحداً ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالي لو كنت أعبد ثلاثة كما طلب الملك مني ؟ انتهى .

٦٠٥ - وقال أبو عبد الله محمد بن سالم القيسي الغرناطي يخاطب السلطان على السنة أصحابه الأطباء الذين ببابه مؤزياً بأسمائهم :

قد جمَعنا ببابكم^١ سطرَ علمٍ لبلوغِ المنى ونيلِ الإرادة
ومِنِ أسمائنا لكم^٢ حُسنُ قالٍ سالمٌ ثمَّ غالبٌ وسعادة

٦٠٦ - وقال أبو عبد الله ابن عمر^٣ الإشبيلي الخطيب :

وكلُّ إلى طبعه عائدٌ وإن صدّه المنعُ عن قصده
كذا الماء من بعدِ إسخانه يعودُ سريعاً إلى برده

٦٠٧ - وقال الكاتب أبو زيد عبد الرحمن العثماني لما تغير حاله بإشبيلية^٤ :

١ م : ببابهم .

٢ م : لهم .

٣ م : عمرو .

٤ قد مرت الأبيات في ما تقدم ص : ٦٢ من هذا المجلد ؛ وقد سقطت من م .

لا تَسْلِي عن حالي فهي هذي مثل حالي لا كنت يا من يراني
مَلَّتِي الأهلُ والأخلاءُ لما أن جفاني بعد الوصالِ زماني
فاعتبرُ بي ولا يغركَ دهرٌ ليس منه ذو غبطةٍ في أمانِ

٦٠٨ - ودخل الأديب النحوي أبو عمران موسى الطرياني^١ إلى بعض
الأكابر يوم نَيْرُوز ، وعادتهم أن يصنعوا في مثل هذا اليوم مدائن من العجين
لها صور مستحسنة ، فنظر إلى مدينة أعجبتة ، فقال له صاحب المجلس : صفها
وخذها ، فقال :

مدينةٌ مسورةٌ تحارُ فيها السحرةُ
لم تبسها إلا يدا عذراء أو مُخَدَّرةُ
بدتُ عروساً تجتلي من درمك مزعفره
وما لها مفاتحٌ إلا البنانُ العشرةُ

ورفع إلى القائد أبي السرور صاحب ديوان سبته قصيدة يعرض له فيها
بزاد ، وقد عزم على سفر ، فأنعم عليه بذلك ، ثم أتبعه بتحف مما يكون
في الديوان مما يجلبه الإفرنج إلى سبته ، ولم يكن التمس منه ذلك ولا خطر
بخطره ، فكتب إليه :

أيا سابقاً بالذي لم يجلُ بفكري ولم يبْدُ لي في خطابِ
ويا غائصاً في بحارِ الندى ويا فاتحاً للعلاء كلِّ بابِ
كذا فلتكن نِعَمُ الأكرمين تفاجي بنيلِ المنى والطلابِ
ولم أرَ أعظمَ من نعمةٍ أتني ولم تكُ لي في حسابِ
سأشكرها شكرَ عهدِ الرضى وأذكرها ذكرَ غَضِّ الشبابِ

١ قد مر هذا الخبر والأبيات ص : ٦٣ وقد سقطا من م .

٦٠٩ - وكتب مجاهد صاحب دانيّة إلى المنصور بن أبي عامر الأصغر
ملك بِلَنْسِيّة رقة ، ولم يضمّنْها غير بيت الخطيئة^١ :

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرَحَّلْ لِبَغِيئِها واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكاسِي
فأخرجت^٢ المنصور ، وأقامته وأقعدته ، فأحضر وزيره أبا عامر ابن التاكري
فكتب عنه :

شتمت مَوَالِيها عبيدُ نزارِ شيمُ العبيد شتيمَةُ الأحرارِ
فسلا المنصور عما كان فيه .

ومن شعر المذكور في المنصور :

انْهَضْ على اسمك إنا منصورُ وارمِ العدوَّ فَإِنَّهُ مَقْهُورُ
ولو اغتنيتَ عن النهوض كفيْتَهُمْ فبذكرِ بأسك كلُّهُمْ مَدْعُورُ
ولتبلغنَّ مدى مُرادك فيهمُ ويكونُ يومٌ في العدا مشهورُ

وقال له المنصور يوماً : والله لقد سئمت من هؤلاء الجند ، ووددت الراحة
منهم ، فقال له : يصبر مولاي فلا بدّ من السامة ، فهي على حالتين : إمّا
ممن يكون أمرك إليه ، أو يكون أمره إليك ، والحمد لله الذي رفعه عن الحالة
الأولى .

٦١٠ - وقال بعض الهجائين في رندة^٣ :

قبحاً لِرندةَ مثلما قُبِحَتْ مُطالعةُ الذنوبِ

١ المغرب ١ : ٣٣٢ .

٢ كذا في ق م والتقدير « فأخرجته عن طوره » .

٣ هو أبو الفتح ابن فاخر التونسي (المغرب ١ : ٣٤٤) .

بلدٌ عَلَيْهِ وحشةٌ ما إن يفارقه القُطُوبُ
ما حلَّها أحدٌ فينـ وي بعد بين أن يثوبُ
لم آتـها عند الضحى إلا وخيل لي غروبُ
أفقٌ أغمٌ وساحةٌ تملأ القلوب من الكربُ

٦١١ - وقال جلاص الشاعر الرندي ^١ :

لا تفرحَنُ بولاية سوغتَها فالثورُ يعلفُ أشهراً كي يذبجا
وله في بعض رؤساء ^٢ المثلثين من قصيدة :

ولو لم تكن كالبدر نوراً ورفعةً لما كنت غراً بالسحاب ملثماً
وما ذاك إلا للنوالِ علامةٌ كذا القطرُ مهما لم الأفقَ انهمى
فاهتز المثلث وأعجبه ، وأمر له بكسوة وذهب .

٦١٢ - ولما ذكر أبو بكر ابن عمر الأندي في مجلس بعض الرؤساء بحضرة
أبي الحسن علي بن سعيد ، وأطنب في الثناء عليه ، وعمر المجلس بشكره ،
وأخبر بذلك ، أطرق ساعة ثم قال ^٣ :

لا تذكرن ما غاب عني من ثنا أطنبت فيه فليس ذلك يُجهلُ
فمتى حضرتُ بمجلس وجرى به خبري فإن الذكرَ فيه يجملُ

٦١٣ - ولما نفى بنو ذبي النون أرقم من نسبهم لأنه كان ابن أمة مهيبة ،
واقعها أبو الظافر في حال سكره ، ولم يكن فيهم من ينظم ويتولع بالأدب غيره ،

١ المغرب ١ : ٣٣٦ .

٢ م : شعراء .

٣ المغرب ١ : ٣٣٨ وترجمته في القدح : ١٦٨ .

وولي ابنه يحيى ، وكان أحسد من طلعت عليه الشمس ، فمال على أرقم بالأذية ففرّ عن مملكته ، وقال مرتجلاً^١ :

لئن طبتمُ نفساً بتركي دياركم فنفسيَ عنكم بالفرق أطيبُ
إذا لم يكنْ لي جانبٌ في دياركم فما العذرُ لي أن لا يكون تجنّبُ
زعمتم بأنّي لستُ فرعاً لأصلكم فهلاًّ علمتم أنّي عنه أرغبُ
وحسبي إذا ما البيضُ لم ترع نسبةً بأنّي إلى سفي ورحمي أنسبُ
وإن مدّت الأيامُ عمري للعلا يُشَرِّقُ ذكرى في الورى ويغربُ

٦١٤ - وكتب الوزير الكاتب أبو محمد ابن سفيان إلى أبي أمية ابن عصبام^٢ قاضي قضاة شرق الأندلس « عين زمانه » ، ف وقعت نقطة على العين ، فتوهمها ، وظن أنه أهمها واعتقدها ، وعددها وانتقدها ، فقال :

لا تلزمتني ما جنته براعةً طمست بريقها عيونَ ثناء
حقدتُ عليّ لزامها فتحولتُ أفعى تمجُّ سماها بسحاء
غدر الزمان وأهله عرف ولم أسمعُ بغدر براعةٍ وإباء

٦١٥ - وشرب المأمون بن ذي النون مع أبي بكر محمد بن أرفع رأسه الطليطي وحقّل من رؤساء ندمائه كابن لبون وابن سفيان وابن الفرج وابن مثني ، فجرت مذاكرة في ملوك الطوائف في ذلك العصر ، فقال كل واحد ما عنده بحسب غرضه ، فقال ابن أرفع رأسه ارتجلاً^٣ :

دعوا الملوكَ وأبناء الملوكِ فمنَ أضحى على البحرِ لم يشقْ إلى نهرِ
ما في البسيطة كالمأمونِ ذو كرمٍ فانظر لتصديق ما أسمعت من خبرِ

١ المغرب ٢ : ١٤ .

٢ القلائد : ١٣٩ .

٣ المغرب ٢ : ١٨ والصلة رقم : ٨٧٤ .

يا واحداً ما على عُلَيَّاه مُخْتَلَفٌ مذ جاد كَفُكَّ لم نَحْتَجْ إلى المَطْرِ
وقد طَلَعَتْ لَنَا شَمْساً فما نَظَرْتُ عَيْنٌ إلى كوكبٍ يَهْدِي ولا قَمَرٍ
وقد بَدَوْتَ لَنَا وَسَطِي ملوكهم فلم نُعَرِّجْ على شَدْرِ ولا دَرِّ

فداخل ابن ذي النون من الارتياح ما ليس عليه مزيد ، وأمر له بإحسان
جزيل عتيد .

٦١٦ - وقال أبو أحمد عبد المؤمن الطليطي :

رَأَيْتُ حَيَاتِي قَادِحاً في مَعِيشِي ويصعبُ تركي للحِياءِ وَيَقْبِحُ
وقد فَسَدَ النَّاسُ الَّذِينَ عَهَدْتَهُمْ وقد طال تَأْنِيبي لمن ليس يَصْلِحُ
وله :

ولمَّا غَدَوَا بِالغَيْدِ فَوَقَّ جِمالَهُمْ طَفَقَتْ أُنَادِي لا أَطِيقُ بِهِمُ هِمَا
عَسَى عَيْسٌ مِنْ أَهْوَى تَجُودُ بِوَقْفَةٍ ولو كَوَقُوفِ العَيْنِ لاحتَظَّتِ الشَّمْسَا

٦١٧ - وقال الزاهد أبو محمد عبد الله بن العسال^١ :

أَعْنَدَكُمْ عِلْمٌ بِأَنْتِي مَتِيَمٌ وإلاّ فما بالُ المَدَامِ تَسْجُمُ
وما بالُ عَيْنِي لا تَغْمَضُ سَاعَةً كَأَنْتِي في رعي الدَراري مَنْجُمُ

٦١٨ - وكان الوزير أبو جعفر الوقشي تيّاهاً مُعْجَباً بِنَفْسِهِ ، ومن شعره

في غرضه الفاسد :

إِذَا لَمْ أَعْظَمْ قَدْرَ نَفْسِي وَإِنِّي عليمٌ بما حازته من عِظَمِ القَدْرِ
فغَيْرِي مَعْدُورٌ إِذَا لم يَبْرَأَنِي ولا يُكَبِّرُ الإِنسانَ شَيْءٌ سِوَى الكَبْرِ

١ في م ق : العسال ؛ وانظر ترجمته في المغرب ٢ : ٢١ .

وله :

يرومون بي غيرَ المكان الذي لهُ
فَقُولُوا لبدْرِ الأفقِ يتركُ سماءهُ
خُلقتُ، وبعضي منكرٌ ذاك من بعضي
ويحتلُّ من أجلِ التواضعِ في الأرضِ

وقال :

تكبرُّ وإن كنتَ الصغيرَ تظاهراً
وكنْ تابعاً للهراً في حفظِ أمره
وباعدُ أخا صدقٍ متى ما اشتهى القربا
ألستَ تراه عندما يبصرُ الكلبا

وقال له بعض ندماء ملكه يوماً صاحب جيان ، ابن همشك : يا أبا جعفر ،
أنت جملة محاسن ، وفيك الأدوات العلية التي هي أهل لكل فضيلة ، غير أنك
قد قدحت في ذلك كله بكثرة عجبك ، وإهل مشيت على الأرض تشمئز منها ،
فقال له : كيف لا أشمئز من شيء أشرك معك في الوطاء عليه ؟ فضحك جميع
من حضر من جوابه . وله جواب لمن اعتذر عن غيبته عنه :

لك الفضلُ في أن لا تلوح لناظري
فوجهك في لحظي كما صور الردي
وتبعدَ عني ما بقيت مدى الدهرِ
ولفظك في سمعي حديثٌ عن الفقرِ
ومن حاز ما قد حزته من ركافةٍ
وغاب فلا يحتجُ إلى كلفةِ العذرِ

وله أيضاً ٢ :

لكَ يومان لم تلحُ لعياني
ولك الفضلُ في زيادةِ عامٍ
ولك الفضلُ في زيادةِ شهرٍ
ولك الفضلُ في زيادةِ دهرٍ
ذلك الوجهَ ما تطاول عمري
ولك الفضلُ أن تُغيَّبَ عني

١ ق : للمهر .
٢ أيضاً : سقطت من م .

وله ، وقد شرب على صهريج فاخنتق الأسد الذي يرمي بالماء ، فنفخ فيه
رجل أبحر ، فجرى :

ليثٌ بديعُ الشكلِ لا مثلَ له° صيغَ من الماء له° سلسلته°
يقذفُ بالماءِ على حينه° كأنه عافَ الذي قبله°

٦١٩ - وقال أبو الوليد هشام الوقشي :

برحَ بي أنَّ علومَ الورى اثنان ما إن فيهما من مزيد°
حقيقةٌ يعجزُ تحصيلُها وباطلٌ تحصيلُهُ لا يفيد°

وله ١ :

وفارهٍ يركبُهُ فاره° مرَّ بنا في يده صعده°
سناها مشتملٌ لحظه° وقدَّها مُنتحلٌ قدّه°
يزحفُ للنسكِ في جحفلٍ من حسنه وهو يرى وحده°
قلتُ لنفسي حين مُدَّتْ لها الـ آمالُ والآمالُ ممتدّه°
لا تطمعي فيه كما الشَّعرُ لا يطمعُ في تَسْوِيدِهِ خدّه°٢

وقال :

عَجِبًا للمُدامِ ماذا استعارت° من سَجَايا معذبي وصفاته°
طيبَ أنفاسِهِ وطعمَ ثنايا ه وسُكْرَ العقولِ من لحظاته°
وسنا وجهه وتوريدَ خدّي ه ولطفَ الديباجِ من بشراته°
والتداوي منها بها كالتداوي برضى من هويت من سطواته°٣

١ ق : وله أيضاً .

٢ ق م : الشمس لا يطمع في تدنيسه حده .

٣ البيت والذي يليه سقطا من م .

وهي من بعد ذا عليّ حرامٌ مثل تحريمه جتي رَشَفَاتِهِ

ومن تأليفه « نكت الكامل للمبرد » ، وقد مر ذكر هذا الرجل الفرد قبل هذا .

وحضر يوماً مجلس ابن ذي النون ، فقُدّم نوع من الحلوى يُعرف بآذان القاضي ، فتهافت جماعة من خواصّه عليها يقصدون التندير فيه ، وجعلوا يكثرون من أكلها ، وكان فيما قدم من الفاكهة طبق فيه نوع يسمى عيون البقر ، فقال له المأمون : يا قاضي أرى هؤلاء يأكلون أذنك ، فقال : وأنا أيضاً أكل عيونهم ، وكشف عن الطبق ، وجعل يأكل منه ، وكان هذا من الاتفاق الغريب .

٦٢٠ - وكان الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبي جعفر الوقشي آية الله في الظرف ، وكيف لا ووالده الوزير أبو جعفر ، وصهره أبو الحسين ابن جبير ، وشيخه في علم الموسيقى والتهديب والظرف والتدريب أبو الحسن ابن الحسن ابن الحاسب شيخ هذه الطريقة ، وقد رزق أبو الحسين المذكور فيها ذوقاً مع صوت بديع ، أشهى من الكأس للخليع ، قال أبو عمران ابن سعيد : ما سمعته إلا تذكرت قول الرصافي^١ :

ومُطَارِحٍ مِمَّا تَجَسُّ بُنَانُهُ لِحْنًا أَفَاضَ عَلَيْهِ مَاءَ وَقَارِهِ
يَثْنِي الْحَمَامَ فَلَا يَرُوحُ لُوكره طرباً ، ورزقُ بنيه في منقاره

وكنت أرتاح إلى لقائه ، ارتياح العليل إلى شفائه ، ولم أزل أقرع باباً فباباً ، وأخرق للاتصال حجاباً فحجاباً ، حتى هجمت مع شفيح لا يُرد عليه ، وجلست بين يديه ، فحيثُ حَرَّضَهُ حسبه على الإكرام ، وتلقى بما أوسع من البشر والسلام ، وقال : ليعلم سيدي أنني كنت أودّ الناس في لقائه ، وأحبهم في

١ ديوان الرصافي : ١٠١ (نقلا عن النفع) .

إخائه ، والحمد لله الذي جعلني أنشد :

وليس الذي يَتَّبِعُ الوَبْلَ رائداً كمن جاءه في داره رائدُ الوَبْلِ

ثمَّ قام إلى خزانه ، فأخرج منها عود غناء يطرب دون أن تُجس أوتاره ،
وتلحن أشعاره ، واندفعَ يغني دون أن أسأله ذلك ، ولا أتجشم تكليفه الدخول
في تلك المسالك :

وما زلتُ أرجو في الزمان لقاءكم فقد يسرَّ الرحمنُ ما كنتُ أرتمي
فذكركمُ ما زلتُ أتلوهُ دائماً إذا ذكروا ما بينَ سَلْمِي ومُنْعَجِ

فلما فرغ من استهلاله وعمله قبَّلت رأسه ، وقلت له : لا أدري علامَ
أشكرك قبلُ ، هل على تعجيلك بما لم تدعني أسألك في شأنه أم على ما تفردت
بإحسانه ؟ فما هذا الصوت ؟ قال : هذا نشيد خسرواني من تلحيني ، قال :
وأنشدني لنفسه :

حننتُ إلى صوتِ النواعيرِ سُحرةً فأضحى فؤادي لا يقيرُ ولا يهدا
وفاضتُ دموعي مثلَ قَيْضِ دموعها أطارحُها تلكَ الصبايةَ والوجدا
وزادَ غرامي حينَ أكثرَ عاذلي فقلتُ لهُ أقصرُ ولا تقلحِ الزندا
أهيمُ بهم في كلِّ وادٍ صبايةً وأزدادُ مع طولِ البعادِ لهم ودًا

وأنشدني لنفسه :

ولقد مررتُ على المنازلِ بعدهم أبكي وأسألُ عنهمُ وأنوحُ
وأقولُ إن سألوا بحالي في النوى ما حالُ جِسْمِ فارقتهُ الروحُ

قال : وكتب إليَّ :

يا حسرةً ما قَضَتْ مِن لذةٍ وطَرا أين الزمانُ الذي يُرجى به الخلفُ ؟

أبكيكَ مِلْءَ جفوني ثم يَرْجِعِي إلى التَّصَبُّرِ أَنِّي سوفَ أَنْصَرِفُ
قال أبو عمران : وكنت في أيام الفتنة إذا ركنت إلى الآمال ، هونت على
نفسي ما ألقى من أهوالها بقولي مع خاطري قوله :
أين الزمانُ الذي يُرْجى به الخَلْفُ
انتهى .

٦٢١ - وكان أبو الحسين علي بن الحمارة^١ ممّن برع في الألحان وعلمها ،
وهو من أهل غرناطة ، واشتهر عنه أنّه كان يعمد إلى الشعراء^٢ ، فيقطع العود
بيده ، ثمّ يصنع منه عوداً للغناء ، وينظم الشعر ويلحنه ، ويغني به ، فيطرب
سامعيه ، ومن شعره قوله :

إذا ظنَّ وَكُوراً مُقْلَتي طائرُ الكرى رأى هُدُوبَها فارتاع خوفَ الحبالِ
وقال بعض العلماء في حقّه : إنّه آخر فلاسفة الأندلس ، قال : وأعجب ما
وقع له في الشعر أنّه دخل سلاً وقد فرغ ابن عشرة من بناء قصره ، والشعراء تنشده
في ذلك ، فارتجل ابن الحمارة هذين البيتين ، وأنشدهما بعدهم :

يا واحدَ الناسِ قد شَيَّدتَ واحدةً فَحُلِّ فيها محلّ الشمسِ في الحملِ
فما كَدَّارِكَ في الدُّنيا لذي أملٍ ولا كدَّارِكَ في الأخرى لذي عملِ
وسياي ذكر هذين البيتين .

٦٢٢ - وكان أهل الأندلس في غاية الاستحضر للمسائل العلمية على البديهة ،

١ ترجمته في المغرب ٢ : ١٢٠ وفيه أبو عامر محمد بن الحمارة ، وانظر الوافي ٢ : ٢٤٢ وبغية
الملتصص ص : ٥١٧ .
٢ م : الشجر .

قال ابن مسدي : أملى علينا ابن المناصف النحوي بدانيةً على قول سيبويه « هذا باب ما الكلم من العربية » عشرين كراساً ، بسط القول فيها في مائة وثلاثين وجهاً ، انتهى .

وهذا وأشباهه يكفيك في تبهر أهل الأندلس في العلم ، وربما سئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها إلى مطالعة ونظر ، فلم يحتاج إلى ذلك ، ويذكر من فكره ما لا يحتاج معه إلى زيادة .

٦٢٣ - ومن الحكايات في مثل ذلك أن الأديب البليغ الحافظ أبا بكر ابن حبيش لما قال في تخميسه المشهور :

بماذا على كل من الحق أوجبت

اعترض عليه أبو زكريا اليفرنى بما نصه : استعمل الخمسُ « ماذا » في البيت تكثيراً وخبراً ، والمعروف من كلام العرب استعمالها استفهاماً ، فجأبه بقوله : أما استعمالها استفهاماً كما قال فكثير ، لا يحتاج إلى شاهد ، وأما استعمالها في السن فصحاء العرب للكثرة فكثير لا يحتاج إلى شاهد لو وصل بحث ، واستعمل مكث ، فلم يعترض علي ولي ، ولا تشكك في جلي :

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

قال الله تعالى في سورة يونس ﴿ قُلْ انظُرُوا ماذا في السموات والأرض ، وما تُعْطِي الآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس : ١٠١) ووقع في صحيح البخاري في رثاء المقتولين من المشركين يوم بدر^١ :

وماذا بالقليب قلب بدر من الفتيان والشرب الكرام^٢

١ الشعر لشداد بن الأسود ؛ انظر أنساب الأشراف ١ : ٣٠٧ وابن هشام : ٥٣٠ وفي مناقب الأنصار من البخاري ٦٣ / ٤٣ (حديث : ٢١) .
٢ روايته في البلاذري :

ونقب عن أخيك أبي يزيد أخي القينات والشرب الكرام

وماذا بالقلبِ قلبِ بدرٍ من الشيزى تُكَلَّلُ بالسنامِ^١
وفي السيرِ في رثاء المذكورين أيضاً^٢ :

ماذا ببدرٍ فالعقنقلِ من مرآزبة جحاجحٍ
وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت الثقي ، ووقع في الأغاني للوليد بن يزيد
يرثي نديماً له يُعرف بابن الطويل^٣ :

لله قبرٌ ضُمَّتْ فيه عظامُ ابنِ الطويلِ
ماذا تَضَمَّنَ إذ ثوى فيه من الرأي الأصيلِ

والخبر طويل ، وأجلى من هذا وأعلى ، وأحق بكل تقديم وأولى ، ولكن
الواو لا تفيد رتبة ، ولا تتضمن نسبة ، قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم
« ماذا أنزل الليلة من الفتن » وهو في الصحاح^٤ ، ووقع في الحماسة ، وقد
أجمعوا على الاستشهاد بكل ما فيها :

ماذا أجالَ وثيرة^٥ بن سِمَاكِ من دمعِ باكيةٍ عليه وباكِ^٦
وفي الحماسة أيضاً وأظنّها لأبي دهبِل^٧ :

ماذا رُزئنا غداةَ الحلِّ من زَمَعٍ عند التفرق من خيمٍ ومن كرمِ
ووقع في نوادر القالي لكعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار^٨ :

١ القلب : البئر ؛ والشيزى : جفان تصنع من خشب بهذا الاسم .

٢ الأبيات في أنساب الأشراف ١ : ٣٠٦ وابن هشام : ٥٣١ - ٥٣٢ .

٣ انظر ديوانه : ٥٨ (نقلا عن الأغاني ٦ : ١٣٣) .

٤ م : الصحيح .

٥ م ق : أحال ؛ ق : وثيرة ؛ وهو رواية ثانية .

٦ الحماسة رقم : ٣٢٠ من شرح المرزوقي .

٧ هي الحماسة رقم : ٧٠٦ لأبي دهبِل .

٨ أمالي القالي ٢ : ١٤٦ .

هَوَتْ أُمُّهُ مَا يَبْعَثُ الصَّبْحُ غَادِيًا وَمَاذَا يَرُدُّ اللَّيْلُ حِينَ يُؤُوبُ
ووقع في شعر الحنساء ترثي أخاها صخرًا :

أَلَا ثَكَلْتُ أُمَّ الَّذِينَ غَدَوَا بِهِ إِلَى الْقَبْرِ مَاذَا يَحْمِلُونَ إِلَى الْقَبْرِ
وَمَاذَا يُؤَارِي الْقَبْرُ تَحْتَ تَرَابِهِ مِنَ الْجُودِ فِي بُوْسَى الْحَوَادِثِ وَالْدَهْرِ
والحرير وهو في الحماسة^١ :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوَا بِلَبِّكَ غَادِرُوا وَشَلَّاءَ بَعِينِكَ لَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيِّضْنَ مِنْ عِبْرَاتِهِمْ وَقَلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهُوَى وَلَقِينَا
وفي الحماسة أيضًا^٢ :

مَاذَا مِنَ الْبَعْدِ بَيْنَ الْبَخْلِ وَالْجُودِ

ووقع في الحماسة أيضًا ، وهو لامرأة^٣ :

هَوَتْ أُمَّهُمَ مَاذَا بِهِمْ يَوْمَ صُرَّعُوا بِجَيْشَانٍ مِنْ أَسْبَابِ مَجْدٍ تَصَرَّمًا
أَرَادَتْ مَاذَا تَصَرَّمْ لَهُمْ يَوْمَ صُرَّعُوا بِجَيْشَانٍ مِنْ أَسْبَابِ مَجْدٍ تَصَرَّمًا .
وممَّا يُسْتَظْهَرُ بِهِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي :

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنْيَا وَأَعْجَبْتُهَا أَتَيْتُ بِمَا أَنَا بَاكٍ مِنْهُ مُحْسُودٌ
وقوله أيضًا :

وَمَاذَا بِمَصْرَ مِنَ الْمُضْحَكَاتِ وَلَكِنَّهُ ضَحْكٌ كَالْبُكََا

١ ديوان جرير : ٤٧٦ .

٢ الحماسة رقم : ٦٨٥ وصدرة : الأترين وقد قطعتني عذلا

٣ هو لأم الصريح ، الحماسة : ٣١٨ .

ومن مُلَحِّ المتأخرين : كان بمُرْسِيَةِ أبو جعفر المذكور في المطمح ، وكان
يلقَّب بالبقيرة ، فقال فيه بعض أهل عصره :

قالوا : البقيرةُ يهجوننا فقلتُ لهم : ماذا دُهِيتُ به حتى من البَقَرِ
هذا وليْسَ بِشورٍ بَلْ هو ابنتهُ وأين منزلةُ الأثني من الذكْرِ
وأُنشد صاحب الزهر ، ولا أذكر قائله ١ :

ماذا لقيتُ من المستعربين ومن قياسِ قولهم هذا الذي ابتدعوا
إن قلتُ قافيةً بكرأً يكونُ لها معنًى يخالفُ ما قالوا وما وضعوا
قالوا لحنْتَ وهذا الحرفُ منتصبٌ وذلك خفضٌ ، وهذا ليس يرتفعُ
وضرَبُوا بينَ عبدِ الله واجتهدوا وبينَ زيدٍ فطال الضربُ والوجعُ

وقال صاحب الزهر ٢ : أنشد أبو حاتم ولم يُسمِّ قائله :

ألا في سبيلِ الله ماذا تَصَمَّنْتَ بطونُ الثرى واستودِعَ البلدُ القَفْرُ

هذا ما حضر بفضل الله من الاستشهاد على أن «ماذا» تُستعمل بمعنى الخبر
والتكثير ، والله الذي لا إله غيره ما طالعتُ عليه كتاباً ، ولا فتحت فيه باباً ،
وإنما هو ثُمالة من حوض التذكار ، وصُباية مما علق به شَرَك الأفكار ،
وأثر مما سَدِكَ به السمع ، أيام خلوَ الذَّرْع ، وعُقُدت عليه الحُبِّي ، في
عصر الصِّبا ، ورحم الله من تصفَّح ، وتلمَّح فتسمَّح ، وصحح ما وقع إليه ٣
من الاعتلال ، وأصلح ما وضع لديه من اختلال ، فخير الناس ، من أخذ بالبر
والإيناس ، فبصر من جهلة ، وادَّكر عن وهلة ، وإنما المؤمنون إخوة ،

١ لم أجده في زهر الآداب .

٢ م : الروض ؛ وانظر زهر الآداب : ٧٩٦ .

٣ م : له .

وتحايهم في الله رفعة وحُظوة ، ولهم في السلف الكريم ، ومحافظتهم على الود القديم ، أسوة كريمة وقدوة .

قال ابن الطراح : انظر تحصيل هذا الإمام الرئيس ، والأسمى النفيس ، واستحضاره كلام الأدباء ، وسير النقاد البلغاء ، ومُساجلته مع فرسان المعاني ، ووصفه تلك المغاني ، وقد كان حامل لواء الأدب ، وفاق أبناء جنسه في مرقب الطلب ، وهذه الكلمة - أعني « ماذا » - جرت بسببها مناظرة بين الأستاذ أبي الحسين^١ ابن أبي الربيع النحوي المشهور وبين مالك بن المرحّل بسببته ، حتى ألّف مالك كتاب « الرمي بالحصى والضرب بالعصا » وفيه هتّات لا ينبغي لعاقل أن يذكرها ، ولا لذي طي في البيان أن ينشرها ، وفي ذلك قال الأستاذ أبو الحسين رحمه الله تعالى :

كان ماذا ليتها عدَمُ جَنَّبوها قُرْبُها نَدَمُ
ليتني يا مالٍ لَمَ أَرها إنَّها كالنارِ تضطرمُ

وقوله « يا مال » ترخيم مالك .

وحكى الأستاذ ابن غازي أنهم اختلفوا : هل يقال : كان ماذا أم لا ؟ وقال : إن الأستاذ ابن أبي الربيع تطفّل على مالك بن المرحّل في الشعر ، كما أن ابن المرحّل تطفّل عليه في النحو ، قال : ومن نظم مالك بن المرحّل في هذه القضية :

عابَ قومٌ كانَ ماذا ليتَ شعري كانَ ماذا
إن يكنُ ذلكَ جهلاً منهمُ فكانَ ماذا

ومن نظم ابن جبيش المذكور قوله :

١ م : الحسن ، في الموضعين .

إذا ما شئت أن تحيا هنيئاً رفيع القدر ذا نفسٍ كريمه
فلا تشفع إلى رجلٍ كبيرٍ ولا تشهد ولا تحضر وليمه

وله أيضاً :

لأُعملنَّ إلى لقاءكم قَدَمي ولو تجشمتُ بينَ الطينِ والماءِ
لأنَّ بيلَ ثيابي الغيثُ أهونُ بي من أن تحرقَ نارُ الشوقِ أحشائي

[ترجمة اليفرنى النحوي]

وأبو زكريا المعترض على ابن حبيش هو الفقيه النحوي الأديب أبو زكريا يحيى بن علي بن سلطان اليفرنى^١ ، وُلد سنة ٦٤١ ، وبرع في العربية ، وكان يلقب في المشرق « جبل النحو » وكان عند نفسه مجتهداً ، وكان لا يجيز نكاح الكتابيات ، خلافاً للإمام مالك ، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، ويتمسك بقوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم : ٢١) . وكان يرى أن الطلاق لا يكون إلاّ مرتين : مرّة للاستبراء ، ومرّة للانفصال ، ولا يقول بالثلاث ، وهو خلاف الإجماع ، وكان يقول في نهيهِ عليه الصلاة والسلام عن أكل ذي ناب من السباع : أي مأكول كل ذي ناب ، وتبقى هي على الإباحة ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَمَا أَكَلِ السَّبُعُ ﴾ (المائدة : ٣) وكان يقول في قوله تعالى ﴿ إِنْ هَذَا لَسَاحِرٍ إِنْ ﴾ (طه : ٦٣) الهاء اسم إن ، وذان لساحران جملة خبر لإن ، ولا تحتاج لرابط لأنّها تفسيرية ، والمعنى عنده وأسروا النجوى قالوا إنّها أي نجوانا هذان لساحران ، أي قولنا هذان لساحران ، تثبيطاً للناس عن اتّباعهما ، وخطأ المصحف يرده ، لكن في المصحف أشياء كُتبت على غير المصطلح ، مثل (مال هذا) و (لا أوضعوا)

١ انظر ترجمته في بغية الوعاة : ٤١٢ وفيه نقل عن رحلة ابن رشيد .

و (لا أذبحه) . قال ابن الطراح : ورأيت هذا المعنى لغيره ، وأظنه ابن النحاس ،
وتوفي اليفرني المذكور سنة ٧٠٠ ، ومن شعره :

ماذا على الغصن الميأس لو عطفنا على صباية صبّ حالف الدنفا
يا رحمة لفؤادي من معدّبه كم ذا يحمله أن يحمل الكلفا
ويارعى الله داراً ظلّ يجمعنا في ظلّ عيش صفا من طيبه وضمّنا
مودّة بيننا في الحبّ كاملة ونحن لا نعرف الإعراض والصلفا

رجع إلى كلام الأندلسيين :

٦٢٤ - قال صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى في سكين الكتابة :

أنا صمصامة الكتابة ، ما لي من شبيه في المرهفات الرقاق
فكأنتي في الحسن يوم وصال وكأنتي في القطع يوم فراق
وقال في المقصّ :

ومصطحبين ما اتهما بعشق وإن وُصفا بضمّ واعتناق
لعمرُ أهلك ما اجتمعا لشيء سوى معنى القطيعة والفراق

٦٢٥ - ولبعض الأندلسيين :

هلاً اقتدى ذو خلة بفعالنا فيكون واصل خله كوصالنا
مهما يجيء أحد ليقطع بيننا نقطعه ثم نعد لأحسن حالنا

٦٢٦ - وجرح بعض الكتاب يده بالمقص ، فأنشدّه أحد جلسائه ، وغالب

ظني أنه أندلسي :

١ م : صفا من طيبه وضمّنا .

عداوة^١ « لا » لكفك من قديمٍ فلا تعجبْ لمقراضٍ لثيمٍ
لئن أذمأكَ فهوَ للآ شبيهٌ وقد يعدو اللثيمُ على الكريمِ

٦٢٧ - ولما أَلَّفَ ابنُ عصفور كتابه « المقرب » في النحو انتقده جماعة
من أهل قطره الأندلسيين وغيرهم ، منهم ابن الصائغ وابن هشام والجزيري ،
وله عليه « المنهج المعرب في الرد على المقرب » وفيه تخليط كثير وتَعَسَّفُ :

وفي تَعَبٍ من يحسدُ الشمسَ نورها ويأملُ أن يأتي لها بضربٍ
ومنهم ابن الحاج وأبو الحسن حازم القرطاجني الخزرجي ، وسمّاه « شد
الزيار على جَحْفَلَةِ الحمار » ، وابن مؤمن القابسي ، وبهاء الدين ابن النحاس .

٦٢٨ - ومن شعر حازم الأندلسي المذكور قوله :

لم تدرِ إذ سألتك ما أسلاكها أبكتَ أسي أم قَطَعْتَ أسلاكها
وعارضه التجاني بقوله :

يا ساحرَ الأُلُحَاظِ يا فتاكها فُتِنَا جوازِ الصِدْقِ مَنْ أَفْتَاكَهَا

٦٢٩ - ومن حكاياتهم في المُجُون^١ وما يجري مجراه أن الوزير أبا بكر
ابن الملح كان له ابنٌ شاب ، فاسترسل مع الأدب إلى أن خرج من القول إلى
الفعل ، وأتى بأشياء لا تليق بمثله ، فكتب إليه أبوه :

يا سُخْنَةَ العَيْنِ يا بُنَيَّا لَيْتَكَ ما كُنْتَ لي بُنَيَّا
أَبَكَيْتَ عَيْنِي ، أَطَلْتَ حَزَنِي أُمَّتٌ صَيْبِي وَكَانَ حَيًّا
حَطَطْتَ قَدْرِي وَكَانَ أَعْلَى فِي كُلِّ حَالٍ مِنَ الثَّرِيَا

١ قد وردت هذه القصة والشعر فيما مر ص : ٧١ وسقطت من م .

أما كفاك الزنا ارتكاباً
 حتى ضربت الدفوفَ جهراً
 فاليوم أبكيك ملء عيني
 وشربُ مشمولة الحميما
 وقلت للشراً : جيء إليا
 لو كان يُغني البكاء شيئاً
 فأجابه ابنه بقوله :

يا لائم الصبّ في التصابي
 أو جفت خيل العتاب نحوي
 وقلت عمرُ الهنا قصيرُ
 قد كنت أرجو المتاب ممّا
 لولا ثلاثُ شيوخُ سوء
 ما عنك يُغني البكاء شيئاً
 وقبلُ وثبتها إليا
 فاربحُ من العيش ما تهياً
 فتننتُ جهلاً به وغياً
 أنت وإبليسُ والحميما

٦٣٠ - وقال أبو جعفر ابن صفوان الملقبى رحمه الله تعالى :

سألتُه الإتيانَ نحوي مُقبِلاً
 قرأتُ بابَ الجمعِ من شوقي لهُ
 للاستغاثَةِ ابتدأتُ تاليّاً
 وكلّما طلبتُ منهُ في الهوى
 وإن أرمُ محضَ إضافة لهُ
 في ألفِ الوصلِ ظللتُ باحثاً
 فلستُ موصولاً وليس عائداً
 فيما منى نفسي ومن لفهمه
 وجددي موقوفٌ عليك لا أرى
 فما الذي يمنعُ من تسكينه
 والحبُّ مرفوعٌ إليك مفردُ
 فالضمُّ للرفعِ غدا علامةُ
 فقال سلّ نحوي كي تُحصّلاً
 وهو بالاشتغالِ عنّي قد سلا
 وهو لأفعالِ التعديّ قد تلا
 عطفاً غدا يطلبُ منّي بدلا
 أعملُ في قطعي عنه الحيلا
 وهو ببابِ الفصلِ قد تكفّلاً
 وليس حالي عن أسى منتقلاً
 دانتُ فهومُ الأذكياءِ النبلا
 عنك مدى الدهر لهُ تنقلاً
 والوقفُ بالتسكينِ حكمُ أعمالِ
 فلم تُرى لضمّي مستقلاً
 في مفردٍ مثلي فأوضحُ مشكلاً

لا زلتَ للهِيامِ عني رافعاً
للسوقِ مُسكناً ، لهجري صارفاً
تجزمُ أمراً في الأمانِي ماضياً
وتبتدي بما تشا مستقبلاً
للوصلِ ناصباً ، لقولي مُعملاً
بالقربِ من حالِ البعادِ مبدلاً

٦٣١ - وقال محمد بن إدريس القُضاعي الأصبطوني :

عُلاهُ رياضٌ أورقتَ بمحامدِ
تُسحُّ عليها من نداءِ غمامةٍ
وهلّ هوَ إلا الشمسُ نفساً ورفعةً
تعمُّ أياديه البريةَ كلَّها
تُنورُ بالحدوى وتُثمرُ بالأملِ
تروّي ثرى المعروفِ بالعلِّ والنهلِ
فيقربُ بالحدوى ويبعدُ بالأملِ
فدانٍ وقاصٍ جودٌ كفيهِ قد شملِ

٦٣٢ - وقال محمد التطيلي الهذلي ، من أعيان غرناطة^١ :

جارتَ عليّ لواحظُ الآرامِ
حكمتَ عليّ بحكمها فتبسّمتُ
يا قاتلي عمداً بسيفِ لحاظهِ
كم رمتُ وصلك والصدودُ يصدني
إنّي عدمتُ النفسَ يومَ فراقكم
كيف المقامُ وأصلُ جسمي ناحلُ
صعبَ العلاجِ فليس يمكنَ برؤها
قد كنتُ أفرحُ بالسلوِّ فها أنا
مالتَ به نحوَ الفتونِ بدائعُ
فقوامُ أنفسنا بلذّةٍ وصلهِ
قد أبرزتُ خداهُ روضَ محاسنِ
لما رمتَ أجفانها بسهامِ
فغدا الضنى منها لدى أحكامِ
اغمدُ ظبَاهُ قبلَ وَقَعِ حِمامي
ويقلُّ عزمي أمرهُ ومرامي
والبينُ أسلمها إلى الإعدامِ
إنّ النفوسَ مقيمةُ الأجسامِ
حتى يعودَ الشهرُ مثلَ العامِ
قد زُمَ قلبي في الهوى بزمامِ
من شادينِ يحكيه بدرُ تمامِ
وجميعُ أعيننا عليه سوامِ
عظمتُ على الأفكارِ والأوهامِ

١ ترجمة الهذلي التطيلي في المغرب ٢ : ٤٥٠ وبرنامج الرعيبي : ٢٠٢ ؛ والمقري ينقل عن الإحاطة.

تندى بماء شبيبةٍ وتنعمُ
فكأنّما وجنّاتها في لونها
وكأنّما درعُ الدجى من شعره
وكأنّما ريقُ حواهُ ثغرهُ
وكأنّما سيفُ نضتِ الحاظه
ذاك الأميرُ محمدُ بن محمدٍ
ملكٌ علا فوقَ السّمّاكِ علاؤه
لو كانَ يعتقلُ السّها لأتاهُ في
أو كان يرضى بالمجرّة أجرداً
فالسعدُ يفعلُ للأماني قولها
واليومُ يعشقهُ ويحسدُ ليلتهُ
نامت عيونُ الشركِ خوفَ سنانه
بهرَ الأنامِ بسيفهِ وببأسهِ
فالمعتضى يجني جزيلَ هباته
مهما استعنتَ به فضيغُمُ معرّكِ
أجرى مياهَ العدلِ بعد جفوفها
كم من كتيبةٍ جحفلَ قدها
المقتني الجردِ المتداكي عدّةً
من كلِّ مبيضٍ كأنّ أديمه

ومنها :

يا خيرَ من ركبَ الجيادَ وقادها
لا زلتمُ والسعدُ يخدمُ أمركم
تحتَ اللواءِ ، وعمدةَ الأقوامِ
في غبطةٍ موصولةٍ بدوامِ
عبداً يقومُ لنا على الأقدامِ
حتى يصيرَ الأمنُ في أرجائنا

والله ينصركم ويُعلي مجدكم ما سَحَّ إثر الصحو ماء غمام

٦٣٣ - وكان يحيى السرقسطي أديباً ، فرجع إلى الجزارين ، فأمر
الحاجبُ ابنُ هود أبا الفضل ابن حسداي أن يوبخه على ذلك ، فكتب إليه :

تركت الشعرَ من عَدَمِ الإصابه٠ وملت إلى التجارةِ والقِصابه٠

فأجابه يحيى :

تَعِبُ عليّ مألوفَ القِصابه٠ ومن لم يدَرَ قَدْرَ الشيءِ عابه٠
ولو أحكمتَ منها بعضَ فنّ لما استبدلتَ منها بالحِجابه٠
ولو تدري بها كلفي ووجدي علمتَ علامَ أحتملُ الصِبابه٠
وإنّك لو طلعتَ عليّ يوماً وحوالي من بني كلبِ عِصابه٠
لهالك ما رأيتَ وقلتَ هذا هزبِرُ صيّرَ الأوضامَ غابه٠
وكم شهدتُ لنا كلبٌ وهرٌّ بأن المجدَ قد حَزُننا لُبابه٠
فتكنا في بني العنزِي فتكاً أقرَّ الذعرَ فيهم والمهابه٠
ولم نُقلعَ عنِ الثوريّ حتى مزجنا بالدمِ القاني لُعباه٠
ومن يغرترَ منهم بامتناعِ فإنَّ إلى صوارمنا لإيابَه٠
ويبرزُ واحدٌ منا لألفِ فيغلبهم وذاك من الغرابه٠

ومنها :

أبا الفضلِ الوزيرِ أجِبْ ندائي وفضلُك ضامنٌ عنك الإِجابَه٠
وإصفاةً إلى شكوى شكورِ أطلتَ على صناعته عتابه٠
وحقِّك ما تركتُ الشعرَ حتى رأيتُ البخلُ قد أوصى صحابه٠

١ المغرب ٢ : ٤٤٤ والذخيرة (٣ : ٢٨٦) وزاد المسافر : ٩٨ .

٢ م : المحل .

٣ المغرب : أدكى شهابه .

وحتى زرتُ مشتاقاً خليلي^١ فأبدى لي التحيل^٢ والكآبه
وظنَّ زيارتي لطِلابِ شيءٍ فنافرني وغلَّظَ لي حِجابَه

٦٣٤ - وقال الأديب أبو الحسن ابن الحداد :

قالتُ وأبدتُ صفحةً كالشمسٍ من تحتِ القناعِ
بعثَ الدفاترَ وهي آ خرُ ما يُباعُ من المتاعِ
فأجبتُها ويدي على كبدي وهمتُ بانصداعِ
لا تعجبي مما رأيتُ فنحن في زمنِ الضياعِ

٦٣٥ - وقال الأديب أبو زكريا ابن مطروح من أهل مدينة باغه ، وقد
عزَّل والٍ فترل المطر على إثره ، وهو من أحسن شعر قاله ، وكان الوالي غير
مرضى :

ورُبَّ والٍ سرَّنا عزَّلهُ فبعضنا هناهُ البعضُ
قد واصلتنا السُّحبُ من بعده ولدَدَ في أجفاننا الغمضُ
لوم لم يكن من نجسٍ شخصهُ ما طهرت من بعده الأرضُ

٦٣٦ - وقال القاضي أبو البركات ابن الحاج البليقي ، رحمه الله تعالى :

وعشية حكمتُ على من تاب من أهلِ الخلاعةِ أن يعودَ لما مضى
جمعتُ لنا شملَ السرورِ بفتيةِ جمعوا من اللذاتِ شَملاً مرتضى
ما عاقبني عن أن أسيرَ بسيرهم إلاّ الرياءَ مع الخطابةِ والقضا

٦٣٧ - وقال أبو الحجَّاج يوسف الفهري من أهل دانية :

١ المغرب : حبيباً .

٢ ق : التخيل ؛ المغرب : التجهم .

أبى الله إلا أن أفارق منزلاً يطالغني وجهُ المنى فيه سافراً
كانَ على الأيام أن لا أحلّه ويبدأ فما أغشاهُ إلا مسافراً

٦٣٨ - وقال بعضهم في الرثاء :

عَبَرَاتٌ تَفِيضُ حَزناً وَثِكْلاً وشجونٌ تعمُّ بعضاً وكُلاً
ليس إلا صُبابَةٌ أضرمتها حسرةٌ تبعثُ الأسى ليس إلا

٦٣٩ - ولأبي جعفر البغيل أحد شعراء المَريّةِ وكتّابها :

عزاءٌ على هذا المصابِ الذي دهى وشتت شملَ الأُنسِ من بعد ما انتهى
بفرعِ علاءٍ في منابتِ سُودد تسامى رُقيّاً في المعالي إلى السُّها
أصبّتَ به من بعد ما تمَّ مجدهُ وقد شمختُ منه الشماريخُ وازدهى
فأيةَ شمسٍ فيه للمجد كُورَتُ وأيُّ بناءٍ للمكارمِ قدّ وهى
فصبراً عليه لا رُزئتَ بمثله فمثلك من يُعزى إلى الحلم والنهى

٦٤٠ - وقال الكاتب الماهر أبو جعفر أحمد بن أيوب اللماني المالقي^١ :

طلعتُ طلائعَ للربيعِ فأطلعتُ في الروضِ ورّداً قبل حينِ أوانِهِ
حيّاً أميرَ المؤمنينِ مبشراً وموملاً للنيلِ من إحسانِهِ
ضنّتُ سحائبُهُ عليهِ بمائه فأتاه يستسقيهِ ماءَ بِنانِهِ
دامتْ لنا أيامُهُ موصولةً بالعزِّ والتمكينِ في سلطانِهِ

٦٤١ - وقال أبو جعفر أحمد بن طلحة من جزيرة شُقر^٢ :

يا هل ترى أظرف من يومنا قلّدَ جيدَ الأفقِ طوقَ العقيقِ
وأنطقَ الورقَ بعيدانها مطربةً كلَّ قضيبٍ وريقِ

١ الإحاطة ١ : ١١٠ .

٢ اختصار القدح : ١١٤ والإحاطة ١ : ١١٢ .

والشمسُ لا تشربُ خمرَ الندى في الروضِ إلاّ بكؤوسِ الشقيقِ

٦٤٢ - وقال أبو جعفر الغساني من أهل وادي آش ، واستوطن غرناطة ، ثم مات بالمريّة ، فكتب على حمالة قرابٍ لموطئ الإمام مالك ، بعدما استنجد قرائح أدباء عصره ، واستصرخ اختراعاتهم لنصره ، فكلّهم قصّر عن غرضه ، وأداء مفترضه ، فقال هو :

يا طالباً لكمالٍ حفطي أتمُّ كمالكِ
فما تقلّدتِ مثلي إذ لم تقلّدي كمالكِ

٦٤٣ - وقال أبو بكر يحيى بن بقيّ :

خذها على وجهِ الربيعِ المُخْصِبِ لم يقضِ حقَّ الروضِ من لم يشربِ
همي سماءَ عللاً وهمّي ماردٌ فارجمه من تلك الكؤوسِ بكوكبِ

وهو رحمه الله تعالى صاحب الأبيات المشهورة :

زحزحته عن أضلعٍ تشنّقه كيلا ينامَ على فراشٍ خافق

وانتقد عليه بعض اللطفاء فقال : إنّه كان جاني الطبع حيث قال « زحزحته » ولو قال « باعدت عنه أضلعاً تشنّقه » لكان أحسن .

٦٤٤ - وقال السلطان المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يستدعي^١ :

انهضُ أبا طالبٍ إلينا واستقطُ سقوطَ الندى علينا
فنحنُ عِقْدٌ بغيرِ وسطي ما لم تكنْ حاضرأً لدينا

وتذكرت هنا قول بعض المشاركة فيما أظن والله تعالى أعلم :

١ القلائد : ٤٦ وانظر ج ١ : ٦٦٦ .

نحنُ في مجلسِ أنسٍ ما بهِ غيرُ محبِّكَ
فتصدَّقْ بمُضوَرٍ واجمعِ الوقتَ بقربكَ
وخَفِ الآنَ عتابي مثلَ خوفي عندَ عتبِكَ

٦٤٥ - وقال أبو عبد الله ابن خلسة الضرير^١ :

ولو جادَ بالدُّنيا وثنتي بمثلها لظنَّ من استصغارها أنَّه ضنَّا
ولا عيبَ في إنعامه غيرَ أنَّه إذا منَّ لم يتَّبِعْ مواهبه منَّا
وله أيضاً^٢ :

يا مالكا حسدتُ عليه زمانه أممٌ خلَّتْ من قبله وقُرُونُ
ما لي أرى الآمالَ بيضاً وضحاً ووُجوهُ آمالي حوالك جُونُ
أنا آمينٌ فَرِقٌ ، وراجٍ آيسٌ وروٍ صدِّ ، ومُسرَّحٌ مسجونُ
لا تَعُدُّني أنواءَ سَيْبِكَ لا عدا كِ النَّصْرُ والتأييدُ والتمكينُ

٦٤٦ - وقال ابن اللبَّانة :

كرمْتَ فلا بحرٌ حكاكَ ولا حياً وفَتَّ فلا عُجمَ شأتِكَ ولا عُرْبُ
وأوليتني منك الجميلَ فوالهِ عسى السحُّ من نعماك يتبعه السكبُ

٦٤٧ - وقال أبو علي ابن اليمان^٣ :

أبناتِ الهديلِ أسعدنَ أو عد نَ قَليلَ العزاءِ بالإسعاد
بيدَ أنِّي لا أرتضي ما فعلتَ نَ فأطواقُكُنَّ في الأجياد

١ هو أبو عبد الله محمد بن خلسة الشذوني ويقال له الضرير تمييزاً عن من ينسب سواه إلى خلسة ، انظر الجذوة : ٥١ ونكت الهميان : ٢٤٨ والمسالك : ١١ : ٤٥ والذخيرة (٣ : ١٠٩) .

٢ الذخيرة : ١١١ .

٣ هو إدريس بن اليمان ؛ وهو المقري أو من ينقل عنه في نسبة البيتين له فهما لأبي العلاء المعري من داليته « غير مجد في ملتي واعتقادي » ، ولعل سبب الوهم أبيات ابن اليمان في الحماسة (الذخيرة : ٣ : ١١٩) .

٦٤٨ - وقال أبو جعفر أحمد بن الدودين من كلمة^١ :

فغدتُ غواني الحميَّ عنك غوانياً وأسلن الحاظَ الرباب ربابا

٦٤٩ - وقال ابن أبي الخصال في مليحة لها أربع جوارٍ قبيحات :

وليلةٍ طولها على سنةٍ باتَ بها الجفنُ نادباً وسنةٍ
بأربعٍ بينهنَّ واحدةٌ كسيئاتٍ وبينها حسنةٌ

٦٥٠ - وقال غالب بن تمام الملقب بالحجّام :

صغارُ الناسِ أكثرهم قبيحاً وليسَ لهم بصالحةٍ نهوضُ
ألم ترَ في سباعِ الطيرِ نسرأ يُسالننا ويؤذينا البعوضُ

٦٥١ - وقال ابن عائشة^٢ :

وروضةٍ قد علت سماءً تطلعُ أزهارها نجوماً
هفا نسيماً الصبا عليها فخلتها أرسلت رجوما^٣
كأنما الجوّ غاراً لما بدت فأغرى بها التسيما

وله يصف فرساً ، وهو من بدائعہ :

قصرت له تسعٌ وطالت أربعٌ وزكت ثلاثٌ منه للمتأمل
وكأنما سال الظلامُ بمتنه وبدا الصباحُ بوجهه المتهلل
وكان راكمه على ظهر الصبا من سرعةٍ أو فوق ظهر الشمالِ

١ هو من رجال النخيرة (٣ : ٢١٩) والمغرب ٢ : ٣٢٢ ؛ والبيت فيه .

٢ مرت هذه الأبيات ص : ٥٤ وانظر النخيرة (٣ : ٢٧٩) .

٣ سقط هذا البيت من م .

وقال :

تربةٌ مسك ، وجوٌ عنبرةٍ
وغيماً ندى ، وطشٌ ماوردٍ
كأنما جائلُ الحبابِ بهِ
يلعبُ في جانبيه بالردِ
وتروى هذه الأبيات لغيره^١ .

وقال^٢ :

همٌ سلبوني حُسنَ صبري إذ بانوا
لئن غادروني باللوى إن مهجتي
بأقمارٍ أطواقٍ مطالعها بانُ
مسايرةٌ أظعانهم حيثما كانوا
٦٥٢ - وقال أبو محمد ابن سفيان ، وهو من أبداع التخلص :

فقلتُ وجفني قد تداعتُ شؤونهُ
لئن دهمتْ دهمُ الخطوبِ وآلتُ
وحررُ ضلوعي مُقعدٌ ومُقيمُ
فإنَّ أبا عيسى أغرُّ كريمُ
٦٥٣ - وقال ابن الزقاق^٣ :

بأبي وغيرِ أبي أغنُ مهففُ
لبسِ الفؤادِ ومزقته جفونهُ
مهضومُ ما تحتَ الوشاحِ خميصهُ
فأتى كيوسُفَ حينَ قدَّ قميصهُ
وقال :

سلامٌ على أيامكم ما بكى الحيا
كانَ لم نبيتَ في ظلِّ أمنٍ تضمنا
وسقياً لذاك العهد ما ابتسم الزهرُ
من الليلةِ الظلماءِ أرديةٌ خضرُ
ولم نغتنقِ تلكَ الأحاديثِ قهوةً
وكم مجلسٍ طيبُ الحديثِ بهِ خمرُ
ألا في ضمانِ الله في كلِّ ساعةٍ
يجدُّ لي فيها بشوقي لهُ ذكرُ

١ وتروى ... لغيره : سقطت من م .

٢ وردت القصيدة بتسامها في أزهار الرياض ٣ : ١٢١ منسوبة لابن السيد البليوسي .

٣ وردت قطعنا ابن الزقاق في ديوانه : ١٩٦ ، ١٧١ .

يُذْكَرُ نِيهِ الْبَرْقُ جَدَّ لَانَ بِاسْمِ . وَيُذْكَرُ نِيهِ إِسْفَارَ غُرَّتِهِ الْفَجْرُ
وَمَارِقَ زَهْرِ الرُّوضِ إِلَّا تَمَثَّلْتُ لِنَاطِرِ عَيْنِي مِنْهُ آدَابُهُ الزُّهْرُ

٦٥٤ - وَقَالَ يَحْيَى السَّرْفُسْتِي :

هَاتِمَا عَسْجَدِيَّةٌ كَوَثْرِيَّةٌ بِنْتَ كَرَمٍ رَحِيقَةٌ عَطْرِيَّةٌ
كَلَّمَا شَفَّهَهَا النُّحُولُ تَقَوَّتْ فَاعْجَبُوا مِنْ ضَعِيفَةٍ وَقَوِيَّةٌ
رَبَّ خَمَّارَةٍ سَرِيَتْ إِلَيْهَا وَالذَّجَى فِي ثِيَابِهِ الزَّنْجِيَّةُ

ومنها :

كَمْ عُقَارٍ بَدَلْتُهُ بِعُقَارٍ وَثِيَابٍ صَبَغْتُهَا خَمْرِيَّةً
إِنَّ خَيْرَ الْبُيُوعِ مَا كَانَ نَقْدًا لَيْسَ مَا كَانَ آجَلًا بِنَسِيَّةً

وله^١ :

نَسِبْتُمُ الظُّلْمَ لِعَمَالِكُمْ وَنَعَمْتُ عَنْ قَبِيحِ أَعْمَالِكُمْ
وَاللَّهِ لَوْ حَكَمْتُمْ سَاعَةً مَا خَطَرَ الْعَدْلُ عَلَى بَالِكُمْ

٦٥٥ - وَقَالَ الرَّصَافِي فِي الدُّوَلَابِ^٢ :

وَذِي حَنِينٍ يَكَادُ شَجْوًا يَخْتَلِسُ الْأَنْفُسَ اخْتِلَاسًا
إِذَا غَدَا لِلرِّيَاضِ جَارًا قَالَ لَهَا الْمَحَلُّ لَا مَسَاسًا
يَيْتَسِمُ الرُّوضُ حِينَ يَبْكِي بِأَدْمَعٍ مَا رَأَى بَاسًا
مَنْ كُلَّ جَفْنٍ يَسَلُّ سَيْفًا صَارَ لَهُ عَقْدُهُ رِثَاسًا

٦٥٦ - وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصَّابُونِيُّ لِنَزْهَةِ بُوَادِي إِشْبِيلِيَّةٍ ، وَكَانَ يَهْوَى

١ زاد المسافر : ٩٩ .

٢ ديوان الرصافي : ١٠٢ والمغرب : ٢ : ٣٥١ والمعجب : ١٤٣ ورفع الحجب : ١٣٥ .

فتى اسمه علي ، فقال :

أبا حسنِ أبا حسنِ بَعادُكَ قد نفى وسني
وما أنسى تذكُّره فهل أنسى فيذكركني

ويشبه هذا قول الطاهر بن أبي ركب^١ :

يقولُ الناسُ في مثلي تذكَّرْ غائباً تره
فما لي لا أرى سكاني وما أنسى تذكُّره

٦٥٧ - وكتب بعض الأدباء إلى ابن حزم الأندلسي بقوله :

سألتُ الوزيرَ الفقيهَ الأجلَّ سؤالَ مُدِلِّ علي من سألُ
فقلتُ أيا خيرَ مسترشدٍ ويا خيرَ مَنْ عن إمام نقلُ
أبحرمُ أن نالني قبلةً غزالُ ترشفُ فيه الغزلُ
وعانقتي والدجى خاضبُ فبتنا ضجيعين حتى نصلُ
وجئتكَ أسألُ مسترشداً فبينَ فديتَ لمن قد سألُ

فأجابه ابنُ حزم بقوله :

إذا كان ما قلته صادقاً وكنْتَ تحرَّيتَ جهدَ المقلِّ
وكان ضجيعك طاوي الحشا أعارَ المهابةَ احمرارَ المقلِّ
قريبَ الرضى وله غنةٌ تميَّتُ الهمومَ وتحيي الجذلُ
ففي أخذِ أشهبَ عن مالكِ عن ابن شهابِ عن الغيرِ قلُ
بتركِ الخلافِ على جمعهم على أن ذلك حلٌّ وبيلُ

٦٥٨ - ونظر الرصافي يوماً إلى صبي يبكي ، ويأخذ من ريقه ويبلُ

١ انظر ما تقدم من : ١١٣ .

عينه ، كي يخفي أثر البكاء ، فارتجل الرصافي ١ :

عذيري من جلدان يبدي كآبةً وأضلعهُ ممّا يحاوله صفرُ
أميلدُ مياسُ إذا قاده الصبا إلى ملح الإدلال أيده السحرُ
يبسلُ مآقي مقلتيه بريقه ليحكي البكا عمداً كما ابتسم الزهرُ
أيوهمُ أنّ الدمعَ بلّ جفونهُ وهل عصرتُ يوماً من الرجس الحمرُ

وكان المذكور - أعني الرصافي - يميل في شببته لبعض فتيان الطلبة ، وأجمع الطلبة على أن يصنعوا نزهة بالوادي الكبير بمالقّة ، فركبوا زورقاً للمسير إلى الوادي ، فوافق أن اجتمع في الزورق شملُ الرصافي بمحبوبه ، ثم إن الريح الغربية عصفتُ وهاج البحر ، ونزل المطر ، فنزلوا من الزورق ، وافترق شمل الرصافي من محبوبه ، فارتجل في ذلك ، ويقال إنّها من أول شعره :

غارَ بيَ الغربُ إذ رأني مجتمعَ الشمّلِ بالحبيبِ
فأرسلَ الماءَ عن فراقٍ وأرسلَ الريحَ عن رقيبِ

فلما سمع ذلك أستاذه استنبله ، وقال له : إنك ستكون شاعر زمانك .

٦٥٩ - وحكي أن أبا بكر ابن مجبر قال في ابن لأبي الحسن ابن القطان

بمحضر والده :

جاء وفي يساره قوسٌ وفي اليمنى قدحُ
كأنه شمسٌ بدتُ وحوها قوسٌ قزحُ
يا لائمي في حبه ما كلُّ منّ لام نصحُ

فقال ابن عياش الكاتب : هذه أبيات لأندلسي استوطن المشرق في تركي ،

١ ديوان الرصافي : ٦٧ .

فأقسم أبو بكر أنه لم يسمع شيئاً من ذلك ، وإنما ارتجلها ، وقيل : إنها لأبي
الفتح محمد بن عبيد الله من أهل بغداد ، وأولها :

جَدَّ بقلبي ومَزَحَ

فالله أعلم بحقيقة الأمر .

٦٦٠ - وخرج أبو بكر ابن طاهر وأبو ذر الخُشْتِي والقاضي أبو حفص
ابن عمر ، وهو إذ ذاك وَسِيمٌ ، فأثرت الشمس في وجهه ، فقال أبو ذر :

وسمكتَ الشمس يا عمرُ سِمةً في القلبِ تنثرُ

فقال الآخر :

عَلِمْتَ قَدَرَ الذي صَنَعْتَ فَسَأَتُ صفراءُ تعتذرُ

٦٦١ - وقال أبو الحسين البلنسي الصوفي : كان لي صديق أُمِّي لا يقرأ
ولا يكتب ، فعلق فتى ، وكان خرج لنزهة فأثرت الشمس في وجهه ، فأعجبه
ذلك ، وأنشد :

رأيتُ أحمدَ لما جاء من سفرٍ والشمسُ قد أثرت في وجهه أثرا
فانظرُ لما أثرتَه الشمسُ في قمرٍ والشمسُ لا ينبغي أن تُدرك القمرا

٦٦٢ - واجتمع أبو الوليد الوقشي وأبو مروان عبد الملك بن سراج
القرطبي ، وكانا فريدي عصرهما حفظاً وتقدماً ، فتعارفا ، وتساءلا ، ثم بادر
أبو الوليد بالسؤال ، وقال : كيف يكون قول القائل :

ولو أن ما بي بالحصى فعل الحصى وبالريح لَمْ يُسمعْ لهن هبوبُ

١ م : فلق .

ما ينبغي أن يكون مكان « فعل الحصى » ؟ فقال أبو مروان « فلق الحصى » ، فقال :
 وهمت ، إنما يكون « فلق الحصى » ليكون مطابقاً لقوله « لم يُسمع لمن هبوب »
 يريد أن ما به يحرك ما شأنه السكون ويسكن ما شأنه الحركة ، فقال أبو مروان :
 ما يريد الشاعر بقوله :

وراعةٍ في ظلِّ غصنٍ مننوطَةٍ بلؤلؤةٍ نيطتْ بمنقارِ طائرٍ

وكان اجتماعهما في مسجد ، فأقيمت الصلاة إثر فراغ ابن سراج من إنشاد
 البيت ، فلما انقضت الصلاة قال له الوقشي : ألغز الشاعر باسم أحمد ، فالراكة
 الحاء ، والغصن كناية عن الألف ، واللؤلؤة الميم ، ومنقار الطائر الدال ، فقال
 له ابن سراج : ينبغي أن تعيد الصلاة لشغل خاطرك بهذا اللغز ، فقال له الوقشي :
 بين الإقامة وتكبيرة الإحرام فككته .

والبيت الأول لعبد الله بن الدمينية ، وبعده :

ولو أنني أستغفرُ اللهَ كلِّما ذكرتُكِ لم تُكتبِ عليَّ ذنوبُ

٦٦٣ - وقال الوزير أبو الحسن ابن أضحى :

ومستشفعٍ عندي بخير الورى عندي وأولاهمُ بالشكر منِّي وبالحمدِ
 وَصَلْتُ فلماً لم أقمِ بجزائه « لفتُّ له رأسي حياةً من المجدِ »^١

وكان سبب قوله هذين البيتين أنه كتب إليه بعض الوزراء شافعاً لأحد
 الأعيان ، فلماً وصل إليه برّه وأنزله وأعطاه عطاء استعظمه واستجزله ، وخلع
 عليه خلعاً ، وأطلعه من الأحمال بدرأ لم يكن مطلعاً ، ثم اعتقد أنه قد جاء
 مُقَصِّراً ، فكتب إليه معتذراً بالبيتين ، هكذا حكاه الفتح^٢ ، وقال بعد ذلك
 ما صورته : ومن باهر جلاله ، وظاهرِ جلاله ، أنه أعفُ الناس بواطن ،

١ عجز بيت لأبي تمام وصدره : « أتاني مع الركبان ظن ظننته » .

٢ القلائد : ٢١٧ ومر بعضه .

وأشرفهم في التقى مواطن ، ما علمت له صَبْوَةٌ ، ولا حُلَّتْ له إلى مستنكر حُبْوَةٌ ، مع عدل لا شيء يعدله ، وتحجب عما يتقى مما يرسل عليه حجابهِ ويسدِّله ، وكان لصاحب البلد الذي كان يتولى القضاء به ابن من أحسن الناس صورة ، وكانت محاسن الأقوال والأفعال عليه مقصورة ، مع ما شئت من لَسَنٍ ، وصوت حَسَنٍ ، وعفاف ، واختلاط بالبهاء والتفاف ، قال الفتح : وَحَمَلْنَا لِإِحْدَى ضِيَاعِهِ بِقَرَبٍ مِنْ حَضْرَةِ غَرْنَاطَةَ فَحَلَلْنَا قَرْيَةَ عَلَى ضِفَّةِ نَهْرٍ ، أَحْسَنَ مِنْ شَاذِمَهْرٍ ، تَشَقَّهَا جَدَاوِلُ كَالصَّلَالِ ، وَلَا تَرْمَقُهَا الشَّمْسُ مِنْ تَكَائِفِ الظَّلَالِ ، وَمَعَنَا جَمَلَةٌ مِنْ أَعْيَانِهَا ، فَأَحْضَرْنَا مِنْ أَنْوَاعِ الطَّعَامِ ، وَأَرَانَا مِنْ فِرطِ الْإِكْرَامِ وَالْإِنْعَامِ ، مَا لَا يُطَاقُ وَلَا يُحَدِّدُ ، وَيَقْصُرُ عَنْ بَعْضِهِ الْعَدَّ ، وَفِي أَثْنَاءِ مُقَامِنَا بَدَأَ لِي مِنْ ذَلِكَ الْقَتِي الْمَذْكُورِ مَا أَنْكَرْتُهُ ، فَقَابَلْتُهُ بِكَلَامِ اعْتَقَدُهُ ، وَمَلَامِ أَحْقَدُهُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ لَقِيتُ مِنْهُ اجْتِنَابَهُ ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ مَا عَهَدْتُهُ مِنَ الْإِنَابَةِ ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ مُدَاعِبًا لَهُ ، فَرَاغْتَنِي بِهَذِهِ الْقِطْعَةِ :

أَتَتْنِي أَبَا نَصْرِ نَتِيجَةُ خَاطِرِي	سَرِيعٍ كَرَجَعِ الطَّرْفِ فِي الْخَطَرَاتِ
فَأَعْرَبْتَ عَنِ وَجْدِ كَيْنِ طَوِيْتِهِ	بَأَهْيَفِ طَاوِي فَاتِرِ اللَّحْظَاتِ
غَزَالُ أَحْمَمُ الْمُقْلَتَيْنِ عَرَفْتُهُ	بِخَيْفِ مَنَى لِلْحَسَنِ أَوْ عَرَفَاتِ
رَمَاكَ فَأَصْمَى وَالْقَلُوبُ رَمِيَّةٌ	لِكُلِّ كَحَيْلِ الطَّرْفِ ذِي فَتَكَاتِ
وظنَّ بِأَنَّ الْقَلْبَ مِنْكَ مُحْصَبٌ	فَلْبَاكَ مِنْ عَيْنِيهِ بِالْجَمْرَاتِ
تَقَرَّبَ بِالنُّسَاكِ فِي كُلِّ مَنْسِكِ	وَضَحَى غَدَاةَ النَّحْرِ بِالمُهْجَاتِ
وكانت له جِيَانُ مَثْوَى فَأَصْبَحَتْ	ضُلُوعَكَ مَشَوَاهُ بِكُلِّ فَلَائِ
يَعَزُّ عَلَيْنَا أَنْ تَهَيِّمَ فَتَنْطَوِي	كثيلاً عَلَى الْأَشْجَانِ وَالزَّفْرَاتِ
فَلَوْ قُبِلَتْ لِلنَّاسِ فِي الْحَبِّ فِدِيَّةٌ	فَدِينَاكَ بِالأَمْوَالِ وَالْبَشْرَاتِ

ومن إثارة ديانته ، وعلامة حفظه للشرع وصيانته ، وقصده مقصد المتورعين ، وجريه جريّ المشرعين ، أن أحد أعيان بلده كان متصلاً به اتصال الناظر

بسواده ، محتلاً في عينه وفؤاده ^١ ، لا يُسلمه إلى مكروه ، ولا يفرده في
 حادث يعرّوه ، وكان من الأدب في منزلة تقتضي إسعافه ، ولا تورده من
 تشفيعه في مورد قد عافه ، فكتب إليه ضارعاً في رجلٍ من خواصه اختلط بامرأة
 طلقها ، ثم تعلقها ، وخاطبه في ذلك بشعر ، فلم يسعفه ، وكتب إليه مُراجعاً :

ألا أيها السيدُ المجتبي	ويا أيها الألميُّ العلمُ
أنتنيَ أبياتك المحكماتُ	بما قد حوتُ من بديع الحكمِ
ولم أرَ من قبلها مثلها	وقد نَفثتُ سحرها في الكلمِ
ولكنهُ الدينُ لا يُشترى	بنثرٍ ولا بنظامٍ نُظِمِ
وكيف أُبيعُ حِمِّيَ مانعاً	وكيف أحلّل ما قد حرمِ
ألستُ أخافُ عقابَ الإلهِ	وناراً موججةً تضطرمِ
أأصرفُها طالقاً بتةً	على أنوكٍ قد طغى وأجترمِ
ولو أن ذاك الغويُّ ^٢ الزريُّ	تثبتَ في أمره ما ندمِ
ولكنهُ طاشَ مستعجلاً	فكانَ أحقَّ الوريِّ بالندمِ

انتهى كلام الفتح الذي أردت جلبه هنا .

ولا خفاء أن هذه الحكاية ممّا يدخل في حكايات عدل قضاة الأندلس .
 ومن نظم ابن أضحى المذكور ما كتب به إلى بعض من يعز عليه ^٣ :

يا ساكن القلبِ رفقا كم تقطّعه	الله في منزلٍ قد ظلّ مثواكا
يُشيدُ الناسَ للتحصين منزلهم	وأنتَ تهدمه بالعنف عيناكا
والله والله ما حُبِّي لفاحشةٍ	أعاذني الله من هذا وعافاكا

١ م : محتفلاً في عينه وفؤاده .

٢ م : الفبي .

٣ القلائد : ٢١٨ .

وله في مثل ذلك ١ :

روحي إليك فردّيه إلى جسدي من لي على فقده بالصبر والجلد
بالله زوري كثيراً لا عزاء له وشرفيه ومثواه غداة غد
لو تعلمين بما ألقاهُ يا أملي بايعتني الودّ تُصفيه يداً بيد
عليك مني سلامُ الله ما بقيتُ آثارُ عينيك في قلبي وفي كبدي

٦٦٤ - وإذا وصلت إلى هذا الموضع من كلام أهل الأندلس ، فقد رأيت أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي هنّ اليدُ الطولى في البلاغة ، كي يُعلم أن البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم ، حتى في نسايتهم وصيانتهم .

١ - فمن النساء المشهورات بالأندلس : أم السعد بنت عصام الحميري ٢ ، من أهل قرطبة ، وتُعرف بسعدونة ، ولها رواية عن أبيها وجدّها وغيرهما ، كما حكاها ابن الأبار في ترجمتها من « التكملة » . وأنشدت لنفسها في تمثال نعل النبي صلى الله عليه وسلم تكملة لقول غيرها ما صورته ٣ :

سألتم التمثالَ إذ لمْ أجدُ للثم نعلِ المصطفى من سبيل
لعلّني أحظى بتقبيله في جنة الفردوسِ أسنى مقيل
في ظلّ طوبى ساكناً آمناً أسقى بأكواسٍ من السلسيل
وأمسحُ القلبَ به علهُ يسكنُ ما جاش به من غليل
فظالما استشفى بأطلالِ مَنْ يهواه أهلُ الحبِّ في كلِّ جيل

وأنشدني ابن جابر الوادي آشي عن شيخه المحدث أبي محمد ابن هرون

١ في مثل ذلك : سقطت من م .

٢ ترجمة أم السعد في التكملة (رقم : ٢١٢٨) والذيل والتكملة (آخر قسم الغرباء) والسيوطي :

٢٦ ؛ وساق ابن عبد الملك نسبها وقال : توفيت بمالقة سنة أربعين وستمائة أو نحوها .

٣ يريد أن البيت الأول ليس من نظمها .

القرطبي لجدته سعدونة ، وأظنها هذه :

آخِ الرجالَ من الأبا عِدِ والأقاربَ لا تُقارب
إنَّ الأقاربَ كالعقبا ربِّ أو أشدَّ من العقارب

هكذا نقله الخطيب ابن مرزوق ، ورأيت نسبة البيت لابن العميد^١ ،
فالله أعلم .

2 - ومنهن حسانة التميمية بنت أبي المخشبي الشاعر^٢ .

تأديت وتعلمت الشعر ، فلما مات أبوها كتبت إلى الحكم ، وهي
إذ ذاك بكر لم تتزوج :

إنني إليك أبا العاصي موجعة أبا المخشبي سفته الواكفَ الديمُ
قد كنتُ أرتعُ في نعماهُ عاكفةً فاليومَ آوي إلى نعماكَ يا حكمُ
أنت الإمام الذي انقاد الأنامُ لهُ وملكتهُ مقاليدَ النهي الأممُ
لا شيءٌ أخشى إذا ما كنتَ لي كنفاً آوي إليه ولا يعرفني العدمُ
لا زلتُ بالعزةِ القعساءَ مرتدياً حتى تذللَّ إليك العُربُ والعجمُ

فلما وقفَ الحكم على شعرها استحسنته ، وأمر لها بإجراء مرتب ، وكتب

إلى عامله على البيرةَ فجهزها بجهاز حسن .

ويحكى أنها وفدت على ابنه عبد الرحمن بشكية من عامله جابر بن لبيد

١ انظر يتيمة الدهر ٣ : ١٨٣ - ١٨٤ حيث نسيهما لابن العميد .

٢ ترجمة حسانة التميمية في الذيل والتكملة (آخر قسم الغرباء) وكتاب ذكر بلاد الأندلس (١٠٩) ،
١١٧) وذكر أنها كانت بالبيرة وأورد الأبيات التي كتبتها للحكم بن هشام ثم وفادتها على عبد
الرحمن وما أنشدته من شعر ؛ وأبو المخشبي والدها هو عاصم بن زيد أحد قدامى الشعراء بالأندلس
وهو تميمي عبادي وقد قطع لسانه هشام بن عبد الرحمن الداخل (انظر المغرب ٢ : ١٢٣ والجنوة :
٣٧٧ والبنية رقم : ١٥٤٣ وقد كتب في أصول النفع خطأ - أبو الحسين) .

وآلي البيرة ، وكان الحكم قد وقّع لها بخط يده تحرير أملاكها ، وحملها في ذلك على البر والإكرام ، فتوسلت إلى جابر بخط الحكم ، فلم يفدها ، فدخلت إلى الإمام عبد الرحمن ، فأقامت بفنائها ، وتلطفت مع بعض نسائه ، حتى أوصلتها إليه ، وهو في حال طرب وسرور ، فانسبت إليه ، فعرفها وعرف أباهما ، ثم أنشدته :

إلى ذي الندى والمجد سارت ركابي
 على شحطٍ تصلّى بنار الهواجر
 ليجير صدعي إنه خيرُ جابرٍ
 ويعنني من ذي الظلامَةِ جابرٍ
 فإنتي وأيتامي بقبضةِ كفه
 كذي ريشٍ أضحى في مخالِبِ كاسرٍ
 جديرٌ لمثلي أن يقالَ مَرُوعَةٌ
 لموتِ أبي العاصي الذي كان ناصري
 سقاه الحيا لو كان حياً لما اعتدى
 عليّ زمانٌ باطشٌ بطشٍ قادرٍ
 أيمحو الذي خطّه يمانهُ جابرٌ
 لقد سامَ بالأملاكِ إحدى الكباثرِ

ولما فرغت رفعت إليه خط والده ، وحكت جميع أمرها ، فرق لها ، وأخذ خط أبيه فقبله ووضع على عينيه ، وقال : تعدّى ابنُ لبيد طوره ، حين رام نقض رأي الحكم ، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده ، انصرفي يا حسّانة فقد عزلته لك ، ووقّع لها بمثل توقيع أبيه الحكم ، فقبلت يده ، وأمر لها بجائزة ، فانصرفت وبعثت إليه بقصيدة منها :

ابن الهشامين خيرُ الناسِ مآثرةً
 وخيرُ مُنتجعٍ يوماً لروادِ
 إن هزَّ يومَ الوغى أثناءِ صعده
 روى أنابيهها من صرفِ فرِصادِ
 قلْ للإمامِ أيا خيرَ الورى نسباً
 مقابلاً بينَ آباءِ وأجدادِ
 جودتِ طبعي ولم ترضِ الظلامَةَ لي
 فهالكَ فضلَ ثناءِ رائِحِ غادِ
 فإن أقتُ ففي نِعماكَ عاطفةً
 وإن رحلتُ فقد زودتني زادي

3 - ومنهن أم العلاء بنت يوسف الحجارية^١ .

ذكرها صاحب « المغرب » وقال : إنَّها من أهل المائة الخامسة ، ومن

شعرها :

كلُّ ما يصدرُ منكم حَسَنُ وبعلياًكم تحلَّى الزمنُ
تعطفُ العينُ على منظركم وبذكراكم تَلَدُّ الأذنُ
من يعيشُ دونكمُ في عمره فهو في نيلِ الأمانِ يُغَبِّنُ

وعَشِقَها رجلٌ أشيبُ ، فكتبت إليه :

الشيبُ لا يُخدَعُ فيه الصِّبا بجماعة فاسمِعْ إلى نُصحي
فلا تكن أجهلَ من في الوري بيتُ في الجهلِ كما يُضحي

ولها أيضاً :

افهمْ مطارحَ أحوالي وما حكمتُ به الشواهدُ واعذرني ولا تَلُمِ
ولا تَكِلني إلى عذرِ أبيته شرُّ المعاذير ما يحتاجُ للكلمِ
وكلَّ ما جتته من زلَّةٍ فيما أصبحتُ في ثقةٍ من ذلك الكرمِ

والحجارية - بالراء المهملة - نسبة إلى وادي الحجارة .

4 - ومنهن أمة العزيز^٢ .

قال الخافظ أبو الخطاب ابنُ دحية في كتاب « المطرب من أشعار المغرب » :

أنشدتني أخت جدي الشريفة الفاضلة أمة العزيز الشريفة الحسينية لنفسها :

١ ترجمة أم العلاء الحجارية في المغرب ٢ : ٣٨ والسيوطي : ٢٢ وأشعارها في المصدر الثاني .
٢ انظر المطرب : ٦ ، والبيتان ينسبان لغيرها ، ولم يقل ابن دحية إن البيتين لها وإنما قال « وأنشدتني » .
وراجع السيوطي : ٢٤ .

لحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الحدود
جرحٌ بجرحٍ فاجعلوا ذا بدا فما الذي أوجب جرحَ الصدود

قلت : هذا السؤال يحتاج إلى جواب ، وقد رأيت لبلدينا القاضي الإمام
الفاضل أبي الفضل قاسم العقباني التلمساني رحمه الله تعالى جوابه ؛ والغالب أنه
من نظمه ، وهو قوله :

أوجبَه مِنِّي يا سيدي جرحٌ بخد ليس فيه الجحود
وأنتَ فيما قلتَه مُدَعٍ فأين ما قلتَ وأين الشهود
انتهى .

5 - ومنهن أم الكرام بنت المعتصم بن صُمّادح ملك المَرِيَّة ١ .

قال ابن سعيد في « المغرب » : كانت تنظم الشعر ، وعشقت الفتي المشهور
بالجمال من دانية المعروف بالسمار ، وعملت فيه الموشحات ، ومن
شعرها فيه :

يا معشرَ الناسِ ألا فاعجبوا ممّا جَنَنَتْهُ لوعَةُ الحَبِّ
لولاها لم ينزلْ ببيدرِ الدجى من أفاقه العلويِّ للترَبِّ
حسبي بمن أهواهُ ، لو أَنَّهُ فارقني تابَعَهُ قلبي

6 - ومنهن الشاعرة الغسانية البجانية ٢ - بالنون - نسبة إلى بجانة ، وهي
كورة عظيمة ، وتشتهر بإقليم المرية ، وهي من أهل المائة الرابعة ، فمن نظمها
من أبيات :

١ أم الكرام ، وتكتب أحياناً « أم الكرم » الصادحية : ترجم لها في المغرب ٢ : ٢٠٢ والسيوطي : ٢٠ .

٢ ترجمة الغسانية في الجذوة : ٣٧٩ (وبنية الملتبس رقم : ١٥٨٥) والصلة : ٦٥٧ والسيوطي : ١٠٧ وقد مدحت خيران العامري ، أي أدركت آخر الدولة الأموية وعهد الفتنة وأوائل حكم الطوائف .

عهدتْهُمْ والعيشُ في ظلِّ وِصلهم أنيق وروضُ الوِصلِ أخضِرُ فينانُ
لياليَ سعدٍ لا يخافُ على الهوى عتابٌ ولا يُخشَى على الوِصلِ هجرانُ

7 - ومنهن العروضية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب .

سكنت بلنسية ، وكانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة ،
لكنها فاقته في ذلك ، وبرعت في العروض ، وكانت تحفظ « الكامل » للمبرد
و « النوادر » للقي و تشرحهما ، قال أبو داود سليمان بن نجاح : قرأت عليها
الكتابين ، وأخذت عنها العروض ، وتوفيت بدانية بعد سيدها في حدود
الخمسين والأربعمئة ، رحمها الله تعالى .

8 - ومنهن حفصة بنت الحاج الركونية الشاعرة الأدبية المشهورة بالجمال ،
والحسب والمال . ذكرها الملاحى في تاريخه ، وأنشدها ممّا قالت في أمير المؤمنين
عبد المؤمن بن علي ارتجالاً بين يديه :

يا سيّدَ الناسِ يا مَنْ يؤمّلُ الناسُ رِفْدَه
امننْ عليّ بطرسٍ يكونُ للدهرِ عدّه
تخطّ يميناك فيه : الحمدُ لله وحده

وأشارت بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين ، فإنها كانت أن يكتب
السلطان بيده بخط غليظ في رأس المنشور « الحمد لله وحده » .

٦٦٥ - [استطراد بقصتين]

وتذكرتُ بذلك ، والشيء بالشيء يُذكر ، أنه لما قتلَ السلطانُ الناصر أمير

١ ترجمة حفصة الركونية في الإحاطة ١ : ٤٩٩ والمغرب ٢ : ١٣٨ والمغرب : ١٠ والسيوطي :
٤٠ والتحفة : ١٦٧ ومجمع الأدباء ١٠ : ٢١٩ .

المؤمنين ابن أمير المؤمنين يعقوب المنصور ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد
المؤمن بن علي سلطان المغرب والأندلس من إفريقية سنة ثلاث وستمائة بعد فتح
المهديّة هنأته الشعراء بذلك ، ثم اجتمع أبو عبد الله ابن مَرَج الكحل بالشعراء
والكتاب ، فتذكروا الفتح وعظمه ، فأنشدهم ابن مرج الكحل في الوقت لنفسه :

ولما تَوَالَى الفتحُ من كلِّ جهةٍ ولم تبلغ الأوهامُ في الوصفِ حدَّهُ
تركنا أميرَ المؤمنين لشُكره بما أودع السرُّ الإلهيُّ عندهُ
فلا نعمةٌ إلاّ تؤدي حقوقها علامتهُ بالحمدِ للهِ وحدهُ
فاستحسن الكتابُ لهُ ذلك ، ووقع أحسن موقع .

وحكى صاحب كتاب « رُوح الشعر وروح الشجر » وهو الكاتب أبو
عبد الله محمد بن الجلاب الفهري أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور لما قُتِلَ من
غزوة الأراكة المشهورة ، وكانت يوم الأربعاء تاسع شعبان سنة إحدى وتسعين
 وخمسمائة ، ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه ، فلم يمكن لكثرتهم أن
يشد كلُّ إنسان قصيدته ، بل كان يختصُّ منها بالإنشاد البيتين أو الثلاثة المختارة ،
فدخل أحد الشعراء فأنشده :

ما أنتَ في أمراءِ الناسِ كلِّهمُ إلاّ كصاحبِ هذا الدِّينِ في الرُّسلِ
أحييتَ بالسيفِ دينَ الهاشميِّ كما أحياهُ جدُّك عبدُ المؤمنِ بنُ علي

فأمر لهُ بالفتي دينار ، ولم يصل أحداً غيره لكثرة الشعراء ، وأخذ بالمثل
« منَعُ الجميع ، أرضى للجميع » ، قال : وانتهت رِقَاعُ القصائد وغيرها إلى أن
حالت بينه وبين مَنْ كان أمامه لكثرتها ، انتهى .

رجع إلى أخبار حفصة :

وأنشد لها أبو الخطاب في « المطرب » قولها :

ثنائي على تلك الثنايا لأنتي أقول على علم وأنطق عن خبير
وأنصفها لا أكذبُ الله إنتي رشتُ بها ريقاً أرقّ من الخمرِ

وتولّع بها السيدُ أبو سعيد ابن عبد المؤمن ملك غرناطة ، وتغير بسببها على
أبي جعفر ابن سعيد ، حتى أدى تغيره عليه أن قتله ، وطلب أبو جعفر منها
الاجتماع ، فمطلته قدر شهرين ، فكتب لها :

يا مَنْ أجانِبُ ذَكَرَ اسِ مَه وَحَسْبِي عَلامَهِ
ما إِنْ أرى الوعدَ يُقْضَى والعمرُ أُحْشى انْصرامَهُ
اليومَ أَرْجوكَ لا أَنْ تكونَ لي في القِيامَةِ
لو قد بَصُرْتَ بِحالي والليلُ أرْخى ظلامَهُ
أنوحُ وجداً وشوقاً إذ تَسريحُ الحَمَامَةِ
صبُّ أطالَ هِواهِ عَلى الحَبيبِ غَرامَهُ
لَمَنْ يَتِيهِ عَليهِ ولا يَردُّ سَلامَهُ
إِنْ لَمْ تُنيلِ أَرِيحِي فالِياسُ يَفي زِمامَهُ

فأجابته :

يا مُدَّعي في هَوى الحَسَنِ نِ والغَرامِ الإِمامَةِ
أنتي قَريضُكَ ، لَكنْ لِمَ أرضَ مِنْهُ نِظامَهُ
أمدَّعي الحَبِّ يَئِني يَأْسُ الحَبيبِ زِمامَهُ ؟
ضَللتَ كُلَّ ضلالٍ ولَمْ تُفدِكَ الزِعامَةَ
ما زِلتَ تَصحِبُ مذكَرَ تَ في السِّباقِ السَّلامَةَ
حَتى عَرتَ وأخجَلتَ تَ بافتِضاحِ السَّامَةِ
باللَّهِ في كُلِّ وَقْتٍ يَبْدي السَّحابُ انْسِجامَهُ
والزَهرِ في كُلِّ حينٍ يَشقُّ عَنهُ كِمامَهُ

لو كنتَ تعرفُ عذري كفتَ غَرَبَ الملامهٗ

ووجهت هذه الأبيات مع موصل أبياته ، بعدما لعنته وَسَبَّتَهُ ، وقالت له : لعن الله المرسل والمرسل ، فما في جميعكما خير ، ولا لي برؤيتكما حاجة ، وانصرف بغاية من الحزني ، ولما أطلَّ على أبي جعفر وهو في قلق لانتظاره قال له : ما وراءك يا عصام ؟ قال : ما يكون وراء مَنْ وجهه خلف إلى فاعلة تاركة ، اقرأ الأبيات تعلم ، فلما قرأ الأبيات قال للرسول : ما أسخفَ عقلك وأجهلك ! إنها وعدتني للقبَّة التي في جنَّتي المعروفة بالكمامة ، سر بنا ، فبادروا للكمامة ، فما كان إلا قليلاً ، وإذا بها قد وصلت ، وأراد عتَبها ، فأنشدت :

دعي عَدَّ الذنوبِ إذا التقينا تعالي لا نَعُدُّ ولا تَعُدِّي

وجلسا على أحسن حالة ، وإذا برقعة الكتندي الشاعر لأبي جعفر ، وفيها :

أبا جعفرٍ يا ابنَ الكرامِ الأماجدِ خَلَوْتُ بِمَنْ تَهَوَاهُ رَغْمًا لِحاسِدِ
فهل لكَ في خيلِ قَنُوعٍ مَهْدَبِ كتومٍ عليمٍ باختفاء المراصدِ
بيتٌ إذا يخلو المحبُّ بحبِّه ممتعٌ لذاتِ بخمسٍ ولائدِ

فقرأها على حفصة ، فقالت : لعنه الله ، قد سمعنا بالوارش على الطعام والواغل على الشراب ، ولم نسمع اسماً لمن يعلم باجتماع محبَّين فيروم الدخول عليهما ، فقال لها : بالله سميه لنكتب له بذلك ، فقالت : أسميه الحائل ، لأنه يحول بيني وبينك إن وقعت عيني عليه ، فكتب له في ظهر رقعته :

يا مَنْ إذا ما أتاني جَعَلْتُهُ نَصَبَ عيني
تراكَ تَرَضَى جلوساً بينَ الحبيبِ وبينِي ؟
إنْ كانَ ذاكَ فماذا تبغي سوى قُرْبِ حَيَّتِي

والآن قد حصلت لي بعد المطال بديتي
 فإن أتيت فدفعاً منها بكنتنا اليدين
 أو ليس تبغي وحاشا لك أن تُرى طيرَ بين
 وفي مبيتك بالحمس كلُّ قبحٍ وشين
 فليس حقك إلا الـ خلوا بالقمرين

وكتب له تحت ذلك ما كان منها من الكلام ، وذيل ذلك بقوله :

سَمَّاكَ من أهواه حائلٌ إن كنت بعد العتب واصلٌ
 مع أن لونسك مزعجٌ لو كنت تُحبسُ بالسلاسلُ

فلما رجع إليه الرسول وجده قد وقع بمطمورة نجاسة ، وصار هتكة ،
 فلما قرأ الأبيات قال للرسول : أعلمهما بحالي ، فرجع الرسول ، وأخبرهما
 بذلك ، فكاد أن يُغشى عليهما من الضحك ، وكتب إليه كل واحد بيتاً ،
 وابتدأ أبو جعفر فقال :

قُلْ للذي خَلَصْنَا منهُ الوقوعُ في الخرا
 ارجعُ كما شاء الخرا يا ابن الخرا إلى ورَا
 وإن تعدُّ يوماً إلى وصالنا سوف ترى
 يا أسقط الناس ويا أنظهم بلا مِرا
 هذا مدى الدهر تُلَا في لو أتيت في الكرى
 يا لحيّة تشغفُ في الـ خراء وتشنا العنبرا
 لا قربَ الله اجتما عاً بك حتى تُقبرا

ومن شعرها :

سلامٌ يفتحُ في زهره الـ كمامَ ويُنطقُ ورقَ الغصونِ

١ سقط البيت من م .

على نازح قد ثَوَى في الحشا
فلا تحسبوا البُعدَ يُنسيكم^١
وإن كان تحرم منه الجفون^٢
فذلكَ والله ما لا يكون^٣

وقولها من أبيات :

ولو لَمْ يكن نجماً لما كان ناظري
سلام^٤ على تلك المحاسن من شج^٥
وقد غبتُ عنه مُظلماً بعد نوره
تئات بنعماه وطيب سروره

وقولها :

سلوا البارق الخفاق والليل ساكن^٦
لعمري لقد أهدى لقلبي خفقة^٧
أظلُّ بأحبابي يذكّرني وهنأ^٨
وأمطرني مُنهلاً عارضه الجفنا

ونسب بعض إليها البيتين الشهيرين^٩ :

أغارُ عليك من عيّي رقيبي
ولو أنّي خبأتك في عيوني
ومنك ومن زمانك والمكان
إلى يوم القيامة ما كفاني
والله تعالى أعلم .

وكتبت إلى أبي جعفر :

رأست فما زال العُداء بظلمهم^{١٠}
وهل منكر أن ساد أهل زمانه
وعلمهم النامي يقولون ما^{١١} رأس
جموح إلى العليا حرّون عن الدنس

وقال ابن دحية : حفصة من أشرف غرناطة ، رخيمة الشعر ،
رقيقة النظم والنثر ، انتهى .

١ ق : المبد ينساكم .
٢ م : وما ينسب إليها .
٣ م : لم ؛ ق : لي .

ومن قولها في السيد أبي سعيد ملك غرناطة تهنته بيوم عيد ، وكتبت
بذلك إليه :

يا ذا العلاء وابن الخلية فمة والإمام المرتضى
يهنيك عيدٌ قد جرى فيه بما تهوى القضا
وأناك من تهواه في قيد الإنابة والرضى
ليعيد من لذاته ما قد تصرّم وانقضى

وذكر الملاحى في تاريخه أنها سألتها امرأة من أعيان أهل غرناطة أن تكتب
لها شيئاً بخطها ، فكتبت إليها :

ياربة الحسن ، بل ياربة الكرم غضي جفونك عما خطه قلبي
تصفّحيه بلحظ الودّ منعمة لا تحفلي برديء الخط والكلم

واتفق أن بات أبو جعفر ابن سعيد معها في بستان بحور مؤمل ، على ما
بييت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم ، فلما حان
الانفصال ، قال أبو جعفر وكان يهواها كما سبق :

رعى الله ليلاً لم يرح بمدمم عشية واراننا بحور مؤمل
وقد خفت من نحو نجد أريجة إذا نفحت هبت برياً القرنفل
وغرد قمري على الدوح وانثى قضيب من الريحان من فوق جدول
يرى الروض مسروراً بما قد بداله : عناق وضم وارتشاف مقبل

وكتب بها إليها بعد الافراق ، لتجيبه على عاداتها في مثل ذلك ، فكتبت
إليه بقولها :

لعمرك ما سرّ الرياض بوصلنا ولكنّه أبدى لنا الغلّ والحسد
ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا ولا غرد القمرى إلا لما وجد

فلا تحسن الظن الذي أنت أهله فما هو في كل المواطن بالرشد
فما خلقت هذا الأفق أبدى نجومه لأمر سوى كيما تكون لنا رصد

وقال ابن سعيد في « الطالع السعيد » : كتبت حفصة الركونية إلى بعض أصحابها :

أزورك أم تزورُ فإن قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميلُ
فغفري موردٌ عذبٌ زلالٌ وفرعُ ذؤابتِي ظلٌ ظليلٌ
وقد أمّلتُ أن نظما وتضحى إذا وافى إليك بيّ المقيّلُ
فجعلُ بالجوابِ فما جميلٌ إباؤك عن بُثينةَ يا جميلُ

٦٦٦ - [سلمى بنت القراطيسي]

قال التجاني : تشبه أبيات حفصة هذه أبيات أنشدتها ابن أبي الحصين في تاريخه لسلمى بنت القراطيسي من أهل بغداد ، وكانت مشهورة بالجمال ، وهي :

عيونُ مَها الصريم فداء عيني وأجبادُ الظباء فداء جيدي
أزِينُ بالعقودِ وإن نحري لأزِينُ للعقودِ من العقودِ
ولا أشكو من الأوصاب ثقلاً وتشكو قامتي ثقلَ النهودِ

وبلغت هذه الأبيات المقتضي أمير المؤمنين فقال : أسألوا هل تصدق صفتها قولها ؟ فقالوا : ما يكون أجمل منها ، فقال : أسألوا عن عفافها ، فقالوا له : هي أعفُ الناس ، فأرسل إليها مالاً جزيلاً ، وقال : تستعين به على صيانة جمالها ، وروثق بهجتها ، انتهى .

رجع إلى حفصة :

وقال أبو جعفر ابن سعيد : أقسم ما رأيت ولا سمعت بمثل حفصة ، ومن

بعض ما أجعله دليلاً على تصديق عزمي ، وبر قسمي ، أني كنت يوماً في منزلي مع من يحب أن يخلي معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الأيام ، فلم نشعر إلا بالباب يُضرب ، فخرجت جارية تنظر من الضارب ، فوجدت امرأة ، فقالت لها : ما تريدن ؟ فقالت : ادفعي لسيدك هذه الرقعة ، فجاءت برقعة فيها :

زائرٌ قد أتى بجيدِ الغزالِ مُطَّلِعٌ تحتَ جناحهِ للهِلالِ
بلحاظٍ من سحرِ بابلٍ صيغَتْ ورُضابٍ يفوقُ بنتَ الدَّواليِ
يفضحُ الوردَ ما حوى منه خدٌ وكذا الثغرُ فاضحٌ للآليِ
ما تَرى في دخولهِ بعدَ إذنٍ أو تراه لعارضٍ في انفصالِ

قال : فعلمتُ أنها حفصة ، وقمت مبادراً للباب ، وقابلتها بما يقابل به من يشفع له حُسْنُهُ وآدابه والغرام به ، وتفضُّله بالزيارة دون طلب في وقت الرغبة في الأنس به ، انتهى .

٦٦٧ - [أبو جعفر ابن سعيد]

قلت : وإذ قد جرى ذكر أبي جعفر ابن سعيد سابق الحلبية فلنلم ببعض أحواله فنقول^١ : هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي ، قال قريبه أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد في « المغرب » : سمعت أبي يقول : لا أعلم في بني سعيد أشعر منه ، بل لا أعلم في بلده ، وعشق حفصة شاعرة الأندلس ، وكانا يتجاوبان تجاوب الحمام ، ولما استبد والده بأمر القلعة حين ثار أهل الأندلس بسبب صولة بني عبد المؤمن على المثلثين اتخذه وزيراً ، واستنابه في

١ ترجمة أبي جعفر ابن سعيد في الإحاطة ١ : ٩٤ والمغرب ٢ : ١٦٤ والمسالك ١١ : ٢٧٩ وما أورده المقرئ بعد أكثر شيء إسهاباً في أخباره .

أموره ، فلم يصبر على ذلك ، واستعفى فلم يُعْفِه ، وقال : أفي مثل هذا الوقت الشديد تركن إلى الراحة ؟ فكتب إليه :

مولايَ في أيِّ وقتٍ	أنالُ في العيشِ راحه°
إن لم أنلها وعمري	ما إن أنارَ صباحه°
وللملاح عيون°	تميلُ نحوَ الملاحه°
وكأسُ راحيَ ما إن	تملُّ منيَ راحه°
والخطبُ عنِّي أعمى	لم يقتربَ ليَ ساحه°
وأنتَ دونيَ سور°	من العُلا والرِجاحه°
فأعفني وأقلني	مما رأيتَ صلاحه°
ما في الوزارة حظ°	لمن يريدُ ارتياحه°
كلُّ وقالُ وقيلُ	ممن يطيلُ نباحه°
أنسي أتى مستغيثاً	فاتركَ فُديتَ سراحه°

فلما قرأ الأبيات قال : لا ينفع الله بما لا يكون مركباً في الطبع ماثلة له النفس ، ثم وقّع على ظهر ورقته : قد تركنا سراح أنسك ، وألحقنا يومك بأمسك . ولما رجع ثوار الأندلس إلى عبد المؤمن وبايعه عبدُ الملك بن سعيد فغمره إحساناً وبراً ، وولي السيد أبو سعيد ابن عبد المؤمن غرناطة طلب كاتباً من أهلها ، فوصف له فضل أبي جعفر وحسبه وأدبه ، فاستكتبه ، فطلب أن يعفيه ، فأبى إلى أن شرب أبو جعفر يوماً مع خواصه ، وخرج ثاني يوم إلى الصيد وكان اليوم ذا غيم وبرد ، ولما اشتد البرد مالوا إلى خيمة ناطور ، وجعلوا يصطلون ويشربون على ما اصطادوا ، فحمل أبا جعفر بقيّة السكر على أن قال يصف يومه ، ويستطرد بما في نفسه :

ويومٍ تجلّى الأفقُ فيه بعنبرٍ	من الغيم لُدنا فيه باللهو والقنص°
وقد بقيتُ فينا من الأمسِ فضلة°	من السكر تُغرنا بمنتهب الفُرص°

ركبنا له صباحاً وليلاً وبعضنا
 وشهب بزاةٍ قد رجمنا بشهبها
 وعن شفقٍ تغري الصباح أو الدجى
 وملنا وقد نلنا من الصيدِ سؤلنا
 بخيمةٍ ناطورٍ توسطَ عذبها
 أدرنا علىهٍ مثلهُ ذهبيّةٌ
 فقل لحريصٍ أن يراني مقيسداً
 وما كنتُ إلا طوعَ نفسي فهل أرى
 أصيلاً وكلُّ إن شدا جلجلُ رقصُ
 طيوراً يساغُ اللهُ إن شكتِ الغصصُ
 إذا أوثقت ما قد تحرك أو قمصُ
 على قنصِ اللذاتِ والبردُ قد قرصُ
 جحيمٌ به من كان عذبَ قد خلصُ
 دعتُهُ إلى الكبرى فلم يجب الرخصُ
 بخدمته لا يُجعل البازُ في القفصُ
 مطيعاً لمن عن شأوٍ فخريٍ قد نقصُ

فكان في أصحابه من حفظ هذين البيتين ، ووشى بهما للسيد ، فعزله أسوأ
 عزل ، ثم بلغه بعد ذلك أنه قال لحفصة الشاعرة : ما تحيين في ذلك الأسود وأنا
 أقدر أن أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه^١ ؟ وكان لونه مائلاً إلى
 السواد ، فأسرّها في نفسه إلى أن فرَّ عبدُ الرحمن بن عبد الملك بن سعيد إلى ملك
 شرق الأندلس محمد بن مردنيش ، فوجد له بذلك سبباً ، فقتله صبراً بمالقّة .
 وكان عبد الملك بن سعيد يذكر ابنه أبا جعفر لعبد المؤمن ، وينشده من
 شعره رغبة في تشريفه بالحضور بين يديه وإنشاده في مجلسه ، فأمره بحضوره ،
 فعندما دخل عليه قبلَ يده وأنشد قصيدة منها قوله :

عليك أحالتي داعي النجاحِ ونحوكَ حثّي حادي الفلاحِ
 وكنتُ كساهيرِ ليلاً طويلاً ترنحَ حينَ بُشّرَ بالصباحِ
 وذو جهلٍ تغلغلَ في قفاري شكاً ظمأً فدلّ على القراحِ
 دعانا نحو وجهكَ طيبُ ذكرٍ ويذكرُ للرياضِ شدا الرياحِ

١ دوزي : أحسن منه .

٢ ق م والمغرب : هادي .

وله في غلام أسود ساق ، ارتجالاً :

أدارَ علينا الكأسَ ظبيٌ مهفهفٌ غدا نَشْرهُ واللونُ للعنبرِ الشحري
وزادَ لنا حُسناً بزهرِ كؤوسهِ وحسنُ ظلامِ الليلِ بالأنجمِ الزهري

وقوله فيه وقد لبس أبيض :

وغصنٍ من الآبنوس ارتدى بعاجٍ كليلٍ علاه فلقٌ
يُحاكي لنا الكأسَ في كفه صباحٌ يجنحُ علاه شفقٌ

وقوله ممّا كتب به إلى أخيه محمد وقد ورد منه كتاب بإنعام :

وافى كتابك يُنبئني عن سابغِ الإنعامِ
فقلتُ دُرٌّ ودُرٌّ من زاخِرِ وغمامِ

وقوله يذم حماماً :

يا رَبَّ حمامٍ لعنّا بما أبدى إلينا كلَّ حمامِ
أفئقٌ له قطرٌ حميمٌ كما أصمتُ سهامٌ من يدي رامي
يخرقُ سحباً للدخانِ الذي لاحَ لغيمةِ العارضِ الهامي
وقيّمٌ يجذبُني جَذبةً وتسارةً يكسرُ لبهامي
ويجمعُ الأوساخَ من لؤمه في عضدي قصداً لإعلامي
وازدحمَ الأندالُ فيه وقد ضجّوا ضجيجاً دون إفهامِ
وجملةُ الأمرِ دخلنا بني سامٍ وعُدنا كبنِي حامِ

وله في ضد ذلك ، والنصف الأخير لابن بقي :

لا أنسَ ما عشتُ حماماً ظفرتُ به وكان عندي أحلى من جتي الظفّرِ
نعمتُ جسمي في ضدين مغتتماً «تَنعَمُ الغُصنُ بينَ الشمسِ والمطرِ»

وقال له السيد أبو سعيد ابن عبد المؤمن صاحب غرناطة : ما أنت إلا حسنُ
الفراسة وافر العقل ، فقال :

نسبتم لمن هذبتموه فراسةً وعقلاً ولولاكم للازمه الجهلُ
وما هو أهلٌ للثناء وإنما علاكم لتقليد الأيادي له أهلُ
وما أنا إلا منكمُ وإليكمُ وما في من خيرٍ فأنتم له أصلُ

وقال :

ولما رأيتُ السعدَ في صفحِ وجهه منيراً دعاني ما رأيتُ إلى الشكرِ
وأقبلَ يبسدي لي غرائبَ نطقه وما كنتُ أدري قبله مترعَ السحرِ
فأصغيتُ لإصغاء الحديدِ إلى الحيا وكان ثنائي كالرياضِ على القطرِ

وله :

لا تُكثرنَّ عتايي إن طالَ عنكَ فراقِي
فما يضرُّ بعادي يطولُ والودُّ باقي

وله :

ما خدمناكمُ لأن تشفعوا في لنا بدارِ الجزاء يومَ الحسابِ
ذاكَ يومٌ أنا وأنتَ سواء فيه ، كلُّ يخافُ سوءَ العقابِ
إنما الشأنُ الذبُّ في هذه الذر يا بسلطانكم عن الأصحابِ
وإذا ما خذلتهموهمُ بشكوى وبخلمٍ عنهمُ ببردِ الجوابِ
فاعذروهم أن يطلبوا من سواكم نصرةً وارفعوا حجالَ العتابِ
وإذا أرضُ مجدبٍ لفظته فلهُ العذرُ في أتباعِ السحابِ

وله وقد تقدم أمامه في ليلة مظلمة أحدُ أصحابه ، فظفء السراج في يده ،
فقال لوقته :

لي من جيبك هادي
 فما أريدُ سراجاً
 أنى وكفكُ سحْبُ
 في الليلِ نحو مُرادِي
 يدلّني لرشادِ
 يبئدو بها ذا اتقادِ

ولهُ في قوادة :

قوادةٌ تَفَخَّرُ بالعارِ
 ولا جةٌ في كلِّ دارٍ وما
 ظريفةٌ مقبولةٌ الملتقى
 لحافها لا ينطوي دائماً
 قدر بيتٍ مذ عرفتُ نفعها
 جاهلةٌ حيثُ ثوى مسجدُ
 بسامةٌ مكثرةٌ بـيرها
 علمُ الرياضاتِ حوتهُ وسا
 متاعةٌ للنعلِ من كيسها
 تكادُ من لطفِ أحاديثها
 أقوودُ من ليلٍ على سارِ
 يدري بها من حدقها داري
 خفيفةُ الوطاء على الجارِ
 أفلتُ من رايةِ بيطارِ
 ما بينَ فتاكِ وشطّارِ
 عارفةٌ حانةَ خمّارِ
 ذاتُ فكاهاتٍ وأخبارِ
 ستهُ بتقومِ وأسحارِ
 موسرةٌ في حالِ إعسارِ
 تجمعُ بينَ الماءِ والنّارِ

وما سمعنا في هذا الباب أحسن من هذا ، والبيت السائر :

تقودُ ، من السياسةِ ، ألف بغلٍ إذا حرنت ، بخيطِ العنكبوتِ
 وشربَ ليلةً مع أصحابِ له وفيهم وسيم ، فأعرض بجانبه وقطب ،
 فتكدر المجلس ، فقال أبو جعفر :

يا من نأى عنّا إلى جانبِ
 لا تزوِ عنّا وجهكَ المجتلى
 إن دام هذا الحالُ ما بيننا
 صدأٌ كميلِ الشمسِ عند الغروبِ
 فالشمسُ لا يُعهدُ منها قطوبُ
 فإننا عمّا قريبٍ نتوبُ

ما نشتكى الدهرَ ولا خطبتهُ
لولاك ما دارت علينا خطوبُ
وله أيضاً :

أيا لائمي في حملِ صحبةِ جاهلٍ
لمنفعةٍ تُرجى لديهِ صحبتهُ
كما احتمل الإنسانُ شربَ مرارةِ الـ
وله ، وقد أحسن ما شاء :

تركتكمُ لا كارهاً في جنابكمُ
وطاحتُ بي الأطماعُ في كلِّ وجهةٍ
وما باختيارٍ فارقَ الخلدَ آدمُ
ولكنها الأيامُ ليستُ مقيمةً
وإنك إن فكّرتَ فيما أتيتهُ
ولكن لجاجُ في النفوس إذا انقضى
وإنني لمنسوبٌ إليكم وإن نأتُ
وإنني لمُثنٍ بالذي نلتُ منكمُ
وإن خنُتكم يوماً فخانني المني
على أنتي أقررتُ أني مذنبُ
وله يصف ناراً :

نظرتُ إلى نارٍ تصولُ على الدجى
تُرفَعها أيدي الرياحِ ، وتارةٌ
وإلا فمَن لا يملكُ الصبرَ قلبهُ
لها ألسنٌ تشكو بها ما أصابها
إذا ما حسبناها تدانتُ تبعدُ
تخفَضُها مثلَ المكبرِ يسجدُ
يقومُ به غيظٌ هناكُ ويقعدُ
وقد جعلتُ من شدةِ القرّ ترعدُ

وله على لسان إنسان أخلقت بُردتَه :

مولاي هذي بُردتي أخلقتُ وليسَ شيءٌ دونها أملكُ
وصرتُ من بأسٍ ومن فاقةٍ أبكي إذا أبصرتها تضحكُ

وله يستدعي أحد أبناء الرؤساء إلى يوم اجتماع :

تداركنا فإننا في سرورٍ وما بسواك يكتملُ السرورُ
أهيلةٌ أنسينا بك في تمامٍ أليس تمُّ بالشمسِ البدورُ

وله ، وقد خطر على منزله من إليه له ميل ، وقال : لولا أخاف الثقليل
لدخلت ، وانصرف ، فلما أعلم أبو جعفر كتب إليه :

مولاي لِمَ تقصدُ تعذيبَ مَنْ : يهوى وما قصدك مجهولُ
طلبتَ تخفيفاً ببعدي وفي تخفيفٍ مَنْ تهوَاهُ تثقيلُ
غيرك إن زارَ جنى ضجرةً ولجَّ منه القالُ والقييلُ
وأنت إن زرتَ حياةً وما الـ هيشُ إذا ما طالَ مملولُ^١

وله ، وقد جلس إلى جانبه رجل تكلم فأنبأ عن علو قدر ، فسأله عن بلده ،
فقال : إشبيلية ، ففكر ثم قال :

يا سيداً لم أكن من قبلُ أعرفهُ حتى تكلمَ مثلَ الروضِ بالعَبقِ
وزادني أن غدا في حمصَ منشؤه لقد تشاكلَ بينَ البدرِ والأفقِ

وله وقد حضر مجلساً مع إخوان له في انبساط ومزاح ، فدخل عليهم أحدُ
ظرفاء الغرباء^٢ بوجه طلق وبشاشة ، فاهتر لما سمع بينهم ، وجعل يصل ما

١ دوزي : مطول .

٢ م : أحد الغرباء .

يحتاج من مزاحهم إلى صلة بأحسن متزح وأنبيل مقصد ، فأنشده أبو جعفر ارتجالاً :

يا سيِّداً قد ضمته مجلسٌ حلَّ به للمزح إخوانُ
لم نلقَ من فجأته خجلةٌ ولا ثناناً عنه كتمانُ
كأنه من جمعنا واحدٌ لم ينبُ منّا عنه إنسانُ
ولم نكنْ ندرية لكنْ بدأ في وجهه للظرف عنوانُ

وله وقد لقي أحد إخوانه وكان قد أطل الغيبة عنه ، فدار بينهما ما أوجب

أن قال :

إن لُحِتَ لم تلمح سواك الأعينُ أو غبتَ لم تذكر سواك الألسنُ
أنتَ الذي ما إن يملَّ حضوره ومغيبه السلوانُ عنه يؤمنُ
وله وهو من آياته :

إنِّي لأحمدُ طيفها وألومها والفرقُ بينهما لديَّ كبيرُ
هي إن بدت لي شيبةٌ في جفوةٍ والطفُ في حين المشيب يزورُ
وإذا توالى صدُّها أو بينها وافى على أن المزارَ عسيرُ

وله وقد سافر بعض الأراذل بماله ، فنكب في سفره ، وعاد فقيراً بأسولاً

أحواله :

اغدُ ولا يُغنِ عنك القيلُ والقالُ فالجودُ مبتسمٌ والفضلُ يختالُ
قالوا فلانُ رماه اللهُ في سفرٍ رآه رأياً بما حالت به الحالُ
فأب منه سلباً مثل مولده عليه ذلٌّ وتفجيعٌ وإقلالُ
فقلت لا خففَ الرحمنُ عنه ، فلم يكنْ لديه على القُصَادِ إقبالُ
فقل له : دام في ذلٍّ ومسغبةٍ ولا أعيدتْ له في المالِ آمالُ

١ ق م : أعد .

قد كان حُمَّقْكَ حَسَنُ الْمَالِ يَسْتَرُهُ ۱ فاليومَ أَصْبَحْتَ لَا عَقْلُ وَلَا مَالُ

وله وقد سافر أحد الرؤساء من أصحابه :

أيا غائباً لم يَغِيبْ ذِكْرُهُ ۱ ولا حالَ عن ودّه حائلُ
لئن مال دهرِي بي عنكم ۱ فقلبيَ نحوكم مائلُ
فإنّي شاهدتُ منكم عللاً ۱ من العجز قسُ بها باقلُ
لئن طال بي البعدُ عن لحظكم ۱ فَمَا في حَيَاتِي إِذْ نَ طائلُ

وله وهو من حسناته :

شُقَّتْ جُيُوبٌ فرحاً عندما ۱ آبَتْ ، وفي البعد تُشَقُّ القُلُوبُ
فَقُلْتُ هذا موقفٌ ما يَشَقُّ الـ ۱ جيبَ فيه غيرُ صبّ طروبُ
فابتسمتُ زهواً وَقَالَتْ كَذَا الـ ۱ أَفْقُ لِعِوْدِ الشَّمْسِ شَقَّ الجيوبُ

وله وقد أجمع^١ رأيه على أن يَفِدَ على أمير المؤمنين عبد المؤمن ، فأخذ في ذلك مع أصحاب له ، فجعلوا يَشْتُونُه عن ذلك ، وظهر عليهم الحسد له ، فقال :

سرنحو ما تختارُ لا تَسْمَعَنَّ ۱ ما قاله زيدٌ ولا عمرو
كلُّهم يُحمدُ ما رُمتهُ ۱ مهما يساعدُ رأيتك الدهرُ
عجبتُ ممّن رام صدرَ العُلا ۱ يرومُ أن يصفو له دهرُ

فقالوا له : أهتمنا في الود ، فقال : لو لم أهتمكم كنت أتهم عقلي ، والعياذ بالله تعالى من ذلك ، وكيف لا أهتمكم وقد غدوتم تشنوني عن زيارة خليفة لوالدي عنده مكان^٢ ، وله علينا إحسان ، ولي شافعٌ عنده مقرب لمجلسه عقلي ولساني ، ولكنني أنا المخطيء الذي عدلت عن العمل بقول القائل^٢ :

١ دوزي : اجتمع .

٢ هو سعد بن ناشب (الحماسية : ١٠ من المرزوقي) .

ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً
وله في شعاع القبر والشمس على النهر :

ألا حينذا نهر إذا ما لحظته
ترى القمرين الدهر قد عُنيا به
أبى أن يردَّ اللحظَ عن حُسْنه الأَنسُ
يفضضه بدرٌ وتُذهبهُ شمسُ
وله في والده وقد سنَّ عليه درعاً :

أيا قائدَ الأبطالِ في كلِّ وجهةٍ
لقد قلتُ لِمَا أن رأيتك دارعاً
تطيرُ قلوبُ الأسدِ فيها من الذعرِ
وأُنشدتُ والأبطالُ حولك هالةٌ
أيا حُسْنِ مَا لاحَ الحجابُ على البحرِ
وقوله وقد بلغه أن حاسداً شكره :

متى سمعتَ ثناءً
فكان منك الخداعُ
بصدره منك نارُ
وعلهُ لك ما زدُ
وإنما ذاكَ منهُ
عمنَ غدا لك حاسدُ
به فرأيتك فاسدُ
لهيها غيرُ خامدُ
تَ في السعادةِ زائدُ
كالحبِّ في فنج صائدُ

وله :

أبصره من يلومُ فيه
أما ترى ما دُهِيتُ منه
فقال ذا في الجمال فائقُ
كان عدولاً فصارعاشقُ

وله في أبيه وقد سجنه عبد المؤمن :

مولاي إن يحبسك خيرُ خليفةٍ
فالجنُ يحبسُ نورَهُ من غبطةٍ
فبذاك فخرُك واعتلاءُ الشانِ
والمرهقاتُ تصانُ في الأجنانِ

فابشرُ فترعُ الدرَّ من أصدافه يُعليه للأسلاكِ والتيجانِ
ولئن غدا منَ ظلِّ دونك مطلقاً إنَّ القذى مُلقى عن الأجنانِ
والعينَ تحبسُ دائماً أجنانها وهدايةَ الإنسانِ بالإنسانِ
والطرسُ يحتمُّ ما حواه نفاسةً ويهانُ ما يبلو من العنوانِ
فاهناً به لكنْ ملياً مكثهُ سجناً لغيرِ مذلةٍ وهوانِ
فلتلوونَ رغمَ الأعادي بعده بذكرى الخليفةِ في ذرى كيوانِ

مولاي غيرك يُعزّي بما لم يزل يجري على الكرام ، ويُذكر تأنيساً له في
الوحشة بما يطراً من الكسوف والخسوف على الشمس المنيرة والبلر التمام :

وأنتَ تُعلِّمُ الناسَ التعزّي وخوضَ الموتِ في الحربِ السجالِ

وقد كان مولاي أنشدني لعلي بن الجهم قائلاً : إن أحداً لم يُسلِّ نفسه
عمّاً ناله من السجن بمثله ٢ :

قالوا سُجنتَ فقلتُ ليس بضائرٍ سجنِي وأيُّ مهنّدٍ لا يُغمدُ ؟

الآبيات ، ماذا تفيدك من العلم وصدركُ ينبوعه ، وبخاطرك لا يزال غروبه
وظلوعه ، وإنّما هي عادة تبناها أديباً ، وقضينا بها ما في النفس من الإعلام
بالتوجع والتضجع أرباباً ، ولعل الله تعالى يتبع هذه التسلية بتهنئة ، ويعقب بالنعمة
هذه المرزئة . قال : فأمر الملك بتسريحه إثر ذلك ، فلما اجتمع وجهه بوجهه
جعل يحمد الله تعالى جهراً ويفرد بهذه الآبيات ، وكان سراحه بكرة :

طلّعتَ علينا كالغزاةِ بالضحي وعزكَ طمّاحٌ ووجهك مُشرقُ

١ البيت للمتنبّي من قصيدته في رثاء أم سيف الدولة .

٢ انظر ديوان ابن الجهم : ٤١ .

فَغَفَّرَ لِذَنْبِ الدَّهْرِ أَجْمَعِ إِنَّهُ أَتَى اليَوْمَ مِنْ حَسَنَاهُ مَا هُوَ أَلْيَقُ
فَلَحُحٌ فِي سَمَاءِ العَزِّ بِالسَّعْدِ طَالِعاً وَقَدْرَكَ سَامٌ أَفْقُهُ لَيْسَ يُلْحَقُ
فَقَدْ سَرَحَتْ لَمَّا غَلَوْتَ مُسْرَحاً قُلُوبٌ وَأَفْكَارٌ وَسَمْعٌ وَمَنْطِقُ

فاهتز أبوه من شدة الطرب ، وقال له : والله إنك لتملأ الدلو إلى عَقْدِ
الكَرْبِ .

وله يعتذر ، وقد دعي إلى مجلس أنس : سيدي ساعدك سولك ، لَمَّا وصل
إلى أخيك المعتد بك رسولك ، قابله بما يجب من القبول ، وأبدى له من الشغل
ما منع من الوصول :

ومن ذا الذي يُدْعَى لِعَدْنٍ فَلَإِيْرَى على الرأس إجلالاً لِيَهْأُ يَبَادِرُ

ولكن الاضطرار ، لا يكون معه اختيار ، وإتني لأشوق الناس إلى مشاهدة
تلك المكارم ، وأحبُّهم في محاضرة تلك الآداب المترادفة ترادف الغنائم ، ولكن
شغلي عارض قاطع ، وبرغمي أتني لدعوتك عاصٍ وله طائع ، وإتني بعد ذلك
لحامل على تلك السجية الكريمة في الغفران ، مستجير بالخلاص الذي أعهد من
خُرْقِ فلان ومكر فلان ، فإنني متى غبت لا أعدم مترصداً قرحة يقع عليها
ذُبابُهُ ، ومستجعماً إذا أبصر فرصة سلَّ عليها ذُبابُهُ :

ولكنني أدري بأني فَنَازِحٌ ودانٍ سواء عند مَنْ يُحْفَظُ العَهْدَا

وإتني لأقول وقد غبت عن تلك الحضرة العلية ، وجانبت ذلك الجناب السامي
والمثابة السنية :

لئن غبتُ عمن نورهُ نُورُ ناظري فحسبي لديه أن أغيبَ عِقَابَا
وسوف أوافيه مُقِرّاً بزلتي وفي حلمه أن لا يُطِيلَ حسابَا

وله في قصر النهار ، ولو لم يكن له غيره لكفاه :

للهِ يَوْمُ مَسْرَةٍ أَضْمُوا وَأَقْصِرُوا مِنْ ذُبَالِهِ
لَمَّا نَصَبْنَا لِلْمَنَى فِيهِ بِأَوْتَارِ حِبَالِهِ
طَارَ النَّهَارُ بِهِ كَمَرٍ تَاعٍ وَأَجْفَلَتِ الْغُرَالُ

وهذا المعنى لم يُسَبِّقْ إليه ، ولم يقدر أحد أن ينزعه من يديه .

ولمَّا وصل صحبة والده إلى إشبيلية افتتن بواديها ، واعتكف على الخلاعة فيها ، مُصْعِداً ومنحدرًا بين بساتينه ومنازحه ، فمر ليلة بطريانة فمال نحو منزله فيه طربٌ سَمِعَهُ ، فاستوقفه هنالك ، وهو في الزورق متكئٌ ، وأصحابه وأصحاب أبيه مظهرون انحطاطهم عنه في المرتبة ، فأخرج رأسه أحدُ الأندال المعتادين بالنادر من شرجب ، - والشرجب : هو الدرايزين من خشب فيه طاقات ، وطريانة مقابلة إشبيلية ، وبها المنازه والأبنية الحسنة - فصرط له ذلك النذل بغاية ما قدر ، فرفع رأسه وقد أخذ منه السكر ، ولم يعتد مثل ذلك في بلده ، وقال : يا سفلة ! أتقدم علي بهذا قبل معرفتي ! فثنى عليه واحدة أخرى ، ثم رفع ثوبه عن ذكره وهو منعظ ، وقال : يا وزير اجعل هذا عندك ودیعة حتى أعرف من تكون ، ثم رفع ما على استه من ثيابه وقال : واعمل من هذا غلافًا للحيتك فإذا عرفناك ذهبناه لك ؛ فغلبه الضحك على الحرج ، وجعل أصحابه يقولون له : ما سمعت أن من دخل هذا الوادي يعول على هذا وأمثاله ؟ فمال عن ذلك المنزه قليلاً ، وأطرق ساعة وقال :

نهرَ حمصٍ لا عدمنًا كَ فَمَا مِثْلَكَ نَهْرُ
فِيكَ يُلْتَدُّ ارْتِيَاخٌ أَبَدَ الدَّهْرِ وَسُكْرُ
كُلُّ عَمْرٍ قَدْ خَلَامَهُ لِكَ فَمَا ذَلِكَ عَمْرُ
خَصَّهُ اللهُ بِمَعْنَى فِيهِ لِلْأَلْبَابِ سُرُّ

١ م : يا سفیه .

يُلْعَنُ الْإِنْسَانُ فِيهِ وَهُوَ يَصْغِي وَيُسْرُ

ثمَّ سأل بعد ذلك عن ربِّ المتزه ، فسُمِّي له ؛ وأعلم أن ابن سيد الشاعر المشهور باللص كان حاضراً وأنه أُملي على السفلة^١ ما قال وصنع ، فكتب له أبو جعفر :

يا سميِّ وإن أفادَ اشتراكٌ غيرَ ما يرتضيه فضلٌ وودٌ
أكذا يُزدرى الخليلُ بأفقى أنت فيه ولم يكن منك ردٌ
لا أرى من سلَّطت وغداً ولكن ليس يخفي عليك من هو وغدٌ

فلما وقف على هذه الأبيات كتب له : يا مولاي وسيدي ، وأجلّ ذخري للزمان وعصدي ، الذي أفخر بمشاركة اسمه ، وتته هذه الصناعة بذكره ورسمه^٢ :

وخيرُ الشعرِ أشرفه رجالاً وشرُّ الشعرِ ما قال العبيدُ

سلام كتستيم ، على ذلك المقام الكريم ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، وإن كان مولاي لم يفانخي بالسلام ، ولا رأني أهلاً لمقاومة الكرام ، لكن حطّ قدري عنده ما نُسب لي من الذنب المختلق ، ولا والله ما نطقت بلسان ولا كنت ممن رمق ، بل الذي زور لسيدي في هذه الوشاية كان المعين^٣ عليها ، والملم إليها ، فبادر إليكم قبل أن أسبقه فاتسم بأسقط خطتين : الندالة الأولى والوشاية الأخرى ، ولولا أن المجالس بالأمانات ، وأن الخلاعة بساط يطوى على ما كان فيه ، لكنت أسبق منه ، لكنني بأبي ذلك خلقي ، وما تأدبت به ، ومع ذلك فإنني أقول :

١ م : السفية .

٢ م : ووسمه .

٣ ق : العين .

فإن كنتُ ذا ذنبٍ فقد جئتُ تائباً ومثلُكَ غفَّارٌ ومثلُكَ قابلٌ

ولولا ما أخشى من التثقيب ، وما أتوقع من الحجل إذا التقى الوجهان ،
لأتيت حتى أبلغت في الاعتذار بالمشافهة ما لا يسع القرطاس ، لكنني متكل على
حلم سيدي وإغضائه ، متوسل إليه في الغفران بعلائقه ، وكتب تحت ذلك شعراً
طويلاً منه :

ولا غرو أن تعفو وأنت ابن من غدا تَعَوَّدَ عفواً عن كبارِ الجرائمِ
لكم آلَ عَمَارٍ بيوتٌ رفيعةٌ تُشِيدُ من كسبِ الثنا بدعائمِ
إذا نحنُ أذنبنا رجونا ثوابكم ولم نقتنعُ بالعفوِ دونَ المكارمِ
وإنتكَ فرعٌ من أصولِ كريمةٍ ولا تلدُ الأزهارَ غيرُ الكمامِ
وإني مظلومٌ لزورٍ سمعتهُ وقد جئتُ أرجو العفو في زي ظالمِ

فأجابه أبو جعفر بما نصه : سيدي الذي أكبر قدره ، وأجل ذكره ،
وأجزل شكره ، وصَلَّ جوابك الذي لو كان لك من الذنب ما تحمَّله ابن ملجم ،
لأضربت لك عنه صفحاً ونسيت بما تأخر ما تقدم ، ومعاذ الله أن أنسب
لفضلك عيباً ، فأذم لك حضوراً أو غيباً ، وإنما قصدت بالمعاتبه ، ما تحتها
من المطارحة والمداعبة ، على أن سيدي لو تيقنت أنه ظالم لأنشدت :

منذُ غدا طرفُكَ لي ظالماً آليتُ لا أدعو على ظالمِ

لكنني أتيقنُ خلافَ ذلك ، وأعلم حتى كأنني حاضر ما كان هنالك ،
وقد أطلت عليك ، وبعد هذا فلتعتمد على أن تصل إلي أو أصل إليك ، فهذا
يوم كما قال البُستي ٢ :

يومٌ له فضلٌ على الأيامِ مزجَ السحابُ ضيائهُ بظلامِ

١ م : وأجل . ٢ البيهقي ٤ : ٣٠٤ .

فالبرقُ يُخفقُ مثلَ قلبِ هائمٍ والغيمُ يبكي مثلَ جفنِ هامٍ
فاختر لنفسك أربعاً من المنى وبهن تصفو لذّة الأيتامِ
وجه الحبيب ومنظراً مستشرفاً ومغنياً غرداً وكأسَ مُدامِ

وقد حضرت عند محبك الثلاثة فكن رابعها ، ونادت بك همم الأماي فكن بفضلك سامعها ، ومركز أفلاك هذه المسرة حين كتّبت هذه الرقعة إلى مجدك منزله مطلاً على جزيرة شنتبوس لا أزال أترنم فيه بقول ابن وكيع :

قم فاسقني والخليجُ مضطربٌ والريحُ تثني ذوائبَ القُضْبِ
كأنها والرياحُ تعطفها صفٌ قنأً سندسيةُ العذبِ
والجوُّ في حلّةٍ ممسّكةٍ قد طرزتها البروقُ بالذهبِ

فإن كان سيدي في مثل هذا المكان ، جرينا إليه جري الحلبنة لحصل الرهان ، وإن كان في كِسْرِ بيته فليبادر إلى محل تقصير عنه همّة قيصر وكسرى ، وإن أبطأ فإن الرقاع بالاستدعاء لا تزال عليه تنرى ، وإن كان لا يجدي هذا الكلام ، فما نفع من العقوبة المؤلمة باللام ، وعلى المودة المرعية الداعية أكمل ما يكون من السلام .

فعندما قرأ الرقعة ركب إليه زورقاً وصنع هذه الأبيات في طريقه ، فعند وصوله أنشده إياها :

ركبتُ إليكَ النهَرَ يا بحرُ فالقنا بما يتلقَى جودُهُ كلَّ قادمٍ
بفيضٍ ولكن من مُدامٍ وهزّةٍ ولكن إلى بذل الندى والمكارمِ
وكنّا نسمة قبلَ كونك حاتماً ومذُ لُحْتِنا فيما لم نُعيدْ ذكراً حاتمِ
بأل سعيدٍ يفخرُ السعدُ والعلا فأيديهمُ تلغي أيادي الغمامِ

فامتلاً أبو جعفر سروراً ، وخلع عليه ما كان عنده هنالك ، ووعد به غير ذلك ، فأطرق لينظم شيئاً في شكره ، فأقسم عليه أن لا يشغل خاطره في ذلك

الوقت عن الارتياح ، وحثُّ أكؤس الراح ، فأقبلوا على شأنهم ، وكان ابن سيد في ذلك الحين مستراً بشرب الراح ، وكان عند أبي جعفر خديم كثير النادر والالتفات ، يخاف أهل التستر من مثله ، فقال ابن سيد : هاتِ دواة وقرطاساً ، فأعطاه ذلك ، فكتب :

يا سيدي قد علمت أني
أخشى أناساً لهم عيون^١
أحذرهم طاقتي وإنني
ولا تقس حالي بحال^٢
فأنت إن كنت ذا جهار^٣
لا نخش من قول ذي اعتراض^٤
وإنني قد رأيت ممن
ما قد أراب العفيف منه^٥
أخشى إذا قيل كيف كنتم^٦
واللص ما بيننا صريعاً^٧
مطرحاً للصلاة يصغي^٨
فأعتدي سيدي مشاراً^٩
وإن أتيت الملوك أبغي^{١٠}
يذكر في شعره خلافاً^{١١}
بالأمس قد كان ذا انتهاك^{١٢}
إن كان هذا فإن حظي

بهذه الحال لا أظهر^{١٣}
نواظر مني المعابر^{١٤}
وثقت بالله فهو غافر^{١٥}
منك اعتذاراً فالفرق ظاهر^{١٦}
غير مبال فإجابه سائر^{١٧}
ولا حسود عليك قادر^{١٨}
يكثّر القول وهو ساخر^{١٩}
ضحك وظن به يجاهر^{٢٠}
قال بحال تسر ناظر^{٢١}
بكل كأس عليه دائر^{٢٢}
لصولة الدف والمزامر^{٢٣}
إلي مهما مررت خاطر^{٢٤}
نواظم قيل أي شاعر^{٢٥}
وهو لزور المحال ذاكر^{٢٦}
فما له بعد ذلك عاذر^{٢٧}
وافى لربح فآب خاسر^{٢٨}

فقال له أبو جعفر : يا أبا العباس ، اشرب هنيئاً غير مقدر ما قدرت ، فلو

١ م : هذا .

٢ م : غلاًفاً .

كان هذا المضحك على الصفة التي ذكرت كان الذنب منسوباً إلي في كوني
أحضر في مجلسي من يهتك ستر المستورين ، ومهما تره هنا بهذه الخفة والطيش
والتسرع للكلام فإنه إذا فارقتنا أثقل من جبل ، وأصمت من سمكة ، متزيّ بزيّ
خطيب في نهاية من السكون والوقار :

وتحت الثياب العار لو كان باديا

فكن في أمن ما شربت معي ، فإنني والله لا أسمع أحداً من أصحابنا تكلّم في شأنك
بأمر إلا عاقبته أشد العقاب ، والذنب في ذلك راجع إليّ . فسكن ابن سيد وجعل
يحث الأقداح ، ويمرح أشد المراح ، على ما كان يظهره من الانقباض ، تقيّةً
لما يخشاه من الاعتراض ، إلى أن قاربت الشمسُ الغروب ، ومدّها في النهر
معصم مخضوب ، فقال أبو جعفر :

انظر إلى الشمسِ قد ألصقت على الأرضِ خدّاً

فقال ابن سيد :

هي المِرآةُ ولكنّ من بعدها الأفقُ يصدأ

فقال أبو جعفر :

مدّت طرازاً على النهريّ عندما لاح بُرداً

فقال ابن سيد :

أهدتْ لطرفك منه ما للأكارمِ يُهدى

فقال أبو جعفر :

درعُ اللّجينِ عليه سيفٌ من التبرِ مُدّاً

فقال ابن سيد :

فاشربْ عليه هنيئاً وزدْ سروراً وسعداً
ثم لما أظلم الليلُ نظروا إلى منارة شتَبوس قد عكست مصابيحها في النهر ،
وإلى النجوم قد طلعت فيه ، فقال ابن سيد :

اخْتَلَعْ عَلَى النَهْرِ ثَوْبَ الْكَرَى فَذَلِكَ وَاجِبٌ

فقال أبو جعفر :

وَانظُرْ إِلَى السُّرْجِ فِيهِ كَالزُّهْرِ ذَاتِ الدَّوَابِّ
وَحِينَ صَفَّقَ لِالأَفَقِ نَقَطَتَهُ الْكَوَاكِبُ

فقبل ابن سيد رأسه ، وقال : ما تركت بعد هذا مقالاً لقاتل ، ثم جعلوا
يشربون .

فقال أبو جعفر :

سَقَّتِي وَالْأَفَقُ بُرْدٌ بِنَجُومِ اللَّيْلِ مُعَلِّمٌ

فقال ابن سيد :

وَبَسَاطُ النَّهْرِ مِنْهَا وَهُوَ فِضِّيٌّ مُدْرَهَمٌ

فقال أبو جعفر :

وَرَوَاقُ اللَّيْلِ مُرْخَى وَالشِّدَا بِالرُّوَضِ قَدْ نَمَّ

فقال ابن سيد :

وَالنَّدَى فِي الزُّهْرِ مَثْوٍ رٌّ عَلَى عَقْدٍ مُنْظَمٌ

فقال أبو جعفر :

وَالصَّبَا جَرَّتْ عَلَى مِيٍّ تِ الطَّلِي كَفَّ ابْنِ مَرِيَمٍ

فقال ابن سيد :

كان مبهوتاً فلماً نفخت فيه تكلم

فقال أبو جعفر :

وكان الكأس والقهوة ديناراً ودرهم

فقال ابن سيد :

وبدا الدف يناغي الهمود والمزمار هيم

فقال أبو جعفر :

فأذاع الأنس منا كل ما قد كان مكنم

فقال ابن سيد :

أي عيش يهتك المس تور لو كان ابن أدهم

فقال أبو جعفر :

هكذا العيش ودعني من زمان قد تقدم

فقال ابن سيد :

حين لا خمر سوى ما بكؤوس البيض من دم

فقال أبو جعفر : والله ما تعديت ما جال الساعة في خاطري ، فإنني ذكرت أيام الفتنة وما كابدنا فيها من المحن ، وأنا لم نزل في مصادمة ومقارعة ، ثم رأيت ما نحن الآن فيه بهذه الدولة السعيدة التي أمنت وسكنت ، فشكرت الله تعالى ، ودعوت بلدوامها .

ثم لما طلع الفجر قال أبو جعفر :

نثر الطل عقودة ونضا الليل برودة

فقال ابن سيد :

وبدا الصبحُ بوجهٍ مُطلعٍ فينا سعودة°

فقال أبو جعفر :

وغدا ينشرُ لنا فتر الليلُ بنودة°

فقال ابن سيد :

فهلُمَّ اشربْ وقبلْ من غدا ينطقُ عودة°

فقال أبو جعفر :

ثمَّ صافحه على رءمِ النوى وافركْ نهودة°

فقال ابن سيد :

واجعلِ الشكرَ على ما نلتَهُ منه جُحودة°

فقال أبو جعفر : يا أبا العباس ، إنك أغرت على التهامي في هذا البيت في

قوله :

وشكرُ أيادي الغايات جُحودُها

قال : فلمَ لُقِّبْتَ باللصِّ ؟ لولا هذا وأمثاله ما كان ذلك .

واللص المذكور اسمه أحمد بن سيد ، يكنى أبا العباس ، وهو من مشهوري شعراء الأندلس . ولما أنشد أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ببجل الفتح قوله :

غمّض عن الشمسِ واستقصيرُ مدى زحلِ وانظرْ إلى الجبلِ الراسي على جبلِ

قال له : أنت شاعر هذه الجزيرة ، لولا أنك بدأتنا بغمّض وزحل والجبل .

ومن بديع نظم اللص قوله :

سَلَبْتُ قَلْبِي بِلِحْظِ أبا الحسينِ خَلْبِ

فَلِمَ أَسْمَى بِلِصِّ وَأَنْتَ لِصُّ الْقُلُوبِ

ولما اجتمع أبو جعفر ابن سعيد المترجم به باللص أبي العباس المذكور في جبل الفتح عندما وفد فضلاء الأندلس على عبد المؤمن ، واستنشدته ، فجعل ينشده ما استجفاه به لخروجه عن حلاوة مَنْزَعِ أَبِي جَعْفَرٍ ، إلى أن أنشده قوله :

وما أفنى السؤالُ لكم نوالاً ولكن جودكم أفنى السؤال

فقال له أبو جعفر : لا جعلك الله في حل من نفسك ، يكون في شعرك مثل هذا وتنشدني ما كان يحملي على أن أسأتُ معك الأدب ؟ والله لو لم يكن لك غير هذا البيت لكنتَ به أشعر أهل الأندلس .

وكتب إلى أبي جعفر أبو الحكم بن هرودس^١ في يوم بارد بغرناطة :

يا سَمِيَّ ، في علم مجدك ما يح
تاجُ فيه هذا النهارُ المطيرُ
ندفَ الثلجُ فيه قُطْنًا علينا
ففررنا بعدلكم نستجيرُ
والذي أبتغيه في اللحظ منه
ورضاب الذي هويت نظيرُ^٢
يومُ قرَّ يودُّ من حلِّ فيه
لو تبدى لقلتيه سَعِيرُ

فوجه بما طلب ، وجاوبه بما كتب :

أيها السيد الأجلُّ الوزيرُ
ألندي قدره معلّى خطيرُ
قد بعثنا بما أشرت إليه
دمت للأنسِ والسرورِ تشيرُ
كان لغزاً فككته دون فكرٍ
إنَّ فهمي بما تريد خبيرُ

١ هو أبو الحكم أحمد بن هرودس كاتب عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة (توفي سنة ٥٧٣ هـ أو في التي قبلها) انظر المغرب ٢: ٢١٠ والحاوية ، وسيأتي ذكره عند الحديث عن الموشحات والأزجال .

٢ المغرب : ورضاه في كل أمر يسير .

ومن نظم أبي الحكم :

إذا ضاقتْ عَلَيْكَ فَوْلاً عنها وسرٌّ في الأرضِ واختبرِ العبادا
ولا تمسكْ رحالكِ في بلادِ غدوتْ بأهلها خبيراً مُعادا

٦٦٨ - [أخيل الرندي]

ولما مدح أبو القاسم أخيل بن إدريس الرندي عبد المؤمن في جبل الفتح
بقصيدة أولها :

ما الفخرُ إلاّ فخرُ عبدِ المؤمنِ أني عليه كلُّ عبدٍ مؤمنِ

قال أبو جعفر ابن سعيد : دعاه التجنيس إلى الضعف والخروج عن المقصود ،
والأولى أن لو قال « شاد الخلافة وهو أولُ مُبْتَنِي » .

ومن هذه القصيدة :

أما ابنُ سَعْدٍ فهو أولُ مارقٍ يا ليته بأبيه سَعَدٍ يَكْتَنِي
ما قلرُ مُرْسِيَةٍ وحكمكِ نافذٌ إن شئتَ من عدنٍ لأرضِ المعدنِ

فلما أكملها قال له عبد المؤمن : أجدت ، فقال ارتجالاً :

من لي أميرَ المؤمنين بموقفي هذا وقولك لي أجدتَ ولم تنِ
فلقد مدحتك خائفاً أن لا يفني لَسْتِي بما يُعْنِي جميعَ الألسنِ

ولابن إدريس المذكور :

أيها البدرُ هل علمتَ بأنّي لم أبتُ راعياً مُحَيَّاكِ ودّاً
أنا لو باتَ مَنْ حَكِيَّتَ بجنبي لم يكنْ عنه ناظري يتعدّى

وله :

شَتَّانَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي الْهَوَى أَنَا أَبْتَغِيكَ وَأَنْتَ عَنِي تَصْدَفُ
وَإِذَا عَتَبْتُكَ وَارْعَوَيْتُ يَسْبِينُ لِي فِي الْحَيْنِ مِنْكَ بَأَنَّ ذَاكَ تَكَلَّفُ
يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ يُقْضَى وَصَلْنَا وَالْعَمْرُ يَفْنَى وَالْمَوَاعِدُ تُخْلَفُ

وقيل له لما هجره عبد المؤمن : اكتب له واعتذر وبرهن عن نفسك ، فقال :
ما يكون أمير المؤمنين هجرني إلا وقد صحَّ عنده ، ولا أنسبه في أمري لقلَّة
الثبت والجور ، وإنما أرغب في عفوه ورحمته ، فكأن هذا الكلام ألان عليه
قلب عبد المؤمن لما بلغه ، وكان قد نقل عنه حسَّاده أنه قال : كيف تصحُّ
له الخلافة ، وليس بقرشي ؟

٦٦٩ - [ترجمة اللص]

ولا بأس أن نزيد من أخبار اللص الذي جرى ذكرنا له مع أبي جعفر ابن
سعيد فنقول^١ :

هو النحوي المبرز في الشعر أبو العباس أحمد بن سيد ، الإشبيلي ، ذكره
ابن دحية في « المطرب » وأخبر أنه شيخه ، وختم كتاب سيبويه مرتين على
النحوي أبي القاسم ابن الرماك ، واجتمع به أبو جعفر ابن سعيد بجبل الفتح كما
سبق ، ولُقِّب اللص لإغارته على أشعار الناس .

وله :

شاموا الردى فأشموا التراب آفهم^٢ ولم يُبألوا بما فيها من الشَّمَمِ
ثم جعل يقول : قطع الله لساني إن كان اليوم على وجه الأرض مَنْ يعرف

١ ترجمة اللص في المغرب ١ : ٢٥٢ والمطرب : ٢٠٠ وبغية الوعاة : ١٤٩ والتكملة : ٨٠ .

أن يسمعه ، فضلاً عن أن يقوله .

وله القصيدة الشهيرة :

نَدَاكَ الْغَيْثُ إِنْ مَحَلُّ تَوَالِي وَأَنْتَ اللَّيْثُ إِنْ شَاعُوا الْقِتَالَا
سَلِبْتَ اللَّيْثَ شِدَّةَ سَاعِدِيهِ نَعَمْ ، وَسَلِبْتَ عَيْنِيهِ الْغَزَالَا
وَمَا أَفْنَى السُّؤَالُ لَكُمْ نَوَالَا وَلَكِنْ جُودِكُمْ أَفْنَى السُّؤَالَا

وقد تقدّم هذا البيت في حكايته مع ابن سعيد

وقال في حلقة خياط ، وهو من محاسنه :

كَأَنَّهَا بِيضَةٌ وَخَزُّ الرَّمَاكِ بِهَا بَادٍ وَقُونَسُهَا بِالسَّيْفِ قَدْ قُطِعَا

وقال :

فَاللَّيْلُ إِنْ وَاصَلْتُ كَاللَّيْلِ إِنْ هَجَرْتُ أَشْكُو مِنَ الطُّوْلِ مَا أَشْكُو مِنَ الْقِصْرِ

رجع إلى أخبار أبي جعفر ابن سعيد :

قال في « الأزهار المنثورة في الأخبار المأثورة » ما نصّه : لما قبض على الوزير أبي جعفر ابن عبد الملك بن سعيد العنسي ، وثقف بمالقة ، دخل إليه ابن عمه ، ووصل إلى الاجتماع به ريثما استؤذن السيد أبو سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن في أمره ، قال : فدمعت عينايا حين رأيتك مكبولا ، فقال لي : أعلي تبكي بعدما بلغت من الدنيا أطايب لذاتها ، فأكلتُ صدور الدجاج ، وشربت في الزجاج ، ولبست الديباج ، وتمتعت بالسراري والأزواج ، واستعملت من الشمع السراج الرهاج ، وركبت كل هملاج ، وها أنا في يد الحجاج ، منتظر محنة الحلاج ، قادم على غافرٍ لا يحتاج إلى اعتذار ولا احتجاج ، قال فقلت : أفلا يؤسف

١ م : عليه .

على من ينطق بهذا الكلام ، ثم يُفقد ؟ و قمت عنه فكان آخر العهد به ، انتهى .

رجع إلى أخبار النساء :

9 — ومن أشهرهن بالأندلس ولأدّة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن ابن عبيد الله بن الناصر لدين الله^١ ، وكانت واحدة زمانها ، المشار إليها في أوانها ، حسنة المحاضرة ، مشكورة المذاكرة ، كتبت بالذهب على طرازها الأيمن :

أنا والله أصلحُ للمعالي وأمشي مشيتي وأتبهُ تيهي

وكتبت على الطراز الأيسر :

وأمكنُ عاشقي من صحنِ خدي وأعطي قبلي مَنْ يشتهيها

وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف ، وفيها خلع ابن زيدون عذاره ، وقال فيها القصائد الطنانة والمقطعات ، وكانت لها جارية سوداء بديعة المعنى ، فظهر لولادة أن ابن زيدون مال إليها ، فكتبت إليه :

لو كنتَ تُنصِفُ في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخيرِ
وتركت غصناً مثمراً بجَماله وجنحت للغصنِ الذي لم يُثمرِ
ولقد علمتَ بأنتي بدرُ السما لكن ولعت ، لشقوتي ، بالمشتري

ولقبت ابن زيدون بالمسدس ، وفيه تقول :

ولُقبت المسدس وهو نعتُ تفارقك الحياةُ ولا يفارقُ
فلوطيُّ ومأبونُ وزانٍ وديوثُ وقرنانُ وسارقُ

وقالت فيه :

١ ترجمة ولادة في الذخيرة ١/١ : ٣٧٦ والمطرب : ٧ والصلة : ٦٥٧ والسيوطي : ١٠١ .

إنَّ ابنَ زيدونَ على فضلهِ
يلحظني شرراً إذا جثتهُ
يغتابي ظلماً ولا ذنب لي
كأنَّتي جثتُ لأخصي علي
وقالت فيه أيضاً :

إنَّ ابنَ زيدونَ على فضلهِ
لو أبصرَ الأير على نخلةٍ
يعشقُ قُضبانَ السراويلِ
صارَ من الطير الأبايلِ
وقالت ولادة تهجو الأصبحي :

يا أصبحيُّ اهنأ فكم نعمة
قد نلتَ بأسْتِ ابنك ما لم ينلْ
جاءتك من ذي العرش ربَّ المنز
بفرج بُورانَ أبوها الحسنُ
وكتبت إليه لما أولع بها بعد طول تمنع :

ترقبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتي
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلحْ
فإنِّي رأيتُ الليلَ أكمَّ للسرِّ
وبالبدْرِ لم يطلعْ وبالنجمِ لم يسرْ
ووفت بما وعدت ، ولما أرادت الانصراف ودعته بهذه الأبيات :

ودَّعَ الصبرَ محبَّ ودَّعَكَ
يقرعُ السنَّ على أن لم يكنْ
يا أخا البدرِ سناءً وسناً
إن يطلُّ بَعْدَكَ ليلى فلکم
ذائعٌ من سره ما استودعكْ
زاد في تلك الخطى إذ شيعك
حفظ الله زماناً أطلعك
بتُّ أشكو قصرَ الليل معك

وكتبت إليه :

ألا هلِّ لنا من بعد هذا التفرقِ
وقد كنتُ أوقاتَ التزاور في الشتا
فكيف وقد أُمسيتُ في حالِ قطعةٍ
سبيلٌ فيشكو كلُّ صبِّ بما لقي
أبيتُ على جمرٍ من الشوق محرقِ
لقد عَجَّلَ المقدورُ ما كنتُ أتقي

تمرُّ الليالي لا أرى البينَ ينقضي ولا الصبرَ من رِقِّ التشوقِ معتقي
سقى اللهُ أرضاً قدْ غدتْ لكَ منزلاً بكلِّ سَكُوبِ هاطلِ الوبلِ مُغْدِقِ

فأجابها بقوله :

لحى الله يوماً لستُ فيه بملتي محيَاكِ من أجلِ النوى والتفرقي
وكيف يطيبُ العيشُ دونَ مسرةٍ وأيُّ سرورٍ للكئيبِ المورقِ

وكتب في أثناء الكلام بعد الشعر : وكنتِ ربما حششتني على أن أنبهك
على ما أجد فيه عليك نقداً ، وإني انتقدت عليك قولك :

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً

فإن ذا الرمة قد انتقيدَ عليه قوله مع تقديم الدعاء بالسلامة :

ألا يا اسلمي يا دارَ ميِّ على البلى ولا زال منهلاًً بجرعائك القطرُ

إذ هو أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له ، وأما المستحسن فقول
الآخر :

فسقى ديارك غيرَ مفسدها صوبُ الربيعِ وديمةٌ تهمي

وبسببها خاطب ابنَ عبْدوس بالرسالة المشهورة التي شرحها غيرُ واحد من
أدباء المشاركة كالجبال ابنِ نُباتة والصفدي وغيرهما ، وفيها من التلميحات
والتنديرات ما لا مزيد عليه .

وقد ذكر ولادة ابنِ بَشْكُوَال في « الصلَّة » فقال : كانت أديبة ، شاعرة ،
جزلة القول ، حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق
البرعاء ، وعمرت عمراً طويلاً ، ولم تتزوج قط ، وماتت لليلتين خلتا من صفر
سنة ثمانين ، وقيل : أربع وثمانين وأربعمائة ، رحمها الله تعالى .

وكان أبوها المستكفي بايعه أهل قرطبة لما خلعوا المستظهر ، كما ألعنا به في غير هذا الموضع ، وكان جاهلاً ساقطاً ، وخرجت هي في نهاية من الأدب والظرف : حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ونحبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتهى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لحياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها ، وعلى سهولة حجابها ، وكثرة مُنتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيلَ بقلّة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها . ولما مرت بالوزير أبي عامر ابن عبدوس وأمام داره بركة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقدار ، وقد نشر أبو عامر كُميّه ، ونظر في عِطْفِيّه ، وحشر أعوانه إليه ، فقالت له :

أنتَ الخصبُ وهذه مصرُ فتدفقاً فكلالما بحرُ

فتركته لا يبحر حرفاً ، ولا يرد طرفاً .

وقال في « المغرب » بعد ذكره أنّها بالغرب كعلية بالشرق : إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائت ، وأمّا الأدب والشعر والنادر وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة في الغناء ، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك ، وفيها يقول ابن زيدون :

بنم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

وقال أيضاً يخاطب ابن عبدوس لاشترائه معه في هواها :

أثرت هزبر الشرى إذ ربضُ ونبّهته إذ هذا فاغتمضُ
وما زلت تبسطُ مسترسلاً إليه يدَ البغي لما انقبضُ

حذارِ حذارِ فَإِنَّ الكَرِيمَ إِذَا سِيمَ حَسَفًا أَبِي فَا مَتَعَضُ
وإنَّ سَكُونَ الشَّجَاعِ النَّهْوِ سِ لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعْضُ
عَمَدَتَ لَشَعْرِي وَلَمْ تَتَّئِدْ تَعَارِضُ جَوْهَرِهِ بِالْعَرَضُ
أضَاقَتْ أَسَالِيبُ هَذَا الْقَرِي ضِ أُمٌ قَدْ عَفَا رَسْمَهُ فَا نَقَرَضُ
لِعَمْرِي فَوَقَّتْ سَهْمَ النُّضَالِ وَأَرْسَلْتَهُ لَوْ أَصَبْتَ الْغَرَضُ

ومنها :

وَعَرَّكَ مِنْ عَهْدٍ وَوَلَادَةٍ سَرَابٌ تَرَأَى وَبُرُقٌ وَمَعَضُ
هِيَ الْمَا يَعِزُّ عَلَى قَابِضٍ وَيُمنَعُ زُبْدَتَهُ مِنْ مَخْضُ

ومن أخبار ولادة مع ابن زيدون ما قاله الفتح في القلائد^١ : إن ابن زيدون كان يكلف بولادة ويهيم ، ويستضيء بنور محياها في الليل البهيم ، وكانت من الأدب والظرف ، وتتميم السمع والظرف ، بحيث تحتلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ، فلما حل بذلك الغرب ، وانحل عقد صبره بيد الكرب ، فرأى إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ، ويتسلى برؤية موافيقها ، فوافاها والربيع قد خلج عليها برده ، ونشر سوسسته وورده ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها ، فارتاح ارتياح جميل بوادي القرى ، وراح بين روض يانع وريح طيبة السرى ، فتشوق إلى لقاء ولادة وحن ، وخاف تلك النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده إليها وطلقه ، ويعلمها أنه ما سلا عنها بخمر ، ولا خبا ما في ضلوعه من ملتهب جمر^٢ ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده :

لَمَتِي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا وَالْأَفْقَ طَلَّقْتُ وَوَجْهَ الْأَرْضِ قَد رَاقَا

١ القلائد : ٧٣ .

٢ ويعلمها ... جمر : سقط هذا من القلائد المطبوع .

وللنسيمِ اعتلالٌ في أصائله
 والروضُ عن مائهِ الفضىِ مبتسمٌ
 يومٌ كأيتامٍ لذاتٍ لنا انصرفتُ
 نلهو بما يستميلُ العينَ من زهرِ
 كأنَّ أعينه إذ عاينتُ أرقى
 وردٌ تألقَ في ضاحي منابته
 سرى ينافحه نيلوفرٌ عقبٌ
 كلُّ يهبجُ لنا ذكرى تشوقنا
 لو كان وقى المنى في جمعنا بكمُ
 لا سَكَنَ اللهُ قلباً عن ذكركمُ
 لو شاء حملي نسيمُ الريحِ حينَ هَمَا
 يا عِلقي الأخطرَ الأسنى الحبيبَ إلى
 كان التجاري بمحضِ الودِّ مذ زمنِ
 فالآنَ أحمدُ ما كنتَ لعهدكمُ

كأنما رقاً لي فاعتلَّ إشفاقا
 كما حلتت عن اللبّات أطواقا
 بنتنا لها حينَ نامَ الدهرُ سرّاً
 جال الندى فيه حتى مالَ أعناقا
 بكتُ لما بي فجال الدمعُ رقرقا
 فازداد منه الضحى في العينِ إشراقا
 وسنان نَبّه منه الصبحُ أحداقا
 إليك ، لم يعدُ عنها الصدرُ أنْ ضاقا
 لكان من أكرمِ الأيامِ أخلاقا
 فلم يطيرَ بجناحِ الشوقِ خفّاقا
 وافتكُمُ بفتى أضناه مسالاقا
 نفسي إذا ما اقتنى الأحبابُ أعلاما
 ميدانَ أنسٍ جرينا فيه أطلاقا
 سلوتُمُ وبقينا نحن عشاقا

وقال أيضاً^١ : إن ابن زيدون لم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر ، ويباح دمه
 دونها ويهدّر ، لسوء أثره في ملك قرطبة وواليتها ، وقبائح كان ينسبها إليه
 ويواليها ، أحقدت بني جهور عليه ، وسددت أسهمهم إليه ، فلما يئس من لقيائها ،
 وحجّب عنه محيّاها ، كتب إليها يستديم عهدها ، ويؤكد ودّها ، ويعتذر
 من فراقها بالخطب الذي غشيه ، والامتحان الذي خشيه ، ويعلمها أنّه ما سلا
 عنها بخر ، ولا خبا ما في ضلوعه من ملتهب الجمر ، وهي قصيدة ضربت في
 الإبداع بسهم ، وطلعت في كل خاطر ووهم ، ونزعت مترعاً قصر عنه حبيب
 وابن الجهم ، وأولها :

١ القلائد : ٨١ .

بنم وبناً فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
تكادُ حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسي لولا تأسينا
وأخبار ولادة كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية .

10 - ومن المشهورات بالأندلس « اعتماد »¹ جارية المعتمد بن عباد ، وأم أولاده ، وتشتهر بالرُمَيْكِيَّة ، وفي المسهب والمغرب أنه ركب المعتمد في النهر ومعه ابن عمّار وزيره ، وقد زردت الريح النهر ، فقال ابن عباد لابن عمار : أجز :

صنع الريحُ من الماء زَرْدُ

فأطال ابن عمّار الفكرة ، فقالت امرأة من الغسالات :

أيّ درعٍ لقتالٍ لو جَمَدُ

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به ، مع عجز ابن عمّار ، ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة ، فأعجبه فسألها : أذات زوج هي ؟ فقالت : لا ، فتزوجها ، وولدت له أولاده الملوك النجباء ، رحمهم الله تعالى .
وحكى البعض منهم صاحب « البدائه » بسنده إلى بعض أدباء الأندلس ، وسمّاه ولم يحضرني الآن ، أنه هو الذي قال للمعتمد :

أيّ درعٍ لقتالٍ لو جمد

قال : فاستحسنه المعتمد ، وكنّت رابعاً في الإنشاد فجعلني ثانياً ، وأجازني بجائزة سنية .

قال ابن ظافر : وقد أخذت هذا المعنى ، فقلت أصف روضاً :

١ القلائد : ٢٢ ؛ وانظر المجلد ٣ : ٦٠٦ .

فلو دام ذلك النبتُ كان زبرجداً ولو جمّدت أنهاره كان بلّورا
ولما قال ابن ظافر :

قد أذكتِ الشمسُ على الما لهباً

قال القاضي الأعز :

فكستِ الفضةَ منه ذهباً

رجع :

ولما خلع المعتمد وسُجن بأغمار قالت له : يا سيدي لقد هُتّا هُنّا ، فقال :

قالتُ لقد هُتّا هُنّا مولاي أينَ جاهُنّا

قُلْتُ لها إلهُنّا صيرنا إلى هُنّا

وحكي أنّها قالت له وقد مرض : يا سيدي ، ما لنا قدرة على مرّضاتك في
مرضاتك .

ولما قال الوزير ابن عمار قصيدته اللامية الشهيرة في المعتمد والرّميكية أغرت
المعتمد به حتى قتله ، وضربه بالطبرزين ففلق رأسه ، وترك الطبرزين في رأسه ،
فقال الرّميكية : قد بقي ابن عمّار هدهداً ، والقصيدة أوّلها :

ألا حيّ بالغرب حيّاً حلالاً أناخُوا جِمالاً وحازُوا جِمالاً

وعرّجَ بيومينَ أمّ القرى ونَمّ فَعسى أن تراها خيالاً

ويومين : قرية بإشبيلية كانت منها أوّلية بني عباد ، وفي هذه القصيدة يقول
معرّضاً بالرّميكية :

تخيرتَها من بناتِ الهجانِ رُمَيْكيةٌ ما تساوي عقالا

فجاءت بكلّ قصير العذارِ لئيمِ النّجارين عمّا وخالا
 قصارِ القُدودِ ولكنّهم أفاموا عليها قروناً طوالا
 أتذكر أيامنا بالصِّبا وأنت إذا لحت كنت الهلالا
 أعانقُ منك القضيبَ الرطيبَ وأرشفُ من فيك ماءَ زلالا
 وأفنعُ منك بدونِ الحرامِ فتقسّمُ جهدك أن لا حلالا
 سأهتك عرضك شيئاً فشيئاً وأكشفُ سترك حلالاً فحلالا

ومنها :

فيا عامرَ الخليلِ يا زَيْدَها منعتَ القرى وأبجتَ العيالا

وسبب قول ابن عمّار هذه القصيدة أن المعتمد نذر به وذيل على قصيدته
 الرائية المذكورة في القلائد بعد قوله :

كيف انتفلتُ بالخدِيعَةِ من يَدَيَّ رجلِ الحقيقةِ من بني عمّارِ
 وسخر به في أبيات مشهورة .

٦٧٠ - [أخبار المعتمد]

قال الفتح في حق المعتمد بعد كلام : وما زالت عقارب تلك الداخلة تدبّ ،
 وريحها العاصفة تهب ، ونارها تقيد ، وضلوعها تحقّق وتحقد ، وتضمّر الغدر
 وتعتقد ، حتى دُخِلَ البلد من واديه ، وبدت من المكروه بؤاديه ، وكرّ عليه
 الدهر بعوائده وعوآديه ، وهو مستمسك بعُرَى لذّاته ، منغمس فيها بذاته ،
 ملقى بين جواريه ، مغترّ بودائع ملكه وعواريه ، التي استرجعت منه في يومه ،
 ونبّهه فواتها من نومه ، ولما انتشر الداخلون في البلد ، وأوهنوا القوى والجلد ،

خرج والموت يتسعّر في الحياظه ، ويتصوّر من ألفاظه ، وحسامه يعد بمخاضه ،
ويتوقّد عند انتضائه ، فلقبيهم برحبة القصر ، وقد ضاق بهم فضاؤها ، وتضعضت
من رجّتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فِرَقاً ، وملاّتهم فِرَقاً ، وما زال
يوالي عليهم الكر المعاد ، حتى أوردهم النهر وما بهم جواد ، وأودعهم
حشاه كأنّهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله ، وذهاب ملكه
وارتحاله ، وعاد إلى قصره واستمسك فيه يومه وليلته مانعاً لحوزّته ، دافعاً للذل
عن عزّته ، وقد عزم على أفطع أمر ، وقال : بيدي لا بيد عمرو ، ثم صرفه تُفاه ،
عمّا كان نَوّاه ، فنزل من القصر بالقسر ، إلى قبضة الأسر ، فقيدَ للحين ،
وحان له يوم شر ما ظنّ أنّه يحين ، ولما قيدت قدماه ، وذُهب عنه رقة الكبل
ورُحمّاه ، قال يخاطبه :

إليكَ فلو كانت قَيُودُكَ أسعرتُ تَضَرَّمَ منها كلُّ كَفِّ ومعصمِ
مخافةً من كانَ الرجالُ بسَيِّبه ومن سيفه في جنّةٍ أو جهنمِ

ولما آله عَضُّه ، ولازمه كسره ورَضُّه ، وأواهاه ثقله ، وأعياه نقله ، قال :

تبدلتُ من عزِّ ظلِّ البنودِ بدُلُّ الحديدِ وثقلِ القيودِ
وكان حديدي سناناً ذليلاً وعضباً رقيقاً صقيلَ الحديدِ
فقد صارَ ذاكَ وذا أدُهما يعضُّ بساقِيَّ عضَّ الأسودِ

ثم جُمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت ، وضمنتهم جوانحها كأنّهم
أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناسُ قد حشروا
بضفتي الوادي ، وبكوا بدموع كالغواصي ، فساروا والنوحُ يحندُ وهم ،
والبُوحُ باللوعة لا يعدوهم ، وفي ذلك يقول ابن اللبّانة :

تبكي السماءُ بمزْنٍ رائحِ غادِ على البهاليلِ من أبناءِ عبّادِ
على الجبالِ التي هُدَّتْ قواعدها وكانتِ الأرضُ منها ذاتُ أوتادِ

عَرِيْسَةٌ دَخَلْتَهَا النَّائِبَاتُ عَلَى
 وَكَبِيَّةٌ كَانَتْ الْآمَالُ تَخْدُمَهَا
 يَا ضَيْفُ أَقْفَرِ بَيْتِ الْمَكْرَمَاتِ فَخِذْ
 وَيَا مُؤَمِّلَ وَاذِيهِمْ لَيْسَكُنْهُ
 وَأَنْتَ يَا فَارِسَ الْخَيْلِ الَّتِي جَعَلْتُ
 أَلْتَقِيَ السَّلَاحَ وَخَلَّ الْمَشْرِفِي فَقَدْ
 لَمَّا دَنَا الْوَقْتُ لَمْ تَخْلَفْ لَهُ عِدَّةٌ
 إِنْ يُخْلَعُوا فَبِنُو الْعَبَّاسِ قَدْ خَلَعُوا
 حَمَوًا حَرِيمَهُمْ حَتَّى إِذَا غَلَبُوا
 وَأَنْزَلُوا عَن مَتُونِ الشَّهْبِ وَاحْتَمَلُوا
 وَعَيْثُ فِي كُلِّ طَوْقٍ مِّنْ دَرُوعِهِمْ
 نَسِيْتُ إِلَّا غَدَاةَ النَّهْرِ كَوْنَهُمْ
 وَالنَّاسُ قَدْ مَلَأُوا الْعَبْرَيْنِ وَاعْتَبَرُوا
 حُطَّ الْقِنَاعُ فَلَمْ تُسْتَرْ مَخْدَرَةٌ
 حَانَ الْوَدَاعُ فَضَجَتْ كُلُّ صَارِخَةٍ
 سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ وَالنَّوْحُ يُصْحَبُهَا
 كَمْ سَالَ فِي الْمَاءِ مَن دَمَعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ

أَسَاوِدٍ لَّهُمْ فِيهَا وَأَسَادُ
 فَالْيَوْمَ لَا عَاكِفٌ فِيهَا وَلَا بَادُ
 فِي ضَمِّ رَحْلِكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ
 خَفَّ الْقَطِينُ وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِي
 تَخْتَالُ فِي عُدَدٍ مِنْهُمْ وَأَعْدَادُ
 أَصْبَحَتْ فِي لَهَوَاتِ الضَّيْغِ الْعَادِي
 وَكُلُّ شَيْءٍ لَمِيقَاتٍ وَمِيعَادُ
 وَقَدْ خَلَّتْ قَبْلَ حَمَصٍ أَرْضُ بُغْدَادِ
 سَيَقُومُوا عَلَى نَسْتَقٍ فِي حَبْلِ مَقْتَادِ
 فَوْقَ دُهُمٍ لَتَلُوكَ الْخَيْلُ أَنْدَادِ
 فَصَيْغَ مِنْهُنَّ أَغْلَالٌ لِأَجْيَادِ
 فِي الْمَنْشَأَتِ كَأَمْوَاتٍ بِالْحَادِ
 مَن لَوْ لَوْ طَافِيَاتٍ فَوْقَ أَزْيَادِ
 وَمُزَّقَتْ أَوْجُهُ تَمْزِيقَ أَبْرَادِ
 وَصَارِخٍ مِّنْ مُّفْدَاةٍ وَمِن فَادِ
 كَأَنَّهَا لِابِلٍ يُحْدُو بِهَا الْحَادِي
 تَلُوكَ الْقَطَائِعُ مَن قَطَعَاتِ أَكْبَادِ

انتهى ما قصد جلبيه من كلام الفتح رحمه الله تعالى وسأحه .

وقال ابن اللبّانة في كتاب « نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار
 الدولة العبادية » : إن طائفة من أصحاب المعتمد خامرت عليه ، فأعلم باعتقادها ،
 وكشف له عن مرادها ، وحض على هتك حرّمتها ، وأغري بسفك دمها ، فأبى
 ذلك مجده الأثيل ، ومذهبه الجميل ، وما خصّه الله تعالى به من حسن اليقين ،
 وصحة الدين ، إلى أن أمكنتهم الغرة فانتصروا ببغاث مستنسر ، وقاموا بجمع

غير مستبصر ، فبرز من قصره ، متلافياً لأمره ، عليه غلالة ترفُّ على جسده ،
وسيفه يتلظى في يده :

وذاك السيفُ راقٍ وراعٍ حتى كأنَّ عليه شيمَةَ منتضيه
كأنَّ الموتَ أودعَ فيه سرّاً ليرفعهُ إلى يومِ كربه

فلقي على باب من أبواب المدينة فارساً مشهوراً بنجدة ، فرماه الفارس برمح
التوى على غلّالته ، وعصمه الله تعالى منه ، وصبَّ هو سيفه على عاتق الفارس ،
فشقّه إلى أضلاعه ، فخرّ صريعاً سريعاً ، فرأيت القائمين عندما تسنموا الأسوار
تساقطوا منها ، وبعدها أمسكوا الأبواب تخلّوا عنها ، وأخذوا على غير
طريق ، وهوت بهم ريح الهيبية في مكان سحيق ، فظننا أن البلد من أقدائه قد
صفا ، وثوب العصمة علينا قد ضفّا ، إلى أن كان يوم الأحد الحادي والعشرون
من رجب فعظم الأمر في الخطب الواقع ، واتسع الحرق فيه على الراقع ، ودخل
البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية بادية ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد
وبأسه ، وتراميه على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه ،
فشنت الغارة في البلد ، ولم يُبق فيه على سبَد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس من
منازلهم ، يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العنّاري ،
ورأيت الناس سُكاري ، وما هم بسكاري ، ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال
جميع ماله ، لم يصحب معه بلُعة زاد ، ولا بغية مراد ، فأمضيت عزيّمي في
اتباعه ، فوصلت إليه بأغمات عقب ثقاف استنقذه الله منه ، فذكرت به شعراً
كان لي في صديق اتفق له مثل ذلك في الشهر بعينه من العام الماضي ، وهو الأمير
أبو عبد الله ابن الصفار ، وهو :

لم نقلُ في الثقافِ كانَ ثقافاً كنتَ قلباً به وكانَ شغافاً
يمكثُ الزهرُ في الكمامِ ولكنْ بعد مكثِ الكمامِ يدنو قِطافاً
وإذا ما الهلالُ غابَ بغيمٍ لم يكنْ ذلك المغيبُ انكسافاً

إِنَّمَا أَنْتَ دَرَّةٌ لِّلْمَعَالِي رَكَبَ الدَّهْرُ فَوْقَهَا أَصْدَافَا
 حَجَبَ الْبَيْتِ مِنْكَ شَخْصاً كَرِيماً مِثْلَمَا تَحْجِبُ الدَّنَانُ السَّلَافَا
 أَنْتَ لِلْفَضْلِ كَعْبَةٌ وَلَوْ أَنِّي كُنْتُ أُسْطِيعُ لَاسْتَطَعْتُ الطَّوَاغَا

قال أبو بكر : وجرت بيني وبينه مخاطبات ألد من غفلات الرقيب ،
 وأشهى من رشقات الحبيب ، وأدل على السماح ، من فجر على صباح ، انتهى .
 ثم قال : ولما خلع المعتمد وذهب إلى أغمات طلب من حواء بنت تاشفين
 خباء عارية ، فاعتذرت بأنه ليس عندها خباء ، فقال :

هم أوقدوا بينَ جنبيكَ نارا أطالوا بها في حشاك استعارا
 أما ينجلُ المجدُ أنْ يُرحلوك ولم يصحبوك خباء معارا
 فقد قنعوا المجدَ إن كان ذلكَ وحاشاهمُ منك خزيًا وعارا
 يقلُّ لعينيك أن يجعلوا سوادَ العيونِ عليكم شعارا

ثم إنّه بقي مأسوراً بأغمات إلى سنة ٤٨٦ ، فأخذ بمالقته رجل كبير يُعرف
 بابن خلف ، فسُجن مع أصحاب له ، فنقبوا السجن وذهبوا إلى حصن منت ميور
 ليلاً فأخرجوا قائدها ، ولم يضره ، وبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل ،
 فسألوه فإذا هو عبد الجبار بن المعتمد ، فولوه على أنفسهم ، وظن الناس أنّه
 الراضي ، فبقي في الحصن ، ثم أقبل مركب من الغرب يُعرف بمركب ابن الزرقاء ،
 فانكسر بمرسى الشجرة قريباً من الحصن ، فأخذوا بنوده وطبوله وما فيه من
 طعام وعدة فاتسعت بذلك حالتهم ، ثم وصلت أم عبد الجبار إليه ، ثم خاطبه أهل
 الجزيرة وأهل أركش فدخلها سنة ٤٨٨ ، ولما بلغ خبر عبد الجبار إلى ابن تاشفين
 أمر بتقاف المعتمد في الحديد ، وفي ذلك يقول :

قيدي أما تعلمني مُسليماً أبيتَ أن تشفقَ أو ترحما

١ زاد في م ورقة ونصف ورقة ، ولكننا آثرنا عدم إثباتها هنا لأنها سترد في سياق الأخبار من بعد .

يُبصرني فيكَ أبو هاشمٍ فينثني القلبُ وقد هُشما

وبقي إلى أن توفي رحمه الله سنة ٤٨٨ .

وقد ساق الفتح قضية ثورة عبد الجبار بن المعتمد بعبارة البارة فقال^١ :
وأقام بالعدوة برهة لا يُروِّعُ له سِرْبُ وإن لم يكن آمناً ، ولا يثور له كرب
وإن كان في ضلوعه كامناً ، إلى أن ثار أحدُ بنيه بأركش - معقل كان مجاوراً
لإشبيلية مجاورة الأنامل للراح ، ظاهر على بسائط وبِطاح ، لا يمكن معه عيش ،
ولا يتمكّن من منازلته جيش ، فغدا على أهلها بالمكارة وراح ، وضيّقَ عليهم
المتسع من جهاتها والبرّاح ، فسار نحوه الأمير سير بن أبي بكر^٢ رحمة الله عليه ،
قبل أن يرتدّ طرف استقامته إليه ، فوجده وشره قد تشمّر ، وضره قد
تنمّر ، وجمره متسع ، وأمره متوعر ، فنزل عدوّته ، وحلّ للحزم
حُبوتَه ، وتدارك داءه قبل إعضاله ، ونازله وما أعدّ آلات نضاله ، وانحشدت
إليه الجيوش من كل قطر ، وأفرغ من مسالكة كل قطر ، فبقي محصوراً
لا يشدّ إليه إلاّ سهم ، ولا ينفذ عنه إلاّ نفس أو وهم ، وامتسك شهوراً
حتى عرضه أحدُ الرّماة بسهم فرماه ، فأصماه ، فهوى في مطلعهِ ، وخرّ
قتيلاً في موضعه ، فدُفن إلى جانب سريرهِ ، وأمنَ عاقبة تغريهِ ، وبقي أهله
ممتنعين مع طائفة من وزرائه حتى اشتد عليهم الحصر ، وارتدّ عنهم
النصر ، وعمهم الجوع ، وأغبّ أجفانهم الهجوع ، فنزلت منهم طائفة متهافئة ،
وولت بأنفاس خافتة ، فتبعهم مَنْ بقي ، ورغب في التّنعّم مَنْ شقي ، فوصلوا
إلى قبضة الملمات ، وحصلوا في غصّة المّمات ، فوسّمهم الحيف ، وتقسّمهم
السيف ، ولما زار الشّبل خيفت سَوْرَة الأسد ، ولم يُرَجّ صلاح الكل والبعض
قد فسّد ، فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال وأثناءها ، وأحلّ ساحة الخطوب

١ القلائد : ٢٥ .

٢ زاد في م : أمير ابن تاشفين .

وفيناءها ، وحين أركبوه أساودا ، وأورثوه حزنًا بات له معاودا ، قال :

غنتك أغماتية الألمانِ ثقلت على الأرواح والأبدانِ
قد كان كالثعبان رُمحك في الوري فغدا عليك القيد كالثعبانِ
متمرداً يحميك كلّ تمرد متعطفاً لا رحمة للعاني
قلبي إلى الرحمن يشكو بثه ما خاب من يشكو إلى الرحمنِ
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ما كان أغنى شأنه عن شانِ
هاتيك قبته وذلك قصره من بعد أي مقاصر وقيانِ

ولما فقد من يجالسه ، وبعد عنه من كان يؤانسه ، وتمادى كربه ، ولم تسالنه
حربه ، قال :

تؤمل للنفس الشجية فرجة وتأبى الخطوب السود إلا تماديا
لياليك في زاهيك أصفى صحبتها كذا صحبت قبلي الملوك اللياليا
نعيم وبؤس ذاك لذلك ناسخ وبعدهما نسخ المنايا الأمانيا

ولما امتدت في الثقاف مدته ، واشتدت عليه قسوة الكبل وشدته ، وأقلقته
همومه ، وأطبقت غمومه ، وتوالت عليه الشجون ، وطالت لياليه الجون ، قال :

أنباء أسرك قد طبقتن آفاقا بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم حتى أتت شرقها تنعك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة وأغرق الدمع آفاقاً وأحداقا
قد ضاق صدر المعالي إذ نعت لها وقيل : إن عليك القيد قد ضاقا
أنتي غلبت وكنت الدهر ذا غلب للغالين وللسباق سباقا
قلت الخطوب أذلتني طوارقها وكان غربي إلى الأعداء طراقا

١ م ق : قيدك .

متى رأيتَ صروفَ الدهرِ تاركةً إذا انبرتَ لذوي الأخطارِ أرماقا

وقال لي من أثقه : لما ثار ابنه حيث ثار ، وأثار من حقد أمير المسلمين عليه ما أثار ، جزع جزعاً مفرطاً ، وعلم أنه قد صار في أنشودة الشر متورطاً ، وجعل يتشكى من فعله وينظلم ، ويتوجع منه ويتألم ، ويقول : عرض بي للمجن ، ورضي لي أن أمتحن ، ووالله ما أبكي إلاّ انكشاف من أخلفه بعدي ، ويتحيفه بعدي ، ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهلت أسرته ، وظلته مسرته ، ورأيته قد استجمع ، وتشوف إلى السماء وتطلع ، فعلمت أنه قد رجا عودّة إلى سلطانه وأوبه إلى أوطانه ، فما كان إلاّ بمقدار ما تنداح دائرة ، أو تلتفت مقلة حائرة ، حتى قال :

كذا يهلكُ السيفُ في جفنه	إلى هنزٍ كفتي طويلَ الحنينِ
كذا يعطشُ الرمحُ لم أعتقله	ولم تروه من نجيعِ يميني
كذا يُمنعُ الطُرفُ علكَ الشكِي	م مرتقباً غيرةً في كمينِ
كانَ القوارسَ فيه ليوثُ	تراعي فرائسها في عرينِ
ألا شرفُ يرحمُ المشرفي	مما به من شمات الوتينِ
ألا كرمُ ينعشُ السّمهري	ويشفيه من كلّ داء دفينِ
ألا حنةُ لابنِ محنية	شديدِ الحنينِ ضعيفِ الأنينِ
يؤملُ من صدرها ضمةٌ	تبوئه صدرَ كفؤٍ معينِ

وكانت طائفة من أهل فاس قد عاثوا فيها وفسقوا ، وانتظموا في سلك الطغيان واتسقوا ، ومنعوا جفون أهلها السنّات ، وأخذوا البنين من حجور آبائهم والبنات ، وتلقبوا بالإمارة ، وأركبوا السوء نفوسهم الأمارة ، حتى كادت أن تفقر على أيديهم ، وتدثر رسومها بإفراط تعديهم ، إلى أن تدارك أمير المسلمين رحمه الله تعالى أمرهم ، وأطفا جمرهم ، وأوجعهم ضرباً ، وأقطعهم ما شاء حزناً وكرباً ، وسجنهم بأغمات ، وضمنهم جوانح الملمات ،

والمعتمد إذ ذاك معتقل هناك ، وكانت فيهم طائفة شعرية ، مُذنبَة أو بريّة ، فرغبوا إلى سجانهم ، أن يسترجحوهم مع المعتمد من أشجانهم ، فَخَلَّى ما بينهم وبينه ، وغمض لهم في ذلك عَيْنَه ، فكان المعتمد رحمه الله تعالى يَتَسَلَّى بمجالستهم ، ويجد أثر مؤانستهم ، ويستريح إليهم بِجَوَاهِ ، ويبوح لهم بسرّه ونجواه ، إلى أن شُفِعَ فيهم وانطلقوا من وثاقهم ، وانفرج لهم مُبْهِمَ أَغْلَاقِهِمْ ، وبقي المعتمد في محبسه يشتكي من ضيق الكبل ، ويكي بدمع كالوَبَلِّ ، فدخلوا عليه مُودِعِينَ ، ومن بثه متوجعين ، فقال :

أما لانسكابِ الدَّمْعِ في الخَدِّ راحَةً
 هبوا دعوةً يا آل فاسٍ لمبتلى
 تخلصتم من سجنِ أغماتٍ والتوت
 من الدهمِ أمّا خلقها فأسود
 فهنيمُ النعما ، ودامتُ لكلكم
 خرجتم جماعاتٍ وخلفتُ واحداً
 لقد آن أن يقنئني ، ويفني به الخدُّ
 بما منه قد عافاكمُ الصمَدُ الفردُ
 عليّ قيودٌ لم يحنّ فكها بعدُ
 تكلّوي وأما الأيدُ والبطشُ فالأسدُ
 سعادتهُ إن كان قد خانني سعدُ
 والله في أمري وأمركم الحمدُ

ومر عليه في موضع اعتقاله سِرْبُ قَطَاً لم يعلق لها جناح ، ولا تعلق بها من الأيام جناح ، ولا عاقها عن أفرانها الأشرار ، ولا أعوزها البشام ولا الأراك ، وهي تمرح في الجو ، وتسرح في مواقع النو ، فتتكّد بما هو فيه من الوثاق ، وما دون أحبته من الرقباء والأغلاق ، وما يقاسيه من كَبَلِه ، ويعانيه من وجده وخبَلِه ، وفكر في بناته وافتقارهنّ إلى نعيم عَهْدِنَه ، وحبور حَضْرَتِه وشَهْدِنَه ، فقال :

بكيتُ إلى سربِ القطا إذ مررنَ بي
 سوارح لا سجنٌ يعوقُ ولا كَبَلُ
 ولم تكُ ، واللهُ المعيدُ ، حسادةً
 ولكن حينياً أن شكلي لها شكلُ

فأسرَحُ لا شملي صَدِيعٌ ، ولا الحشا
هنيئاً لها أن لم يُفَرِّقْ جميعها
وإذ لم تبتْ مثلي تطيرُ قلوبها
وما ذاك ممّا يعتريه ، وإنما
لنفسي إلى لُقْيَا الحِمَامِ تشوّفٌ
ألا عصمَ الله القطا في فراخها
وجيعٌ ، ولا عينا يَبْكِيهما ثكلُ
ولا ذاق منها البُعدَ عن أهلها
إذا اهتزَّ بابُ السجنِ أو صلصل القفلُ
وصفتُ التي في جبلة الخلق من قبلُ
سوايَ يحبُّ العيشَ في ساقه كبلُ
فإنَّ فراخي خانها الماءُ والظلُّ

وفي هذه الحالة زاره الأديب أبو بكر ابن اللبّانة ، وهو أحد شعراء دولته المرتضعين دررَها ، المنتجعين دُررَها ، وكان المعتمد رحمه الله تعالى يميزه بالشفوف والإحسان ، ويجوزّه في فرسان هذا الشأن ، فلما رآه وحلّقات الكبّبل قد عضت بساقيه عض الأسود ، والتوت عليه التواء الأسود السود ، وهو لا يطيق إعمال قَدَم ، ولا يُريقُ دمعاً إلاّ ممزوجاً بدم ، بعدما عهدده فوق منبر وسرير ، ووسط جنّة وحرير ، تخفقُ عليه الألوية ، وتشرق منه الأندية ، وتكفّ الأمطار من راحته ، وتشرفُ الأقدار بحلول ساحته ، ويرتاع الدهرُ من أوامره ونواهيه ، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه ، ندبته بكلّ مقال يلهب الأكباد ، ويثير فيها لوعة الحارث بن عبّاد ، أبداع من أناشيد معبّد ، وأصدع للكبد من مرثي أربد ، أو بكاء ذي الرّمّة بالمربّد ، سلك فيها للاحتفاء طريقاً لاحقاً ، وغدا فيها لذبول الوفاء ساحباً ، فمن ذلك قوله :

انفُضْ يدِيكَ من الدُّنيا وساكنها
وقلْ لعالمها السفليّ قد كَتَمَتْ
طَوَتْ مَظَلَّتْهَا لا بل مدلتها
مَنْ كان بينَ الندى والبأس أنصله
فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
سريرةَ العالم العلويّ أغماتُ
مَنْ لم تزلْ فوقه للعزّ راياتُ
هِنْدِيَّةٌ وعطاياهُ هُنَيْداتُ

١ م : أن ألقى .

٢ ق ودوزي : وتشرق .

رماهُ من حيثُ لم تَسْتَرَهُ سَابِغَةٌ
 أَنْكَرْتُ إِلَّا التَّوَاتُاتِ القِيُودِ بِهِ
 غَلَطْتُ بَيْنَ هَمَائِينَ عَقْدَنَ لَهُ
 وَقَلْتُ هُنَّ ذُؤَابَاتٌ فَلِمَ عَكَسْتُ
 حَسْبَهَا مِنْ قَنَاهُ أَوْ أَعْنَتَهُ
 دَرَوَهُ لَيْثًا فَخَافُوا مِنْهُ عَادِيَةً
 لَوْ كَانَ يُفْرَجُ عَنْهُ بَعْضَ آوَنَةٍ
 بَحْرٌ مَحِيطٌ عَهْدَانُهُ تَجِيءُ لَهُ
 لَهْفِي عَلَى آلِ عِبَادٍ فَإِنَّهُمْ
 رَاحَ الحَيَا وَغَدَا مِنْهُمْ بِمَنْزِلَةٍ
 أَرْضٌ كَأَنَّ عَلَى أَقْطَارِهَا سُرْجًا
 وَفَوْقَ شَاطِئِهَا وَوَادِيهَا رِيَاضٌ رَبِّي
 كَأَنَّ وَادِيهَا سَيْلٌ بَلَبَسَتْهَا
 نَهْرٌ شَرِبْتُ بِعَبْرِيهِ عَلَى صُورٍ
 وَرَبَّمَا كُنْتُ أَسْمُوَ لِلخَلِيجِ بِهِ
 وَبِالعُرُوسَاتِ لَا جَفَّتْ مَنَابِتُهَا

ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات ، وخطه يتردد بين النكبات والعثرات ،
 ونفسه تنقسم بين الأشجان والحسرات ، إلى أن شفته منيته ، وجاءته بها أمينته ،
 فدقن بأغمات ، وأريح من تلك الأزمات :

وَعُطِّلَتِ المَآثِرُ مِنْ حُلَاهَا وَأفْرَدَتِ المَفَاخِرُ مِنْ عُلَاهَا

ورُفعت مكارم الأخلاق ، وكسدت نفائس الأعلاق ، وصار أمره عبرة
 في عصره ، وصاب أئدى عبرة في مصره . وبعد أيام وافى أبو بحر ابن عبد
 الصمد شاعره المتصل به ، المتوصل إلى المنى بسبيه ، فلما كان يوم العيد وانتشر

الناس ضُحِّي ، وظهر كلُّ متوارٍ وضَحًا ، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم ، واختيالهم بزيتهم وحلّاهم ، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخرَّ على تُرْبِه ولثمه :

ملكَ الملوكِ ، أسامعُ فأنادي أم قد عدتُكَ عن السماعِ عوادي
لما نخلتُ منك القصورُ فلم تكنُ فيها كما قد كنتَ في الأعيادِ
قبَلتُ في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذتُ قبرك موضعَ الإنشادِ

وهي قصيدة أطال إنشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ، فأنخسر الناس إليه وانخفلوا ، وبكوا ببيكائه وأعولوا ، وأقاموا أكثرَ نهارهم مُطيفين به طوافَ الحجيج ، مديمين للبكاء والعجيج ، ثمَّ انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، وأفرحوا ماقيهم بفيضِ شؤونهم ، وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ، والأيام لا تدع حياً ، ولا تألو كلَّ نشر طياً ، تطرق رزاياها كل سمع ، وتفرَّق مناياها كل جمع ، وتُصمي كل ذي أمر ونهْي ، وترمي كل مشيد بوهْي ، ومن قبله طوت النعمان ابن الشقيقة ، ولوت مجازه في تلك الحقيقة . انتهى ما قصدنا جلبه من كلام الفتح ممّا يدخل في أخبار المعتمد بن عباد المناسبة لما مرَّ .

وكلام الفتح كله الغاية ، وليس الخبر كالعيان ، ولذا قال بعض من عرّف به : إنه أراد أن يفضح الشعراء الذين ذكروهم في كتبه بنثره ، سماحه الله تعالى . وأخبار المعتمد رحمه الله تعالى تحتل مجلدات ، وآثاره إلى الآن بالغرب مخلدات ، وكان من النادر الغريب قولهم في الدعاء للصلاة على جنازته « الصلاة على الغريب » بعد اتساع ملكه ، وانتظام سلكه ، وحكمه على إشبيلية وأنحائها ، وقرطبة وزهرائها ، وهكذا شأن الدنيا في تدريسها نحو نُدْبَتها وإغرائها . وقد توجه لسان الدين الوزير ابن الخطيب إلى أغمات لزيارة قبر المعتمد رحمه

١ ق : ما طوت .

الله تعالى ، ورأى ذلك من المهمات ، وأنشد على قبره أبياته الشهيرة التي ذكرتها في جملة نظمه الذي هو أرقّ من النسيم ، وأبهج من المحيّا الوسيم .

قلت : وقد زرت أنا قبر المعتمد والرّمَيْكِيّة أم أولاده ، حين كنت بمراكش المحروسة عام عشرة وألف ، وعمّي عليّ أمرُ القبر المذكور ، وسألت عنه من تُظن معرفته له ، حتى هداني إليه شيخ طعن في السن ، وقال لي : هذا قبر ملك^١ ملوك الأندلس ، وقبر حظيته التي كان قلبه بجبها خضاقاً غير مطمئن ، فرأيته في ربوة حسبما وصفه ابن الخطيب رحمه الله تعالى في الأبيات ، وحصلت لي في ذلك المحل خشية وادكار ، وذهبت بي الأفكار ، في ضروب الآيات ، فسبحان من يؤتي ملكه من يشاء لا إله غيره وارث الأرض ومنّ عليها وهو خير الوارثين .

وما أحسن قول الوزير ابن عبدون في مطلع رائيته الشهيرة :

الدهرُ يَفْجَعُ بعد العَيْنِ بالأثرِ فما البكاء على الأشباحِ والصُّورِ

وهو القائل :

يا نائمَ الليلِ في فكرِ الشبابِ أفقٌ فصُبْحُ شيبكِ في أفقِ النهى بادي
غَضَّتْ عِنانَكَ أيدي الدهرِ ناسخةً علماً بجهلٍ وإصلاحاً بإفسادِ
وأسلمتَ للمنايا آلَ مَسْلَمَةٍ وعبّدتَ للرزايا آلَ عَبّادِ
لقد هوتْ منك ، خانتها قوادمها ، بكوكبٍ في سماءِ المجدِ وقَادِ

ومنها :

ومالك كان يحمي^٢ شَوْلَ قَرطبةِ أستغفرُ اللهَ ، لا بل شَوْلَ بغدادِ

١ ق : ملك من .

٢ في الأصول : يحمي وهو خطأ ؛ والقول ناظر إلى المثل « الفحل يحمي شوله مغلولا » .

شَقَّ العلومَ نطافاً والعُلا زَهراً ثُبِينَ ، ما بين روادِ وورادِ
وأين هذه القصيدة في مدحهم من قصيدة الغَضِّ منهم ، وهي قول أبي
الحسن جعفر بن إبراهيم ابن الحاج اللورقي :

تَعَزَّ عن الدنيا ومعروفِ أهلِها إذا عُدِمَ المعروفُ في آلِ عِبَادِ
حَكَلْتُ بهمُ ضيفاً ثلاثةَ أشهرٍ بغيرِ قِرَى ثم ارتحلتُ بلا زادِ
وهذا يدلُّك على أن الشعراء ، لم يَسَلِّمَ من لسانهم مَنْ أحسنَ فضلاً عمَّن
أساء ، من العظماء والرؤساء ، وما أمدح قول أبي محمد غانم فيهم :

ومن الغريبِ غروبُ شمسٍ في الثرى وضياؤها باقٍ على الآفاقِ

وقال في المطمح في حق بني عبَّاد وأوليتهم ما صورته^١ : الوزير أبو القاسم
محمد بن عبَّاد ، هذه بقيةٌ منتماها في لحم ، ومرتماها إلى مفخر ضخم ، وجدَّتهم
المنذر بن ماء السماء ، ومَطَّلَعهم من جو تلك السماء ، وبنو عبَّاد ملوك أنيسَ
بهم الدهر ، وتنفس منهم عن أعقب الزهر ، وعمروا ربع الملك ، وأمروا بالحياة
والهلك ، ومُعْتَضدهم أحد من أقام وأقعد ، وتبوا كاهلَ الإرهاب واقعد ،
وافترش من عريسته ، وافترس من مكاييد فريسته ، وزاحم بعوُد ، وهَدَّ كلَّ
طوَد ، وأخملَ كلَّ ذي زي وشارة ، وختلَ بوحى وإشارة ، ومعتمدهم
كان أجدود الأملاك ، وأحد نبيرات تلك الأفلاك ، وهو القائل ، وقد شغل عن
منادمة خواص دولته بمنادمة العقائل :

لقد حَسَنَتْ إلى ما اعتدتُ من كرمٍ حينَ أرضٍ إلى مستأخِرِ المطرِ
فهاها خِلَعاً أرضي السماحَ بها محفوفةً في أكفِ الشَّرْبِ بالبيدَرِ

١ المطمح : ١٠ .

وهو القائل وقد حَنَّ في طريقه ، إلى فريقه :

أدارَ النوى كم طالَ فيكِ تلذذي وكم عَقَّتني عن دارِ أهيفَ أغيدِ
حلفتُ به لو قد تعرَّضَ دونه كُماةُ الأعادي في النسيجِ المسرِّدِ
لجرَّدتُ للضربِ المهنتَ ، فانقضى مُرادي ، وعزماً مثلَ حدِّ المهنتِ

والقاضي أبو القاسم هذا جدهم ، وبه سَقَرَ مجدهم ، وهو الذي اقتنص لهم الملك النافر ، واختصَّهم منه بالحظ الوافر ، فإنه أخذ الرياسة من أيدي جبابر ، وأضحى من ظلالها أعيان أكابر ، عندما أناخت بها أطماعُهُم ، وأصاحت إليها أسماعهم ، وامتدت إليها من مستحقيها اليد ، وأتلعوا أجياداً زانها الجيِّد ، وفغَرَ عليها فمه حتى هجا بيت العبدى ، وتصدى إليها من تحضَّر وتبَدَّى ، فاقتعد سنامها وغاربها ، وأبعد عنها عَجَمها وأعاربها ، وفاز من الملك بأوفر حصَّة ، وغدت سِمَتُهُ به صفة مختصة ، فلم يمح رسم القضاء ، ولم يتسم بسمه الملك مع ذلك النفوذ والمضاء ، وما زال يحمي حوزته ، ويجلو غرَّتَه ، حتى حوته الرجام ، وخت منه تلك الآجام ، وانتقل الملك إلى ابنه المعتضد ، وحل منه في روض نُمقَ له ونُضد ، ولم يعمر فيه ولم يدم ولاه ، وتسمى بالمعتضد بالله ، وارتمى إلى أبعاد غايات الجود بما أناله وأولاه ، لولا بطش في اقتضاء النفوس كدَّر ذلك المنهل ، وعكر أثناء ذلك صفو العَلِّ والنهل^١ ، وما زال للأرواح قابضاً ، وللوثوب عليها رابضاً ، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر ، وينتصف منهم بالدهاء والمكر ، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه المعتمد ، فاكتحل منه طرفه الرَّمَد ، وأحمد مجده ، وتقلد منه أيَّ بأسٍ ونَجْدَة ، ونال به الحق مناه ، وجرَّ رسنه ، وأقام في الملك ثلاثاً وعشرين سنة ، لم تعدم له فيها حسنة ولا سيرة مستحسنة ، إلى أن غلبَ على سلطانه ، وذُهب به من أوطانه ، فنُقل ،

١ م : وتصدر أثناء ذلك الل والنهل ؛ المطمح : وتصور . . . إلخ .

إلى حيث اعتُقل ، وأقام كذلك إلى أن مات ، ووارثه برية أغمات ، وكان للقاضي
 جده أدب غصّ ، ومذهب مبيضّ ، ونظم يرتجله كل حين ، ويبيعهه أعطر من
 الرياحين ، فمن ذلك قوله يصف النيلوفر :

يا ناظرين لذا النيلوفرِ البهجِ وطيبِ مخبره في الفسوحِ والأرجِ
 كأنّه جامٌ دُرٌّ في تَأَلَّقِهِ قد أحكموا وسطه فصّاً من السبجِ
 انتهى المقصود منه .

٦٧١ - [تراجم منقولة عن الفتح]

[١ - ترجمة ابن النبي من المطمح]

وهو - أعني الفتح - يشيد قصور الشرف إذا مدح ، ويهدم معاقلها إذا
 هجا وقدح .

ومن أغراضه قوله في « المطمح » في حق الأديب أبي جعفر ابن النبي ١ :
 رافع رايات الفريض ، وصاحب آيات التصريح والتعريض ، أقام شرائعه ،
 وأظهر بدائعه ، إذا نظم أزرى بالعقود ، وأتى بأحسن من رقم البرود ، وكان
 أليف غلمان ، وحليف كفر لا إيمان ، ما نطق متشرعاً ، ولا رمق متورعاً ،
 ولا اعتقد حشراً ، ولا صدق بعثاً ولا نشرأ ، وربما تنسك مجوناً وفتكاً ، وتمسك
 باسم التقى وقد هتكه هتكاً ، لا يبالي كيف ذهب ، ولا بما تمذهب ، وكانت
 له أهاجيُّ جرّع بها صاباً ، ودرعَ منها أوصاباً ، وقد أثبت له ما يرتشف ريقاً ،
 ويشرب تحقيقاً ، فمن ذلك قوله يتغزل :

من لي بغرّةِ فاتنٍ يخالُ في حللِ الجمالِ إذا بدا وجليه
 لو شمت في وضحِ النهارِ شعاعها ما عاد جنحُ الليلِ بعدَ مضيه

١ المطمح : ٩١ وله ترجمة في القلائد : ٢٩٨ ؛ وانظر النفع ٣ : ٤٨٧ .

شرقت لآلي الحسن حتى خلتصت
 في صفحته من الجمال أزهراً
 ذهبية في الخلد من فضيته
 غذيت بوسمي الحيا ووليه
 من سحر عينيه ، حسام سميه
 لقتل محبه

وله فيه :

كيف لا يزداد قلبي
 وإذا قلت علي
 هو كالغصن وكالبند
 أشرق البدر كمالا
 إن من رام سلوي
 لست أسلو عن هواه
 قل لمن قصر فيه
 دون أن تدرك هذا

من جوى الشوق خيالاً
 بهر الناس جمالاً
 ر قواماً واعتدالاً
 وانثى الغصن اختياراً
 عنه قد رام محالاً
 كان رشداً أو ضلالاً
 عدل نفسي أو أطلا
 تسلب الأفق الهلالاً

وكنت بميورة وقد حلها متسماً بالعبادة ، وهو أسرى إلى الفجور من خيال
 أبي عبادة^١ ، وقد لبس أسمالاً ، ولبس منه أقوالاً وأفعالاً ، سجوده هجود ،
 وإقراره بالله جحود ، وكانت له رابطة لم يكن للوازها مرتبطاً ، ولا بسكانها^٢
 مغتبطاً ، سماها بالعقيق وسمى فتى كان يتعشقه بالحيمي ، وكان لا يتصرف إلا
 في صفاته ، ولا يقف إلا بعرفاته ، ولا يؤرقه إلا جواه ، ولا يشوقه^٣ إلا
 هواه ، فإذا بأحد دعاة حبيبه ، ورواة تشبيهه ، قال له : كنت البارحة بحماه ،
 وذكر له خبراً ورى به غني وعماه ، فقال :

١ أبو عبادة البحري ذكره لإكثاره من وصف طيف الخيال وطروقه .
 ٢ م : بسكانها .
 ٣ دوزي : يشوقه .

تنفّسَ بالحمى مطلولُ أرضٍ ١ فأودع نَشْرَهُ نَشْرًا شمالا
فصبحتِ العيونُ إليَّ كسلى تجرّ فيهِ أرداناً خضالا
أقولُ وقد شممتُ الترابَ مسكاً بنفّحتِها يميناُ أو شمالا
نسيمٌ جاء يببعتُ منكَ طيباً ويشكو من محبتكَ اعتلالا

ولما تقرر عند ناصر الدولة من أمره ما تقرر ، وتردد على سمعه انتهاكُه وتكرره ، أخرجه من بلده ونفاه ، وطمس رسم فسقهِ وعفاه ، فأقلع إلى المشرق وهو جار ، فلما صار من ميورقة على ثلاثة مجار ٢ ، نشأت له ريح صرفته عن وجهته ، إلى فنقد مهجته ، فلما لحق بميورقة أراد ناصر الدولة إمامته ، وأخذ ثار الدين منه وإراحتة ، ثم آثر صفحه ، وأحمد ذلك الجمر ولفّحه ، وأقام أياماً ينتظر ريحاً عليها تزجيه ، ويستهدبها لتخلصه وتنجيه ، وفي أثناء بلوته ، لم يتجاسر أحد على إتيانه من إخوته ، فقال يخاطبهم :

أحببتنا الألى عتبوا علينا فأقصرنا وقد أذفَ الوداعُ
لقد كنتم لنا جدلاً وأنساً فهل في العيشِ بعدكمُ انتفاعُ؟
أقولُ وقد صدرنا بعدَ يومٍ أشوقُ بالسفينةِ أم نزعُ؟
إذا طارتُ بنا حامتُ عليكم كأنَّ قلوبنا فيها شرعُ

وله يتغزل :

بني العربِ الصميمِ ألا رعيتمُ ماثركمُ بأثارِ السماحِ
رفعتمُ ناركمُ فعشا إليها بوهنِ فارسُ الحيِّ الوقاحِ
فهل في القعبِ فضلٌ تنضحوهُ بهِ من محضِ ألبانِ اللقاحِ
لعلَّ الرّسلَ شابتَهُ الثنايا بشهدِ من ندى نورِ الأفاحِ

١ م : روض .

٢ المطمح : جوار .

وله أيضاً :

وكأنما رشأ الحمى لما بدا لك في مضلعة الحديد المعلم
غصّب الغمام قيسيه فأراكها من حُسنِ معطفه قويمِ الأسهمِ

وله أيضاً :

نظرتُ إليه فاتقاني بمقلةٍ تردُّ إلى نحري صدورَ رماحِ
حميتَ الجفونَ النومَ يارشأ الحمى وأظلمتَ أيامي وأنتَ صباحي

وقال :

قالوا تصيبُ طيورَ الجوّ أسهمهُ إذا رماها فقلنا عندنا الخبرُ
تعلمتُ قوسها من قوسِ حاجبه وأيدَ السهمَ من الحَاظه الحَوْرُ
يروحُ في بردةٍ كالتنفسِ حالكةٍ كما أضاءَ بجُنْحِ الليلةِ القمرُ
وربما راق في خضراءِ مورقةٍ كما تفتَحُ في أوراقهِ الزَّهرُ

[٢ - ترجمة ابن لبال من المطمح]

وقال في ترجمة أبي الحسن ابن لبال^١ : شاعر سمح ، متقلد بالإحسان متشع ، أمّ الملوك والرؤساء ، ويمّم تلك العزّة القعساء ، فانتجع مواقع خيرهم ، واقتطع ما شاء من ميسرهم ، وتمادت أيامه إلى هذا الأوان ، فجالت به في ميدان الهوان ، فكسد نفاقه ، وارتدّت آفاقه ، وتوالى عليه حرمانه وإخفاقه ، وأدركته وقد خبنته سنونه ، وانتظرتّه متّونه ، ومحاسنه كعهدها في الانتقاد ، وبُعدها من الانتقاد ، وقد أثبتُّ منها ما يعذب جنّي وقطافاً ، ويستعذب استنزالاً واستلطافاً ، فمن ذلك قوله يستنجد الأمير الأجلّ أبا إسحاق ابن أمير المسلمين :

١ المطمح : ٩٣ وكتب فيه خطأ « ابن لسان » . وفي ق م أحياناً : ابن لبان .

قلْ لِلأَمِيرِ ابنِ الأَمِيرِ بلِ الَّذِي
 والمَجْنُونِ بِالزُّرْقِ وَهِيَ بِنَفْسِجُ
 جَاءتَكَ آمَالُ العَفَاةِ ظَوَامِئاً
 وانثُرْ عَلَى المَدَاحِ سَيْبَكَ ، إِنْهُمْ
 فَالنَّاسُ إِنْ ظَلَمُوا فَأَنْتَ هُوَ الحَمِي

أبدا به في المكرمات وفي الندى
 وَرَدَ الجِرَاحِ مَضَعَةً وَمَنْضَةً
 فَاجْعَلْ لَهَا مِنْ مَاءِ جُودِكَ مَوْرِدَا
 نثروا المدائح لؤلؤاً وزبرجدا
 والناس إن ضلوا فأنت هو الهدى

أخبرني وزير السلطان أن هذه القطعة لما ارتفعت ، اعتنت بجملة الشعراء
 وشَفَعَتْ ، فَأُنْجِزَ لَهُمُ المَوْعُودُ ، وَأُورِقَ لَهُمُ ذَلِكَ العُودُ ، وَكثُرَ اللُغْظُ فِي تَعْظِيمِهَا ،
 واستجادة نظيمها ، وحصل له بها ذكر ، وانصقل له بسببها فكر .

وله من قطعة يصف بها سيفاً :

كُلُّ نَهْرٍ تَوَقَّدَتْ شَفَرَتَاهُ
 فَهُوَ مَاءٌ قَدْ رُكِّبَتْ فَوْقَ نَارٍ

كاتقاد الشهاب في الظلماء
 أو كنارٍ قد ركبت فوق ماء

وكتب إليّ معزياً عن والدتي :

عَلَى مِثْلِهِ مِنْ مِصَابٍ وَجَبَ
 وَقَلْبٍ فَرُوقٍ وَلَبِّ حَقُوقٍ
 فَقَدْ خَشَعَتْ لِلتَّقَى هَضْبَةٌ
 مِنْ الجَاعِلَاتِ مَحَارِيبِهَا
 مِنْ القَائِمَاتِ بِظِلِّ الدُّجَى
 فَكَمْ رَكَعَتْ لِإِثْرِهَا فِي الدُّجَى
 وَكَمْ سَكَبَتْ فِي أَوَانِ السُّجُودِ
 وَقَدْ خَلَقَتْ وَلَدًا بِاسْلَافٍ

على من أصيب به المنتجب
 ونفس تشب ، وهم نصب
 ذؤابتها في صميم العرب
 هوادجها أبداً والقتب
 ولا من تسامر إلا الشهب
 تناجي بها ربها من كشب
 مدامع كالغيث لما انسكب
 فصيحاً إذا ما قرا أو خطب

يفلُّ السيفَ بأقلامِهِ ويكسرُ صُمَّ القنا بالقَصَبِ

وكان القائد أبو عمرو عثمان بن يحيى بن إبراهيم أجلّ من جال في خلكد ، واستطال على جلكد ، رشاً يحيى باحتشامه ، ويسترد البدر بلثامه ، ويزري بالغصن تشنّيه ، ويشمر الحسن لو دنت قُطوفه لمجتنيه ، مع لودعية تحالها جريالاً ، وسجية يختال فيها الفضل اختيالاً ، وكان قد بعد عن أنسنا بمخص ، وانتضى من تلك القُصم ، وكان بغير الأشبونة فسده ، ولم يفرج لنا من الأنس بعده ما يسدّ مسده ، إلى أن صدر ، فأسرع إلينا وابتدر ، فالتقينا وبتنا ليلة نام عنها الدهر وغفّل ، وقام لنا بما شئنا فيها وتكفل ، فبينا نحن نفضّ ختامها ، ونفضّ عنّا غُبارَ الوحشة وقتامها ، إذا أنا ببن لبال هذا وقد دخل إذنه علينا فأمرناه بالنزول والتقيناه بترحيب ، وأنزلناه بمكان من المسرة رحيب ، وسقيناه صغاراً وكباراً ، وأرياه إعظاماً وإكباراً ، فلما شرب ، طرب ، وكلما كرعها ، التحف السلوة وتدرعها ، وما زال يشرب أقداحاً ، وينشد فينا أمداحاً ، ويفدي بنفسه ، ويستهدي الاستزادة من أنسه ، فهتكنا الظلام بما أهدها من البديع ، واجتلينا محاسنه كالصديع ، وانفصلت ليلته عن أمّ مسرة ، وأعم مبرة ، وارتحل عثمان أعزه الله إلى ثغره ، وأقام به برهة من دهره ، فمشيت بها إليه مجدداً عهداً ، ومتضلعاً من مؤانسته شهداً ، فكتب ابن لبال هذه القطعة من القصيدة يذهب إلى شكره ، ويجتهد في تجديده ذكره :

ما شامَ إنسانُ إنسانَ كعثمانِ ولا كبعيته من حُسنِ إحسانِ
بدرُ السيادةِ يبدو في مطالعهِ من المحاسنِ محفوفاً بشهبانِ
له التمامُ وما بالأفقِ من قمرٍ متممٍ دونَ أن يُرمى بنقصانِ
به الشيبةُ تزهى من نضارتها كما تساقطَ ظلُّ فوق بستانِ

١ الصديع : الصبح .

معصفرُ الحُسنِ للأبصارِ ناصعُهُ
نبتتُ عنه بأنباءِ إذا نَفَحَتْ
قامتُ عليه براهينُ تصدَّقها
قد زادها ابنُ عبيدِ الله من وَضَحِ
باللهِ بَلَّغُهُ تسليمي إذا بلغتُ
وليتَ أيّ لو شاهدتُ أنسكما
فألَفْتُ الكَلِمَ المَثورَ بينكما
للهِ درُّكٌ يا ذا الخطتينِ لقد
كلا كما البحرُ في جودٍ وفي كرمِ
إن كان فارسَ هيجاءٍ ومعرِكِ
فاذكرُ أبا نصرٍ المعمورَ مَنْزِلُهُ
قصائدًا لأخي ودِّ وإن نَزَحَتْ

كَأَنَّهُ فِضَّةٌ شَيْبَتُ بِعَقِيَانِ
تَعَطَّلَتْ نَفْحَاتُ الْمَسْكِ وَالْبَانِ
كَالشَّكْلِ قَامَ عَلَيْهِ كُلُّ بَرَهَانِ
مَا زَادَتْ الشَّمْسُ نُورَ الْفَجْرِ لِلرَّانِي
تِلْكَ الرِّكَابُ وَعَجَلٌ غَيْرَ لِيَانِ
عَلَى كَوْوسٍ وَطَاسَاتٍ وَكِيْزَانِ
كَأَنَّمَا هُوَ مِنْ دُرٍّ وَمَرْجَانِ
خَطَطْتَ بِالْمَدْحِ فِيهِ كُلَّ دِيْوَانِ
أَوِ الْغَمَامَةِ تُسْقِي كُلَّ ظَلْمَانِ
فَأَنْتَ فَارِسُ إِفْصَاحٍ وَتَبْيَانِ
بِالرَّفْدِ مَا شِئْتَ مِنْ مِثْنَى وَوَحْدَانِ
بِكَ الرِّكَابُ إِلَى أَقْصَى خِرَاسَانِ

[٣ - ترجمة عبد المعطي من المطمح]

وقال في ترجمة الأديب أبي بكر عبد المعطي^١ : بيت شعر ونباهة ، وأبو بكر ممن إنتهى خاطره للبدائع أي انتباهة ، وله أدب باهر ، ونظم كما سَقَرَتْ أزاهر ، وقد أثبت له جمالا ، يبلغ آمالا ، فمن ذلك قوله ، وقد اجتمعنا في ليلة لم يضرب لها وعد ، ولم يعزُب عنها سعد ، وهو قَعْدِي ، قد شبَّ عن طَوِّق الأُنس في النَّدي ، وما قال خالي عمرو ولا عدي^٢ ، والكهولة قد قبضته ، وأقعدته عن ذلك وما أنهضته :

١ المطمح : ٩٦ .

٢ في الأصول والمطمح : وما قال خلا عمرو ولا عدا ؛ والإشارة هنا إلى المثل « شب عمرو عن الطوق » وهو عمرو بن عدي ، الذي ثار بلذيمة .

إمامُ النثرِ والمنظومِ فَتَنَحُّ جميعُ الناسِ ليلٌ وهو صَبِحُ
 له قلمٌ جليلٌ لا يجارى يقرُّ بفضله سيفٌ ورمحُ
 يباري المزنَ ما سَحَّتْ سماحاً وإن سَحَّتْ فليسَ لديه شُحُّ

وكان مرتسماً في عسكر قُرطبة ، وكان ابن سراج يقوم له بكل ما يبغي
 تطلُّبه ، خيفة من لسانه ، ومحافظة على إحسانه ، ولما خرج إلى إقليش خرج معه ،
 وجعل يساير من شيعته ، فلما حصلوا بفحص سرادق ، وهو موضع توديع
 المفارق للمفارق ، قرب منه أبو الحسين ابن سراج لوداعه ، وأنشده في تفرق
 الشمل وانصداعه :

هُمُ رَحَلُوا عَنَّا لِأَمْرٍ لَهِمْ عَنَّا فَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ حَنَّا
 وَمَا رَحَلُوا حَتَّى اسْتَقَادُوا نَفُوسَنَا كَأَنَّهُمْ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا مِنَّا
 فَيَا سَاكِنِي نَجِدْ لِتَبَعَدِ دَارِكُمْ ظَنَّنَا بِكُمْ ظَنَّنَا فَأَخْلَقْتُمُ الظَّنَّا
 غَدَرْتُمْ وَلَمْ أَغْدُرْ ، وَخَنْتُمْ وَلَمْ أَخْنُ وَقَلَمَ وَلَمْ أَعْتَبْ ، وَجَرْتُمْ وَمَا جَرْنَا
 وَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا تَخُونُونِ فِي الْهُوَى فَقَدْ ، وَذَمَامِ الْحَبِّ ، خَنْتُمْ وَمَا خُنْنَا
 تُرَى تَجْمَعُ الْأَيَّامُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَيَجْمَعُنَا دَهْرٌ نَعُودُ كَمَا كُنَّا

فلما استتم إنشاده لحق بالسلطان واعتذر إليه بمريض خلفه ، وهو يخاف
 تلفه ، فأذن له بالانصراف ، وكتب إلى أبي الحسين ابن سراج :

أَمَا وَالْهُدَايَا مَا رَحَلْنَا وَلَا حُلْنَا وَإِنْ عَنَّا مِنْ دُونَ التَّرْحَلِ مَا عَنَّا
 تَرَكْنَا ثَوَابَ الْفَضْلِ وَالْعَزَّ لِلْعَزَى ١ عَلَى مَضْضٍ مِنَّا وَعُدْنَا كَمَا كُنَّا
 وَلَيْسَ لَنَا عَنْكُمْ عَلَى الْبَيْنِ سَلُوةٌ ٢ وَإِنْ كَانَ أَنْتُمْ عِنْدَكُمْ سَلُوةٌ عَنَّا

وجمعتنا عشية بربض الزجالي ٢ بقرطبة ، ومعنا لمة من الإخوان وهو في

١ كذا في م ق وفي المطح : للعرى ؛ وفي التجارية : تركنا ثواب الغزو والقصد للعدا .

٢ م : الرحال .

جملتهم ، مناهض لأعيانهم وجليتهم ، بفضل أدبه ، وكثرة سُحْبِهِ ، فجعل
يزنجل ويروي ، وينشر محاسن الآداب ويطوي ، ويمتحن بتلك الأخبار ،
ويقطعنا منها جانب اعتبار ، ويطلعنا على إقبال الأيام وعلى الإدبار ، ثم قال :

أيا ابنَ عميدِ الله يا ابنَ الأكارِمِ لقد بَحَلَّتْ يَمناكَ صوبَ الغمائمِ
لك القلمُ الأعلى الذي عطلَ القنا وقلَّ ظُبَاتِ المَهفاتِ الصوارِمِ
وأخلاقكَ الزُّهُرُ الأزاهرُ بالرُّبى ترفُّ بشؤبِوبِ الغيوثِ السِواجِمِ
بقيتَ لتشييدِ المكارِمِ والعلَى تظاهرها بالسالفِ المتقادمِ

واجتمع عند أبيه لُمةٌ من أهل الأدب ، وذوي المنازل والرتب ، في عشية
غيم أعقب مطراً ، وخط فيها البرق أسطراً ، والبرَدُ يتساقط كدرٍ من نظام ،
ويترأى كثنائيا غادة ذات ابتسام ، وهو غلام ما نضا بُردُ شبابه ، ولا انتضى
مُرَهَفَ آدابه ، فقال معرضاً بهم ، ومتعرضاً لتحقق أديهم :

كأنَّ الهِواءَ غديرٌ جَمَدٌ بحَيْثُ البروقُ تُذِيبُ البرَدُ
خيوطٌ وقد عُقِدَت في الهِواءِ وراحةٌ رِيحٍ تحُلُّ العُقَدُ

وشرب في دار ابن الأعلم في يوم لم يَرَ الدهر فيه إساءة ، وليل نَسَخَ
نورُ أنسه مَساءه ، ومعهم جملة من الشعراء ، وجماعة من الوزراء ، منهم
أبناء القَبْطُرنة فوقع بينهم عتاب وتَعَدُّال ، وامتهان في ميدان المشاجرة وابتدال ،
آل به إلى تجريد السيف ، وتكدير ما صفا بذلك الحَيْف ، فسكنوه بالاستتزال ،
وثنَّوه عن ذلك التزال .

[٤ - ترجمة ابن بقي من المطمح والقلائد]

وقال في المطمح في حق أبي بكر يحيى بن بقي القرطبي صاحب الموشحات
البديعة : كان نبيل السيرة والنظام ، كثير الارتباط في سلوكه والانظام ، أحرز
خصالاً ، وطرزَ بمحاسنه بُكْرًا وأصلاً ، وجرى في ميدان الإحسان إلى أبعده

١ م : الزواهر .

أمّد ، وبنى من المعارف أثبت عمّد ، إلاّ أن الأيام حرّمته ، وقطعت جبل
 رعايته وصرّمته ، فلم تم له وطراً ، ولم تُسجّم عليه الحظوة مطراً ، ولا
 سوّغت من الحرمة نصيباً ، ولا أنزلته مرعى خصيباً ، فصار راكب سهوات ،
 وقاطع فلوات ، لا يستقر يوماً ، ولا يستحسن نوماً ، مع توهم لا يُظفره
 بأمان ، وتقلّب ذهن كالزمان ، إلاّ أن يحيى بن علي بن القاسم نزعه من
 ذلك الطيش ، وأقطعه جانباً من العيش ، وأرقاه إلى سمائه ، وسقاه صيب
 نعمائه ، وفيّاه ظلاله ، وبوّاه أثر النعمة بجوس خلاله ، فصرّف به أقواله ،
 وشرّف بعواقبه فعاله ، وأفرده منها بأنفس دُرّ ، وقصده منها بقصائد غرّ ؛
 انتهى المقصود جكّبته من ترجمته في المطمح .

وقال في حقه في القلائد : رافع راية القريض ، وصاحب آية التصريح فيه
 والتعريض ، أقام شرائعه ، وأظهر روائعه ، وصار عصيّه طائعه ، إذا نظم
 زرى بنظم العقود ، وأتى بأحسن من رقم البرود ، وطقا عليه حيرمانه ،
 فما صفا له زمانه ، انتهى .

وابن بقيّ المذكور هو القائل :

بأبي غزال غازلتُهُ مُقلّتي بين العذّيبِ وبين شطّيّ بارقِ

الآبيات المذكورة في غير هذا الموضع .

ومن موشحاته قوله :

غلب الشوقُ بقلبي فاشتكى ألمَ الوجدِ فلبّبتُ أدْمعي

أيّها الناسُ فؤادي شغيفُ

وهو من بنّي الهوى لا يُنصفُ

كم أداريه ودَمعي يكيفُ

أيّها الشادنُ منْ علّمكا بهامِ اللحظِ قتلِ السبعِ

بدرُ تيمِّ تحت ليلٍ أغطشِ
طالعٌ في غصنِ بانٍ منتشي
أهيفُ القَدِّ بجَدِّ أرقشِ

ساحِرُ الطَّرْفِ وكمْ ذا فتكا بقلوبِ الأسدِ بينَ الأضلعِ

أي ريمٍ رمتهُ فاجتنبنا
وانثى يهتزُّ من سُكْرِ الصِّبَا
كفضيبِ هزَّةِ ريحِ الصِّبَا

قلتُ هبَّ لي يا حبيبي وصدِّكا واطرحْ أسبابَ هجري ودعِ

قال خدِّي زهره مُدٌّ فوقا
جرَدَتْ عَيْنَايَ سَيْفًا مُرَهَقَا
حذراً منه بأن لا يُقَطِّقا

إنَّ مَنْ رَامَ جَنَاهُ هَلَكَا فَأزلْ عَنكَ عِلَالَ الطَّمَعِ

ذاب قلبي في هوى ظبي غريرٍ
وجههُ في الدَّجَنِ صبحٌ مستنيرٍ
وفؤادي بين كفيهِ أسيرٍ

لم أجدُ للصبرِ عنه مسلكا فانتصاري بانسكابِ الأدمعِ

وقال رحمه الله تعالى :

خُذْ حَديثَ الشوقِ عن نفسي وعن الدَّمْعِ الذي هَمَعَا

ما ترى شوقي وقد وقَّدا

وَهَمَى دَمْعِي وَاطْرَدَا
وَاعْتَدَى قَلْبِي عَلَيْكَ سُدَى

أَهٍ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ قَبَسٍ بَيْنَ طَرْفِي وَالْحِشَا جَمْعًا

بِأَبِي رَيْمٍ إِذَا سَفَرَا
أَطْلَعْتُ أَرْزَارُهُ قَمَرَا
فَاحْذَرُوهُ كَلَّمَا نَظَرَا

فَبِالْحَاظِ الْجَفُونَ قِيسِي أَنَا مِنْهَا بَعْضٌ مَنْ صُرِعَا

أُرْتَضِيهِ جَارٍ أَوْ عَدَلَا
قَدْ خَلَعْتُ الْعُدْرَةَ وَالْعَدَلَا
إِنَّمَا شَوْقِي إِلَيْهِ جَلَا

كَمْ وَكَمْ أَشْكُو إِلَى اللَّعَسِ ظَمْتِي لَوْ أَنَّهُ نَقَعَا

صَالَ عَبْدُ اللَّهِ بِالْحَوَرِ
وَبَطَّرَفٍ فَاتِرِ النَّظَرِ
حُكْمُهُ فِي أَنْفُسِ الْبَشَرِ

مِثْلُ حُكْمِ الصَّبْحِ فِي الْغَلَسِ إِنْ تَجَلَّى نُورُهُ صَدَعَا

شَبَّهَتْهُ بِالرَّشَا الْأَمَمُ
فَلَعْمَرِي لِيَهُمْ ظَلَمُوا
فَتَعَتَّى مَنْ بِهِ السَّقَمُ

أَيْنَ ظِيُّ الْقَفْرِ وَالْكُنُوسِ مِنْ غَزَالٍ فِي الْحِشَا رَتَعَا

انتهى .

وله أيضاً :

ما ردّني لابسٌ ثوبَ الضنى الدارسُ إلاّ قمرٌ
في غصنٍ مائسٍ شعاعه عاكسٌ ضوء البصرِ
أسيرٌ كالسيّلِ إليّهِ لا باعُ إلا ودادي
والطيفُ في خيلِ هـنَّ إسرَاعُ مع الرقادِ
يا كوكبَ الليلِ إن كنتَ ترتاعُ فلم فؤادي
كالأسدِ العابسِ لكنّه خانسٌ من الحورِ

ومن نظمه قصيدة مدح يحيى بن علي بن القاسم المذكور بها ، منها في المديح قوله :

نوران لَيْسَا يُحْجبانِ عَنِ الوري كَرَمُ الطباعِ ولا جمالُ المنظرِ
وكلاهُما جُمعا ليحيى فليدعُ كتمانَ نورِ علائهِ المشهرِ
في كلِّ أفقٍ من جمالِ ثنائهِ عَرَفُ يزيدُ على دخانِ المجرِ
ردُّ في شمائليهِ وردُّ في جودهِ بين الحديقةِ والغمامِ المطرِ
بدرٌ عليه من الوقارِ سكينَةٌ فيها لقيطةٌ كلِّ ليثٍ مخدرِ
مثلُ الحسامِ إذا انطوى في غمدهِ ألقى المهابةَ في نفوسِ الحُضَرِ
أربى على المزنِ المَلِثِ لأنّه أعطى كما أعطى ولم يستعبرِ
ومنها :

أقبلتُ مرتاداً لجودك إنّه صوبُ الغمامةِ بل زلالُ الكوثرِ
ورأيتُ وجهَ النُججِ عندك أبيضاً فركبتُ نحوك كلِّ لُججٍ أخضرِ
وهي طويلة .

[استطراد]

وقوله « أربى على المزن المثلث - البيت » هو معنى تلاعب الشعراء بكرته ،

وأورده كلٌ منهم على حسب مقدرته ، فقال بعض :

من قاسَ جَدَّوَاكَ بِالْغَمَامِ فَمَا أَنْصَفَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ
أَنْتَ إِذَا جُدْتَ ضَاحِكٌ أَبْدَأُ وَهُوَ إِذَا جَادَ دَامِعُ الْعَيْنِ

وقال آخر :

ما نَوَالُ الْغَمَامِ يَوْمَ رَبِيعٍ كَنَوَالِ الْأَمِيرِ يَوْمَ سَخَاءِ
فَنَوَالُ الْأَمِيرِ بَدْرَةٌ عَيْنٍ وَنَوَالُ الْغَمَامِ قَطْرَةٌ مَاءِ

وهما من شواهد البدع .

وقال أبو عبد الله الحوضي التلمساني في قصيدة مدح بها سلطان تلمسان أبا عبد الله الزباني :

أَصْبَحَ الْمَزْنُ مِنْ عَطَائِكَ يَحْكِي يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِلْأَنَامِ عَطَاءِ
كَيْفَ يُدْعَى لَكَ الْغَمَامُ شَبِيهَاً وَلَقَدْ فَقَّتَهُ سَنًا وَسَنَاءِ
أَنْتَ تَعْطِي إِذَا تَقْصَّرُ مَالاً وَهُوَ يَعْطِي إِذَا تَطَوَّلَ مَاءِ

رجع - وذكر العماد في الخريدة ابن بقي المذكور ، وأورد له جملة من المقطعات ، ومحاسنه كثيرة رحمه الله تعالى ، وبقي على وزن عليّ .

رجع إلى بني عبّاد رحمهم الله تعالى :

وقال ابن اللبّانة في بني عبّاد ما نصه : بماذا أصفهم وأحليهم ، وأي منقبة من الجلالة أوليهم ، فهم القوم الذين تجل مناقبهم عن العد والإحصاء ، ولا يتعرض لها بالاستيفاء والاستقصاء ، ملوك زينت بهم الدنيا وتحلّت ، وترقت حيث شاءت وحلّت ، إن ذكرت الحروب فعليهم يوقف منها الخبر اليقين ، أو عدّت المآثر فهم في ذلك في درجة السابقين ، أصبح الملك بهم مُشرق القسام ، والأيام

ذات بهجة وابتسام ، حتى أناخ بهم الحمام ، وعطل من محاسنهم الوراء والأمام ،
 فنقل إلى العدم وجودهم ، ولم يرع بأسهم وجودهم ، وكل ملك آدمي فمفقود ،
 ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴾ (هود : ١٠٤) ، فأول ناشئة ملكهم ،
 ومحصل الأمر تحت ملكهم ، عظيمهم الأكبر ، وسابقة شرفهم الأجل الأشهر ،
 وزينهم الذي يعد في الفضائل بالوسطى والخنصر ، محمد بن عباد ، ويكنى أبا
 القاسم ، واسم والده إسماعيل ، ومن شعره قوله :

يا حَبْدًا الياسمينُ إذْ يزهرُ فوقَ غصونٍ رطبيةٍ نُضِرَّ
 قد امتطى للجبالِ ذروتها فوقَ بساطٍ من سندسٍ أخضرٍ
 كأنه والعيونُ ترمقُهُ زمردٌ في حلاله جوهراً

ولنذكر كلام ابن البتانة وغيره في حقهم فنقول : وصف المعتضد رحمه
 الله تعالى بما صورته^١ : المعتضد أبو عمرو عباد رحمه الله تعالى ، لم تخل أيامه في
 أعدائه من تقييد قدام ، ولا عطل سيفه من قبض روح وسفك دم ، حتى لقد
 كانت في باب داره حديقة لا تثمر إلا رؤوساً ، ولا تنبت إلا رئيساً ومرؤوساً ،
 فكان نظره إليها أشهى مقترحاته ، وفي التلفت إليها استعمل جلُّ بكره وروحاته ،
 فبكى وأرق ، وشتت وفرق ، ولقد حكى عنه من أوصاف التجبر ما ينبغي أن
 تصان عنه الأسماع ، ولا يتعرض له بتصريح ولا إلماع ، ومن نظمه عفا الله عنه :

أنتك أمُّ الحسنِ تشدو بصوتِ حسنِ
 تمدُّ في ألحانها من الغناء المدني
 تقودُ مني ساكناً كأنني في رسنِ
 أوراقها أستارها إذا شدت في قننِ

وقوله :

شربنا وجفن الليل يغسل كحلته بماء صباح ، والنسيم رقيق

١ الذخيرة (٢ : ٩ - ١٠) .

معتقةً كالتبرِ أمّا نجارُها فضخمٌ ، وأمّا جسمها فرقيقٌ
وقوله :

قد وجدنا الحبيبَ يصفني ودادَه° وحَمِيدُنا ضَمِيرَه° واعتقادَه°
قَرَّبَ الحِبُّ من فؤادِ محبِّ لا يرى هَجْرَه ولا إبعادَه°
وقال عند حصول رُنْدَة في ملكه :

لقد حُصِّلْتُ يا رُنْدَة° فصرت لملكنا عُدَّة°
أفادتناكِ أرماحٌ وأسيافٌ لها حِدَة°

وقال رحمه الله تعالى :

اشربْ على وجهِ الصباحِ وانظر إلى نَوْرِ الأَواحِ
واعلمْ بأنكَ جاهلٌ ما لم تقلْ بالاصطباحِ
فالدَّهْرُ شيءٌ باردٌ ما لم تُسَخِّنْهُ بِراحِ

٦٧٢ - [ابن جاح والمعتضد]

ومن حكايات المعتضد عبّاد ما ذكره غير واحد أن ابن جاح الشاعر ورد
على حضرته ، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء ، فسأله ، فقال : إني شاعر ،
فقالوا : أنشدنا من شعرك ، فقال :

إني قصدتُ إليكَ يا عبّادي قصدَ القَلْبِ بِالجَري للوادي

فضحكوا منه وازدَرَوْه ، فقال بعض عقلائهم : دعوه فإن هذا شاعر ،
وما يبعد أن يدخل مع الشعراء ويندرج في سلكهم ، فلم يبالوا بكلام الرجل ،
وتنادروا على المذكور ، فبقي معهم ، وكان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص

لا يدخل فيه على الملك غيرهم ، وربما كان يوم الاثنين ، فقال بعض لبعض : هذه شنة بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا ، ويجتريء على الدخول معنا ، فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان ، وقد رأوا أن يقول مثل ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم ، ويكون ذلك حسماً لعله إقدام مثله عليهم . فلما كان اليوم المذكور ، وقعد السلطان في مجلسه ، ونصب الكرسي لهم ، رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلم في ذلك اليوم ، فأمر بذلك ، فصعد الكرسي ، وانتظروا أن ينشد مثل الشعر المضحك المتقدم ، فقال :

قَطَعْتَ يا يومَ النوى أكبادي وحرمتَ عن عيني لذيذَ رُقادي
وتركتني أرعى النجومَ مسهداً والنارُ تُضرمُ في صميمِ فؤادي
فكأنما آلى الظلامُ أليّةً لا ينجلي إلاّ إلى ميعادِ
يا بينَ بينَ أينَ تقادُ النوى إبلُ الذينَ تحمّلوا بسُعادِ
ولربّ خرقَ قدّ قطعُ نياطه والليلُ يرقلُ في ثيابِ حدادِ
بشملةٍ حرّفَ كأنّ ذميلةً سُرحُ الرياحِ وكلُّ برقِ غادي
والنجمُ يحدوها وقدّ ناديتها يا ناقتي عوجي على عبّادِ
ملكٌ إذا ما أضرمتُ نارُ الوغى وتلاقَتِ الأجنادُ بالأجنادِ
فترى الجسومَ بلا رؤوسٍ تنثني وترى الرؤوسَ لقيّ بلا أجسادِ
يا أيها الملكُ المؤمّلُ والذي قدّمأ سما شرفاً على الأندادِ
إنّ القريضَ لكاسدٌ في أرضنا وله هنا سوقٌ بغيرِ كسادِ
فجلبتُ من شعري إليك قوافياً يفنى الزمانُ وذكرها بتمادي
من شاعرٍ لم يضطلعُ أدباً ولا خطّتُ يدهُ صحيفةً بمدادِ

فقال له الملك : أنت ابن جاخ ؟ فقال : نعم ، فقال : اجلس فقد وليتك رئاسة الشعراء ، وأحسن إليه ، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم لأحد بعده .
انتهى .

رجع إلى أخبار بقية بني عبّاد :

المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد أبي عمرو عبّاد ابن القاضي أبي القاسم ابن عبّاد رحمه الله تعالى ، ملك مجيد ، وأديب على الحقيقة مُجيد ، وهُمَام تحلّى به للملك لبّة وللنظم جيد ، أفنى الطغاة بسيفه وأباد ، وأنسى بسببه ذكر الحارث بن عبّاد ، فأطلع أيامه في الزمان حُجولاً وغُرراً ، ونظم معاليه في أجيادها جواهر ودرراً ، وشيد في كل معلوة فِناه ، وعمر بكل نادرة مستغربة وبادرة مستظرفة أوقاته وآناه ، فنَفَقَتْ به للمحامد سوق ، وبَسَقَتْ ثمرات إحسانه أيّ بسوق ، مَنَع وقَرى ، وراش وبرى ، ووصل وقَرى ، وكان له من أبنائه عدة أعمار نظمهم نظم السلك ، وزين بهم سماء ذلك الملك ، فكانوا معاقل بلاده ، وحُماة طارفه وتلاده ، إلى أن استدار الزمان كهَيْتته ، وأخذ البؤسُ في فَيْتته ، واعتز الخلاف وظهر ، وسَلَّ الشّتات سيفه وشهر ، والمعتمد رحمه الله تعالى يطلب نفسه أثناء ذلك بالثبات ، بين تلك الثُّبات ، والمقام ، في ذلك المقام ، إلى أن بدل القطب بالواقع ، واتسع الحرق على الراقع ، فاستعضد بابن تاشفين فورد عليه خطابه يشعر بالوفاء ، فتاب إليه فكر خاطره وفاء ، وثبت خلال تلك المدة للنزالِ ، ودعا من رام حَرَبَهُ نزالِ ، إلى أن أصبح والحروب قد نهبت ، والأيام تسترجع منه ما وهبته ، فنل ذلك العرش ، واعتدت الليالي حين أمنت من الأرش ، فنقل من سهوات الخيول إلى بطون الأَجفان ، وهذه الدنيا جميعٌ ما لديها زائل وكل من عليها فان ، فما أغنت تلك المملكة وما دفعت ، وليتها ما ضرت إذ لم تكن نفعت ، وكلُّ يلقى معجّله ومؤجّله ، ويبلغ الكتابُ أجله .

وقال الفقيه القاضي أبو بكر ابن خميس رحمه الله تعالى حين ذكر تاريخ بني عبّاد : وقد ذكر الناسُ للمعتمد من أوصافه ، ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه ، وأنا الآن أذكر نبذاً من أخباره ، وأردفها بما وقفت عليه من منظومات

أشعاره ، فإنه رحمه الله تعالى جَمَّ الأدب رائقته ، عالي النظم فائقه ، كان يسمى بمحمد ، ويكنى بأبي القاسم ، على كنية جده القاضي ، استبد بالأمر عند موت أبيه المعتضد ، وفي ذلك يقول الحصري رحمه الله تعالى :

ماتَ عَبَادٌ وَلَكِنْ بَقِيَ الْفِرْعُ الْكَرِيمُ
فَكَأَنَّ الْمَيْتَ حَيٌّ غَيْرَ أَنْ الضَّادُ مِيمٌ

قال ابن اللبّانة رحمه الله تعالى : ولم يزل المعتمد بخير إلى أن كانت سنة خمس وسبعين وأربعمائة ، ووصل اليهودي ابن شاليب لقبّص الجزية المعلومة مع قوم من رؤساء النصارى ، وحكّوا بباب من أبواب إشبيلية ، فوجّه لهم المعتمد المال ، مع جماعة من وجوه دولته ، فقال اليهودي : والله لا أخذت هذا العيار ، ولا آخذ منه إلاّ مشجراً ، وبعد هذا العام لا آخذ منه إلاّ أجفان البلاد ، ردوه إليه ، فردّ المال إلى المعتمد ، وأعلم بالقصة ، فدعا بالهند ، وقال : اتنوني باليهودي وأصحابه ، واقطعوا حبال الحياء ، ففعلوا وجاؤوا بهم ، فقال : اسجنوا النصارى ، واصلبوا اليهودي الملعون ، فقال اليهودي : لا تفعل ، وأنا أفتدي منك بزنتي مالاً ، فقال : والله لو أعطيتني العُدوة والأندلس ما قبلتهما منك ، فصُلب ، فبلغ الخبر النصراني ، فكتب فيهم ، فوجّه إليه بهم ، فأقسم النصراني أن يأتي من الجنود بعدد شعر رأسه حتى يصل إلى بحر الزقاق ، وأميرُ المسلمين يوسف ابن تاشفين إذ ذاك محاصر سبتة ، فجاز المعتمد إليه ، ووعد بنصرته ، فرجع وحث ملوك الأندلس على الجهاد ، ثم وصل ابن تاشفين ، فكانت غزوة الزلاقة المشهورة ، ورجع ابنُ تاشفين إلى المغرب ، ثم جاز بعد ذلك إلى الأندلس ، وتوهم ابن عبّاد أنه إذا أخذ البلاد يأخذ أموالها ويترك الأجفان ، فعزم ابن تاشفين على أن يخلع ملوك الأندلس ، ودارت إذ ذاك مكاييد جمّة ، ثم وجّه ابن تاشفين من سبتة إلى المعتمد يطلب منه الجزيرة الخضراء وفيها ابنه يزيد ، فكتب إليه معتذراً عنها ، فلم يكن إلاّ كلمح البصر وإذا بمائة شرّاع قد أطلت على الجزيرة ،

فطير ابنه الحمام إليه ، فأمره بإخلائها ، فظهر عند ذلك ابن تاشفين ، وقيل : إنه لم يجز المرة الأولى حتى طلب من المعتمد الجزيرة لتكون عدة له ، وكان ذلك بدسياسة بعض أهل الأندلس نصحاً لابن تاشفين . ثم شرع ابن تاشفين في خلع ملوك الأندلس وقتالهم ، وأرسل إلى كل مملكة جماعة من أهل دولته وأجناده يحاصرونها ، وأرسل إلى حضرة المعتمد إشبيلية ، وشرع في قتالها ، والناسُ قد ملوا الدولة العبادية وسئموها ، على ما جرت به العادة من حب الحديد ، لا سيما وقد ظهر من ابن عباد من التهلك في الشرب والملاهي ما لا يخفى أمره ، فتمنى أكثر الناس الراحة من دولتهم ، ولما اشتدَّ مُخْتَقُ المعتمد وجهه عن النصارى ، فأعدَّ لهم ابن تاشفين من لقيهم في الطريق ، فهزمهم ، وجهاز ابن تاشفين القطائع لإشبيلية ، وجدَّ في حصارها ، والمعتمد مع ذلك منغمس في لذاته ، وقد ألقى الأمور بيد ابنه الرشيد ، فلم يشعر ابن عباد إلاّ والعسكر معه في البلد ، فأفاق من نومه ، وصحا من سكره ، وركب فرسه وحسامه في يده ، وليس عليه إلاّ ثوب واحد ، فوافق العسكرَ قد دخل من باب الفرج ، ووافى هنالك طبالاً فضربه بسيفه ضربة قسمه بها نصفين ، ففر الناس أمامه ، وتراموا من السور ، ووقف حتى بان الباب ، وفي ذلك يقول الأبيات المذكورة فيما يأتي :

إن يسلب القوم العدا . . . إلخ .

فلما وصل إلى باب الصباغين وجد ابنه مالكا مقتولاً ، فاسترحم له ، ودخل القصر ، وزاد الأمر بعد ذلك ، ودُخِلَ البلد من كل جهاته فطلب الأمان له ولان معه ، فأمنَّ وجميع مَنْ له ، وأعدت له مراكب ، واجتاز إلى طنجة ، فلقبه الحصري الشاعر ، وكان قد ألّف له كتاب « المستحسن من الأشعار » فلم يُقْضَ بوصوله إليه إلاّ وهو على تلك الحالة ، فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصري : ارفع ذلك البساط فخذ ما تحته ، فوالله ما أملك غيره ، فوجد تحته جملة مال ، فأخذه ، ثم انتقل حتى وصل أغمات ، ولم يزل بها إلى أن مات ، رحمه الله تعالى .

وقال الفتح في ترجمته ما نصه^١ : ملك قَمَعَ العدا ، وجمع البأس والندی ،
 وطلع على الدنيا بدرَ هُدى ، لم يتعطل يوماً كفته ولا بنانه ، آونةً يراعه وآونة
 سِنَانُهُ ، وكانت أيامه مواسم ، وثغوره بواسم^٢ ، ولياليه كلها درراً ، وللازمان
 حَجُولاً وغُرُراً ، لم يغفلها من سِمات عوارف ، ولم يُضحها من ظل إيناس
 وارف ، ولا عطلها من مآثرة بقي أثرها بادياً ، ولقي معفيه منها إلى الفضل
 هادياً ، وكانت حضرته مطمحاً للهمم ، ومسرحةً لآمال الأمم ، ومقدفاً لكل
 كميٍّ ، وموقفاً لكل ذي أنفٍ حَمِيٍّ ، لم تخلُ من وفدٍ ، ولم يصحُ جوّها من
 انسجام رِفدٍ ، فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكُماة ، ومشاهير الحُماة ، أعداد
 يغصُّ بهم الفضاء ، وأنجاد يُزهي بهم النفوذ والمضاء ، وطلع في سمائه كل نجم
 مُتقدِّد ، وكل ذي فهم منتقد ، فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان ، ومضماراً
 لإحراز الخصل ، في كل معنى وفصل ، فلم يلتحق بزمامه إلاّ كل بطل نجد ، ولم
 يتسق في نظامه إلاّ ذكاء ومجد ، فأصبح عصره أجمل عصر ، وغدا مصره أكمل
 مصر ، تُسْفح فيه دِيَمُ الكرم ، ويُفصح فيه لسانا سيفٍ وقلم ، ويفضح الرضى
 في وصفه أيام ذي سَلَمٍ ، وكان قومه وبنوه لتلك الحَلَبَة زيناً ، ولتلك الجملة
 عيناً ، إن ركبوا خَلِيتَ الأرض فلكاء يحمل نجوماً ، وإن هبوا رأيت الغمام
 سجوماً ، وإن أقدموا أحجم عنترة العبسي ، وإن فخرُوا أفحم عرّابة الأوسي ،
 ثم انحرفت الأيام فألوت بإشراقه ، وأذوت يانع إيراقيه ، فلم يدفع الرمحُ ولا
 الحسام ، ولم تنفع تلك المن الجسام ، فتملك بعد الملك ، وحطَّ من فلكه إلى
 الفلُك ، فأصبح خائضاً تحدوه الرياح ، وناهضاً يزجيه البكاء والصياح ، قد
 ضجت عليه أياديه ، وارتجت جوانبُ ناديه ، وأضحت منازلُهُ قد بان عنها الأنس
 والحُبُور ، وألوت ببهجتِها الصبا والدَّبُور . فبكت العيون عليه دماً ، وعاد

١ القلائد : ٤ وما بعدها .

٢ المطمح : وثغور بره بواسم .

موجود الحياة عدماً ، وصار أحرار الدهر فيه خدماً ، فسحقاً لدنيا ما رعت حقوقه ، ولا أبقت شروقه ، فكم أحيائها لبنيها ، وأبداها رائقةً لمجتنيتها ، وهي الأيام لا يتقى من تجنيها^١ ، ولا تبقي على مواليتها ومُدانيها ، أدثرت آثار جلق ، وأخمدت نار المحلق ، وذلت عزة ابن شداد ، وهدت القصر ذا الشرفات من سِنْدَاد ، ونعمت بيؤس النعمان ، وأكمنت غدرها له في طلب الأمان ، انتهى .

ثم ذكر الفتح من أخباره وأشعاره ومجالس أنسه وغير ذلك من أمره نبذاً ذكرنا بعضها في هذا الكتاب .

٦٧٣ - [الراضي ابن المعتمد]

وقال في ترجمة ابنه الراضي بالله أبي خالد يزيد بن المعتمد ما نصه^٢ : ملك تفرع من دَوْحَة سَنَاء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وتحدّر من سُلالة أكابر ، ورُقاة أسيرةٍ ومنابر ، وتصرف أثناء شببته بين دراسة معارف وإفاضة عوارف ، وكلف بالعلم حتى صار مَلْهَجَ لسانه ، وروضة أجفانه ، لا يستريح منه إلاّ إلى متن سائل الغرّة ، ميمون الأسرة ، يسابق به الرياح ، ويحاسن بغرّته البدرَ اللياح ، عريق في السناء ، عتيق الاقتناء ، سريع الوخذ والإرقال ، من آل أعوج أو لذي العقال^٣ ، إلى أن ولاه أبوه الجزيرة الخضراء ، وضم إليها رُنْدَة الغراء ، فانتقل من متن الجواد ، إلى ذروة الأعواد ، وأقلع عن الدراسة ، إلى تدبير الرياسة ، وما زال يدبّرها بجوده ونُهاه ، ويورد الآمل فيها مُناه ، حتى غدت عراقاً ، وامتألت إشراقاً ، إلى أن اتفق في أمر الجزيرة ما اتفق ، وخاب

١ وهي . . . تجنيها : سقطت من م .

٢ القلائد : ٣١ .

٣ القلائد : أو ولد العقال ؛ والإشارة إلى قول الشاعر :

وترى الجياد يبتن حول خيائنا من آل أعوج أو لذي العقال

وأعوج والعقال : فحلان من فحول الجياد .

فيها الرجاء وأخفق ، واستحالت بهجتها ، وأحالت عليها من الحال لجتها^١ ،
فانتقل إلى رُنْدَةَ معقل أشيب ، ومترل للسماك منتسب ، وأقام فيها رهينَ حصار ،
ومهين حماة وأنصار ، ولقيت ريجه كل إعصار ، حتى رمته سهام الخطوب
عن قسيها ، وأمكنت منه يدي مُسيها ، فحواه رمسه ، وطواه عن غده
أمسه ، حسبما بسطنا القول فيه ، فيما مر من أخبار أبيه ، انتهى .

والذي أشار إليه هنا وأحال عليه فيما تقدم له من أخبار المعتمد هو قوله بعد
حكايته قتل المأمون بن المعتمد بقرطبة وسياسة أخبار ذلك ما نصه^٢ : ثم انتقلوا إلى
رُنْدَةَ أحد معاقل الأندلس الممتعة ، وقواعدها السامية المرتفعة ، تطرد منها على
بُعد مُرتقاها ، ودنو النجوم من ذراها ، عيون لانصباها دوي كالرعد القاصف ،
والرياح العواصف ، ثم تتكوّن وادياً يلتوي بجوانبها التواء الشجاع ، ويزيدها
في التوعر والامتناع ، وقد تجوّنت نواحيها وأقطارها ، وتكوّنت فيها لُباناتها
وأوطارها ، لا يتعذر لها مطلب ، ولا يتصور فيها عدو إلاّ علقته ناب أو مخلب ،
فلما أناخوا منها على بُعد ، وأقاموا من الرجاء فيها على غير وعد ، وفيها ابنه
الراضي لم يحفل بإناختهم بإزائه ، ولا عدّها من أرزائه ، لامتناعه من منازلهم ،
وارتفاعه عن مطاولتهم ، إلى أن انقضى في أمر إشبيلية ما انقضى ، وأفضى أمر
أبيه إلى ما أفضى ، فحمل على مخاطبته لينزل عن صياصيه ، ويمكنهم من نواصيه ،
فنزّل برآً بأبيه ، وإبقاء على أرماق ذويه ، بعد أن عاقدهم مستوثقاً ، وأخذ
عليهم عهداً من الله وموثقاً ، فلما وصل إليهم ، وحصل في أيديهم ، مالوا به عن
الحصن وجرّعوه الردى ، وأقطعوه الثرى حين أودى ، وفي ذلك يقول المعتمد
يرثيها ، وقد رأى قمرية بائحة بشجنها ، نائحة بفسنّها على سكتنها ، وأمامها
وكرّ فيه طائران يرددان نغماً ، ويغردان ترحةً وترنماً :

١ القلائد : وسالت عليها من الحوادث لجتها .

٢ القلائد : ٢٠ .

بكتُ أن رأيتُ إلفين ضمتهما وكرُ
 وناحتُ فباحتُ واستراحتُ بسرِّها
 فما لي لا أبكي أم القلبُ صخرةُ
 بكتُ واحداً لم يشجِّها غيرُ فقده
 بُنيُّ صغيرٌ أو خليلٌ موافقٌ
 ونجمانُ زَيْنٌ للزمانِ احتواهما
 غدرتُ إذنُ إن ضنَّ جفني بقطرةٍ
 فقلْ للنجومِ الزُّهرِ تبكيهما معي

مساءً وقد أحنى على إلفها الدهرُ
 وما نطقتُ حرفاً يبوحُ به سرُّ
 وكم صخرةٍ في الأرضِ يجري بها نهرُ
 وأبكي لألافٍ عديدهم كثيرُ
 يمزقُ ذا قفَرٌ ويغرِقُ ذا بحرُ
 بقرطبةَ التكداءِ^١ أو رندةَ القبرِ
 وإن لوَّمتُ نفسي فصاحبها الصبرُ
 لثلهما فلتحزَنِ الأنجمُ الزُّهرُ

وقال في ترجمة الراضي ما صورته^٢ : وكان المعتمد رحمه الله تعالى كثيراً ما يرميه بملامه ، ويُصميه بسهامه ، فربما استلطفه بمقال أفصح من دمع المحزون ، وأملح من رَوْضِ الحزُون ، فإنه كان ينظم من بديع القول لآلئ وعقوداً ، تسَلُّ من النفوس سخائم وحقوداً ، وقد أثبتُّ من كلامه في بثِّ آلامه ، واستجارةِ عدلِّه وملامه ، ما تستبدعه ، وتحلُّه النفوس^٣ وتودعه ، فمن ذلك ما قاله وقد أنهض جماعة من إخوته وأقعدته ، وأدناهم وأبعده :

أعيذك أن يكونَ بنا خمولٌ ويطلعَ غيرنا ولنسا أُولُ
 حنانك إن يكنْ جرمي قبيحاً فإنَّ الصَّفحَ عن جرمي جميلُ
 ألسْتُ بفرعك الزاكي وماذا يرجي الفرعُ خانتهُ الأصولُ

ثمَّ قال الفتح بعد كلام^٤ : ومرت عليه - يعني الراضي - هودجٌ وقباب ، فيها حبابٌ كنَّ له وأحباب ، أَلِفهن أيامَ خلائه من دواة ، وجمال معهنَّ في

١ م : النكراء .

٢ القلائد : ٣٢ .

٣ م : النفس .

٤ القلائد : ٣٣ .

ميدان المنى أعظم جولة ، ثم انتزعوا منه ببُعده ، وأودعوا الهوادجَ من بعده ،
ووجَّهوا هدايا إلى العدوَّة ، وألَّوا بها إلام قريش بدار الندوة ، فقال :

مَرَّو بنا أَصْلاً من غيرِ ميعادِ فأوقدوا نارَ شوقي أيَّ إيقادِ
وأذكروني أياماً لهوتُ بهم فيها ففازوا بليثاري وإحمادي
لا غرو أن زاد في وجدي مرورهمُ فرؤيةُ الماء تُذكي غلَّةَ الصادي

ولما وصل المعتمد^١ لورقة أعلم أن العدو قد جيش لها واحتشد ، ونهَدَ نحوها
وقصد ، ليتركها خاوية على عروشها ، طاوية الجوانح على وحوشها ، فتعرض
له المعتمد دون بغيته ، وطلع عليه من ثنيته ، وأمر الراضي بالخروج إليه في عسكر
جبرده لمحاربه ، وأعدده لمصادمته ومضاربه ، فأظهر التمارض والتشكي ،
وأضمر التقاعس والتلكي ، فراراً من المصادمة ، وإحجاماً عن المساومة ،
وجزَعاً من منازلة الأقران ، ومقابلة ذوابل المرَّان ، ومقاساة الطعان ، وملاقاة
أبطال كالرَّعان ، ورأى أن المطالعة ، أرجح من المقارعة ، ومعاناة العلوم ، أريح
من مداواة الكُلم ، فقد كان عاكفاً على تلاوة ديوان ، عارفاً بإجادة صدر
وعنوان ، فعلم المعتمد ما نواه ، وتحقق ما لواه ، فأعرض عنه ، ونفض يده منه ،
ووجَّه المعتد^٢ مع ذلك الجيش الذي لم تنشر بنوده ، ولا نصرت جنوده ، فعندما
لاقوا العدو لاذوا بالفرار ، وعادوا بإعطاء الغرَّة بدلاً من الغرار ، وتفرقوا في
تلك الأماريت^٣ ، وفرقوا من تحطف أولئك العفاريت ، فتحييف العدو من بقي
مع المعتد واهتممه ، وخضم ما في العسكر وقضمه ، وغدت مضاربه مجرَّ عواليه ،
ومجرى مذاكيه ، وآب أخسّر من بائع السدانة^٤ ، ومضيع الأمانة ، فانطبقت
سما المعتمد على أرضه ، وشغلته عن إقامة نوافله وفرَّضه ، فكتب إليه الراضي :

١ ق م : العدو .

٢ ق م : وتوجه المعتد .

٣ الاماريت : الأراضي المنبسطة ؛ وفي ق م : الأناريت .

٤ يعني أبا غيشان الذي باع سدانة الكعبة لقصي ، قيل : بزق خمر .

لا يكرثنكَ خطبُ الحادثِ الجاري
 ماذا على ضيغَمٍ أمضى عزيمتهُ
 لئن أتوكَ فمن جبنٍ ومن خورٍ
 عليكَ للناسِ أن تبقي لنصرتهم
 لو يعلمُ الناسُ فيما أن تدومَ لهمُ
 ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتهمُ
 فما عليكَ بذاك الخطبِ من عاري
 إن خانهُ حدُّ أنيابٍ وأظفارٍ
 قد ينهضُ العيرُ نحو الضيغمِ الضاري
 وما عليكَ لهمُ إسعادُ أقدارٍ
 بكمواً لأنك من ثوبِ الصبا عاري
 لم يتحيفوكَ بشيءٍ غيرِ أعمارٍ

فحجب عنه وجهه رضاه ، ولم يستنزه^٢ بذلك ولا استرضاه ، وتمادى على
 إعراضه ، وقعد عن إظهاره وإنهاضه ، حتى بسطته سوانح السلو ، وعطفته عليه
 جوانح^٣ الحنو ، فكتب إليه بهزل ، غلب فيه كل مترع جزل ، وهو :

الملكُ في طيِّ الدفاترُ فتخلَّ عن قودِ العساكرُ
 طفُ بالسريِّرِ مُسَلِّماً وارجعْ لتوديعِ المنابرِ
 وازحفْ إلى جيشِ المعادِ رفِ تقهرِ الخبرِ المقامرُ
 واطعنْ بأطرافِ اليراءِ عِ نُصرتَ في نعرِ المحابرِ
 واضربْ بسكينِ اللواةِ مكانَ ماضي الحدِّ باترُ
 أو لست رسطاليسَ إنْ ذُكِرَ الفلاسفةُ الأكابرُ
 وأبو حنيفةَ ساقطُ في الرأي حين تكونُ حاضرُ
 وكذلكَ إنْ ذُكِرَ الخليةُ لُ فانتَ نحويُّ وشاعرُ
 مَنْ هُرْمَسُ مَنْ سيبويهُ مَنْ ابنُ فُوركِ إذ تناظرُ
 هذي المكارمُ قد حوى متَ فكن لمن حاباك شاكرُ
 واقعدُ فإنكَ طاعمُ كاسٍ وقل: هل من مُفانخرُ

١ هذا البيت سقط من ق م .

٢ القلائد : ولم يستمله .

٣ ق م : جوانب ، وأثبتنا رواية القلائد .

لحجبتُ وجهَ رضايَ عذ
أولستَ تذكُرُ وقتَ لُو
لا يَسْتَقِرُّ مكانَه
هَلاّ اقتديتَ بفعلِه
قدَ كانَ أبصرَ بالعوا
قَبِ والمَواردِ والمَصادرِ
وكتَ وكنتَ قد تلقاهُ سافرُ
رَقّةِ وقلبِكَ ثمَّ طائرُ
وأبوكَ كالضُرغامِ خادرُ
وأطعتهُ إذ ذاكَ أمرُ

فكتب إليه الراضي مراجعاً بقطعة منها :

مولايَ قد أصبحتُ كافرُ
وفلّنتُ سكينَ الدّوا
وعلمتُ أنّ المُلِكَ ما
والمَجْدُ والعلياءُ في
لا ضَرَبَ أقوالِ بأق
قد كنتُ أحسبُ مِن سفا
فإذا بها فرَعُ لها
لا يدركُ الشرفَ الفتي
وهجرتُ من سميتهمُ
لو كنتَ تهوى ميتي
ضحكُ الموالِي بالعبي
إن كان لي فضلُ فمَن
أو كانَ بي نقصُ فمَن
ذكَرتَ عبدكَ ساعةً
يا لَيْتَهُ قد غيبتَ
أتريدُ مِنّي أنْ أكو
هيهات ذلكَ مَطْمَعُ
بجميعِ ما تحوي الدفاترُ
ة وظلّتُ للأقلامِ كاسرُ
بينَ الأسنّةِ والبواتيرُ
ضربَ العساكرِ بالعساكرُ
وال ضعيفاتِ متناكرُ
ه أنّها أصلُ المفاخرُ
والجَهْلُ للإنسانِ عاذرُ
إلا بعَسالِ وباتيرُ
وجحدتُ أنّهمُ أكابرُ
لوجدتني للعيشِ هاجِرُ
د إذا تؤمّلَ غيرُ ضائرُ
ك وهلْ لذاكِ النورِ ساترُ
نّي غيرَ أنّ الفضلَ غامرُ
يبقى لها ما عاشَ ذاكرُ
ه عندها إحدى المقابرُ
ن كمن غدا في الدهرِ نادرُ
يُعيني الأوائِل والأواخرُ

لا تنسَ يا مَوْلَايَ قَوْلَ ضَارِعٍ لَا قَوْلَ فَاحِرٍ
 ضَبَطَ الْجَزِيرَةَ عِنْدَمَا نَزَلَتْ بِعَقْوَتِهَا الْعَسَاكِرُ
 أَيَّامَ ظَلَمْتُ بِهَا فَرِيْدًا لَيْسَ غَيْرَ اللَّهِ نَاصِرُ
 إِذْ كَانَ يُعْشِي نَاطِرِي لَمَعُ الْأَسِنَّةِ وَالْبَوَاتِرِ
 وَيُصِمُّ أَسْمَاعِي بِهَا قَرَعُ الْحِجَارَةِ بِالْحَوَافِرِ
 وَهِيَ الْحَضِيضُ سُهولةٌ لَكِنْ ثَبْتُ بِهَا مَخَاطِرُ
 هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا أَسَأْتُ أَمَا لِهَذَا الْعَتَبِ آخِرُ
 هَبْ زَلَّتِي لِيَسْتُوِيْ وَأَغْفِرْ فَإِنَّ اللَّهَ غَافِرُ

فقربه وأذناه ، وصفح عما كان جناه ، ولم تزل الحال آخذة في البوار ،
 والأمور معتلة اعتلال حب الفرزدق للنوار ، حتى مضوا غير طيبة ، وقضوا
 بين الصوارم والرماح الخطيئة ، حسبما سردناه ، وعلى ما أوردناه ، وإذا أراد
 الله سبحانه إنفاذ أمر سبق في علمه ، فلا مرد له ولا معقب لحكمه ، ولا إله إلا
 هو رب العالمين ؛ انتهى كلام الفتح .

وعلى الجملة فكانت دولة بني عبّاد بالأندلس من أهبج الدول في الكرم
 والفضل والأدب ، حتى قال ابن اللبّانة رحمه الله تعالى : إن الدولة العبّادية
 بالأندلس أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد ، سعة مكارم ، وجمع فضائل ،
 ولذلك ألّف فيها كتاباً مستقلاً سماه «الاعتماد في أخبار بني عبّاد» ، ولا يلتفت
 لكلب عمّور نبح بقوله :

ممّا يزهدني في أرضِ أندلسِ أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتدٍ
 ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها كاهراً يحكي انتفاخاً صورة الأسدِ

لأن هذه مقالة متعسف كافر للنعم ، ومثل ذلك في حقهم لا يقدر ، وما زالت
 الأشراف تُهْجى وتُمدح .

وللمعتمد أولاد ملوك منهم المأمون والرشيد والراضي والمعتد وغيرهم ، وقد سردنا خبر بعضهم .

٦٧٤ - [مدائح ابن البانة في بني عباد]

وكان الداني المذكور ماثلاً إلى بني عبّاد بطبعه ، إذ كان المعتمد هو الذي جذب بضبعه ، وله فيه المدائح الأنيقة ، التي هي أذكى من زهر الحديقة ، فمن ذلك قوله من قصيدة يمدحه بها ويذكر أولاده الأربعة ، الذين عمروا من المجد أربعه ، وهم الرشيد عبيد الله والراضي يزيد والمأمون والمؤمن ، وكانوا نجوم ذلك الأفق وغيوث ذلك الزمن ، ولقد أجاد في ذلك كلّ الإجادة ، وأطال لمجدهم نجاده :

يغيثك في محلّ ، يعينك في ردّي يروعك في درع ، يروك في بردي
جمال وإجمال وسبق وصوله كشمس الضحى كالمن كالبرق كالرعد
بمهجته شاد العلاء ثمّ زادهما بناء بأبناء جحاحجة لُدّ
بأربعة مثل الطّباع تركبوا لتعديل ذكر المجد والشرف العبد

والمأمون بن المعتمد قتله لتونة بقرطبة ، والراضي يزيد قتلوه برنّدة كما سقنا خبره آنفاً ، وفي حالتهم هذه يقول الشاعر المشهور عبد الجبار بن حمديس الصقلي :

ولما رحلت بالندى في أكفكم وقلقل رضى منكم وثبير
رفعت لساني بالقيامة قد دنت فهذي الجبال الراسيات تسير

وفي قصة المعتمد يقول الداني المذكور :

لكلّ شيء من الأشياء ميقاتٌ وللمنى في منايها غاياتٌ

والدهرُ في صِفةِ الحِرْباءِ منغمسٌ
ونحن من لُعبِ الشطرنجِ في يده
انفض يديك من الدُّنيا وزينتها
وقلْ لعالمها الأرضي قد كتمتْ
وهي طويلة ذكرها الفتح وغيره .

وللداني أيضاً قصيدة عملها في المعتمد وهو بأغامت سنة ٤٨٦^١ :

تنشقُ بريحانِ السَّلامِ فإنما
وقلْ لي مجازاً إن عدمتْ حقيقةً
أفكرُ في عصرٍ مضى بك مشرقاً
وأعجبُ من أفقِ المجرةِ إذ رأى
لئن عظمتْ فيك الرزيةُ إننا
قناة سَعَتْ للطعن حتى تقسَّمتْ
أفضّ به مسكاً عليك مختمًا
لعلَّكَ في نعمي فقد كنتَ منعماً
فيرجعُ ضوءُ الصبحِ عندي مظلمًا
كسوفك شمساً كيف أطلع أنجماً
وجدناكَ منها في الرزيةِ أعظماً
وسيفُ أطال الضربَ حتى تثلما

ومنها :

بكي آلَ عبادٍ^٢ ولا كمحمدٍ
حبيبٌ إلى قلبي حبيبٌ لقوله
صباحهمُ كُنا به نحمدُ السرى
وكنارِ عينا العزِّ حولَ حياهمُ
وقد ألبستُ أيدي الليالي قلوبهم
قصورُ خلَّتْ من ساكنيها فما بها
وأولادهِ صوبُ الغمامةِ إذ همي
عسى طللٌ يدنو بهم ولعلَّما
فلما عدمناهم سرينا على عمي
فقد أجذبَ المرعى وقد أقفر الحمى
مناسجَ سدَى الغيثِ فيها وألحما
سوى الأدم تمشي حول واقفة الدُّمى

١ سنة ٤٨٦ : سقطت من م .

٢ ق م : محمود .

تجيبُ بها الهامَ الصّدى ولطالما
كأن لم يكن فيها أنيس ، ولا التقى
أجابَ القيّانُ الطائرَ المترنماً
بها الوفدُ جمعاً والحميسُ عمرماً

ومنها :

حكيتَ وقد فارقتَ ملكك مالكا
مصابٌ هوى بالنيراتِ من العلا
تضيقُ عليّ الأرضُ حتى كأنما
ندبتك حتى لم يخلُ ليّ الأسى
وإني على رسمي مقيمٌ فإن أمتُ
بكاكَ الحيا والريحُ شقتُ جيوبها
ومزق ثوب البرق واكتست الضحى
وحار ابنك الإصباحُ وجداً فما اهتدى
وما حلّ بدرُ التّم بعدك دارةً
قضى الله أن حطوك عن ظهرِ أشقرٍ
ومن وَلّهي أحكي عليك متمماً
ولم يُبقِ في أرض المكارم معلماً
خلقتُ وإياها سواراً ومعصماً
دموعاً بها أبكي عليك ولا دماً
سأجعلُ للباكين رسمي موسماً
عليك وناحَ الرعدُ باسمك معلماً
حداداً وقامت أنجمُ الحوّ أفحماً
وغار أخوك البحرُ غيضاً فما طمى
ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسماً
بشم وأن أمطوكَ أشأمَ أدهماً

وكان قد انفكت عنه القيود ، فأشار إلى ذلك بقوله فيها :

قيودك ذابتُ فانطلقتَ لقد غدّت
عجبتُ لأنّ لآنَ الحديدُ وأن قسّوا
سينجيك منّ نجّى من السجن يوسفاً
قيودك منهم بالمكارم أرحماً
لقد كان منهم بالسريرة أعلماً
ويؤويك منّ آوى المسيح بن مريماً

ولأبي بكر الداني المذكور في البكاء على أيامهم وانتشار نظامهم عدة مقطوعات وقصائد ، هي قرّة عين الطالب ونجعة الرائد ، وقد اشتمل عليها جزء لطيف ، صدر عنه في هيئة تصنيف ، سماه « السلوك في وعظ الملوك » ، ووفد على المعتمد وهو بأغمات ، عدّة وفادات ، لم يخل في جميعها من إفادات ، وقال في إحداها : هذه وفادة وفاء لا وفادة اجتداء .

قال غير واحد : من النادر الغريب أنه نودي في جنازته « الصلاة على الغريب » بعد عظم سلطانه ، وسعة أوطانه ، وكثرة صقالبته وحُبشانه ، وعظم أمره وشانه ، فتبارك من له العزة والبقاء والدوام ، واجتمع عند قبره جماعة من الأقسام ، الذين لهم في الأدب حصّة ، ولقضية المعتمد في صدورهم عُصّة ، منهم البالغ في البلاغة الأمد ، شاعره أبو بحر عبد الصمد ، وكان به خصيصاً ، وكم ألبسه من بره حلّة وقميصاً ، فقال من قصيدة طويلة أجاد فيها ما شا ، وجلب بها إلى أنفس الحاضرين بعد الأانس إباحشا ، مطلعها :

مَلِكِ الملوِكِ أَسامِعُ فَأنادي أم قد عدتكَ عن السماع عَوادي

ومنها :

لَمّا خلتُ منك القصورُ ولم تكنُ فيها كما قد كنتَ في الأعيادِ
قبِلتُ من هذا الثرى لك خاضعاً وجعلت قبرك موضع الإنشادِ

فلما بلغ من إنشاده ، إلى مُرادِه ، قبِل الثرى ومرغ جسمه وعفّر خدّه ، فبكى كل من حضر وصرفه ذلك عن سرور العيد وصدّه ، إذ كانت هذه القصة يوم عيد ، فسبحان المبدىء المعيد .

ويحكى أن رجلاً رأى في منامه إثر الكائنة على المعتمد بن عباد كأن رجلاً صعد منبر جامع قرطبة فاستقبل الناس وأنشد هذه الأبيات متمثلاً :

ربّ ركبٍ قد أناخوا عيسهمُ في ذرى مجدهمُ حينَ بسقُ
سكتَ الدهرُ زماناً عنهمُ ثمّ أبكاهمُ دماً حينَ نطقُ

وعاش أبو بكر ابن اللبّانة المعروف بالداني المذكور آنفاً بعد المعتمد ، وقدم ميورقة آخر شعبان سنة ٤٨٩ ، ومدح ملكها مبشر بن سليمان بقصيدة مطلعها :

ملكٌ يروعكَ في حلّ ريعانهِ راقَتْ برونقهِ صفاتُ زمانهِ

وأين هذا من أمداحه في المعتمد؟

وتذكرت هنا من أحوال الداني أنه دخل على ابن عمار في مجلس ، فأراد أن يندر به وقال له : اجلس يا داني ، بغير ألف ، فقال له : نعم يا ابن عمار ، بغير ميم ، وهذا هو الغاية في سرعة الجواب والأخذ بالتأثر في المزاح .

ونظيره - وإن كان من باب آخر - أن المعتمد مر مع وزيره ابن عمار ببعض أرجاء إشبيلية ، فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط ، فكشفت وجهها ، وتكلمت بكلام لا يقتضيه الحياء ، وكان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون به الجبس والجيارين الصانعين للجير ، بإشبيلية ، فالتفت المعتمد إلى موضع الجيارين ، وقال : يا ابن عمار الجيارين ، ففهم مراده ، وقال في الحال : يا مولاي والجباسين ، فلم يفهم الحاضرون المراد ، وتحيروا ، فسألوا ابن عمار ، فقال له المعتمد : لا تبعها منهم إلاّ غالية ، وتفسيرها أن ابن عباد صحف «الحيا زين» بقوله الجيارين إشارة إلى أن تلك المرأة لو كان لها حياء لازدانت ، فقال له والجباسين وتصحيفه «والخناشين» أي : هي وإن كانت جميلة بدیعة الحسن لكن الخنا شأنها ، وهذا شأو لا يلحق .

ومن أخبار المعتمد أنه جلس يوماً والبزاة تُعرض عليه ، فاستحثّ الشعراء في وصفها ، فصنع ابن وهبون بديهاً :

للصيدِ قبلكَ سنّةٌ ماثورةٌ لكنّها بكَ أبدعُ الأشياءِ
تمضي البزاة وكلّما أمضيتّها عاطيتها بنخاطرِ الشعراءِ

فاستحسنهما ، وأسنى جائزته .

وذكر ابن بسّام أن أبا العرب الصقلي حضر مجلس المعتمد يوماً وقد حمل إليه حمول وافرة من قراريط الفضة ، فأمر له بكيسين منها ، وكان بين يديه تماثيل

عبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللاآء ، فقال له أبو العرب معرضاً :
 ما يحمل هذين الكيسين إلاّ جمل ، فتبسم المعتمد وأمر له به ، فقال أبو العرب
 بديهاً :

أهديتني اجمالاً جوناً شفّعت به حملاً من الفضة البيضاء لو حملاً
 نتاجُ جودك في أعطان مكرمة لا قد تصرف من مننع ولا عقلاً
 فاعجب لشيء فشأني كله عجب رفهتني فحملت الحمل والجمل

وذكر الحجاري هذه القصة فقال : قعد المعتمد في مجلس احتفل في تنزيده
 وإحضار الطرائف الملوكية ، وكان في الحملة تمثال جمل من بلور ، وله عينان
 من ياقوتتين ، وقد حُلّيَ بنفائس الدر ، فأنشده أبو العرب قصيدة ، فأمر له بذهب
 كثير ممّا كان بيده من السكة الجديدة ، فقال معرضاً بذلك الجمل : ما يحمل
 هذه الصلة إلاّ جمل ! فقال : خذ هذا الجمل ، فإنه حمال أنقال ، فارتجل
 شعراً منه :

رفهتني فحملت الحمل والجمل

وذكر أن ذلك الجمل بيع بجمسمائة مثقال ، فسارت بهذا الخبر الركائب ،
 وتهادته المشارق والمغارب .
 وتباحث المعتمد مرة مع الجلساء في بيت المتنبي الذي زعم أنه أمير شعره :

أزورهم وسوادُ الليل يشفعُ لي وأنثي وبياضُ الصبحِ يغري بي

فقال : ما قصر في مقابلة كل لفظة بضدها إلاّ أن فيه نقداً خفياً ، فكثروا
 فيه ، فلما فكروا قالوا له : ما وقفنا على شيء ، فقال : الليل لا يطابق إلاّ بالنهار
 لأن الليل كلّي والصبح جزئي ، فتعجب الحاضرون ، وأثنوا على تدقيق انتقاده .

١ م : أهديت لي ؛ وقد مرت الأبيات في ج ٣ : ٥٦٩ .

قال الصفدي : قلت : ليس هذا بنقد صحيح ، والصواب مع أبي الطيب ، لأنه قال « أزورهم وسواد الليل يشفع لي » فهذا محب يزور أحبابه في سواد الليل خوفاً ممن يَشِي به ، فإذا لاح الصبح أغرى به الوشاة ، ودل عليه أهل النسيمة ، والصبح أول ما يغري به قبل النهار ، وعادة الزائر المريب أن يزور ليلاً ، وينصرف عند انفجار الصبح خوفاً من الرقباء ، ولم تجر العادة أن الخائف يتلبث إلى أن يتوضح النهار ، ويمتلئ الأفق نوراً . فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار ، والله أعلم ، انتهى .

قلت : كان يختلج في صدري ضعف ما قال الصفدي ، حتى وقفت على ما كتبه البدر البشتكي ، ومن خطه نقلت ما صورته : هو ما انتقد عليه المعنى ، إنما انتقد عليه مطابقة الليل بالصبح ، فإن ذلك فاسد ، انتهى ، فحمدت الله على الموافقة ، انتهى .

وقال في بدائع البدائه^١ : جلس المعتمد للشرب وذلك في وقت مطر أجرى كل وهدة نهراً ، وحلّى جيد كل غصن من الزهر جوهرأ ، وبين يديه جارية تسقيه وهي تقابل وجهها بنجم الكأس في راحة كالثريا ، وتخلج الزهر بطيب العرف والريتا ، فانفق أن لعب البرق بحسامه . وأجال سوطه المذهب يسوق به ركامه ، فارتاعت لخطفته ، وذعرت من خيفته . فقال المعتمد بديهاً :

روّعها البرقُ وفي كفّها برقٌ من القهوةِ لماعُ
عجبتُ منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوارِ ترتاعُ

فاستدعى عبد الجليل بن وهبون المرسي ، وأنشده البيت الأول مستجيزاً ، فقال عبد الجليل :

ولن ترى أعجبَ من آنسٍ من مثلٍ ما يُمسِكُ يرتاعُ

١ بدائع البدائه ١ : ١٠٠ - ١٠١ ؛ وانظر ص : ٩٢ من هذا الجزء .

فاستحسنه ، وأمر له بجائزة .

قال ابن ظافر : وبيته عندي أحسن من بيت المعتمد . انتهى .
وقال ابن بسام^١ : كان في قصر المعتمد فيل من الفضة على شاطئ بركة
يقذف الماء ، وهو الذي يقول فيه عبد الجليل بن وهبون من بعض قصيدة :

ويفرغُ فيهٍ مثلَ النصلِ بدعٌ من الأفيالِ لا يشكو مَلالاً
رعى رطبَ اللجين فجاء صلداً تراهُ قلتماً يخشى هزالاً

فجلس المعتمد يوماً على تلك البركة والماء يجري من ذلك الفيل ، وقد أوقدت
شمعتان من جانبيه ، والوزير أبو بكر ابن الملح عنده ، فصنع الوزير فيهما عدة
مقاطيع بديهاً منها :

ومشعلين من الأضواء قد قرنا
لأحار لعيني كالنجمين ، بينهما
بالماء والماء بالدولاب متروفُ
خطُ المجرّةِ ممدودٌ ومعطوفُ

وقال أيضاً :

كأنما النارُ فوق الشمعتين سنأ
غمامةٌ تحت جناح الليلِ هامةٌ
والماء من نفذ الأنبوبِ منسكبُ
في جانبيها حفافُ البرقِ يضطربُ

وقال أيضاً :

وأنبوبِ ماءٍ بين نارينِ ضمنا
كأنَّ اندفاعَ الماءِ بالماءِ حيةٌ
هوئى لكؤوسِ الراحِ تحت الغياهِبِ
يحركها في الماءِ لمعُ الحبابِ

وقال أيضاً :

كأنَّ سراجي شربهم في التظائها
كريمٌ تولّى كبره من كليهما
وأنبوبَ ماءِ الفيلِ في سيلانه
لثيمانِ في إنفاقهِ يعدلانه

١ بدائع البدائه ٢ : ١٣٧ .

ولما مات والد المعتمد واستقل بالملك قال ذو الوزارتين ابن زيدون يرثي
المعتضد ويمدح المعتمد بقصيدة طويلة أولها^١ :

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهرُ فمن شيمَ الأحرار^٢ في مثلها الصبرُ
ستصبرُ صبرَ اليأسِ أو صبرَ حسبة^٣ فلا تؤثر الوجهَ الذي معه الوزرُ
حذارك من أن يعقب الرزءُ فتنةً يضيقُ بها عن مثل إيمانك العذرُ
إذا آسف الشكلُ الليبَ فشقةً رأى أفدح الثكلى أن يذهب الأجرُ
مصابُ الذي يأسى بموتِ ثوابه هو البرحُ لا الميتُ الذي أحرز القبرُ
حياةُ الورى نهجٌ إلى الموتِ مهيعٌ لهم فيه إيضاعٌ كما يوضعُ السقرُ
ومنها :

إذا الموتُ أضحى قصدَ كلِّ معمرٍ فإنَّ سواءَ طال أو قصرَ العمرُ
ألم ترَ أنَّ الدينَ ضيمَ ذماره فلم يغن أنصارٌ عديدهم دثرُ
بميت استقلَّ الملكُ ثانيَ عطفه وجرَّ من أذياله العسكرُ المجرُ
هو الضيمُ لو غيرُ القضاءِ يرومهُ ثناه المرامِ الصعبُ والمسلكُ الوعرُ
إذا عثرتْ جردُ العناجيجِ في القنا بليلِ عجاجٍ ليس يصدعه فجرُ
ومنها :

أعبادُ يا أوفى الملوكِ لقد عدا عليكَ زمانٌ من سجيتهِ الغدرُ
إلى أن قال بعد أبيات كثيرة :

١ ديوان ابن زيدون : ٥٦٢ .
٢ الديوان : الأبرار .
٣ في الأصول : وحشة .
٤ الديوان : أن يهلك .

ألا أيها المولى الوصولُ عبيدُهُ
يغاديكَ داعينَا السلامُ كعَهْدِهِ
أعتبُ علينا ذاد عن ذلك الرضى

ومنها :

وكيفَ بنسيانٍ وقد ملأت يدي
وإن كنتُ لم أشكرُ لك المننَ التي
فهلُ علمُ الشلو المقدسُ أتني
وأنَّ متاتي لم يضعهُ محمدُ
هو الظافرُ الأعلى المؤيدُ بالذي
له^٣ في اختصاصي ما رأيتُ وزادني
وأرغم في برِّي أنوفَ عصابةٍ
إذا ما استوى في الدست عاقد حُبوةٍ
وفي نفسه العلياء لي متبواً

ومنها :

لكَ الخيرُ إن الرزءَ كان غيايةً^٥
فقرتَ عيونُ كان أسخنها البُكا

ومنها :

ولما قدمت الجيشَ بالأمرِ أشرقُ

لقد رابنا أن يتلو الصلّةَ المجرُ
فما يُسمعُ الداعي ولا يُرفعُ السُترُ
فتسمعُ^١ أم بالمسمعِ المعتلي وقرُ

جسامُ أياد منكَ أيسرها الوفُرُ
تمليتها ترى فأوبقني^٢ الكفرُ
مسوغُ حال حار في كنهها الفكرُ
خليفتك العدلُ الرضى وابنك البرُ
له في الذي وافاه من صنعه سرُ
مزية زلفى من نتائجها الفخرُ
لقاؤهمُ جهمُ لحظهمُ شزرُ
وقام سماطاً حنقهُ فلي الصدرُ
يساجلي^٤ فيه السماكان والنسرُ

طلعتَ لَنَا فيها كما طلع البدرُ
وقرّتَ قلوبُ كان زلزلها الذُعرُ

إليكَ من الآمالِ آفاقها الغُبرُ

١ الديوان : فنعتب .

٢ الأصول : فلا بقي ؛ وهو خطأ .

٣ الديوان : رأى .

٤ الديوان : ينافسي .

٥ في الأصول والديوان : غياية - بالباء الموحدة - ؛ والغياية : السحابة ، وهو أنسب لذكر البدر .

فقضيتَ من فرضِ الصلاةِ لبانةً
ومن قبل ما قدّمتَ مثنى نوافلٍ
ورحمتَ إلى القصرِ الذي غضَّ طرفه
وأجملَ عن الثاوي العزاء فإن ثوى
وما أعطتِ السبعون قبل أولي الحجى
ألستَ الذي إن ضاق ذرعٌ بجادثٍ
فلا تهيصِ الدنيا جناحكَ بعده
ولا زلتَ موفورَ العديدِ بقرةً
فإنكَ شمسٌ في سماءِ رياسةٍ
شككنا فلم نثبتْ : أيامَ دهرنا
وما إن تغشتها مغازلةُ الكرى
سوى نشواتٍ من سجايا مملكِ
أرى الدهرَ إن يبطش فأنت يمينه
وكم سائلٍ بالغيبِ عنكَ أجبتُه
هناك التقي والعلمُ والحلمُ والنهى
همامٌ إذا لاقى المناجزَ ردهُ
محاسن ما للروضِ سامره الندى
متى انتشقت لم تدرى دارينُ مسكها
عطاءً ولا منٌ ، وحكمٌ ولا هوى
قد استوفتِ النعماءَ فيكَ تمامها

فشيعةا نسكٌ وقارنها طهرُ
يلاقى بها من صام من عوزٍ ٢ فطرُ
بعيد التسامي أن غدا غيره القصرُ
فإنكَ لا الواني ولا الضرعُ الغمرُ
من اللب ما أعطاك عشروك والعمرُ
تبلج منه الوجهُ واتسع الصدرُ
فمنك لمن هاضت نوابها جبرُ
لعينكَ مشدوداً بها ذلك الأزرُ
تطلع منهم حولنا أنجمٌ زهرُ
بها وسنٌ أم هزٌ أعطافها سكرُ
وما إن تمشتت في معاطفها الخمرُ ٣
يصدقُ في عليائها الخبرَ الخبرُ
وإن تضحك الدنيا فأنت لها ثغرُ
هناك الأيادي الشفع والسودد الوترُ
وبذلُ اللها والبأسُ والنظمُ والنثرُ
وإقبالهُ خطرٌ وإدباره حصرُ
رؤاءٌ إذا نصت حلاها ولا نشرُ
حياءٌ ولم تفخرُ بعنبرها الشحرُ
وحلمٌ ولا عجزٌ ، وعزٌ ولا كبرُ
علينا فمنا الحمدُ لله والشكرُ

- ١ الديوان : مشيعها . . . وفارطها .
٢ في الأصول : غيره .
٣ الديوان : في مفاصلها خمر .
٤ الديوان : لم تطر .

وكتب ابن زيدون المذكور إلى المعتمد رحمهما الله تعالى يشوقه إلى تعاطي الحميّا ، في قصوره البديعة التي منها المبارك والثريا^١ :

فُزُّ بالنجاحِ وأحرزِ الإقبالا وخذِ المنى وتسنّجِ الآملا
 وليهنك التأيدُ والظفرُ اللدا صدقك في السمة العليةِ فالأ
 يا أيّها الملكُ الذي لولاه لمُ تجدِ العقولُ الناشداتُ كمالا
 أمّا الثريا فالثريا نسبةً وإفادةً وإنافةً وجَمالا
 قد شاقها الإغبابُ حتى إنّها لو تستطيعُ سرّتْ إليك خيالا
 رفّهُ ورودكها لتغتمَ راحةً وأطلُ مزاركها لتنعمَ بالا
 وتأمّلِ^٢ القصرَ المباركَ وجنّةً قد وسّطتُ فيها الثريا خالا
 وأدرُ هناكَ من المدام كؤوسها وأتمّها^٣ وأشفّها جريالا
 قصرٌ يُقِرُّ العينَ منهُ مصنعٌ بهيجُ الجوانبِ لو مشى لاختالا
 لازلتَ تفرشُ السرورَ حدائقاً فيه وتلتحفُ النعيمَ ظلّالا

وأهدى إليه تفاحاً ، واعتقد أن يكتب معه قطعة ، فبدأ بها ، ثم عرض له غيرها فتركها ثم ابتداءً^٤ :

دونكَ الراحَ جامدّةً وفدّتْ خيرَ وافدهُ
 وجدتُ سوقَ ذَوْبِها عندكَ اليومَ كاسدهُ
 فاستحالتُ إلى الجمو دِ وجاءتْ مُكايِدّةً

وكتب إلى المعتمد^٥ :

- ١ ديوان ابن زيدون : ٥٢٠ .
- ٢ الديوان : وتمثل .
- ٣ الديوان : أمّها أرجاً زكا .
- ٤ الديوان : ٢٢٤ .
- ٥ الديوان : ٦١٦ .

يا أيها الظافر نلت المني
 إن الخلال الزهر قد ضمها
 لزال للمجد الذي شدته
 وافاك نظم لي في طيه
 مرأه يصعب ما لم يبسخ
 ولا أتانا فيك مَحْدُورُ
 ثوبٌ عليك الدهر مَزْرُورُ
 ربّعٌ بتعميرك معمورُ
 معنى معمى اللفظ مستورُ
 بالسر قُمري وشُحُورُ

وذكر أبياتاً فيها أسماء طيور عمى بها عن بيت طيره فيها ، والبيت
 المطير فيه :

أنت إن تغزُ ظافرُ
 فليطِغ من يُنافرُ

ففكّه المعتمد وجاوبه^١ :

يا خيرَ مَنْ يلحظه ناظري
 ومن إذا خطبُ دجا ليله
 جاءني الطيرُ التي سرها
 شعرٌ هو السحرُ فلا تُنكروا
 اللفظُ والقرطاسُ إن شبها
 هوى لحسنِ الطير من فكرتي
 ولاح لي بيتُ فوادي له
 حظُّك من شكري يا سيدي
 قصرتُ في نظمي فاعذر فمَنْ
 فأنت إن تنظم وتثرُ فقد
 شهادةً ما شأنها^٢ زورُ
 لاح به من رأيه نورُ
 نظمٌ به قلبي مسرورُ
 أني به ما عشتُ مسحورُ
 قيل هما مسكٌ وكافورُ
 صقرٌ فولتي وهو مقهورُ
 دأباً على ودك مقصورُ
 حظٌ تمالا منك^٣ موفورُ
 ضاهاك في التقصير معذورُ
 أعوزَ منظومٌ ومثورُ

١ انظر ديوان ابن زيدون : ٦١٨ .

٢ الديوان : شأها .

٣ الديوان : بما بدا لي منك .

لا يَعْدُكُمْ رَوْضٌ مِنْ الْحِظِّ فِي الْإِكْرَامِ وَالسَّرْفِيعِ مَمْطُورٌ

فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ زَيْدُونَ^١ :

حِظِّيَ مِنْ نُعْمَاكَ مَوْفُورٌ وَذَنْبُ دَهْرِي بِكَ مَغْفُورٌ
وَجَانِبِي إِنْ رَامَهُ أَزْمَةٌ^٢ حَجْرٌ لَدَى ظِلِّكَ مَحْجُورٌ
يَا ابْنَ الَّذِي سَرَبُ الْهَدَى آمَنٌ مِنْذُ انْبَرَى بِحِمِيهِ مَخْفُورٌ
وَأَمْرِ الدَّهْرِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُصْغِي إِلَيْهِ مِنْهُ مَأْمُورٌ
أَلْبَسَ مِنْكَ الدَّهْرُ^٣ أَسْنَى الْحَلِي بِظَافِرٍ مَسْنَاهُ مَسْنُورٌ
يَا مَرْوِي الْمَأْثُورِ يَا مَنْ لَهُ مَجْدٌ مَعَ الْإِيَّامِ مَأْثُورٌ
عَبْدُكَ إِنْ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهِ فَهُوَ بِمَا تَوَلَّيَهُ مَكْثُورٌ
إِنْ تَعَفَّ عَنْ تَقْصِيرِهِ مَنَعَا فَالْيَسْرُ أَنْ يُقْبَلَ مَعْسُورٌ
إِنَّ حَلَالَ السَّحْرِ إِنْ صُعْتَهُ فِي صُحْفِ الْأَنْفَسِ مَسْطُورٌ
نَظْمٌ زَهَانِي مِنْهُ إِذْ جَاءَنِي عَلِقٌ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَذْخُورٌ
لَا غُرُو أَنْ أَقْتَنَ إِذْ لَاحَظْتُ فِكْرِي مِنْهُ أَعْيُنُ حُورٌ
تَمْ عَنْ مَعْنَاهُ أَلْفَاظُهُ كَمَا وَشَى بِالرَّاحِ بَلُورٌ
جَهَلْتُ إِذْ عَارَضْتُهُ غَيْرَ أَنْ لَا بَدَّ أَنْ يَنْفِثَ مَصْدُورٌ
يَا آلَ عِبَادِ مُوَالَاتِكُمْ زَاكَ مِنَ الْأَعْمَالِ مَبْرُورٌ
إِنَّ الَّذِي يَرْجُو مَوَازَاتِكُمْ مِنَ الْمَنَآوِينِ لَمَغْرُورٌ
مَكَانُهُ مِنْكُمْ كَمَا انْحَطَّ عَنْ مَتَزَلَّةِ الْمَرْفُوعِ مَجْرُورٌ
لَا زَلَمْتُ فِي غِبْطَةٍ مَا انْجَلَى عَنِ فَلَاقِ الْإِصْبَاحِ دِيحُورٌ

١ ديوانه : ٦٢٠ .

٢ الديوان : إن زمني رامة .

٣ الديوان : الملك .

٤ في الأصول : قام وفي ؛ والمأثور : السيف .

ولا يَزَلْ يَجْرِي بِمَا شَتَمُ أَعْمَارَكُمْ لَللَّهِ مَقْدُورُ

وكتب المعتمد إلى ابن زيدون بعد أن فكَّ معمّي كتب به إليه ابن زيدون ما صورته^١ :

العينُ بعدك تَقْنِي بِكُلِّ شَيْءٍ تَرَاهُ
فليَجْلُ شَخْصُكَ عَنْهَا مَا بِالْمَغِيبِ جِنَاهُ

وقد قدمنا من كلام أبي الوليد ابن زيدون رحمه الله تعالى ما فيه كفاية .

رجع إلى بني عبّاد :

قال ابن حمديس^٢ : لما قدمت وافداً على المعتمد بن عبّاد استدعاني وقال :
افتح الطاق ، فإذا بكير زجاج والنار تلوح من بابيه ، وواقدهُ يفتحهما تارة
ويسدّهما أخرى ، ثم أدام سد أحدهما ، وفتح آخر ، فحين تأملتُهما قال لي :
أجز :

انظُرهما في الظلامِ قد نجما

فقلت :

كما رنا في الدُّجْنَةِ الأسدُ

فقال :

يفتحُ عَيْنَيْهِ ثُمَّ يُطَبِّقُهَا

فقلت :

فِعْلَ امْرِئٍ فِي جُفُونِهِ رَمَدٌ

١ ديوان ابن زيدون : ٢١٤ .

٢ انظر هذا الخبر ومقطعات ابن حمديس في ديوانه : ٨ ، ٥٣٣ ، ٥٤٣ ، والخبر في النسخ ٣ :

. ٦١٧-٦١٦

فقال :

فابتزّه الدهرُ نورَ واحدةٍ

فقلت :

وهل نجا من صُروفه أحدٌ

فاستحسن ذلك وأطربه ، وأمر لي بجائزة ، وألزمي الخدمة .

٦٧٧ - [مقطعات لابن حمديس]

وعلى ذكر ابن حمديس فما أحسن قوله :

أراك ركبتَ في الأهوال بحرًا عظيمًا ليس يؤمن من خطوبه
تُسَيِّرُ فلكه شرقًا وغربًا وتدفعُ من صباهُ إلى جنوبه
وأصعبُ من ركوبِ البحرِ عندي أمورٌ ألبأتك إلى ركوبه

ولغيره :

إنَّ ابنَ آدمَ طينٌ والبحرُ ماءٌ يُذِيهُ
لولا الذي فيهِ يُتلى ما جازَ عندي ركوبهُ

وقال ابن حمديس في هذا المعنى :

لا أركبُ البحرَ ، أخشى عليَّ منهُ المعاطبُ
طينٌ أنا وهو ماءٌ والطينُ في الماءِ ذائبُ

رجع إلى بني عباد رحمهم الله تعالى :

قال ابن بسام^١ : أخبرني الحكيم النديم المطرب أبو بكر ابن الإشبيلي ، قال :
حضرت مجلس الرشيد بن المعتمد بن عباد وعنده الوزير أبو بكر ابن عمارة ،

١ بدائع البدائه ٢ : ١٢٩ .

فلمّا دارت الكأس ، وتمكن الأنس ، وغنيت أصواتاً ذهب الطرب بابن عمّار
كل مذهب ، فارتجل يخاطب الرشيد :

ما ضرَّ أن قيل لإسحاقُ ومَوْصِلُهُ ها أنتَ أنتَ وذي حمصٍ وإسحاقُ
أنتَ الرشيدُ فدع مَنْ قد سمعتَ بهِ وإن تشابهَ أخلاقُ وأعراقُ
للهِ دركٌ دارِكُها مُشعِشَعَةٌ واحضِرْ بساقِكِ ما قامتَ بنا ساقُ

وكان الرشيد هذا أحد أولاد المعتمد الثُّجبا ، وله أخبار في الكرم يقضي
الناظر فيها من أمرها عجبا ، وكذلك إخوته ، وقد ألعنا في هذا الكتاب بجملة
من محاسنهم ، وأمهم اعتماد الملقبة بالرميكية هي التي ترجمناها في هذا الموضع ،
واقترضت المناسبة ذكر أمر بني عبّاد ، فلنعد إلى ما كنا بصدده من أخبارها
رحمها الله تعالى ، فنقول :

[رجع إلى ذكر الرميكية]

قال ابن سعيد في بعض مصنفاته : كان المعتمد كثيراً ما يأنس بها ،
ويستظرف نوادرها ، ولم تكن لها معرفة بالغناء ، وإنما كانت مليحة
الوجه ، حسنة الحديث ، حلوة النادر ، كثيرة الفكاهة ، لها في كل ذلك
نوادر محكية ، وكانت في عصرها ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن ، وهي
أبدع منها ملحاً ، وأحسن افتناناً ، وأجلُّ منصباً ، وكان أبوها أمير قرطبة ،
ويلقب بالمستكفي بالله ، وأخبار أبي الوليد ابن زيدون معها وأشعاره فيها مشهورة ،
انتهى ملخصاً .

ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة في قولها « ولا يوم الطين » وذلك أنّها
رأت الناس يمشون في الطين ، فاشتهدت المشي في الطين ، فأمر المعتمد ، فسُحقت
أشياء من الطيب ، وذُرَّتْ في ساحة القصر حتى عمته ، ثم نُصبت الغرابيل ،
وصُبَّ فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعُجنت بالأيدي حتى عادت كالطين ،

وخاضتها مع جواربها . وغاضبها في بعض الأيام ، فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قطُّ ، فقال : ولا يوم الطين ؟ فاستحيت واعتذرت ، وهذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم في حق النساء « لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر كله ثم رأيت منك شيئاً قلت : ما رأيت منك خيراً قطُّ » .

قلت : ولعل المعتمد أشار في أبياته الرائية إلى هذه القضية حيث قال في بناته :

يَطَّأَنَّ فِي الطينِ والأقدامُ حافيةٌ كأنَّها لم تطأ مسكاً وكافورا

ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ما جرت به عادة الملوك من ذرّ الطيب في قصورهم حتى يطؤوه بأقدامهم ، زيادة في التمتع .

وسبب قول المعتمد ذلك ما حكاه الفتح فقال^١ : وأول عيد أخذه - يعني المعتمد - بأغمات وهو سارح ، وما غير الشجون له مبارح^٢ ، ولا زي إلاّ حالة الحمول ، واستحالة المأمول ، فدخل عليه من بنيه ، من يسلم عليه ويهنيه^٣ ، وفيهم بناته وعليهن أطمار ، كأنها كسوف وهن أقمار ، يبكين عند التساؤل ، ويبدن الحشوع بعد التخيل ، والضياح قد غير صورهن ، وحير نظرهن ، وأقدامهن حافية ، وآثار نعيمهن عافية ، فقال^٤ :

فيما مضى كُنْتُ بالأعيادِ مسرورا فساءك العيدُ في أغماتِ مأسورا
ترى بناتِكَ في الأطمارِ جائعةً يغزلن للناسِ ما يملكنَ قِطْميرا
برزن نحوكَ للتسليمِ خاشعةً أبصارُهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرا

١ القلائد : ٢٥ .

٢ كذا في ق م ؛ وفي القلائد : مسارح .

٣ في الأصول اضطراب ، وأثبتنا ما في القلائد .

٤ لم تورّد نسخة م هذه القصيدة ، لأنها وردت من قبل (الورقة : ٢٣٢) وأثبتت في موضعها :

« وقد سبقت هذه الأبيات » .

يَطْأَنَ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ
لَا خَدَّ إِلَّا تَشَكَّى الْجَلْدُ بَ ظَاهِرُهُ
أَفْطَرْتَ فِي الْعِيدِ لَا عَادَتِ مَسَاءَتُهُ
قَدْ كَانَ دَهْرَكَ إِنْ تَأْمَرُهُ مِمْتَثَلًا
كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مَسْكَاً وَكَافُورًا
وَلَيْسَ إِلَّا مَعَ الْأَنْفَاسِ مَمْطُورًا
فَكَانَ فِطْرَكَ لِلْأَكْبَادِ تَفْطِيرًا
فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مِنْهِيئًا وَمَأْمُورًا
مِنْ بَاتٍ بَعْدَكَ فِي مَلِكٍ يُسَرُّ بِهِ
فَإِنَّمَا بَاتَ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورًا

٦٧٨ - [عود إلى أخبار المعتمد]

وقال الفتح أيضاً^١ : ولما نُقِلَ المعتمد من بلاده ، وأُعْرِيَ من طارفه وتِلَادِهِ ، وَحُمِلَ فِي السِّفِينِ ، وَأُحِلَّ فِي الْعُدُودِ مَحَلَّ الدِّفِينِ ، تَنَدَّبَهُ مِنْبَرُهُ وَأَعْوَادُهُ ، وَلَا يَدْنُو مِنْهُ زُوَّارُهُ وَلَا عُوَّادُهُ ، بَقِيَ أَسِيفًا تَتَّصِعِدُ زَفْرَاتُهُ ، وَتَطَّرَدُ اطِّرَادُ الْمَدَانِبِ عِبْرَاتِهِ ، لَا يَخْلُو بِمِثْوَانِسٍ ، وَلَا يَرَى إِلَّا عَرِينًا بَدَلًا مِنْ تِلْكَ الْمَكَانِسِ ، وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ سَلْوًا ، وَلَمْ يُؤْمَلْ دَنُوءًا ، وَلَمْ يَرَّ وَجْهَ مَسْرَةٍ مَجْلُوءًا ، تَذَكَّرَ مَنَازِلَهُ فَشَاقَّتَهُ ، وَتَصَوَّرَ بِهَجَّتِهَا فِرَاقَتَهُ ، وَتَخِيلَ اسْتِيحَاشَ أَوْطَانِهِ ، وَإِجْهَاشَ قَصْرِهِ إِلَى قُطَّانِهِ ، وَإِظْلَامَ جَوْهٍ مِنْ أَقْمَارِهِ ، وَخَلُوءَ مِنْ حُرَّاسِهِ وَسُمَّارِهِ . فَقَالَ :

بِكِي الْمُبَارِكِ فِي إِثْرِ ابْنِ عَبَادِ
بِكْتِ ثَرِيَّاهُ لَا غُمَّتْ كَوَاكِبُهَا
بِكِي الْوَحِيدِ ، بِكِي الزَّاهِي وَقَبْتُهُ
مَاءُ السَّمَاءِ عَلَى أَفْيَئِهِ دِرْرٌ
بِكِي عَلَى إِثْرِ غَزْلَانٍ وَأَسَادِ
بِمَثَلِ نَوَى الثَّرِيَا الرَّاحِ الْغَادِي
وَالنَّهْرِ وَالتَّاجِ ، كُلُّ ذُلِّهِ بَادِي
يَا لِحَةَ الْبَحْرِ دُومِي ذَاتِ إِزْبَادِ

وفي ذلك يقول ابن اللبَّانة^٢ :

أَسْتُودِعُ اللَّهَ أَرْضًا عِنْدَمَا وَضَحَتْ
بِشَائِرُ الصَّبْحِ فِيهَا بُدِّدَتْ حَلَكَا

١ القلائد : ٣ .

٢ أوجزت « م » هنا ، لورود الأبيات قبلا .

كان المؤيد بستاناً بساحتها يُجني النعيم وفي عليائها فلكا
 في أمره لملوك الدهر معتبرٌ فليس يَغترُّ ذو مُلكٍ بما ملكا
 نبكيه من جبلٍ خَرَّتْ قواعدهُ فكلُّ مَنْ كان في بطْحائه هلكا

وكان القصر الزاهي^١ من أجمل المواضع لديه وأبهاها ، وأحبها إليه وأشهاها ، لإطلاله على النهر ، وإشرافه على القصر ، وجماله في العيون ، واشتماله بالزهر^٢ والزيتون ، وكان له به من الطرب ، والعيش المزري بحلاوة الضرب ، ما لم يكن بحلب لبني حمدان ، ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمندان ، وكان كثيراً ما يُدير به راحه ، ويجعل فيه انشراحه ، فلما امتد الزمان إليه بعدوانه ، وسد عليه أبواب سلوانه ، لم يحن إلا إليه ، ولم يتمن غير الحلول لديه ، فقال^٣ :

غريبٌ بأرضِ المغربينِ أسيرٌ سيبيكي عليه منبرٌ وسريرٌ
 وتندبه البيضُ الصوارمُ والقنا وينهلُ دمعٌ بينهن غزيرٌ
 مضى زمنٌ والملكُ مستأنسٌ به وأصبحَ منه اليومَ وهوَ نفورٌ
 برأي من الدهرِ المضللِ فاسدٌ متى صلحتُ للصالحين دهورٌ
 أذلَّ بني ماء السماء زمانهمُ وذُلُّ بني ماء السماء كبيرٌ
 فيا ليت شعري هل أبيتُ ليلةً أمامي وخلفي روضةٌ وغديرٌ
 بمُنبتةِ الزيتونِ مورثةِ العُلا تغني حَمَامٌ أو ترنُ طيورٌ
 بزاهرها السامي الذي جاده الحيا تشيرُ الثريا نحونا ونشيرُ
 ويلحظنا الزاهي وسعدُ سعوده غيورين والصبُّ المحبُّ غيورٌ
 تراهُ عسيراً لا يسيراً منالهُ ألا كلُّ ما شاء الإلهُ يسيرٌ

وقال الحِجاري في « المسهب » : إن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أهدى

١ القلائد : الحصن الزاهر .

٢ القلائد : بالشجر .

٣ اختصرت « م » إيراد هذه القصيدة لأن هذه الأبيات تقدمت .

إلى المعتمد جارية مغنية قد نشأت بالعدوة ، وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس ، وجاء بها إلى إشبيلية وقد كثر الإرجاف بأن سلطان المثلثين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم ، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلك ، فخرج بها إلى قصر الزاهر على نهر إشبيلية ، وقعد على الراح ، فخطر بفكرها أن غنت عندما انتشى هذه الأبيات :

حملوا قلوب الأسدِ بينَ ضلُوعهمِ ولَوُوا عمامهمِ على الأقمارِ
وتقلدوا يومَ الوغى هنديةً أمضى إذا انتضيت من الأقدارِ
إن خوفُوكَ لقيتَ كلَّ كريمةٍ أو أمَّنوكَ حللتَ دارَ قَرارِ

فوقع في قلبه أنها عرّضت بساداتها ، فلم يملك غضبه ، ورمى بها في النهر ، فهلكت ، انتهى ، فقدر الله تعالى أن كان تمزيقُ ملكه على يدهم تصديقاً للجارية في قولها :

إن خوفُوكَ لقيتَ كلَّ كريمةٍ

وحصره جيوش متونة المثلثين حتى أخذوه قهراً ، وسيق إلى أمير المسلمين ، والقصة مشهورة .

وقال الفتح في شأن حصار المعتمد ما صورته^١ : ولما تم في الملك أمده ، وأراد الله تعالى أن تخرَّ عُمُدُه ، وتنقرض أيامُه ، وتتقوض عن عِراضِ الملك خيامُه ، نازلته جيوش أمير المسلمين ومحلاته ، وظاهرته فساطيطه ومظلاته ، بعدما نشرت حصونه وقلاعته ، وسعرت بالنكاية جوانحه وأضلاعه ، وأخذت عليه الفروج والمضايق ، وثنت إليه الموانع والعوايق ، وطرقته طوارقها بالإضرار ، وأمطرته من النكاية كل ديمة مدرار ، وهو ساه بروض ونسيم ، لاه براح

١ القلائد : ٢١ .

ومُحِيًّا وسِيم ، زاهٍ بفتاةٍ تناديه ، ناهٍ عن هدمِ أنسٍ هو هادمه ، لا يصيخ إلى
 نبأةٍ سمعهُ ، ولا ينيخ إلاّ على لهُوٍ يفرق جموعه جمعهُ ، وقد ولى المدامة ملامه ،
 وثنى إلى ركنها طوافه واستلامه ، وتلك الجيوش تجوس خيالاته ، وتقلص ظلاله ،
 وحين اشتد حصاره ، وعجز عن المدافعة أنصاره ، ودلّس عليه ولّاته ، وكثرت
 أدواؤه وعيالاته ، فتح باب الفرج ، وقد لفح شواظ الهرج ، فدخلت عليه
 من المرابطين زُمرة ، واشتعلت من التغلب جَمرة ، تأجّج اضطرامها ،
 وسهل بها إيقاد الفتنة^١ وإضرارها ، وعندما سقط الخبر عليه خرج حاسراً من
 مفاضته ، جامعاً كالمهر قبل رياضته ، فلحق أوائلهم عند الباب المذكور وقد
 انتشروا في جنباته ، وظهروا على البلد من أكثر جهاته ، وسيّفهُ في يده
 يتلمّظ للطلّى والهام ، ويعد بانفراج ذلك الاستبهام ، فرماه أحدُ الداخلين برمح
 تحطّاه ، وجاوز مطّاه ، فبادره بضربة أذهبت نفسه ، وأغربت شمسهُ ، ولقي
 ثانياً فضربه وقسمه ، وخاض حشاً ذلك الداء وحسمه ، فأجلّوا عنه ،
 وولّوا فراراً منه ، فأمر بالباب فسُد ، وبني منه ما هد ، ثم انصرف وقد أراح
 نفسه وشفأها ، وأبعد الله تعالى عنه الملامة ونفأها ، وفي ذلك يقول عندما
 خلّع ، وأودع من المكروه ما أودع :

إن يسلب القومُ العدى	مُلْكي وتُسَلِّمُني الجموعُ
فالقلبُ بين ضلوعه	لم تُسَلِّمِ القلبَ الضلوع
قد رمتُ يومَ نزالهم	أنْ لا تحصّني الدروع
وبرزتُ ليسَ سوى القمية	صِرَ على الحشا شيءَ دفع
أجلي تأخّرَ لم يكنْ	بهوأيَ ذُلِّي والخضوع
ما سرتُ قطُّ إلى القتا	لِ وكانَ مِن أُملي الرجوع
شيمُ الألى أنا منهمُ	والأصلُ تبعهُ الفروع

١ القلائد : البقية .

وما زالت عقارب تلك الداخلة تدب ، ثم ذكر الفتح تمام هذا الكلام فراجعه
فيما مرّ بنحو ثلاث ورفقات .

ومن حكايات مجالس أنسه أيام ملكه ، قبل أن ينظمه صرف الدهر في سلكه ،
ما حكاها الفتح^١ عن ذخر الدولة أنّه دخل عليه في دار المزينية^٢ والزهر يحسد
إشراق مجلسه ، والدري يحكي اتساق تأنسه ، وقد رددت الطير شدّ وها ، وجودت^٣
طربها وهوها ، وجدّدت كلفها وشجّوها ، والغصون قد التحفت بسندسها ،
والأزهار تحيي بطيب تنفسها ، والنسيم يلمّ بها فتضعه بين أجفانها ، وتودّعهُ
أحاديث آذارها ونيسانها ، وبين يديه فتى من فتيانه يتثنى ثني القضيب ، ويحمل
الكأس في راحة أبي من الكف الحضيبي ، وقد توشح وكأن الثريا وشاحه ،
وأثار فكأن الصبح من مضيّاه كان اتضاحه ، فكلّمنا ناوله الكأس خامرته سورّه ،
وتخيل أن الشمس تهديه نوره ، فقال المعتمد :

للهِ ساقٍ مهفهفٌ غنجٌ قد قامَ يسقي فجاء بالعجبِ
أهدى لنا من لطيفِ حكمته في جامدِ الماء ذائبِ الذهبِ

ولما وصل لورقة استدعى ذا الوزارتين القائد أبا الحسن ابن اليسع ليلته تلك
في وقت لم يخف فيه زائر من مرّاقب ، ولم يبّد فيه غير نجم ثاقب ، فوصل
وما للأمن إلى فؤاده وصول ، وهو يتخيّل أن الجوّ صوّارم ونُصُول ، بعد أن
وصّى بما خلّف ، وودع من تحلف ، فلما مثل بين يديه آنسه ، وأزال توجّسه ،
وقال له : خرجت من إشبيلية وفي النفس غرام طويته بين ضلوعي ، وكففت فيه
غرب دُموعي ، بفتاة هي الشمس أو كالشمس إخالها ، لا يجول قلبها ولا
خلخالها ، وقد قلت في يوم وداعها ، عند تفتّر كبدي وانصداعها :

١ القلائد : ٩ .

٢ ق م : المرينية ؛ القلائد : المزنية .

٣ ق : وجردت ؛ وفي القلائد : وقد رددت الطير شجوها ، وجددت طربها وشجوها .

ولما التقينا للوداع غدِيَّةً وقد خفقت في ساحةِ القصرِ راياتُ
بكينا دماً حتى كأنَّ عيوننا بلجري الدموعِ الحمرِ منها جراحاتُ

وقد زارني هذه الليلة في مضجعي ، وأبرأتني من توجعي ، ومكتني من
رُضابها ، وفتنتني بدلالها وخضابها ، فقلت :

أباحَ لطيفي طيفُها الخدَّ والنَّهدا فعضَّ بها تفاحةً واجتني وردا
ولو قدَّرتُ زارتُ على حالِ يقظة ولكنَّ حجابُ البين ما بيننا مُدًّا
أما وجدتُ عنَّا الشجونُ مُعرجاً ولا وجدتُ منَّا خطوبُ النوى بُدًّا
سقى الله صوبَ القطرِ أمَّ عبيدة كما قد سقتُ قلبي على حرِّه بردا
هي الظبيُّ جيداً ، والغزاةُ مقلَّةٌ ، وروضُ الرُّبى عرْفاً ، وغصنُ النَّقا قدًّا

فكرَّ استجداته ، وأكثر استعادته ، فأمر له بخمسمائة دينار وولاه لورقة
من حينه .

قال الفتح^١ : وأخبرني ابن اللبَّانة أنه استدعاه ليلة إلى مجلس قد كساه
الروض وشيَّه ، وامثل الدهر فيه أمره ونهيه ، فسقاه الساقى وحيَّاه ، وسفر
له الأُنس عن مونيقي مُحَيَّاه ، فقام للمعتمد مادحاً ، وعلى دَوْحَة تلك النعماء
صادحاً ، فاستجاد قوله ، وأفاض عليه طوله ، فصدر وقد امتلأت يداه ،
وغمره جوده ونَداه ، فلماً حلَّ بمنزله وافاه رسوله بقطيع وكأس من بُلار ،
قد أترعا بصيرف العقار ، ومعهما :

جاءتك ليلاً في ثيابِ نهارٍ من نورها وغلالةِ البُلارِ
كالمشترى قد لَفَّ من مِرْيخه إذ لفَّه في الماء جندوةً نارِ
لَطْفَ الجمودِ لذا وذا فتألَّفَا لم يلقَ ضدُّ ضدَّه بنِفارِ

١ القلائد : ٦ .

يتحير الراءون في نعتيهما أصفاء ماء أم صفاء دراري

وقال الفتح أيضاً^١ : وأخبرني ذخر الدولة أنه استدعاه في ليلة قد ألبسها البدرُ رُوعاه ، وأوقد فيها أضواءه ، وهو على البحيرة الكبرى ، والنجوم قد انعكست فيها تحالها زهرا ، وقابلتها المجرة فسالت فيها نهرا ، وقد أريجَتْ نوافجُ الند ، وماست معاطف الرند ، وحسد النسيمُ الروضَ فوشى بأسراره ، وأفشى حديث آسِه وعَرَّاره ، ومشى مختالاً بين لَبَّاتِ النورِ وأزراره ، وهو وجيم ، ودمعه مُنْسَجِم ، وزفراته تُتَرْجِمُ عن غَرَّامه ، وتجمجم عن تعذر مَرَّامه ، فلماً نظر إليه استداناه وقرَّبه ، وشكا إليه من الهجران ما استغربه ، وأنشده :

أيا نفسُ لا تجزعي واصبري وإلاَّ فإنَّ الهوى مُتَلِفٌ
حبيبٌ جفاك ، وقلبٌ عصاك ولاح لحاك ، ولا منصفٌ
شجونٌ منَعنَ الجفونَ الكرى وعوَضَها أدمعاً تنزفُ

فانصرف ولم يعلمه بقصته ، ولا كشف له عن غُصَّته ، انتهى .
وقال الفتح أيضاً^٢ : أخبرني ذخر الدولة بن المعتضد أنه دخل عليه في ليلة قد ثنى السرور مَنامها ، وامتطى الحبور غاربها وسَنامها ، وراع الأُنس فؤادها ، وستر بياضُ الأمانى سوادها ، وغازل نسيم الروض زُوارها وعوَّادها ، ونورُ السُرُجِ قد قلَّصَ أذيالها ، ومحا من لجين الأرض نياها ، والمجلسُ مُكْتَسِ بالمعالي ، وصوت المثنائي والمثالث عالي ، والبدر قد كمل ، والتحفَ بضوئه القصر واشتمل ، وتزين بسناه وتجمَّل ، فقال المعتضد :

ولقد شربتُ الراحَ يسطعُ نورها والليلُ قد مدَّ الظلامَ رداء

١ القلائد : ٨ .

٢ القلائد : ٦ .

حتى تبدى البدرُ في جوزائه ملكاً تنهى بهجةً وبهاء
وتناهضتُ زُهرُ النجومِ بحفَّهُ لألاؤها فاستكملَ الألاء
لما أرادَ تنزهاً في غربهِ جعل المظلةَ فوقه الجوزاء
وترى الكواكبَ كالمواكبِ حوله رفعتُ ثُرَيَّاها عليه لواء
وحكيته في الأرضِ بين كواكبِ وكواعبِ جمعتُ سنا وسناء
إن نَشَرْتَ تلكَ الدروعَ حنادساً ملأتُ لنا هذي الكؤوسَ ضياء
وإذا تغنَّتْ هذهِ في ميزهَرٍ لم تألُ تلكَ على التَّريكِ غناء

وأخبرني ابن إقبال الدولة [بن مجاهد]^١ أنه كان عنده في يوم قد نشر من غيمه رداء ندد ، وأسكب من قطره ماء وَرَد ، وأبدى من برقه لسان نار ، وأظهر من قوس قزحهِ حنايا آس^٢ حفت بنرجس وجلنار ، والروض قد بعث رِيَّاه ، وبث الشكر لسُقَيَّاه ، فكتب إلى الطبيب الأديب أبي محمد المصري :

أيُّها الصاحبُ الذي فارقتَ عيِّ ني ونفسي منهُ السنا والسناء
نحنُ في المجلسِ الذي يهَبُ الرا حةَ والمسمعَ الغنى والغناء
نتعاطى التي تُنَسِّي من الرقة ةِ واللذةِ الهوى والهواء
فأتبه تُلَفِّ راحةً ومحيِّا قد أعدّا لك الحيا والحياء

فوافاه وألقى مجلسه وقد أتلت في أباريقه أجيادها ، وأقامت فيه خيل السرور طرادها ، وأعطته الأمانى انطباعها وانقيادها ، وأهدت الدنيا ليومه مواسمها وأعيادها ، وخلعت عليه الشمس شعاعها ، ونشرت فيه الحدائق إيناعها ، فأديرت الراح ، وتعوطيت الأقداح ، وخامر النفوس الابتهاج والارتياح ، وأظهر المعتمد من إيناسه ، ما استرق به نفوس جلاسه ، ثم دعا

١ زيادة من القلائد .
٢ الأصول : خبايا آس .

بكبير ، فشربه كالشمس غربت في ثبير ، وعندما تناولها ، قام المصري ينشد
أبياتاً تمثلها^١ :

اشربْ هنيئاً عليكِ التاجُ مرتفقاً بشاذمِهَرٍ ودَعْ غُمْدانَ اليمينِ
فأنتِ أولى بتاجِ الملكِ تلبسه من هودّةِ بنِ عليّ وابنِ ذي يزنِ

فطرب حتى زحف عن مجلسه ، وأسرف في تأنّسه ، وأمر فخلعت عليه
خيلع لا تصلح إلاّ للخلفاء ، وأدناه حتى أجلسه مجلس الأكفاء ، وأمر له بدنانير
عدداً ، وملاً له بالمواهب يدأ .

وله في غلام^٢ رآه يوم العروبة من ثنبيات الوغى طالعاً ، ولطلى الأبطال
قارعاً ، وفي الدماء والغآ ، ولمستبشع كؤوس المنايا سائغاً ، وهو ظبي قد فارق
كناسه ، وعاد أسداً صارت القنا أحياسه ، ومتكاثف العجاج قد مزقه إشراقه ،
وقلوب الدارعين قد شكتهما أحداقه ، فقال :

أبصرتُ طِرفكَ بينَ مشتجِرِ القنا فبدا لَطِرفي أَنه فَلَكَ
أوليسَ وجهكَ فوقه قمرًا يُجَلّي بنيرَ نورِهِ الحلكُ

وقال فيه :

ولما اقتحمتَ الوغى دارعاً وقنّعتَ وجهكَ بالمغفرِ
حسبنا مُحيّاك شمسَ الضحى عليها سحابٌ من العنبرِ

وقد جمح بنا القلم في ترجمة المعتمد بن عبّاد بعض جموح ، وما ذلك إلا
لما علمنا أن نفوس الأدباء إلى أخباره رحمه الله تعالى شديدة الطموح ، وقد جعل
الله تعالى له كما قال ابن الأبار في « الحلة السراء » رقةً في القلوب وخصوصاً

١ نسب المبرد البيتين لشاعر من أهل الري يكنى أبا يزيد أنشدهما عبد الله بن طاهر (الكامل ٢ : ٢٤) .

٢ القلائد : ٨ .

بالمغرب فإن أخباره وأخبار الرميكية إلى الآن متداولة بينهم ، وإن فيها لأعظم
عبرة ، رحم الله تعالى الجميع .

رجع إلى أخبار النساء :

11 - ومنهن العبادية جارية المعتضد عبّاد¹ ، والد المعتمد ، أهداها إليه
مجاهد العامري من دانية ، وكانت أديبة ، ظريفة ، كاتبة ، شاعرة ، ذاكرة
لكثير من اللغة ، قال ابن عليم في شرحه لأدب الكتّاب لابن قتيبة ، وذكر
الموسعة وهي خشبة بين حمالين يجعل كل واحد منهما طرفها على عنقه ، ما
صورته : وبذكر الموسعة أغربت جارية لمجاهد أهداها إلى عبّاد كاتبة شاعرة
على علماء إشبيلية وبالهمزة² التي تظهر في أذقان بعض الأحداث ، وتعتري بعضهم
في الخدين عند الضحك ، فأما التي في الذقن فهي النونة ، ومنه قول عثمان رضي
الله تعالى عنه : دسّموا³ نونته لتدفع العين ، وأما التي في الخدين عند الضحك
فهي الفحصّة ، فما كان في ذلك الوقت في إشبيلية من عرف منها واحدة .
وسهر عباد ليلة لأمر حزبه وهي نائمة ، فقال :

تَنَامُ وَمُدُنْفُهَا يَسْهَرُ وَتَصْبِرُ عَنْهُ وَلَا يَصْبِرُ

فأجابته بديهة بقولها :

لئن دامَ هذا وهذا لَهُ سِيهْلُكَ وَجَدّاً وَلَا يَشْعُرُ

ويكفيك هذا شاهداً على فضلها رحمها الله تعالى وسامحها⁴ .

١ ترجمتها في الذيل والتكملة (آخر جزء الغرباء) ، وما أثبتته المقرئ منقول بنصه عنه .

٢ هكذا في الذيل ، وفي ق : وبالفرجة .

٣ م : وسما ؛ وهي بالبدال في الذيل وفوقها علامة « صح » .

٤ الذيل : ولا يصبر .

٥ وسامحها : زيادة من ق .

12 - ومنهن : بثينة بنت المعتمد بن عباد ، وأمها الريمكية السابقة الذكر ، وكانت بثينة هذه نحواً من أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر ، ولما أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت من جملة من سُبِي ، ولم يزل المعتمد والريمكية عليها في وِلكه دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب ، وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سرّية ووهبها لابنه ، فنظر من شأنها وهيئت له ، فلما أراد الدخول عليها امتنعت ، وأظهرت نسبها ، وقالت : لا أحل لك إلاّ بعقد النكاح إن رضي أبي بذلك ، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلكها لأبيها ، وانتظار جوابه ، فكان الذي كتبه بخطها من نظمها ما صورته :

اسمِعْ كلامي واستمعْ لمقالي	فهي السلوكُ بدتْ من الأجيادِ
لا تنكروا أني سُبيتُ وأنتي	بنتُ الملكِ من بني عبّادِ
ملكٌ عظيمٌ قد تولّى عصره	وكذا الزمانُ يؤول للإفسادِ
لما أراد الله فرقةَ شملنا	وأذاقنا طعمَ الأسى عن زادِ
قامَ النفاق على أبي في ملكه	فدنا الفراقُ ولم يكن بمرادِ
فخرجتُ هاربةً فحازني امرؤ	لم يأتِ في إعجاله بسدادِ
إذ باعني بيعَ العبيدِ فضمني	من صانتي إلاّ من الانكادِ
وأرادني لنكاحِ نجلٍ طاهرٍ	حسنِ الخلاقِ من بني الأنجادِ
ومضى إليك يسومُ رأيك في الرضى	ولأنت تنظرُ في طريقِ رشادي
فعساك يا أبتي تعرفني به	إن كان ممن يُرتجى لودادِ
وعسى ريمكيةُ الملوكِ بفضلها	تدعُو لنا باليمن والإسعادِ

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغامت ، واقعٌ في شرك الكروب

والأزمات ، سرٌّ هو وأمّها بجياتها ، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها ،
 إذ علما مآل أمرها ، وجبر كسرهما ، إذ ذلك أخف الضررين ، وإن كان الكرب
 قد ستر القلب منه حجابٌ رَيْنٌ ، وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبي
 المذكور ، وكتب إليها أثناء كتابه ممّا يدل على حسن صبره المشكور :

بنيتي كوني به برّةً فقدّ قضي الوقتُ بإسعافه

وأخبار المعتمد بن عباد ، تذيب الأكباد ، فلنرجع إلى ذكر نساء الأندلس
 فنقول :

13 - ومنهن حفصة بنت حمدون^١ ، من وادي الحجارة ، ذكرها في
 « المغرب » وقال : إنّها من أهل المائة الرابعة ، ومن شعرها :

رأى ابنٌ جميلٌ أن يرى الدهرَ مجملًا فكلُّ الوري قد عمهم سيّبُ نعمته
 لهُ خلقتُ كالخمرِ بعدَ امتزاجِها وحسُنُ فما أحلاه من حين خلقتهُ
 بوجهٍ كمثلِ الشمسِ يدعو ببشره عيوناً ويعشّيهَا بإفراطٍ هيبته^٢

ولها :

لي حيبٌ لا ينثني لِعتابٍ وإذا ما تركتُهُ زاد تيهَا
 قال لي هل رأيتِ لي من شبيهِ قلتُ أيضاً وهَلْ ترى لي شبيها

ولها تدم عبيدها :

يا ربّ إنّي من عبيدي على جمرِ الغضا ، ما فيهم من نجيبٍ
 إمّا جهولٌ أبلهٌ متعبٌ أو فطنٌ من كيده لا يجيبُ

١ ترجمة حفصة بنت حمدون في الذيل والتكملة والسيوطي : ٤٦ والمغرب ٢ : ٣٧ .

٢ م : بإطراق .

وقال ابن الأَبَّار : إنَّها كانت أديبة عالمة شاعرة ، وذكرها ابن فرج صاحب « الحداائق » وأنشد لها أشعاراً منها قولها :

يا وحشي لأحبتني يا وحشةً متماديه
يا ليلةً ودعتهم يا ليلةً هي ما هيه

14 - ومنهن زينب المرية^١ ، كانت أديبة شاعرة ، وهي القائلة :

يا أيُّها الراكبُ الغادي لطيبته عرَّجْ أنبئكَ عن بعضِ الذي أجدُ
ما عالج الناسُ من وجد تضمَّنهم إلا ووجدني بهم فوق الذي وجدوا
حسبي رضاهُ وأنِّي في مسرَّتهِ وودّه آخرَ الأيامِ أجتهدُ

15 - ومنهن غاية المني^٢ ، وهي جارية أندلسية متأدِّبة ، قدمت إلى المعتصم بن صُمَاح ، فأراد اختبارها فقال لها : ما اسمك ؟ فقالت : غاية المني ، فقال لها : أجزبي :

اسألُوا غايَةَ المني

فقالت :

مَنْ كسا جسمي الضنى
وأراني موهباً سيَقُولُ الهوى أنا

هكذا أورد السالمي هذه الحكاية في تاريخه .

قال ابن الأَبَّار : وقرأت بخطّ الثقة حاكياً عن القاضي أبي القاسم ابن حبيش قال : سيقت لابن صُمَاح جارية نبيلة تقول الشعر وتحسن المحاضرة ، فقال :

١ سقطت هذه الترجمة من نسخة « م » ؛ وترجمة زينب المرية في الذيل والتكملة .

٢ ترجمة غاية المني في الذيل والتكملة وفيه ما أورده المقرئ .

تُحْمَل إلى الأستاذ ابن الفراء الخطيب ليختبرها ، وكان كفيفاً ، فلما وصلته
قال : ما اسمك ؟ فقالت : غاية المنى ، فقال : أجيزي :

سل هوى غايةِ المنى مَنْ كَسَا جَسْمِي الضنى

فقالت تجيزه :

وأراني متيمماً سَيَقُول الهوى أنا

حكى ذلك لابن صمادح ، فاشتراها ، انتهى .

16 - ومنهن حمدة ، ويقال حمدونة بنت زياد المؤدب¹ من وادي آش ،
وهي خنساء المغرب ، وشاعرة الأندلس ، ذكرها الملاحى وغيره ، وممن روى
عنها أبو القاسم ابن البراق .

ومن عجيب شعرها قولها :

ولمّا أبى الواشونَ إلّا فراقنا وما لهمُ عندي وعندك من نارٍ
وشتوا على أسماعنا كلّ غارةٍ وقلّ حمّاتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ومن نفسي بالسيفِ والسيل والنارِ

وبعض يزعم أن هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرزاق الغرناطية ، وكونها
لحمدة أشهر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .
وخرجت حمدة مرّة للوادي مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت
قالت :

١ ترجمة حمدة (أو حمدونة) بنت زياد في التكملة (رقم : ٢١٢٠) والإحاطة ١ : ٤٩٨ وتحفة
القادم : ١٦٢ والمطرب : ١١ والسيوطي : ٤٨ والذيل والتكملة ، وأبوها هو زياد بن بقي
العوفي ، وهي أخت زينب .

أَبَاحَ الدَّمْعُ أُسْرَارِي بِيَوَادِي لَهُ لِلْحَسَنِ آثَارٌ بِوَادِي
فَمَنْ نَهْرٍ يَطُوفُ بِكُلِّ رَوْضٍ وَمَنْ رَوْضٍ يَرْفُ بِكُلِّ وَادِي
وَمَنْ بَيْنَ الظُّبَاءِ مَهَاةُ إِنْسٍ لَهَا لِبِي وَقَدْ مَلَكَتْ فَوَادِي
لَهَا لِحَظٌ تُرْقِدُهُ لِأَمْرِ ذَاكَ الْأَمْرُ يَمْنَعُنِي رِقَادِي
إِذَا سَدَلْتُ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ فِي جَنَحِ الدَّادِي ١
كَأَنَّ الصَّبِيحَ مَاتَ لَهُ شَقِيقٌ فَمَنْ حَزَنٌ تَسْرَبَلَ بِالْحَدَادِ

وقال ابن البراق في سَوَقِ هذه الحكاية : أنشدتنا حمدة العوفية لنفسها ،
وقد خرجت متزهة بالرملة من نواحي وادي آش فرأت ذات وجه وسيم
أعجبها ، فقالت - وبين الرويتين خلاف - : أباح الدمع ، إلى آخره ،
ونسب بعضهم إلى حمدة هذه الأبيات الشهيرة بهذه البلاد المشرقية ، وهي :

وقانا لفحةَ الرضاءِ وادٍ سقاه مُضَاعَفُ الغيثِ العميمِ
حَلَكْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا حُنُوَ المَرْضَعَاتِ عَلَى الفطيمِ
وَأرشفْنَا عَلَى ظمإِ زُلَالاً أَلَذَّ مِنَ المُدَامَةِ للنديمِ
يصدُّ الشَّمْسَ أَنْتَى واجهتنا فيحجبها ويأذَنُ للَنَسيمِ
يَرُوعُ حِصَاهُ حَالِيَةَ العِدَارِي فتلمسُ جَانِبَ العَقْدِ النَظِيمِ

وممن جزم بذلك الرعيني ، وقال : إن مؤرخي بلادنا نسبوها لحمدة من
قبل أن يوجد المنازي الذي ينسبها له أهل المشرق ، وقد رأيت أن أذكر كلامه
برمته ونصّه : كانت من ذوي الألباب ، وفحول أهل الآداب ، حتى إن بعض
المنتحلين تعلق بهذه الأهداب ، وادعى نظم هذين البيتين - يعني : ولما أبى
الواشون ، إلى آخره - لما فيهما من المعاني والألفاظ العذاب ، وما غره في ذلك

١ في الأصول : أفق السواد ؛ واخترنا رواية ابن عبد الملك ؛ والدادي : ثلاث ليال من آخر الشهر ؛
وفي المطرب : رأيت الصبح أشرق في الدادي .

إلاّ بُعدُ دارها ، وخلوّ هذه البلاد المشرقية من أخبارها ، وقد تلبّس بعضهم أيضاً بشعارها ، وادعى غير هذا من أشعارها ، وهو قولها : وقانا لفحة الرمضاء وادٍ ، إلى آخره ، وإن هذه الأبيات نسبتها أهلُ البلاد للمنازي من شعرائهم ، وركبوا التعصّب في جادة ادعائهم ، وهي أبيات لم يخلبها غير لسانها ، ولا رقم برديها غير إحسانها ، ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا وهي الأندلس أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود ، ويتصف بلفظة الموجود ، انتهى . وهو أبو جعفر الأندلسي الغرناطي ، نزيل حلب .

وحكى ابن العديم في تاريخ حلب ما نصّه : وبلغني أن المنازي عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبي العلاء المعري ، فلمّا وصل إليه أنشده الأبيات ، فجعل المنازي كلّما أنشد المصراع الأوّل من كل بيت سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثاني الذي هو تمام البيت كما نظمه ، ولمّا أنشده قوله :

نزلنا دَوْحَهُ فحنا علينا

قال أبو العلاء :

حنوّ الوالداتِ على الفطيم

فقال المنازي : إنّما قلتُ « على اليتيم » فقال أبو العلاء : الفطيم أحسن . انتهى .

وهذا يدل على أن الرواية عنده « حنوّ الوالداتِ » وقد تقدّم المرضعات ، والله تعالى أعلم .

وقال ابن سعيد : يقال لثناء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة « العريبات » لمحافظةنّ على المعاني العربية ، ومن أشهرهن زينب بنت زياد الوادي آشي ، وأختها حمدة ، وحمدة هذه هي القائلة وقد خرجت إلى نهر منقسم الجداول بين الرياض مع نساءها فسبحنّ في الماء وتلاعبنّ :

أَبَاحُ الدَّمْعِ أُسْرَارِي بُوَادِي

الأبيات ، انتهى .

17 - ومنهنّ عائشة بنت أحمد القرطبية ١ .

قال ابن حيّان في «المقتبس» : لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يَعْدِلُهَا علماً وفهماً وأدباً وشِعْراً وفصاحة ، تمدح ملوك الأندلس وتخطبهم بما يعرض لها من حاجة ، وكانت حَسنة الخط ، تكتب المصاحف ، وماتت عذراء لم تُنكح سنة أربعمائة .

وقال في «المغرب» : إنَّها من عجائب زمانها ، وغرائب أوانها ، وأبو عبد الله الطيب عمّها ، ولو قيل «إنَّها أشعر منه» لجاز ، ودخلت على المظفر ابن المنصور بن أبي عامر وبين يديه ولد ، فارتجلت :

أراكَ اللهُ فيه ما تريدُ	ولا بَرِحَتْ معاليه تزيدُ
فقد دلتُ مخايلَهُ على ما	تؤمّله وطالعهُ السعيدُ
تشوّقت الجيادُ له وهزّتْ	حسامُ هوى وأشرقتْ البنودُ
فسوف تراهُ بدرأ في سماء	من العليّا كواكبه الجنودُ
وكيفَ يخبُّ شبلٌ قد نمتهُ	إلى العليّا ضراغمةٌ أسودُ
فأنتم آلَ عامرٍ خيرُ آلٍ	زكا الأبناءُ منكم والجدودُ
وليدكمُ لدى رأيٍ كشيخٍ	وشيخكمُ لدى حربٍ وليدُ

وخطبها بعض الشعراء ممّن لم ترضه فكتبت إليه :

أنا لبوةٌ لكنّني لا أرتضي	نفسى مُناخاً طولَ دهري من أحدٍ
ولو أنّني اختارُ ذلك لم أجب	كلباً وكم غلقتُ سمعي عن أسدٍ

١ ترجمة عائشة القرطبية في الصلة : ٦٥٤ والسيوطي : ٧١ واسم أبيها أحمد بن محمد بن قادم .

سكنت إشبيلية ، وأصلها والله أعلم من شلب .

وذكرها ابن دحية في « المطرب »^٢ وقال : إنَّها أديبة شاعرة [جزلة] مشهورة ، وكانت تُعلم النساء الأدب ، وتحتشم لدينها وفضلها ، وعمرت عمراً طويلاً ، سكنت إشبيلية ، واشتهرت بها بعد الأربعمائة . وذكرها الحميدي ، وأنشد لها جوابها لما بعث المهدي إليها بدنانير ، وكتب إليها :

ما لي بشكرِ الذي أوليتِ من قبَلِ
يا فذّةَ الظرفِ في هذا الزمانِ ويا
أشبهتِ مريمًا العذراءِ في ورَعِ
لو أنني حزتُ نطقَ اللّسنِ في الحلالِ
وحيدةَ العصرِ في الإخلاصِ في العملِ
وفقتِ خنساءَ في الأشعارِ والمثلِ
ونصّ الجواب منها :

من ذا يجاريكَ في قولٍ وفي عملِ
ما لي بشكرِ الذي نَظَمْتَ في عنقي
حلّيتني بحلّى أصبحتُ زاهيةً
للهِ أخلاقكُ الغرُّ التي سقيتُ
أشبهتِ مروانَ مَنْ غارت بدائعُه
من كان والده العضبَ المهند لم
وقد بدّرتَ إلى فضلٍ ولم تُسلِ
من اللّالي وما أوليتِ مِنْ قبَلِ
بها على كلِّ أنثى من حلّى عطلِ
ماء الفراتِ فرقّت رقةَ الغزلِ
وأنجذتُ وغدتُ من أحسن المثلِ
يلدُ من النسلِ غيرَ البيضِ والأسلِ

ومن شعرها وقد كبرت :

وما يُرتجى من بنتِ سبعينَ حجّةً
تدبُّ ديببَ الطفلِ تسعى إلى العصا
وسبعٍ كنسجِ العنكبوتِ المهلهلِ
وتمشي بها مشيَ الأسيرِ المكبَلِ

١ ترجمة مريم في الصلة : ٦٥٦ والجدوة : ٣٨٩ (وبغية المتلمس رقم : ١٥٨٤) والسيوطي : ٩٠ .

٢ يبدو أن المقرئ وهم هنا ، فأثبت نص الصلة ونسبه للمطرب ، وليس في المطرب ترجمة لمريم هذه .

19 - ومنهنّ أسماء العامرية^١ ، من أهل إشبيلية ، كتبت إلى عبد المؤمن ابن علي رسالة نمت فيها إليه بنسبها العامري ، وتسأله في رفع الانزال عن دارها ، والاعتقال عن مالها ، وفي آخرها قصيدة أولها :

عرفنا النصرَ والفتحَ المُبينَا لسيدنا أميرِ المؤمنينَا
إذا كان الحديثُ عن المعالي رأيتُ حديثكم فينا شُجُونَا

ومنها :

رويتُمُ علمَهُ فعلمتموه وصنمَ عهدَهُ فغدا مَصُونَا

20 - ومنهن أم الهناء بنت القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية ، سمعتُ أباها ، وكانت حاضرة النادرة ، سريعة التمثل ، من أهل العلم والفهم والعقل ، ولها تأليف في القبور ، ولما ولي أبوها قضاء المريّة دخل داره وعيناه تدرقان وجدّاً لمفارقة وطنه ، فأنشدته متمثلة :

يا عينُ صارَ الدمعُ عندكِ عادةً تبكينَ في فرحٍ وفي أحزانِ

وهذا البيت من جملة أبيات هي :

جاء الكتابُ من الحبيبِ بأنّه سيزورني فاستعبرتُ أجفاني
غلبَ السرورُ عليّ حتى إنّه من عظم فرط^٢ مسرتي أبكاني

وبعده البيت ، وبعده :

فاستقبلي بالبشر يومَ لقائهِ ودعي الدموعَ ليلية الهجرانِ

١ ترجمتها في الذيل والتكملة ؛ وما ورد هنا منقول عنه .

٢ م : من فرط عظم .

21 - ومنهنَّ مهجة القرطبية^١ صاحبة ولادة رحمهما الله تعالى ، وكانت من أجلّ نساء زمانها ، وعلقت بها ولادة ، ولازمت تأديبها ، وكانت من أخفّ النَّاسِ روحاً ، ووقع بينها وبين ولادة ما اقتضى أن قالت :

ولادةٌ قد صرتِ ولادةً من غيرِ بعلٍ ، فُضِّحَ الكاتمُ
حككتُ لنا مريمَ لكنّه نخلَةٌ هذي ذكراً قائمٌ

قال بعض الأكابر : لو سمع ابن الرومي هذا لأقرّها بالتقديم .
ومن شعرها :

لئن قد حمى عن ثغرها كلّ حائمٍ فما زال يُحمى عن مُطالبه الثغرُ
فذلك تحميه القواضبُ والقننا وهذا حماه من لواظها السحرُ
وأهدى إليها من كان يهيم بها خوفاً ، فكتبت إليه :

يا مُتحمفاً بالخوخِ أحبابه أهدلاً به من مُثنجٍ للصدورِ
حكى تُديّ الغيدِ تفليكه لكنه أخزى رؤوس الأيورِ

22 - ومنهنَّ هند جارية أبي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي ، وكانت أديبة شاعرة ، كتب إليها أبو عامر ابن يَنْتق يدعوها للحضور عنده بعُودها :

يا هندُ هل لكِ في زيارةِ فتيةٍ نبدوا المحارمَ غيرَ شربِ السلسلِ
سمعوا البلابلَ قد شدّوا فتذكروا نغماتِ عودِكِ في الثقلِ الأولِ
فكتبت إليه في ظهر رقعتة :

يا سيداً حازَ العُلا عن سادةٍ شُمَّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ

١ ترجمة مهجة في المغرب ١ : ١٤٣ والسيوطي .: ٩٣ ونسبتها القرطبية تميزها عن مهجة الغرناطية وقد ترجم للثانية ابن عبد الملك .

حَسْبِي مِنَ الْإِسْرَاعِ نَحْوَكْ أَتَيْتِي كُنْتُ الْجَوَابَ مَعَ الرَّسُولِ الْمَقْبَلِ

23 - ومنهنَّ الشَّلبية ، قال ابن الأَبَّار : ولم أَفْ على اسمها ، وكتبت إلى

السلطان يعقوب المنصور تنظَّم من وُلاة بلدها وصاحب خراجها :

قد آنَ أنْ تبكي العيونُ الآبيةُ ولقد أرى أنَ الحجارةَ باكيةُ
يا قاصداً المصر الذي يُرْجى بهِ إنْ قدَّرَ الرحمنُ رُفَعَ كراهيهِ
نادِ الأميرَ إذا وقفتَ بابِه يا راعياً إنَّ الرعيَةَ فانيه
أرسلتها هملاً ولا مرعى لها وتركتها نهبَ السباعِ العاديه
شَلْبٌ كلاسلبٍ ، وكانت جنةً فأعادها الطاغون ناراً حاميه
حافوا وما خافوا عقوبةَ ربهم واللهُ لا تخفي عليهِ خافيه

فيقال : إنَّها أُلقيت يوم الجمعة على مصلى المنصور ، فلمَّا قضى الصلاة
وتصفحها بحث عن القصَّة فوقف على حقيقتها ، وأمر للمرأة بصلَّة .

وحكي أن بعض قضاة لُوشة كانت له زوجة فاقت العلماء في معرفة الأحكام
والنوازل ، وكان قبل أن يتزوجها ذُكر له وصفها فتزوجها ، وكان في مجلس
قضائه تنزل به النوازل ، فيقوم إليها فتشير عليه بما يحكم به ، فكتب إليه بعضُ
أصحابه مداعباً بقوله :

بلُوشة قاضٍ لهُ زوجةُ وأحكامها في الوري ماضيهُ
فيا لَيْتَهُ لم يكن قاضياً وبإليتها كانتِ القاضيهُ

فأطلع زوجته عليه حين قرأه فقالت : ناولني القلم ، فناولها ، فكتبت

بديهة :

هو شيخُ سوء مُزْدَرِّي لهُ شُوبٌ عاصيهُ
كلاً لئن لم ينته لنسفعاً بالناصيهُ

وسمعتُ بعضَ أشياخنا يحكي القضية عن لسان الدين بن الخطيب ، وأنه هو الذي كتب يُداعب زوج المرأة فكتبت إليه :

إنَّ الإمامَ ابنَ الخطيبِ لهُ شيوِبٌ عاصيَهُ

إلى آخره ، فالله أعلم .

24 - ومنهنَّ نزهون الغرناطية^١ .

قال في « المغرب » : من أهل المائة الخامسة ذكرها الحنجاري في « المسهب » ووصفها بخفة الروح ، والانطباع الزائد ، والحلاوة ، وحفظ الشعر ، والمعرفة بضرب الأمثال ، مع جمال فائق ، وحسن رائق ، وكان الوزير أبو بكر ابن سعيد أولع الناس بمحاضرتها ومذاكرتها ومراسلتها ، فكتب لها مرة :

يا مَنْ لهُ ألفُ خيلٍ من عاشقٍ وصديقٍ
أراكَ خلَّيتَ للنِّساءِ سِرَّ منزلاً في الطريقِ

فأجابته :

حللتَ أبا بكرٍ محلاً منعتُهُ سواكَ ، وهل غيرُ الحبيبِ له صدري
وإن كانَ لي كم من حبيبٍ فإنما يُقدِّمُ أهلُ الحقِّ حُبَّ أبي بكرٍ

قيل : لو قالت « وإن كان خلاني كثيراً... إلخ » لكان أجود .

ولمَّا قال فيها المخزومي :

١ ترجمة نزهون في التحفة : ١٦٤ والمغرب ٢ : ١٢١ والذيل والتكملة والسيوطي : ٩٧ والإحاطة ١ : ٤٣٤ وقال ابن الأبار : إنها عاصرت حمدة أو قاربت عصرها ، ونقل ابن عبد الملك عنه قوله : وهو (أي القليبي) فيما أحسب أبو بكر محمد بن أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب النساني .

على وجه نزهونٍ من الحسن مسحةٌ
قواصدُ نزهونٍ تواركُ غيرها
وتحتَ الثيابِ العارُ لو كان باديا
ومن قصد البحرَ استقلَّ السواقيا
قالت :

إن كانَ ما قُلْتُ حَقًّا
فصارَ ذكري ذميماً
من بعض عهدِ كريمٍ
يُعزَى إلى كلِّ لومٍ
وصرتُ أقبحَ شيءٍ
في صورة المخزومي

وقد تقدمت حكايتها في «الباب الأول» من هذا ، فلترجع .
وقال لها بعض الثقلاء : ما على من أكل معك خمسمائة سوط ؟ فقالت :

وذي شقوةٍ لما رأيَ رأى لهُ
فقلتُ لهُ كلُّها هنيئاً فإنما
تمنِّيهِ أن يَصُلِّيَ معي جاحمَ الضربِ
خُلقتُ إلى لبسِ المطارفِ والشربِ

٦٧٩ - [ابن قزمان]

وقال ابن سعيد في طالعه لما وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة واجتماعه
بجنته بقرية الزاوية من خارجها بنزهون القلاعية الأدبية ، وما جرى بينهما ،
وأنها قالت له بعقب ارتجال بديع - وكان يلبس غفارة صفراء على زي الفقهاء
حينئذ - أحسنت يا بقرة بني إسرائيل ، إلا أنك لا تسرُّ الناظرين ، فقال لها :
إن لم أسرُّ الناظرين فأنا أسرُّ السامعين ، وإنما يُطلب سرور الناظرين منك يا فاعلة
يا صانعة ، وتمكن السكر من ابن قزمان ، وآل الأمر إلى أن تدافعوا معه حتى
رموه في البركة ، فما خرج إلا وهو قد شرب كثيراً من الماء ، وثيابه تهطل ،
فقال : اسمع يا وزير ، ثم أنشد :

١ إن . . . الناظرين : زيادة من م .

إيه أبا بكر ولا حولَ لي بدفع أعيانٍ وأنذالِ
 وذات فرجٍ واسعٍ دافقٍ بالماء يحكي حالَ أذيابي
 غرقتني في الماء يا سيدي كَفَّرَهُ بالتغريقِ في المالِ

فأمر بتجريد ثيابه ، وخلع عليه ما يليق به ، ومَرَّ لهم يوم بَعَدَ عهدهمُ
 بمثله . ولم ينتقل ابن قزمان من غرناطة إلاّ من بعد ما أجزل له الإحسان ، ومدحه
 بما هو ثابت له في ديوان أزجاله . وحُكيَ عنه فيما أظن - أعني ابن قزمان -
 ويحتمل أنّه غيره أنّه تبع إحدى الماجنات ، وكان أحول ، فأطمعته في نفسها ،
 وأشارت إليه أن يتبعها ، فاتَّبَعها حتى أتت به سوق الصاغة بإشبيلية ، فوقفت على
 صائغ من صيّاغها ، وقالت له : يا معلم مثل هذا يكون فص الخاتم الذي قلت
 لك عنه ، تشير إلى عين ذلك الأحول الذي تبعها ، وكانت قد كلفت ذلك الصائغ
 أن يعمل لها خاتماً يكون فصّه عين إبليس ، فقال لها الصائغ : جيئني بالمثال ، فإتني
 لم أرَ هذا ولا سمعته قط ، فجاءته به عن مثال ، وحكاها بعضهم على وجه آخر
 وأنها ذهبت إلى الصائغ وقالت له : صورّ لي صورة الشيطان ، فقال لها : اثنييني
 بمثال ، فلمّا تبعها ابن قزمان جاءته به ، وقالت له : مثل هذا ، فسأل ابن قزمان
 الصائغ فأعلمه فخجل ولعنها ، وكتب أبو بكر ابن قزمان على باب جنته :

وقائلٍ يا حُسْنها جنّةٌ لا يدخلُ الحزنُ على بابها
 فقلتُ والحقُّ له صولةٌ أحسنُ منها مجدُّ أربابها

وله :

كثيرُ المالِ تمسكُهُ فيصْفِي وقد يبقى معَ الجودِ القليلُ
 ومن غرستَ يدها ثمارَ جودٍ ففي ظلِّ الثناءِ لهُ مقيلُ

رجع إلى أخبار نزهون بنت القليبي :

حكى أنّها كانت تقرأ على أبي بكر المخزومي الأعمى ، فدخل عليهما أبو

بكر الكندي ، فقال يخاطب المخزومي :

لَوْ كُنْتَ تَبْصِرُ مِنْ تَجَالِسِهِ

فَأَفْهَمَ ، وَأَطَالَ الْفِكْرَ فَمَا وَجَدَ شَيْئاً ، فَقَالَتْ نَزْهُونُ :

لَعَدَوْتَ أَخْرَسَ مِنْ خِلَاخِلِهِ

الْبَدْرُ يَطْلُعُ مِنْ أَرْزَتِهِ وَالْغَصْنُ يَمْرَحُ فِي غَلَائِلِهِ

وكانت ماجنة ، ومن شعرها قولها :

لِلَّهِ دَرٌّ اللَّيَالِي مَا أَحْسِنَهَا وَمَا أَحْسِنَ مِنْهَا لَيْلَةَ الْأَحَدِ
لَوْ كُنْتَ حَاضِرْنَا فِيهَا وَقَدْ غَفَلْتُ عَيْنُ الرِّقِيبِ فَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى أَحَدِ
أَبْصَرْتَ شَمْسَ الضُّحَى فِي سَاعِدِي قَمَرٍ بَلْ رِيْمَ خَازِمَةٍ فِي سَاعِدَتِي أُسْدِ

٦٨٠ - [مقطعات لابن الزقاق]

وهذا المعنى متفق مع قول ابن الزقاق^١ :

وَمُرْتَجَّةِ الْأُرْدَافِ أَمَا قَوَامُهَا فَلَدَنْ وَأَمَّا رِدْفُهَا فَرَدَاخُ
أَلَمْتُ فَبَاتَ اللَّيْلُ مِنْ قِصْرِ بِهَا يَطِيرُ ، وَلَا غَيْرُ السَّرُورِ جَنَاحُ
فَبْتُ وَقَدْ زَارْتُ بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ يِعَانِقُنِي حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحُ
عَلَى عَاتِقِي مِنْ سَاعِدَيْهَا حَمَائِلُ وَفِي خَصْرِهَا مِنْ سَاعِدِي وَشَاحُ

وابن الزقاق هذا له في النظم والغوص على المعاني الباع المديد ، ومن نظمه

قوله :

١ انظر مقطعات ابن الزقاق هذه في ديوانه : ١٢٩ ، ٢٩٥ ، ١٧٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٤ ، ١١٣ (وبعضها عن النفع نفسه) .

رئيسُ الشرقِ محمودُ السجايا
نسميه بيحيى وهو ميتٌ
يعافُ الوردَ إن ظمئتُ حشاهُ
وفي مالِ اليتيمِ له ولوغُ
يُقَصِّرُ عَنْ مَدَائِحِهِ الْبَلِيغُ

وقوله :

كُتِبْتُ وَلَوْ أَنْتَنِي أَسْتَطِيعُ
قَدَدْتُ الْبِرَاعَةَ مِنْ أَعْمَلِي
وَكَانَ الْمَدَادُ سَوَادَ الْبَصْرِ
لِإِجْلَالِ قَدْرِكَ بَيْنَ الْبَشَرِ

وقوله :

غريرُ يُّباري الصبحَ لِإِشْرَاقِ خَدِّهِ
تُرفُ بِفِيهِ ضَاحِكًا أَقْحَوَانَةً
وَيَهْتَرُ فِي بُرْدِيهِ مِنْهُ قُضِيبُ
وَفِي مَفْرِقِ الظَّلْمَاءِ مِنْهُ نُصَيْبُ

وقوله :

وَمَهْفَهفٍ نَبَتِ الشَّقِيقُ بِخَدِّهِ
مَاءُ الشَّبِيبَةِ وَالْغَرَامِ أَرْقُ مِنْ
يُحْيِي الْوَرَى بِتَحِيَّةٍ مِنْ وَصْلِهِ
إِنْ كُنْتُ أَهْدَيْتُ الْفَوَادِ لَهُ فَقَلُّ
وَاهْتَزَّ أَمْلُودُ النَّقَا فِي بُرْدِهِ
صَقَلِ الْحَسَامُ الْمُنْتَقَى وَفَرْنَدِهِ
مِنْ بَعْدِ مَا وَرَدُوا الْحِمَامَ بِصَدِّهِ
أَيُّ الْجَوَى بِجَوَانِحِ لَمْ يَهْدِهِ

وقوله :

أَرْقُ نَسِيمَ الصَّبَا عَرَفُهُ
وَمَرًّا بِنَا يَتَهَادَى وَقَدْ
وَمَدًّا لِمَسْمِهِ رَاحَةً
أَشَارَتْ بِتَقْبِيلِهَا لِلسَّلَامِ
وَرَأَى قُضِيبَ النَّقَا عِطْفُهُ
نَضًا سَيْفَ أَجْفَانِهِ طَرْفُهُ
فَخَلْتُ الْأَفْخَاحَ دَنَا قَطْفُهُ
فَقَالَ قَمِي لَيْتَنِي كَفَّهُ

وقوله :

بَأبِي مَنْ لَمْ يَدَعْ لِي لِحْظَهُ
فِي الْهَوَى مِنْ رَمَقٍ حِينَ رَمَقَ

جمعت نكهته في ثغره
وبدت خجلته في خده
عبقاً في نسقٍ يسبي الخدق
شفقاً في فلقٍ تحت غسق

وقال :

وعشية لبست ملاء شقيق
أبقت بها الشمس المنيرة مثل ما
لو أستطيع شربتها كلفاً بها
تزهى بلونٍ للحدودٍ أنيق
أبقى الحياء بوجنتي معشوق
وعدلت فيها عن كؤوس رحيق

وقال في مسامرة كتاب زعماء :

لله ليلتنا التي استخذي بها
طرات علي مع النجوم بأنجم
إن حوربوا فزعوا إلى بيض الظبي
فترى البلاغة إن نظرت إليهم
فلق الصباح لسدفة الإظلام
من فتية بيض الوجوه كرام
أو خوطبوا فزعوا إلى الأقلام
والبأس بين يراعة وحسام

وقال :

ومجدن في السرى قد تعاطوا
جنحوا وانحنوا على العيس حتى
نبدوا الغمض وهو حلو إلى أن
غفوات الهوى بغير كؤوس
خلتهم يعتبون أيدي العيس
وجدوه سلاقة في الرؤوس

وقال :

وحبب يوم السبت عندي أنتي
ومن أعجب الأشياء أني مسلم
ينادمني فيه الذي أنا أحببت
حنيف ولكن خير أيامي السبت

وانتصر من نساء الأندلس على هذا المقدار ، ونعد إلى ما كتنا فيه من
جلب كلام بلغاء الأندلس ذوي الأقدار ، فنقول :

٦٨١ - قال الخفاجي رحمه الله تعالى ١ :

وهاتفه في البان تُملي غرامها علينا وتتلو من صبابتها صُحفا
عجبت لها تشكو الفراق جهالةً وقد جاوبت من كل ناحية إلفا
ويُشجي قلوبَ العاشقين أنينها وما فهموا مما تغنّت به حرفا
ولو صدقت فيما تقول من الأسي لما لبست طوقاً ولا خضبت كفاً

٦٨٢ - وقال الأستاذ أبو محمد ابن صارة :

متى تلتقي عيني بدر مكارم تود الثريا أنها من مواطيه
ولما أهل المدجون بذكره وفاح تراب اليد مسكاً لواطيه
عرفنا بحسن الذكر حُسن صنيعه كما عرف الوادي بخضرة شاطيه

وقال يتغزل :

يا من تعرّضَ دونه شحطُ النوى فاستشرفت لحديثه أسماعي
إني لمن يحظى بقربك حاسدٌ ونواظري يحسدن فيك رقاعي
لم تطوك الأيام عني إنما نقلتكَ من عيني إلى أضلاعي

٦٨٣ - [مقطعات لابن العطار]

وقال الأديب أبو القاسم ابن العطار ٢ :

عبرنا سماء الجوّ والنهر مشرقٌ وليس لنا إلاّ الحجاب نجومٌ
وقد ألبسته الأيكُ برُدّ ظلّها وللشمس في تلك البرودِ رقومٌ

١ ديوان ابن خفاجة : ٣٧٠ (عن النفح) .

٢ القلائد : ٢٨٥ .

وله أيضاً ١ :

لله بهجة نزهة ضربت به فوق الغدير رواقها الأنشام^٢
فمع الأصيل النهر درع سابغ^١ ومع الضحى يلتاح فيه حسام^٢

وقال أيضاً ٣ :

هبت الريح بالعشي فحاكت وانجلي البدر بعد هدء فحاكت^١
زرّداً للغدير ناهيك جنته كفه للقتال منه أسنه^٢

وقال أيضاً ٥ :

لله حسن حديقة بسطت لنا ومنها النفوس سالف ومعاطف^١
تختال في حلال الربيع وحليه ومن الربيع قلائد ومطارف^٢

وله ٦ :

وسنان ما إن يزال عارضه يعطف قلبي بعطفه اللام^١
أسلمني للهوى فواحزني أن بزني عفتي وإسلامي
لحاظه أسهم ، وحاجبه قوس ، وإنسان عينه رامي

٦٨٤ - وارنجل أبو جعفر ابن خاتمة رحمه الله تعالى لما بات في قرية

بيش :

١ القلائد ، والمغرب ١ : ٢٥٤ .

٢ الأنشام - بالشين - نوع من الشجر .

٣ القلائد : ٢٨٥ .

٤ م : هذا .

٥ القلائد : ٢٨٦ .

٦ القلائد : ٢٨٨ والثالث في المغرب .

لله منزلنا بقرية بيّشٍ كاد الهوى فيها ادكاراً بي يشي
رُحنا إليها والبطاحُ كأنها صُحفٌ مذهبةٌ بلابريزِ العشي

فأجازه الوزير ابن جزى بقوله :

في فتية هزّت حُميماً الأَنسِ من أعطافهم فالكلُّ منها منتشي
يأتي علاهم بالصحيح ، ولفظهم بالمنتقى ، وجمالهم بالدهشِ

٦٨٥ - وقال السلطان أبو الحجاج النصري مرتجلاً أيام مقامه بظاهر

جبل الفتح سنة ٨١٥ :

ولم يتركوا أوطانهمُ بمرادهمُ ولكن لأحوالٍ أشابتُ مفارقي
أقامَ بها ليلُ التهاني تقلباً وقد سكنتَ جهلاً نفوسُ الخلائقِ
فعمّوضتُها ليلَ الصبايةِ بالشرى وأنسَ التلاقي بالحبيبِ المفارقِ
ولم يشني طرفٌ من النورِ ناعسٌ ولا معطفٌ للبانِ وسطَ الحدائقِ
ولا منهضُ الأشبالِ في عُقرِ غيرهمِ ولا ملعبُ الغزلانِ فوقَ النمارقِ
وعاطيتها صُبْحَ الدياجي مُدامةٌ تميلُ بها الركبانُ فوقَ الأيانقِ
إذا ما قطعنا بالمطيّ تنوفاً دجلنا لأخرى بالجيادِ السوابقِ
بحيثُ التقى موسى مع الحضرةِ آيةً عسى ترجعُ العقبي كوسى وطارقِ

وله :

مَنْ عاذري من غزالِ زانه حورٌ قد هامَ لما بدا في حُسْنِهِ البشرُ
ألحاضهُ كسيوفِ الهندِ ماضيةٌ لها بقلبي وإن سالتها أثرُ

٦٨٦ - وقال القاضي أبو القاسم ابن حاتم :

شكوتَ بما دهكَ وكان سِراً لمنَ ليستَ مودتُهُ صحيحةً
فتلكَ مصيبةٌ عادت ثلاثاً لصحبتهَا الشماتةُ والفضيحةُ

٦٨٧ - وقال الفقيه محمد بن سعيد الأندلسي مخاطباً للفقيه الفخار :

خَفَّفْ عَلَيْنَا قَلِيلاً أَيُّهَا الْعَلَمُ فربّما كان فينا مَنْ به أَلْمُ
لا يَسْتَطِيعُ نَهوضاً من تَأَلَّمه وإن تَمَادَى قَلِيلاً خانتِ الْقَدَمُ
كفى وَصِيَّةٌ مولانا وسيدنا محمدٍ فَاسْمَعُوا ما قال والتزموا

٦٨٨ - وقال ابن جُبَيْرِ اليحصبي فيمن أهدى إليه تفاحاً :

خَلِيلٌ لَمْ يَزَلْ قَلْبِي قَدِيمًا يميلُ بِفِرطِ صاغيةٍ إِلَيْهِ
أَتَانِي مُقْبِلاًً وَالْبَشْرُ بِيَدِي وسائلَ بَرَّةٍ كَرَمَتْ لَدَيْهِ
وَجاءَ بِعِرْفِ تَفاحِ ذَكِيٍّ فقلتُ أُنَى الخَلِيلِ بِسَيُوبِهِ
فأهدى من جَنَاهُ بِكُلِّ شَكْلِ يَلُوحُ جَمالُ مُهَدِيها عَلَيهِ

٦٨٩ - وقال قاضي مالقة سيدي إبراهيم البدوي :

قَطَعْتُ بِأَسِي فَصَنْتُ نَفْسي عَنِ الوُقُوفِ لَدِي وَجَاهَهُ
قَصَدْتُ رَبِّي فَكانَ حَسْبِي أَلْبَسَنِي فَضْلَهُ وَجَاهَهُ
فلا يَرى يَنْشِي عِنانِي مَدَى حَياتِي إِلا تَجاهَهُ

٦٩٠ - وقال ابن خليل السكوني في فهرسته : شاهدت بجامع العدبَسِ
بإشيلية ربعة مصحف في أسفار يُنحى به لنحو خطوط الكوفة إلاّ أنّه أحسن
خطاً وأبينه وأبرعه وأتقنه ، فقال لي الشيخ الأستاذ أبو الحسن ابن الطفيل بن
عظيمة : هذا خط ابن مقلّة ، وأنشد :

خطّ ابن مقلّة مَنْ أَرعاه مُقْلَتَهُ وَدَتْ جوارِحُهُ لو أَنَّها مُقْلُ

ثمّ قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعها تتماثل في القدر والوضع ، فالألقات
على قدر واحد ، واللامات كذلك ، والكافات والواوات وغيرها بهذه النسبة ،
انتهى .

قلت : رأيت بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مصحفاً بخط ياقوت المستعصي بهذه المثابة ، وهو من الأوقاف الرسمية . ورأيت بالحجرة الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام مصحفاً مكتوباً في آخره ما صورته :
 كتبه بقلم واحد فقط ما قُطَّ قَطُّ إلا مرةً فقط ، انتهى .

رجع :

٦٩١ - وقال ابن عبيدُون رحمه الله تعالى :

أذهبنَ من فَرَقِ الفراقِ نفوسا ونثرنَ من درِّ الدموعِ نقيسا
 فتبعتهُ نظرَ الشجيِّ فحدَّقتُ رُقباًؤها نخوي عيوناً شوسا
 وحللتن عقَدَ الصبرِ إذ ودعني فحللتن أفلاكَ الخلدورِ شموسا
 حلَّته إذ حلَّتهُ حتى خيلتهُ عرشاً لها وحسبتهُ بلقيسا
 فازورَّ جانبُها وكان جوابُها : لو كنتَ تهوانا صحبتَ العيسا

وهي طويلة .

قلت : ما أظن لسان الدين نسجَ قصيدته من هذا البحر والروي إلا على منوال هذه ، وإن كان الحافظ التنسي قال : إنَّه نسجها على قصيدة أبي تمام حسبما ذكرنا ذلك في محله ، فليراجع .

٦٩٢ - وقال أبو عبد الله ابن المناصف قاضي بلتسية ومرسية رحمه

الله تعالى :

ألزمتُ نفسي خُمُولاً عن رُتبةِ الأعلامِ
 لا يَخْسِفُ البدرَ إلا ظهورُهُ في تمامِ

وتذكرت به قول غيره :

ليسَ الخمولُ بعارٍ على امرئ ذي جلالِ
 فليلةُ القدرِ تخفى وتلكَ خيرُ الليالي

٦٩٣ - وقال الوزير ابن عمّار ، وقد كتب له أبو المطرف ابن الدباغ شافعاً لغلام طرّاً له عذار :

أتاني كتابك مستشفعاً بوجه أبي الحسن من رده
ومن قبل فضي ختم الكتاب قرأت الشفاعة في خده

٦٩٤ - وقال القاضي الأديب ، والفيلسوف الأريب ، أبو الوليد القشبي قاضي طليطلة^١ :

برّح بي أن علوم الوري قسما ما إن فيهما من مزيد
حقيقة يعجز تحصيلها وباطل تحصيله لا يفيد

٦٩٥ - وقال أبو عبد الله ابن الصفار وهو من بيت القضاء والعلم بقرطبة :

لا تحسب الناس سوا متي ما اشتبهوا فالناس أطوار
وانظر إلى الأحجار ، في بعضها ماء ، وبعض ضمنه نار
وهذا مثل قول غيره^٢ :

الناس كالأرض ومنها هم من خشن الطبع ومن لين
مرؤ تشكى الرجل منه الوجي وإتمد يجعل في العين
ومن نظم ابن الصفار المذكور :

إذا نويت انقطاعاً فاعمل حساب الرجوع

٦٩٦ - وقال أبو مروان الحزيري :

ومن العجائب والعجائب جمّة أن يلهج الأعمى بعيب الأعمور

١ انظر ما تقدم ص : ١٣٧ .
٢ الحصري (التكملة : ٤٣٤) .

٦٩٧ - وقال حسّان بن المصيصي كاتب الظافر بن عباد ملك قرطبة :

لا تأمنن من العدو لبعدهِ
إنّ امرأ القيس اشتكى الطمّاحا

٦٩٨ - وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي في كتابه « الإسفار

عن نتائج الأسفار » : أنشدني الكاتب الأديب أبو عمرو ابن مهيب بإشيلية أبياتاً عملها في حمود بن إبراهيم بن أبي بكر المرغبي ، وكان أجمل أهل زمانه ، رآه عندنا زائراً وقد خط عذاره ، فقلت : يا أبا عمرو ، ما تنظر إلى حُسن هذا الوجه ؟ فعمل الأبيات في ذلك ، وهي :

وقالوا العذارُ جَنّاحُ الهوى إذا ما استوى طار عن وَكْرِهِ
وليسَ كَسَدَ كَ فَجَبْرُهُمْ قِياماً بَعْدَ رِيّ أَوْ عَذْرِهِ
إذا كَمَلَ الحَسَنُ في وَجِنَةٍ فَخاتمهُ وَيَكُ من شَعْرِهِ

قال بعضهم : رأيت آخر الكتاب المذكور بعد فراغه شعراً نسه إليه ، وهو :

يا حاضرأ بجماله في خاطري ومُحَجَّباً بجلاله عن ناظري
إن غبتَ عن عيني فإنك نورها وضميرُ سرِّك سائرٌ في سائري
ومن العجائبِ أنِّي أبدأ إلى رُؤياك ذو شوقٍ مديدٍ وافرٍ
معَ أنِّي ما كنتُ قطُّ بمجلسٍ إلا وكنتَ مُنادِمي ومسامري

٦٩٩ - وأنشد في « الإحاطة » لعبد الله الجذامي :

أيا سيدي أشكو لمجدك أنتي صددتُ مراراً عن مثولي بساحتك
شكاةَ اشتياقٍ أنتَ حقاً طيبها وما راحتي إلا بتقبيلِ راحتك

قال : وهو عبد الله بن عبد الله بن أحمد بن محمد الجذامي ، فاضل ملازم

للقراءة ، عاكف على الخير ، مشارك في العربية ، خاطب للرياسة الأدبية ،
اختصَّ بالأمرير أبي علي المنصور ابن السلطان أيام مقامه بالأندلس ، ومما
خاطبه به معتذراً :

أيا سيدي . . . البيتين

انتهى .

٧٠٠ - وقال في ترجمة عبد الله بن أحمد المالقي قاضي غرناطة ، وكان
فقيهاً بارعاً الأدب : إنه كتب إلى أبي نصر صاحب « القلائد » و « المطمح »
أثناء رسالة بقوله :

تفتحت الكتابةُ عن نسيمٍ	نسيم المسك في خلُقٍ كريمٍ
أبا نصرٍ رَسَمَتْ لها رسوماً	تُخالُ رسومُها وَصَحَ النجومِ
وقد كانت عَقَتُ فَأَنزَتْ منها	سراجاً لآح في الليلِ البهيمِ
فتحت من الصناعة كل بابٍ	فصارت في طريقٍ مستقيمِ
فكتابُ الزمانِ ولستُ منهم	إذا راموا مَرَامَكَ في همومِ
فما قُسُّ بأبدع منك لفظاً	ولا سَحَبَانُ مثلك في العلومِ

٧٠١ - وقال الذهبي ، وقد جرى ذكر محمد بن الحسن المذحجي الأندلسي
ابن الكتاني : إنه أديب شاعر متفنن ذو تصانيف ، حمل عنه ابن حزم ، ومن
شعره :

ألا قد هجرنا الهجرَ واتصل الوصلُ وبانت ليالي البينِ واجتمع الشملُ
فسعدى نديمي ، والمدامةُ ريقُها ، ووجنتها روضي ، وتقيلُها النقلُ

٧٠٢ - وقال العلامة محمد بن عبد الرحمن الغرناطي :

الشعبُ ثمَّ قبيلةٌ وعمارةٌ بطنٌ وفخذٌ والفصيحةُ تابعةٌ

فالشعبُ مجتمعُ القبيلةِ كلِّها ثمَّ القبيلةُ للعمارةِ جامعتهُ
 والبطنُ تجمعهُ العماثرُ فاعلمنْ والفخذُ تجمعهُ البطونُ الواسعةُ
 والفخذُ يجمعُ للفصائلِ هاكها جاءت على نسقٍ لها متابعهُ
 فخرزيمهٌ شعبٌ ، وإنَّ كنانةً لقبيلةٍ منها الفصائلُ شاعتهُ
 وقريشها تُسمى العمارةِ يا فتى وقُصيُّ بطنٌ للأعادي قامعهُ
 ذا هاشمٍ فخذٌ وذا عباسها أثرَ الفصيصةِ لا تُنأطُ بسابعهُ

وكتبْتُ هذه الأبيات وإن لم تشتمل على البلاغة لما فيها من الفائدة ، ولأن
 بعض الناس سألني فيها لغرابتها ، والأعمال بالنيات .

٧٠٣ - ولما دخل أبو محمد الكلاعي الجلياني على القاضي ابن رشد قام
 له فأنشده أبو محمد بديهة :

قامَ ليَ السيدُ الهمامُ قاضي قضاةِ الورى الإمامُ
 فقلتُ قمْ بي ، ولا تقمْ لي فقلِّمًا يؤكِّلُ القيامُ

٧٠٤ - وقال أبو عبد الرحمن ابن جحاف البكنسي :

لئن كانَ الزمانُ أرادَ حظي وحرابني بأنيابٍ وظفُرِ
 كفاني أن تصافيتي المعالي وإن عاديتني يا أمَّ دفرِ
 فما اعترَّ اللثيمُ وإن تسامى ولا هانَ الكريمُ بغيرِ وفَرِ

٧٠٥ - وقال أبو محمد ابن برطله^١ :

ألا إنَّما سيفُ الفتى صِنوُ نفسه فنافِسُ بأوفى ذمَّةٍ وإخاءِ
 يزينكَ مرَّأى أو يعينك حاجةً فيحسنُ حالي شدةً ورخاءِ

١ زاد في م : وقد سبق ذكره .

وقال أيضاً^١ :

أنفسي صبراً لا يروِّعكِ حادثٌ
فرباً اشتدادٍ في الخطوبِ لفرجةٍ
بإرتاجه واستشعري عاجلَ الفتحِ
كما انشقت ليلٌ طال عن فلتقِ الصبحِ^٢

وقال أيضاً :

متى يدنو لوعدكمُ انتجازُ
أيجملُ أن يؤمَّكمُ رجائي
وجدكمُ كفيلاً بالأمانِ
إذا ما أمكنتُ فُرصُ المساعي
وها أنا قد هزرتكمُ حساماً
فما الإنصافُ أن يُنضَى كهامُ
كما نعم العراقُ بعذبِ بحرٍ
فأعيى الناسِ في المقدارِ^٣ حَكْمُ
ويبعدُ من حقيقته المجازُ
فيوقفَ لا يردُّ ولا يُجازُ
ومطلوبِ قريبُ مستجازُ
فعجزُ أن يطاولها انتهازُ
ويحسنُ للمهندة اهتزازُ
ويودعَ غمده العصبُ الجرازُ
ويشقى بالظما البرحِ الحجازُ
تجاذبه خمولٌ واعتزازُ

٧٠٦ - وأشد الشيخ أبو بكر ابن حبيش لابن وضاح البيت المشهور ،

وهو :

أسرى وأسيرٌ في الآفاقِ من قمرٍ
ومن نسيمٍ ومن طيفٍ ومن مثلٍ

١ م : وقوله وقد أجاد وأبلغ في الموعظة .

٢ زاد في م بعد هذه المقطوعة مقطوعتين لابن برطله وهما قوله :

وأمر كأن المصطلين بحره
صبرت له حتى تنامى وإنما
وإن لم تكن نار ووقوف على البحر
تفرج أيام الكريمة بالصبر

وقوله :

نفسى تنازعني فقلت لها اصبري
ما قد قضى سيكون فاصطبري له
موت يريحك أو صمود المنبر
ولك الأمان من الذي لم يقدر

٣ م : المقدور .

وابن حَبِيش المذكور هو أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف^١ بن حَبِيش
 - بفتح الحاء - وقد عرّف به تلميذه ابن رشيد الفهري في رحلته ، فقال بعد
 كلام : أما النظم فيديه عِناهُ ، وأما النثر فإن مال إليه توكّف له بنانه^٢ ، مع
 تواضع زائد ، على صلة مخبره عائد ، لقيته بمنزله ليوم أو يومين من مقدمي
 على تونس ، فتلقى بكل فنّ يونس ، وصادفته بحالة مرض ، من وث^٣ في
 رجله عرض ، وعنده جملة من العوَاد ، من الصدور الأمجاد ، فأذني وقرّب ،
 وسهّل ورحّب ، وتفاوض أولئك الصدور ، في فنون من الأدب كأنّها
 الشنور ، إلى أن خاضوا في الأحاجي ، واستضاءوا بأنوار أفكارهم في تلك
 الدّياجي ، فخضت معهم في الحديث ، وأنشدتهم بيتين كنت صنعتهما وأنا
 حديث ، لقصة بلغتني عن أبي الحسن سهّل بن مالك ، وهي أنّه كان يسأل
 أصحابه وهو في المكتب ويقول لهم : أخرجوا اسمي ، فكلُّ ينطق على تقديره ،
 فيقول لهم : إنكم لم تصيبوه مع أنّه سهل ، فنظمت هذا المعنى فقلت :

وما اسمٌ فكهُ سهلٌ يسيرٌ يكونُ مصغراً نجماً يسيرٌ
 مُصَحَّفُهُ لَهُ في العينِ حُسْنٌ وقلبي عندَ صاحبهِ أسيرٌ

وكان الشيخ أبو بكر على فراشه ، فزحف مع ما به من ألم ، إلى محبرة
 وطِرسٍ وقلم ، وكتب البيتين بخطّه ، وقال للحاضرين : ارووا هذين البيتين
 عن قائلهما .

ومن شيوخ ابن حَبِيش المذكور أبو عبد الله ابن عسكر المالقي ، كتب له
 ولأخيه أبي الحسين بخطّه إجازة جميع ما يجوز له ، وعنه ، وضمّن آخرها هذه
 الأبيات :

١ م : يونس ؛ قلت وصوابه محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن يونس كما أورده ابن رشيد
 في مله الميية (١٧٣٦ من نسخة الاسكوريال) .
 ٢ ابن رشيد : عناهُ .
 ٣ ابن رشيد : من ألم ، وفي هامش الرحلة : وث .

أَجَبْتَكُمَا لَكِن مُتَعِرّاً بِأَنْتِي أَقْصَرُ فِيمَا رَمْتُمَا عَن مَدَاكِمَا
فَإِنَّكُمَا بَدْرَانِ فِي الْعِلْمِ أَشْرَقَا فَسَلِّمَ إِذْعَانَا وَقَسَّرَا عِدَاكِمَا
فَسِيرُوا عَلَى حُكْمِ الْوَدَادِ فَإِنَّتِي أَجُودُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكِمَا

قال ابن رشيد : وقد جمع صاحبنا أبو العباس الأشعري لابن حبيش فهرسة جامعة ، ولما وقف عليها ابن حبيش كتب في أولها ما نصّه : الحمد لله حق حمده ، أحسن هذا الفاضل فيما صنع أحسن الله إليه ، وبالغ فيما جمع بَلَغَ اللهُ تعالى به أشرف المراتب لديه ، غير أنني أقول واحدة ، ما سريرتي لها بجاحدة^١ ، وأصرح بمقال ، لا يسعني كَتَمُهُ بحال : والله ما أنا للإجازة بأهل ، ولا مَرَامُهَا لديّ بسهل ، إذ من شرط المجيز أن يعد فيمن كمل ، ويُعِدِّ العلم والعمل ، اللهم غَفِرْ ، كيف يُنِيل من عدم وقرأ ، أو يجيز من أصبح صدره من المعارف قَفْرًا ، وصحيفته من الصالحات صِفْرًا ، وكيف يرسم في ديوان الجلّة ، من يتسم بالأفعال المخلّة ، ومتى يقترن الشبّه بالإبريز ، أو يوصف السكيت بالتبريز ، ومن ضعف النهى ، مجانسة الأقمار بالسُّها ، ومن أعظم التوبيخ ، تشيخ من لا يصلح للتشيخ ، وإن هذا المجموع لَيَرُوقُ ويُعجب ، ولكنّه جمع لمن لا يستوجب ، وإن القراءة قد تحصلت ، ولكن القواعد ما تأصّلت ، وإن القارئ عَلم ، ولكن المقروء عليه عَدَم ، ولقد شكرت لهذا السريّ ما جَلَب ، وكتبت مسعفاً له بما طلب ، وقرنت إلى دُرّه هذا المَخْشَلَب ، قلت وحليبي عطل ، ونطقي خطل ، مُكره أخاك^٢ لا بَطَل ، والله سبحانه وتعالى ينفع بما أخلص له عند الاعتقاد ، ويسمح للبهرج عند الانتقاد ، كتبه العبد المذنب [المستغفر]^٣ محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش اللّخمي حامداً لله تعالى

١ ابن رشيد : جاحدة .

٢ ابن رشيد : أخوك .

٣ زيادة من رحلة ابن رشيد .

ومصلياً على نبيه الكريم المصطفى وعلى آله أعلام الطهارة والهدى ومسلماً تسليماً .
 وكتب أيضاً رحمه الله تعالى في جواب استجازة : المسؤول مبذول ،
 إن شاء الله تعالى على التنجيز ، ولكن شروط الإجازة موجودة في المُجاز
 معدومة في المُجيز ، والله تعالى يصفح بكرمه ومته ، ويشكر كل فاضل على
 تحصيل ظنه ، وهو المسؤول سبحانه أن يحفظ بعنايته مُهجاتهم ، ويرفع بالعلم
 والعمل درجاتهم ، ويمتعمهم بالكمال الرائق المعجب ، ويقر بالنجيين عين
 المنجب ، وكتبه ابن حبيش . انتهى .

٧٠٧ - وقال الوزير الكاتب أبو بكر ابن القبطرنة يستجدي بازياً من
 المنصور بن الألفس صاحب بَطْلَيْوَسَ :

يا أيها الملكُ الذي آباؤهُ	شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأوَّلِ
حلَّيتَ بالنَّعمِ الجسامِ جسيمةً	عنقي فحلَّ يدي كذاك بأجدلِ
وامننْ بهِ ضاقي الجناحِ كأنما	حُدَيْتُ قوائمه بريحِ شمألِ
متلفتاً والطلُّ ينثرُ بُردَه	منهُ على مثل اليماني المحملِ
أغدو به عجباً أُصرِّفُ في يدي	ريحاً وآخذُ مطلقاً بمكبَّلِ

٧٠٨ - وأدخلتُ على المعتمد يوماً باكورة نرجس ، فكتب إلى ابن عمَّار
 يستدعيه :

قد زارنا النرجسَ الذكيُّ	وآن من يومنا العشيُّ
ونحسنُ في مجلسِ أُنَيْقِ	وقد ظمئنا وفيهِ ريُّ
ولي خليل غندا سَمِيَّيْ	يا ليتهُ ساعدَ السَمِيَّيْ

فأجابه ابن عمَّار :

لبيك لبيك من مُنادٍ له الندى الرحبُ والنديُّ

ها أنا بالبابِ عبدِ قنّ قَبِلْتَهُ وَجَهْكَ السَّيِّئُ
شَرَّفَهُ وَالِدَاهُ بِاسْمِ شَرَّفْتَهُ أَنْتَ وَالنَّبِيُّ

واصطحب المعتمد يوم غيِّم مع أم الربيع ، واحتجب عن الندماء ، فكتب إليه ابن عمار :

تجهَّم وجهُ الأفقِ واعتَلَّتِ النفسُ لأنَّ لم تَلْحُ للعينِ أنتَ ولا شَمْسُ
فإن كانَ هذا منكما من تَوَافُقٍ وضمكما أنسٌ فيهنكما الأُنسُ
فأجابه المعتمد بقوله :

خِليِّ قُولاً هل عَلَيَّ ملامَةٌ إذالم أعْبُ إلا لتُحْضِرني الشَّمْسُ
وأهْدِي بأكواسِ المُدامِ كواكباً إذا أَبْصَرْتها العَيْنُ هَشَّت لها النَفْسُ
سَلامٌ سَلامٌ أنْتُمَا الأُنسُ كلَّهُ وإنْ غَبْتما أمُّ الرَبِيعِ هي الأُنسُ

واستدعى جماعة من إخوان ابن عمار منه شراباً في موضع هو فيه مفقود ، فبعث لهم به وبرمانتين وتفاحتين ، وكتب لهم مع ذلك :

خذاها مثلما استدعيتهاها عروساً لا تُزَفُّ إلى اللثامِ
ودونكما بها ثديي فتاة أضفتُ إليهما خدي غلامِ

٧٠٩ - وشرب ذو الوزارتين القائد أبو عيسى ابن لبّون مع الوزراء والكتاب ببطحاء لورقة عند أخيه ، وابن اليسع غائب ، فكتب إليه :

لو كنتَ تشهد يا هذا عَشِيَّتِنَا والمُزْنُ يسكن أحياناً وينحدرُ
والأرضُ مُصْفَرَّةٌ بالمُزْنِ طاوية أَبْصَرْتَ دُرّاً عليه التبر ينتثرُ

٧١٠ - وقال الحجاري من القصيدة المشهورة :

عليك أحالتي الذِّكْرُ الجميلُ

في وصف زيه البدوي المستقل وما في طيه :

ومثّلتني بدنّ فيه خمرٌ يخيفُ به ومنظرُهُ ثقيلٌ

ولمّا انصرف^١ عن ابن سعيد إلى ابن هود عدله ابن سعيد على تحوله عنه ،
فقال : النفس تواقه ، وما لي بغير التغرب طاقة ، ثم قال :

يقولون لي ماذا الملل تقيمُ في محلّ فعند الأُنس تذهب راحلاً
فقلتُ لهم مثل الحَمَام إذا شدا على غُصْنٍ أمسى بآخر نازلاً

٧١١ - وقد رأيت أن أكفر ما تقدّم ذكره من الهزل الذي أتينا به على سبيل
الإحماض بما لا بد منه من الحِكم والمواعظ وما يناسبها ، فنقول :

١ - قال أبو العباس ابن خليل :

فهموا إشارات الحبيب فهموا وأقام أمرهمُ الرشادُ فقاموا
وتوسّموا بمدامع منهلّة تحت الدياجي والأنامُ نيامُ
وتلوا من الذكر الحكيم جوامعاً جمعت لها الألباب والأفهامُ
يا صاح لو أبصرت ليلهمُ وقد صفت القلوب وصفت الأقدامُ
لرأيت نور هداية قد حفّتهم فسرى السرور وأشرق الإظلامُ
فهمُ العبيدُ الخادمون مليكهم نعم العبيدُ وأفلح الخدّامُ
سلموا من الآفات لمّا استسلموا فعليهمُ حتى المماتِ سلامُ

٢ - وقال العالم الكبير الشهير صاحب التآليف أبو محمد عبد الحق الإشبيلي
رحمه الله تعالى :

قالوا صف الموت يا هذا وشدّتهُ فقلتُ وامتدّ مني عندها الصوتُ

١ م : انصرف المذكور .

يكفيكم^١ آمنه أن الناس إن وصفوا أمراً يروّعهم قالوا هو الموت

3 - وقال الخطيب الأستاذ أبو عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي
نزيل بـجاية :

جعلتُ كتاب ربي لي بضاعه^٢ فكيف أخاف فقراً أو إضاعه^٣
وأعددتُ القنّاعة رأس مال وهل شيء أعزُّ من القنّاعة؟

4 - وقال القاضي الكبير الأستاذ الشهير أبو العباس أحمد بن الغمّاز
البلنّسي نزيل إفريقية :

هو الموتُ فاحذر أن يجيئك بغتة^٤ وأنتَ على سوء من الفعل عاكف
وليتاك أن تمضي من الدهر ساعة^٥ ولا لحظة إلا وقَلْبُكَ واجف
وبادر بأعمالٍ تسرك أن تُرى إذا نُشِرتَ يوم الحساب الصحائف
ولا تياسن^٦ من رحمة الله إنه لربّ العباد بالعباد لطائف
وقال رحمه الله تعالى :

أما آنَ للنفس أن تخشعا^٧ أما آنَ للقلب أن يُقلعا^٨
أليسَ الثمانون قد أقبلتُ فلم تُسبقِ في لذّة مطمعا^٩
تقضّى الزمانُ ولا مطمعٌ لما قد مضى منه أن يرجعا^{١٠}
تقضّى الزمانُ فواحسرتي لما فاتَ منه وما ضيِّعا^{١١}
ويا ويلتاهُ لذي شيبة يطبعُ هوى النفس فيما دعا^{١٢}
وبُعداً وسحقاً له إذ غدا يسمع وعظماً ولن يسمعا^{١٣}

١ م ق : يكفيهم .

٢ زاد في م بعد هذا المقطوعتين التاليتين لابن الغمّاز ، وله أيضاً وهو غريب في معناه :

يا صاحب الهم إن الهم منفرج كم من أمور شداد فرج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه لا تياسن فإن الفاتح الله

5 - وقال الأستاذ الزاهد أبو إسحاق الإلبيري الغرناطي رحمه الله

تعالى ١ :

كلُّ امرئٍ فيما يدين يُدانُ سبحان من لم يَخُلُ منه مكانُ
يا عامر الدنيا ليسكنها وما هي بالتّي يبقى بها سكان
تفنى وتبقى الأرض بعدك مثلما يبقى المناخُ وترحل الركبانُ
أُسرُّ في الدنيا بكلِّ زيادة وزيادتي فيها هي التقصانُ ٢

وقال أيضاً رحمه الله تعالى ٣ :

وذِي غنى أوهمتُهُ همتُهُ أن الغنى عنه غير منفصل

الله حسبك فيما عدت منه به وأين يأمنهم من حسبه الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرتَه ما لامرئٍ حيلة فيما قضى الله
سلم إلى الله فيما شاء وأرض به فالخير أجمع فيما يصنع الله
وقال عفا الله عنه وأجاد في قوله ونصحه :

صن النفس واحملها على ما يزينها وتمش سالماً والقول منك جميل
وإن قل رزق اليوم فاصبر إلى غد عسى نائبات الدهر عنك تزول
يعز غني النفس إن قل ماله ويفنى فقير النفس وهو ذليل
وما أكثر الأحباب حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل
١ ديوان الإلبيري (القطعة : ٣٥ في الملحق - نقلا عن النفع) .

٢ زاد هنا في م للإلبيري قوله : وقال عفا الله عنه مبهلا إلى مولاه :

أتيتك راجياً يا ذا الجلال ففرج ما ترى من سوء حالي
عصيتك سيدي ويلي بجھلي وعيب الذنب لم يخطر ببالي
إلى من يشتكي المملوك إلا إلى مولاه يا مولى الموالي
لعمري ليت أمي لم تلدني ولم أغضبك في ظلم الليالي
فها أنا عبدك العاصي فقير إلى رحماك فاقبل لي سؤالي
فإن عاقبت يا ربي تعاقب محقاً بالمذاب وبالنتكال
وإن تمف فعموك قد أراني لأفعالي وأوزاري الثقال

٣ زاد في م : في تيه الغني بغناه وهو كلا شيء في عقباه ؛ والقطعة رقم ٣٤ في ديوانه نقلا عن النفع .

يَجْرُ أذْيَالُ عَجْبِهِ بِطَرَأٍ
بَزَّتْهُ أَيْدِي الْخَطُوبِ بَزَّتَهُ
فَلَا تَثْقُ بِالْغَنَى فَآفَتَهُ
كَفَى بَنِيْلَ الْكِفَافِ عَنْهُ غَنَى

وقال رحمه الله تعالى ١ :

لَا شَيْءَ أَحْصَرَ صَفْقَةً مِنْ عَالَمٍ
فَعَدَا يَفْرُقُ دِينَهُ أَيْدِي سَبَا
لَا خَيْرَ فِي كَسْبِ الْحَرَامِ وَقَلَمًا
فَخَذَ الْكِفَافِ وَلَا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ

وقال رحمه الله تعالى ٢ :

الشَّيْبُ نَبَّةٌ ذَا النَّهْيِ فَتَنَّبَهَا
فَلِي مَتَى أَلْهُوٌ وَأُخْدَعُ بِالْمَنَى
مَا حَسَنُهُ إِلَّا التَّقَى لَا أَنْ يُرَى
أَنْتَى يِقَاتِلُ وَهُوَ مَقْلُوبُ الشَّبَا
مَحَقَّ الزَّمَانُ هَلَالَهُ فَكَأَنَّمَا
فَعَدَا حَسِيرًا يَشْتَهِي أَنْ يُشْتَهَى
إِنْ أَنْ أَوَاهُ وَأَجْهَشُ بِالْبُكََا
لَيْسَتْ تَنَّبَهُ الْعِظَاتُ وَمِثْلَهُ
فَقَدَّ اللَّدَاتِ وَزَادَ غَيًّا بَعْدَهُمْ
يَا وَيْجُهُ مَا بِالَهُ لَا يَنْتَهَى

ونهى الجهولَ فما استفاق ولا انتهى
والشيخُ أقبحُ ما يكونُ إذا لها
صَبًّا بِالْحَاظِ الْجَاذِرِ وَالْمَهَا
كَابِي الْجَوَادِ إِذَا اسْتَقَلَّ تَأَوَّهَا
أَبْقَى لَهُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ السَّهَا
وَلَكُمْ جَرَى طَلَقِ الْجَمُوحِ كَمَا اشْتَهَى
لِذُنُوبِهِ ضَحْكُ الْجَهُولِ وَقَهْقَهَا
فِي سَنَةِ قَدَّ أَنْ يَنْتَهَى
هَلَاءَ تَيْقَظَ بَعْدَهُمْ وَتَنَّبَهَا
عَنْ غِيَّةِ وَالْعَمْرِ مِنْهُ قَدْ انْتَهَى

١ في م : عفا الله عنه في علماء السوء ؛ والقطة رقم : ٥ في ديوانه .
٢ زاد في م : في المشيب إن حل أو انه ؛ والقطة رقم : ٨ في ديوانه .

6 - وقال الأستاذ وليُّ الله سيدي أبو العباس ابن العريف :

من لم يشافه عالماً بأصوله فيقينه في المشكلات ظنونُ
من أنكر الأشياء دون تيقنٍ وتثبت فمعاندٌ مفتون
الكتبُ تذكرة لمن هو عالمٌ وصوابها بمحالها معجون
والفكرُ غواص عليها مخرجٌ والحقُّ فيها لؤلؤ مكنون

7 - وقال أبو القاسم ابن الأبرش :

أيأسوني لما تعظم ذنبي أتراهم همُ الغفور الرحيمُ
فدروني وما تعظم منه إنما يغفرُ العَظيمَ العظيمُ

8 - وقال أبو العباس ابن صقر الغرناطي أو المري ، وأصله من

سَرَقِسطة ٢ :

أرضِ العدوِّ بظاهر متصنع إن كنتَ مضطراً إلى استرضائه
كم من فتى ألقى بوجهٍ باسم وجوانحي تنقذُ من بغضائه

9 - وقال الكاتب الشهير الشهيد أبو عبد الله محمد بن الأبتار القُضاعي

البلنسي رحمه الله تعالى من أبيات :

١ زاد في م : وقال وقد أحسن ظنه بالمولى تعالى سبحانه :

إذا ما بت من ترب فراشي وبت مجاور الرب العظيم
فهوني صحابي ثم قولوا لك البشري قدمت على كريم
وقال غيره وأظنه من المشاركة :

قدمت على الكريم بغير زاد من الحسنات بالقلب السليم
وحمل الزاد أقبح كل شيء إذا كان القُدم على كريم

٢ هو أحمد بن عبد الرحمن بن صقر الأنصاري أصله من سرقسطة ، وخرج منها أبوه فسكن بلنسية
ثم انتقل إلى المري وبها ولد ابنه سنة ٤٩٢ وتوفي بمراكش سنة ٥٦٩ ؛ انظر التحفة : ٤٩ والوافي

٧ الورقة : ٢٢ .

يا شقيق النفس أوصيك وإن شقّ في الإخلاص ما تنتهجه
لا تبتّ في كمد من كبد ربّ ضيق عادٍ رحباً مخرجه
وبلطف الله أصبح واثقاً كلُّ كرب فعلينه فرجه

ولابن الأَبّار المذكور ترجمة طويلة استوفيت منها ما أمكنني في «أزهار
الرياض في أخبار عياض وما يناسبها ممّا يحصل به للنفس ارتياح وللعقل
ارتياض» .

قال الغبريني في «عنوان الدراية»^١ : لو لم يكن له من الشعر إلاّ قصيدته
السينية التي رفعها للأمير أبي زكريا رحمه الله تعالى يستنجد به ويستصرخه لنصرة
الأندلس لكان فيها كفاية ، وإن كان قد نقدها ناقد ، وطعن عليه فيها طاعن ،
ولكن كما قال أبو العلاء المعري :

تكلّم بالقول المضلل حاسدٌ وكلُّ كلام الحاسدين هراءٌ

ولو لم يكن له من التآليف إلاّ كتابه المسمى بـ «معادن اللجين في مرآة
الحسين» لكفاه في ارتفاع درجته ، وعلوّ منصبه وسموّ رتبته .

ثمّ قال : توفي بتونس ضحوة يوم الثلاثاء الموفى عشرين لمحرّم سنة ٦٥٨ ،
ومولده آخر شهر ربيع سنة ٥٩٥ ببلنسية ، رحمه الله تعالى وسامحه ، انتهى .
وقال ابن علوان : إنّه يتصل سنده به من طرق ، منها من طريق الراوية
أبي عبد الله محمد بن جابر القيسي الوادي آشي عن الشيخ المقرئ المحدث
المتبحر أبي عبد الله محمد بن حيّان الأوسي الأندلسي نزيل تونس عنه ، ومن طريق
والدي صاحب «عنوان الدراية» عن الخطيب أبي عبد الله ابن صالح عنه ، انتهى .
قلت : وسندي إليه عن العم عن التنسي عن أبيه عن ابن مرزوق عن جدّه

١ عنوان الدراية : ١٨٥ .

٢ الغبريني : بكتاب .

الخطيب عن ابن جابر الوادي آشي به كما مرّ .

10 - وقال ابن عبد ربه :

بادرْ إلى التوبةِ الخِلاءِ مجتهداً والموتُ ويحكَ لم يمددْ إليكَ يدا
وارقب من الله وعداً ليسَ يخلفه لا بدّ لله من إنجاز ما وعدا

11 - وقال الصدر أبو العلاء ابن قاسم القيسي :

يا واقفَ البابِ في رزقِ يومئلهُ لا تقنطنَ فإنَّ اللهَ فاتحهُ
إن قدرَ اللهَ رزقاً أنتَ طالبهُ لا تياسنَ فإنَّ اللهَ مانحهُ

12 - وقال الأعمى التطيلي^١ :

تنافسَ النَّاسَ في الدنيا وقد علموا أنْ سوفَ تقتلهم لذاتُها بيددا
قلْ للمحدثِ عن لقمان أو لبد وللذي همّةُ البنيانِ يرفعهُ
ما لابنِ آدمَ لا تفضى مطامعه^٢ لم يتركِ الدهرُ لقماناً ولا لبدا
إنَّ الردى لم يغادر في الثرى أحدا^٣ يرجو غداً وعسى أن لا يعيش غدا

وقال أبو العباس التطيلي^٤ :

والنَّاسَ كالنَّاسِ إلا أن تجربهم وللبصيرةِ حكمٌ ليسَ للبصرِ
كالأيكِ مشبهات في منابتها وإنما يقعُ التفضيلُ في الثمرِ

13 - وقال القاضي أبو العباس ابن الغماز البلسنسي :

- ١ زاد في م : وقد سبق ذكره مراراً ؛ والقطعة في ديوان الأعمى : ٢٧ .
٢ الديوان : في الثرى أسدا .
٣ الديوان : مطالبه .
٤ م : وقال الفقيه العالم أبو العباس التطيلي ؛ قلت : وهذا يومهم أنه شخص آخر غير الأعمى التطيلي ، وهو نفسه والبيتان في ديوانه : ٤٨ .

من كان يَعْلَمُ لا محالة أَنَّهُ لا بد أن يُودي وإن طالَ المَدَى
هَلَاءَ استعدَّ لمشهدٍ يجزي بهِ مَنْ قد أعدَّ من اهتدى ومن اعتدى

وقال أيضاً^١ :

هو الموتُ فاحذر أن يجيئك بغتَةً وأنتَ على سوءٍ من الفعل عاكف
وإيَّاكَ أن تمضي من الدهرِ ساعةٍ ولا لحظةٍ إلاّ وقلبكَ واجف
فبادر بأعمالٍ يسرك أن ترى إذا طُوِّتْ يومَ الحسابِ الصحائفُ
ولا تياسنُ من رحمةِ الله إنّه لربّ العبادِ بالعباد لطائفُ

14 — ولما استوزر باديس صاحب غرناطة اليهودي الشهير بابن نعدلة^٢ ،
وأعضل داؤه المسلمين ، قال زاهد البيرة وغرناطة أبو إسحاق الإلبيري قصيدته
التونية المشهورة التي منها في إغراء صنهاجة باليهود^٣ :

ألا قلّ لصنهاجة أجمعين بُدور الزمانِ وأسد العرين
مقالة ذي مقّة مُشفقٍ صحيح النصيحة دنيا ودين
لقد زلّ سيّدكم زلّةً أقرّ بها أعينَ الشامتين
تخيّر كاتبه كافرًا ولو شاء كان من المؤمنين
فعرّ اليهودُ به وانتموا وسادوا وتاهوا على المسلمين

وهي قصيدة طويلة ، فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود ، وقتلوا منهم
مقتلة عظيمة ، وفيهم الوزير المذكور — وعادة أهل الأندلس أن الوزير هو
الكاتب — فأراح الله البلاد والعباد ، ببركة هذا الشيخ الذي نور الحق على كلامه
باد .

١ م : وقال رحمه الله أيضاً في الموت وأهواله ؛ وقد مرت الأبيات ص : ٣١٦ .

٢ هذا وجه من وجوه كتابة هذا الاسم ، وكثيراً ما يرد : النغراه والنغريه .

٣ انظر ديوان الإلبيري : ١٥١ وما بعدها .

15 - وقال أبو الطاهر الجياني المشهور بابن أبي ركب - بفتح الراء وسكون الكاف^١ - :

يقول الناس في مثلي تذكّر غائباً تره
فما لي لا أرى وطني^٢ ولا أنسى تذكّره

وكان أبو الطاهر هذا في جملة من الطلبة ، فمر بهم رجل معه محبرة آبنوس تأتق في حليتها واحتفل في عملها ، فأراهم إياها ، وقال : أريد أن أقصد بها بعض الأكابر ، وأريد أن تتمموا احتفالي بأن تصنعوا لي بينكم أبيات شعر أقدمها معها ، فأطرق الجماعة ، وقال أبو الطاهر :

وآفتك من عدد العلاء زنجية^٣ في حلّة من حلية تبختر
صفراء سوداء الحلي كأنها ليل تطرزه نجوم تزهّر

فلم يغب الرجل عنهم إلا يسيراً ، وإذا به قد عاد إليهم ، وفي يده قلم نحاس مذهب ، فقال لهم : وهذا مما أعددت للذبح مع هذه المحبرة ، ففضلوا بإكمال الصنيعة عندي بذكوره ، فبدر أبو الطاهر وقال :

حملت بأصفر من نجار حليها تخفيه أحياناً وحيناً يظهر
خرسان إلاّ حين يرضع ثديها فتراه ينطق ما يشاء ويذكر

قال ابن الأبار في « تحفة القادم » : وحضر يوماً في جماعة من أصحابه وفيهم أبو عبد الله ابن زرقون في [عقب] شعبان في مكان ، فلما تملأوا من الطعام قال أبو الطاهر لابن زرقون : أجز يا أبا عبد الله ، وأنشد :

حمدت لشعبان المبارك شعبة تسهل عندي الجوع في رمضان

١ مر البيتان ص : ١١٣ ، ١٦٠ ، والأبيات والترجمة عن تحفة القادم : ٢٢ بإيجاز .
٢ التحفة : سكي .

كما حمدَ الصبُّ المتيمُّ زورةً تحمّلَ فيها الهجرَ طولَ زمانٍ

فقال :

دعوها بشعبانية ولو أنهم دعوها بشعبانية لكفاني

16 - وقال أبو عبد الله ابن خميس الجزائري :

تحفظ من لسانك ، ليس شيء أحقّ بطول سجن من لسانٍ
وكن للصمتِ ملتزماً إذا ما أردت سلامة في ذا الزمانِ

وقال أيضاً^١ :

كن حليس بيتك مهما فتنة ظهرت
وإن ظلمت فلا تحقد على أحدٍ
تخلص بدينك وافعل دائماً حسناً
إن الضغائن فاعلم تنشيء الفتنة

وقال :

بدا لي أن خير الناس عيشاً
فليس لخائف عيشٌ لذيدٍ
من آمنه الإله من الأنامِ
ولو ملك العراق مع الشامِ

وله^٢ :

جانب^٣ جميع الناس تسلم منهم
وإذا رأيت من امرئ يوماً أذى
إن السلامة في مجانبة الورى
لا تجزّه أبداً بما منه ترى

وله^٤ :

١ م : وقال وقد أجاد ونصح بموعظته .
٢ م : وقال في مجانبة الناس والعفو عن ظلمك .
٣ دوزي : سالم .
٤ م : وله في تأديب الصغار والحسد .

من أدب ابناً له صغيراً قرأت به عينه كبيراً
وأرغم الأنف من عدو يحسدُ نعماءه كثيراً

17 - وقال أبو محمد^١ ابن هرون القرطبي :

بيد الإلهِ مفاتحُ الرزقِ الذي أبوابه مفتوحة لم تُغلقِ
عجباً لذي فقرٍ يكلفُ مثله في الوقتِ شيئاً عنده لم يخلقِ

وقال أيضاً^٢ :

لعمرك ما الإنسان يرزق نفسه ولكنما الربّ الكريم يُسخّره
وما بيد المخلوق في الرزق حيلة تقدمه عن وقته أو تؤخره

18 - وقال الأديب الأستاذ أبو محمد ابن صارة رحمه الله تعالى :

يا مَنْ يُصيخُ إلى داعي السفاهِ وقد نادى به الناعيانِ الشيبُ والكبرُ
إن كنتَ لا تسمعُ الذكرى فقيم ثوى في رأسك الواعيانِ السمعُ والبصرُ
ليس الأصمُّ ولا الأعمى سوى رجل لم يهدهِ الهاديانِ العين والأثر
لا الدهرُ يبقى ولا الدنيا ولا الفلك إلا أعلى ولا النيرانِ الشمسُ والقمر
ليرحلنَّ عن الدنيا وإن كرها فراقها الثاويان البدو والحضر

وقال رحمه الله تعالى في ابنة ماتت له :

ألا يا موتُ كنتَ بنا رؤوفاً فجددتَ الحياةَ لنا بزوره
حمادٍ لفعلك المشكور لما كفيت مؤونة وسرت عوره
فأنكحنا الضريح بلا صداق وجهزنا الفتاةَ بغيرِ شوره

١ م : وقال محمد .

٢ م : وقال رحمه الله في الرزق وتسخيره .

19 - وأنشد أبو عبد الله ابن الحاج البكري الغرناطي :

يا غادياً في غفلة ورائحا إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخافُ موقفاً يستنطقُ اللهُ بهِ الجوارحا
يا عجباً منكَ وكنْتَ مبصراً كيف تجنبتَ الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرا في غد صحيفةً قد ملئت فضائحا
أم كيف ترضى أن تكون خاسراً يومَ يفوزُ من يكونُ رابحا

وممن روى عنه هذه الأبيات الكاتب الرئيس أبو الحسن ابن الجياب ،
وتوفي ابن الحاج المذكور سنة ٧١٥ رحمه الله تعالى .

20 - وقال حافظ الأندلس ومحدثها أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم
الكلاعي رحمه الله تعالى :

إلهي مضتَ للعمُرِ سَبْعُونَ حجةً ولي حركات بَعْدَها وسكونُ
فيا ليت شعري أين أو كيف أومتى يكون الذي لا بدّ أن سيكونُ
والصواب أنّهما لغيره كما ذكرته في غير هذا الموضع ، وبالجملة فهما
من كلام الأندلسيين ، وإن لم يحقق ناظهما بالتعيين^١ .

21 - وقال أبو بكر يحيى التطيلي رحمه الله تعالى :

إليك بسطتُ الكف في فحمة الدجى نداء غريق في الذنوب عريقِ
رجاك ضميري كي تخلّص جملي وكم من فريق شافعٍ لفريقِ
22 - وحكي أن بعض المغاربة كتب إلى الملك الكامل بن العادل بن أيوب
رقعة في ورقة بيضاء ، إن قرئت في ضوء السراج كانت فضية ، وإن قرئت في

١ انظر ص : ١١٧ وكذلك نسبهما لأبي بكر ابن منخل الشلبي في التكملة : ٤٩٦ وإنما أنشدهما أبو
الربيع وقال لتلميذه إنه رأهما في ديوان ابن منخل .

الشمس كانت ذهبية ، وإن قرئت في الظل كانت حبراً أسود ، وفيها هذه الأبيات :

لئن صدني البحر عن موطني وعيني بأشواقها زاهره
فقد زخرّف الله لي مكّة بأنوار كعبته الزاهره
وزخرف لي بالنبي يثربا وبالملك الكامل القاهره

فقال الملك الكامل قل :

وطيب لي بالنبي طيبة وبالملك الكامل القاهره

وأظن أن المغربي أندلسي لقوله : لئن صدني البحر عن موطني ، فلذلك أدخلته في أخبار الأندلسيين ولست على تحقيق ويقين ، والله أعلم .

23 - وأنشد ابن الوليد المعروف بابن الخليع قال : أنشدنا أبو عمر ابن

عبد البر النمري الحافظ :

تذكرتُ من يبكي عليّ مداوماً فلم أَلْفِ إلا العلم بالدين والخبر
علوم كتاب الله والسنن التي أتت عن رسول الله مع صحة الأثر
وعلم الألى من ناقديه وفهم ما له اختلفوا في العلم بالرأي والنظر
وأنشد له أيضاً :

مقالة ذي نصحٍ وذات فوائد إذا من ذوي الألباب كان استماعها
عليكمُ بآثار النبيّ فإنّه من أفضل أعمال الرشاد اتباعها

24 - وقال أبو الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب الأزدي الياصري ،

وسكن أبوه قرطبة^١ :

عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما رممني الليالي بالمشيب وبالكبر

١ الذيل والتكملة ٥ : ٢٨ .

أطعت الهوى ، عكس القضية ليني خُلقتُ كبيراً وانتقلتُ إلى الصغر ←

وقيل : إن ابنه أبا الحسن علي بن عبد الملك قال بيتاً مفرداً في معنى ذلك ،

وهو :

هنيئاً لهُ إذ لم يكن كابنه الذي أطاعَ الهوى في حالتيه وما اعتبر^١

وقيل : إن هذا البيت رابع أربعة أبيات^٢ .

25 — وقال أبو إسحاق ابن خنفاة لما اجتمع به أبو العرب^٣ وسأله عن

حاله وقد بلغ في عمره إحدى وثمانين سنة ، فأشده لنفسه :

أيُّ عيشٍ أو غذاءٍ أو سنَةٍ لابن إحدى وثمانين سنَةٍ
قلصَّ الشيبُ به ظلَّ امرئٍ طالما جر صباهُ رسنَةٍ
تارة تسطو به سيئة تُسخنُ العينَ وأخرى حسنة

26 — وقال أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القيسي المالقي :

الموتُ حصّادٌ بلا منجلٍ يسطو على القاطن والمنجلي
لا يقبلُ العذر على حالة ما كان من مشكلٍ أو من جلي

27 — وقال الشيخ عبد الحق الإشبيلي الأزدي صاحب كتاب « العاقبة »

١ الذيل : وما ائتمر ؛ وعن ابن الأبار : وما اعتذر .

٢ قلت : أورد في الذيل والتكملة ثلاثة أبيات قبله وهي :

أبي قال قولاً سار في البدو والحضر وخلف في الباقيين ذكراً وقد غبر
وأسلف إحساناً أو ان اقتباله وخاف من التقصير في حيز الكبر
لذلك ما والى أنيناً وزفرة وأصبح يهوى أن يعاد إلى الصغر
هنيئاً له (البيت)

٣ هو أبو العرب عبد الوهاب التجيبي والأبيات في بغية المتلمس ص : ٢٠٣ والمعجم : ٦١ والديوان :

و « الإحكام » وغيرهما :

→ إنَّ في الموت والمعاد لشُغلاً وادكاراً لذي النهى وبلاغا
فاغنم خطتين قبل المنايا صحة الجسم يا أخي والفراغا

28 — وقال أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغساني
من أهل جليانة من عمل وادي آش^١ :

ألا إنَّما الدنيا بحار تلاطمت فما أكثر الغرقى على الجنَّباتِ
وأكثرُ مَنْ صاحبت يُغرقُ إلفهُ وقلَّ فتى يُنجى من الغمراتِ

وكان المذكور من أهل العلم والأدب ، رحل وحج وتجوَّل في البلاد ،
ونزل القاهرة المعزية ، وكان أحد السياحين في الأرض ، وله تأليف منها « جامع
أنماط الوسائل في القريض والخطب والرسائل » وأكثره من نظمه ونثره ،
رحمه الله تعالى .

29 — وقال عبد العليم بن عبد الملك بن حبيب القضاعي الطرطوشي :

وما الناسُ إلا كالصحائف غيرت وألسنهم إلا كمثل التراجيمِ
إذا اشتجر الخصمان في فطنة الفتي فمقوله في ذلك أعدل حاكمِ

30 — وقال أبو الحكم عبد المحسن البكنسي :

من كان للدَّهرِ خيداً في تصرفه أبدت له صفحةُ الدهرِ الأعاجيبا
من كان خلواً من الآداب سرَّبه مرُّ الليالي على الأيام تأديبا

31 — وقال أبو حاتم عمر بن محمد بن فرج من أهل ميرتلة^٢ ، مدينة

بغرب الأندلس ، يمدح « شهاب » القضاعي^٢ :

١ مرا في ج ٢ : ٦١٤ .

٢ م : يمدح بها شهاب القضاعي المشهور وهي .

شهبُ السماء ضياؤها مستور
فانزع هُديتَ إلى شهابِ نورهُ
تشفي جواهره القلوبَ من العمى
فإذا أتى فيه حَدِيثُ محمدٍ
وترحمنَ على القُضاعيِّ الذي
عنا إذا أفلتتَ توارى النورُ
مُتألقُ آماله تبصير
ولطالما انشרכתَ بهنَّ صدور
خذ في الصلاة عليه يا مغرور
وضع الشهاب فسعيه مشكور

32 - وقال الأستاذ أبو محمد غانم بن وليد المخزومي المالقي :

ثَلَاثَةٌ يُجْهَلُ مِقْدَارُهَا الأَمْنُ وَالصَّحَّةُ وَالقُوَّةُ
فَلَا تَشِقُّ بِالْمَالِ مِنْ غَيْرِهَا لَوْ أَنَّهُ دَرٌّ وَيَاقوتُ^١

وتذكرت بهذا قول الآخر :

إذا القوتُ تأتي ل لك والصحة والأمنُ
وأصبحت أخا حزنٍ فلا فارقك الحزنُ

وكلُّ ذلك أصله الحديث النبوي [على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم
فإنه قال]^٢ : « من أصبح آمناً في سربه ، مُعافى في بدنه ، معه قوتُ يومه ،
فكأنما سبقت له الدنيا بحمدٍ أفيها » .

وأخبرنا شيخنا القصار أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسي مفتي مدينة فاس
وخطيبها سنة عشر وألف ، قال : حدثنا شيخنا أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل
التونسي نزيل فاس الشهير بخروف [قال]^٢ حدثنا الإمام سيدي فرج الشريف

١ زاد في م هنا المقطوعة الآتية : وقال آخر :

قميص من القطن من حله وشربة ماء قراح وقوت

ينال بها المرء ما يبتغي وهذا كثير على من يموت

وتذكرت بالأخرى . . . إلخ .

٢ زيادة من م .

الطحطاوي ، قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم يقول « من أصبح آمناً في سربه ... الحديث » .

رجع :

33 - وقال الأستاذ العارف بالله سيدي أبو العباس أحمد بن العريف الأندلسي دفين مراکش ، وقد زرت قبره بها سنة ١٠١٠ هـ :

إذا نَزَلْتَ بِساحتك الرزايا فلا تجزع لها جزع الصَّبِيِّ
فإنَّ لكل نازلة عزاءً بما قد كان من فقد النبيِّ

وقال رحمه الله تعالى :

شَدُوا الرحال وقد نالُوا المني بمني وكُلُّهُم بِاليمِ الشوقِ قَدُ باحا
راحت ركائبُهُمْ تَندي روائحُها طيباً بما طابَ ذاكَ الوفدُ أشباحا
نَسيمُ قبرِ النبيِّ المصطفى لهم راحٌ إذا سكَروا من أجله فاحا
يا راحلينَ إلى المختار من مضر زرتم جُسوماً وزرنا نحنُ أرواحا
إنَّا أقمنا على شوقٍ وعن قدرٍ ومنَ أقامَ على عذرٍ كمن راحا

34 - وقال ٢ أبو محمد المحاربي :

دائِ الزَّمانِ وأهلِهِ دائِ يَعِزُّ لَهُ العِلاجُ
أطلعت في ظلماتِهِ رأياً كما سطع السراج
لمعاشِرِ أعيانِ ثِقا في من قناتِهِم اعوجاج
كالدرِّ ما لَمْ تُختبر فإذا اختبرت فهم زجاج

١ القطعة في التحفة : ١٧ والوافي ٨ الورقة : ٥٠ .

٢ م : وقال الأديب .

35 - وقال أبو عبد الله غريب الثقفي القرطبي^١ :

يهددني بمخلوق ضعيف يهابُ من المنية ما أهابُ
له أجلٌ ولي أجلٌ وكلُّ سيبلغُ حيثُ يبلغه الكتابُ
وما يدري لعلَّ الموتُ منه قريبُ أيُّنا قبلُ^٢ المصابُ

وله^٣ :

أيُّها الآمِلُ ما ليس لهُ طالما غرَّ جهولاً أملهُ
ربَّ مَنْ باتَ يُمنِّي نفسه خانتهُ دونَ مناهِ أجلهُ
وفتَى بكَّرَ في حاجاته عاجلاً أعقبَ ريثاً عجلهُ
قلُّ لمنْ مثَّلَ في أشعاره يذُهبُ المرءُ ويبقى مثلهُ
نافِسِ المحسنِ في إحسانه فسيكفيك مسيئاً عملهُ

قال ابن الأَبَّار : وهذا البيت الأخير في برنامج الطنبي .

36 - وقال أبو الحسين سليمان بن الطراوة النحوي المالقي^٤ :

وقائِلة أتصبو للغواني وقد أضحي بمفرقكَ النهارُ
فقلتُ لها حثت على التصابي «أحقُّ الخيلُ بالركضِ المعارُ»

37 - وقال الحافظ أبو الربيع ابن سالم :

إذا برمتَ نفسي بحالٍ أحلتُها . على أملٍ ناءٍ فقرتَ به النفسُ

١ غريب بن عبد الله الطليطلي من قدامى الشعراء ، وكان أهل بلده يشاورونه في أمورهم ؛ انظر الجذوة : ٣٠٧ (وبنية الملتبس رقم : ١٢٨١) والمغرب ٢ : ٢٣ والقطعة الأولى في المصادر المذكورة .

٢ قبل : رواية الجذوة ، وفي الأصول : أينما منه .

٣ م : وله أيضاً في طول الأمل وما الأمل إلا غرور .

٤ انظر أخبار وتراجم أندلسية (السلفي) : ١٧ .

وَأُنزِلُ أَرْجَاءَ الرَّجَاءِ رِكَائِي إِذَا رَامَ لِلْمَأْمَى بِسَاحِيَةِ الْيَأْسِ
وَإِنْ أَوْحَشْتَنِي مِنْ أَمَانِيَّ نَسْبُوتَهُ فَلِي فِي الرَّضَى بِاللَّهِ وَالْقَدَرِ الْآنَسِ

38 - وقال أبو الحسن سلام بن عبد الله بن سلام الباهلي الإشبيلي^١ ممّا أنشده لنفسه في كتابه الذي سمّاه بـ « الذخائر والأعلاق في أدب النفوس ومكارم الأخلاق » :

إِذَا تَمَّ عَقْلُ الْمَرْءِ تَمَّتْ فِضَائِلُهُ وَقَامَتْ عَلَى الْإِحْسَانِ مِنْهُ دَلَائِلُهُ
فَلَا تَنْكَرُ الْأَبْصَارُ مَا هُوَ فَاعِلُهُ وَلَا تَنْكَرُ الْأَسْمَاعُ مَا هُوَ قَائِلُهُ

وكان أبو المذكور من وزراء المعتمد بن عباد ، رحم الله تعالى الجميع .

39 - وقال أبو بكر الزبيدي اللغوي :

اتْرِكْ الْهَمَّ إِذَا مَا طَرَقَكَ ° وَكُلِّ الْأَمْرَ إِلَى مِنْ خَلَقَكَ °
وَإِذَا أَمَلَّ قَوْمٌ أَحَدًا ° فَلِي رَبِّكَ فَاْمُدِدْ عِنَقَكَ °

40 - وقال القاضي أبو الوليد هشام بن محمد القيسي الشدّبي المعروف بابن الطلاء : فاوضت القاضي أبا عبد الله ابن شبرين^٢ ما يحذر من فتنة النظر إلى الوجوه الحسان ، فقلت :

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى ذِي رَوْنَقٍ أَبَدًا ° وَاحْذِرْ عُقُوبَةَ مَا يَأْتِي بِهِ النَّظَرُ °
فَكَمْ صَرِيحُ رَأْيَانَاهُ صَرِيحُ هَوَى ° مِنْ نَظْرَةٍ قَادَهَا يَوْمًا لَهُ الْقَدَرُ °

فأجاني في المعنى الذي انتحيته :

١ سلام - بتخفيف اللام - كان شيخاً جليلاً أديباً شاعراً وله خطبة بارعة ومقامات سبع ، وقد أودع كتابه المذكور جملة وافرة من شعره ؛ توفي بشلب سنة ٤٤٤ هـ (الذيل والتكملة ٤ : ٤٨) .
٢ زاد في م : العالم الفقيه المحدث ، فسألته ما يحدث وما . . . إلخ .

إذا نظرت فلا تَوَلَّعْ بتقليبِ فر بما نظرة عادت بتعذيبِ

و « رب » هنا للتكثير .

41 - وقال الأستاذ ابن حَوَظَ الله :

أتدري أنّكَ الخطّاءَ حقّاً وأنّك بالذي تأتي رهينُ
وتغتتاب الألى فعلوا وقالوا وذاك الظنُّ والإفكُ الميئُ

قال في « الإحاطة »^١ : أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حَوَظَ الله الأنصاري الحارثي ، كان فقيهاً جليلاً أصولياً كاتباً أديباً شاعراً متفنناً في العلوم ورعاً ديناً حافظاً ثبتاً فاضلاً ، درس كتاب سيبويه ومستصفي أبي حامد الغزالي ، وكان ، رحمه الله تعالى ، مشهوراً بالعقل والفضل ، معظماً عند الملوك ، معلوم القدر لديهم ، يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية ، مقدّماً في ذلك بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار ، ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبته وسلا وميورقة ، فتظاهر بالعدل ، وعُرف بما أبطن من الدين والفضل ، وكان من العلماء العاملين ، مجانباً لأهل البدع والأهواء ، بارع الخط ، حسن التقييد ، وسمع الحديث ، فحصل له سماع لم يشاركه فيه أحد من أهل الغرب ، وسمع على الجهابذة كابن بَشْكُوَال وغيره ، وقرأ أكثر من ستين تأليفاً بين كبار وصغار ، وكمل له على أبي محمد ابن عبد الله بين قراءة وسماع نحو من ستة وثلاثين تأليفاً ، منها الصحيحان ، وأكثر عن ابن حَيْش وابن الفخار والسهيلي وغيرهم ، ومولده في محرم سنة ٥٤١ ، ومات بغير ناطة سحر يوم الخميس ثاني ربيع الأول سنة ٦١٢ ، ونُقل منها في تابوته الذي أُلحد فيه يوم السبت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة إلى مالقة فدفن بها ، رحمه الله تعالى ، انتهى ، وبعضه بالمعنى مختصراً .

١ الإحاطة ، الورقة : ٢١٩ .

وللمذكور ترجمة واسعة جداً ، وألمتُ بما ذكر على وجه التبرك بذكره ،
رحمه الله تعالى ورضي عنه .

42 - وقال أبو المتوكل الهيثم بن أحمد السكوني الإشبيلي^١ :

يُجفَى الفقير ويغشى الناسُ قاطبةً بابَ الغنَى ، كذا حكم المقاديرِ
ولنَّما الناسُ أمثالُ الفَرَاشِ فهم يرونَ حيثُ مصابيحُ الدنانيرِ

وقال تلميذه ابن الأَبَّار : أنشدني بعض أصحابنا عنه هذين البيتين ، ولم
أسمعهما منه ، انتهى .

قلت : وبهذا تعرف وَهَمَّ من نسب البيتين إلى عبد المهيمن الحضرمي ، فإن
هذا كان قبل أن يُخلَقَ والد عبد المهيمن الحضرمي ، وقد أنشدهما أيضاً ابن
الجلاب الفهري في «روح الشعر وروح الشجر» .

43 - وقال أبو محمد القاسم بن الفتح الحجاري المعروف بابن افریولة :

ركابي بأرجاء الرجاء مُناخَةٌ ورائدها علمي بأنك لي رَبُّ
وأنتَ عَلَامٌ بما أنا قائل كما أنت عَلَامٌ بما أضمر القلبُ
لئن آدها ذنبٌ تولت بعبئِهِ لقد قرعتُ باباً به يُغفر الذنبُ

وقال أيضاً^٢ :

عجباً لخير قد تيقن أنه سيرى اقرارَ يديه في ميزانِهِ
ثمَّ امتطى ظهر المعاصي جهرةً لم يثْنِهِ التائبُ عن عصيانِهِ
أتى عصي ولكل جزء نعمة من نفسه وزمانه ومكانِهِ

44 - وقال الشاعر الكبير الشهير أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجبر الفهري :

١ انظر ما تقدم ج ٣ : ٣٧٩ .

٢ م : وما ينسب إليه أيضاً قوله .

إن الشدائد قد تغشى الكريم لأن تبين فضل سجاياه وتوضحه
كمبرد القيين إذ يعلو الحديد به وليس يأكله إلا ليصلحه
وقال^١ :

لا تغبط المجذب في علمه وإن رأيت الخصب في حاله
إنّ الذي ضيّع من نفسه فوق الذي ثمر من ماله
45 — وقال أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري المنصفي البلسني^٢ :

قالت لي النفس أذاك الردى وأنت في بحر الخطايا مقيم
هلاً اتخذت الزاد قلت أقصري هل يحمل الزاد لدار الكريم

وكان المنصفي المذكور صالحاً، وله رحلة حجّ فيها، ومال إلى علم التصوّف،
رحمه الله تعالى، وله فيه أشعار حُملت عنه .

46 — وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن الصائغ القرشي الأموي
الأندلسي^٣ محمّساً أبيات عز الدين بن جماعة قاضي القضاة رحمه الله تعالى :

همّ الأبيّ على مقدار منصبه وبسط راحته في طيّ منصبه
ما أنت والدهر تشكو من تقلّبه يا مبتلى بقضاء قد بليت به
عليك بالصبر واحذر يا أخي جزعك

صبراً فللصبر في حرب العدا عددُ ذرّ العدو يُمته الغيظ والحسدُ
ولا يكن لك إلا الله معتمدُ واعلم بأن جميع الخلق لو قصدوا
أذاك لم يقدرُوا والله قد رفعتك

١ م : ومن نكته العجيبة قوله .

٢ انظر ما تقدم ج ٣ : ٥٩٥ .

٣ ترجم له الصفدي (الوافي ٣ : ٣٧٥) ، وكان من لقيه بالقاهرة ، ولقبه بحب الدين وله كنية

أخرى هي « أبو البقاء » .

أَعْلَاكَ فِي رَتْبٍ غَرَّ مَعْظَمَةٌ بِالْعَرَفِ مَعْرُوفَةٌ بِالْعِلْمِ مَعْلَمَةٌ
وَمَنْ يَنَاوِيكَ فِي بَهْمَاءٍ مَظْلَمَةٌ فَاصْرِفْ هَوَاكَ وَجَانِبَ كُلِّ مَظْلَمَةٍ
وَاصْحَبْ فِدَيْتَكَ مِنَ النَّصِيحِ قَدْ نَفَعَكَ

قَدْ اجْتَلَيْتَ مِنَ الْآيَامِ تَبْصِرَةً وَقَدْ كَفَاكَ الْهُدَى وَالذِّكْرَ تَذَكُّرَةً
فَاشْكُرْ وَقَدِّمْ مَعَ الْإِحْلَاصِ مَعْذِرَةً وَاسْأَلْ إِيَّاكَ فِي الْإِسْحَارِ مَغْفِرَةً
مِنْهُ وَكُنْ مَعَهُ حَتَّى يَكُونَ مَعَكَ

وَتُوفِّيَ الْمَذْكُورَ بِالْقَاهِرَةِ فِي الطَّاعُونَ الْعَامِّ سَنَةِ ٧٤٩ .

47 - وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُمَيْدِيُّ ١ :

النَّاسُ نَبَتْ وَأَرْبَابَ الْقُلُوبِ لَهُمْ رَوْضٌ وَأَهْلَ الْحَدِيثِ الْمَاءُ وَالزَّهْرُ
مَنْ كَانَ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ حَاكِمَهُ فَلَا شُهُودَ لَهُ إِلَّا الْآثِلَى ذَكَرُوا
وَقَالَ أَيْضًا :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعِلْمِ عِنْدَ فَنَائِهِ أَرْجٌ فَإِنَّ بَقَاءَهُ كَفَنَائِهِ
بِالْعِلْمِ يَحْيَا الْمَرْءَ طُولَ حَيَاتِهِ فَإِذَا انْقَضَى أَحْيَاءُ حَسَنَ ثَنَائِهِ
وَقَالَ أَيْضًا :

دِينُ الْفَقِيهِ حَدِيثٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ عِنْدَ الْحِجَاجِ وَإِلَّا كَانَ فِي الظُّلْمِ
إِنْ تَاهَ ذُو مَذْهَبٍ فِي قَفْرِ مَشْكَلَةٍ لَاحَ الْحَدِيثُ لَهُ فِي الْوَقْتِ كَالْعِلْمِ
وَلَمَّا تَعَرَّضَ بَعْضُ مَنْ لَا يُبَالِي بِمَا ارْتَكَبَ إِلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ :
أَرَى الْخَيْرَ فِي الدُّنْيَا يَقِلُّ كَثِيرُهُ وَيَنْقُصُ نَقْصًا وَالْحَدِيثُ يَزِيدُ

١ م : محمد الحميدي الأندلسي .

فلو كان خيراً كان كالخير كله ولكنَّ شيطانَ الحديثِ مريدُ
 ولا بنَ مَعينَ في الرجالِ مقالةُ سَيَسْأَلُ عنها والمليكِ شهيدُ
 فإنَّ يكُ حقّاً قوله فهي غيبةُ وإنَّ يكُ زوراً فالقصاصِ شديدُ

أجابه الإمام أبو عبد الله الحميدي بقصيدة طويلة ، منها :

وليتي إلى إبطالِ قولكَ قاصدُ ولي من شهاداتِ النصوصِ جنودُ
 إذا لمْ يَكُنْ خيراً كلامُ نبيِّنا لديكَ فإنَّ الخيرَ منكَ بَعِيدُ
 وأقبِحَ شيءٌ أن جعلتَ لما أتى عن الله شيطاناً وذاك شديدُ
 وما زلتَ في ذكرِ الزيادةِ مُعجَباً بها تبدىءُ التلييسَ ثمَّ تعيدُ
 كلامَ رسولِ الله وَحْيٍ ومن يرمُ زيادةَ شيءٍ فهوَ فيه عَنيدُ

ومنها ' في ابن مَعين :

وما هوَ إلاّ واحدٌ من جماعة وكلّهمُ فيما حكوه شُهودُ
 فإن صدَّ عن حكمِ الشهادةِ جاهلُ فإن كتابَ الله فيه عتيدُ
 ولولا رُوَاةُ الدين ضاعَ وأصبحتُ معالهُ في الآخرين تبييدُ
 همُ حفظوا الآثارَ من كلِّ شبهة وغيرهمُ عمّا اقتنوه رِقودُ
 وهمُ هاجروا في جمعها وتبادروا إلى كلِّ أفقٍ والمَرامُ كؤودُ
 وقاموا بتعديلِ الرواةِ وجرحهم فدام صحيحِ النقلِ وهو جديدُ
 بتبليغهم صحتِ شرائعِ ديننا حدودَ تحرّوا حفظها وعهودُ
 وصحّ لأهلِ النقلِ منها احتجاجهم فلمْ يبقَ إلا عاندُ وحقودُ
 وحسبهمُ أنَّ الصحابةَ بلّغوا وعنهم رَوَوْا لا يستطاعُ جُحودُ
 فمن حادَ عن هذا اليقينِ فمارق مريدُ لإظهارِ الشكوكِ مُريدُ

١ م : ومن هذه القصيدة .

ولكن إذا جاء الهدى ودليله فليس لموجود الضلال وجود
وإن رام أعداء الديانة كيدها فكيدهم بالمخزيات مكيد

48 - وقال أبو بكر محمد بن محرز الزهري البلسني^١ ، والتزم الرءاء في كل كلمة :

اشكر لربك وانتظر في إثر عسر الأمر يسرا
واصبر لربك وادخر في ستر ضر الفقر أجرا
فالدهر يعثر بالورى والصبر بالأحرار أحرى
والوفر أظهر معشرا والفقر بالأخيار يغرى

وقال أيضاً :

اقنع بما أوتيته تمل الغنى وإذا دهتك مئمة فتصبر
واعلم بأن الرزق مقسوم فلو رُمننا زيادة ذرة لم نقدر
والله أرحم بالعباد فلا تسئل بشراً تعش عيش الكرام وتؤجر
وإذا سخطت لضرّ حالك مرّة ورأيت نفسك قد عدت فاستبصر
وانظر إلى من كان دونك تدكر لعظيم نعمته عليك فتشكر

49 - وقال الحافظ أبو محمد ابن حزم : أنشدني والذي أحمد بن سعيد ابن حزم^٢ :

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها

50 - وقال القاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البلسني نزيل تونس :

وقالوا أما تخشى ذنوباً أتيتها ولم تك ذا جهل فتعدّر بالجهل

١ ترجمته في التحفة : ١٤٣ .

٢ الجندوة : ١١٨ .

فقلتُ لهم هبني كما قد ذكرتمُ تجاوزتُ في قولي وأسرفتُ في فعلي
أما في رضى مولى الموالي وصفحه رجاءً ومسلاةً لمقترفٍ مثلي

وأنشد رحمه الله تعالى لنفسه في اليوم الذي مات فيه ، وهو آخر ما سُمع
منه ليلة عاشوراء سنة ٦٩٣ :

أدعوكَ يا ربَّ مضطراً على ثقة بما وَعَدتَ كما المضطربُّ يدعوكا
داركٌ بعفوكَ عبداً لم يزل أبداً في كل حال من الأحوال يرجوكا
طالت حياتي ولما أتخذُ عملاً إلا محبة أقوام أحبوكا

51 - وقال ابن الزقاق ، ويقال إنها مكتوبة على قبره ^١ :

أإخواننا والموتُ قد حالَ دوننا وللموت حُكمٌ نافذٌ في الخلائقِ
سبقتكمُ للموتِ والعمرُ طيبةٌ وأعلمُ أن الكلَّ لا بُدَّ لاحقي
بعيشتكمُ أو باضطجاعي في الثرى ألم نكُ في صفو من العيش رائقِ
فمن مرَّ بي فليمضِ لي مترحماً ولا يكُ منسيّاً وفاء الأصادقِ

52 - وقال الخطيب ^٢ أبو عبد الله محمد بن صالح الكتاني الشاطبي ،
ومولده سنة ٦١٤ ^٣ :

أرى العمرَ يفتني والرجاء طویلُ وليسَ إلى قرب الحبيبِ سبيلُ
حياه إله الخلق أحسن سيرة فما الصبر عن ذاك الجمال جميل
متى يشفتني قلبي بلثم ترابه ويسمح دهر بالمزار بنجيل
دللتُ عليه في أوائل أسطري فذاك نبيُّ مُصْطَفَى ورسول

١ ديوانه : ٢٠٥ .

٢ زاد في م : الجليل الصالح الفقيه .

٣ م : الشاطبي الأندلسي ومولده بشاطبة . . . إلخ .

53 - وقال أيمن بن محمد الغرناطي نزيل طيبة على ساكنها الصلاة

والسلام :

أرى حُجْرَاتٍ قد أَحاطت عِرَاصُهَا ببحرٍ محيطٍ حصره غيرُ ممكنِ
بحار المعالي والمعاني وإن طَمَّتْ لدى لِحَّةِ تَفْنِي وعن هوله تني
محمدٌ المحمود في كلِّ موطنِ أبو القاسم المختار من خيرِ معدنِ
نبيُّ إذا أَبصرت غرّةً وجهه تيقننت أنَّ العزَّ عزُّ المهيمنِ
لكَ اللهُ من بدرٍ إذا الشمس قابلت مُحيّاه قالت إنَّ ذا طالعُ سَيِّ

وله ١ :

كلُّ القلوب مطيعة لك في الهوى جانبُ فديتكَ من تشاء ووَآلِ
الحسنُ والِ ، والقلوب رعيّة وعلى الرعيّة أن تطيع الوالي

وقال أيضاً ٢ :

ألا أيّها الباكي على ما يفوته من الحظِّ في الدنيا جهلت وما تدري
على فوتِ حظِّ من جوار محمد حقيقٌ بأن تبكي إلى آخر العمرِ
ستدري إذا قمنا وقد رفع اللوا وأحمدها ديناً إلى موقف الحشرِ
من الفائز المغبوط في يوم عرضه أجارُ النبيِّ المصطفى أم أخو الوفرِ

وله :

فررتُ من الدنيا إلى ساكن الحمى فرارَ محبِّ لائذٍ بحبيبِ
لجأتُ إلى هذا الجناب ، وإنّما لجأتُ إلى سامي العِمادِ رَحِيبِ
وناديتُ مولاي الذي عنده الغنى نداء عليلٍ في الزمان غريبِ

١ م : ومن عجيب قوله ورقيق تغزله قوله .

٢ م : وقال أيضاً يفخر بسيدنا محمد (ص) .

أمولايَ إني قد أتيتك لائذاً وأنتَ طيبي يا أجلَّ طيب
فقال لك البشري ظفرت من الرضى بأوفر حظِّ مُجْزَلٍ ونصيب
تناومتُ في أطلال ليل شبيبي فأدركني بالفجرُ صبحُ مشبي

54 - وقال أبو بكر الزبيدي اللغوي :

لو لم تكن ناراً ولا جنة للمرء إلا أنه يُقبرُ
لكان فيه واعظٌ زاجر ناهٍ لمن يسمع أو يبصرُ

ولقد صدق رحمه الله تعالى ورضي عنه .

55 - ولبعض فقهاء طلبيرة :

رأيتُ الانتباضَ أجلَّ شيء وأدعى في الأمور إلى السلامة
فهذا الخلق سالمهمُ ودعهم فرويتهم تؤول إلى الندامه
ولا تُعنى بشيء غير شيء يقود إلى خلاصك في القيامه

56 - وأمر الكاتب أبو بكر ابن مغاور بكتِّب هذه الأبيات على قبره ،

وهي له ^١ :

أيها الواقِفُ اعتباراً بقبري استمع فيه قول عظمي الرَّميمِ
أودعوني بطنَ الضريحِ وخافوا من ذنوب كلومها بأديمي
قلتُ لا تجزعوا عليّ فإنني حسنُ الظنِّ بالرؤوف الرحيمِ
ودعوني بما اكتسبتُ رهيناً غلِقَ الرهنُ عند مولى كريمِ

57 - وقال ^٢ الخطيب ابن صفوان :

١ مرت ثلاثة من هذه الأبيات في ج ٣ : ٣٣١ .

٢ م : وقال العالم العلامة .

رَأَيْتُكَ يُدُنِّي إِلَيْكَ تَبَاعُدِي فَأَبْعَدْتُ نَفْسِي لِابْتِغَائِي فِي الْقُرْبِ
 هَرَبْتُ لَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ فَلَمْ يَكُنْ بِي الْبَعْدُ فِي قُرْبِي فَصَحَّ بِهِ قُرْبِي
 فَيَارِبَّ هَلْ نَعْمَى عَلَى الْعَبْدِ بِالرَّضَى يَنَالُ بِهَا فَوْزاً مِنَ الْقُرْبِ بِالْقُرْبِ

وقال الوادي آشي :

وهذا النظم معناه جليل ، وتكرار القرب وإن قبح عند العروضي فهو عند
 المحب جميل ، وهُمُ القوم يُسَلِّمُ لَهُمْ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ ، وترتجى بركتهم
 في كل الأحوال ، انتهى .

58 - وقال بعض قدماء الأندلس :

سَمِئْتُ الْحَيَاةَ عَلَى حُبِّهَا وَحَقٌّ لَدَيْ السَّقَمِ أَنْ يَسْأَمَا
 فَلَا عَيْشَ إِلَّا لَدَيْ صِحَّةٍ تَكُونُ لَهُ لِتَلْتَقَى سَلْمَا

وذيله آخر منهم فقال :

وَلَا دَاءَ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَزَلْ يُقَارِبُ فِي دِينِهِ مَاثَمَا
 فَلَسْتَ تُعَالِجُ جَرَحَ الْهَوَى هُدَيْتَ بِمَثَلِ التَّقَى مَرَهَمَا

59 - وقال أبو جعفر أحمد السياسي القيسي المري :

إِذَا مَا جَنَى يَوْمًا عَلَيْكَ جَنَايَةً ظُلُومٌ يَدُقُ السَّمْرَ بِأَسَا وَيَقْصِفُ
 فَلَا تَنْتَقِمُ يَوْمًا عَلَيْهِ بِمَا جَنَى وَكَيْلٌ أَمْرُهُ لِلدَّهْرِ فَالدَّهْرُ مَنْصِفٌ
 وقال أيضاً ٢ :

ليس حلمُ الضَّعِيفِ حِلْمًا، ولكن حلمُ من لَوَّ يَشَاءُ صَالِ اقْتِدَارَا

١ أحمد : سقطت من ق ؛ ولعل السياسي أن تكون « البياسي » .

٢ م : وله أيضاً في الحلم والتجاوز عن سيئات من زل إن هفا .

مَنْ تَغَاضَى عَنِ السَّفِيهِ بِحِلْمٍ أَصْبَحَ النَّاسُ دُونَهُ أَنْصَارًا
مَنْ يَزُوجُ كَرِيمَةَ الْهَمَّةِ الْعِلْمِ يَا عَلَوًّا فَقَدْ أَجَادَ الْخِيَارَا
سْتَرِيهِ عِنْدَ الْوِلَادِ بِنَيْهَا الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالْأَنَاةَ كِبَارَا

60 - وقال الخطيب الصالح أبو إسحاق ابن أبي العاصي :

اعمل بعلمك تَوْتَّ عَلِمًا إِنَّمَا جَدَّوَى عُلُومِ الْمَرْءِ نَهْجُ الْأَقْوَمِ
وَإِذَا الْفَتَى قَدْ نَالَ عَلِمًا ثُمَّ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ
وقال موطناً على البيت الأخير :

أَمْوَلَايَ أَنْتَ الْعَفْوُ الْكَرِيمُ لِبَذْلِ النَّوَالِ وَلِلْمَعْذِرَةِ
عَلِيٌّ ذَنْوِبٌ وَتَصْحِيفُهَا وَمِنْ عِنْدِكَ الْجُودُ وَالْمَغْفِرَةُ

61 - وقال الخطيب المتصوف الشهير أبو جعفر أحمد بن الزيات من

بلش مالقة :

يَقَالُ خِصَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَلْفٌ وَمَنْ جَمَعَ الْخِصَالَ الْأَلْفَ سَادَا
وَيَجْمَعُهَا الصَّلَاحُ فَمَنْ تَعَدَّى مَذَاهِبَهُ فَقَدْ جَمَعَ الْفَسَادَا

وقال أيضاً :

إِنْ شِئْتَ فَوْزًا بِمَطْلُوبِ الْكِرَامِ غَدَاً فَاسْأَلْكَ مِنَ الْعَمَلِ الْمَرْضِيِّ مِنْهَا جَا
وَإِغْلَبْ هَوَى النَّفْسِ لَا يَغْرُرَكَ خَادَعُهُ فَكُلُّ شَيْءٍ يَحِطُّ الْقَدْرُ مِنْهَا جَا

62 - وقال الأديب الكبير الشهير أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة

البكري الشنريني رحمه الله تعالى^١ :

١ انظر أيضاً ما تقدم ص : ١١٧ .

بَنُو الدنْيا بِجَهْلِ عَظَمَواها فَجَلَّتْ عِنْدَهُم وَهِيَ الحَقِيرَةُ
يُهَارِشُ بَعْضُهُم بَعْضاً عَلَيْها مُهَارِشَةَ الكلابِ عَلى العَقِيرَةِ

وقال :

أَيُّ عَذْرِ يَكُونُ لا أَيُّ عَذْرِ لا بِنِ سَبْعِينَ مُوَلِّعٍ بِالصَّبَابَةِ
وَهُوَ ماءٌ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ اللَّيالي فِي إِناءِ الحَيَاةِ إِلا صُبَابَهُ

وقال أيضاً :

ولقد طلبتُ رضى البرية جاهداً فإذا رضاهم غاية لا تُدرَكُ
وأرى القناعةَ للفقى كترأ له والبر أفضلُ ما بهِ يَتَمَسَكُ

63 - وقال أبو محمد ابن صاحب الصلاة الداني ، ويُعرف بعبدون :

وعَجَّلَ شَيْبِي أَنْ ذَا الفِضْلِ مُبْتَلَى بَدَهْرٍ غدا ذُو النَقْصِ فِيهِ مُؤَمَّلَا
وَمَنْ نَكَدَ الدُّنْيَا عَلى المَرءِ أَنْ يَبْرَى بِها الحُرَّ يَشْقَى واللَّثِيمَ مَموَلَا
مَتى يَنعَمُ المَعْتَرُ عَيْنًا إِذا اَعْتَضَى جَوادًا مُقْلًا أو غَنِيًّا مَبخَلَا

64 - وقال أبو الحكم عبيد الله الأموي مولاهم الأندلسي :

إِذا كانَ إِصْلاحِي لِجِسمِي واجِبًا فَإِصْلاحِ نَفْسي لا مَحالَةٌ أَوْجَبُ
وَإِنْ كانَ ما يَفْنى إِلى النَفْسِ مَعْجَبًا فَإِنَّ الَّذِي يَبقى إِلى العَقْلِ أَعْجَبُ

65 - وقال الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمه

الله تعالى :

لِللهِ أَكْياسٌ جَفَوُوا أَوطانَهُم فَالأَرْضُ أَجمَعُها لَهم أَوطانُ

١ انظر التكملة : ٦٩ .

جالت عقولهمُ مجالَ تفكيرٍ وجماله فبدا لها الكتمان
ركبت بحار الفهم في فلك النهى وجرى بها الإخلاص والإيمان
فرستَ بهم لماً انتهوا بجفونهم مرسى لهم فيه غنى وأمان

66 - وقال أبو جعفر ابن خاتمة رحمه الله تعالى :

يا من يغيث الورى من بعد ما قنطوا
عودتهم بسط أرزاق بلا سبب
وعدت بالفضل في ورد وفي صدر
عوارف ارتبطت شم الأنوف لها
يا من تعرف بالمعروف فاعترفت
وعالماً بخفيات الأمور فلا
عبد فقيرٌ بباب الجود منكسر
مهما أتى ليمد الكف أحجله
يا واسعاً ضاقَ خطو الخلق عن نعم
وناشراً بيد الإجمالِ رحمته
ارحم عبداً بضنك العيش قد قنعوا
إذا توزعت الدنيا فما لهم
لكنهم من ذرا عليك في نمط
ومن يكن بالذي يهواه مجتمعاً

ارحم عبداً أكف الفقر قد بسطوا
سوى جميل رجاء نحوه انبسطوا
بالجود إن أقسطوا والحلم إن قسطوا
وكل صعب بقيد الجود يرتبط
بجم إنعامه الأطراف والوسط
وهم يجوز عليه لا ولا غلط
من شأنه أن يوافي حين ينضغط
قبائح وخطايا أمرها فرط
منه إذا خطبوا في شكرها خبطوا
فليس يلحق منه مسرفاً قنط
فأينما سقطوا بين الورى لقطوا
غير الدجنة لحف والثرى بسط
سام رفيع الذرى ما فوقه نمط
فما يبالي أقام الحي أم شحطوا

١ زاد في م أبياتاً قال : وقال الشيخ أبو بكر ابن مغاور (م : مفاوز) وقيل إنها لابن لبال :

ودعتها وسدامي تنهل بالدمع الطليق
فيك وأذرت أدمعاً في صفحة الخلد الأنيق
ومضت تمض بنانها بين التلهف والشهيق
فرايت درأ ساقطاً من نرجسين على شقيق
ورأيت مبيض اللجين يعض محمر العقيق

نحن العبيد وأنتَ الملكَ ليس سوى
وكلُّ شيءٍ يُرجى بعدَذا شَطَطُ
وقال رحمه الله تعالى :

ملاك الأمر تقوى الله فاجعل
وبادر نحو طاعته بعزم
تقاهُ عُدَّةً لصلاح أمرك
فما تدري متى يمضي بعمرك
وقال أيضاً ١ :

إذا كنتَ تعلم أن الأمور
فَقِيمَ التَّفَكُّرِ والحكم ماضٍ
بِحكم الإله كما قد قضى
فخلَّ الوجود كما شاءه
وقال ٢ :

إذا ما الدهر نابك منه خطب
فكِلْ لله أمرٌ لا تفكّر
وشدَّ عليك من حنق عقاله
ففكرك فيه خبط في حباله
وقال ٣ :

عدوكَ داره ما استطعتَ حتى
فما في الأرض أردى من عدو
يعودَ لديك كالخلِّ الشفيقِ
وقال ٤ :

إن أعرضتَ دُنْيَاكَ عنكَ بوجهها
فاحذر بنيتها واحتفظ من شرِّهم
وغدت ومنها في رضاكَ نزاعُ
إنَّ البنينَ لأُمَّهم أتباعُ

١ م : في تفويض الأمر إلى الله والاعتكال عليه .

٢ م : وقال في معناه في توكيل الأمر إلى الله تعالى .

٣ م : في مداراة العدو ومكايده .

٤ م : وقد أبلغ في النصيحة وأجاد إلى الغاية .

وقال ١ :

يا مجيب المضطرَّ عندَ الدعاءِ منك دائي وفي يديك دوائي
جذبّتي الدنيا إليها بضبّعي ودعتني لمحنتي وشقائي
يا إلهي وأنتَ تعلم حالي لا تدرّني شماتة الأعداءِ

67 - وقال الحافظ الكبير الشهير أبو عبد الله الحميدي صاحب «الجمع بين الصحيحين» رحمه الله تعالى ٢ :

كتابُ الله عزَّ وجلَّ قولي وما صحّتْ به الآثارُ ديني
وما اتفق الجميع عليه بدءاً وعوداً فهو عن حقّ مبین
فدع ما صدّ عن هذي وخذها تكن منها على عين اليقين

وقال :

طريق الزهد أفضلُ ما طريق وتقوى الله باديةُ الحقوقِ
فثِقْ بالله يكفِكَ، واستعنه يُعِينِكَ، وذَرِّ بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ

68 - وقال أبو بكر مالك بن جبير رحمه الله تعالى :

رحلتُ وإنّني من غيرِ زاد وما قدّمتُ شيئاً للمعادِ
ولكنّني وثقتُ بجودِ ربي وهل يشقى المقلُّ مع الجوادِ

وتوفي المذكور بأريولة - أعادها الله تعالى إلى الإسلام - سنة ٥٦١ .

69 - وقال ابن جبير اليحصبي وهو الكاتب أبو عبد الله محمد :

كلّما رمتُ أن أقدمَ خيراً لمعادي ورمتُ أنّي أتوبُ

١ م : في التضرع إليه تعالى والابتهاال إليه .

٢ هاتان القطعتان للحميدي وردتا في ج ٢ : ١١٥ .

صرفتني بواعث النفس قسراً فتقاعستُ والذنوبُ ذنوبُ
رَبِّ قَلْبٍ قَلْبِي لِعِزْمَةِ خَيْرٍ لِمَتَابٍ فَفِي يَدَيْكَ الْقُلُوبُ

ولتعلم أن كلام أهل الأندلس بحر لا ساحل له ، ويرحم الله تعالى لسان الدين بن الخطيب حيث قال في صدر الإحاطة : وهذا الغرَضُ الذي وضعنا له هذا التأليف يطلبنا فيه ما قصدنا به من المباهاة والافتخار بالإكثار ، واستيعاب النظام والنتثار ، ويحملنا فيه خوفُ السامة على الاختصار والاقْتصار ، وكفى بهذا جلاء في الأعذار ، والله تعالى مُقِيل العِثَار ، وساتر العَيْبِ المُثَار ، بفضلِه ، انتهى .

70 - ولنختم هذا الباب بقول أبي زكريا يحيى بن سعد بن مسعود القلبي :

عَفْوُكَ اللَّهُمَّ عَنَّا خَيْرُ شَيْءٍ نَتَمَنَّى
رَبِّ إِنَّا قَدْ جَهِلْنَا فِي الَّذِي قَدْ كَانَ مِنَّا
وَخَطِينَا وَخَلَطْنَا وَلهُونَا وَمَجَنَّا
إِنْ نَكُنْ رَبَّ أَسَانَا مَا أَسَانَا بِكَ ظَنًّا

وذيلته بقولي :

فَأَنلْنَا الْحَمَّ بِالْحَسِّ نِي وَإِنْعَامًا وَمَنَّا

آمين .

الباب الثامن

في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها ،
وتضريه بين ملوكها ورؤسائها بمكره ، واستعماله في أمرها حيل فكره ،
حتى استولى - دمره الله تعالى - عليها ، ومحا منها التوحيد واسمه ، وكتب
على مشاهدها ومعاهدها وسّمه ، وقرر مذهب التثليث ، والرأي الخبيث ،
لديها ، واستغاث أهلها استغاثة أضرابها بالنظم والنثر ، أهل ذلك العصر ،
من سائر الأقطار ، حين تعذرت بحصارها ، مع قلة حماّتها وأنصارها ،
المآرب والأوطار ، وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها ، أعاد الله تعالى
إليها كلمة الإسلام . وأقام فيها شريعة سيّد الأنام ، عليه أفضل الصلاة
والسلام ، ورفع يد الكفر عنها وعمّا حواليا : آمين .

[ظهور بلاي وخلفائه]

قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع قُلَّ النصارى بالأندلس - بعد
غلبة العرب لهم - عِلْجٌ يقال له بلاي^١ ، من أهل أشتوريش من جليقية . كان
رهينةً عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفي .
الثاني من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها ، وهي
سنة ثمان وتسعين من الهجرة ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن ،
فطردوه وملكوا البلاد ، وبقي الملك فيهم إلى الآن ، وكان عِدَّةً مَن ملك
منهم إلى آخر أيام الناصر لدين الله اثنين وعشرين ملكاً ؛ انتهى .
وقال عيسى بن أحمد الرازي : في أيام عَنبَسَةَ بن سَحِيم الكلابي قام بأرض

١ انظر ما تقدم عن بلاي ج ٣ : ١٧ .

جليقية عِلج حيث يقال له بلابي من وقعة أخذ النصارى بالأندلس ، وجدَّ الفرنج في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك ، ولقد استولى المسلمون بالأندلس على النصرانية وأجلّوهم ، وافتتحوا بلادهم ، حتى بلغوا أريولة من أرض الفرنجة ، وافتتحوا بلبونة من جليقية ، ولم يبق إلاّ الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له بلابي ، فدخلها في ثلاثمائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعاً ، وبقي في ثلاثين رجلاً وعشر نسوة ، ولا طعام لهم إلاّ العسل يشثارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به ، حتى أعياء المسلمين أمرهم ، واحترقوا بهم ، وقالوا : ثلاثون عِلجاً ما عسى أن يجيء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة ما لا يخفاء به . وفي سنة ١٣٣ هلك بلابي المذكور ، وملك ابنه فافله^١ بعده . وكان ملك بلابي تسع عشرة سنة . وابنه ستين . فملك بعدهما أذفونش بن بيطر^٢ جد بني أذفونش هؤلاء الذين اتصل ملكهم إلى اليوم ، فأخذوا ما كان المسلمون أخذوه من بلادهم ؛ انتهى باختصار .

وقال المسعودي بعد ذكره غزوة سمورة أيام الناصر ، ما صورته^٣ : وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس ممّا يلي الفرنجة ومدينة أربونة^٤ خرجت عن أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها ممّا كان بأيديهم من المدن والحصون ، وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦^٥ من شرق الأندلس طرطوشة ، وعلى سائر بحر الروم ممّا يلي طرطوشة آخذاً في الشمال لإفراغه على نهر عظيم ثم لاردة ؛ انتهى .

١ (Fafila)

٢ (Alphonso) ابن (Pedro) ؛ وكان أذفونش هذا قد تزوج ابنة بلابي واسمها أرمنسندا (Err.ensinda) (فجر الأندلس : ٣٤٤) .

٣ مروج الذهب : ١ : ١٦٢ .

٤ المزوج : وآخر ما كان . . . مدينة أربونة .

٥ المروج : وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة .

ومن أول ما استرد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذي النون سنة ٤٧٥ ، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال :

يا أهلَ أندلسٍ حُثُوا مَطِيئَكُمْ فما المقامُ بها إلاّ من الغلظِ
الثوبُ يُنسلُ من أطرافه وأرى ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسطِ
ونحنُ بينَ عدوٍّ لا يفارقنا كيفَ الحياةَ مع الحياتِ في سفظِ
ويروى صدر البيت الثالث هكذا :

من جاورَ الشرَّ لا يأمنُ بوائقهُ كيفَ الحياةَ مع الحياتِ في سفظِ
وتروى الأبيات هكذا :

حُثُوا وواحلکم يا أهلَ أندلسٍ فما المقامُ بها إلاّ من الغلظِ
السلكُ يُنثرُ من أطرافه ، وأرى سلكَ الجزيرة منثوراً من الوسطِ
منَ جاورَ الشرَّ لا يأمنُ عواقبهُ كيفَ الحياةَ مع الحياتِ في سفظِ
وقال آخر :

يا أهلَ أندلسٍ رُدُّوا المُعارَ فما في العُرفِ عاريةُ إلاّ مردّاتُ
ألم تروا بيّدقَ الكفارِ فرزنهُ وشاهنا آخرَ الأبياتِ شَهَماتُ

وقال بعض المؤرخين : أخذ الأذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة ٤٧٨ ؛ انتهى . وفيه بعض مخالفة لما قبله في وقت أخذها ، وسيأتي قريباً بعض ما يؤيده .

قال : وهي مدينة حصينة قديمة أزلية من بناء العمالقة ، على ضفة النهر الكبير ، ولها قَصبة حصينة في غاية المنعة ، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جري ، ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجحوت تسعون ذراعاً ، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة ، وطليطلة هذه دار مملكة الروم ، وبها كان البيت المغلق الذي كانوا يتحامون فتحه حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب ؛ انتهى .

وقد تقدم شيء من هذا فيما مر من هذا الكتاب^١ .

وقد حكى ابن بدرون في شرح العبدونية^٢ أن المأمون يجيى بن ذي النون صاحب طليطلة بنى بها قصرأ تأنق في بنائه ، وأنفق فيه مالاً كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى في وسطها قبة ، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حوالها محيطاً بها متصلاً ببعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتقر ، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل ، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد :

أتبني بناء الخالدين ، وإنما بقاؤك فيها ، لو علمت ، قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يعتره رحيل

فلم يلبث بعد هذا إلا يسيراً حتى قضى نحبه ؛ انتهى .

وقال ابن خلكان^٣ : إن طليطلة أخذت يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد ؛ انتهى .

١ انظر ما تقدم ج ١ : ١٦١ ، ٢٠٦ .

٢ البسامة : ٢٧١ .

٣ وفيات الأعيان ٤ : ١١٨ .

وقال ابن علقمة : إن طليطلة أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ ، وكانت وقعة الزلافة في السنة بعدها ، انتهى .

[وقعة الزلافة نقلاً عن الروض المعطار وغيره]

ورأيت أن أذكر هنا وقعة الزلافة التي نشأت عن أخذ طليطلة وما يتبع ذلك من كلام صاحب «الروض المعطار» وغيره فنقول^١ : إنه لما ملك يوسف ابن تاشفين اللمتوني المغرب ، وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة ، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة ، وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة ، تاقت نفسه إلى العبور بجزيرة الأندلس ، فهمم^٢ بذلك ، وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها ، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إلامه بجزيرتهم ، وأعدوا له العدة والعدد ، وصعبت عليهم مدافعتة ، وكرهوا أن يكونوا بين عدوين الفرنج من شملهم والمسلمين من جنوبهم ، وكانت الفرنج تشتد وطأتها^٣ عليهم ، وتغير تنهب ، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين ، والفرنج ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين ، إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم ، لنفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب ، وانتقال الأمر إليه في أسرع وقت ، مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي تقدت الفارس ، والطعنات التي تنظم الكلى ، فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتاله ، وكان ملوك الأندلس يفيثون إلى ظله ، ويحذرونه خوفاً على ملكهم ، مهما عبر إليهم وعابن بلادهم ، فلما رأوا ما دلم على عبوره إليهم وعلموا ذلك ، راسل بعضهم بعضاً يستنجدون آراءهم في أمره ، وكان متفرغهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد ، لأنه أشجع القوم ، وأكبرهم مملكة ، فوقع اتفاقهم

١ أكثر هذا النص منقول عن ابن خلكان ٦ : ١١٢ وما بعدها .

٢ ق ص : تشتد وطأتها .

على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته ، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتاباً ، وهو : أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نُسبت إلى كرم ، ولم تُنسب إلى عجز ، وإن أجبنا داعيتك نُسبنا إلى عقل ، ولم نُنسب إلى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تُسبَق فيه إلى مكرمة ، وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت ، والسلام . فلما وصله الكتاب مع تحف وهدايا ، وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربي ، لكنه ذكي الطبع ، يجيد فهم المقاصد ، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ، فقال له : أيها الملك ، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك ، وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي ، فإنهم مسلمون وذوو بيوتات ، فلا تغير بهم ، وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم إعراضك عن أطاعك من أهل الغرب ، فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه : فما ترى أنت ؟ فقال : أيها الملك اعلم أن تاج الملك وبهجته شاهده الذي لا يُرد ، فإنه خليق بما حصل في يده من الملك والمال أن يعفو إذا استعفي ، وأن يهب إذا استُوهب ، وكلما وهب جليلاً جزيلاً كان لقدره أعظم ، فإذا عظم قدره تأصل ملكه ، وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته ، وإذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ، ولم يتجشم المشقة إليهم ، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته ، واعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البُصراء بطريق تحصيل الملك قال : من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد ؛ فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف بلغته فهمه وعلم صحته ، فقال للكاتب : أجيب القوم ، واكتب بما يجب في ذلك ، واقرأ عليّ كتابك ، فكتب الكاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، تحية من سالمكم وسلّم عليكم ، وإنكم ممّا في أيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصوصين ممّا بأكرم إيثار

وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم ،
والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام . فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن
تاشفين بلسانه ، فاستحسنه ، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرّاق اللَّمَط
التي لا توجد إلاّ ببلاده ، وأنفذ ذلك إليهم ، فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه
فرحوا به ، وعظموه ، وسُرُّوا بولايته ، وتقوّت نفوسهم على دفع الفرنج
عنهم ، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريبهم أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين
ليعبر إليهم ، أو يمدّهم بإعانة منه .

وكان ملك الإفرنج الأذفونش لما وقعت الفتنة بالأندلس وثار الخلاف ،
وكان كل من حاز بلداً وتقوى فيه ملكه وادعى الملك وصار مثل ملوك الطوائف ،
فطمع فيهم الأذفونش بسبب ذلك ، وأخذ كثيراً من ثغورهم ، فقوي شأنه ،
وعظم سلطانه ، وكثرت عساكره ، وأخذ طليطلة من صاحبها القادر بالله بن
المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها في منتصف
محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فزاد لعنه الله تعالى بملكه طليطلة قوّة إلى قوّته ،
وأخذ يجوسُ خلال الديار ، ويستفتح المعازل والحصون .

قال ابن الأثير في « الكامل »^١ : وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس
ومتملك أكثر بلادها^٢ ، مثل قرطبة وإشبيلية ، وكان — مع ذلك — يؤدي الضريبة
إلى الأذفونش كل سنة ، فلما تملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة
المعتادة^٣ ، فلم يقبلها منه ، وأرسل إليه يهدده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة ليفتحها ،
إلاّ أن يسلم إليه جميع الحصون المنيعّة^٤ ، ويبقى السهل للمسلمين ، وكان الرسول
في جمع كثير نحو خمسمائة فارس ، فأنزله المعتمد ، وفرق أصحابه على قواد

١ الكامل ١٠ : ١٤٢ (ط . صادر) .

٢ ابن الأثير : وكان يملك أكثر البلاد .

٣ ابن الأثير : على عادته .

٤ ابن الأثير : الحصون التي بالجليل .

عسكره ، ثم أمر قواده أن يقتل كل منهم مَنْ عنده من الكفرة ، وأحضر الرسول وصدقائه حتى خرجت عيناه ، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر ، فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر ، وكان متوجهاً إلى قرطبة ليحاصرها ، فرجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ، ويكثر العدد والعدة ، انتهى .

وقال الفقيه أبو عبد الله [محمد] بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري في كتابه «الروض المعطار في ذكر المدن والأقطار» ما ملخصه^٢ : إنه لما اشتغل المعتمد بغزو ابن صمادح صاحب المريّة حتى تأخر الوقت الذي كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش وأرسلها إليه بعد ذلك ، استشاط الطاغية غضباً وتشطط ، وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة ، وأمعن في التّجنيّ ، وسأل في دخول امرأته التّمجيطة^٣ إلى جامع قرطبة لتلد فيه ، إذ كانت حاملاً ، لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم ، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة - وهي التي أنشأ بناءها الناصر لدين الله ، وأمعن في بنائها ، وأغرب في حسنها ، وجكّس إليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور من البلاد والأقطار ، وكان يثيب على السارية بكذا وكذا غير الثمن وأجرة الحمل ، وأنفق فيها الأموال العظيمة ، واشتغل بها ، وكان يباشر الصنّاع بنفسه ، حتى تخلف عن حضور الجمعة ثلاث مرات متواليات ، وحضر في الرابعة ، وكان الخطيب يومئذ الفقيه الزاهد مُنذر بن سعيد البسكوطي ، فعرّض به في الخطبة ، ووبخه على رؤوس الملأ ، وقصته في ذلك مشهورة ، وبناء الزهراء أيضاً من أغرب مباني الإسلام ، فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان - .

١ في بعض أصول ابن الأثير : وضغفه .

٢ الروض : ٨٤ - ٩٥ .

٣ الروض : القمطيحة .

٤ وهي . . . ابن حيان : استطراد من المقرئ ليس في الروض المعطار .

ولنرجع إلى الأذفونش فإن الأطباء والقسوس لما أشاروا أن تكون المرأة المذكورة ساكنة بالزهراء ، وتردد إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور ، وكان السفير في ذلك يهودياً كان وزير الأذفونش ، فامتنع ابن عباد من ذلك ، فراجعه ، فأباه وأبأسه من ذلك ، فراجعه اليهودي في ذلك ، وأغلظ له في القول ، وواجهه بما لم يحتمله ابنُ عباد ، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي ، فأنزل دماغه في حلقه ، وأمر به فصُلب منكوساً بقرطبة ، واستفتى لما سكن غضبه الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي ، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل ، إذ ليس له ذلك ، وقال للفقهاء : إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو ، وعسى الله أن يجعل في عزمته للمسلمين فرجاً .

وبلغ الأذفونش ما صنعه ابن عباد ، فأقسم بألمته ليغزونه بإشبيلية ، ويحاصره في قصره ، فجرد جيشين جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس ويغير على تلك التخوم والجهات ، ثم يمر على لسبلة إلى إشبيلية ، وجعل مواعده إياه طريانة للاجتماع معه ، ثم زحف الأذفونش بنفسه في جيش آخر عرّمرم ، فسلك طريقاً غير الطريق التي سلكها الآخر ، وكلاهما عاث في البلاد وخرّب ودمّر ، حتى اجتمعا لموعدهما بصفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عبّاد ، وفي أيام مقامه هنالك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه : كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان ، واشتد عليّ الحر ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي ، وأطرد بها الذباب عن وجهي ؛ فوقع له ابن عبّاد بخط يده في ظهر الرقعة : قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللطيفة تروّح منك لا تروح عليك ، إن شاء الله

تعالى . فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عبّاد ، وقرئت عليه ، وعلم مقتضاها ،
أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال .

وفشا في الأندلس توقيع ابن عبّاد ، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف
ابن تاشفين ، والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناس ، وفرحوا بذلك .
وفتحت لهم أبواب الآمال . وأما ملوك طوائف الأندلس فلما تحققوا عزم ابن عبّاد
وانفراده برأيه في ذلك ، اهتموا منه ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من كلمه مواجهة ،
وحذّروه عاقبة ذلك ، وقالوا له : الملك عقيم ، والسيقان لا يجتمعان في غمد
واحد ، فأجابهم ابن عبّاد بكلمته السائرة مثلاً : رَعِيُ الجمال خير من رعيِ
الخنازير ، ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في
الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره في قَسْتَالَة .
وقال لعذاله ولوّامه : يا قوم إني من أمري على حالتين : حالة يقين ، وحالة شك ،
ولا بد لي من إحداهما ، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى
الأذفونش ففي الممكن أن يفني لي ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل ، فهذه
حالة شك ، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله ،
وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى ، فإذا كانت حالة الشك فيها
عارضة ، فلا شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه ؟ فحينئذ قصر أصحابه
عن لومه .

ولما عزم أمر صاحب بَطْلَيْيُوسَ المتوكل عمر بن محمد وعبد الله بن حبّوس
الصنهاجي صاحب غرناطة أن يبعث إليه كلٌّ منهما قاضي حضرته ، ففعلا ،
واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم . وكان أعقل أهل
زمانه ، فلما اجتمع عنده القضاة بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر ابن زيدون ،
وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين ، وأسند إلى القضاة ما يليق
بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد ، وأسند إلى وزيره ما لا بد
منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية ، وكان يوسف بن تاشفين لا تزال

تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والإسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته ، فيسمع إليهم ، ويصغي لقولهم ، وترقُّ نفسه لهم .

فما عبرت رسل ابن عباد البحر إلا ورسل يوسف بالمرصاد ، ولما انتهت الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم ، وأكرم مشواهم ، واتصل ذلك بابن عباد ، فوجه من إشبيلية أسطولا نحو صاحب سبتة ، فانتظمت في سلك يوسف ، ثم جرت بينه وبين الرسل مراوضات ، ثم انصرفت إلى مرسلها ، ثم عبر يوسف البحر عبوراً سهلاً ، حتى أتى الجزيرة الخضراء ، ففتحوا له ، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات ، وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق ، وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيه ، فامتلات المساجد والرحبات بالمطوعين ، وتواصوا بهم خيراً ، هذا مساق صاحب «الروض المعطار» .
وأما ابن الأثير^١ فإنه لما ذكر وقعة الزلافة ذكر ما تقدم من فعل المعتمد بالأرسال وقتلهم ، وتخوف أكابر الأندلس من الأذفونش ، وأنه اجتمع منهم رؤساء ، وساروا إلى القاضي عبيد الله^٢ بن محمد [بن أدهم] وقالوا له : ألا تنتظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية ، بعد أن كانوا يأخذونها ، وقالوا : قد غلب على البلاد الفرنج ، ولم يبق إلا القليل ، وإن طال هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولاً ، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك ، قال : وما هو؟ قالوا : نكتب إلى عرب إفريقية ، ونبدل لهم إذا وصلوا إلينا شرط أموالنا ، ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله ، فقال لهم : إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية ، ويتركوا الإفرنج ويبدؤوا بنا ، والمرابطون أصلح منهم ، وأقرب إلينا ، فقالوا له : فكاتب أمير المسلمين ، واسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسر من الجند . فبينما هم في ذلك يترامضون إذ قدم عليهم المعتمد بن عباد

١ الكامل ١٠ : ١٥١ وقد أورده ابن خلكان أيضاً ٤ : ١١٩ .

٢ في ابن الأثير : عبد الله ؛ راجع الصلة : ٢٩٣ .

قرطبة ، فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه ، فقال له ابن عباد : أنت رسولي إليه في ذلك ، فامتنع ، وإنما أراد أن يبريء نفسه من ذلك ، فألح عليه المعتمد ، فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فوجده بسبته ، وأبلغه الرسالة وأعلمه بما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش ، ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس ، وأرسل إلى مراکش في طلب مَنْ بقي من العساكر ، فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً ، فلما تكاملت عنده عبر البحر ، واجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية ، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً ، وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير ، وقصدته المطوعة من سائر بلاد الأندلس ، ووصلت الأخبجار إلى الأذفونش فجمع عساكره ، وحشد جنوده ، وسار من طليطلة ، وكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يُغَلظ له في القول ، ويصف ما معه من التوة والعُدَد والعَدَد ، وبالغ في ذلك ، فلما وصله وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر ابن التصيرة أن يجيبه ، وكان كاتباً مفلقاً ، فكتب وأجاد ، فلما قرأه على أمير المسلمين قال : هذا كتاب طويل ، أحضر كتاب الأذفونش وكتب في ظهره : « الذي يكون ستره » وأرسله إليه ، فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له ، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقة له به .

وذكر ابن خلكان^١ أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبّر منها ما أغص الجزيرة ، وارتفع رُغَاؤها إلى عنان السماء ، ولم يكن أهلُ الجزيرة رأوا جملاً قط ولا خيلهم ، فصارت الخيل تجمَحُ من رؤية الجمال ومن رُغَاؤها ، وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب ، فكان يحدق بها عسكره ، ويحضرها للحرب ، فكانت خيل الفرنج تجمَحُ منها ، وقدّم يوسف بين يديه كتاباً للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب ، كما هي السنة ، ومن جملة ما في الكتاب : بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن

١. وفيات الأعيان ٦ : ١١٥ .

تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك ، وسرى عاقبة دعائك ﴿ وما دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (غافر : ٥٠) انتهى بمعناه ، وأكثره بلفظه .

ولترجع إلى كلام صاحب « الروض المعطار »^١ فإنه أقعد بتاريخ الأندلس ، إذ هو منهم ، وصاحب البيت أدري بالذي فيه^٢ ، قال رحمه الله تعالى : فلما عبر يوسف وجميع جيوشه إلى الجزيرة الخضراء انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات ، جيشاً بعد جيش ، وأميراً بعد أمير ، وقبيلاً بعد قبيل ، وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف ، وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ، ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه ، وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية ، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه ، فلما أتى محلة يوسف ركض نحو القوم ، وركضوا نحوه ، فبرز إليه يوسف وحده ، والتقى منفردين ، وتصافحا وتعانقا ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص ، وشكرا نِعَمَ الله تعالى ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر . وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه ، مقرباً إليه ، وافترقا ، فعاد يوسف لمحلته ، وابن عباد إلى جهته ، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين ، وباتوا تلك الليلة ، فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع ، وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية ، ففعل ، ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم ، ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من^٣ بادر أو أعان وخرج أو أخرج ، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف ، كل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا^٣ . وكان الأذفونش لما تحقق الحركة والحرب استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما

١ الروض : ٨٧ .

٢ بالذي فيه : سقطت من ق .

٣ في الأصول : وكابروا .

وراءها ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة ما لا يحصى عدده ، وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع ، وبعث الأذفونش إلى ابن عباد : إن صاحبكم يوسف قد تغنى من بلاده ، وخاض البحور ، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ، ولا أكلفكم تعباً ، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقا بكم وتوفيراً عليكم ، وقال لخاصته وأهل مشورته : إني رأيت أنني إن مكنتهم من الدخول إلى بلادي ، فناجزوني فيها وبين جدورها ، وربما كانت الدائرة عليّ ، يستحكمون البلاد ، ويحصدون من فيها غداة واحدة ، ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم ، فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلاّ بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي ، وجبر لمكاسري ، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون فيّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها ، ثمّ برز بالمختار من جنوده ، وأنجاد جموعه على باب دربه ، وترك بقية جموعه خلفه ، وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم : بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : المختارون أربعون ألف دارع ، ولكل واحد أتباع . وأما النصراني فيعجبون ممن يزعم ذلك ، ويرون أنهم أكثر من ذلك كله . واتفق الكل أن عدد المسلمين أقل من الكفرة ، ورأى الأذفونش في نومه كأنه راكب فيل يضرب نقيرة طبل ، فهالته الرؤيا ، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد ، فدرس يهودياً عمّن يعلم تأويلها من المسلمين ، فدُلّ على معبّر ، فقصّها عليه ، ونسبها لنفسه ، فقال له المعبّر : كذبت ، ما هذه الرؤيا لك ، ولا أعبرها لك إلاّ إن صدقتني بصاحب الرؤيا ، فقال له : اكمّ عليّ ، الرؤيا للأذفونش ، فقال المعبّر : صدقت ولا يراها غيره ، والرؤيا تدل على بلاء عظيم ، ومصيبة فادحة فيه وفي عسكره ، وتفسيرها قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (الفيل : ١) وأما ضربه النقيرة فتأويلها ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ (المدثر : ٨ ، ٩) . فانصرف اليهودي وذكر للأذفونش

ما وافق خاطره .

ثم خرج الأذفونش ووقف على الدروب ، ومال بجيوشه إلى الجهة الغربية من بلاد الأندلس ، وتقدم السلطان يوسف فقصدته ، وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ، ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ، ورؤساء الأندلس ، وجعل ابنه عبد الله على مقدمته ، وسار وهو ينشد لنفسه متفائلاً مكماً البيت المشهور :

لا بدّ من فرجٍ قريبٍ يأتيك بالعجبِ العجيبِ
غزوّ علكيّك مباركٌ سيعود بالفتحِ القريبِ
لله سعيديك إنّه نكس على دين الصليبِ
لا بدّ من يومٍ يكو ن له أخاً يوم القليبِ

ووافت الجيوش كلها بطليّوس ، فأناخوا بظاهرها ، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، فلقاهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود ، وجاءهم الخبر بشخص الأذفونش ، ولما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكاييد الأذفونش ، إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه ، حتى قيل : إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلاّ ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بالمحلة ، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات ، وقد تقدم كتاب السلطان يوسف إلى الأذفونش يدعوه إلى إحدى الثلاث المأمور بها شرعاً ، فامتلاً الكافر غيظاً ، وعتا وطغى ، وراجعه بما يدل على شقائه ، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا^٢ صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت ، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما ، وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ ، وحضّوهم على الصبر والثبات ، وحذروهم من الفشل والفرار ،

١ يوم القليب يعني معركة بدر .

٢ ق : ونصبوا .

وجاءت الطلائع تخبر أن العدوّ مشرف عليهم صبيحة يومهم ، وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافقتهم ، فكعّ الأذفونش ، ورجع إلى إعمال المكر والخديعة ، فعاد الناس إلى محلاتهم ، وباتوا ليلتهم ، ثمّ أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول : غدأ يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، والأحد عيدنا ، فليكن لقاؤنا بينهما ، وهو يوم السبت ، فعرفّ المعتمدُ بذلك السلطان يوسف ، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة ، وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة ، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كلّّ النهار ، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس . وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي - وكان في محلة ابن عبّاد - فرحاً مسروراً يقول : إنه رأى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة ، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب ، وانتهى ذلك إلى ابن عبّاد ، فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقياً لما توقعه من غدر الكافر بالله تعالى .

ثمّ جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة ، ثم تلاحق بقية الطلائع متحققين بتحريك الأذفونش ، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول : استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه : ابن عبّاد مسعر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وإنما قادهم ابنُ عبّاد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عبّاد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة ، فعند ذلك بعث ابن عبّاد الكاتب أبا بكر ابن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الأذفونش ، ويستحث نصرته ، فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين ، فعرفّه بجليّة الأمر ، فقال له : قل له إنني سأقرب منه إن شاء الله تعالى ، وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي

بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيُضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشتغلاً
مع ابن عباد .

وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد ، فلم يصله إلاّ وقد غشيته جنود الطاغية ،
فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله ، ومال الأذفونش عليه بجموعه ، وأحاطوا
به من كل جهة ، فهاجت الحرب ، وحمي الوطيس ، واستحرّ القتل في أصحاب
ابن عباد ، وصبر ابن عباد صبراً لم يُعهد مثله لأحد ، واستبطن السلطان يوسف
وهو يلاحظ طريقه ، وعضته الحرب ، واشتد عليه وعلى مَنْ معه البلاء ، وأبطأ
عليه الصحراويون وساءت الظنون ، وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم ابنه
عبد الله ، وأُتخن ابن عباد جراحات ، وضُرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى
وصلت إلى صدغه وجرحت يمين يديه ، وطُعن في أحد جانبيه ، وعُقرت تحته
ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قُدّم له آخر ، وهو يقاسي حياض الموت ،
ويضرب يميناً وشمالاً ، وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مُغرماً به تركه
في إشبيلية عليلاً ، وكنيته أبو هاشم ، فقال :

أبا هاشم هَشَمْتَنِي الشَّفَارُ فله صبري لِذَلِكَ الأَوَارِ
ذَكَرْتَ شُخَيْصَكَ تَحْتَ العِجَاجِ فَلَمَّ يَشْنِي ذَكَرَهُ لَافِرَارِ

ثمّ كان أول من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة ، وكان
بطلاً شجاعاً شهماً ، فنُقِسَ بمجيئه عن ابن عباد ، ثمّ أقبل يوسف بعد ذلك ،
وطبولته تصعد أصواتها إلى الجو ، فلما أبصره الأذفونش وجّه حملته إليه ،
وقصده بمعظم جنوده ، فبادر إليهم السلطان يوسف ، وصدّمهم بجمعه ، فردّهم
إلى مركزهم ، وانتظم به شملُ ابن عباد ، واستنشق ريح الظفر ، وتباشر بالنصر ،
ثمّ صدقوا جميعاً الحملة ، فتزلزلت الأرض بجوافر خيولهم ، وأظلم النهار
بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل في الدماء ، وصبر الفريقان صبراً عظيماً ،
ثمّ تراجع ابن عباد إلى يوسف ، وحمل معه حملة جاء معها النصر ، وتراجع

المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفتيين ، وصدقوا الحملة ، فانكشف الطاغية ، ومرّ هارباً منهزماً وقد طُعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يجمع بها بقية عمره .

وعلى سياق ابن خلكان^١ أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء ، وكان الموعد في المناجزة في يوم السبت ، فغدر الأذفونش ومكر ، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد ، والروم في أثرها ، والناس على طمأنينة ، فبادر ابن عباد للركوب ، وبث الخبر في العساكر فماجت بأهلها ، ووقع البهت ، ورجفت الأرض ، وصار الناس فوضى على غير تعبئة ولا أهبة ، ودهمتهم خيل العدو ، فأحاطت بابن عباد ، وحطمت ما تعرض لها ، وتركت الأرض حصيداً خلفها ، وجرح ابن عباد جرحاً أشواه^٢ ، وفر رؤساء الأندلس وتركوا محلاتهم وأسلموها ، وظنوا أنه وهي لا يرقع ، ونازلة لا تدفع ، وظنّ الأذفونش أن السلطان يوسف في المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين ، فركب أمير المسلمين ، وأحدق به أنجاد^٣ خيله ورجله من صنهاجة رؤساء القبائل ، وقصدوا محلة الأذفونش فاقحموها ودخلوها ، وفتكروا فيها ، وقتلوا ، وضربت الطبول ، وزعقت البوقات ، فاهتزت الأرض ، وتجاوبت الجبال والآفاق ، وتراجع الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها ، فصدموا أمير المسلمين ، فأفرج^٤ لهم عنها ، ثم كر عليهم فأخرجهم منها ، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها ، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشّمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ،

١ انظر ابن خلكان ٦ : ١١٦ وهو ينقل عن كتاب « تذكير العاقل وتنبية الغافل » للبياسي .
٢ في الأصول : أساه .
٣ في الأصول : جباد .
٤ في الأصول : فخرج .

ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الران^١ ، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسائها ، وأجمحت^٢ عن أقرانها ، وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه ، فأهوى ليضربه بالسيف ، فلصق به الأسود ، وقبض على عنانه ، وانتضى خنجرأ كان متمنطقاً به ، فأثبتته في فخذيه ، فهتك حلق درعه ، ونفذ من فخذيه مع بداد سرجه ، وكان وقت الزوال ، وهبت ريح النصر ، فأنزل الله سكينته على المسلمين ، ونصّر دينه القويم ، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه ، فأخرجوهم عن محلّتهم ، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ، إلى أن لحقوا ربوة لجأوا إليها واعتصموا بها ، وأحدقت بهم الخيل ، فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة ، وأفلتوا بعدما تشبثت^٣ بهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان في محلّتهم من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير ذلك ، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين ، فاجتمع من ذلك تل عظيم ؛ انتهى ، وبعضه بالمعنى .

رَجَعُ" إلى كلام صاحب «الروض المعطار» قال^٤ :

ولجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلّته في نحو خمسمائة فارس كل واحد منهم مكلوم ، وأباد القتل^٥ والأسر من عداهم من أصحابهم ، وعمل المسلمون من رؤوسهم ماذن^٥ يؤذنون عليها ، والمخذول ينظر إلى موضع الواقعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلاّ نكالا^٥ محيطاً به وبأصحابه ، وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن

١ في الأصول : الزان .

٢ ق ص : وأجمحت ، ابن خلكان : وأجمت .

٣ ابن خلكان : نشبت .

٤ الروض : ٩٣ .

٥ الروض : صوامع .

بلائه وجميل صبره ، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهمزاهم عنه ، فقال له : هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك .

وكتب ابن عبّاد إلى ابنه بإشيلية كتاباً مضمونه : كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموفي عشرين من رجب ، وقد أعز الله الدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المبين ، وهزم الكفرة والمشركين ، وأذاقهم العذاب الأليم ، والخطب الجسيم ، فالحمد لله على ما يسره وسنّاه من هذه المسرة العظيمة ، والنعمة الجسيمة ، في تشيت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره ، أصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم المليم ، بعد إتيان النهب على محلاته ، واستئصال القتل في جميع أبطاله وحُماته ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فله الحمد على جميل صنعه ، ولم يصبني والحمد لله إلاّ جراحات يسيرة آلت لكنها فرجت بعد ذلك ، فله الحمد والمنة ، والسلام . واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس ، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة ، وقاضي مراکش أبي مروان عبد الملك المصمودي ، وغيرهما ، رحمهم الله تعالى .

وحكي أن موضع المعترك كان على اتساعه ما كان فيه موضع قدم ، إلاّ على ميت أو دم ، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام ، حتى جُمعت الغنائم ، واستؤذن في ذلك السلطان يوسف ، فعفّ عنها ، وآثر بها ملوك الأندلس ، وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم ، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم ، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه ، وأحبوه وشكروا له ذلك . ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم ولم يسمع إلاّ نواح الشكلى عليهم ، اهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك غمّاً وهمّاً ، وراح إلى أمه الهاوية ، ولم يخلّف إلاّ بنتاً واحدة جعل الأمر إليها ، فتحصنت بطيّطة .

ورحل المعتمد إلى إشيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين ، فأقام السلطان

يوسف بن تاشفين بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام ، ووردت عليه من المغرب أخبار
تقتضي العزم فسافر وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة ، فحلف ابن تاشفين وعزم
عليه في الرجوع ، وكانت جراحاته تورمت عليه ، فسير معه ولده عبد الله إلى
أن وصل البحر ، وعبر إلى المغرب .

ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس ، وهنئ بالفتح ، وقرأت القراء ،
وقام على رأسه الشعراء ، فأنشدوه ، قال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك
اليوم ، وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه ، فقرأ القارئ ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ
فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ (التوبة : ٤٠) فقلت : بُعداً لي ولشعري ، والله ما أبت
لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به .

ولما عزم السلطان^١ يوسف بن تاشفين إلى بلاده ترك الأمير سير بن أبي بكر
أحد قواده المشاهير ، وترك معه جيشاً برسم غزو الفرنج ، فاستراح الأمير المذكور
أياماً قلائل ، ودخل بلاد الأذفونش ، وأطلق الغارة ونهب وسبي ، وفتح الحصون
المنيعه والمعقل الصعبة العويصة ، وتوغل في البلاد ، وحصل أموالاً وذخائر
عظيمة ، ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما أخذه ، وأرسل للسلطان يوسف
جميع ما حصله ، وكتب له يُعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو
وملازمة الحرب والقتال في أضيح العيش وأنكده ، وملوك الأندلس في بلادهم
وأهلهم في أرغد العيش وأطيبه ، وسأله مرسومه ، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة
والرحيل إلى أرض العدو ، فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصرته وقاتله ، ولا
تنفس عليه ، ولتبدأ بمن والى الثغور ، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد ، إلا بعد
استيلائك على البلاد ، وكل بلد أخذته فول فيه أميراً من عساكرك ؛ فأول من
ابتدأ به من ملوك الأندلس بنو هود ، وكانوا برؤطة — بضم الراء المهملة ، وبعدها
واو ساكنة ، وطاء مهملة مفتوحة ، وبعدها هاء ساكنة ، وهي قلعة منيعة من

١ عاد إلى النقل عن ابن خلكان بإيجاز .

عاصمات الذرا ، وماؤها ينبع من أعلاها ، وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان — فحاصرها فلم يقدر عليها ، ورحل عنها ، وجند أجناداً على هيئة الفرنج وزيمهم ، وأمرهم أن يقصدوها ويغيروا عليها ، وكمن هو وأصحابه بقرب منها ، فلما رأهم أهل القلعة استضعفهم ، فترلوا إليهم ، ومعهم صاحب القلعة ، فخرج عليه سير المذكور ، وقبضه باليد ، وتسلم الحصن . ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس ، فأسلموا له البلاد ، ولحقوا ببر العدوة . ثم نازل بني صُمادح بالمرية ، ولها قلعة حصينة ، فحاصروهم وضيق بهم ، ولما علم ابن صُمادح الغلبَ أسف ومات غيباً ، فأخذ القلعة واستولى على المرية وجميع أعمالها . ثم قصد بطليوس ، وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأقطس المتقدم ذكره ، فحاصره وأخذه واستولى على جميع أعماله وماله ، ولم يبق له إلاّ المعتمد بن عبّاد ، فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل ، ويسأله مرسومه في ابن عباد ، فكتب إليه يأمره أنّه يعرض عليه النقلة لبر العدوة بجميع الأهل والعشيرة ، فإن رضي ، وإلاّ فحاصره وخُذّه وأرسل به كسائر أصحابه ، فواجهه وعرفه بما رسم به السلطان يوسف ، وسأله الجواب ، فلم يجب بنفي ولا إثبات ، ثم إنّه نازل إشبيلية وحاصره بها وألح عليه فأقام الحصار شهراً ، ودخل البلد قهراً ، واستخرجه من قصره ، فحُمل وجميع أهله وولده إلى العدوة فأُنزل بأغمات ، وأقام بها إلى أن مات ، رحمه الله تعالى وعفا عنه .

وأما ابن الأثير ففي كلامه تقديم وتأخير وبعض خلاف لما مر .

وأخبار المعتمد بن عباد . وما رآه من الملك والعز على كل حاضر وباد ، وما قاساه في الأسر من الضيق والعسر وسوء العيش أمر عجيب . يتعظ به العاقل الأريب ، وأما ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم في حالي يُسره وعُسره ، وملكه وأسره . وطيّه ونشره ، وتجهّمه وبشره ، فهو كثير ، وفي كتب التواريخ منه نظيم ونثر . وقد قدمنا منه في هذا الكتاب ما يبعث الاعتبار ويثير ، وخصوصاً في الباب السابع من هذا التأليف الذي هو عند المنصف أثير ، وفي المعتمد وأبيه

المعتضد يقول بعض الشعراء^١ :

مِنْ بِنِي مُنْدِرٍ وَذَاكَ انْتِسَابٌ زَادَ فِي فخرهم بَنُو عَبَادِ
فِتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولادِ

وقال ابن القطاع في كتابه « ملح الملح »^٢ في حق المعتضد : إنه أندى ملوك
الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثِماداً ، وأرفعهم عماداً ، ولذلك
كانت حضرته ملقى الرجال^٣ ، وموسم الشعراء ، وقبلة الآمال ، ومألف الفضلاء ،
حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء ، وأفاضل الأدباء ، ما
كان يجتمع ببابه ، وتشتمل عليه حاشيتا جنابه .

وقال ابن بسام في « الذخيرة »^٤ : للمعتضد شعر ، كما انشق الكمامُ عن
الزَّهْر ، لو صار مثله ممَّن جعل الشعر صناعة ، واتخذَه بضاعة ، لكان رائقاً
معجباً ، ونادراً مستغرباً ، [فمن ذلك قوله]^٥ :

أكثرت هجرك غير أنك ربّما عطفتك أحياناً عليّ أمورُ
فكأنّما زمن التهاجر بيننا ليلٌ ، وساعات الوصال بُدورُ

قال : وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم من أبيات :

أسفَرَ ضوء الصبح عن وجهه فقام ذاك الخال فيه بِلالٍ
كأنّما الخال على خدّه ساعات هجر في زمان الوصالِ

١ ابن خلكان ٤ : ١١٢ .

٢ نقل العمري في المسالك قطعة موجزة من هذا الكتاب ؛ وهذا النص قد نقله المقرئ عن ابن خلكان

٤ : ١١٥ .

٣ ق ص : الرجال .

٤ لا يزال المقرئ يتابع نص ابن خلكان ص : ١١٥ .

٥ زيادة من ابن خلكان .

وعزم على إرسال حَظَاياه من قرظبة إلى إشبيلية فخرج معهم يشيعهن
فسايرهنّ من أول الليل إلى الصبح ، فودعهن ورجع ، وأشدّ أبياتاً منها :

سايرتهم والليل عقَدَ ثوبه حتى تبدّى للنواظر معلما
فوقفت ثمّ مودّعاً وتسلمتُ مني يد الإصباح تلك الأنجما

وهذا المعنى في نهاية الحسن ، ثم ذكر من كلامه جملة .

عَوْد وانعطاف :

ولما جاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى ناحية غرناطة^١ - بعدما
حصر بعض حصون الفرنج ، فلم يقدر عليه - خرج إلى لقائه صاحبُ غرناطة عبد
الله بن بلكين ، فسلم عليه ، ثم عاد إلى بلده ليخرج له التقدّم ، فغدر به ودخل
البلد ، وأخرج عبد الله ، ودخل قصره فوجد فيه من الذخائر والأموال ما لا يُحَد
ولا يحصى ، ثم رجع إلى مراکش وقد أعجبه حسنُ بلاد الأندلس وبهجتها ،
وما بها من المباني والبساتين والمطاعم وسائر الأصناف التي لا توجد في بلاد
العدوة ، إذ هي بلاد بربر وأجلاف عربان ، فجعل خواصُّ يوسف يعظمون
عنده بلاد الأندلس ويمحسّنون له أخذها ، ويُوغِرُونَ قلبه على المعتمد بأشياء
نقلوها عنه ، فتغير على المعتمد وقصد مشاركة الأندلس .

وحكى ابن خلدون أن علماء الأندلس أفتوا ابن تاشفين بجواز خلع المعتمد
وغيره من ملوك الطوائف ، وبقتلهم إن امتنعوا ، فجهز يوسفُ العساكر إلى
الأندلس ، وحاصر سيرُ بن أبي بكر أحدُ عظماء دولة يوسف إشبيلية وبها
المعتمد ، فكان من دفاعه وشدة ثباته ما هو معلوم ، ثم أخذ أسيراً ، وصار طرفُ
الملك بعده حسيراً .

١ لم يكن هذا في الجواز الأول ليوسف .

وفي وصف ذلك يقول صاحب القلائد بعد كلام^١ : ثم جُمع هو وأهله وحملتهم الجوارى المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات ، بعدما ضاق عنهم القصر ، وراق منهم المِصر^٢ ، والناس^٣ قد حشروا^٤ بصفتي الوادي ، سيكون بدموع كالفجوات ، فساروا والنوح يحلوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم ؛ انتهى .

ولما فرغ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين^٥ من أمر غزوة الزلافة المتقدم ذكرها ورجع تكرم له ابن عباد ، وسأله أن يتزل عنده ، فعرّج إلى بلاده إذ أجابه إلى ما طلب ، فلما انتهى ابن تاشفين إلى إشبيلية مدينة المعتمد — وهي من أحسن المدن وأجلها منظراً — أمعن يوسف النظر فيها وفي محلها ، وهي على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه ، وفي غريبها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلتها تين وعنب وزيتون ، وهذا هو المسمى بشرف إشبيلية ، وتتمتار بلاد المغرب كلتها بهذه الأصناف منه ، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء ، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من الطعام والمشروب والملبوس والفروش وغير ذلك ، فأنزل المعتمد يوسف بن تاشفين في أحدها ، وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له ، وكان مع ابن تاشفين أصحاب له يبنهونه على حسن تلك الحال وتأمّلها ، وما هي عليه من النعمة والإتراف ، ويغرونه بانحاذ مثلها ، ويقولون له : إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة ، كما هو المعتمد وأصحابه ، وكان ابن تاشفين داهية^٥ عاقلاً مقتصداً

١ القلائد : ٢٣ .

٢ القلائد : العصر .

٣ ق : حشدوا .

٤ عاد لمتابعة ابن خلكان ٦ : ١١٨ وما بعدها .

٥ داهية : سقطت من ق .

في أموره ، غير متناول ولا مبذر . غير سالك نهج الترف والتأنق في اللذة
والنعيم . إذ ذهب صدْرُ عمره في بلاده بالصحراء في شَطَفَ العيش ، فأنكر
على مَنْ أغراه بذلك الإسراف ، وقال له : الذي يلوح لي من أمر هذا الرجل
— يعني المعتمد — أنه مُضَيِّع لما في يده من الملك ، لأن هذه الأموال الكثيرة
التي تُصرف في هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر
منهم على وجه العدل أبداً ، فأخذُه بالظلم وإخراجه في هذه الترهات من
أفحش استهتار ، ومَنْ كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو
الأجوفين متى تستنجداً همته في ضبط بلاده وحفظها ، وصون رعيته والتوقير
لمصالحها ؟ ولعمري لقد صدق في كل ذلك .

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته : هل تختلف
فتنقص عمّا عليه في بعض الأوقات ؟ فقبل له : بل كل زمانه على هذا ، فقال :
أفكل أصحابه وأنصاره على علوّه ومُنْجِدِيهِ على الملك ينال حظاً من ذلك ؟
فقالوا : لا ، قال : فكيف ترون رضاهم عنه ؟ فقالوا : لا رضى لهم عنه ،
فأطرق وسكت ، وأقام عند المعتمد على تلك الحال أياماً .

وفي أثنائها^٢ استأذن رجلٌ على المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رتّة ، وكان من
أهل البصائر ، فلما مثّلَ بين يديه قال : أصلحك الله أيّها السلطان ؛ وإن من
أوجب الواجبات شكر النعمة ، وإن من شكر النعمة إهداء النصائح ، وإنّي رجل
من رعيّتك حالي في دولتك إلى الاختلال ، أقربُ منها إلى الاعتدال ، ولكنني مع
ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيّته ، فمن ذلك خبرٌ وقع في
أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدلُّ على أنهم يرون
أنفسهم ومملِكهم أحقَّ بهذه النعمة منك ، وقد رأيتُ رأياً ، فإن آثرت الإصغاء

١ في الأصول : تستجد ؛ وفي دوزي : يستجده .

٢ ابن خلكان : وفي بعض تلك الأيام .

إليه قَلْتُهُ ، فقال المعتمد له : قله ، فقال له : رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعتته على ملكك مستأسد على الملوك ، قد حطم على زناتة بئر العُدوة ، وأخذ الملك من أيديهم ، ولم يُبْتَقِ على واحد منهم ، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع في ملكك ، بل في ملك جزيرة الأندلس كلِّها ، لما قد عاينه من هتاءة^١ عيشك ، وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس^٢ ، وإن له من الولد والأقارب وغيرهم من يودُّ له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب ، وقد أردي الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم ، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه ، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مِجَنِّ ، وبعد فإنَّه إن فات الأمر في الأذفونش فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم ، فقال له المعتمد : وما هو الحزم اليوم ؟ فقال : أن تجمع أمرك على قبْض ضيفك هذا ، واعتقاله في قصرك ، وتجزم أتاك لا تُطْلِقَه حتى يأمر كل مَنْ بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء ، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه ، ثم تنفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه له ، ثم بعد ذلك تَسْتَحْلِفُه بأغلظ الأيمان ألاَّ يضمّر في نفسه عوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه ، وتأخذ منه على ذلك رهائن فإنَّه يعطيك من ذلك ما تشاء ، فنفسه أعز عليه من جميع ما يُلْتَمَس منه ، فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلاّ له ، وتكون قد استرحت منه بعدما استرحت من الأذفونش ، وتقيم في موضعك على خير حال ، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة ويتسع ملكك ، وينسب هذا الاتفاق لك إلى سعادة وحزْم وتهابك الملوك ، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في مجاورة مَنْ عاملته هذه المعاملة ، واعلم أنّه قد تهيأ لك من هذا أمر سَمَوي تتفانى الأمم وتجري بحار الدم دون حصول مثله . فلما سمع المعتمد كلام

١ ابن خلكان : بلهنية .

٢ في الأصول : وإني لمتخيل في مثل ذلك لسائر . . . إلخ .

الرجل استصوبه ، وجعل يفكر في انتهاز الفرصة .
 وكان للمعتمد نُدماء قد انهمكوا معه في اللذات ، فقال أحدهم لهذا الرجل
 الناصح : ما كان المعتمد على الله - وهو إمام أهل المكرمات - ممن يعامل
 بالحَيْف ، ويغدر بالضيّف ، فقال الرجل : إنّما الغدر أخذ الحق من يد
 صاحبه ، لا دَفَع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به ، فقال ذلك النديم :
 ضيّم مع وفاء ، خيرٌ من حَزَم مع جفاء . ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر
 وتلافاه ، فشكر له المعتمد ووصله بصلة . واتصل هذا الخبر بيوسف فأصبح
 غادياً ، فقدم له المعتمد الهدايا السنية والتُّحف الفاخرة ، فقبلها ثم رحل .
 انتهى خبر وقعة الزلاّقة وما يتبعه ملخصاً من كتب التاريخ .

ولما انقرض بالأندلس مُلك ملوك الطوائف بني عبّاد وبني ذي النون
 وبني الأفضس وبني صُمادح وغيرهم انتظمت في سلك اللّمّتونيين ، وكانت
 لهم فيها وقعات بالأعداء مشهورة في كتب التواريخ .

[دخول الأندلس في طاعة الموحدين]

ولما مات يوسف بن تاشفين سنة خمسمائة قام بالملك بعده ابنه أمير المسلمين
 علي بن يوسف ، وسلك سنن أبيه ، وإن قَصَّر عنه في بعض الأمور ، ودفع العدو
 عن الأندلس مدة ، إلى أن قبض الله تعالى للثورة عليه محمد بن تومرت الملقب
 بالمهدي الذي أسّس دولة الموحدين ، فلم يزل يسعى في هدْم بنيان لمتونة إلى
 أن مات ولم يملك حضرة سلطنتهم مراکش ، ولكنه ملك كثيراً من البلاد ،
 فاستخلف عبد المؤمن بن علي ، فكان من استيلائه على مملكة اللمتونيين ما هو
 معروف ، ثم جاز إلى الأندلس وملك كثيراً منها ، ثم أخرج الإفرنج من مهدية
 إفريقية ، وملك بلاد إفريقية وضخم ملكه ، وتسمّى بأمر المسلمين .

[عبد المؤمن بن علي]

ولما كانت سنة ٥٤٥ هـ سار الأذفونش صاحب طُلَيْطَلَة وبلاد الجلالقة إلى قَرْطَبَة ومعه أربعون ألف فارس فحاصرها ، وكان أهلها في غلاء شديد ، فبلغ الخبر عبد المؤمن ، فجهز إليهم جيشاً يحتوي على اثني عشر ألف فارس ، فلما أشرفوا على الأذفونش رحل عنها ، وكان فيها القائد أبو الغمر السائب . فسلمها إلى صاحب جيش عبد المؤمن يحيى بن ميمون فبات فيها ، فلما أصبح رأى الفرنج عادوا إلى مكانهم ، ونزلوا في المكان الذي كانوا فيه ، فلما عين ذلك رتب هنالك ناساً ، وعاد إلى عبد المؤمن ، ثم رحل الفرنج إلى ديارهم .

وفي السنة بعدها دخل جيش عبد المؤمن إلى الأندلس في عشرين ألفاً عليهم الهنتاتي ، فصار إليه صاحب غَرْناطة ميمون وابن هُمُشْك وغيرهما ، فدخلوا تحت طاعة الموحدين ، وحرصوا على قصد ابن مَرْدَنِيش ملك شرق الأندلس ، وبلغ ذلك ابن مردنيش ، فخاف وأرسل إلى صاحب بَرشَلونة من الإفرنج يستنجده ، فتجهز إليه في عشرة آلاف من الإفرنج عليهم فارس ، وسار صاحب جيش عبد المؤمن إلى أن قارب ابن مردنيش ، فبلغه أمر البرشلوني الإفرنجي فرجع ، ونازل مدينة المريّة وهي بأيدي الروم فحاصرها ، فاشتد الغلاء في عسكره فرجع إلى إشبيلية فأقام فيها ، وسار عبد المؤمن إلى سبتة فجهز الأساطيل وجمع العساكر .

ثم سار عبد المؤمن سنة ٥٤٧ هـ إلى المهديّة فملكها ، وملك إفريقية ، وضم ملكه كما قدمناه .

[يوسف بن عبد المؤمن]

ولما مات بويغ بعده ولده يوسف بن عبد المؤمن ، ولما تمهدت له الأمور ،

١ انظر المعجب : ٢٩٨ حيث جعل سير عبد المؤمن للمهديّة سنة ٥٤٣ هـ .

واستقرت قواعد ملكه ، دخل إلى جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته^١ وتفقد أحوالها ، وكان ذلك سنة ست وستين وخمسمائة ، وفي صحبته مائة ألف فارس من الموحدین والعرب ، فنزل بحضرة إشبيلية ، وخافه ملك شرق الأندلس - مُرْسِيَّةَ وما انضاف إليها - الأميرُ الشهير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن مَرْدَنِيَش ، وحمل على قلب ابن مردنيش ، فمرض مرضاً شديداً ومات ، وقيل : إنَّه سُمِّ ، ولما مات جاء أولاده وأهله إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو بإشبيلية ، فدخلوا تحت حكمه وسلّموا لأحكامه البلاد ، فصاهرهم وأحسن إليهم وأصبحوا عنده في أعز مكان ، ثم شرع في استرجاع البلاد التي استولى عليها الإفرنج ، فاتسعت مملكته بالأندلس ، وصارت سرّاياه تغير إلى باب طُلَيْطَلَة ، وقيل : إنَّه حاصرها ، فاجتمع الفرنج كافة عليه ، واشتد الغلاء في عسكره ، فرجع عنها إلى مراکش حضرة ملكه ، ثم ذهب إلى إفريقية فمهدّها ، ثم رجع إلى حضرته مراکش ، ثم جاز البحر إلى الأندلس سنة ثمانين وخمسمائة ومعه جمع كثيف ، وقصد غربي بلادها ، فحاصر مدينة شَنْتَرِينَ ، وهي من أعظم بلاد العدو ، وبقي محاصراً لها شهراً ، فأصابه المرض فمات في السنة المذكورة ، وحُمل في تابوت إلى إشبيلية ، وقيل : أصابه سهم من قبيل الإفرنج ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة الحال .

وفي ابنه السيد أبي إسحاق يقول مطرف التجيبي رحمه الله تعالى :

سعد كما شاء العُلا والفسخارُ - تصرّف الليل به والنهارُ
 ما دانت الأرض لكم عَنوَة وإتّما دانت لأمر كُبارُ
 مهدّموها ففصفا عيشها واتصل الأمنُ^٢ ، فنعم القرارُ

١ تفصيل هذه الأحداث في ابن عذاري ٣ : ٨٨ (ط . المغرب) .

٢ ق ص : الابن .

ومنها :

فالشاة لا يَخْتَلِيها ذنبها وإن أقامت معه في وِجارٍ

[يعقوب المنصور]

ولما مات يوسفُ قام بالأمر بعده ابنه الشهير أميرُ المؤمنين يعقوبُ المنصورُ
ابن يوسف بن عبد المؤمن ، فقام بالأمر أحسن قيام ، ولما مات يوسف المذكور
رثاه أديب الأندلس أبو بكر يحيى بن مجبر بقصيدة طويلة أجاد فيها ، وأولها :

جلَّ الأسي فأسيلَ دَمَ الأَجفانِ ماء الشؤون لغير هذا الشانِ

ويعقوب المنصور هو الذي أظهر أبهة ملك الموحدين ، ورفع راية الجهاد ،
وتصّب ميزان العدل ، وبسط الأحكام الشرعية ، وأظهر الدين وأمر بالمعروف
ونهى عن المنكر ، وأقام الحدود على القريب والبعيد ، وله في ذلك أخبار ،
وفيه يقول الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر المشهور :

أزال حجابَه عني وعيني تراه من المهابة في حجابِ
وقربني تفضُّله ولكن بعُدتُ مهابة عند اقترابي

وكثرَت الفتوحات في أيامه ، وأولُ ما نظر فيه عند صيرورة الأمر إليه بلاد
الأندلس ، فنظر في شأنها ورتب مصالحها ، وقرر المُقاتلين في مراكزهم ، ورجع
للى كرسي مملكته مراکش المحروسة . وفي سنة ٥٨٦ بلغه أن الإفرنج ملكوا
مدينة شلبَ وهي من غرب الأندلس ، فتوجه إليها بنفسه وحاصرها وأخذها ،
وأنفذ في الوقت جيشاً من الموحدين والعرب ، ففتح أربع مدُن ممّا بأيدي
الإفرنج من البلاد التي كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة ، وخافه
صاحبُ طليطلة ، وسأله الهدنة والصلح ، فهادنه خمسَ سنين ، وعاد إلى
مراكش .

وأُشيد القائد أبو [بكر بن] عبد الله بن وزير الشَّشْبِي^١ وهو من أمراء
 كتائب إشبيلية قصيدةً يحاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى في وقعة مع الفرنج
 كان الشَّشْبِي المذكور مقدماً فيها :

ولما تلاقينا جرى الطَّعْنُ بَيْنَنَا فمَنَّا ومنهم طائِحون عديدُ
 وجال غرار الهند فينا وفيهمُ فمِنَّا ومنهم قائمٌ وحَصيدُ
 فلا صَدْرَ إِلَّا فيه صدرٌ مشَقَّفُ وحول الوريد للحسام ورود
 صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا كلانا على حرِّ الجِلادِ^٢ جَلِيدُ
 ولكن شددنا شَدَّةً فتبلدوا ومن يتبلد لا يزال بِحَيدِ
 فولَّوا وللسَّمْرِ الطوال بهامهم ركوع وللبيض الرقاق سجود

رَجَعَ إلى أخبار المنصور بعد هُدنة الإفرنج :

ولما انقضت مدة الهدنة ، ولم يبق منها إلا القليل ، خرج طائفة من الإفرنج في
 جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسعوا وعاثوا عَيْثاً فظيماً ، فانتهى الخبر
 إليه ، فتجهز لقصدهم في جيوش مؤفَّرة وعساكر مُكْتَتَبَة ، واحتفل في ذلك ،
 وجاز إلى الأندلس سنة ٥٩١ ، فعلم به الإفرنج ، فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصي
 بلادهم وأدانيها ، وأقبلوا نحوه ، وقيل : إنَّه لما أراد الجواز من مدينة سلا مرض
 مرضاً شديداً ، ويئس منه أطباؤه ، فعاث الأذفونش في بلاد المسلمين بالأندلس ،
 وانتهز الفرصة ، وتفرقت جيوش المسلمين بسبب مرض السلطان ، فأرسل

١ زدنا ما بين معقنين اعتماداً على ما سيورده المقرئ فيما بعد عند حديثه عن سقوط المرية ؛ وقد أورد
 ابن الأبار نسبه على نحو آخر (الحلقة ٢ : ٢٧١) فقال أبو بكر محمد بن سيدراي بن عبد الوهاب
 ابن وزير القيسي ، وأورد له الأبيات الدالية التي أوردها المقرئ ، وقال فيه : ولي قصر الفتح
 المنسوب إلى أبي دانس عند أستر جاعه من أيدي الروم في جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وخمسائة ؛
 وتوفي في صدر المائة السابعة بعد حضوره بموقعة العقاب .

٢ الحلقة : الطعان .

الأذفونش يتهدد ويتوعد ويرعد ويبسرق ، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس ، وخلاصة الأمر أن المنصور توجه بعد ذلك إلى لقاء النصارى ، وتزاحف الفريقان ، فكان المصافى شمالي قرطبة على قرب قلعة رباح في يوم الخميس تاسع شعبان سنة ٥٩١ ، فكانت بينهم وقعة عظيمة استشهد فيها جمع كبير من المسلمين .

وحكي أن يعقوب المنصور جعل مكانه تحت الأعلام السلطانية الشيخ أبا يحيى ابن أبي حفص عم السلطان أبي زكريا الحفصي الذي ملك بعد ذلك إفريقية ، وخطب له ببعض الأندلس ، فقصد الإفرنج الأعلام ظناً أن السلطان تحتها ، فأثروا في المسلمين أثراً قبيحاً ، فلم يرعهم إلا والسلطان يعقوب قد أشرف عليهم بعد كسر شوكتهم ، فهزمهم شراً هزيمة ، وهرب الأذفونش في طائفة يسيرة ، وهذه وقعة الأرك الشهيرة الذكر .

وحكي أن الذي حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفاً ، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد ، ولم يسمع بعد وقعة الزلاقة بمثل وقعة الأرك هذه ، وربما صرح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة . وقيل : إن فل الإفرنج هربوا إلى قلعة رباح فتحصنوا بها ، فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها ، وكانت قبل للمسلمين ، فأخذها العدو ، فردت في هذه المرة ، ثم حاصر طليطلة وقاتلها أشد قتال وقطع أشجارها وشن الغارات على أرجائها ، وأخذ من أعمالها حصوناً وقتل رجالها وسبى حريمها وخرب منازلها وهدم أسوارها وترك الإفرنج في أسوأ حال ، ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة ، ثم رجع إلى إشبيلية ، وأقام إلى سنة ٥٩٣ ، فعاد إلى بلاد الفرنج ، وفعل فيها الأفاعيل ، فلم يقدر العدو على لقائه ، وضافت على الإفرنج الأرض بما رحبت ، فطلبوا الصلح فأجابهم إليه ، لما بلغه من ثورة الميرقي عليه بإفريقية مع قرأقوش مملوك بني أيوب سلاطين مصر والشام .

ثم توفي السلطان يعقوب سنة ٥٩٥ . وما يقال « إنّه ساح في الأرض

وتخلى عن الملك ووصل إلى الشام ، ودفن بالبقيع « لا أصل له ، وإن حكى ابن خلكان بعضه . وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم ، وقال : إن ذلك من هذيان العامة ، لوكؤعهم بالسلطان المذكور .

[محمد الناصر ووقعة العقاب]

وولي بعده ولده محمد الناصر المشؤوم على المسلمين ، وعلى جزيرة الأندلس بالخصوص ، فإنه جمع جموعاً اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاه صاحب « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية »^١ ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش ، فصاف الإفرنج ، فكانت عليه وعلى المسلمين وقعة العقاب المشهورة التي خلا بسببها أكثر المغرب ، واستولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعدها ، ولم ينج من الستمائة ألف مقاتل غير عدد يسير جداً لم يبلغ الألف فيما قيل ، وهذه الوقعة هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميعاً ، وما ذاك إلا لسوء التدبير ، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره ، فشنق بعضهم ، ففسدت النيات ، فكان ذلك من بخت الإفرنج ، والله غالب على أمره ، وكانت وقعة العقاب هذه المشؤومة سنة ٦٠٩ ، ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة محمد .

[نهاية الموحدين]

ولما مات الناصر سنة عشرين وستمائة ولي بعده ابنه يوسف المستنصر ، وكان مولعاً بالراحة ، فضعفت الدولة في أيامه ، وتوفي سنة ٦٢٠ .

١ الذخيرة السنية : ٤١ .

فتولى عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ، فلم يحسن التدبير ، وكان إذ ذاك بالأندلس العادل بن المنصور ، فرأى أنه أحق بالأمر ، فاستولى على ما بقي في أيدي المسلمين من الأندلس بغير كلفة . ولما خلع عبد الواحد وخُتق بمراكش ثارت الإفرنج على العادل بالأندلس ، وتصافَّ معهم ، فانهزم ومنَّ معه من المسلمين هزيمة شنعاء ، فكانت الأندلس قرحاً على قرح ، فهرب العادل ، وركب البحر يروم مراكش ، وترك بإشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس ، ودخل العادل مراكش بعد خطوب ، ثم قبض عليه الموحدون ، وقدموا يحيى بن الناصر صغير السن غير مجرب للأمور ، فادعى حينئذ الخلافة أبو العلاء إدريس بإشبيلية ، وبايعه أهل الأندلس ، ثم بايعه أهل مراكش وهو مقيم بالأندلس ، فنار على أبي العلاء بالأندلس الأمير المتوكل محمد بن يوسف الجذامي ، ودعا إلى بني العباس ، فمال الناس إليه ، ورجعوا عن أبي العلاء ، فخرج عن الأندلس - أعني أبا العلاء - وترك ما وراء البحر لابن هود . ولم يزل أبو العلاء يتحارب مع يحيى ابن الناصر إلى أن قتل يحيى ، وصفا الأمر لأبي العلاء بالمغرب ، دون الأندلس ، ثم مات سنة ٦٣٠ .

وبويع ابنه الرشيد ، وبايعه بعض أهل الأندلس ، ثم توفي سنة ٦٤٠ .
 وولي بعده أخوه السعيد ، وقُتل على حصن بينه وبين تلمسان سنة ٦٤٦ .
 وولي بعده المرتضى عمر بن إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن ، وفي سنة ٦٦٥ دخل عليه الواصل المعروف بأبي دبوس ففرَّ ، ثم قبض وسيق إلى الواصل فقتله ، ثم قتل الواصل بنو مَرِّين سنة ٦٦٨ ، وبه انقضت دولة بني عبد المؤمن ، وكانت من أعظم الدول الإسلامية ، فاستولى بنو مَرِّين على المغرب .

[ظهور ابن هود وابن الأحمر]

وأما المتوكل بن هود فملك معظم الأندلس ، ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته ، وقتله غدرًا وزيره ابن الرمي بالمرية ، واغتم الإفرنج الفرصة بافتراق

الكلمة ، فاستولوا على كثير ممّا بقي بأيدي المسلمين من البلاد والحصون .
ثم آل الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر ، وخطب بعض أهل الأندلس لأبي
زكريا الحفصي صاحب إفريقية ، وقد سبق الكلام على أكثر المذكور هنا ،
وأعدناه لتناسق الحديث ، ولما في بعضه من زيادة الفائدة على البعض الآخر ،
وذلك لا يخفى على المتأمل ، وقد بسطنا في الباب الثالث أحوال ابن هود وابن
الأحمر وغيرهما ، رحم الله تعالى الجميع .

[الدولة المرينية]

ثم استفحل ملك يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب وحضرة ملك فاس ،
فانتصر به أهل الأندلس على الإفرنج الذين تكالبوا عليهم ، فاجتاز إلى الأندلس
وهزم الإفرنج أشد هزيمة ، حتى قال بعضهم : ما نصر المسلمون من العقاب
حتى دخل يعقوب المريني وفتك في بعض غزواته بملك من النصارى يقال له
ذوننه ، ويقال : إنّه قتل من جيشه أربعين ألفاً وهزمهم أشد هزيمة ، ثم تابعت
غزواته بالأندلس وجوّأزه للجهاد ، وكان له من بلاد الأندلس رندة والجزيرة
الحضراء وطريف وجبل طارق وغير ذلك ، وأعز الله تعالى به الدين بعد تمرّد
الفرنج المعتدين . ولما مات ولي بعده ابنه يوسف بن يعقوب ، ففرّ إليه الأذفونش
ملك النصارى لائتداً به وقبّل يده ، ورهّن عنده تاجه ، فأعانه على استرجاع
ملكه .

ولم يزل ملوك بني مرّين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال ، وتركوا منهم
حصّة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة ، فكانت لهم وقائع في العدو
مذكورة ، ومواقف مشكورة ، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغيرناطة ،
وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرّين يسمونه شيخ الغزاة .

ولما أفضى الملك إلى السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المريني ، وخلص له
المغرب وبعض بلاد الأندلس أمر بإنشاء الأساطيل الكثيرة برسم الجهاد بالأندلس ،

مُدَوِّخ أَقْطَارِ الْكُفَّارِ ، مُصْرَخٍ مِنْ نَادَاةِ لِلانْتِصَارِ ، الْقَائِمِ لِهَيْعِ دِينِ الْحَقِّ ،
أَبِي يُوْسُفِ يَعْقُوبِ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ ، أَخْلَصَ اللهُ لِرُجُوهِ جِهَادِهِ ، وَيَسَّرَ فِي قَهْرِ
عُدَاةِ الدِّينِ مُرَادَهُ .

إِلَى مَحَلِّ وَلَدْنَا الَّذِي طَلَعَ فِي أَفْقِ الْعِلَاءِ بَدْرًا تَمًّا ، وَصَدَعَ بِأَنْوَاعِ الْفَخَارِ
فَجَلًّا ظَلَامًا وَظُلْمًا ، وَجَمَعَ شَمْلَ الْمَمْلُوكَةِ النَّاصِرِيَّةِ فَأَعْلَى مِنْهَا عِلْمًا ، وَأَحْيَا
لَهَا رَسْمًا ، حَائِطَ الْحَرَمِينَ ، الْقَائِمَ بِحِفْظِ الْقِبْلَتَيْنِ ، بَاسِطَ الْأَمَانِ ، قَابِضَ كَفِّ
الْعُدُوَانِ ، الْجَزِيلَ النَّوَالِ ، الْكَفِيلَ تَأْمِينَهُ بِحِيَاطَةِ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ ، قَطْبَ الْمَجْدِ
وَسِيمَاكَ ، حَبِيبَ الْحَمْدِ وَمِلَاكَةَ ، السُّلْطَانَ الْجَلِيلِ ، الرَّفِيعَ الْأَصِيلِ ، الْحَافِلَ
الْعَادِلَ ، الْفَاضِلَ الْكَامِلَ ، الشَّهِيرَ الْخَطِيرَ ، الْأَضْحَمَ الْأَفْخَمَ ، الْمُعَانَ الْمُؤَزَّرَ ،
الْمُؤَيَّدَ الْمُظْفَرَ ، الْمَلِكَ الصَّالِحَ أَبُو الْوَلِيدِ إِسْمَاعِيلَ ، ابْنَ مَحَلِّ أَخِينَا الشَّهِيرِ عَلَاؤُهُ ،
الْمُسْتَظِيرَ فِي الْآفَاقِ ثَنَاؤُهُ ، زَيْنَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِ ، كَمَالَ عَيْنِ إِنْسَانِ الْمَجْدِ وَإِنْسَانَ
عَيْنِ الْكَمَالِ ، وَارِثَ الدُّوَلِ ، النَّافِثَ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ فِي عَقُودِ أَهْلِ الْمَلَلِ وَالنُّحُلِ ،
حَامِيَ الْقِبْلَتَيْنِ بَعْدَهُ وَحُسَامَهُ ، النَّزَامِيَّ فِي حِفْظِ الْحَرَمِينَ أَجْرًا اضْطِلَاعَهُ بِذَلِكَ
وَقِيَامَهُ ، هَازِمَ أَحْزَابِ الْمَعَانِدِينَ وَجِيُوشِهَا ، هَادِمَ الْكِنَائِثِ وَالْبَيْعِ فَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَى عُرُوشِهَا ، السُّلْطَانَ الْأَجَلَ ، الْهَمَامَ الْأَحْفَلَ ، الْأَفْخَمَ الْأَضْحَمَ ، الْفَاضِلَ
الْعَادِلَ ، الشَّهِيرَ الْكَبِيرَ ، الرَّفِيعَ الْخَطِيرَ ، الْمَجَاهِدَ الْمُرَابِطَ ، الْمُقْسِطَ عَدْلَهُ فِي
الْجَائِثِ وَالْقَاسِطِ ، الْمُؤَيَّدَ الْمُظْفَرَ ، الْمُنْعَمَ الْمَقْدِسَ الْمُطَهَّرَ ، زَيْنَ السُّلْطَانِينَ ، نَاصِرَ
الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، أَبِي الْمَعَالِي مُحَمَّدَ ، ابْنَ الْمَلِكِ الْأَرْضِيَّ ، الْهَمَامَ الْأَمْضَى ، وَالِدَ
السُّلْطَانِينَ الْأَخْيَارِ ، عَاقِدَ لُؤَاءِ النَّصْرِ فِي قَهْرِ الْأَرْمَنِ وَالْفَرَنْجِ وَالتُّتَارِ ، وَمُحْيِيَّ
رِسُومِ الْجِهَادِ ، مُعْلِيَّ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ فِي الْبِلَادِ ، جَمَالَ الْأَيَّامِ ، ثَمَالَ الْأَعْلَامِ ،
فَاتِحَ الْأَقْلَامِ ، صَالِحَ مَمْلُوكِ عَصْرِهِ الْمُتَقَادِمِ ، الْإِمَامَ الْمُؤَيَّدَ ، الْمَنْصُورَ الْمُسَدَّدَ ،
قَسِيمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا تَقَلَّدَ ، الْمَلِكَ الْمَنْصُورَ سَيْفَ الدُّنْيَا وَالِدِينَ قَلَاوُونَ ، مَكْنَ
اللَّهِ لَهُ تَمَكِينِ أَوْلِيَائِهِ ، وَنَمَى دَوْلَتَهُ الَّتِي أَطْلَعَهَا السَّعْدَ شَمْسًا فِي سَمَائِهِ ، وَأَحْسَنَ
لِيزَاعَتِهِ لِلشُّكْرِ أَنْ جَعَلَهُ وَارِثَ آبَائِهِ .

سلام كريم يفاوحُ زهر الربى مسّراه ، وينافح نسيم الصبا مجراه ، يصحبه رضوان يدوم ما دامت ثقلُ الفلك حركاته ، ويتولاه روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته . أما بعدَ حمد الله مالك الملك ، جاعل العاقبة للتقوى صدعاً باليقين ودفعاً للشك ، وخاذل مَنْ أسرَّ في النفاق النجوى فأصر على الدخن والإفك ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محّا بأنوار الهدى ظلّم الشرك ، ونبيه الذي ختم به الأنبياء وهو واسطة ذلك السلك ، ودحا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الأفلاك وماجت بهم حاملة الفلك ، والرضى عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هداة فسلك في قلوبهم أجمل السلك ، وملكوا أعنة هواهم فلزموا من مَحَجَّة الصواب أنجح السلك ، وصابروا في جهاد الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهبُ يزيد خلوصاً على السبك ، والدعاء لأولياء الإسلام ، وحُماته الأعلام ، بنصرٍ لمضائه في العدا أعظم الفتك ، ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأحفلُ بذلك الدرك ، فكتبناه إليكم - كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم - مِنْ حضرتنا بمدينة فاس المحروسة ، وصُنِعُ الله سبحانه يعرف مذاهب الألفاف ، ويكيف مواهب تلهج الألسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف ، ويصرف من أمره العظيم ، وقضائه المتلقّى بالتسليم ، ما يتكوّن بين النون والكاف ، ومكانكم العتيد سلطانه ، وسلطانكم المجيد مكانه ، وولاؤكم الصحيح برهانه ، وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال مَيّدانه . وإلى هذا زاد الله سلطانكم تمكيناً ، وأفاد مقامكم تحصيئاً وتحسيناً ، وسلك بكم من سنن من خلّقتموه سيلاً مبيناً ، فلا خفاء بما كانت عقده أيدي التقوى ، ومهدته الرسائل التي على الصفاء تُطوى ، بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدّسه ، وبقربه مع الأبرار في عليّين آنسه ، من مواخاة أحكمت منها العهود تالية الكتب والفتاح ، وحفظ عليها محكم الإخلاص معوذتها المحبة والنية الصالحة ، فانعقدت على التقوى والرضوان . واعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازح الأبدان ، حتى استحكمت وُصلة الولاء ، والتأمت كلحمة النسب لحمة

الإخاء ، فما كان إلا وشيكاً من الزمان ، ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه
 الخلان ، ورد وارد رنق المشارب ، وحقق قول « ومن يسأل الركبان عن
 كل غائب »^١ ، أنبأ باستئثار الله تعالى بنفسه الزكية ، وإكثان درته السنية ، وانقلابه
 إلى ما أعدّ له من المنازل الرضوانية ، بجليل ما وقر لفقده في الصدور ، وعظيم
 ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور ، حناناً للإسلام بتلك الأقطار ، وإشفاقاً
 من أن يعثور قاصدي بيت الله الحرام من جراء الفتن عارضُ الإضرار ، ومساهمة
 في مصاب الملك الكريم ، والولي الحميم ، ثم عميت الأخبار ، وطويت طي
 السجل الآثار ، فلم نر مخبراً صدقاً ، ولا معلماً بمن استقر له ذلكم الملك حقاً .
 وفي أثناء ذلك أحفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخُ أهل الأندلس وسلطانها ،
 وتواتر الأخبار بأن النصراري أجمعوا على خراب أوطانها ، ونحن أثناء ذلكم الشان ،
 نستخبر الوراد^٢ من تلکم البلدان ، عمّا أجلى عنه ليل الفتن بتلكم الأوطان ،
 فبعد لأي وقعنا منها على الخير ، وجاءنا بوقاية حرّم الله بكم البشير ، وتعرفنا
 أن الملك استقر منكم في نصابه ، وتداركه الله تعالى منكم بفتح الخير من أبوابه ،
 فأطفأ بكم نار الفتنة وأخمدها ، وأبرأ من أدواء النفاق ما أعلّ البلاد وأفسدها ،
 فقام سبيلُ الحج سابلًا ، وتعبّد طريقه لمن جاء قاصداً وقافلاً ، ولما احتفت
 بهذا الخبر القرائن ، وتواتر بنقل الحاضر له والمعان ، أثار حفظ الاعتقاد البواعث ،
 والود الصحيح تجربهُ حقاً الموارث ، فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتضمنة الأطوار ،
 الجامعة بين الخبر والاستخبار ، الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والذثار ؛
 ومثل ذلكم الملك رضوان الله عليه من تجلّ المصائب لفقده ، وتحل عرى
 الاضطراب بموته ولات حين أوانه ، لكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين ،
 والأجر أولى ما اقتناه ذو دين متين ، ومثلكم من لا يخفّ وقاره ، ولا يشفّ عن
 ظهور الجزع الحادث اضطباره ، ومن خلفكم فما مات ذكرهُ ، ومن

١ تمامه : فلا بد أن يلقي بشيراً وناعياً .

٢ ق : نستجيز الورد .

قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره ، وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية بالحقب، وطاب بين مَبْدَاهِ وَمُحْتَضِرِهِ هنيئاً بما من الأجر اكتسب ، وصار حميداً إلى خير المُنْقَلَبِ ، ووفد من كرم الله على أفضل ما منح موقناً ووهب ، فقد ارتضاكم الله بعدَه لحياطة أرضه المقدسة ، وحماية زُورِارِ بيته مُقْبِلَةً أو مَعْرِسَةً . ونحن بعد بَسَطَ هذه التعزية ، نهنيكم بما حولكم الله أجمل التهنية ، وفي ذات الله الإيراد والإصدار ، وفي مَرَضَاتِهِ سبْحَانَهُ الإضمار والإظهار ، فاستقبلوا دولة أَلْتَمَى العزُّ عليها رِوَاقَهُ ، وعقد الظهورُ عليها نِطَاقَهُ ، وأعطاهَا أمانُ الزمان عَقْدَهُ وميثاقَهُ ، ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود موثقة ، وموالاته مُحَقَّقَةٌ ، وثناء كرائمه عن أذكى من الزهر غبَّ القَطْرَ مُفْتَقَّةً .

ولم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الأكرمين اللذين خطتهما منّا اليمين ، وأوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين إلى قرار مكين ، وإنه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضوانه ، وأورده موارد إحسانه ، في ذلكم من الفعل الجميل ، والصنع الجليل ، ما ناسب مكانه الرفيع ، وشاكله فضله من البر الذي لا يضيع ، حتى طبَّقَ فعلُهُ الآفاقَ ذَكَرًا ، وطوقَ أعناقَ الوُرَادِ والقُصَادِ برآءً ، وكان من أجمل ما به تَحَقَّقَتِي وَأَنحَفَ ، وأعظم ما بعرفه إلى رضى الملك العلام في ذلك تعرّف ، إذنه للمتوجهين إذ ذاك في شراء رِباعٍ تُوقِفُ على المصحفين ، ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدين ، فجرت أحوالُ القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد ، ريثما يصلحهم من خراج ما وقفناه عليهم بهذه البلاد ، على ما رَسَمَهُ رحمة الله عليه من عناية بهم متصلة ، واحترام في تلك الأوقاف فوائدها به متوفرة متحصلة ، وقد أمرنا مؤدّي هذا لكمالكم ، وموفده على جلالكم ، كاتبنا الأسنى الفقيه الأجل ، الأحظى الأكل ، أبا المجد ، ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى ، الأرضى الأفضل ، الأحظى الأكل ، المرحوم أبي عبد الله ابن أبي مدين حفظ الله عليه رتبته ، ويسر في قصد

البيت الحرام بغيبته ، بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف ، ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف ، وأن يتخير لها مَنْ يرتضى لذلك ، ويحمد تصرفه فيما هنالك ، وخاطبنا سلطانكم في هذا الشأن ، جرياً على الود الثابت الأركان ، وإعلاماً بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من الأفعال الحسان ، وكما لكم يقتضي تخليد ذلكم البر الجميل ، وتجديد عمل ذلكم الملك الجليل ، وتشديد ما اشتمل عليه من الشكر الأصيل ، والأجر الجزيل ، والتقدم بالإذن السلطاني في إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب ، على ما يتوخاه في ذلك الشأن من طرق الصواب ، وثناؤنا عليكم الثناء الذي يفوحُ زهر الربى ، ويطارح نغم حمام الأيك مطرباً .

وبحسب المصافاة ، ومقتضى الموالاتة ، نشرح لكم المتزايدات ، بهذه الجهات ، وننبئكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجنب : وذلك أنه لما وصلنا من الأندلس الصريخ ، ونادى مناد للجهاد عزماً لمثل ندائه يُصيح ، أنبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابهم من كل صَوْب ، وحم عليهم باباهم اللعين التناصر من كل أوب ، وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها ، وتنفص بالمنزلة أرضها من أطرافها ، ليمحوا كلمة الإسلام منها ، ويقلصوا ظل الإيمان عنها ، فقدنا من يشتغل بالأساطيل من القواد ، وسرنا على إثرهم إلى سبته منتهى المغرب الأقصى وباب الجهاد ، فما وصلناها إلا وقد أخذ أخذه العدو الكفور ، وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور ، وأتوا من أجفانهم بما لا يُحصى عدداً ، وأرصدوها بجمع البحر حيث المجاز إلى دفع العدا ، وتقلصوا عن الانبساط في البلاد ، واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها الله بكل مَنْ جمعه من الأعداء ، لكننا مع انسداد تلك السبيل ، وعدم أمورٍ نستعين بها في ذلكم العمل الجليل ، حاولنا إمداد تلكم البلاد بحسب الجهد ، وأصرخناهم بمن أمكن من الجند ، وجهزنا أجفاناً مختلسين فرصة الإجازة ، تردد على خطر بمن جهز للجهاد جهازه ، وأمرنا لصاحب الأندلس من المال ، بما يجهز به حركته

لمدانة محلة حزب الضلال ، وأجرينا له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة ، وأرضخنا لهم في النوال ما نرجو به ثواب الآخرة ، وجعلت أجفاننا تتردد في ميناء السواحل ، وتلج أبواب الخوف العاجل ، لإحراز الأمن الآجل ، مشحونة بالعدد المفورة ، والأبطال المشهورة ، والخيال المسومة ، والأقوات المقومة ، فمن ناج حارب دونه الأجل ، وشهيد مضى لما عند الله عز وجل ، وما زالت الأجفان تتردد على ذلك الخطر ، حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية أجرها عند الله يُدخّر ، ثم لم نقنع بهذا العمل في الأمداد ، فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم الله تعالى مساهمةً به لأهل تلك البلاد ، فلقني من هَوَل البحر وارتجاجه ، وإلحاح العدو ولجاجه ، ما به الأمثال تُضرب ، وبمثله يُتحدث ويُستغرب ، ولما خلاص لتلك العدوّة بمن أبقته الشدائد ، نزل بإزاء الكافر الجاحد ، حتى كان منه بفرسخين أو أدنى ، وقد ضرب بعطن يُصابح العدو ويماسيه بحرب بها يُمنى .

وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شرارته ، وقويت في الحرب إدارته ، يبئنون البلاء الأصدق ، ولا يبألون بالعدو وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق ، إلا أن المطلولة بحصرها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ، ومنازلتها في البر نحو عامين معقوداً عليها الصف بالصف ، أدّى إلى فناء الأقوات بالبلد ، حتى لم يبق لأهله قوت نصف شهر مع انقطاع المدد ، وبه من الخلق ما يُرْبِي على عشرة آلاف دون الحرّم والولد ، فكتب إلينا سلطان الأندلس يرغب في الإذن له في عقد الصلح ، ووقع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح ، فأذننا له فيه الإذن العام ، إذ في إصراخه وإصراخ مَنْ بقطره من المسلمين توحيئنا ذلك المرام ، هنالك دُعي النصارى إلى السلم فاستجابوا ، وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا ، فم الصلح إلى عشر سنين ، وخرج مَنْ بها من فرسان ورجال وأهل وبنين ، ولم يرزأوا مالا ولا عدّة ، ولا لقوا في خروجهم غير التزوع عن أول أرض مس الجلد تراها شدة ، ووصلوا إلينا فأجزلنا لهم العطاء ، وأسليناهم عما جرى بالحباء ، فمن خيّل تزيد على الألف

عِتَاقُهَا ، وَخِلَعِ تَرْبِي عَلَى عَشْرَةِ آلَافِ أَطْوَاقِهَا ، وَأَمْوَالِ عَمَتِ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ ،
وَرِعَايَةِ شَمَلَتِ الْجَمِيعَ بِالْعَيْشِ النَّضِيرِ ، وَكَفِّ اللَّهِ ضَرَّ الطَّوَاغِيتِ عَمَّا عَدَاهَا ،
وَمَا انْقَلَبُوا بِغَيْرِ مَدْرَةِ عَفَا رَسْمُهَا وَصَمَّ صَدَاهَا .

وَقَدْ كَانَ مِنْ لَطْفِ اللَّهِ حِينَ قَضَى بِأَخْذِ هَذَا الثَّغْرِ ، أَنْ قَدَّرَ لَنَا^١ فَتْحَ جَبَلِ
طَارِقٍ مِنْ أَيْدِي الْكُفْرِ ، وَهُوَ الْمُطْلُ عَلَى هَذِهِ الْمَدْرَةِ ، وَالْفُرْصَةَ مِنْهَا إِنْ شَاءَ
اللَّهُ مَتَيْسَّرَةً ، حَتَّى^٢ يَفْرُقَ عَقْدَ الْكُفَارِ ، وَيَفْرَجَ بِهَذِهِ الْجِهَةِ مِنْهُمْ مَجَاوِرِ
هَذِهِ الْأَقْطَارِ ، فَلَوْلَا إِجْلَابُهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَكُونُهُمْ سَدُوا مَسْلَكَ الْعُبُورِ
بِمَا لِحْمِيْعِهِمْ مِنَ الْأَجْفَانِ وَالْمَرَكَبِ ، لَمَا بَالَيْتُنَا بِإِصْعَاقِهِمْ ، وَلِحَلَلْنَا بِعَوْنِ اللَّهِ
عَقْدَ اتِّفَاقِهِمْ ، وَلَكِنْ لِلْمَوَانِعِ أَحْكَامٌ ، وَلَا رَادًّا لَمَا جَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ ، وَقَدْ
أَمَرْنَا لِذَلِكَ الثَّغْرِ بِمَزِيدِ الْمَدَدِ ، وَنَحْيِرْنَا لَهُ وَلَسَائِرِ تِلْكَ الْبِلَادِ الْعُدَدَ وَالْعَدَدَ ،
وَعَدْنَا لِحَضْرَتِنَا فَاسٍ لِنَسْتَرِيحَ الْجِيُوشَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَتَرْتَبِطَ الْجِيَادَ وَتَنْتَخِبَ
الْعَدَدَ لَوْقَتِ الظُّهُورِ الْمُنْتَظَرِ ، وَتَكُونَ عَلَى أَهْبَةِ الْجِهَادِ ، وَعَلَى مَرْقَبَةِ الْفُرْصَةِ
عِنْدَ تَمَكُّنِهَا فِي الْأَعَادِ .

وَعِنْدَ عَوْدِنَا مِنْ تِلْكَ الْمَخَاوِلَةِ ، تَيْسِرَ الرِّكْبَ الْحِجَازِيَّ مُوجَّهًا إِلَى هُنَا لِكُمْ
رَوَاحِلِهِ ، فَأَصْدَرْنَا إِلَيْكُمْ هَذَا الْخُطَابَ ، إِصْدَارَ الْوَدِّ الْخَالِصِ وَالْحُبِّ اللَّبَّابِ ،
وَعِنْدَنَا لَكُمْ مَا عِنْدَ أَحْتَى الْآبَاءِ ، وَاعْتِقَادُنَا فِيكُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ لَا يَخْشَى جَدِيدُهُ
مِنَ الْبَلَاءِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ غَرَضٍ بِهَذِهِ الْأَنْحَاءِ ، فَمَوْفَى قَصْدُهُ عَلَى أَكْمَلِ الْأَهْوَاءِ ،
مَوَالِي تَتَمِيمُهُ عَلَى أَجْمَلِ الْأَرْزَاءِ ، وَالْبِلَادِ بِاتِّحَادِ الْوَدِّ مُتَّحِدَةٍ ، وَالْقُلُوبِ وَالْأَيْدِي
عَلَى مَا فِيهِ مَرْضَاةُ اللَّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ، مُنْعَقِدَةٍ^٣ ، جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكُمْ خَالِصًا لِرَبِّ
الْعِبَادِ ، مَدْخُورًا لِيَوْمِ التَّنَادِ ، مَسْطُورًا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَوْمَ الْمَعَادِ ، بِمَنَّةِ
وَفَضْلِهِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَصِلُ إِلَيْكُمْ سَعْدًا تَتَفَاخَرُ بِهِ سَعُودَ الْكَوَاكِبِ ،

١ ص : قدم ؛ ق : قد ولينا .

٢ ص : حين .

٣ ق ص : ممتضدة .

وتتضافر على الانقياد له صلورُ المواكب ، وتتناصر عن نيل مجده متطاولات المناكب ، والسلام الأتم يخلصكم كثيراً أثيراً ورحمة الله وبركاته ، وكتب في يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائة ، وصورة العلامة ^١ ، وكتب في التاريخ المؤرخ .

[جواب الملك الصالح من إنشاء الصفدي]

ونسخة الجواب عن ذلك من إنشاء خليل الصفدي شارح « لامية العجم » في سادس شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة ، بعد البسمة ، في قطع النصف بقلم الثلث : عبدُ الله ووليه ، صورة العلامة ، ولده إسماعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المثنى المظفر المنصور عماد الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ، مُنصِفَ المظلومين من الظالمين ، وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ، فاتح الأقطار ، واهب الممالك والأمصار ، إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المنابر والأسيرة والتخوت والتيجان ، ظلُّ الله في أرضه ، القائم بسنته وقرضه ، مالك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، سيد الملوك والسلاطين ، جامع كلمة الموحدين ، وليُّ أمير المؤمنين ، أبو الفداء إسماعيل ابن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد ابن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون ، خلد الله تعالى سلطانه ، وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه ؛ يخصُّ المقامَ العالي الملكَ الأجلَّ الكبيرَ المجاهدَ المؤيدَ المرابطَ المثنى المظفرَ المكرَّم المظفرَ المعمرَ الأسعدَ الأصعدَ الأوحِدَ الأجمدَ الأنجدَ ، السني السري المنصورَ أبا الحسن علي ابن أمير المسلمين أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يوسف

١ في هامش بعض أصول دوزي أن العلامة هكذا

يعقوب بن عبد الحقّ ، أمدّه الله بالظفر ، وقَرَنَ عزمه بالتأييد في الآصال
والبُكْر .

سلام وشتّ البروقُ وشائِعِه ، وادخَرَت الكواكب ودائِعَه ، واستوعب
الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه ، وثناء اتخذ النفحات المسكية طلائعه ، ونبه
للتغريد في الروض سَوَاجِعِه ، وجلّى في كأسه من الشفق المحمر مُدامه ومن
النجوم فَوَاقِعِه . بعدَ حمدِ الله على نعم أدت لنا الأمانة في عَوْدِ سلطنة والدنا
الموروثه ، وأجلستنا على سرير مملكة زَرَابِيئِهَا بين النجوم مبنوثة ، وأحسنَت
بنا الخلف عن سلف عهدِه في الأعناق غيرُ منكورة ولا منكوثه ، وصلاتِه
على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى آلِه وصحبه الذين بلغ بجهادهم في الكفرة
غاية أمله وسُوْلِه ، صلاةً تحمُّ بالرضوان سيولها ، وتجر بالغفران ذبولها ، ما
تراسلَ أصحاب ، وتواصلَ أحباب ، ويوضح للعلم الكريم ، ورودَ كتابكم
العظيم ، وخطابكم الفائق على الدرّ العظيم ، تفاخر الخمائلَ سطورُه ، ويصنِّغ
خدَّ الورد بالحجل منثورُه ، ويحكّي الرياض اليانعة فالألقاتُ غصونه والهمزات
عليها طيورُه ، ويخْلَع على الآفاق حُلل الأيام والليالي فالطُرس صباحه
والنقُص دِيحُورُه ، لفظه يطرب ، ومعناه يعرب فيغرب ، وبلاغته تدلّ
على أنه آية لأن شمس بيانها طلعت من المغرب ، فاتخذنا سطورَه رِيحَانًا ،
ورجَعنا ألفاظه أَلحَانًا ، ورجَعنا إلى الحدّ فشبها ألفتاه بظلال الرماح ،
وورَقَه بصيقل الصّفّاح ، وحروفه المفرقة بأفواه الجراح ، وسطورُه المنتظمة
بالفرسان المزدحمة في يوم الكفاح ، وانتهينا إلى ما أودعتموه من اللفظ
المسجوع ، والمعنى الذي يطرب طائرُه المسموع ، والبلاغة التي فضح المتطبع
بيانها المطبوع .

فأمّا الغزاء بأخيكم الوالد قدّس الله رُوحَه وسقى عهدِه ، وأحسن لسلفِه
خَلَقنا بعده ، فلنّا برسول الله أسوة حسنة ، ولولا الوثوق بأنّه في عِدّة الشهداء
ما رأى القلبُ قرارَه ولا الطرفُ وَسَنَه ، عاش سعيداً يملك الأرض ، ومات

شهيداً يَفُوزُ بِالْجَنَّةِ يَوْمَ الْعَرَضِ ، قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس^١ في الآفاق ، ويوقف على نَصَارَةِ حَدَائِقِهِ نظرات الأحداق ، وورثنا منه حسن الإخاء لكم ، والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم ، وأمّا الهناء بوراثته ملكه ، والانخراط مع الملوك في سِلْكِهِ ، فقد شكرنا لكم مَنَحِي هذه المنحة ، وقابلناها ببناء يُعَطِّرُ النَّسِيمَ فِي كُلِّ نَفْحَةٍ ، ووقفنا عليها حمداً جعل الود علينا إيراداً^٢ وعلى أنفاس سَرْحَةِ الرِّوَضِ شَرْحَهُ ، وتحققنا به حسن ودكم الجميل ، وكریم إختائكم الذي لا يَمِيدُ طَوْدُ رَسُوخِهِ ولا يَمِيلُ .

وأما ما ذكرتموه من أمر المصحفين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرمین المنيفين ، وأنكم جهزتم كاتبكم الفقيه الأجلَّ الأسنى الأسمى أبنا المجد ابن كاتبكم أبي عبد الله ابن أبي مدّين أعزّه الله تعالى لتفقد أحوالهما ، والنظر في أمر أوقافهما ، فقد وصل المذكور بمن معه في حِرْزِ السَّلَامَةِ وَأَكْرَمْنَا نَزْلَهُمْ ، وسهلنا بالترحيب سُبُلَهُمْ ، وجمعنا على بذل الإحسان إليهم شَمْلَهُمْ ، وحضر المذكور بين أيدينا وقربناه ، وسمعنا كلامه وخاطبناه ، وأمرنا في أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم ، ورسمنا لنوابنا في نواحي أوقافهما بما ذكرتم ، وهذا الوقف المبرور جارٍ على أحسن عادة ألفها ، وأثبت قاعدة عرفها ، مرّعيّ الجوانب ، محميّ المنازل والمضارب ، آمن من إزالة رَسْمِهِ ، أو إزالة حكمه ، بَدْرُهُ أبدأ في مطالع تمه ، وزهره دائماً يرقص في كفه ، لا يزداد إلا تخليداً ، ولا إطلاق ثبوته إلا تقييداً ، ولا عنقُ اجتهاده إلا تقليداً ، جرياً على عادة أوقاف ممالكننا ، وقاعدة تصرفاتنا في ممالكننا ، وله مزيد الرعاية ، وإفادة الحماية ، ووفادة العناية .

وأما ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلها ، ومني به من

١ ص : السمر .

٢ ص : أبراده .

الكفار حَزْنُهَا وَسَهْلُهَا ، فَإِنَّهُ شَقَّ عَلَيْنَا سَمَاعَهُ الَّذِي أَنْكَى أَهْلَ الْإِيمَانِ ،
وَعَدَّدَ بِهِ ذُنُوبَ الزَّمَانِ ، كُلَّ قَلْبٍ بِأَنَامِلِ الْخَفْقَانِ ، وَطَالَمَا فَرْتَمَ بِالظَّفْرِ ، وَرَزَقَمَ
النَّصْرَ عَلَى عَدُوِّكُمْ فَجَرَّ ذَيْلَ الْهَزِيمَةِ وَفَرَّ ، وَلَكِنَّ الْحُرُوبَ سِجَالًا ، وَكُلَّ زَمَانَ
لِدَوَائِهِ دَوْلَةً وَلِرَجَائِهِ رِجَالَ ، وَلَوْ أَمَكَنْتَ الْمُسَاعَدَةَ لَطَارَتْ بِنَا إِلَيْكُمْ عَقْبَانُ
الْجِيَادِ الْمَسْوُومَةِ ، وَسَالَتْ عَلَى عَدُوِّكُمْ أَبَاطِحُهُمْ بِقَسِيئِنَا الْمَوْجِةِ وَسَهَامِنَا الْمَقْوُومَةِ ،
وَكَحَلْنَا عَيُونََ النُّجُومِ بِمَرَاوِدِ الرِّمَاحِ ، وَجَعَلْنَا لَيْلَ الْعِجَاجِ ١ مَمْرَقًا بِبُرُوقِ
الْصَفَاحِ ، وَاتَّخَذْنَا رُؤُوسَهُمْ لَصُوَالِحِ الْقَوَائِمِ كُرَاتٍ ، وَفَرَجْنَا مَضَائِقَ الْحَرْبِ
بِتَوَالِي الْكُرَاتِ ، وَعَظَفْنَا إِلَيْهِمُ الْأَعْنَةَ ، وَخُضْنَا جُدَاوِلَ السِّيُوفِ وَدُسْنَا
شُوكَ الْأَسِنَّةِ ، وَفَلَقْنَا الصَّخْرَاتِ بِالصَّرِخَاتِ ، وَأَسَلْنَا الْعِبْرَاتِ بِالرَّعِبَاتِ ،
وَلَكِنَّ أَيْنَ الْغَايَةِ مِنْ هَذَا الْمَدَى الْمُتَطَاوِلِ ؟ وَأَيْنَ الثَّرِيَا مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِ ؟ وَمَا لَنَا
غَيْرَ إِمْدَادِكُمْ بِجُنُودِ الدَّعَاءِ الَّذِي نَرْفَعُهُ نَحْنُ وَرِعَايَانَا ، وَالتَّوَجُّهَ الصَّادِقَ الَّذِي
تَعْرِفُهُ مَلَائِكَةُ الْقَبُولِ مِنْ سَجَايَانَا .

وَأَمَّا مَا فَقَدْتُمُوهُ مِنَ الْأَجْفَانِ الَّتِي طَرَفَهَا طَيْفُ التَّلَافِ ، وَأَمَّ حَرَمَ فَنَائِهَا
النَّفْسَاءَ وَطَافَ بِهِ بَعْدَ الْإِلْطَافِ ، فَقَدْ رَوَّعَ هَذَا الْخَبْرَ قَلْبَ الْإِسْلَامِ ، وَنَوَّعَ لَهُ
الْحُزْنَ عَلَى اخْتِلَافِ الْإِصْبَاحِ وَالْإِظْلَامِ ، وَهَذِهِ الدَّارُ مَا يَخْلُو صَفْوُهَا مِنْ كَدْرِ
الْقَدْرِ ، وَطَالَمَا أَنْامْتَ بِالْأَمْنِ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَخَاطَبْتَ بِالْخَطْبِ فِي السَّحَرِ ، وَلَكِنَّ فِي
بِقَائِكُمْ مَا يُسْلِي مِنْ خَطْبِ الْعَطْبِ ، وَمَعَ سَلَامَةِ نَفْسِكُمُ الْكَرِيمَةَ فَالْأَمْرُ هِينٌ
لَأَنَّ الدَّرَّ يَفْدَى بِالذَّهَبِ .

وَأَمَّا مَا رَأَيْتُمُوهُ مِنَ الصَّلْحِ فَرَأَيْ عَقْدَهُ مَبَارِكًا ، وَأَمْرٌ مَا فِيهِ فَارِطٌ عَزْمٌ وَإِنْ
كَانَ فَيْتِدَارِكُمْ ، وَالْأَمْرُ يَجِيءُ كَمَا يَجِبُ لَا كَمَا نَحْبُ ، وَالْحُرُوبُ يُزَوِّرُهَا نَصْرُهَا
تَارَةً وَيَغِيبُ ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدَا ، وَقَدْ يَرُدُّ اللَّهُ الرَّدَى ، وَيُعِيدُ الظَّفَرَ بِالْعَدَا .
وَأَمَّا عَوْدِكُمْ إِلَى فَاسِ الْمَحْرُوسَةِ طَلِبًا لِإِرَاحَةٍ مَنِّ عِنْدِكُمْ مِنَ الْجُنُودِ ،

١ ق ص : الليل العجاج .

وتجهيزاً لمن يُصِل من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود ، فهذا أمر ضروري التدبير سروري الثمير ، لأن النفوس تمل وثِير المهاد ، فكيف ملازمة صهوات الجياد ، وتسأم من مجالسة الشرب ، فكيف بممارسة الحرب ، وتعرض عن دوام اللذة ، فكيف بمباشرة المنايا الفدّة ، وهذا جبَل طارق الذي فتح الله به عليكم ، وساق هدي هديته إليكم ، لعله يكون سبباً إلى ارتجاع ما شرّد ، وحسماً لهذا الطاغية الذي مرّد ، ورداً لهذا النازل الذي قدم ورد الصبر لما ورد ، فعادة الألفاظ الإلهية بكم معروفة ، وعزّمانكم إلى جهات الجهاد مصرّوفة ، وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يطرق ، وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق .

وأما ما منحتموه من الخليل العتاق ، والملابس التي تطلع بدور الوجوه من مشارق الأطواق ، والأموال التي زكّت عند الله تعالى ونمت على الإنفاق ، فعلى الله عز وجل خلّفها ، ولكم في منازل الدنيا والآخرة شرفها ، وإليكم تساق هدايا أثنتها وتحفكم تحفها ، وإذا وصل وفدكم الحاج ، وأثار له بوجه إقبالنا عليهم ليلهم الداج ، كانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا ، وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا ، يتخولّون تحفاً أنتم سببها ، ويتناولون طرفاً في كؤوس الاعتناء بهم تنضد حببها ، وإذا كان أوان الرحيل إلى الحج فسحنا لهم الطريق ، وسهلنا لهم الرفيق ، وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من مبي ، وسولهم ممّن إذا زاروا حججته الشريفة حازوا الراحة من العنا ، وفازوا بالغنى ، وإذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة ذلك الدرب ، ويخيل إليهم أن لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب ، وغمرناهم بالإحسان في العود إليكم ، وأمرناهم بما ينهونه شفاهاً لديكم ، وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم ، وتوفّر لأخذ الثأر حماّتكم ، وتخصكم بتأييد تنزلون روضه الأنضر ، وتجنّون به ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الأخضر ، وتتحفكم بسعد لا يبلى قشيبه ، وعز لا يمحو شبابه مشيبه ، وتحيته المباركة تغادىكم وتراوحكم ، وتفاوحكم أنفاسها المعنبرة وتنافحكم ، بمنّه وكرمه ؛ انتهى .

[إجازة من الصفدي رواية الرسالتين]

ورأيت بخط منشيء هذا الجواب الصلاح الصفدي رحمه الله تعالى إثر ذكره ما نصّه : أما بعد حمد الله تعالى على نعمائه ، وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله خاتم أنبيائه ، فقد قرأ الشيخ الإمام العالم العامل العلامة المفيد القدوة عز الدين أبو يعلى حمزة ابن الرئيس الكبير الفاضل القاضي قطب الدين موسى بن أحمد ابن شيخ السلامة الأحمدي - أمتع الله بفوائده - الكتاب الوارد من سلطان المغرب الملك المجاهد المرابط أبي الحسن المريني صاحب مراكش تغمّده الله تعالى برحمته والجواب عنه عن السلطان الشهيد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد قدس الله تعالى رُوحهما من إنشائي ، وأنا أسمع ذلك جميعاً من أولهما إلى آخرهما ، قراءةً أطربت السمع لفصاحتها ، وأمالت العطف لرجاحتها :

وأخجَلتُ ورق الحمى باللوى إن صدحت في ذروة الغصنِ
تكادُ من لطف ومن رقّة تدخل في الأذن بلا إذنِ

وذلك في مجلس واحد في ذي القعدة سنة ٧٥٦ ، بالجامع الأموي بدمشق المحروسة ، فإن رأى رواية ذلك عني فله علو الرأي في تشريفي بذلك ، وكتبه خليل ابن أبيك الصفدي الشافعي عفا الله عنه ؛ انتهى .

[أبو الحسن يكتب ثلاثة مصاحف]

وكان السلطان أبو الحسن المريني المذكور كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه ، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال ، وأوقف عليها أوقافاً جلييلة ، كتب توقيعه سلطان مصر والشام بمساحتها من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين ابن نباتة المصري ، ونص ما يتعلّق به الغرض منه هنا قوله : وهو

١ دوزي : الخليل .

الذي مدَّ يمينه بالسيف والقلم فكتبَ في أصحابها ، و سطر الختمات الشريفة فأيدَ الله حزبَه بما سطر من أحزابها ، واتصلت أخبار ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح ، وكثرت فتوحه لأملياء الغرب فقالت أوقاف الشرق لا بد للفقراء من فتوح ، ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدي ، وخطَّ سطورها بالعربي وطالما خط في صفوف الأعداء بالهندي ، ورتب عليها أوقافاً تجري أقلام الحسنات في إطلاقها وطلّقها ، وحبس أملاكاً شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها ، والله تعالى يمتع من وقف هذه الختمات بما سطر له في أكرم الصحائف ، وينفع الجالس من ولاة الأمور في تقريرها ويتقبل من الواقف ؛ انتهى .

قلت : وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة ، وهو الذي ببيت المقدس ، وربعته في غاية الصنعة .

[نبذة من أخبار أبي الحسن]

وقال بعض المشاركة في حق السلطان أبي الحسن ، ما صورته : ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله ، وجرت إلى المشرق أنواء نواله ، وطابت نسَماتُه ، واشتهرت عزَماتُه ، كان حسن الكتابة ، كثير الإنابة ، ذا بلاغة وبراعة ، وشهامة وشجاعة ، كتب بخطه ثلاثة مصاحف ووقفها على المساجد الثلاثة ، أقام في الملك عشر سنين وسبعة أيام ، ثم صُرف بولده أبي عنان بعد حروب يطول شرحها ، انتهى من كتاب « نزهة الأنام » .

ولما ذكر الإمام الخطيب أبو عبد الله ابن مرزوق في كتابه « المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن » أمرَ الربعة التي أرسلها السلطانُ أبو الحسن بخطه قال ما ملخصه : وأرسل معها للسلطان الملك الناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر واليمن ثمانمائة وخمسة وعشرين ، ومن الزمرذ مائة وثمانية وعشرين ، ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ،

ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعة وستين ، وأرسل حُللاً كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر ، ومن الإناق عشرين مذهبة ، ومن الخلادي ستة وأربعين ، ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة ، ومن المحررات المختمة ثمانمائة ، ومن الرصان عشرين شقة ، والأكسية المحررة أربعة وعشرين ، والبرانس المحررة ثمانية عشر ، والمشفقات^١ مائة وخمسين ، وأحارم الصوف المحررة عشرين ، ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر ، ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المنبوق والحلل ثمانمائة ، وأوجه اللحف المذهبة عشرين ، وحائطان حلة وحنابل مائة واثنى عشر كلَّها حرير^٢ ، وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة ، ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجواهر عشرة ، والسروج عشرة بركب ذهب ومهاميز ذهب كذلك ، وثلاث ركب فضة ، وست مزججة ومذهبة ، ومضمتان من ذهب ممّا يليق بالملوك ، وشاشية حرير مطوقة بذهب مكمل بالجواهر ، ومن لزمات الفضة عشرة ، وسرج مخروزة بالفضة عشرة ، وعشر علامات معششة مذهبة ، وعشر رايات مذهبة ، وعشر براقع مذهبة ، وعشر أمثلة^٣ مرقومة ، وثلاثين جلد أشرك^٤ ، وأربعة آلاف درقة لظ منها مائتان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة ، وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة^٥ لها أربعة أبواب ، وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بجلّة مذهبة ، وهي حرير أبيض ومرابطها حرير ملوّن وعمودها عاج وآبنوس وأكبارها من فضة مذهبة ، ومن البزاة الأحرار المنتقاة أربعة وثلاثين^٦ ، ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمسة وثلاثين ، ومن البغال الذكور والإناث مائة وعشرين ، ومن الجمال سبعمائة ، وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع الرّبعة المكرمة ، وأعطى الحرة أم أخته أم

١ ص : والمشفقات .

٢ قد شرح دوزي أكثر هذه الألفاظ في ملحق المعاجم ولكنه استمد معانيها من النص نفسه .

٣ ص : أشلة .

٤ ص : وثلاث زجلوا شركي .

٥ دوزي : نبيقة .

٦ هذا العدد والأعداد التالية وردت بصورة الرفع في ص .

ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهباً ، ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ، ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعددة وبغلات ، وللرسول المعين للهدية ألفاً ، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ، ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة ، وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ، ولشراء ربع ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهباً ؛ انتهى .

وذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن الموصوف أهدي هدايا غير هذه لكثير من الملوك ، ومنها لصاحب الأندلس صلة وصدقة في مرات ، ومنها للملوك النصارى بعد هداياهم ، ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي ، ومنها لصاحب إفريقية ، ومنها لصاحب تلمسان ؛ انتهى .

وقال مؤرخ مصر المقرئ في كتاب « السلوك » في سنة ٧٣٨ ما نصّه : وفي ثاني عشرين من رمضان قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج ، ومعها هدية جلييلة إلى الغاية ، نزل لحملها من الإصطبل السلطاني ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال ، كان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حِجْرَة ومائة فحل ومائتا بغل ، وجميعها بسُرُج ولحم مسقطة بالذهب والفضة ، وبعضها سُرجُها وركبها كلُّها ذهب ، وكذلك لجمها ، وعدتها اثنان وأربعون رأساً ، منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر ، وفيها اثنان وثلاثون بازاً ، وفيها سيفٌ قرابه ذهب مرصع ، وحياصته ذهب مرصع ، وفيها مائة كساء ، وغير ذلك من القماش العال ، وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم ، وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح ، وهم جمع كبير جداً ، وكان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة ، ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم ، حتى نفذت كلُّها سوى الجواهر واللؤلؤ فإنه اختص به ، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار ، ثم نُقِلت الحرة إلى الميدان بمن معها ، ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم بكرةً وعشيةً ما عمهم وفضل عنهم ، فكان

مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ، ونصف إردب أرز ، وقنطار حب رمان ، وربيع قنطار سكر ، وثماني فانوسيات شمع ، وتوابل الطعام ، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم ، وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ، ثم خلع على جميع مَنْ قدم مع الحرة ، فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم ، حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول ، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجلب قدره ، وقيل لها أن تُملي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء ، وإنما تريد عناية السلطان بإكرامها وإكرام مَنْ معها حيث كانوا ، فتقدم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد أقبغا بتجهيزها اللائق بها ، فقاما بذلك ، واستخدما لها السقائين والضوية ، وهيتا كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلوات والسكر والدقيق والبقسماط ، وطلبا الحماية لحمل جهازها وأزودتها ، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة ، وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها قدام المحمل ، ويمثل كل ما تأمر به ، وكتب للأميرِي مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة .

وقال في سنة خمس وأربعين وسبعمائة ما نصّه : وفي نصف شعبان قدمت الحرة أخت صاحب المغرب في جماعة كثيرة ، وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام ، وأن يدعو له الخطباء يوم الجمعة وخطبها ومشايخ الصلاة وأهل الخير بالنصر على عدوهم ، ويكتب إلى أهل الحرمين بذلك ، وذلك أن في السنة الحالية كانت بينه وبين الفرنج وقعة عظيمة قُتل فيها ولده ، ونصره الله تعالى بمنه على العدو ، وقتل كثيراً منهم ، وملكوا منهم الجزيرة الخضراء ، فعمر الفرنج مائتي شيني ، وجمعوا طوائفهم ، وقصدوا المسلمين ، وأوقعوا بهم على حين غفلة ، فاستشهد عالم كثير ، ونجا أبو الحسن في طائفة من أزمته بعد شدائد ، وملك الفرنج الجزيرة ، وأسروا وسبّوا وغنموا شيئاً يجلب وصفه ، ثم مضوا إلى جهة غرناطة ، ونصبوا عليها مائة منجنيق حتى صالحهم أهلها على قطيعة يقومون بها ، وتهادنوا مدة عشر سنين ؛ انتهى كلامه .

وقد تقدّم نص هذا الكتاب الموجه من السلطان أبي الحسن فليراجع قريباً .
 وقال ابن مرزوق في « المسند الصحيح الحسن » بعد كلام ما ملخصه :
 وكان - يعني السلطان أبا الحسن - مجتهداً في الجهاد بنفسه وحرمه ، وجاز للأندلس
 برسم ذلك بنفسه ، وأظهر آثاره الجميلة ، ومنها ارتجاع جبل الفتح ليد المسلمين بعد
 أن أنفق عليه الأموال ، وصرف إليه الجنود والحشود ، إذ كان من عمالته هو
 والجزيرة ورندة ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيّقوا به إلى أن استرجعوه
 ليد المسلمين ، وأنفق على بناءه^١ أحمال مال ، واعتنى بتحسينه ، وبنى حصنه
 وأبراجه وسوره وجامعه ودوره ومخازنه ، ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برأً وبحراً ،
 فصبر المسلمون صبر الكرام ، فخبب الله تعالى أمل العدو ، وعاد خاسراً^٢ ،
 والمنّة لله ، فرأى أن يحصن سفح الجبل بسور يحيط به من جميع جهاته حتى
 لا يطمع عدوّ في منازلته ، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناس
 ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمال ، فأحاط بمجموعه إحاطة
 الهائلة بالهلال ، وأما بناؤه للمحاسن^٣ والطوالع فأمر غير مجهول ؛ انتهى .

[رسائل لسان الدين ابن الخطيب]

[١ - رسالة إلى أحد سلاطين بني مرين]

وقد رأيت أن أذكر هنا بعض إنشاء لسان الدين ابن الخطيب في شأن ما يتعلق
 بجبل الفتح وغيره من بلاد الأندلس ، وحال العدو الكافر ، وما ينخرط في هذا
 السلك : فمن ذلك على لسان سلطانه يخاطب به أحد السلاطين من أولاد السلطان
 أبي الحسن المريني ، ونصه :
 المقام الذي يُصْرِّخُ وَيُنْجِدُ ، وَيُتُّهِمُ فِي الْفَضْلِ وَيُنْجِدُ ، وَيُسْعَفُ

١ ص : وأنفقوا فيه .

٢ ص : ورجعوا خاسرين .

٣ ص : للمحارس .

ويُسعد ، ويبرق في سبيل الله ويرعد ، فيأخذ الكفرَ من عزماته المقيمُ المُقعد ، حتى
ينجز من نصر الله تعالى الموعِد ، مقامُ محلِّ أخينا الذي حُسنُ الظنِّ بمجده جميل ،
وحدُّ الكفرِ بسَعده كليل ، وللإسلام فيه رجاء وتأميل ، ليس للقلوب عنه
مَسيل ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى وعزمه الماضي لصوِّلة
الكفرِ قامعاً ، وتدبيره الناجح لشَمْل الإسلام جامعاً ، ومُلْكه الموفق لنداء
الله مطيعاً سامعاً ، معظم مقداره ، وملتزم لإجلاله وإكباره ، المعتدُّ في الله بكرم
شيمته وطيب نِجاره ، المستظهر على عدوِّ الله بإسراعه إلى تدمير الكافر وبداره .
سلام كريم عليكم ورحمة الله وبركاته ، أمّا بعدَ حمد الله مجيب دعوة
السائل ، ومُتَقَبِل الوسائل ، ومُتَبِّح النعم الجلائل ، مُرَبِّح مَنْ عامله في
هذا الوجود الزائف الزائل ، والأيام القلائل ، بالمتاع الدائم الطائل ، والنعيم غير
الحائل ، ومقيم أودِ الإسلام المائل ، بأولي المكارم من أوليائه والفضائل ، والصلاة
والسَّلَام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله المنقذ من الغوائل ، المُنْجِي من الرَّوْع
الهائل ، الصادع بدَعْوَةِ الحقِّ الصائل ، بين العشائر والفضائل ، الذي ختم به
وبرسالته ديوان الرسل والرسائل ، وجَعَله في الأواخر شرف الأوائل ، فحبه
كثر العائل ، والصلاة عليه زكاة القائل ، والرضى عن آله وصحبه وعِترته وحزبه
تيجان الأحياء والقبائل ، المتميزين بكرم السجايا وطيب الشمائل ، والدعاء لمقام
أخوتكم في البُكر والأصائل ، بالسعد الصادق المخايل ، والصنع الذي تبرج
مواهبه تبرج العقائل ، والنصر الذي تهز له الصُّعاد المُلدِّ عطف المترانح المتخايل ،
فإنّا كتبناه إليكم كتب الله لكم عزّاً يانع الحمائل ، ونَصراً يكفل للكتائب
المدونة في الجهاد ومرضاة ربِّ العباد بسَرْدِ المسائل وإقناع السائل ، من حَمراء
غَرْنَاطَة ، حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استبصار في التوكل
على من بيده الأمور ، وتسبب مشروع تتعلق به بإذن الله تعالى أحكام القدر

١ ص : مريح .

المقدور ، ورجاء فيما وعد به من الظهور ، يتضاعف على توالي الأيام وترادف الشهور ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله ، ومقامكم المعروف محله ، الكفيلُ بالإرواء نَهَلُهُ وَعَلَّهُ ، وإلى هذا وَصَلَ اللهُ تعالى سعدكم ، وحرس مجدكم ، ووالى النعم عندنا وعندكم ^١ ، فإننا في هذه الأيام ، أهمنا من أمر الإسلام ، مارنتقُ الشراب ونغص الطعام ، وذاد المنام ، لما تحققنا من عمل الكفر على مكايده ، وسعي الضلَّال - والله الوافي - في استئصال بقيته ، وعقد النوادي للاستشارة في شأنه ، وشروع الحيل في هدِّ أركانه ، ومنَّ يؤمِّل من المسلمين لدفع الردى وكشف البلوى وبث الشكوى ، وأهله - حاطهم الله تعالى وتولاهم ، وتمم عوائد لطفه الذي أولاهم ، فهو مولاهم - في غفلة ساهون ، وعن المغبة فيه لاهون ، قد شغلتهم دنياهم عن دينهم ، وعاجلهم عن آجلهم ، وطولُ الأمل ، عن نافع العمل ، إلا مَنْ نَوَّرَ اللهُ تعالى قلبه بنور الإيمان وتمللم بمناصحة الله تعالى والإسلام تمللم السليم ، واستدل بالشاهد على الغائب ، وصرف الكفر إلى مطالب ^٢ الأمم النوائب ، فلما رأينا أن الدولة المرينية التي هي على مرِّ الأيام شَجَا العِدا ، ومتوعَّد من يكيد الهدى ، وفِئَة الإسلام التي إليها يتحيز ، وكهفُهُ الذي إليه يلجأ ، قد أذن الله تعالى في صلاح أمورها ، ولمَّ شعنها ، وإقامة صغاها ، بأن صَرَفَ اللهُ تعالى عنها هَنَات الغدر ^٣ ، وأراحها من مس الضرِّ ، ورد قوسها إلى يد بارئها ، وصيَّرَ حقها إلى وارثها ، وأقام لرعي مصالحها مَنْ حَسَنَ الظنَّ بِحَسَبِهِ ودينه ، ورُجِي الخير من ثمرات نُصحه ، ومنَّ لم يُعلم إلا الخيرُ من سَعْيِهِ والسداد من سيرته ، ومنَّ لا يستريب المسلمون بصحة عقده ، واستقامة قصده ، أردنا أن نخرج لكم عن العهدة في هذا

١ وعندكم : سقطت من ص .

٢ ص : معاطب .

٣ ص : العدر .

٤ من سعيه : سقطت من ق .

الدين الحنيف الذي وَسَمَتْ دعوته وجوه أحببكم شملهم الله تعالى بالعافية ،
وتشبثت به أنفُسُ مَنْ صار إلى الله تعالى من السلف تغمدهم الله بالرحمة والمغفرة ،
وفي هذا القطر الذي بلاده ما بين مكفول يجب رَعِيْهُ طبعاً وشرعاً ، وجار
يلزم حقه ديناً ودنيا وحمية وفضلاً ، وعلى الحالين فعليكم بعد الله المُعَوَّل ،
وفيكُم المُوَمَّل ، فأرْعُونَا أَسْمَاعِكُم المَبَارَكَةَ نَقْصٌ عَلَيْكُم ما فيه رضى الله ،
والمَنْجَاة من نكيره ، والفخر والأجر وحفظ النعم ، والخلف في الذرية ، بهذا
وعدت الكتب المنزلة ، والرسل المرسله : وهو أن هذا القطر الذي تعددت فيه
المحارب والمنابر ، والرائع والساجد ، والذاكر والعابد ، والعالم واللقيف ،
والأرملة والضعيف ، قد انقطع عنه إرْفَاد الإسلام ، وشحَّت الأيدي به منذ
أعوام ، وسلم إلى عبدة الأصنام ، وقوبلت ضرائره بالأعذار ، والمواعيد
المستغرقة للأعمار ، وإن عَرَّضت شواغل وفتن ، وشَوَّأغب وإحن ، فقد كانت
بِحَيْث لا يقطع السبب بحملته ، ولا يذهب المعروف بكليته :

ولا بد من شكْوَى إلى ذي مروءة يُواسيك أو يُسئلك أو يَتَوَجَّعُ^١

ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المقدَّسُ
والدُّكُم جبلَ الفتح وهو منازل أخاه بسجلماسة ، ولا أمدَّه ولده السلطان أبو
عنان وهو بمراكش ، وبالأمس بعثنا إلى الجبل وشمانه في جملة ما أهمنا مبلغ
جهد وسداد من عَوَز ، وقد فضلت عن ضرائرنا أموال فُرِضت من أجل الله
على عباده ، وطعام سَمَحْنَا به على الاحتياج إليه في سبيل جهاده ، فلم يسهم
المتغلب منها بجانب الله بحجة ، ولا أقطعه منها ذرة مستخففاً به جلَّ وعلا ، متهاوناً
بنكيره الذي هو أحق أن يخشى ، فضاعت الأمور ، واختلَّت الثغور ، وتشذبت
الحامية ، وتبدَّدت العُدَد ، وختلَّت المخازن ، وهلكت بها الجرذان ، وعظمت

١ ص ق : يتضع .

بها حسرة الإسلام ، أضعاف ما عظمت خبرته أيام ما كانت تكفلها همم الملوك الكرام والخلفاء العظام ، والوزراء والنصحاء ، والأشياخ الأجماد ، قدس الله تعالى أرواحهم ، وضاعف أنوارهم ، ولا كالحسرة في الجبل باب الأندلس وركاب الجهاد وحسنة بني مَرِّين ومآثر آل يعقوب وكرامة الله للسلطان المقدس أبي الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين والدكم الذي تَرَدُّ على قبره^١ مع الساعات والأنفاس وفُودُ الرحمة ، وهدايا الزلفَة ، وريحان الجنة ، فلولا أنكم على علم من أحواله لشرَحْنَا المجل ، وشكلنا المهمل ، إنَّما هو اليوم شبح مائل ، وطلل بائد ، لولا أن الله تعالى شغل العدا عنه بفتنة لم يصرف وجهه إلا إليه ، ولا حوم طيره إلا عليه ، ولكان بصدَد أن يتخذهُ الصليب داراً ، وأن يقرَّ به عيناً ، والعدوة فضلاً عن الأندلس ، قد أوسعها شرّاً ، وأرهب ما يُجاوره عُسراً ، نسأل الله تعالى بنور وجهه أن لا يسودَّ الوجوه بالفسَجع فيه ، ولا يسمع المسلمين الثكلة ، وما دونه فهو — وإن أنعش بالتعليل عليه ووقع بالجهد خلقه — لحم على وَضَم ، إلا أن يصل الله تعالى وقايتة ، ويوالي دفاعه وعصمته ، لا إله إلا هو الولي النصير ، وما زلنا نشكو إلى غير المصمت ، ونمدَّ اليد إلى المُدْبِر عن الله المعرض ، ونخطب له زكاة الأموال من المباني الضخمة ، والخزائن الثرَّة ، والأهراء الطامية ، والحظ التافه من المفترض برسمه ، فتمضي الأيام لا تزيد الضرائر فيها إلا ضيقاً ، ولا الأحوال إلا شدَّة ، ولا الثغر إلا ضعفة ، ولا نعلم أن نظراً وقع له ولا فكراً أعمل فيه إلا ما كان من تسخير رعيته الضعيفة ، وبُلاله مجباه السخيفة ، في بناء قصر بمنت ميور من جباله :

شاده مرمرآ وجلَّله كل ساء فللطير في ذراه^٢ وُكور^٣

جلب إليه الزليج^٣ ، واختلفت فيه الأوضاع في رأس نيق^١ ، لأمل نرّوة ،

١ زاد في ص : منه بعد لفظة قبره .

٢ البيت لعدي بن زيد العبادي .

٣ ص : الازليج .

وسوء فكرة ، فلماً تم أقطع المجران ، فهو اليوم ممتنع اليوم وحظ الخراب ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، حتى جاء أمر الله خالي الصحيفة من البر ، صفر اليد من العمل الصالح ، نعوذ بالله من نكيره ، ونسأله الإلهام والسداد ، والتوفيق والرشاد ، وقد بذلنا جهْدَنَا قولاً وفعلاً ، ومَوْعِظَةً ونصْحاً ، واستدعينا لتلك الجهة صدقة المسلمين محمولة على أكتاد العباد الضعفاء الذين كانت صدقات فاتحيه رضي الله تعالى عنهم ترفدهم ، ونوافله تتعهدهم ، فما حرك ذلك الجوار حلوباً ، ولا استدعى مطلوباً ، ولا رُفِداً مجلوباً ، فإلى متى تُنْضَى ركاب الصبر وقد بلغ الغاية ، واستنفد البلاة ، بعد أن أعاد الله تعالى العهد ، وجبر المال ، وأصلح السعي ، وأجرى يتابع الخير ، وأنشق رياح الإقالة . وجملة ما نريد أن نقرره فهو الباب الجامع ، والقصد الشامل ، والداعي والباعث : أن صاحب قَشْتَالَةَ لما عاد إلى ملكه ، ورجع إلى قطره ، جرت بيننا وبينه المراسلة التي أسفرت بعدم رضاه عن كَدْحنا لنصره ، ومظاهرتنا إياه على أمره ، وإن كنا قد بلغنا جهداً ، وأبعدنا وُسْعاً ، وأجلت عن شروط ثقيلة لم نقبلها ، وأغراض صعبة لم نكملها ، ونحن نتحقق أنه إما أن تهيج حفيظته ، وتثور إحنته ، فيكشف وجه المطالبة مستكثراً بالأمة التي داس بها أهل قشتالة ، فراجع أمره غلاباً ، وحقه ابتزازاً واستلاباً ، أو يصرفها ويهادن المسلمين بخلال ما لا يدع جهة من جهات دينه الغريب إلا عقد معها صلحاً ، وأخذ عليها بإعانتها إياه عهداً ، ثم تفرغ إلى شفاء غليله ، وبلوغ جهده ، ولا شك أنها تجيبه صرْفاً لبأسه عن نخورها ، ومُقَارَضَةً كما وقع باطريرة من مضيق صدورها ، ومؤسف جمهورها ، وكل من له دين ما فهو يحرص على التقرب إلى مَنْ دانه به وكلفه وظائف تكليفٍ ، رجاء لوعده وخوفاً من وعيده ، وبالله ندفع ما لا نطيق من جموع تداعت من الجزر ووراء البحور والبر المتصل الذي لا تقطعه الرفاق ، ولا تحصي ذرعه الحذاق ، وقد أصبحنا بدار غُرْبَةٍ ، ومحل روعة ، ومفترس نبوة ، ومظنة فتنة ، والإسلام عدده قليل ، ومنتجعه في هذه البقعة جديب ، وعهده بالإرْفَاد والإمداد

من المسلمين بعيد ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا - إِلَى آخِرِ السُّورَةِ﴾
(البقرة : ٢٨٦) .

وإذا تداعت أمم الكفر نصرة لدينها المكذوب ، وحميةً لصلبيها المنصوب ،
فمن يستدعي لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن ؟ حيث المآذن
بذكر الله تعالى تملأ الآفاق ، وكلمة الإسلام قد عمت الرُّبى والوهاد ، إنَّما الإسلام
غريق قد تشبَّثَ بأهدابكم ، يناشدكم الله في بقية الرمتق ، وقبل الرمي تُراش
السهام ، وهذا أوان الاعتناء ، واختيار الحماة ، وإعداد الأقوات ، قبل أن يضيق
المجال ، وتمنع الموانع ، وقد وجَّهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم
مقرَّراً الضرورة ، منهيّاً الرغبة ، مذكراً بما يقرب عند الله ، مذكراً لذمام
الإسلام ، جالباً على مَنْ وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح
الصدور ، وتنسي الآمال ، وتستدعي الدعاء والثناء ، فالؤمن كثير بأخيه ، ويد الله
مع الجماعة ، والمسلمون يدٌ على مَنْ سواهم ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان
المرصوص يشد بعضه بعضاً ، والتعاون على البر والتقوى مشروع ، وفي الذكر
الحكيم مذكور ، وحق الجار مشهور ، وما كان جبريل يوصي به في الصحيح
مكتوب ، وكما راع المسلمين اجتماع كلمة الكفر ، فخرجوا أن يروِّع الكفر من
العز بالله ، وشدّد الحيازيم في سبيل الله ، ونفير النفرة لدين الله ، والشعور في
حماية الثغور وعمرانها ، وإزاحة عللها ، وجلب الأقوات إليها ، وإنشاء الأساطيل ،
وجبر ما تلف من عدة البحر ، أمور تدل على ما وراءها ، وتخبر بمشيئة الله تعالى
عما بعدها ، ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ
الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة : ١٩٧) . ومن خطب عليّ رضي الله تعالى عنه : أما بعد ،
فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رهبة ألبسه الله تعالى سيما الخسف ،
ووسَّمه بالصَّغار ، وما بعد الدنيا إلا الآخرة ، وما بعد الآخرة إلا إحدى داري
البقاء ، أفي الله شك ؟ ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأَوْلَتْكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾
(الحشر : ٩) .

والاعتناء بالجليل عنوان هذا الكتاب ، ومقدمة هذا الباب ، والغفلة عنه منذ أعوام قد صيرتنا لا نقتنع باليسير ، وقد أبرمته المواعيد ، وغيّر رسومه الانتظار ، ومن المنقول « ارحموا السائل ولو جاء على فرس » ، والإسراف في الخير أرجح في هذا المحل من عكسه ، وكان بعض الأجواد يقول وقد أقر : اللهم هب لي الكثير ، فإن حالي لا تقوم على القليل ، وعسى أن يكون النظر له بنسبة الغفلة عنه ، والامتصاص له مكافئاً للإضرار به ، وخلو البحر يغتم لإمداده وإرفاده ، قبل أن يثوب نظر الكفر إلى قطع المدد وسد البحر ، ومن ضيع الخزم ندم ، ولا عذر لمن علم ، والله عز وجل يطلع من قبلكم على ما فيه شفاء الصدور ، وجبر القلوب ، وشعب الصدوع ، وما نقص مال من صدقة ، وطعام الواحد كافٍ لاثنين ، والدين دينكم ، والبلاد بلادكم ، ومحل رباطكم وجهادكم ، وسوق حسناتكم ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ٧ ، ٨) ، وقد قلدنا العهد الحفيظ علينا ، المصروف العناية بفضل الله تعالى إلينا ، والله المستعان ، وعليه التكلان ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

وفي اعتقادي أن هذا المكتوب للسلطان أبي فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني ؛ وأن المراد بالمتغلب الوزير عمر بن عبد الله الذي ظفر به أبو فارس المذكور واستقل بالملك بعد محو أثره ، حسبما ذكرناه في غير هذا المحل ؛ والله سبحانه أعلم .

[٢ - رسالة أخرى في استنهاض السلطان المريني]

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه في استنهاض عزم صاحب فاس السلطان المريني لنصرة الأندلس ، ما نصّه : المقام الذي يؤثر حظ الله إذا اختلفت الحظوظ وتعددت المقاصد ، ويشرع الأدنى منه إذا تفاضلت المشارع وتمايزت

الموارد ، وتشمل عادةً حلمه وفضله الشارد ، ويسع وارفُ ظله الصادر والوارد ،
والغائب والشاهد ، ويعيد من نصر الله للإسلام العوائد ، ويسدُّ الذرائع ويدرُّ
الفوائد ، مقامُ محل أخينا الذي حسنت في الملك سيره ، وتعاضد في الفضل خبره
وخبيره ، ودلت شواهد مداركه للحقوق ، وتغمده للعقوق ، على أن الله تعالى
لا يهمله ولا يدّره ، فسلكُ فخره متسقة درره ، ووجه ملكه شادخة غرره ،
السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله رفيعاً علاؤه ، هامية
لديه مننُ الله تعالى وآلؤه ، مزدانة بكواكب السعد سماؤه ، محروسةً بعر
النصر أرجاؤه ، مكملًا من فضل الله تعالى في نصر الإسلام ، وكبّت عبدة
الأصنام ، أمله ورجاؤه ، معظم قدره الذي يحق له التعظيم ، وموقر سلطانه الذي
له الحسب الأصيل والمجد الصميم ، الداعي إلى الله تعالى باتصال سعاده حتى
ينتصف من عدو الإسلام الغريم ، ويتأاح على يد سلطانه الفتح الجسيم ، فلان ؛
سلام كريم ، طيب عميم ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي لا يُضيع أجر من أحسن عملا ، ولا يخيب لمن أخلص
الرجبة إليه أملا ، وموفي من ترك له حقه أجره المكتوب متمماً مكملًا ،
وجاعل الجنة لمن اتقاه حق تقاته نُزلاً ، ملك الملوك الذي جلّ وعلا ، وجبار
الجبابة الذي لا يجِدُون عن قدره محيصاً ولا من دونه مؤثلاً ، والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي أنزل الله تعالى عليه الكتاب مُفصّلاً ،
وأوضح طريق الرشد وكان مُخفلاً ، وفتح باب السعادة ولولاه كان مُقفلًا ،
والرضى عن آله وأصحابه ، وعترته وأحزابه ، الذين ساهموا فيما مرّ وما حلّا ،
وخلّفوه من بعد بالسير التي راقت مجتلى ، ورفعوا عماد دينه فاستقام لا
يعرف ميلاً ، وكانوا في الحلم والعمو مثلاً ، والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر
الذي يلقى نصّه صريحاً لا متأولاً ، والصنع الذي يبهر حالاً ومستقبلاً ، والعز
الذي يرسو جبلاً ، والسعد الذي لا يبلغ أمداً ولا أجلاً ، فإنّا كتبناه إليكم
أصحب الله تعالى ركابكم حليف التوفيق حلاً ومُرتحلاً ، وعرفكم عوارف

اليمن الذي يثير جدلاً ، ويدعو وافد الفتح المبين فيرد^١ مستعجلاً ، من حمراء
غَرَناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من التشيع
لمقامكم حرس الله تعالى سلطانه ، ومَهَّد أوطانه ، إلا الخير الذي نسأل بعده
تحسين العُقْبِي ، وتوالي عادة الرحمي ، والحمد لله على التي هي أركي ، وسدل
جناح الستر الأضفى ، وصلة اللطائف التي هي أكفل وأكفى ، وأبرُّ وأوفى ،
ومقامكم عندنا العُدَّة التي بها نصول ونُرْهَب ، والعمدة التي نُطِيل في ذكرها
ونُسْهِب ، وقد أوفدنا عليكم كل ما زاد لدينا ، أو فتح الله تعالى به علينا ،
ونحن مهما شد المَخْتَق بكم نستنصر ، أو تراخى ففى ودكم نستبصر ، أو فتح
الله تعالى فأبوابكم نهي ونبشر ، وقررنا عندكم أن العدو في هذه الأيام توقف
عن بلاد المسلمين فلم تصل منه إليها سرية ، ولا بطشت له يد جريّة ، ولا
افترعت من تلقائه ثنية ، ولا ندري ألمكيدة تُدبّر ، أم آراء تُنفض بحول الله
وتُتَبَّر ، أو لشاغل في الباطن لا يظهر ، وبعد ذلك وردت على بابنا من بعض
كبارهم ، وزعماء أقطارهم ، مخاطبات يندبون فيها إلى جنوحها للسلم في سبيل
النصح ، لأياد سلفت مينا لهم قررها ، ووسائل ذكرها ، فلم يخف عنا
أنه أمر دُبّر بليّيل ، وخبية تحت ذيل ، فظهر لنا أن نَسْبُر الغور ، ونستفسر
الأمر ، فوجهنا إليه - على عادتنا مع سلفه - لنعتبر ما لديه ، وننظر إلى بواطن
أمره ، ونبحث عن زيّد قومه وعمّره ، فتأتى ذلك وجرّ مفاوضة في الصلح
أعدنا^٢ لأجلها الرسالة ، واستشعرنا البسالة ، ووازنّا الأحوال واختبرنا ،
واعترزنا في الشروط ما قدّرنا ، ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل
بها الأقوات المهمة للانتساف ، وتسكن^٣ ما ساء البلاد المسلمة من هذا الإرجاف ،

١ ق ص : ويرد .

٢ ق : أعدنا .

٣ ص : وتسكين .

ونفرغ^١ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف ، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته ، حتى يُظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته ، ولم نجعل سبب الاعتزاز فيما أدرنا ، وشموخ الأنف فيما أصدرنا ، إلا ما أشعنا من عزمكم على نُصرة الإسلام ، وارتقَابِ حقوق الأعلام ، والخفوف إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن الأرض حميَّةٌ لله تعالى قد اهتزت ، والنفرة^٢ قد غلبت النفوس واستفزت ، واستظهرنا بكتبكم التي تضمنت ضرب المواعد ، وشمرت عن السواعد ، وأن الخيل قد أطلقت إلى الجهاد في سبيل الله الأعينة ، والثنايا سدتها بروق الأسنة ، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون ، والأموال قد سمح بها المسلمون ، وهذه الأمور التي تمشت بقربها أو بعيدها أحوال الإسلام ، والأمانى المعدة لترجية الأيام ، ثم اتصل بنا الخبر الكارث بما كان من حور العزائم المؤمنة بعد كثورها ، وتسويق مواعد النصرة بعد استشعار قورها ، وأن الحركة مُعمّاة إلى مراکش الجهة التي في يديكم زمامها ، وإليكم وإن تراخى الطول ترجع أحكامها ، والقطر الذي لا يفوتكم مع الغفلة ، ولا يعجزكم عن الصولة ، ولا يطلبكم إن تركتموه ، ولا يمنعكم إن طرقتموه وعركتموه ، فسُقِط في الأيدي الممدودة ، واختلفت المواعد المحدودة ، وخسئت الأبصار المرتقبة ، ورجفت المعازلُ الأشبية ، وساءت الظنون ، وذرقت العيون ، وأكذب الفضلاء الخبر ، ونفوا أن يعتبر ، وقالوا : هذا لا يمكنُ حيث الدين الحنيف ، والملك المنيف ، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم ، وحمّل النصيحة أعناقهم ، هذا المفترض الذي يبعد ، والقائم الذي يقعد ، يآباه الله تعالى والإسلام ، وتآباه العلماء والأعلام ، وتآباه المآذن والمنابر ، وتآباه الهمم والأكابر ، فبادرنا نستطلع طلع هذا النبيل الذي إن كان باطلاً فهو الظن ، ولله المن ، وإن كان خلافه لرأي ترجح ، وتنفق بقرب الملك وتبجح ، فنحن نوفد كل من

١ ق : ونفرع .

٢ ص : والنمرة .

يقدم إلى الله تعالى بهذا القطر في شفاعة ، ويمد إليه كف ضرّاعة ، ومن يُوسمُ
بصلاحٍ وعبادة ، ويقصد في الدين بثّ^١ إفادة ، يتطارحون عليكم في نقض
ما أبرم ، ونسخ ما أحكم ، فإنّكم تجنون به على من استنصركم عكسَ ما
قصد ، وتحلّون عليه ما عقّد ، وهب العذر يُقبل في عدم الإعانة ، وضرورة
الاستعانة والاستكانة ، أيّ عذر يُقبل في الاطرّاح ، والإعراض الصّراح ؟
كأن الدين غير واحد^٢ ، كأن هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد ، كأن ذمام
الإسلام غير جامع ، كأن الله غير راءٍ ولا سامع ، فنحن نسألکم بالله الذي
تساءلون به والأرحام ، ونأنف لكم^٣ من هذا الإحجام ، ونتطرح عليكم
أن تركوا حظكم في أهل تلك الجهة حتى يحكم الله بيننا وبين العدو الذي يتكالبُ
علينا بإدباركم ، بعدما تضاعل لاستنفاركم ، ولا نكلفكم غير اقتراب داركم ،
وما سامكم المسلمون بها شطّطاً ، وما حملوكم إلاّ قصداً وسطاً ، وما ذهبتم
إليه لا يفوت ، ولا يبعد وقد تجاوزت البيوت ، إنّما الفاتت ما وراءكم ، من
حديث تأنف من سماعه أوداًؤكم ، ودين يشمت به أعداؤكم ، فأسعفوا
بالشفاعة فيمن بتلك الجهة المراكشية قصدنا ، وحاشا إحسانكم أن يرضى فيه
ردّنا ، وأنتم بعدُ بالخيار فيما يجريه الله على يديكم من قدره ، أو يلهمكم إليه
من نصّره ، وجوابكم مرتقب بما يليق بكم ، ويحمل بحسبكم ، والله سبحانه
يصل سعدكم ، ويجرس مجدكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى
وبركاته .

[٣ - رسالة على لسان يوسف بن نصر إلى سلطان فاس]

ومن إنشاء لسان الدين أيضاً في مخاطبة سلطان فاس والمغرب على لسان

١ ص : بيث .

٢ كأن . . . واحد : سقطت من ص .

٣ لكم : سقطت من ق .

سلطان غرناطة فيما يقرب من الأنحاء السابقة ، ما نصّه :

المقامُ الذي أقمارُ سعدِهِ في انتظامِ واتِّساقِ ، وحيادُ عزّه إلى الغاية القصوى ذاتُ استباقِ ، والقلوبُ على حبه ذاتُ اتفاقِ ، وعنايةُ الله تعالى عليه مديدة الرِّوَاقِ ، وأياديه الجحمةُ في الأعناقِ ، ألزمُ من الأطواقِ ، وأحاديثُ مجده سَمَرَ النوادي وحديثُ الرفاقِ ، مقامُ محلِّ أبينَا الذي شأنُ قلوبنا الاهتمامُ بشانه ، وأعظمُ مطلوبنا من الله تعالى سعادةُ سلطانه ، السلطانُ الكذا ابنُ السلطانِ الكذا ابنُ السلطانِ الكذا ، أبواه الله تعالى والصنائعُ الإلهيةُ تحطُ ببابه ، والألطفُ الخفيةُ تُعرِّسُ في جنبه ، والنصرُ العزيزُ يحفُّ بركابه ، وأسبابُ التوفيقِ متصلةُ بأسبابه ، والقلوبُ الشجيةُ لفراقه مسرورةُ بليابه ، معظمُ سلطانه الذي له الحقوقُ المحتومةُ ، والفواضلُ المشهورةُ المعلومةُ ، والمكارمُ المسطورةُ المرسومةُ ، والمفاخرُ المنسوقةُ المنظومةُ ، الداعيُ إلى الله تعالى في وقايةِ ذاته المعصومةُ ، وحفظها على هذه الأمةِ المرحومةِ ، الأميرُ عبدُ الله يوسفُ ابنُ أميرِ المسلمين أبي الوليدِ إسماعيلِ ابنِ فرجِ بنِ نصرٍ : سلامُ كريمٍ ، طيبُ برِّ عميمٍ ، كما سَطَعَتْ في غَيْهَبِ الشدةِ أنوارُ الفرجِ ، وهبَّتْ نواصمُ أُلطافِ الله عاطرةُ الأرجِ ، يخصُّ مقامكم الأعلى ، ورحمةُ الله وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله جالي الظُّلَمِ بعدَ اعتكارها ، ومُقِيلِ الأيامِ من عِثارها ، ومُزَيِّنِ سماءِ الملكِ بشموسها المحتجبةِ وأقمارها ، ومريحِ القلوبِ من وَحْشَةِ أفكارها ، ومنشئِ سحابِ الرحمةِ على هذه الأمةِ بعدَ افتقارها ، وشدةِ اضطرابها واضطرابها ، ومُتَدَارِكِها باللطفِ الكفيلِ بتمهيدِ أوطانها وتيسيرِ أوطارها ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا ومولانا محمدِ رسوله صفوةِ النبوةِ ومُخْتَارِها ، ولُبَّابِ مجدها الساميِ ونِجَارِها^١ ، نبيِّ الملاحمِ وخائضِ تيّارها ، ومُدْهِبِ رسومِ الفتنِ ومطفئِ نارها ، الذي لم تَرُعْهُ الشدائدُ باضطرابِ بحارها ، حتى بلغت

١ ص : وفخارها .

كلمة الله ما شاءت من سطوع أنوارها ، ووضوح آثارها ، والرضى عن آله وأصحابه الذين تمسكوا بعهدده على إحلاء الحوادث وإمرارها ، وباعوا نفوسهم في إعلاء دَعْوَتِهِ الخفيفة وإظهارها ، والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال السعادة واستمرارها ، وانسحاب العناية الإلهية وإسدال أستارها ، حتى تقف الأيام ببابكم موقف اعتذارها ، وتعرض على مثابرتكم ذنوبها راغبة في اغتفارها ، فإننا كتبنا إليكم - كتب الله تعالى لكم أوفى ما كتب لصالحى الملوك من مواهب إسعاده ، وعرفكم عوارف الآلاء في إصدار أمركم الرفيع وإيراده ، وأجرى الفلك الدوار بحكم مراده ، وجعل العاقبة الحسنى كما وعد به في محكم كتابه المبين للصالحين من عباده - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، وليس بفضل الله الذي عليه في الشدائد الاعتماد ، وإلى كَنَفِ فضله الاستناد ، ثم ببركة جاه نبينا الذي وضع بهديته الرشد ، إلا الصنائع التي تُشام بَوَاقِ اللطف من خلالها ، وتخبرُ سيماما بطلوع السعود واستقبالها ، وتدُلّ مخايل يمنها على حسن مآلها ، لله الحمد على نعمه التي نرغب في كمالها ، ونستدرُّ عذب زلالها ، وعندنا من الاستبشار باتساق أمركم وانتظامه ، والسرور بسعادة أيامه ، والدعاء إلى الله تعالى في إظهاره وإتمامه ، ما لا تفي العبارة بأحكامه ، ولا تتعاطى^١ حَصْرَ أحكامه ، وإلى هذا أيد الله تعالى أمركم وعلاه^٢ ، وصان سلطانكم وتولاه ، فقد علم الحاضر والغائب ، وخلص الخلوص الذي لا تغيره الشوائب ، ما عندنا من الحب الذي وضحت منه المذاهب ، وأنا لما اتصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التي صحبت مقامكم فيها العناية من الله والعصمة ، وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة ، لا يستقر بقلوبنا القَرَار ، ولا تتأتى بأوطاننا الأوطار ، تشوقاً لما تُتِيحُه^٣ لكم الأقدار ، ويبرزه من سعادتكم الليل والنهار ،

١ ص ق : يتعاطى .

٢ ق : وعلاكم .

٣ ص ق : تشوقاً لما تنتجه .

ورجاؤنا في استئناف سعادتكم يشد على الأوقات ويقوّي ، علماً بأن العاقبة للتقوى ، وفي هذه الأيام عميت الأنباء ، وتكالتت في البر والبحر الأعداء ، واختلفت الفصولُ والأهواء ، وعاشت الورّادُ الأنواء ، وعلى ذلك من فضل الله الرجاء ، ولو كنا نجد للاتصال بكم سبباً ، أو نلفي لإعانتكم مذهباً ، لما شغلنا البعد الذي بيننا اعتراض ، والعدو بساحتنا في هذه الأيام ربّص ، وكان خديمكم الذي رفع من الوفاء رايةً خافقة ، واقتنى منه في سوق الكساد بضاعة نافقة ، الشيخ الأجلُّ الأوفى ، الأودُّ الأخلص الأصفى ، أبو محمد ابن أجبانا^١ سنّى الله مأموله ، وبلغه من سعادة أمركم سُؤلَه ، وقد ورد على بابنا ، وتحيز إلى اللحاق بجنابنا ، ليتيسر له من جهتنا القدوم ، ويتأتى له بإعانتنا الغرضُ المرُوم ، فبينما نحن ننظر في تميم غرضه ، وإعانته على الوفاء الذي قام بمفترضه ، إذ اتصل بنا خبرُ قرقورتين من الأجبان التي استعنتم بها على الحركة ، والعزيمة^٢ المقرنة بالبركة ، حطت لإحداهما بمرسى المنكبِ والأخرى بمرسى المريّة ، في كنف العناية الإلهية ، فتلقينا^٣ من الواصلين فيها الأنباء المحققة بعد التباسها ، والأخبار التي يُغني نصّها عن قياسها ، وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر ، وحركتكم المعروفة باليمن والظفر ، وأنكم استخرتم الله تعالى في اللحاق بالأوطان التي يؤمنُّ قلوبكم خائفها ، ويؤلف طوائفها ، ويسكن راجفها ، ويصلح أحوالها ، ويسكن أهوالها ، وأنكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور ، والسعد الموفور ، واليمن الرائق السفور ، والأسطول المنصور ، فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها ، ونهوض طيور الرجاء من وُكُونها ، واستبشار الأمة المحمدية منكم بقرّة عيونها ، وتحقق ظنونها ، وارتياح البلاد إلى دعوتكم التي ألبستها ملابس العدل والإحسان ، وقللتها قلائد السيّر الحسان ، وما منها إلا من باح بما يخفيه من وجده ، وجهر

١ ص : أجبانا .

٢ ق ص : والعزيمة .

٣ ص : تلقينا .

بشكر الله تعالى وحمده ، وابتهل إليه في تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم
 قَصْدِهِ ، واستئناس نور سعده ، وكم مظل الانتظار بديون آمالها ، والمطاوله من
 اعتلالها . وأما نحن فلا تسألوا عمن استشعر ذنوب حبيبه ، بعد طول مغيبه ، إنما
 هو صدر راجعه فؤاده ، وطَرْفُ ألفه رقاده ، وفكر ساعده مراده ، فلما
 بلغنا هذا الخبر بادرنا إلى إنجاز ما بذلنا لخديمكم المذكور من الوعد ، واغتمنا
 ميقات هذا السعد ، ليصل سَبَبُهُ بأسبابكم ، ويسرع لحاقه بجنابكم ، فعنده
 خِدْمٌ نرجو أن ييسر الله تعالى أسبابها ، ويفتح بניתكم الصالحة أبوابها ، وقد
 شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذي ندين له بالتشيع الكريم الوداد ، ونصل له
 على بعد المزار ونزوح الأقطار سَبَبَ الاعتداد ، ما يغني عن القلم والمداد ، وقد
 ألقينا إليه من ذلك كله ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد ، وكتبنا إلى من بالسواحل
 من ولاتنا نحدُّ لهم ما يكون عليه عملهم في بئرٍ من يرد عليهم من جهة أبوتكم
 الكريمة ، ذات الحقوق العظيمة والأأيادي الحديثة والقديمة ، وهم يعملون في
 ذلك بحسب المراد ، وعلى شأكله جميل الاعتقاد ، ويعلم الله تعالى أننا لو لم تعق
 العوائق الكبيرة ، والموانع الكثيرة ، والأعداء الذين دُهَيْتْ بهم في الوقت
 هذه الجزيرة ، ما قدّمنا عملاً على اللحاق بكم ، والاتصال بسبيكم ، حتى
 نوفي لأبوتكم الكريمة حقّها ، ونوضح من المسرة طرقها ، لكن الأعداء واضحة
 وضوح المثل السائر ، والله العالم بالسرائر ، وإلى الله تعالى نبتهل في أن يوضح
 لكم من التيسير طريقاً ، ويجعل السعد لكم مصاحباً ورفيقاً ، ولا يعدمكم عناية
 منه وتوفيقاً ، ويتم سرورنا عن قريب بتعرف أنبائكم السارة ، وسعودكم
 الدارّة ، فذلك منه سبحانه غايةُ آمالنا ، وفيه إعمال ضراعتنا وسؤالنا . هذا
 ما عندنا بادرنا لإعلامكم به أسرع البدار ، والله تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار ،
 بسعادة ملككم السامي المقدر ، وييسر ما له من الأوطار ، ويصل سعدكم ،

ويحرس مجدكم ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ انتهى .
وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور ملوك الأندلس
وسلاطين فاس كثيراً ما يدسُّ لأقارب الملوك القيامَ على صاحب الأمر ، ويزين
له الثورة ، ويعيدهُ بالإمداد بالمال والعدة ، وقصدُه بذلك كله توهين المسلمين ،
وإفساد تدبيرهم ، ونسخ الدول بعضها ببعض ، لما له في ذلك من المصلحة ، حتى
بلغ أبعده الله تعالى من أملة الغاية .

[٤ - رسالة إلى السلطان المريني في الاعتذار عن فرار أبي الفضل المريني من غرناطة]

ومن إنشاء لسان الدين ابن الخطيب ، رحمه الله تعالى ، عن سلطان الأندلس
إلى سلطان فاس المريني ، يعتذر عن فرار الأمير أبي الفضل المريني الذي كان
مُعْتَقَلًا بغرناطة ، فتحيل الطاغية في أمره حتى خرج طالباً للملك ، ما نصّه :
المقام الذي شهد الليلُ والنهارُ بأصالة سعادته ، وجرى الفلكُ الدوّارُ بحكم
إرادته ، وتعود الظفرَ بمن يناوئه فاطرد والحمد لله جريان عادته ، فوليه متحقق
لإفادته ، وعدوه مرتقب لإبادته ، وحلّل الصنائع الإلهية تَضْفُو على أعطاف
مَجَادته ، مقامُ محلِّ أحنينا الذي سَهَمُ سعده صائب ، وأملُ مَنْ كاده خاسر
خائب ، وسير الفلكِ المدار في مرضاته دائب ، وصنائعُ الله تعالى له تصحبها
الألطف العجائب ، فسيان شاهد منه في عصمة وغائب ، السلطانُ الكذا ابن
السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله تعالى مُسَدِّد السهم ، ماضي العزم ،
تجلُّ سعوده عن تصور الوَهْم ، ولا زال مرهوبَ الحد ممثّل الرسم ، موفور
الحظ من نعمة الله تعالى عند تعدد القَسَم ، فائزاً بفلج الخصام عند لَدَد الخضم ،
معظم قدره ، وملتزم بره ، المبتهج بما يسببه الله تعالى له من إعزاز نصره ،
وإظهار أمره ، فلان : سلام كريم ، طيب برّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ،
ومتابتمكم الفضلى ، التي حازت في الفخر الأمدَ البعيد ، وفازت من التأييد
والنصر بالخط السعيد ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي فَسَّحَ لملككم الرفيع في الغز مَدَى ، وعرفه عوارف
آلائه وعوائد النصر على أعدائه يوماً وغداً ، وحرس سماء علائمه بشُهْب من
قَدَره وقضائه ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً ﴾ (الجن : ٩)
وجعل نَجح أعماله وحُسن مآله قياساً مطَّرداً ، فربَّ مريدٍ ضره ضره نفسه
وهادٍ إليه أهدي وما هدى ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه
ورسوله الذي ملاً الكون نوراً وهدي ، وأحيا مراسم الحق وقد صارت
طرائق قِدادا ، أعلى الأنام يدا ، وأشرفهم مَحْتِدا ، الذي بجاهه نلبس
أثواب السعادة جُدداً ، ونظفر بالنعيم الذي لا ينقطع أبداً ، والرضى عن آله
وأصحابه الذين رفعوا لسماء سنَّته عمداً ، وأوضحوا من سبيل اتِّباعه مقصداً ،
وتقبلوا شيمته الطاهرة رُكعاً وسُجَّداً ، سيوفاً على من اعتدى ، ونجوماً لمن
اهتدى ، حتى علت فروغُ ملته صُعُداً ، وأصبح بناؤها مديداً مخلداً ، والدعاء
لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يتوالى مثنى وموَّحداً ، كما جمع لملككم ما تفرق
من الألقاب ، على توالي الأحقاب ، فجعل سيفكم سَفاحاً وعلمكم منصوراً
ورأيكم رشيداً وعزمكم مؤيدا ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم صنعاً
يشرح للإسلام خلكدا ، ونصراً يقيم للدين الحنيفِ أودا ، وعزماً يملأ أفئدة
الكفر كندا ، وجعلكم ممَّن هيا له من أمره رَشداً ، ويسرَّ لكم العاقبة الحسنى
كما وعد في كتابه العزيز والله أصدق مَوْعِداً - من حَمراء غرناطة حرسها
الله ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا استطلاع سعودكم في آفاق العناية ، واعتقاد
جميل صنع الله في البداية والنهاية ، والعلم بأن ملككم تحدى من الظهور على
أعدائه بأية ، وأجرى جياذ السعد في ميدان لا يحد بغاية ، وخرق حجاب
المعتاد بما لم يظهر إلا لأصحاب الكرامة والولاية ، ونحن على ما علمتم من
السرور بما يهز لملككم المنصور عِطفاً ، ويُسَدِّل عليه من العصمة سجفاً ،
نقاسمه الارتياح لمواقع نعم الله تعالى نصفاً ونصفاً ، ونعقد بين أنباء مسرته
وبين الشكر لله حِلِفاً ، ونَعُدُّ التشييع له ممَّا يُقربنا إلى الله زُلْفى ، ونؤمل

من إمداده وترتّب من جهاده وقتاً يُكفل به الدين ويكفي ، وتروى غلّ
النفوس وتشفى .

وإلى هذا وصل الله سعدكم ، ووالى نصركم وعضدكم ، فإنّا من لدنّ
صدَرَ عن أحيكم أبي الفضل ما صدر من الانقياد لحدّ الآمال ، والاعتّار
بموارد الآل ، وقال رأيه في اقتحام الأهوال ، وتورط في هفوة حار فيها حيرة
أهل الكلام في الأحوال ، وناصب من أمركم السعيد جبلاً قضى الله له بالاستقرار
والاستقبال ، ومن ذا يزاحم الأطواد ويزحزح الجبال ؟ وأخلف الظن مينا
في وفائه ، وأضمر عملاً استأثر عنا بإخفائه ، واستعان من عدو الدين بمُعِين
قلماً يبري لمن استنصر به زئد ، ولا خفّق لمن تولّاه بالنصر بنُد ، وإن الطاغية
أعانه وأنجده ورأى أنّه سهم على المسلمين سدّده ، وعَضِبَ للفتنة جرّده ،
فسخر له الفلّك ، وأمل أن يستخدمه بسبب ذلك الملك ، فأورده الهلك والظلم
الحلك ، علمنا أن طيرفَ سعاده كاب ، وسحاب آماله غير ذات انسكاب ،
وقدم غيرته لم يستقر من السداد في غرّز ركاب ، فإن نجاح أعمال النفوس مرتبط
بنيّاتها ، وغايات الأمور تظهر في بداياتها ، وعوائد الله تعالى فيمن نازع قدرته
لا تُجهل ، ومنّ غالب أمر الله خاب منه المعوّل .

فبينما نحن نرتقب خسارة تلك الصفقة المعقودة ، وخمود تلك الشعلة الموقودة ،
وصلنا كتابكم يشرح الصدور ويشرح الأخبار ، ويُهَيِّد طرف المسرات على
أكف الاستبشار ، ويعرب بلسان حال المسارعة والابتدار ، عن الود الواضح
ووضوح النهار ، والتحقّق بملوصنا الذي يعلمه عالم الأسرار ، فأعاد في الإفادة
وأبدى ، وأسدى من الفضائل الجلائل ما أسدى ، فعلم منه مال من رام
أن يقدح زند الشتات من بعد الالتام ، ويثير عجاجة المنازعة من بعد ركود
القتام ، هيهات تلك قلادة الله تعالى التي ما كان يتركها بغير نظام ، ولم يدر

أنكم نصبتُم له من الحزم حِيالة لا يُفْلِتُهَا قَنِيصٌ . وسَدَدْتُم له من السعد سهماً ما له عنه من مَحِيصٍ ، بما كان من إرسال جوارح الأسطول السعيد في مَطَارِهِ .
 حائلاً بينه وبين أوطاره ^١ ، فما كان إلا التسمية والإرسال ، ثم الإمساك والقتال .
 ثم الاقتيات والاستعمال ، فإيا له من زجر استنطق لسان الوجود فجذله ^٢ ، واستنصر البحر فخذله ، وصارع القدر فَجذله ^٣ لما جدَّ له . وإن خدامكم استولوا على ما كان فيه من مؤمل ^٤ غاية بعيدة . ومنتسب إلى نصبة غير سعيدة ، وشانئ غمرته من الكفار . خدام الماء وأولياء النار ، تحكمت فيهم أطراف العوالي وصدور الشفار ، وتحصل منهم من تحطاه الحِمَام في قبضة الإسار ، فعجبنا من تيسير هذا المرام ، وإخماد الله لهذا الضَّرام ، وقلنا : تكيف لا يحصل في الأوهام ، وتسديد لا تستطيع إصابته السهام ، كلما قذح الخلاف زناداً أطفأ سعدُكم شُعْلته . أو أظهر الشتات أماً أبرأ بمن طائرَكم علته ، ما ذاك إلا لنية صدقت معاملتها في جنب الله تعالى وصحت ، واسترسلت بركتها وسحت ، وجهاد نذرتموه إذا فرغت شواغلكم وتمت ، واهتمام بالإسلام يكفيه الخطوب التي أهمت ، فنحن نهنيكم بمنح الله ومنه ، ونسأله أن يلبسكم من عنايته أوقى جُننه ، فأملنا أن تطرُد آمالكم . وتنجح في مرضاة الله أعمالكم ، فمقامكم هو العمدة التي يُدْفَعُ العدوُّ بسلاحها ، وتبليج ظلمات صفاها ، وكيف لا نهنيكم بصنع على جهتنا يعود ، وبآفاقنا تطلع منه السعود ، فتيقنوا ما عندنا من الاعتقاد الذي رسومه قد استقلت واكتفت ، ودَيْمُهُ بساحة الود قد وكفت ، والله عز وجل يجعل لكم الفتوح عادة ، ولا يعدمكم عناية وسعادة ، وهو سبحانه يعلي مقامكم ، وينصر أعلامكم ، ويهيئ الإسلام أيامكم ، والسلام الكريم

١ ص : أوكاره .

٢ ق : فحذله .

٣ ق : فخذله .

٤ ص : مذموماً .

يخصكم ، ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .
وكان سلطان الأندلس في الأزمان المتأخرة كثيراً ما يشتم أَرَجَ الفَرَجَ في
سِلْمِ الكفار ومهادنتهم ، حيث لم يقدر في الغالب على مقاومتهم ، ولذلك لما
قُتِلَ السلطان أبو الحجاج الذي كان لسان الدين كاتبه ووزيره ، وقام بالأمر
بعده ابنه محمد الغني بالله الذي ألقى مقاليد لسان الدين - أكد أمر السلم ،
وانتظر ما يبرمه القضاء الجزم ، والقدر الحتم .

[٥ - رسالة على لسان الغني إلى أبي عنان]

ومن إنشاء لسان الدين في ذلك على لسان الغني مخاطباً لسلطان فاس والمغرب
أبي عنان ما صورته :

المقام الذي يغني عن كل مفقود بوجوده ، ويهز إلى جميل العوائد أعطاف
بأسه وجوده ، ونستضيء عند إظلام الخطوب بنور سعوده ، ونرث من الاعتماد
عليه أسنى ذُخْرٍ يرثه الولد عن آبائه وجدوده ، مقام محل أبينا الذي رَعِيَ الأذمة
شانه ، وصلة الرعي سجية انفرد بها سلطانه ، ومواعيد النصر ينجزها زمانه ،
والقول والفعل في ذات الله تعالى تكفلت بهما يده الكريمة ولسانه ، وتطابق
فيهما إسراره وإعلانه ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ،
أبقاه الله تعالى محروساً من غير الأيام جنابُه ، موصولةً بالوقاية الإلهية أسبابه ،
مسدولاً على ذاته الكريمة ستر الله تعالى وحجابه ، مصروفاً عنه من صرف
القدر ما يعجز عن رده بوابُه ، ولا زال ملجأ تنفق لديه الوسائل التي تدخرها
لأولادها أولياؤه وأحبابه ، ويسطر في صحف الفخر ثوابه ، وتشتمل على مكارم
الدين والدنيا أثوابه ، وتتكفل بنصر الإسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيام
كتابه وكتابه ، معظمٌ ما عظمٌ من حقه السائر من إجلاله وشكر خلاله على
لاحب طرفه ، المستضيء في ظلمة الخطب بنور أفقه ، الأمير عبدُ الله محمد ابن أمير

المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر : سلام كريم ،
 طيب برّ عميم ، يخص مقامكم الأعلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .
 أما بعد حمد الله الذي لا رادّ لأمره ولا معارض لفعله ، مصرف الأمر
 بحكمته وقدرته وعدله ، الملك الحق الذي بيده مِلاك الأمر كلّهُ ، مقدر الآجال
 والأعمار فلا يتأخّر شيء عن ميقاته ولا يسرّحُ عن محله ، جاعل الدنيا مناخ
 قُلْعَة لا يغتبط العاقل بمائه ولا بظله ، وسبيل رحلة فما أكتب ظعنه من حله ،
 والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صَفْوَة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رُسُلِهِ ،
 الذي نعتصم بسببه الأقوى ونتمسك بحبّله ، ونمد يد الافتقار إلى فضله ، ونجاهد
 في سبيله مَنْ كذب به أو حاد عن سُبُلِهِ ، ونصل إليه ابتغاء مرضاته ومن أجله ،
 والرضى عن آله وأحزابه وأنصاره وأهله ، المستولين من ميدان الكمال على خصله ،
 والدعاء لمقامكم الأعلى بعز نصره ومضاء فصله ، فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله
 تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوبُ حماها ، وعصمة ترجع عنها سهام النوائب
 كلّما فوقها الدهر ورماها ، وعناية لا تغير الحوادث اسمها ولا مُسَمّاها ،
 وعزّاً يزاحم أجرام الكواكب منتماها - من حمراء غَرْنَاطة حرسها الله تعالى
 ونعمُ الله سبحانه تتواتر لدينا دفعا ونفعا ، وألطفهُ نعرفها وترّاً وشقفاً ،
 ومقامكم الأبوي هو المستند الأقوى ، والمورد الذي تَرِدُهُ آمال الإسلام
 فَتَرَوِي ، وتهوي إليه أفئدتهم فتجد ما تهوى ، ومثاببتكم العُدّة التي
 تأسست مبانيها على البر والتقوى .

وإلى هذا وصل الله تعالى سعدكم ، وأبقى مجدكم ، فإننا لما نعلم من مساهمة
 مجدكم التي تقتضيها كرام الطباع وطباع الكرم ، وتدعو إليها ذمم الرعي
 ورعيّ الذمم ، نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع الله تعالى عن ارتقائه ، وإمتاع
 المسلمين ببقائه ، بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه الله تعالى بالشهادة التي ألبسه
 حلتها ، والشهادة التي في أعماله الزكية كتبها ، والدرجة العالية التي حتمها له
 وأوجبها ، وبما تصير إلينا من أمره ، وضم بنا من نشره ، وسدّل على مَنْ

خلفه من ستره ، وإنها لعبرة لمن ألقى السمع ، وموعظة تهب الجمع وترسل
الدمع ، وحادثه أجمل الله سبحانه فيها الدفع ، وشرح مجملها وإن أخرج اللسان
هولها ، وأسلم العبارة قوتها وحولتها ، أنه رضي الله تعالى عنه لما برز لإقامة
سنّة هذا العيد ، مستشعراً شعار كلمة التوحيد ، مظهراً سِمَةَ الخضوع للمولى
الذي تَضَرَّع بين يديه رقابُ العبيد ، آمناً بين قومه وأهله ، متسربلاً في حُلُل
نعم الله تعالى وفضله ، قير العين باكتمال عزّه واجتماع شمله ، قد احتس
بأقصى استطاعته ، واستظهر بخلُصان طاعته ، والأجلُ المكتوبُ قد حضر ،
والإرادة الإلهية قد أنفذت القضاء والقدر ، وسجد بعد الركعة الثانية من صلّاته ،
أتاه أمرُ الله لميقاته ، على حين الشبابُ غضُّ جلابُبه ، والسلاحُ زاخراً عبابُبه ،
والدين بهذا القطر قد أئِنع بالأمن جنابه ، وأمرٌ من يقول للشيء كن فيكون
قد بلغ كتابه ، ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب ، وخلصت
الرغبات إلى فضله المطلوب ، إلا شقيّ قبضه الله لسعادته غير معروف ولا
منسوب ، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب ، تخلّل الصفوف المعقودة ،
وتجاوز الأبواب المسدودة ، وخاض الجموع المشهودة ، والأمم المحشورة
إلى طاعة الله المحشودة ، لا تدل العين عليه شارة ولا بيزة ، ولا تحمل على
الحذر من مثله أنفة ولا عزة ، وإنما هو خبيث مرور ، وكلب عقور ،
وحية سمها وحيّ محذور ، وآلة مُصَرِّفة لِيَنفُذَ بها قدر مقلور ، فلما طعنه
وأثبته ، وأعلق به شَرَكَ الحَيْنِ فما أفلته ، قبض عليه من الخِصان الأولياء
من خبِر ضميره ، وأحكم تقريره ، فلم يُجب عند الاستفهام جواباً يعقل ،
ولا عثر منه على شيء عنه يُنقل ، لطفاً من الله أفاد براءة الذمم ، وتعاورته
للحَيْنِ أيدي التمزيق ، وأتبع شلوه بالتحريق ، واحتمل مولانا الوالد العزيز رحمه
الله تعالى إلى القصر وبه ذمّاء لم يلبث بعد الفتحة العُمريّة إلا أيسر من اليسير ،
وتخلف الملك ينظر من الطُرف الحسير ، وينهض بالجنّاح الكسير ، وقد عاد جمع
السلامة إلى التفسير ، إلا أن الله تعالى تدارك هذا القطر الغريب بأن أقامنا مقامه

لوقته وحِينِهِ ، ورفع بناء عماد ملكه ولمَّ شَعَثَ دِينِهِ ، وكان جميع من حضر
المشهد من شريف الناس ومشروفهم ، وأعلامهم ولقيفهم ، قد جمعه ذلك
الميقات ، وحضر الأولياء الثقات ، فلم تختلف علينا كلمة ، ولا شذت منهم
عن بيعتنا نفس مسلمة ، ولا أخيف بري ، ولا حُذِر جري ، ولا فُرِي فَرِي ،
ولا وقع لبس ، ولا استوحشت نفس ، ولا نَبَّضَ للفتنة عرق ، ولا أُغفل
للدين حق ، فاستند النقل إلى نصه ، ولم يعدم من فقيدنا غيرُ شخصه ، وبادرنا
إلى مخاطبة البلاد نمهدا ونسكَّنها ، ونقرر الطاعة في النفوس ونمكَّنها ، وأمرنا
الناسَ بها بكف الأيدي ، ورَفَعِ التعدي ، والعمل من حفظ شروط المسألة
المعقودة بما يُجدي ، ومَن شَرِهَ منهم للفرار ، عاجلناه بالإنكار ، وصرنا على
النصارى ما أوصاه مصحبا بالاعتذار ، وخاطبنا صاحب قَشْتَالَةَ نرى ما عنده في
صلة السلم إلى أمدها من الأخبار ، واتصلت بنا البيعات من جميع الأقطار ، وعَقَى
على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار ، واستَبَقُوا تطير
بهم أجنحةُ الابتدار ، جعلنا الله تعالى ممَّن قابل الحوادث بالاعتبار ، وكان
على حَدَرٍ من تصاريف الأقدار ، واختلاف الليل والنهار ، وأعاننا على إقامة
دينه في هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو الطاغي والبحر الزخَّار ، وألمنا
من شكره لما يتكفل بالمزيد من نعمه ، ولا قطع عنا عوائد كرمه .

وإن فقدنا والدنا فأنتم لنا من بعدهِ الوالد ، والذخر الذي تكرم منه العوائد ،
والحُبُّ يتوارث كما ورد في الأخبار التي صحت^٢ منها الشواهد ، ومَن أَعَدَّ
مثلكم لبنية ، فقد تيسرت من بعد الممات أمانيه ، وتأسست قواعد ملكه وتشيدت
مبانيه ، فالاعتقاد الجميل مَوْصُول ، والفروع لها في التشيع إليكم أصول ، وفي
تقرير فخركم محصول ، وأنتم رِدْء المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذي يعينهم

١ ص : للغوار .

٢ ق:ص : وضحت .

بإرفاده ، وينصرهم بإيجاده ، ويعامل الله تعالى فيها بصدق جهاده .

وعندما استقر هذا الأمر الذي تبعت المحنة فيه المنحة ، وراقت من فضل الله تعالى ولطفه فيه الصفحة ، وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصهم وأعيانهم ، وتزاحمت على رقعتها المنشور خطوط أيمانهم ، وتأصلت قواعد ألفاظها ومعانيها في قلوبهم وآذانهم ، وضمنوا الوفاء بما عاهدوا الله عليه وقد خبّر سلفنا والحمد لله وفاء ضمانهم ، بادرنا تعريف مقامكم الذي نعلم مساهمته فيما ساء وسرّ وأحلى وأمرّ ، عملاً بمقتضى الخلوص الذي ثبت واستقر ، والحب الذي ما مال يوماً ولا ازورّ ، وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الأمر المحذور ، وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادي السفور ، وإن كنا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر إعلامكم بالأمر ، إلاّ أنّه أمرٌ له ما بعده ، وحادث يأخذ حده ، ونبعث إلى بابكم من شاهد الحال ما بين وقوعها إلى استقرارها رأي العيان ، وتولى تسليد الأمور بأعماله الكريمة ومقاصده الحسان ، ليكون أبلغ في البر وأشرح للصدر وأوعب للبيان ، فوجهنا إليكم وزير أمرنا ، وكاتب سرنا ، الكذا أبا فلان ، وألقينا إليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الأسنى ، واستنادنا من التشيع إليه إلى الركن الوثيق المبني ، ما نرجو أن يكون له فيه المقام الأعنى ، والثمرة العذبة المجنى ، فلاهتمامه بهذا الغرض الأكيد الذي هو أساس بنائنا ، وقامع أعدائنا ، آثرنا توجيهه على توفر الاحتياج إليه ، ومدار الحال عليه ، والمرغوب من أبوتكم المؤملة أن يتلقاه قبولها بما يليق بالملك العالي ، والخلافة السامية المعالي ، والله عز وجل يديم أيامكم لصلة الفضل المتوالي ، ويحفظ مجدكم من غير الأيام والليالي ، وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويوالي نصركم وعضدكم ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

١ ق : فضله .

وقوله في هذه الرسالة « فوجهنا إليكم وزير أمرنا - إلى آخره » هو لسان الدين رحمه الله تعالى ، إذ هو كان الوزير إذ ذاك والسفير في هذه القضية ، ومن صفحات هذا الكلام يتضح لك ما نال لسان الدين رحمه الله تعالى من الرياسة والجاه ونفوذ الكلمة بالأندلس وبالمغرب رحمه الله تعالى ، وقد أكرمه السلطان أبو عنان في هذه الوفادة وغيرها غاية الإكرام ، وكان المقصود الأعظم من هذه الوفادة استعانة سلطان الأندلس الغني بالله بالسلطان أبي عنان على طاغية النصارى ، كما ألعنا بذلك في الباب الثاني من القسم الثاني الذي يتعلق بلسان الدين . وكان السلطان أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن معتنياً بالأندلس غاية الاعتناء ، وخصوصاً بجبل الفتح ، حتى إنّه بلغ من اهتمامه به أن أمرَ عليه ولده أبا بكر السعيد ، وهو الذي تولى الملك بعده .

[٦ - رسالة عن الغني إلى الأمير السعيد]

ومن إنشاء لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى على لسان سلطانه ما خاطب به الأمير السعيد المذكور إذ قلّده والده جبل الفتح ، وهو :

الإمارة التي أشرق في سماء الملك شهابها ، واتصلت بأسباب العز أسبابها ، واشتملت على الفضل والطهارة أثوابها ، وأجّلت قِدَاحُ المفاخر فكان إلى جهة الله تعالى انتدابها ، إمارة محلّ أخينا الذي تأسّس على مرضاة الله تعالى أصيلُ فخره ، واتّسم بالمُرابط المجاهد على اقتبال سنه وجِدّة عمره ، وبدأ بفضل الجهاد صحيفة أجره ، وافتتح بالرباط والصلاح ديوان نبيه وأمره ، لما يَسْره من سعادة نصّبته وحباه من عز نصره ، الأمير الأجل الأعز الأرفع الأسنى الأطهر الأظهر الأمنع الأصعد الأسمى الموفق الأرضي ، محلّ أخينا العزيز علينا ، المُهداة أبناء مأمول جواره إلينا ، أبي بكر السعيد ابن محلّ والدنا الذي مقاصده للإسلام وأهله على مرضاة الله تعالى جارية ، وعزائم على نصّر الملة الحنيفة

متبارية ، السلطان الكذا أبو عنان ابن السلطان الكذا أبي الحسن ابن السلطان الكذا
أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق ، أبقاه الله تعالى سديدة آراؤه ناجحة
أعماله ، مُيسّرة أغراضه من فضل الله تعالى متممة آماله ، رَحِيماً في السعد مجالته ،
يَكْتَفُهُ من الله تعالى ومحل أئبنا غمامٌ وارفَةٌ ظلاله ، هامرٌ نواله ، حتى يرضي
الله تعالى مِصاعه بين يديه ومِصاله ، وتمضي في الأعداء أمام رايته المنصورة
نِصاله ، أخوه المسرور بقربه ، المنطوي على مضمربه ، أمير المسلمين محمد
ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نَصْر :
سلام كريم ، طيب برّ عميم ، يخص أخوتكم الفضلى ، وإمارتكم التي آثارتُ فضلها
بحول الله تُتلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله على ما كَيْفَ من ألطافه المشرقة الأنوار ، ويسّره لهذه
الأوطان بنصرته من الأوطار ، فكلّما دَجَّتْ بها شدة طلع الفرج عليها طلوع
النهار ، وكلّما اضطرب منها جانب أعاده بفضل الله تعالى مَنْ أقامه لذلك واختاره
إلى حال السكون والقَرار ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله
المصطفى المختار ، الذي أكد عليه جبريل صلوات الله عليه حقّ الجوار ، حتى
كاد يُلْحَقه بالوسائل والقُرَب الكبار ، الذي وصانا بالالتزام ، واتصال اليد
في نُصرة الإسلام ، فنحن نقابل وصاته بالبيدار ، ونجري على نهجه الواضح
الآثار ، ونرتجي باتّباعه الجمعَ بين سعادة هذه الدار وتلك الدار ، والرضى
عن آله وأصحابه ، وأنصاره وأحزابه ، أكرم الآل والأصحاب والأحزاب
والأنصار ، الذين كانوا كما أخبر الله تعالى عنهم على لسان الصادق الأخبار ،
رُحَماءَ بَيْنَهُمْ أشدّاء على الكُفّار ، والدعاء لإمارتكم السعيدة السعيدية
بالتوفيق الذي تجري به الأمورُ على حسب الاختيار ، والعز المنيع الذّمّار ،
والسّعد القويم المّدار ، والوقاية التي يأمن بها أهلها من السرار ، فإننا كتبناه إليكم
— كتب الله تعالى لكم أسنى ما كتب للأمرء الأرضيَّاء الأختيار ، ومتعكم من
بقاء والدكم بالعدة العظمى والسيرة الرحى والجلال الرفيع المقدار — من حمراء

غَرْناطة حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله صلى الله عليه وسلّم الذي أوضح برهانه إلا الألف باهرة ، وعناية من الله تعالى باطنة وظاهرة ، وبشارة بالقبول واردة وبالشكر صادرة ، والله تعالى يصل لدينا نعمه ، ويوالي فضله وكرمه .

وإلى هذا فإننا اتصل بنا في هذه الأيام ما كان من عناية والدكم محلّ أبينا أبقاه الله تعالى بهذه البلاد المستندة إلى تأميل مجده ، وإقطاعها الغاية التي لا فوقها من حسن نظره وجميل قصده ، وتعيينكم إلى المقام بجبل الفتح إبلاغاً في اجتهاده الديني وجدّه ، فقلنا : هذا خبر إن صدق مُخبره ، وتحصّل منتظره ، فهو فخر تجددت أثوابه ، واعتناء تفتحت أبوابه ، وعمل عند الله تعالى ثوابه ، فإن الأندلس - عصمها الله تعالى - وإن أنجدته عدّده وأمواله ، ونجحت في نصرها مقاصده الكريمة وأعماله ، لا تدري موقع النظر لها من نفسه ، وزيادة يومه في العناية على أمسه ، حتى يسمح لها بولده ، ويخصها بقرة عينه وفليذة كبده ، فلما ورد منه الخبر الذي راقته منه الحبير ، ووضحت من سعادته الغرر ، بإجازتكم البحر ، واختياركم في حال الشبيبة الفخر ، وصدق مخيلة الدين فيكم ، واستقراركم في الثغر الشهير الذي افتتحه سيف جدّكم واستنقذه سعد أبيكم ، سررنا بقرب المزار ، ودنوّ الدار ، وقابلنا صنع الله تعالى بالاستبشار ، ووثقنا وإن لم نزل على ثقة من عناية الله تعالى وعناية محل والدنا بهذه الأقطار ، وحمدنا الله تعالى على هذه الآلاء المشرقة ، والنعم المُغدقة ، والصنائع المتألّفة ، بادرنا نهني أختكم أولاً بما يسره الله تعالى لكم من سلامة المجاز ، ثم بما منحكم الله تعالى من فضل الاختصاص بهذا الغرض والامتياز ، فإمارتكم الإمارة التي أخذت بأسباب السماء ، وركبت إلى الجهاد في سبيل الله تعالى جياذ الحيل والماء ، وأصبحت على حال الشبيبة شجاً في حلوق الأعداء ، ونحن أحقُّ بهذا

١ منه : زيادة من ق .

الهناء ، ولكنها عادة الود وسنة الإخاء ، فالله عز وجل يجعله مقدماً ميمون الطائر ، متهلل البشائر ، تتهللُ بصنع الله بعده وجوه القبائل والعشائر ، ويجري خبر سعادتكم مجرى المثل السائر ، ويشكر محل والدنا فيما كان من اختياره ، ومزيد إثارة ، ويجازيه جزاء من سمح في ذاته بمظنة ادخاره ، ومد رأينا أن هذا الغرض لا يجترى فيه بالكتابة ، دون الاستنابة ، وجهنا لكم من يقوم بحقه ، ويجري من تقرير ما لدينا على أوضح طرقه ، وهو القائد الكذا ، ومجدكم يُصنعي لما يلقيه ، ويقابل بالقبول ما من ذلك يؤديه ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام ؛ انتهى .

وكان الطاغية الملعون أيام السلطان أبي عنان رحمه الله تعالى نازلَ جبل الفتح ثم كفى الله تعالى شره في ذلك التاريخ .

[٧ - من أبي الحجاج إلى أبي عنان]

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أبي الحجاج يخاطب أبا عنان سلطان فاس والمغرب وذلك بما نصّه :

المقامُ الذي رمى له الملكُ الأصيلُ بأفلاذه ، وأدّى منه الإسلام إلى ملجئه الأحمى وملاذه ، وكفلت السعودُ بإمضاء أمره المطاع وإنفاذه ، وشأى حلّبة الكرم فكان وحيد آحاده وقد أفذاذه ، وابتدع غرائب الجود فقال لسان الوجود : نعمت البدعة هذه ، مقامُ محلّ أحنينا الذي أركانُ مجده راسية راسخة ، وغرر عزّه بادية باذخة ، وأعلام فخره سامية شامخة ، وآيات سعده محكمة ناسخة ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أباهُ الله تعالى يجري بسعده الفلك ، ويجلى بنور هديه الحلك ، ويسطر حسنات ملكه الملك ، ويشهد بفضله بأسه

ونداه النادي والمعترك . مُعَظَّمُ حقوقه التي تأكد فرضها ، المُثَنِّي على مكارمه التي أعيا الأوصافَ البليغةَ بعضُها ، أميرُ المسلمين عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر : سلام كريم ، طيب برّ عميم ، ينخص أخوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي هيا للملة الإسلام ، بمظاهرة ملككم المنصور الأعلام ، إظهاراً وإعزازاً ، وجعل لها العاقبة الحسنى بيؤمن مقامكم الأسنى تصديقاً لدعوة الحق وإنجازاً ، وسهّل لها بسعدكم كل صعب المرام وقد سامتها صروف الأيام ليّاً وإعوازاً ، وأتاح لها منكم وليّاً يسومُ أعداءها استلاباً وابتزازاً ، ويسكن آمالها وقد استشعرت انخفازاً ، حمداً يكون على حلل النعم العميمة والآلاء الكريمة طرازاً ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي بهرت آياته وضوحاً وإعجازاً ، واستحقت الكمال صفاته حقيقة لا مجازاً ، ونيّه الذي بين للخلق أحكام دينه الحق امتناعاً وجوازاً ، ويسّر لهم وقد ضلّوا في مفاوز الشك مفازاً ، والرضى عن آله وأصحابه المستولين على ميادين فضائل الدنيا والدين اختصاصاً بها وامتيازاً ، فكانوا غيوثاً إن وجدوا محللاً وليوثاً إن شهدوا برازاً ، والدعاء لمقام أخوتكم الأسمى بنصرٍ على أعدائه تُبدي له الجياد الجُرد ارتياحاً والرماح المُلد اهتزازاً ، وعزّ يطاء من أكناف البسيطة وأرجائها المحيطة سهلاً وعزازاً ، ويؤمن يشمل من بلاد الإيمان أقطاراً نازحة ويعمُّ أحوازاً ، وسعد تجول في ميّدان ذكره المذاع أطراف السنة اليراع إسهاباً وإيجازاً ، وفخر يجوب جيوب الأقطار جوب المثل السيّار عراقاً وحجازاً ، ولا زالت كتاب سَعْدِه تنتهز فرص الدهر انتهازاً ، وتوسع مَمْلَكَاتِ الكفر انتهاباً واحتيازاً ، فإنّا كتبناه إلى مقامكم — كتب الله تعالى لكم سعداً ثابت المراكز ، وعزّاً لا تلين قناته في يد الغامز ، وثناء لا يثني عِنان سُرَاه عرض المفاوز ، وصنعاً رحيب الجوانب

رغيب الحوائز - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وفضله ، عز وجل ،
 قد أدال العسر يسراً وأحال القبض بسطاً ، وقرب نوازح الآمال بعد أن تناءت
 ديارها شحطاً ، وراض مركب الدهر الذي كان لا يلين لمن استمطى ، وقرب
 غريم الرجاء في هذه الأرجاء وكان مشتطاً ، والتوكل عليه سبحانه وتعالى قد أحكم
 منه اليقين والاستبصار المبين ربطاً ، ومشروط المزيد من نعمه قد لزم من الشكر
 شرطاً ، ومقامكم هو عُدّة الإسلام إذا جدّ حفاظهُ ، وظلّه الظليل إذا لفح
 للكفر شواطئه ، وملجؤه الذي تنام في كنف أمنه أيقاظهُ ، ووَزَرَهُ الذي إلى
 نصره تمدّ أيديه وتشير أخطاه ، ففي أرجاء ثنائه تَسْرَحُ معانيه وألفاظه ،
 ولخُطَب تمجيدهِ وتحميده يقول قُسه وتحتفل عكاظه ، وتَشِيْعُنَا إلى ذلك الجنب
 الكريم طويل عريض ، ومقدمات ودنا إياه لا يعترضها نقيض ، وأفلاك
 تعظيمنا له ليس لأوجها الرفيع حضيض ، وأنوار اعتقادنا الجميل فيه يشف سواد
 الخبر عن أوجهها البيض .

وإلى هذا - ألبسكم الله تعالى ثوب السعادة المعادة فضفاضاً ، كما صرف
 ببركة إياتكم الكريمة على ربوع الإسلام وجوه الليالي والأيام وقد ازورت إعراضاً
 وبسطت آمالها وقد استشعرت انقباضاً - فإننا ورد علينا كتابكم الذي كرم
 أنحاء وأغراضاً ، وجالت البلاغة من طرسه الفصيح المقال رياضاً ، ووردت
 الأفكار من معانيه الغرائب وألفاظه المزرية بدّرر النحور والترائب بحوراً
 صافيةً وحياضاً ، فاجتلينا منه حلة من حلال الود سابعة ، وحجة من حُجج
 المجد بالغة ، وشمساً في فللك السعد بازغة ، الذي بيّن المقاصد الكريمة وشرّحها ،
 وجلا الفضائل العيمة وأوضّحها ، فما أكرم شيم ذلك الجلال وأسمحها ،
 وأفضل خلال ذلك الكمال وأرجحها ، حثّم فيه على إحكام السلم التي تحوط
 الأنفس والحريم بسياج ، ويُدَاوى القطر العليل منها بأنجع علاج ، والحال ذات
 احتياج ، وساحة الجبل عصمه الله تعالى ميدان هياج ، ومُتَبَوِّأً أعلاج ،
 ومظنة اختلاف الظنون الموحشة واختلاج ، فحضر لدينا محتمله وزيركم الشيخ

الأجل الأعظم الموقر الأسمى الخاصة الأحظى أبو علي ابن الشيخ الوزير الأجل الحافل الفاضل المجاهد الكامل أبي عبد الله ابن محلي والشيخ الفقيه الأستاذ الأعرف الفاضل الكامل أبو عبد الله ابن الشيخ الفقيه الأجل العارف الفاضل الصالح المبارك المبرور المرحوم أبي عبد الله الفشتالي ، وصل الله سبحانه سعادتكما ، وحرس مَجَادَتِكُمَا ، حالين من مراتب ترفيعنا أعلى محل الإعزاز ، وواردين على أحلى القبول الذي لا تُشَاب حقيقته بالمجاز ، عملاً بما يجب علينا لمن يصل إلينا من تلك الأنحاء الكريمة والأحواز ، فتلقينا ما اشتملت عليه الإحالة السلطانية من الود الذي كَرُمَ مفهوماً ونصاً ، والبر الذي ذهب من مذاهب الفضل والكمال الأمد الأقصى ، وقد كان سبقهما صنع الله جلّ جلاله بما أحلف الظنون ، وشرح الصدور وأقر العيون ، فلم يصلنا إلينا إلا وقد أهلك الله تعالى الطاغية ، ومزق أحزابها الباغية ، نعمة منه سبحانه وتعالى ومنّة ملأت الصدور انشراحاً ، وعمت الأرجاء أفراحاً ، وعنواناً على سعد مقامكم الذي راق غرراً في المكرمات وأوضاحاً ، ومد يده إلى سهام المواهب الإلهية فحاز أعلاها قِداحاً ، فتشوّفت نفوس المسلمين إلى ما كانت تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه ، وبدت في القضية التي أشرتم بأعمالها الوجوه ، وانبعثت الآمال بما آلت إليه هذه الحال انبعاثاً ، والثالث أمور العدو قصمه الله تعالى التياتاً ، وانتقض غزله من بعد قوته بفضل الله تعالى أنكاثاً ، واحتملت المسألة التي تفضلتم بعرضها وأشرتم إلى فرضها مأخذاً وأبحاثاً ، فألقينا في هذه الحال إلى رسوليكم أعزهما الله تعالى ما يلقيانه إلى مقامكم الأعلى ، ومثاببتكم الفضلى ، وما يتزيد عندنا من الأمور فركائب التعريف بها إليكم محثوة ، وجزئياتها بين يدي مقامكم الرفيع مبثوثة . وقد اضطربت أحوال الكفر وفالت آراؤه ، واستحکم بالشتات داؤه ، وارتجّت بزلال الفتن

١ ق : الماجد .

٢ ق : فتشوقت .

أرجاؤه ، وتيسرت آمالُ الإسلام بفضل الله تعالى ورجاؤه ، وما هو إلا السعد
يذلل لكم صعب العدو ويرؤضه ، والله سبحانه يهيء لكم فضل الجهاد حتى
تُقضى بكم فروضه .

وأما الذي لكم عندنا من الخلوص الصافية شرائعه ، والثناء الذي هو الروض
تأرجح ذائعه ، فأوضح من فلق الصبح إذا أشرقت طلائعه ، جعله الله تعالى في
ذاته ، ووسيلةً إلى مرضاته ؛ ورسولاكم يشرح لكم الحال بجزئياته ، ويقرر ان
ما عندنا من الود الذي سطر نور آياته ، وهو سبحانه وتعالى يصل لكم سعداً سامي
المراتب والمراتي ، ويجمع لكم بعدَ بُعدِ المدى وتمهيد دين الهدى بين نعيم
الدنيا والنعيم الباقي ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

[٨ - رسالة عن يوسف النصري]

وأبين من هذا في القضية كتابٌ آخر من إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى
صورته :

من أمير المسلمين عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن
فرج بن نصر ، إلى محل أختنا الذي نُثني على مجادته أكرمَ الثناء ، ونجدد
له ما سلف بين الأسلاف الكرام من الولاء ، ونثحفه من سعادة الإسلام وأهله
بالأخبار السارة والأنباء ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ،
أبقاه الله تعالى رفيعَ المقدار ، كريمَ المآثر والآثار ، وعرفه من عوارف فضله
كلّ مشرق الأنوار ، كفيل بالحسنى وعقبي الدار : سلام كريم ، برّ عميم ،
يخص جلالكم الأرفع ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على عميم آلائه ، وجزيل نعمائه ، ميسر الصعب بعد
إبائه ، والكفيل بتقريب الفرج وإدائته ، له الحمد والشكر ملء أرضه وسمائه ،
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله الكرام وأنبيائه ، الهادي إلى
سبيل الرشد وسوائه ، مُطلع نور الحق يجلو ظلّم الشك بضياته ، والرضي

عن آلِه وأصحابه وأنصاره وأحزابه وخُلَفائِه ، السائرين في الدنيا والآخرة تحت لوائِه ، الباذلين نفوسهم في إظهار دينه القويم وإعلانه ، والدعاء لمقامكم بتيسير أمله من فضل الله سبحانه ورجائه ، واختصاصه بأوفر الحظوظ من اعتناؤه ، فإنّا كتبناه إليكم - كتبكم الله تعالى فيمن ارتضى قولَه وعمله من أوليائه ، وعرفكم عوارف السعادة المعادة في نهاية كل أمر وابتدائه - من حمراء غرناطة ، حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم الذي أوضح برهانه ، وعظم أمره ورفع شأنه ، ثم بما عندنا من الود الكريم وتجديد العهد القديم لمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه ، إلاّ الخير الهامي السحاب ، واليسر المتين الأسباب ، واليسن المفتّح الأبواب ، والسعد الجديد الأثواب ، ومقامكم معتمد بترفع الجنب ، متعهد بالود الخالص والاعتقاد اللبّاب ، معلوم له من فضل الدين وأصالة الأحساب .

وإلى هذا وصلّ الله تعالى سعدكم مديد الأطناب ، ثاقب الشّهاب ، وأطلع عليكم وجوه البشائر سافرة النّقاب ، فإنه قد كان بلغكم ما آلت الحالُ إليه بطاغية قشتالة الذي كلبَ على هذه الأقطار الغربية من وراء البحار ، وما سامها من الإرهاق والأضرار ، وأتته جرى في ميدان الإملاء والاغترار ، ومُحصّ المسلمون على يده بالوقائع العظيمة الكبار ، وأنه نكث العهد الذي عقّده ، وحل الميثاق الذي أكّده ، وحمله الطمعُ الفاضح على أن أجلبَ على بلاد المسلمين بخيله ورجله ، ودَهَمَها بتيار سيّله وقطع ليله ، وأمل أن يستولي على جبل الفتح الذي يدعى منه فتحها ، وطلع للملة المحمدية صُبْحُها ، فضيقه حصاراً ، واتخذ داراً ، وعندما عظم الإشفاق ، وأظلمت الآفاق ، ظهر فينا لقدرة الله تعالى الصنعُ العجيب ، ونزل الفرجُ القريب ، وقبيلَ الدعاء السميعُ المجيب ، وطرق الطاغية ، جندٌ من جنود الله تعالى أخذَه أخذةً رابية ، ولم يبق له من باقية ، فهلك على الجبل حتّف أنفه ، وغالته غوائلُ حتّفه ، فتفرقت جموعه وأحزابه ، وانقطعت أسبابه ، وتعجل لنارِ الله تعالى مآبه ، وأصبحت البلاد

مستبشرة ، ورحمة الله منتشرة ، ورأينا أن هذه البشارة التي يأخذ منها كل مسلم بالنصيب الوفور ، ويشارك فيما جلبته من السرور ، أنتم أولى مَنْ نُتَحِفُهُ بطيب رِيَّآهَا ، ونطلع عليه جميلَ مُحَيَّآهَا ، لما تقرّر عندنا من دينكم المتين ، وفضلكم المبين . وعملكم من المساهمة على شاكلة صالحى السلاطين ، فما ذلك إلاّ فضل نيتكم للمسلمين في هذه البلاد ، وأثر ما عندكم من جميل الاعتقاد . وقد ورد رسولنا إليكم القائد أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح ، أعزّه الله تعالى ، مقررّاً ما لديكم من الود الراسخ القواعد ، والخلوص الصافى الموارد ، الواضح الشواهد ، وأثنى على مكارمكم الأصيلة ، وألقى ما عندكم من المذاهب الجميلة ، فقابلنا ذلك بالشكر الذي يتصل سببه ، ويتضح مذهبه ، وسألنا الله أن يجعله ودّاً في ذاته ، ووسيلة إلى مرضاته ، وتعرفنا ما كان من تفضلكم بالطريفة المفتوحة المؤخر ، وما صدرَ عن الرئيس المعروف بالناظر من خدام دار الصنعة بالمرية من قبح محاولته ، وسوء معاملته ، فأمرنا بقطع جرابته ، وثقافه بمطمورة القصبه جزاء لخنايته ، ولولا أننا توقفنا أن يكون عظيم عقابه ممّا لا يقع من مقامكم بوفقه ، لمشهور عفافه ورفقه ، لجعلناه نكالاّ لأمثاله ، وعبرة لأشكاله ، وقد وجهنا جفناً سفريّاً لإيساق الخيل التي ذكرتم ، وإيصال ما إليه من ذلك أشرتم ، ويكمل القصد إن شاء الله تعالى تحت لحظ اعتنائكم ، وفضل ولائكم . هذا ما تزيد عندنا عرفناكم به ، عملاً على شاكلة الود الجميل ، والولاء الكريم الجملة والتفصيل ، فعرّفونا بما يتزيد عندكم يكن من جملة أعمالكم الفاضلة ، ومكارمكم الحافلة ، والله تعالى يتصلّ سعدكم ، ويمحرس مجدكم ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

[٩ - رسالة في حاجة الأندلس إلى برّ العُدوة]

ومن إنشاء لسان الدين فيما يتعلّق بالأندلس وانقطاعها ، وأنها لا غنى لها عن العُدوة وغير ذلك ، ما صورته :

المقامُ الذي بنور سعاداته تنجلي الغمَّاء وتتصل النعماء ، مَنْ نيتُهُ قد حصل منها لجانب الله تعالى الانتماء ، واتفقت منها المسمياتُ والأسماء ، مقامُ محل أبيتنا الذي تنفياً هذه الجزيرة الغربية أفياء نيته الصالحة وعمله ، وثق بحسن العاقبة اعتماداً على وعد الله تعالى المنزل على خيرة رُسُلِهِ ، وتجتني ثمار النُجج من أفنان آرائه المتألِّقة تألَّق الصبح حالي رَيْثِهِ وعَجَلِهِ ، وتتعرف حالي المودود والمكروه عارفة الخير والخيرة من قبله ، أبقاه الله تعالى يحسم الأدواء كلما استَشْرَت ، ويحلي موارد العافية كلما أمرتُ ، ويعفّي على آثار الأطماع الكاذبة مهما خدعت بحُلْبِهَا وغرَّت ، ويضمن سعدهُ عودةَ الأمور إلى أفضل ما عليه استقرت . معظمُّ مقامه الذي هو بالتعظيم حقيق ، وموقرٌ ملكه الذي لا يلتبس منه في الفخر والعز طريق ، ولا يَخْتَلِف في فضله العميم ومجده الكريم فريق .

أمَّا بعدَ حمدِ الله المثير المعاقب ، الكفيل لأهل التقوى بحسن العواقب ، المشيد بالعمل الصالح إلى أرفع المراقي والمراقب ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء فبقضائه وقدره اختلاف المسالك والمذاهب ، والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسولنا الحاشر العاقب ، ونبيِّه الكريم الرؤوف الرحيم ذي المفاخر السامية والمناقب ، والرضى عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه الذين ظاهروه في حياته بإعمال السُّمْرِ العوالي والبيض القواضب ، وخلفوه في أمته بخلوص الضمائر عند شوب الشوائب ، فكانوا في سماء ملته كالنجوم الثواقب ، والدعاء لمقامكم الأسمى بالسعادة المعادة في الشاهد من الزمن والغائب ، والنصر الذي يقضي بجز الكتاب ، والصنع الذي تطلع من ثناياهُ غرر الصنائع العجائب ، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولا زائد بفضل الله سبحانه ثم بما عندنا من الاعتداد بمقامكم أعلى الله تعالى سلطانه ، وشمل بالتمهيد أوطانه ، إلاّ تشييع ثابت ويزيد ، وإخلاص ما عليه في ميدان الاستطاعة مزيد ، وتعظيم أشرف منه جيد ، وثناء راق فوق رياضه تحميد وتمجيد .

وإلى هذا وصلَّ اللهُ تعالى سعدكم ، وحرس الطاهر الكريم مجدكم ، فقد

وصلنا كتابكم الذي هو على الخلوص والاعتقاد عنون ، وفي الاحتجاج على الرضى والقبول برهان ، تنطق بالفضل فصوله ، وتشير إلى كرم العقد فروعه الزكية وأصوله ، ويحق أن ينسب إلى ذلك الفخر الأصيل هـحصوله ، عرفتمونا بما ذهب إليه عيسى بن الحسين من الخلاف الذي ارتكبه ، وسبيل الصواب الذي انتكبه ، وتنبهون^١ على ما حده الحق في مثل ذلك وأوجهه ، حتى لا يصل أحد من جهتنا سببه ، ولا يظاهره مهما ندبه ، ولا يسعف في الإيواء طلبه ، فاستوفينا ما استدعاه ذلك البيان الصريح وجلبه ، وخطه القلم الفصيح وكتبه ، وليعلم مقامكم وهو من أصالة النظر غني عن الإعلام ، ولكن لا بد من الاستراحة بالكلام ، والتنفس بنفثات الأقلام ، أتنا إنما نجري أمورنا مع هذا العدو الكافر الذي رُمينا بجواره ، وبُلينا والحمد لله بمصادمة تياره ، على تعداد أقطاره ، واتساع براريه وبجاره ، بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق ، وأسواق النفاق غير ذات نفاق ، والجماهير تحت عهد الله تعالى وميثاق ، فمهما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عقّد ، ووقع بينهما في قبول الطاعة رد ، ساءنا واقعه ، وعظمت لدينا مواقعه ، وسألنا أن يتدارك الخرق راقعه ، لما نتوقه من التشاغل عن نصرنا ، وتفرض العدو إلى ضرنا ، فكيف إذا وقعت الفتنة في صقعنا وقطرنا ، إنما هي شعلة في بعض بيوتنا وقعت ، وحادثة إلى جهتنا أشرعت^٢ ، وإن كان لسوانا لفظها فلنا معناها ، وعلى وطننا يعود جناها ، فنحن أحرص الناس على إطفائها وإخمادها ، وأسعى في إصلاح فسادها ، والمثابرة على كفها واستئسادها ، وما الظن بدار فسد بابها ، وآمال رتت أسبابها ، وجزيرة لا تستقيم أحوال من بها إلا بالسكون ، وسلم العدو المغرور المفتون ، حتى تُفضى منه بإعانتكم الديون ، وإن اضطرابها إنما هو داء

١ ق : وتنبهونا .

٢ ق : أشرعت ؛ ص : شرعت .

نستنصر من رأيكم فيه بطبيب ، وهَدَفَ خطب نرمة من عزمكم بسهم مصيب ، وأمر نضرع في تداركه إلى سميع للدعاء مجيب ، ونحن فيه يد أمام يدكم ، ومقصدنا فيه تَبَعَ لقصدكم ، وتصرفنا على حد إشارتكم جار ، وعزمننا إلى منتهى مرضاتكم مُتَبَار ، وعَقَدْنَا في مشايعة أمركم غير متوار .

وقد كنّا لأول اتصال هذا الخبر ، القبيح العين والأثر ، بادَرْنَا تعريفكم بجميع ما اتصل بنا في شأنه ، ولم نطو عنكم شيئاً من إسراره ولا إعلانه ، وبعثنا رسولنا إلى بابكم العلي نعتدُ بسلطانه ، ونرتجي تمهيد هذا الوطن بتمهيد أوطانه ، وبادرنا بالمخاطبة مَنْ وجبت مخاطبته من أهل مربلة وأسطبونة ثبت بصائرهم في الطاعة ونقويها ، ونعدهم بتوجيه من يحفظ جهاتهم ويحميها ، وعجلنا إلى بعضها مدداً من الرماة والسلاح ليكون ذلك عُدَّةً فيها ، وعلمننا ما أوجب الله تعالى من الأعمال التي يُزَلِّفُ بها ويرتضيها ، وكيف لا نظاهر أمركم الذي هو العدة المذخورة ، والفئة الناصرة المنصورة ، والباطل سَرَابٌ يَخْدَعُ ، والحق إليه يُرْجَعُ ، والبغي يُرْدي وَيَصْرَعُ ، وكم تقدم في الدهر منترٍ شدَّ عن الطاعة ، وخرج عن الجماعة ، ومخالف على الدول ، في العصور الأوّل ، بهرج الحق زائفه ، ورجمت شهبُ الأسنّة طائفه ، وأخذت عليه الضيقة وهادهُ وتنافقه ، فتقلص ظله ، ونسباً به محله ، وكما قال يذهب الباطل وأهله ، لا سيما وسعادة ملككم قد وطّأت المسالك ومهدتها ، وقهرت الأعداء وتعبدها ، وأطفأت جداول سيوفكم النار التي أوقدتها ، وكأنّ بالأمر إذا أعلمتم فيها رأيكم السديد وقد عادت إلى خير أحوالها ، والبلاد بيمن تدبيركم قد شفي ما ظهر من اعتلالها ، وعلى كل حال فإنّما نحن على تكميل مرضاتكم مبادرون ، وفي أغراضكم الدينية واردون وصادرون ، وإشارتكم التي تتضمن الخير والخيرة منتظرون ، عندنا من ذلك عقائد لا يحتمل نصّها التأويل ، ولا يقبل صحيحها التعليل ، فلتكن أبوتكم من ذلك على أوضح سبيل ، فشمس النهار لا تحتاج إلى دليل ، والله تعالى يُسَنِّي لكم عوائد الصنع الجميل ، حتى لا يدعَ عزمكم

مغضوباً إلاّ ردّه ، ولا ثلماً في ثغر الدين إلاّ سدّه ، ولا هدفاً متعاصياً إلاّ هدّه ، ولا عرقاً من الخلاف إلاّ جدّه ، وهو سبحانه يبقي ملككم ويصل سعده ويعليّ أمره ويجرس مجده ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته : انتهى .

[١٠ - رسالة عن أبي الحجاج إلى الرعايا]

ومن إنشائه رحمه الله تعالى من جملة رسالة على لسان سلطانه أبي الحجاج يخاطب الرعايا ، ما نصّه محل الحاجة منه :

وإلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذي جرى في ميدان الأمل جرّي الجُمُوح ، ودارت عليه خمرة النخوة والخيلاء مع الغبوق والصبُوح ، حتى طمح بسكر اغتراره ، ومُحصّـ المسلمون على يده بالوقائع التي تجاوز منتهى مقداره ، وتوجهت إلى استئصال الكلمة مطامع أفكاره ، ووثق بأنّه يطفىء نور الله بناره ، ونازل جبل الفتح فشد مُحشّق حصاره ، وأدار أشياعه في البر والبحر دَوْرَ السوار على أسواره ، وانتهاز الفرصة بانقطاع الأسباب وانبهاهم الأبواب ، والأمور التي لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب ، وتكالب التثليث على التوحيد ، وساءت الظنون في هذا القطر الوحيد ، المنقطع بين الأمة الكافرة والبحور الزاخرة والمرام البعيد ، وإننا صابرينا بالله تعالى تيار سيّله ، واستضأنا بنور التوكل عليه في جنح هذا الخطب ودُجْنَة لَيْله ، ولحأنا إلى من بيده نواصي الخلائق ، واعتقلنا من حبله المتين بأوثق العلائق ، وفسحنا مجال الأمل في ذلك الميدان المتضايق ، وأخلصنا لله مُقِيل العثار ومؤوي أولي الاضطرار قلوبنا ، ورفعنا إليه أمرنا ووقفنا عليه مطلوبنا ، ولم نقصر مع ذلك في إبرام العزم ، واستشعار الحزم ، وإمداد الثغور بأقصى الإمكان ، وبعث الجيوش إلى ما يلينا من بلاد على الأحيان ، فرحم الله تعالى انقطاعنا إلى كرمه ، والتجاءنا إلى حرَمِهِ ، فجلّي بفضلته

سبحانه ظلّم الشدة ، ومد على الحرّيم والأطفال ظلال رحمته الممتدة ، وعرفنا عوارف الصنع الذي قدم به العهد على طول المدة ، ورماه بجيش من جيوش قدرته أغنى عن إيجاف الركاب ، واحتشاد الأحزاب ، وأظهر فينا قدرة ملكه عند انقطاع الأسباب ، واستخلاص العباد والبلاد من بين الظفّر والناب ، فقد كان جعّجَع على الحق بأباطيله ، وسد المجازَ بأساطيله . ورمى الجزيرة الأندلسية بشؤبُوب شرّه ، وصيرها فريسة بين غربان بحره وعقبان برّه ، فلم يخلص إلى المسلمين من إخوانهم مرقبة إلاّ على الخطر الشديد ، والإفلات من يد العدو العنيد ، مع توفّر العزائم والحمد لله على العمل الحميد ، والسعي فيما يعود على الدّين بالتأييد .

وبينما شفقتنا على جبل الفتح تقيم وتقعّد ، وكسّلبُ الأعداء عليه يُبرق ويرعد ، واليأس والرجاء خصمان هذا يقرب وهذا يبعد ، إذ طلّع علينا البشيرُ بانفراج الأزمنة ، وحلّت تلك العزّمة ، وموت شاه تلك الرقعة ، وإبقاء الله تعالى على تلك البقعة ، وأنه سبحانه أخذ الطاغية أكملَ ما كان اغتراراً ، وأعظم أنصاراً ، وزلزل أرض عزه وقد أصابت قرّاراً ، وأن شهاب سعده قد أصبح أفلاً ، وعلم كبره انقلب سافلاً ، وأن من بيده ملكوت السموات والأرض طرّقه بحتفه ، وأهلكه برغم أنفه ، وأن محلته عاجلها التّبابُ والتّبار ، وعاثت في منازلها النار ، وتمخض عن سوء عاقبتها الليلُ والنهار ، وأن حُماتها يخربون بيوتهم بأيديهم ، وينادي بشتات الشمل لسانُ مناديهم ، وتلاحق الفرسان من جبل الفتح المعقل الذي عليه من عناية الله تعالى رواق مضروب ، والرباط الذي منّ حاربه فهو المحروب ، فأخبرت بانفراج الضيق ، وارتفاع العائق لها عن الطريق ، وبرء الداء الذي أشرق بالرّيق ، وأن النصرارى دمرها الله تعالى جدت في ارتحالها ، وأسّرت بجيفة طاغيتها إلى سوء مآلها وحالها ، وسمحت للنار والنهب بأسلابها وأموالها ، فبهرنا هذا الصنعُ الإلهي الذي مهد الأقطار بعد رجفانها ، وأنام العيون بعد سُهاد أجفانها ، وسألنا الله تعالى أن يُعيّننا على

شكر هذه النعمة التي إن سلطت عليها قُوَى البشر فضحتها ، ورجحتها ، ورأينا سرّ اللطائف الخفية كيف سريانه في الوجود ، وشاهدنا بالعيان أنوار اللطائف الإلهية والحدود ، وقلنا : إنما هو الفتح الأوّل شُفِعَ بثان ، وقواعد الدين الخفيف أيدت من صنع الله تعالى ببُنَيان ، اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة ، ومننك الوافرة ، إنك وليّنا في الدنيا والآخرة ؛ انتهى .

[١١ - رسالة توضح ضيق حال الأندلس]

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى من أخرى ممّا يتعلّق بضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته :

وإن تشوقتم إلى أحوال هذا القطر ومنّ به من المسلمين ، بمقتضى الدين المتين والفضل المبين ، فاعلموا أنّنا في هذه الأيام ندافع من العدو تياراً ، ونكابر بجزراً زخاراً ، ونتوقّع - إلا إن وقى الله تعالى - خطوباً كبيراً ، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصاراً ، ونلجأ إليه اضطراراً ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعداداً به واستظهاراً ، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطاراً ، وينشئ ريح رَوْحِ الله طيبة مِعْطاراً ، فإنّ القومس الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع ، ومخالفته لا تستطيع ، رمى هذه الأمة الغربية المنقطعة منهم بجراد لا يُسد طريقها ، ولا يحصى فريقها ، التفتت على أخي صاحب قَشْتَالَة وعزمها أن تملكه بدله ، وتبلغه أمله ، ويكون الكل يداً واحدة على المسلمين ، ومناصبه هذا الدين ، واستتصال شأفة المؤمنين ، وهي شدة ليس لأهل هذا الوطن بها عهد ، ولا عَرَفَهَا نجد ولا وهْد ، وقد اقتحموا الحدود القريبة ، والله تعالى وليُّ هذه الأمة الغربية ، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يُقَوّي الضعيف ، ويدراً الخطب المخيف ، ورجونا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَ جَمَعُوا لَكُمْ فَانصَبُوا لَهُمْ قَزَآدَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران : ١٧٣)

وهو سبحانه المرجو في حسن العقبي والمآل ، ونَصْرُ فِئَةِ الْهَدْيِ عَلَى فِئَةِ الضَّلَالِ ، وما قَلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ كَنْزَهُ ، وَلَا ذَلَّ مَنْ اسْتَمَدَ مِنَ اللَّهِ عِزَّهُ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ - الْآيَةَ﴾ (التوبة : ٥٢) ودعاء مَنْ قَبَّلَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَدَدَ مَوْفُورٍ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَحْمُودٌ مُشْكُورٌ ؛ انْتَهَى .

[١٢ - من رسالة طويلة]

ومن أخرى طويلة من جملتها ما صورته :

وقد اتصل بنا الخبر الذي يوجب نصح الإسلام ، ورَعَى الجوار والذمّام ، وما جعل الله تعالى للمأموم على الإمام ، إيقاظكم من مَرَاقِدِكُمُ الْمُسْتَغْرَقَةِ ، وجمع أهوائكم المتفرقة ، وتهيئكم إلى مُصَادِمَةِ الشَّدَائِدِ الْمُرْعِدَةِ الْمُبْرَقَةِ ، وهو أن كبير دين النصرانية الذي إليه ينقادون ، وفي مرضاته يُصَادِقُونَ وَيُعَادُونَ ، وعند رؤية صليبه يكبرون ويسجدون ، لما رأى الفتن قد أكلتهم خَضَمًا وَقَضَمًا ، وأوسعهم هضماً ، فلم تُبْقِ عَصَبًا وَلَا عَظْمًا ، ونثرت ما كان نَظْمًا ، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق ، ويرفع ما طرق ، ويرفو ما مَرَّقَ الشَّتَاتِ وَخَرَقَ ، فرمى الإسلام بأمة عددها القَطْرُ الْمُنْتَالِ ، وأمرهم وشأنهم الامتثال ، أن يدمشوا لمن ارتضاه من أمتة الطاعة ، ويجمعوا في ملته الجماعة ، وَيَطْلُغُ الْكُلَّ عَلَى هَذِهِ الْفِئَةِ الْقَلِيلَةِ الْغَرِيبَةِ بَخْتَةٍ كَقِيَامِ السَّاعَةِ ، وَأَقْطَعَهُمْ - قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ - الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ ، وَالطَّارِفَ وَالْتَّلَادَ ، وَسَوَّغَهُمُ الْحَرِيمَ وَالْأَوْلَادَ ، وبالله تعالى نستدفع ما لا نُطِيقُهُ ، ومنه نسأل عادة الفرج فما سُدَّتْ طَرِيقُهُ ، إِلَّا أَنَا رَأَيْنَا غَفْلَةَ النَّاسِ مُؤَذِّنَةَ الْبَوَارِ ، وَأَشْفَقْنَا لِلدِّينِ الْمُنْقَطِعِ مِنْ وَرَاءِ الْبِحَارِ ، وَقَدْ أَصْبَحَ مُضْغَعَةً فِي لَهَوَاتِ الْكُفَّارِ ، وَأَرَدْنَا أَنْ نَهْزِكَمُ بِالْمَوْعِظَةِ الَّتِي تَكْحُلُ الْبَصَائِرَ بِمِيلِ الْإِسْتِصْبَارِ ، فَإِنَّ جَبَرَ اللَّهِ تَعَالَى الْخَوَاطِرَ بِالضَّرَاعَةِ إِلَيْهِ وَالْإِنْكَسَارِ ، وَنَسَخَ الْإِعْسَارَ بِالْإِيسَارِ ، وَأَنْجَدَ الْيَمِينَ بِأَخْتِهَا الْيَسَارِ ، وَإِلَّا فَقَدْ تَعَيَّنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حِظُّ الْخَسَارِ ، فَإِنَّ مَنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ عَدُوٌّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ مِنَ اللَّهِ مَصْرُوفٌ ،

وبالباطل مشغوف ، وبغير العرف معروف ، وعلى الحطام المسلوب عنه ملهوف ،
 فقد تَلَّه الشيطان للجبيين ، وقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ،
 وَمَنْ نَفَذَ فِيهِ أَوْ لَهُ قَدْرُ اللَّهِ عَنْ أَدَاءِ الْوَاجِبِ وَبَدَّلَ الْمَجْهُودَ ، وَأَفْرَدَ بِالْعِبُودِيَّةِ
 وَجْهَهُ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ الْمَعْبُودَ ، وَوَطَّنَ النَّفْسَ عَلَى الشَّهَادَةِ الْمَبُوتَةِ دَارَ الْخُلُودِ ،
 الْعَائِدَةَ بِالْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالْوُجُودِ ، أَوْ الظُّهُورَ عَلَى عُدُوِّهِ الْمَحْشُورِ إِلَيْهِ الْمَحْشُودِ ،
 صَبْرًا عَلَى الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ ، وَبَيْعًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تَكُونُ الْمَلَائِكَةُ فِيهِ الشُّهُودَ ، حَتَّى
 تَعَيَّنَ يَدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْبِنَاءِ الْمَهْدُودِ ، وَالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ الْمَمْدُودِ ، كَانَ عَلَى أَمْرِيهِ
 بِالْخِيَارِ الْمَرْدُودِ ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ - الْآيَةُ ﴾
 انتهى .

[ضياع المدن الأندلسية]

وقال صاحب « مناهج الفكر » بعد وصفه لجزيرة الأندلس وأقطارها ،
 ما صورته :

ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لملكها في سلك الانقياد والوفاق ، إلى أن
 طما بمتصرفيها سبيلُ العناد والنفاق ، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقطَ
 راسه ، وجعله معقلًا يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه ، فصار كل منهم يشن الغارة
 على جاره ، ويحاربه في عُقر داره ، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدوِّ في الدين يعادي ،
 ويرواح معاقلهم بالعيث ويغادي ، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في
 ضمان هدنة مقدرة . وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة ، كان
 ذلك في الكتاب مسطوراً ، وقدراً في سابق علم الله مقلوراً ؛ انتهى .
 وهذا قاله قبل أن يستولي العدو على جميعها ، والله وارث الأرض ومن
 عليها وهو خير الوارثين .

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من أخذ النصارى قواعد الأندلس فنقول :
 قد قدمنا أوائل هذا الباب أن طليطلة أعادها الله تعالى من أول ما أخذ الكفار
 من المدن العظام بالأندلس ؛ قال ابن بسام^١ : لما توالى على أهل طليطلة الفتن
 المظلمة ، والحوادث المصطلمة ، وترادف عليهم البلاء والجلاء ، واستباح
 الفرنج لعنهم الله تعالى أموالهم وأرواحهم ، كان من أعجب ما جرى من النوادر
 الدالة على الخذلان أن الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير ،
 ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من أكلها ، فلما كانت السنة التي استولى عليها
 العدو فيها لم ترفع الغلة من الأندلس حتى أسرع فيها الفساد ، فعلم الناس أن
 ذلك بمشيئة الله تعالى لأمر أراده ، من شمول البلوى ، وعموم الضراء ، فاستولى
 العدو على طليطلة ، وأنزل من بها على حكمه ، وخرج ابن ذي النون منها
 على أقبح صورة ، وأفظع سيرة ، وراه الناس وببده إصطراب يأخذ به وقتاً
 يرحل فيه ، فتعجب منه المسلمون ، وضحك عليه الكافرون ، وبسط الكافر
 العدل على أهل المدينة ، وحبب التنصر إلى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من
 ذلك ما لا يطاق حمله ، وشرع في تغيير الجامع كنيسة في ربيع الأول سنة ست
 وتسعين وأربعمائة .

ومما جرى في ذلك^٢ اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامي رحمه الله تعالى صار إلى
 الجامع ، وصلى فيه ، وأمر مُريداً له بالقراءة ، ووافاه الفرنج لعنهم الله تعالى
 وتكاثروا لتغيير القبلة ، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته ،
 وعصمه الله تعالى منهم ، إلى أن أكمل القراءة وسجد سجدة ، ورفع رأسه ،
 وبكى على الجامع بكاء شديداً ، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه . وقيل للملك

١ انظر الذخيرة ١/٤ : ١٢٧ ويبدو أن المقرئ ينقل بالمعنى .

٢ المصدر السابق : ١٩٠ .

النصارى : ينبغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك في هذا الملك ، فقال : حتى
 نأخذ قرطبتهم ، وأعد لذلك ناقوساً تأنق فيه وفيما رَصَعَ به من الجواهر ،
 فأكذبه الله وأزعجه . وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين ،
 فما قصر فيما أثر من إذلال المشركين ، وإرغام الكافرين ، واستدراك أمور
 المسلمين ؛ انتهى ملخصاً ، وقد مرّ مطولاً .

[وقعة بطرنة - ٤٥٦]

وكانت قبلها وقعة بطرنة^١ سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن الفرنج
 - خذلهم الله تعالى - انتدبت منهم قطعة كثيفة ، ونزلت على بكنسية في السنة
 المذكورة ، وأهلها جاهلون بالحرب ، مغترون بأمر الطعن والضرب ، مقبلون
 على اللذات من الأكل والشرب ، وأظهر الفرنج الندم على منازلتها ، والضعف
 عن مقاومة من فيها ، وخدعهم بذلك فانخدعوا ، وأطمعهم فطمعوا ،
 وكنوا في عدة أماكن جماعة من الفرسان ، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم ،
 وخرج معهم أميرهم عبدالعزيز بن أبي عامر ، فاستدرجهم العدو - لعنهم الله تعالى -
 ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر ، وما نجا منهم إلا من حصَّنه أجله ،
 وخلص الأمير نفسه ، ومما حُفظ عنه أنه أنشد لما أعياه الأمر :

خليليّ ليس الرأي في صدر واحد أشيرا عليّ اليومَ ما تريانِ

وفي أهل بكنسية يقول بعض الشعراء حين خرجوا في ثياب الزينة والترفة :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حللَ الحريرِ عليكمُ ألوانا
 ما كانَ أقبحهم وأحسنكمُ بها لو لم يكنْ ببطرنةٍ ما كانا

١ (Paterna) : راجع خبر هذه الوقعة في ابن عذاري ٣ : ٢٥٢ وهو ينتقل عن ابن بسام .

قال ابن بسام : وهكذا جرى لأهل طُلَيْطَلَة ، فإن العدو — خذله الله تعالى — استظهر عليهم ، وقتل جماهيرهم ، وكان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها لما خرجوا إليهم في ثياب الترفه ألف غفارة خارجاً عما سواها .

[بربشتر]

وقال ابن حيان^١ : وكان تغلب العدو — خذله الله تعالى — على بربشتر قصبية بلد برطانية ، وهي تقرب من سرقسطة ، سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن جيش الأردمليس^٢ نازها وحاصرها ، وقصّر يوسف بن سليمان بن هُود في حمايتها ، ووكل أهلها إلى نفوسهم ، فأقام العدو عليها أربعين يوماً ، ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته ، واتصل ذلك بالعدو ، فشدّد القتال عليها والحصر لها حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف مُدَرَّع ، فدهش الناس ، وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حروب شديدة قُتل فيها خمسمائة إفرنجي ، ثم اتفق أن القنّاة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض في سَرَب موزون^٣ انهارت وفسدت ، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدّت السَرَب بأسره ، فانقطع الماء عن المدينة ، ويشس من بها من الحياة ، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال ، فأعطاهم العدو الأمان ، فلمّا خرجوا نكث بهم وغدر ، وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى ، حتى إن الذي خصّ بعض مُقَدَّمي العدو لحصنه — وهو قائد خيل رومة — نحو ألف وخمسمائة جارية أبقاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلى

١ انظر الذخيرة (٣ : ٥٨) في الخبر عن بربشتر نقلا عن ابن حيان .

٢ في الذخيرة : جيش الاردمانيين (Nordmanni) .

٣ الذخيرة : بتقدير موزون .

والكسوة خمسمائة جمل ، وقُدر من قُتل وأسر بمائة ألف نفس ، وقيل : خمسون ألف نفس ، ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتنادي من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو ولدها فيقول لها : أعطني ما معك ، فتعطيها ما معها من كسوة وحلي وغيره .

قال : وكان السبب في قتلهم أنه خافَ مَنْ يصل لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله ، فشرع في القتل لعنه الله تعالى ، حتى قتل منهم نيفاً وستة آلاف قتيل ، ثم نادى الملك بتأمين مَنْ بقي وأمر أن يخرجوا فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم ، ونزلوا من الأسوار في الجبال للخشية من الازدحام في الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء ، وكان قد تحيّر في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه وشاروا في نفوسهم ، وانتظروا ما ينزل بهم ، فلما خلت ممّن أسير وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله ، وله الأمان ، وأرهقوا وأزعجوا ، فلما حصل كل واحد بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الإفرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك ، وأخذ كل واحد داراً بمن فيها من أهلها ، نعوذ بالله تعالى .

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برؤوس الجبال ، وتحصنوا بمواضع منيعة ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمنهم الملك على نفوسهم ، وبرزوا في صور الهلكى من العطش ، فأطلق سبيلهم ، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة ، فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله .

قال : وكان الفرنج لعنهم الله تعالى ، لما استولوا على أهل المدينة يفتضونَ البكر بحضرة أبيها ، والثيبَ بعين زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ، ومَنْ لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش أعطاهن خَوّله وغلمانه يعيثون فيهن عيثة ، وبلغ الكفّرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة ، ولما عزم ملك الروم

على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبنكار والشييات ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى مَنْ فوقه ، وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفاً وخمسمائة ، ومن الرجال ألفين ؛ انتهى .

قال ابن حيان : وأختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب أولي الألباب بنادرة منها يكتفى باعتبارها عمّا سواها ، وهي أن بعض تجار اليهود جاء ببربشتر بعد الحادثة ملتصقاً فدية بنات بعض الوجوه ممّن نجا من أهلها حصلن في سَهْم قومس من الرابطة فيها كان يعرفه ، قال : فهديت إلى منزله فيها ، واستأذنت عليه ، فوجده جالساً مكان رب الدار ، مستويّاً على فراشه ، رافلاً في نفيس ثيابه ، والمجلسُ والسريّر كما تخلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيئاً من ريشهما وزينتهما ، ووصائفه مضمومات الشعور ، قائمات على رأسه ، ساعيات في خدمته ، فرحبَ بي ، وسألني عن قصّدي ، فعرفته وجهه ، وأشرت إلى وفور ما أبدله في بعض اللواتي على رأسه وفيهن كانت حاجتي ، فتبسم وقال بلسانه : ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك ! أعرضْ عمّن هنا وتعرّضْ لمن شئت ممّن صيرته الحصني من سببي وأسراي أقاربك فيمن شئت ممنهن .

فقلت له : أمّا الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه ، وبقربك أنست ، وفي كنفك اطمأننت ، فسُمتني ببعض من هنا فإنتي أصير إلى رغبتك ، فقال : وما عندك ؟ قلت : العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب ، فقال : كأنك تشهيني ما ليس عندي . يا حجة ، ينادي بعض أولئك الوصائف ، يريد « يا بهجة » فغيره بعجمته . قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق ، فقامت إليه وأقبلت بيدّر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلّ ، فكشف وجعل بين يدي العليج حتى كادت توارى شخصه ، ثم قال لها : أدني إلينا من تلك التخوت ، فأذنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر ممّا حار له ناظري وبُهِتَ ،

١ الذخيرة : يا حجة .

واستردلتُ ما عندي ، ثم قال لي : لقد كثر هذا عندي حتى ما ألد به . ثم حلف بإلهه أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بُدِّل له بأجمعه في ثمن تلك ما سخَّتَ بها يدي ، فهي ابنة صاحب المنزل ، وله حسب في قومه ، اصطفتيتها لمزيد جمالها لولادتي حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم ، وقد رد لنا الكرة عليهم ، فصرنا فيما تراه ، وأزيدك بأن تلك الخوذة الناعمة ، وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى ، مغنية والديها التي كانت تشدو له على نشواته ، إلى أن أيقظناه من نوماته ، يا فلانة — يناديها بلكنته — خذي عودك تغني زائرنا بشجوك ، قال : فأخذت العود ، وقعدت تسويه ، وإني لأتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسارق العليج مسحه ، واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا فضلاً عن العليج ، فصار من الغريب أن حثَّ شربه هو عليه ، وأظهر الطرب منه ، فلما يثست ممّا عنده قمت منطلقاً عنه ، وارتدّت لتجارتي سواه ، واطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجيبي به ، فهذا فيه مَقنع لمن تدبره ، وتذكر لمن تدكّره .

قال ابن حيان : قد أشفينا بشرح هذه الحادثة الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمّن قبلهم من أثاره ، ولا شك عند ذوي الأبواب أن ذلك ممّا دهانا من داء التقاطع وقد أمرنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه على شفا جُرفٍ يؤدي إلى الهلكة لا محالة ؛ انتهى ببعض اختصار .

وذكر بعده كلاماً في ذم أهل ذلك الزمان من أهل الأندلس ، وأنهم يعللون أنفسهم بالباطل ، وأن من أدل الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم ، وبعدهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سدّ ثغورهم ، حتى أطلّ عدوهم الساعي لإطفاء نورهم ، يجوس خلال ديارهم ، ويستقري بسائط بقاعهم ، ويقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة ، ومَنّ لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صُموت عن ذكرهم ، لهاة عن بثهم ، ما إن سمع عندنا بمسجد من

مساجدنا أو محفل من محافلنا ، مُذَكَّر لهم أو دَاع ، فضلاً عن نافر إليهم أو ماشٍ لهم ، حتى كأنهم ليسوا منّا أو كأنَّ بَشْفَهُمْ ليس بمُقْضٍ إلينا ، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء ، عجائبُ فاتت التقدير ، وعرضت للتغيير ، والله عاقبة الأمور ، وإليه المصير .

ولقد صدق رحمه الله تعالى ، فإن البَشْقَ سرى إليهم جميعاً كما ستراه ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله .

وقال قبله : إن بريشتَر هذه تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة ، من عهد الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس ، فرسخ فيها الإيمان ، وتُدوّرُ القرآن ، إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا صدر رمضان من العام ، فصلك الأسماع ، وأطار الأفئدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكلِّ شغلًا يشغل الناس في التحدث به ، والتساؤل عنه ، والتصور لحلول مثله ، أياماً لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجكِلِ ، والاعتزاز بالأمل ، والاستناد إلى أمراء الفرقة الهَمَلِ ، الذين هم منهم ما بين فَشَلٍ ووَكَلٍ ، يصلونهم عن سواء السبيل ، ويُلَبِّسون عليهم وضوح الدليل ، ولم تزل آفة الناس منذ خُلِقوا في صنفين هم كالمُح فيهم الأمراء والفقهاء بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يفسدون ، فقد خصص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صِنْفِيهِمْ لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق زياداً عن الجماعة ، وَجَرَّياً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صُمُوت عنهم صُدُوف عمّا أكده الله تعالى عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا ما بين آكل من حَلَوَائِهِمْ ، وخابط في أهوائِهِمْ ، وبين مستشعرٍ مخافتِهِمْ ، أخذ في التَّقِيَةِ في صدقهم ، وأولئك هم الأقولون فيهم ، فما القولُ في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها ، وما هي إلا مُشْفِيَةٌ من بَوَارِها ، ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء ، لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلاّ الفرع لحفر الخنادق ، وتعلية الأسوار ، وشَدَّ الأركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوأة

السَّوْأَى من إلقاءهم يومئذ بأيديهم إليه - أمورٌ قبيحات الصور ، مؤذونات الصدور
بأعجاز الغيّر :

أمور لو تدبّرها حكيمٌ إذا لنهى وهيب ما استطاعا

[استرجاع بربشر]

ثم قال ابن حيّان : فلمّا كان عقب جمادى الأولى سنة ٤٥٧ شاع الخبر
بقرطبة برجوع المسلمين إليها ، وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها ،
والمتهم على أهلها : لانحرافهم إلى أخيه ، صمّد لها مع إمداد لحليفه عبّاد ،
وسعى لإصمات سوء المقالة عنه ، وقد كتب الله تعالى عليه منها ما لا يحويه إلا
عفوه ، فتأهّب لقصده بربشر في جموع من المسلمين ، فجاللوا الكفار بها
جلاداً ارتاب منه كل جبان ، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجاعة ،
وحسبي الوطيسُ بينهم إلى أن نصر الله تعالى أوليائه ، وخذل أعداءه ، وولّوا
الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحمها المسلمون عليهم ، وملكوهم أجمعين .
إلا من فر من مكان الواقعة ، ولم يدخل المدينة ، فأجبل السيف في الكافرين ،
واستوصلوا أجمعين . إلا من استرق من أصاغرهم ، وقُدّي من أعظمهم ،
وسبّوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم . وملكوا المدينة بقدرة الخالق
البارئ ، وأصيب على منحة النصر المتأخّر طائفة من حُماة المسلمين الجادين في
نصر الدين ، نحو الخمسين ، كتب الله تعالى شهادتهم ، وقتل فيه من أعداء الله
الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، ففسلها المسلمون من رجس
الشرك ، وجلوها من صدأ الإفك ؛ انتهى .

وليت طليطلة البائسة استرجعت كهذه ، ومع هذا فقد غلب العدو بعدُ على
الكل ، والله سبحانه المرجو في الإدالة .

[نطيلة وطرسونة]

وقال ابن اليسع : أخذ العدو مدينة نطيلة وأختها طرسونة سنة أربع وعشرين وخمسمائة .

[بلنسية والقنيطور]

ولما صار أمر بِلَنْسِيَّةِ إلى الفقيه القاضي أبي أحمد ابن جحاف قاضيها صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فحصره بها القادر بن ذي النون الذي مكّن الأذفونش من طَلْبِيظَلَّة ، فهجم عليه القاضي في لمة من المرابطين ، وقتله ، ودفع ابن جحاف لما لم يعهد من تدبير السلطان ، ورجعت عنه طائفة الملتئمين الذين كان يعتد بهم ، وجعل يستصرخ إلى أمير المسلمين فيعطىء عليه ، وفي أثناء ذلك أنهض يوسفُ بن أحمد بن هود صاحبُ سرقسطة ردرىق الطاغية للاستيلاء على بِلَنْسِيَّةِ ، فدخلها ، وعاهده القاضي ابن جحاف ، واشترط عليه إحضار ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون ، فأقسم أنها ليست عنده ، فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله ، فاتفق أنه وجدها عنده ، فأحرقه بالنار ، وعاث في بِلَنْسِيَّةِ^١ ، وفيها يقول ابن خفاجة حينئذ :

عائت بساحتِكِ الظُّبَا يا دارُ ومحا محاسنكِ البلي والنارُ
فإذا ترَدَّدَ في جنابكِ ناظرٌ طال اعتبارٌ فيكِ واستعبارُ
أرضٌ تقاذفتِ الخطوبُ بأهلها وتمخضتِ بخرابها الأقدارُ
كبت يدُ الحدثانِ في عرّصاتها لا أنت أنت ولا الديارِ ديارُ

وكان استيلاء القنيطور - لعنه الله تعالى - عليها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وقيل : في التي قبلها ، وبه جزم ابن الأبار قائلاً : فم حصار القنيطور إياها

١ راجع الخبر عن حادثة بلنسية في ابن عذاري ٤ : ٣١ - ٤٢ والخزيرة (٣ : ٣٠ - ٣٢) .

عشرين شهراً ، وذكر أنه دخلها صلحاً ، وقال غيره : إنّه دخلها عنوة ، وأحرقها ، وعاث فيها ، وممن أحرق فيها الأديب أبو جعفر ابن النبي^١ الشاعر المشهور رحمه الله تعالى وعفا عنه ، فوجه أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الأمير أبا محمد مزدلي ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وتوالى عليها أمراء المثلثين ، ثم صارت ليحيى بن غانية المثلث حين ولي جميع شرق الأندلس ، فقدّم عليها أخاه عبد الله بن غانية . ولما ثارت الفتنة في المائة السادسة أخرجها منها مروان بن عبد العزيز ، إلى أن قام عليه جيش بلسنسية سنة تسع وثلاثين وخمسائة ، وبايعوا لابن عياض ملك شرق الأندلس ، ففرّ مروان إلى المرية ، ثم رجعت بلسنسية إلى أبي عبد الله ابن مرّديش ملك شرق الأندلس بعد ابن عياض ، وقدّم عليه^٢ أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ، إلى أن رجع أبو الحجاج إلى جهة بني عبد المؤمن ، إلى أن ولي عليها السيد أبو زيد عبد الرحمن ابن السيد أبي عبد الله ابن أبي حفص ابن أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي ، فلما ثار العادل بمُرْسِيّة تمنع واعتز ، وأظهر طاعة في باطنها معصية ، ودام على ذلك مع أبي العلاء المأمون ، وكان قائد الأعنة المشار إليه في الدفاع عن بلسنسية الأمير زيان بن أبي الحملات ابن أبي الحجاج ابن مرّديش ، فأخرجه من بلسنسية ، وملكها ، وفرّ السيد إلى النصراري .

[نهاية بلسنسية]

ولم يزل أمر بلسنسية يضعف باستيلاء العدو على أعمالها إلى أن حصرها ملك برشلونة النصراني ، فاستغاث زيان بصاحب إفريقية أبي زكريا ابن أبي حفص ،

١ دوزي : أبو جعفر البتي وكذلك كتب في التكملة المطبوعة ؛ ولكن سجع ابن سعيد يدل على أن بنه بالنون « كتاب المنه في حلى قرية بنه » وهي من قرى بلسنسية ؛ وقد سبق أن أشرت إلى أن النبي الذي حرقة القنبيطور هو غير النبي الذي ترجم له صاحب القلائد .
٢ عليه : سقطت من ص .

وأوفد عليه في هذه الرسالة كاتبه الشهير أبا عبد الله ابن الأبار القضاعي صاحب كتاب « التكملة » و « إعتاب الكتاب » وغيرهما ، فقام بين يدي السلطان منشداً قصيدته السنية الفريدة التي فضحت مَنْ بارأها ، وكبأ دونها مَنْ جاراها ، وهي^١ :

أدرِك بِجَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا	إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِيهَا دَرَسًا
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسْتَ	فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عَزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسًا
وَحَاشَ مِمَّا تُعَانِيهِ حُشَاشَتَهَا	فَطَالَمَا ذَاقْتَ الْبَلْوَى صَبَاحَ مَسَا
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزْرًا	لِلْحَادِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعْسًا
فِي كُلِّ شَارِقَةٍ لِلْأَمَامِ بَاقِثَةٌ	يَعُودُ مَأْتَمُهَا عِنْدَ الْعَدَا عُرْسًا
وَكُلِّ غَارِبَةٍ لِإِجْحَافِ نَائِبَةٍ	تُنْفِي الْأَمَانَ حَذَارًا وَالسَّرُورَ أَسَى
تَقَاسِمِ الرُّومِ لَا نَالَتْ مَقَاسِمَهُمْ	إِلَّا عَقَائِلَهَا الْمَحْجُوبَةَ الْأَنْسَا
وَفِي بَلْتَنَسِيَّةٍ مِنْهَا وَقُرْطُبَةٍ	مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا
مَدَائِنُ حَلَهَا الْإِشْرَاقُ مَبْتَسِمًا	جَدْلَانِ ، وَارْتَحَلَ الْإِيمَانَ مَبْتَسِمَا
وَصَيَّرَتِهَا الْعَوَادِي الْعَائِثَاتُ بِهَا	يَسْتَوْحِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضَعْفَ مَا أَنْسَا
فَمَنْ دَسَاكِرَ كَانَتْ دُونَهَا حِرْسَا	وَمَنْ كُنَائِسَ كَانَتْ قَبْلَهَا كُنْسَا
يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعَدَا بَيْعًا	وَلِلنَّدَاءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جِرْسَا
لَهْفِي عَلَيْهَا إِلَى اسْتِرْجَاعِ فَائِثَهَا	مَدَارِسًا لِلْمَثَانِي أَصْبَحَتْ دُرْسَا
وَأَرْبُعًا نَمِمْتَ أَيْدِي الرَّبِيعِ لَهَا	مَا شَتَّ مِنْ خِلَعِ مَوْشِيَّةٍ وَكُوسَا
كَانَتْ حِدَائِقَ لِلْأَحْدَاقِ مُؤَنِقَةً	فَصَوَّحَ النَّضْرَ مِنْ أَدْوَاهِهَا وَعَسَا
وَحَالَ مَا حَوْلَهَا مِنْ مَنَظَرِ عَجَبِ	يَسْتَجْلِسُ الرِّكْبَ أَوْ يَسْتَرْكَبُ الْجِلْسَا
سَرْعَانَ مَا عَاثَ جَيْشَ الْكُفْرِ وَاحْرَبَا	عَيْثَ الدَّبَابِ فِي مَغَانِيهَا الَّتِي كَبَسَا

١ أورد ابن خلدون (٦ : ٢٨٣) هذه القصيدة ، وانظر أزهار الرياض ٢ : ٢٠٧ .

وابتر بزتها مما تحيفها
 فأين عيش جسيناهُ بها خضراً
 محاسنها طاغٍ أتيج لها
 ورجَّ أرجاءها لما أحاط بها
 خلا له الجوه فامتدت يدها إلى
 وأكثر الزعم بالثلث منفرداً
 صل حبيلها أيها المولى الرحيم فما
 وأحي ما طمست منها العداة كما
 أيام صرت لنصر الحق مستبقاً
 وقمت فيها بأمر الله منتصراً
 تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم
 وتقضي الملك الجبار مهجته
 هذي رسائلها تدعوك من كشب
 وافتك جارية بالنجح راجية
 خاضت خضارة ١ يعلوها ويخفضها
 وربما سبحت والريح عاتية
 تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي
 ملك تقلدت الأملاك طاعته
 من كل غاد على يميناه مستلماً
 مؤيد لو رمى نجماً لأثبتته
 تالله إن الذي تُرجى السعود له
 إمارة يحمل المقدار رابتها

تحيف الأسد الضاري لما افترسا
 وأين عصر جليناهُ بها سلسا
 ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا
 فغادر الشم من أعلامها خنسا
 إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
 ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
 أبقى الميراس لها حبلاً ولا مرسا
 أحييت من دعوة المهدي ما طمسا
 وبيت من نور ذلك الهدي مقبسا
 كالصارم اهترأوكالعارض انبجسا
 والصبح ماحية أنواره العكسا
 يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
 وأنت أفضل مرجو لمن ينسا
 منك الأمير الرضى والسيد الندسا
 عبايه فتعاني اللين والشرسا
 كما طلبت بأقصى شدة الفرسا
 حفص مقبلة من تربه القلدا
 دينا ودنيا فغشاها الرضى لبسا
 وكل صاد إلى نعماه ملتسا
 ولو دعا أفقا لبتى وما احتبسا
 ما جال في خلد يوماً ولا هجسا
 ودولة عزها يستصحب القعسا

١ خضارة : البحر .

ييدي النهار بها من ضوءه شنباً
ماضي العزيمة والأيام قد نكلت
كانه البدر والعلياء هالته
تدييره وسع الدنيا وما وسعت
قامت على العدل والإحسان دولته
مبارك هديبه باد سكينته
قد نور الله بالتقوى بصيرته
بترى العصاة وراش الطائعين فقل
ولم يغادر على سهل ولا جبل
فرباً أصيد لا تلفي به صيداً
إلى الملائك ينمي والملوك معاً
من ساطع النور صاغ الله جوهره
له الثرى والثرياً خطتان فلا
حسب الذي باع في الأخطار يركبها
إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته
فظل يوطن من أرجائها حرماً
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حداً
كانما يمتطي واليمن يصحبه
فاستقبل السعد وضاحاً أسرته
وقبل الجود طقاً غواربه
يا أيها الملك المنصور أنت لها
وقد تواترت الأنبياء أنك من

ويطلع الليل من ظلمائه لعمسا
طلت المحيا ووجه الدهر قد عبسا
تحف من حوله شهب القنا حرسا
وعرف معروفه وآسى الورى وأسا
وأنشرت من وجود الجود ما رُمسا
ما قام إلا إلى حسنى وما جلسا
فما يبالي طروق الخطب ملتبسا
في الليث مفترساً والغيث مرتبسا
حياً لقاحاً إذا وافيته بنجسا
ورب أشوس لا تلقى له شوسا
في نبعه أثمرت للمجد ما غرسا
وصان صيقله أن يقرب الدنسا
أعز من خطيه ما سما ورسا
إليه حياه أن البيع ما وكسا
عصاه محتزماً بالعدل محترسا
وبات يوقد من أضوائها قبسا
آماله ومن العذب المعين حسا
من البحار طريقاً نحوه يبسا
من صفحة فاض منها النور وانعكسا
من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
علياء توسع أعداء الهدى تعسا
يُحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا

١ الحى اللقاح : الذين لا يدينون للملوك .

٢ ق : العد ؛ والعد : البشر القديمة الغزيرة الماء .

طهر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل^١ النجسا
وأطىء الفيلقَ الجرّارَ أرضهم^٢ حتى يطأطأ رأساً كلُّ من رأسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت عيونهم أدمعاً تهمي زكا وخسا^٣
هم شيعةُ الأمر وهي الدار قد نهكت داءٌ متى لم تباشر حسَمه انتكسا
فاملأ هنيئاً لك التأييدُ ساحتها جُرْداً سلاهبَ أو خطبَةً دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى

فبادر السلطان بإعانتهم^٣ ، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم ، من المال والأقوات والكُسى ، فوجدوهم في هوة الحصار ، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية ، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس ، وكان تغلب العدو على بلنسية صلحاً يوم الثلاثاء السابع عشر لصفري من سنة ست وثلاثين وستمائة . فهزّت هذه القصيدة من الملك عطفَ ارتياح ، وحركت من جنانه أخفض جناح ، ولشغفه بها وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها ، فجاوبها غير واحد . وحال العدو بين بلنسية وبينه ، وتعاهد أهلها مع النصراني على أن يسلمهم في أنفسهم ، وذلك سنة سبع وثلاثين وستمائة ، أعادها الله تعالى للإسلام .

[كتندة - ٥١٤]

وقد كانت وقعة كتندة^٤ على المسلمين قبل هذا التاريخ بمدة ، وكتندة - ويقال « قتنده » بالقاف - من حيز دورقة من عمل سرقسطة من الثغر الأعلى ، وكانت

١ قال المقري في الأزهار : « نغسل النجسا » هكذا ثبت بالنون كما رأيته في بعض النسخ العتيقة وهو أصوب مما وقع بخط بعضهم بالتاء ، لأن مثله لا يصلح للمخاطبات السلطانية ، ولم يشتهر عند أكثر الناس إلا بالتاء ، والصواب ما قدمته أنه بالنون ، والله أعلم .
٢ الزكا : الزوج ، والحسا : الفرد .
٣ انظر ابن عذاري ٣ : ٣٤٤ - ٣٤٥ (ط . المغرب) .
٤ في الخبر عن وقعة كتندة راجع معجم أصحاب الصديقي (٧ - ٨) ومعجم ياقوت (قتنده) .

الهزيمة على المسلمين جبرهم الله تعالى ، قُتل فيها من المطوّعة نحو من عشرين ألفاً ، ولم يُقتل فيها من العسكر أحد ، وكان على المسلمين الأمير إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الذي أُلّفَ الفتحُ باسمه « فلائد العقيان » وكانت سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وممن حضرها الشيخُ أبو علي الصديقي السابق الذكر ، وقرينه في الفضل أبو عبد الله ابن الفراء خرجا غازيين ، فكانا ممّن فُقد فيها .

وقال غير واحد : إن العسكر انصرف مفلولاً إلى بِلَنْسِيَةِ ، وإن القاضي أبا بكر ابن العربيّ كان ممن حضرها ، وسئل مَخْلَصَه منها عن حاله ، فقال : حال من ترك الخباء والعباء ، وهذا مثل عند المغاربة معروف ، يقال لمن ذهب ثيابه وخيامه ، بمعنى أنّه ذهب جميعُ ما لديه .

[لَوْشَة - ٦٢٢]

ودخل العدوّ لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمائة^١ ، مع السيد أبي محمد البياسي في الفتنة التي كانت بينه وبين العادل ، فعاثوا فيها أشدّ العَيْثُ ، ثم ردها المسلمون إلى أن أخذت بعد ذلك كما يأتي .

[المَرِيَّة - ٥٤٢]

ودخل العدوّ مدينة المَرِيَّة يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، عَنَوَة . وجكى أبو زكريا الحميدي^٢ عن أبي عبد الله ابن سعادة الشاطبي المعمر أن أبا مروان ابن ورد أتاه في النوم شيخ عظيم الهيئة فرمى يديه في عضديه من خلفه ، وهزه هزاً عنيفاً حتى أربعه ، وقال له قل :

١ سنة ٦٢٣ عند ابن عذاري (٣ : ٢٤٩) .

٢ الحميدي هو يحيى بن زكريا بن علي بن يوسف الأنصاري البلنسي ، توفي سنة ٦١٩ (التكملة رقم : ٢٠٦٣) . وفي ص : الحميدي ، وهو خطأ .

ألا أيها المغرورُ وينحك لا تنمُ فله في ذا الخلقِ أمرٌ قد انبهمُ
فلا بدّ أن يرزوا بأمر يسوءهم فقد أحدثوا جرماً على حاكم الأمم

قال : وكان هذا في سنة أربعين وخمسمائة ، فلم يمض إلا يسير حتى تغلب الروم على المرية في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، بعد تلك الرؤيا بعامين أو نحوهما ، وهو ممّا حكاه ابن الأبار الحافظ في كتاب « التكملة » له .

[ترجمة الرشاطي]

وفي وقعة المرية هذه استشهد الرشاطي الإمام المشهور^١ ، وهو أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن خلف بن أحمد بن عمر ، اللخمي الرشاطي ، المريبي . وكانت له عناية كبيرة بالحديث والرجال والرواة والتواريخ ، وهو صاحب كتاب « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار » أخذه الناس عنه ، وأحسن فيه ، وجمع وما قصر ، وهو على أسلوب كتاب أبي سعد ابن السمعاني الحافظ المسمى بـ « الأنساب » . وولد الرشاطي سنة ٤٦٦ بقرية من أعمال مرسية يقال لها أوريواله - بفتح^٢ الحمزة ، وسكون الواو ، وكسر الراء ، وضم المثناة التحتية . وبعد الألف لام مفتوحة ، وبعدها هاء - وتوفي شهيداً بالمرية عند تغلب العدو عليها صبيحة الجمعة العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ . والرشاطي - بضم الراء ، وفتح الشين المخففة - وذكر هو أن أحد أجداده كان في جسمه شامة كبيرة ، وكانت حاضنته عجمية ، فإذا لاعبته قالت : رُشاطة^٣ . وكثر ذلك منها ، فقبل له : الرشاطي ؛ انتهى ملخصاً من « وفيات الأعيان » ، وبعضه بالمعنى .

١ سقطت ترجمة الرشاطي من التكملة وهي واردة في معجم أصحاب الصدي (رقم : ٢٠٠) وابن خلكان ٢ : ٢٩١ - ٢٩٢ وعنه ينقل المقرئ ؛ وتذكرة الحفاظ : ١٣٠٧ .
٢ ابن خلكان : بضم .
٣ يعني Roseta .

[استرداد المرية وضياعها نهائياً]

وبعد أخذ النصارى المرية هذه المرة رجعت إلى ملك المسلمين ، واستنقذها الله تعالى على يد الموحدين ، وبقيت بأيدي أهل الإسلام سنين ، وكان أول الولاية عليها حين استولى عليها أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي رجلاً يقال له يوسف ابن مخلوف ، فثار عليه أهل المَريّة وقتلوه وقدّموا على أنفسهم الرميحي ، فأخذها النصارى منه عنوة كما ذكرنا ، وأحصي عدد من سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفاً .

وقال ابن حبيش^١ آخر الحفاظ بالأندلس : كنت في قلعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها الله تعالى للإسلام ، فتقدّمت إلى زعيم الروم السليطين ، وهو ابن بنت الأذفونش ، وقلت له : إنّي أحفظ نسبك منك إلى هرقل ، فقال لي : قل ، فذكرته له ، فقال لي : اخرج أنت وأهلك ومنّ معك طلقاء بلا شيء .
وابن حبيش شيخ ابن دحيّة وابن حوْط الله وأبي الربيع الكلاعي ، رحمهم الله تعالى .

ولما أخذت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين فحصرا النصارى بها ، وزحف إليهما أبو عبد الله ابن مرْدَنِيْش ملكُ شرق الأندلس محارباً لهما . فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخلاً وخارجاً ، ثم رأى ابنُ مرْدَنِيْش العارَ على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى ، فارتحل ، فقال النصارى : ما رحل ابنُ مرْدَنِيْش إلاّ وقد جاءهم مدد ، فاصطلحوا ، ودخل الموحدون المدينة ، وقد خربت وضعفت ، إلى أن أحيا رَمَقَهَا الرئيس أبو العباس أحمد بن كمال ، وذلك أن أخته أخذت سبباً في دخلة عبد المؤمن

١ يعني أبا القاسم الإمام الحافظ عبد الرحمن بن الأنصاري نزيل مرسية ، وحبيش هو خاله نسب إليه ، ولد بالمرية سنة ٥٠٤ وتوفي سنة ٥٨٤ وقد ترجم له كل من ابن الأبار (رقم : ١٦١٧) وابن الزبير (انظر تذكرة الحفاظ : ١٣٥٣) .

لبحانة ، فاحتلت بقصره واعتنت بأخيها ، فولاه بلده ، فصلح به حالها ، وكان جواداً حسن المحاولة كثير الرفق ، واشتهر من ولاتها في مدة بني عبد المؤمن في المائة السابعة الأمير أبو عمران ابن أبي حفص عم ملك إفريقية أبي زكريا .

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة وثار الأندلس على مأمون بني عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود بِمُرُسيّة قام في المرية بدعوة ابن هود أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي يحيى ابن الرميمي ، وجدّه أبو يحيى هو الذي أخذها النصراري من يده ، ولما قام بدعوة ابن هود وفد عليه بِمُرُسيّة وولاه وزارته ، وصرف إليه سياسته ، وآل أمره معه إلى أن أغراه بأن يحصن قلعة المرية ، ويجعلها له عدة ، وهو يبغى ذلك عدة لنفسه ، وترك ابن هود فيها جارية تعلق ابن الرميمي بها ، واجتمع معها ، فبلغ ذلك ابن هود ، فبادر إلى المرية ، وهو مضمر الإيقاع بابن الرميمي ، فتغدى به قبل أن يتعشى به ، وأخرج من قصره ميتاً ، ووجهه في تابوت إلى مُرُسيّة في البحر ، واستبدّ ابن الرميمي بملك المرية ، ثم ثار عليه ولده ، وآل الأمر بعد أحوال إلى أن تملكها ابنُ الأحمر صاحبُ غرناطة ، وبقيت في يد أولاده بعده إلى أن أخذها العدو الكافر عندما طوي بساط بلاد الأندلس كما سننه عليه ، والله غالبٌ على أمره .

[شعر في العقاب]

وما أحسن قول أبي إسحاق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي في هزيمة العقاب
بإشبيلية :

وقائلة أراك تُطِيلُ فِكرًا كأنك قد وقفت لدى الحسابِ
فقلتُ لها أفكر في عقاب غدا سيبأ لمركة العقابِ
فما في أرض أندلس مُقامٌ وقد دخلَ البلاء من كلِّ بابِ

[ابن وزير]

وقول القائد أبي بكر ابن الأمير ملك شلب أبي محمد عبد الله^١ بن وزير
يخاطب منصور بني عبد المؤمن وقد التقى هو وأصحابه مع جماعة من الفرنج
فتناصفوا ، ثم كان الظفر للمسلمين :

ولما تلاقيننا جرى الطعنُ بيننا
وجالَ غرارُ الهندِ فينا وفيهمُ
فمنا ومنهم طائحونٌ عديدُ
فمنا ومنهم قائمٌ وحصيدُ
وحوّلَ الوريدَ للحسامِ ورودُ
فلا صدرَ إلا فيه صدرٌ مشقّفُ
صبرنا ولا كهفِ سوى البيضِ والقنا
ولكن شددنا شدةً فتبلّدوا
فولوا وللسمُرِ الطّوالِ بهامهم
فمنا ومنهم طائحونٌ عديدُ
فمنا ومنهم قائمٌ وحصيدُ
وحوّلَ الوريدَ للحسامِ ورودُ
فلا صدرَ إلا فيه صدرٌ مشقّفُ
صبرنا ولا كهفِ سوى البيضِ والقنا
ولكن شددنا شدةً فتبلّدوا
فولوا وللسمُرِ الطّوالِ بهامهم

وكان المذكور من فرسان الأندلس ، وكان ابنه الفاضل أبو محمد غير مقصر
عنه فروسيةً وقدرًا وأدبًا وشعرًا ، وولاه ناصر بني عبد المؤمن مدينة قصر أبي
دانس في الجهة الغربية ، وقتله ابن هود بإشبيلية ، وزعم أنه يروم القيام عليه ،
ومن شعره قوله في ابن عمرو صاحب أعمال إشبيلية :

لا تياسن من الخلافة بعدما
تبأً لدهر هذه أفعاله
ولي ابن عمرو خطة الأشراف
يضعُ النوافج في يدي كتاف

[ضياع ماردة]

رجع - ودخل العدو كورة ماردة من محمد بن هود سنة ست وعشرين

١ قد قدمت التعليق على هذا الاسم ، وهو أبو بكر ابن أبي محمد سيدراي بن عبد الوهاب بن وزير
القيسي ؛ ومن بني وزير عبد الله بن وزير الذي كان يدافع عن حصن أبي دانس لما كان البرتغاليون
يحاولون الاستيلاء عليه سنة ٦١٤ .

وستمائة ، وكانت مفتتح المصائب على يده ، أعادها الله تعالى للإسلام ، وهي قاعدة بلاد الجوف في مدة العرب والعجم ، والحضرة المستجدة بعدها هي مدينة بَطْلَيْوَس ، وبين ماردة وقرطبة خمسة أيام .

[المظفر ابن الأفطس وابنه المتوكل]

وملك بَطْلَيْوَس وماردة وما إليها المظفر محمد بن المنصور بن الأفطس مشهور ، وهو من رجال « القلائد » و « الذخيرة » وهو أديب ملوك عصره بلا مدافع ولا منازع ، وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم به « التذكرة المظفري » خمسون مجلداً اشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ومثل وخبر وجميع علوم الأدب ، وقال يوماً : والله ما يمنعني من إظهار الشعر إلاّ كوني لا أقول مثل قول أبي العشائر ابن حمدان^١ :

أقرأت منه ما تخطّ يد الوغى والبيض تشكل والأسنة تنقُطُ

. وقول أبي فراس ابن عمه^٢ :

وجرّنا العوالي في مقام^٣ تحدث عنه ربّات الحجال
كأنّ الخيل تعلم من عليها ففي بعض علي بعض تعالي

فأين هذا من قولي :

أنفت من المدام لأنّ عقلي أعزّ عليّ من أنس المدام
ولم أرتح إلى روض وزهر ولكن للحمائيل والحسام

١ يتيمة الدهر ١ : ٢١٠ .

٢ ديوان أبي فراس : ٢٨٤ .

٣ الديوان : وعدت أجز رحمي عن مقام .

إذا لم أملك الشّهوات قهراً فليمّ أبغي الشفوف على الأنام^١
وله رحمه الله تعالى :

يا لحظهُ زدْ فُتوراً تزد عليّ اقتدارا
فالحظُّ كالسيف أمضا ه ما يرقُّ غيراراً

وابنه المتوكل من رجال « القلائد » و « المسهب » وكان في حضرة بطّليوس
كالمتعمد بن عباد بإشبيلية ، قد أناخت الآمال بحضرتيها ، وشُدَّت رحال الآداب
إلى ساحتهما ، يتردد أهل الفضائل بينهما كتردد النواصم بين جتتين ، وينظر
الأدب منهما عن مقتلين ، والمعتمد أشعر ، والمتوكل أكتب .

[شعر لأبي عبد الله الفازازي]

رجع — وقال الفاضل الكاتب أبو عبد الله محمد الفازازي ، وقيل : إنَّها
وجدت برقعة في جيبه يوم موته :

الرومُ تضرب في البلاد وتغنمُ والجور يأخذ ما بقى والمغرّمُ
والمال يوردُ كلُّه قشتالة والجنود تسقط والرعيّة تسلّم
وذوو التعين ليس فيهم مُسلم إلاّ معين في الفساد مُسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها الله يلطف بالجميع ويرحم

وقيل : إن هذه الأبيات رُفعت إلى سلطان بلده ، فلمّا وقف عليها قال
بعدهما بكى : صدق رحمه الله تعالى ، ولو كان حيّاً ضربت عنقه .

١ سقط البيت من ص .

وهذا الفازازي أخو الشاعر الشهير الكاتب الكبير أبي زيد عبد الرحمن الفازازي^١ صاحب « الأمداح » في سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، وهو كما قال فيه بعضهم : صاحب القلم الأعلى ، والقِدْح المَعْلَى ، أبرع من ألف وصنّف ، وأبدع من قرّط وشنّف ، فقد طاع القلم لبنانه ، والنظم والنثر لبيانه ، كان نسيجَ وَحْدِهِ رواية وأخباراً ، ووحيد نَسْجِه روية وابتكاراً ، وفريد وقته خبراً وإخباراً ، وصدر عصره لإيراداً وإصداراً ، صاحب فهم ، ورافع ألوية علوم ، أما الأدب فلا يُسبق فيه مضماره ، ولا يُشَق غباره ، إن شاء إنشاءً أنشى ووشى ، سائل الطبع ، عذب التبع ، له في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، بدائع قد خضع لها البيان وسلم ، أعجز بتلك المعجزات نظماً ونثراً ، وأوجز في تحيير تلك الآيات البيّنات فجلاً سحرّاً ، ورفع للقوافي راية استظهارٍ تخير فيها الأظهر ، فعجم وعشر وشفع وأوتر ، وأمّا الأصول فهي من فروعه ، في متفرق منظومه ومنتور مجموعه ، وأمّا النسب ، فألى حفظه انتسب ، وأمّا الأيام والدول ، ففي تاريخه الأواخر والأول ، وقد سبك من هذه العلوم في منتوره وموزونه ، ما يشهد بإضافتها إلى فنونه ، وله سماع في الحديث ورواية ، وفهم بقوانينه ودراية ، سمع من أبي الوليد اليزيد بن عبد الرحمن بن بقيّ القاضي ، ومن أبي الحسن جابر بن أحمد القرشي التاريخي ، وهو آخر من حدث عنه ، ومن أبي عبد الله التّجيبّي كثيراً وهو أول من سمع عنه في حياة الحافظ أبي الطاهر السّلفي إذ قدم عليهم تليّمسان ، وأجازه الحافظ السهيلي وابن خلف

١ هو عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد اليجنشي الفازازي ، ولد بقرطبة ونشأ بها ثم سكن تلمسان ، وكان عالماً بالحديث متصرفاً في فنونه ، كاتباً شاعراً مجوداً ، مشاركاً في أصول الفقه ، ذا معرفة بعلوم الكلام ، تجول ببلاد العدو والأندلس كثيراً ، وغلب عليه شعر الزهد والتصوف (التكملة رقم : ١٦٤١) .

الحافظ وغيرهما ، وولد بعد الحسين والحسمائة ، وتوفي بمراكش سنة ٦٣٧ ،
رحمه الله تعالى ؛ انتهى ملخصاً .

[سقوط ميورقة عن ابن عميرة]

رجع - ولما ثارت الأندلس على طائفة عبد المؤمن كان الوالي بجزيرة
ميورقة أبو يحيى ابن أبي عمران التينملي^١ فأخذها الفرنج منه ، كذا قال ابن سعيد ،
وقال ابن الأبار : إنها أخذت يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة سبع
وعشرين وستمائة .

وقال المخزومي في تاريخ ميورقة^٢ : إن سبب أخذها من المسلمين أن أميرها
في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى كان في الدولة الماضية أحد أعيانها ،
ووليها سنة ست وستمائة ، واحتاج إلى الخشب المجلوب من يابسة ، فأنفذ طريدة
بحرية وقطعة حربية ، فعلم بها والي طرطوشة ، فجهز إليها من أخذها ، فعظم
ذلك على الوالي ، وحدث نفسه بالغزو لبلاد الروم ، وكان ذلك رأياً مشؤوماً ،
ووقع بينه وبين الروم ، وفي آخر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بلغه
أن مسطحاً من برشلونة^٣ ظهر على يابسة ، ومركباً آخر من طرطوشة انضم إليه ،
فبعث ولده في عدة قطع إليه حتى نزل مرسى يابسة ، ووجد فيه لأهل جنوة
مركباً كبيراً ، فأخذه وسار حتى أشرف على المسطح ، فقاتله وأخذه ، وظن أنه
غالب الملوك ، وغاب عنه أنه أشأم من عاقر الناقة^٤ ، وأن الروم لما بلغهم الخبر

١ ق : التيفلي .

٢ هو أبو المطرف ابن عميرة المخزومي ، وقد ألف كتاباً في كائنة ميورقة قال فيه ابن عبد الملك :
إنه نحا فيه منحى العماد في الفتح القسي ، فالمقري هنا يلخص وينقل بتصريف . (انظر كتاب
« أبو المطرف ابن عميرة » للأستاذ بن شريفة ٢٨٧ - ٢٩١) .

٣ ص : برجلونة .

٤ هو قدار الذي يضرب به المثل في الشؤم .

قالوا للملكهم وهو من ذرية أذفونش : كيف يرضى الملك بهذا الأمر ونحن نقاتل بنفوسنا وأموالنا ؟ فأخذ عليهم العهد بذلك ، وجمع عشرين ألفاً من أهل البلاد ، وجهّز في البحر ستة عشر ألفاً ، وشرط عليهم حمل السلاح ، وفي سنة ست وعشرين وستمائة اشتهر أمر هذه الغزوة فاستعد لها الوالي ، وميز نيّماً على ألف فارس من فرسان الحضرم والرعية مثلهم ، ومن الرجالة ثمانية عشر ألفاً ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة ، ومن سوء الاتفاق أن الوالي أمر صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر ، فساقهم وضرب أعناقهم ، وكان فيهم ابنا خاله ، وخالهما أبو حفص ابن سيرى ذو المكانة الوجيّهة ، فاجتمعت الرعية إلى ابن سيرى ، فأخبروه بما نزل ، وعزوه فيمن قُتل وقالوا : هذا أمر لا يطاق ، ونحن كل يوم إلى الموت نساق ، وعاهدوه على طلب الثأر ، وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال ، والناس من خوفه في أهوال ، ومن أمر العدو في إهمال ، فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم ، وإذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالي ، وأخبره بأن الروم قد أقبلت ، وأنه عد فوق الأربعين من القلوع ، وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر من جانب آخر وقال : إن أسطول العدو قد تظاهر ، وقال : إنّه عد سبعين شراعاً ، فصح الأمر عنده ، فسمح لهم بالصفح والعفو ، وعرفهم بخبر العدو ، وأمرهم بالتجهز ، فخرجوا إلى دورهم ، كأنّما نُشِرُوا من قبورهم . ثم ورد الخبر بأن العدو قرب من البلد ، فإنّهم عدوا مائة وخمسين قلعا ، ولما عبر وقصد المرسى أخرج الوالي جماعة تمنعهم التزول ، فباتوا على المرسى في الرّجل والخيل . وفي الثامن عشر من شوال وهو يوم الاثنين ، وقع المصاف ، وانهزم المسلمون ، وارتحل النصرارى إلى المدينة ، ونزلوا منها على الحريية الحزينة من جهة باب الكحل ، ولم يزل الأمر في شدة وقد أشرفوا على أخذ البلد ، ولما رأى ابن سيرى¹ أن العدو قد استولى على البلد خرج

١ ق : ابن سيرى .

إلى البادية ، ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالاً شديداً ، ولما كان يوم الأحد أخذ البلد ، وأخذ منه أربعة وعشرون ألفاً قُتلوا على دم واحد ، وأخذ الوالي وعُذّب ، وعاش بعد ذلك خمسة وأربعين يوماً ، ومات تحت العذاب ، وأمّا ابن سيرى فإنه صعد إلى الجبل ، وهو منيع لا يُنال من تحصن فيه ، وجمع عنده ستة عشر ألف مقاتل ، وما زال يقاتل إلى أن قُتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وجده من آل جبّالة بن الأيهم الغساني ، وأما الحصون فأخذت في آخر رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين إلى بلاد الإسلام ؛ انتهى ما ذكره ابن عميرة المخزومي ملخصاً .

وكان بميَورقة جماعة أعلام وشعراء ، ومن شعر ابن عبد الوالي الميورقي ١ :

هل أمانٌ من لحظك الفتانِ وقوام يميلُ كالخيزرانِ
مهجتي منك في جحيمٍ ، ولكنَّ جفوني قد مُتعت في جنانِ
فتنتني لواحظ ساحرات لستُ أخشى من فتنة الشيطانِ

[سعيد بن حكم في منورقة]

ولما استولى النصارى على ميَورقة في التاريخ المتقدم ثار بجزيرة منورقة ، وهي قريبة منها ، الجواد العادل العالم أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي ، وكان وليها من قبل الوالي أبي يحيى المقتول ، وتصالح مع النصارى على ضريبة معلومة ، واشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى ، وضبطها أحسن ضبط ، قال أبو الحسن علي بن سعيد : أخبرني أحد من اجتمع به أنه لقي منه برآ حجب إليه الإقامة في تلك الجزيرة المنقطعة ، وذكر أنه ركب معه فنظر إلى حمالة سيف

١ ترجمته وشعره في المغرب ٢ : ٤٦٨ .

ضيقة وقد أثرت في عنقه ، فأمر له بإحسان وغنباز ، وكتب معه :

حمالة السيف تُوهي جيدَ حاملها لا سيّما يومَ إسراعٍ وإنجازٍ
وخيرُ ما استعمل الإنسانُ يومئذٍ لحسمِ علتها إلباسَ غنبازِ

والغنباز عند أهل المغرب : صنف من الملابس غليظ يستر العنق .
وأصل أبي عثمان من مدينة طبيرة من غرب الأندلس ، وقد ألفت باسمه
التأليف المشهورة بالمغرب ككتاب « رَوْحُ الشجر وروح الشعر » وغيره ؛
وأخذ العدو منورقة بعد مدة .

[سقوط عدة مدن]

وأخذ العدو جزيرة شقر صلحاً سنة تسع وثلاثين وستمائة في آخرها .
وأخذ العدو - دمره الله تعالى - مدينة سَرَ قَسْطَةَ يوم الأربعاء لأربع خلون من
رمضان سنة اثنتي عشرة وخمسمائة .

وكان استيلاء الإفرنج على شرق الأندلس شاطبة وغيرها وإجلاؤهم مَنْ
يشاركهم من المسلمين فيما تغلبوا عليه منها في شهر رمضان سنة خمس وأربعين
وستمائة .

وكان استيلاء العدو - دمره الله تعالى - على مدينة قَرْطُبَةَ يوم الأحد الثالث
والعشرين لشوال من سنة ست وثلاثين وستمائة .

وكان تملك العدو مَرْسِيَةَ صلحاً ظهر يوم الخميس العاشر من شوال ، قدم
أحمد بن محمد بن هود ولد والي مرسية بجماعة من وجوه النصارى ، فملكهم
إياها صلحاً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وحصر العدو إشبيلية سنة خمس وأربعين وستمائة . وفي يوم الاثنين الخامس
من شعبان للسنة بعدها ملكها الطاغية صاحب قشتالة صلحاً بعد منازلتها حولاً كاملاً
وخمسة أشهر أو نحوها . وقال ابن الأبار في ترجمة أبي علي الشلوبين من « التكملة »

ما صورته : وتوفي بين يدي منازل الروم لإشبيلية ليلة الخميس منتصف صفر سنة خمس وأربعين وستمائة ، وفي العام القابل ملكها الروم .

[موقعة أنيشة - ٦٣٤ و ترجمة أبي الربيع ابن سالم]

وكانت وقعة أنيجه^١ التي قُتل بها الحافظ أبو الربيع الكلاعي رحمه الله تعالى يوم الخميس لعشر بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة ، ولم يزل رحمه الله تعالى متقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار مقبلاً على العدو ينادي بالمنهزمين : أعن الجنة تفرون ؟ حتى قُتل صابراً محتسباً برّد الله تعالى مضجعه ، وكان دائماً يقول : إن منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها في صغره ، فكان كذلك ، وراثه تلميذه الحافظ أبو عبد الله ابن الأبار بقصيدته الميمية الشهيرة التي أولها^٢ :

ألمّا بأشلاء العُلا والمكارمِ تقدّ بأطراف القنّا والصّوارمِ
وعوجا عليّها مأرباً وحفاوة^٣ مصارع خُصّت بالطلّي والجماجمِ
نُحَيّي وجوهاً في الجنان وجيهة [بما لقيت حمراً وجوه الملاحم]
[وأجساد إيمان كساها نجيعها]^٤ مجاسد من نسج الطّبي واللهازمِ
وهي طويلة .

ومن شعر الحافظ أبي الربيع المذكور^٥ :

١ انظر الروض المطار : (أنيشة) .

٢ أوردتها ابن عبد الملك في الذيل ٤ : ٩٠ - ٩٥ .

٣ الأصول : ومفازة .

٤ صوبناه عن الذيل بزيادة ما بين معقنين .

٥ الذيل والتكملة ٤ : ٨٨ .

ووافى صباحاً للرشاد مبينُ
 وجيش مشيب جهزته منون
 وكيف ولا يخفى عليه جنين
 فمن مذهبي أن الرياء يشين
 كما ريع بالعلق الفقيد ضنين
 فخطت بقلبي للشجون فنون
 وآتق مهما لاحظته عيون
 وأنس خلا منه صفاً وحجون
 تزيّد شيبى كيف بعدُ يكون
 وكيف مع الشيب الممضّ سكون
 فما لي عراني للمشيب جنون
 ولم يعلموا أن الحديث شجون

تولّت ليالٍ للغواية جُونُ
 ركاب شبابٍ أزمعت عنك رحلةً
 ولا أكذب الرحمنَ فيما أُجِنّه
 ومن لم يخلّ أن الرياء يشينه
 لقد ريعَ قلبي للشباب وفقده
 وآلني وخطّ المشيب بلمّتي
 وليل شبابي كان أنضّرَ منظراً
 فأها على عيش تكدر صفوه
 ويا ويحَ فؤدي أو فؤادي كلما
 حرامٌ على قلبي سكونٌ بغرّة^١
 وقالوا شباب المرء شعبة جنة
 وقالوا شجاك الشيب حدثان ما أتى

وقوله^٢ :

وما أحد ياربّ منك بيذا^٣ أولى
 فأوزعها شكراً وأوسعها طولا
 أقلّ حليّ عليائه يُخرِسُ القولا
 فكن قوّتي في مطلبي وكنّ الحولا
 ولو لقيت نفسي على نيله الهولا

أمّوى الموالى ليسَ غيرك لي مولى
 تبارك وجهٌ وجهت نحوه المنى
 وما هو إلا وجهك الدائم الذي
 تبرأت من حولي إليك وقوّتي
 وهب لي الرضى ما لي سوى ذاك مبتغى

وكان - رحمه الله تعالى - حافظاً للحديث ، مبرّزاً في نقده ، تام المعرفة

١ الذيل : يقره .

٢ الذيل : ٨٧ .

٣ ق : بنا .

بطرقه ، ضابطاً لأحكام أسانيدهِ ، ذا كراً لرجاله ، رياناً من الأدب ، خطب ببلنسية ، واستقضى ، وكان مع ذلك من أولي الحزم والبسالة والإقدام والجزالة ، حضر الغزوات وباشر القتال بنفسه وأبلى بلاء حسناً ، وروى عن أبي القاسم ابن حبيش وطبقته ، وصنف كتباً منها « مصباح الظلم » في الحديث ، و « الأربعون » عن أربعين شيخاً لأربعين من الصحابة ، و « الأربعون السباعية » و « السباعيات » من حديث الصديقي ، و « حلية الأمالي في الموافقات والعوالي » و « تحفة الرواد ونجعة الرواد »^١ و « المسلسلات » و « الإنشادات » و « كتاب الإكتفاء في مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازي الثلاثة الخلفاء » و « ميدان السابقين وحلقة الصادقين المصدقين » في غرض كتاب الاستيعاب ، ولم يكمله ، و « المعجم » فيمن وافقت كنيته [كنية] زوجه من الصحابة ، و « الإعلام بأخبار البخاري الإمام » و « المعجم في مشيخة أبي القاسم ابن حبيش » و « برنامج رواياته »^٢ و « جني الرطب في سني الخطب » و « نكتة الأمثال ونقشة السحر الحلال » و « جهد النصيح »^٣ في معارضة المعري في خطبة الفصيح » و « الامتثال لمثال المبهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال » و « مفاوضة القلب العليل ومنابذة الأمل الطويل بطريقة المعري في ملقى السبيل » و « مجاز فتيا اللحن للاحن الممتحن » مائة مسألة ملغزة ، و « نتيجة الحب الصميم وزكاة المنثور والمنظوم في مثال النعل النبوية على لابسهما أفضل الصلاة والسلام » ، قال ابن رشيد : لو قال وزكاة النثر والنظيم لكان أحسن ، وله كتاب « الصحف المنشرة في القطع المعشرة » و « ديوان رسائله » سفر ، و « ديوان شعره » سفر^٤ ، وكتب إلى الأديب الشهير أبي بحر صفوان بن إدريس المرسي عقب انفصاله من

١ ساه ابن عبد الملك : « تحفة الرواد في العوالي البدلية والاسناد » .

٢ الذيل : مروياته .

٣ الذيل : وجهد النصيح وحظ المنيح .

٤ الذيل : سفير .

وماذا الذي يغني حنيني أو يُجدي
 محبهم رهن الصباية والوجد
 ووجدني فساوى ما أُجِنُّ الذي أبدي
 وشاحٌ بخصرٍ أو سوار على زند
 وبعض الذي لاقيته من جوى يُردي
 كأنَّ صروف الدهر كانت على وعد
 لهُ أبداً شوق إلى سرحتي نجد
 ضحيت فهل ظلُّ يسكن من وجدني
 لعلَّ لأنس قد تصرَّم من رَدِّ
 ونقطف زهر الوصل من شجر الصدِّ
 كرام السجايا لا يحولون عن عهد
 ولا كابن إدريس أخي البشر والمجد
 وذو خلقٍ كالزهر غيب الحيا العِدِّ
 فمن خلق سبط ومن حسب جعد
 وفلن من عزمي وثلم من حدِّي
 ألا مذ نأيتم ما يُعيد ولا يُبدي
 وعيشٌ كما نَمَنَمَت حاشيتي بُرد
 فيبدو ، ومننا الشمل منتظم العقد

أحنُّ إلى نجد ومن حلَّ في نجدٍ
 وقدَّ أوطنوها وادعينَ وخلّفوا
 تبيينَ بالبينِ اشتياقي إليهم
 وضائق عليَّ الأرض حتى كأنّها
 إلى الله أشكو ما أُلَاقِي من الجوى
 فراقُ أخلاءٍ وصدِّ أحبِّة
 فيا سَرَحَتِي نجد ، نداءً متيمَّ
 ظمئتُ فهل ظلُّ يبرِّد لوعي
 ويا زمناً قد بانَ غيرَ مُدَمِّم
 لياليَ نجني الأنس من شجر المني
 وسقياً لإخوان بأكناف حاجرٍ
 وكم لي بنجد من سريٍّ ممجدٍ
 أخو همّة كالزهر في بُعد نيلها
 تجمّعت الأضداد فيه حميدة
 أيا راحلاً أودى بصبري رحيله
 أتعلم ما يلقي الفؤاد لبعدكم
 فيا ليت شعري هل تعود لنا المني
 عسى الله أن يذني السرور بقربكم

[ابن العربي ومعركة ٥٢٧]

وقال الحافظ القاضي أبو بكر ابن العربي في « أحكام القرآن »^٢ عند تفسير

١ ق : وما أبدي .

٢ انظر أحكام القرآن ج ٢ : ٩٤٣ .

قوله تعالى ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ (التوبة : ٤١) ما صورته : ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله تعالى - سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، فجاس ديارنا ، وأسر جيرتنا ، وتوسّط بلادنا في عدّد حدّد الناس عدده فكان كثيراً ، وإن لم يبلغ ما حدّده ، فقلت للوالي والمولى عليه : هذا عدو الله قد حصل في الشّرك والشبكة ، فلتكن عندكم بركة ، ولتكن منكم إلى نصره الدين المتعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار ، فيحاط به ، فإنّه هالك لا محالة إن يسّرکم الله له ؛ فغلبت الذنوب ، ورجفت بالمعاصي القلوب ، وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوي إلى وجاره ، وإن رأى المكيدة بجاره ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ انتهى .

ولا خفاء أن هذا كان قبل أخذ العدو شرق الأندلس وسرقسطة وميورقة وغيرها ممّا قدمنا ذكره ، والبدايات ، عنوانٌ على النهايات .

[قصيدة الوقشي في مدح أبي يعقوب]

وقال أبو جعفر الوقشي البلنسي^١ نزيل مالقة يمدح أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي :

أبتُ غير ماء بالنخيل ورُودا	وهامت به عذب الجِمام برُودا
وقالت لحاديها أثمّ زيادة	على العشر في وِردِي له فأزيدا
غلبتك ما هذا القنوع وما أنا	عهدتك لا تثنين عنه وريدا
أنوناً إذا ما كنت منه قريبة	وضبياً إذا ما كان عنك بعيدا
ردي حضرة الملك الظليل رواقه	لعمرى ففيها تحمدين ورودا
بجيثُ إمام الدين يوسع فضله	جميع البرايا مبدئاً ومُعيدا

١ البلنسي : سقطت من ق ؛ وقد كان أبو جعفر الوقشي وزيراً لابن هشك ، وهو ممدوح الرصافي البلنسي .

أعاد إليها الأنسَ بعد شروده وأحيا لنا ما كان منه أبدا
ولتینَ أيامَ الزمان بعده وكانت حديداً في الخطوب حديدا
فلا ليلة إلا يروكك حسنها ولا يوم إلا عاد بفضل عيدا

ومنها يصف حال الأندلس ويبعث على الجهاد :

ألا ليت شعري هل يمد لي المدى فأبصرَ شملَ المشركين طريدا
وهل بعدُ يقضى في النصرى بنصرة تغادرهم للمرهقات حصيدا
ويغزو أبو يعقوبَ في شنتَ ياقب يُعيدُ عميدَ الكافرينَ عميدا
ويلقي على إفرنجهم عبءَ كلكل فيتركهم فوق الصعيد هُجودا
يغادرهم جرحَى وقلى مبرحاً ركوعاً على وجه الفلا وسُجودا
ويفتكُ من أيدي الطغاة نواعماً تبدلن من نظمِ الحجول قيودا
وأقبلن في خشن المسوح وطالما سحبن من الوشي الرقيق بُرودا
وغبّرَ منهن الترابُ ترائباً وخدد منهن الهجيرُ خلدودا
فحقّ لدمعي أن يفيض لأزرقٍ تملكها دُعجَ المدامع سودا
ويا لهف نفسي من معاصم طفلة تجاورُ بالقيد الأليم نهودا
ويا أسفاً ما إن يزال مُردّداً على شملِ أعياد أُعيد بديدا
وأهاً تمدُّ الصوت منتحباً على خلوّ ديار لو يكون مفيدا

وقال في آخرها ، وهو مما استحسنته الناس :

حملتُ إليه من نظامي قلادة يلقبها أهلُ الكلام قصيدا
غدتُ يومَ إنشاد القريض وحيدة كما قصدت في المعلوات وحيدا

ولما تمهدت الأندلس لعبد المؤمن وبنه كان لهم فيها وقائع مع عدوِّ الدين ،
واجتاز إليها عبدُ المؤمن . ثم لما ولي بعده ملكه ابنه يوسف دخل الأندلس سنة
٥٦٦ ، وفي صحبته مائة ألف فارس من العرب والموحدين ، فنزل بإشبيلية ،

فخافه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن مرْدَنيش صاحبُ شرق الأندلس :
 مُرْسِيَّة وأعمالها وما انضاف إليها ، فحمل على قلبه فمرض فمات ، وشرع
 السلطان يوسف في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج ، فاتسعت مملكته
 بالأندلس ، وأغارت سراياه على طُلَيْطَلَة إذ هي قاعدة ملكهم ، ثم إنّه حاصرها
 فاجتمعت طائفة الفرنج عليه ، واشتد الغلاء في عسكره ، فرحل عنها وعاد إلى
 حضرة ملكه مراکش المحروسة .

[قصيدة في استنهاض الحفصي بعد سقوط بلنسية]

ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى — دمرهم الله تعالى — على كثير
 منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثار ، بالنظم والنثار ، فلم ينفعهم
 ذلك حتى اتسع الحرق ، وأعضل الداء أهلَ الغرب والشرق ، فمن القصائد
 الموجهة في ذلك قولُ بعضهم لما أخذت بلنسية يخاطب صاحب إفريقية أبا زكريا
 ابن عبد الواحد بن أبي حفص :

نادتك أندلسٌ فلبَّ نداءها	واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرختَ بدعوتك العليَّة فاحبها	من عاطفاتك ما يقي حوباءها
واشدد بجلبك جُردَ خيلك أزرها	تردد على أعقابها أرزاءها
هي دارك القصوى أوت لإيالة	ضمنت لها مع نصرها إيواءها
وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى	سبُل الضراعة يسلكون سواءها
خلعت قلوبهم هناك عزاءها	لما رأت أبصارهم ما ساءها
دُفِعُوا لأبكار الخطوب وعونِها	فهمُ الغداة يصابرون عناءها
وتنكرت لهم الليالي فاقتضت	سراءها وقضتهمُ ضراءها
تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا	لم يضمن الفتحُ القريبُ بقاءها
رِشُ أيها المولى الرحيم جناحها	واعقد بأرشية النجاة رِشاءها

أشفي على طرف الحياة ذمّاءها
حاشاك أن تفتي حُشاشتها وقد
طافت بطائفة الهدى آمالها
واستشرقت أمصارها لإمارة
يا حسرتي لعقائل معقولة
إيه بلنسية وفي ذكراك ما
كيف السبيل إلى احتلال معاهد
وإلى ربّي وأباطح لم تعرّ من
طاب المعرّس والمقيل خلاها
بأبي مدارس كالطلول دوارس
ومصانع كسف الضلال صباحها
راحت بها الورقاء تسمع شدّوها
عجباً لأهل النار حلّوا جنّة
أملت لهم فتعجلوا ما أمّلتوا
بعداً لنفس أبصرت إسلامها
أمّا العلوج فقد أحالوا حالها
أهدى إليها بالمكاره جارح
وكفى أسى أن الفواجع جمّة
هيئات في نظر الإمارة كفّ ما
مولاي هاك معادة أنباءها
جرّد ظبّاك لمحو آثار العدا
واستدع طائفة الإمام لغزوها
لا غرو أن يعزى الظهور للمّة
إن الأعاجم للأعارب نهبّة

فاستبق للدين الحنيف ذمّاءها
قصرت عليك نداءها ورجاءها
ترجّو بيحيى المرتضى إحياءها
عقدت لنصر المستضام لواءها
سثم الهدى نحو الضلال هداها
يمري الشئون دماءها لا ماءها
شبّ الأعاجم دونها هيّجاءها
حلّل الربيع مصيفها وشتاءها
وتطلعت غررّ المنى أثناءها
نسخت نواقيس الصليب نداءها
فيخاله الرائي إليه مساءها
وغدت تُرجع نوحها وبكاءها
منها تمدّ عليهم أفياءها
أيامهم لا سوّغوا إملاءها
فتوكفت عن حزبها إسلاءها
فمن المطيق علاجها وشفاءها
للكفر كره ماءها وهواءها
فمتى يقاوم أسوأ أسوأها
تخشاه ، ليت الشكر كان كفاءها
لتنيل منك سعادة أبناءها
تقتل ضرّاعِمها وتسبّ طبّاءها
تسبق إلى أمثالها استدعاءها
لم يبرحوا دون الورى ظُهراءها
مهما أمرت بغزوها أحياءها

تالله لو دبّت لها دبابها
ولو استقلت عوفها لقتالها
أرسل جوارحها تجثك بصيدها
هبوا لها يا معشر التوحيد قد
إن الحفاظ من خلالكم التي
هي نكته المحيا فحيهلا بها
أولوا الجزيرة نصرة إن العدا
نقصت بأهل الشرك من أطرافها
حاشاكم أن تضمروا إغاءها
خوضوا إليها بجرها يصبح لكم
وافى الصريخ مثوباً يدعو لها
دار الجهاد فلا تفتكم ساحة
هذي رسائلها تناجي بالتي
ولربما أنهت سواب للنهي
وفدت على الدار العزيزة تجتني
مستسيات من غيوث غياثها
قد أمنت في سبلها أهواءها
وبحسبها أن الأمير المرتضى
في الله ما ينويه من إدراكها
بشرى لأندلس تحب لقاءه
صدق الرواة المخبرون بأنه
إن دوخ العرب الصعاب مقادة
فكان بفيلقه العرمم فلقاً
أنذرهم بالببشة الكبرى فقد

لَطَوَتْ عَلَيْهَا أَرْضَهَا وَسَمَاءَهَا
لَا سَقَبَتْ بِالْمَقْرَبَاتِ عَفَاءَهَا
صَيْدًا وَنَادٍ لَطَحْنَهَا أَرْحَاءَهَا
أَنَّ الْهَبُوبُ وَأَحْرِزُوا عَلَيْهَا
لَا يَرْهَبُ الدَّاعِي بَيْنَ خَلَاءَهَا
تَجِدُوا سَنَاهَا فِي غَدٍ وَسَنَاءَهَا
تَبْغِي عَلَى أَقْطَارِهَا اسْتِيْلَاءَهَا
فَاسْتَحْفَظُوا بِالْمُؤْمِنِينَ نَمَاءَهَا
فِي أَرْزَمَةٍ أَوْ تَضْمُرُوا إِقْصَاءَهَا
رَهَوًّا وَجُوبُوا نَحْوَهَا بَيْدَاءَهَا
فَلتَجْمَلُوا قِصْدَ الثَّوَابِ ثَوَاءَهَا
سَاوَتْ بِهَا أَحْيَاؤَهَا شَهْدَاءَهَا
وَقَفَتْ عَلَيْهَا رِيثَهَا وَنَجَاءَهَا
مِنْ كَائِنَاتٍ حَمَلَتْ أَنْهَاءَهَا
آلَاءَهَا أَوْ تَجْتَلِي آرَاءَهَا
مَا وَقَعَهُ يَتَقَدَّمُ اسْتِسْقَاءَهَا
إِذْ سَوَّغَتْ فِي ظِلِّهَا أَهْوَاءَهَا
مَتَرَقَّبٌ بِفَتْوحِهَا أَنْهَاءَهَا
بِكَلَاءَةِ يَفْدِي أَبِي أَكْلَاءَهَا
وَيَحِبُّ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ لِقَاءَهَا
يَشْفِي ضَنَاهَا أَوْ يُعِيدُ رُوءَاءَهَا
وَأَبَى عَلَيْهَا أَنْ تَطِيعَ إِبَاءَهَا
هَامَ الْأَعَاجِمِ نَاسَفًا أَرْجَاءَهَا
نَذَرَتْ صَوَارِمَهُ الرِّقَاقَ دَمَاءَهَا

لا يعلم الزمن انتصار مؤيد
ملك أمد النيرين بنوره
خضعت جبابرة الملوك لعزّه
أبقى أبو حفص إمارته له
سل دَعْوَة المَهْدِيّ عن آثاره
فغزا عداها واسترقّ رقابها
قبضت يداه على البسيطة قبضة
فعلى المشارق والمغرب ميسم
تطمو بتونسها بحار جيوشه
وسع الزمان فضاك عنه جلاله
ما أزمع الإيغال في أكنافها
دانت له الدنيا وشمّ ملوكها
ردّت سعادته على أدراجها
إن يعتم الدول العزيزة بأسه
تقع الجلائل وهو راسٍ راسخ
كالطود في عصف الرياح وقصفها
سامي النوائب في أعزّ ذؤابة
بركت بكلّ محلّة بركاته
كالغيث صبّ على البسيطة صوبه
ينميه عبد الواحد الأرضى إلى
في نبعه كرمت وطابت مغرساً
ظهرت لمحتدها السماء وجاوزت
فئة كرام لا تكفّ عن الوغى
وتكبّ في نار القرى فوق الدرا

تسوغ الدنيا به سرّاءها
وأفاده لألاؤه لألاءها
ونضت بكفّ صغارها خبيلاءها
فسما إليها حاملاً أعباءها
تنبيك أن ظباه قمن إزاءها
وحمي حماها واستردّ بهاءها
قادت له في قدّه أمراءها
لهداه شرفٍ وسّمه أسماءها
فيزور زاخرٍ موجها زوراءها
والأرض طراً ضنكها وقضاءها
إلاّ تصيّد عزّمه زعماءها
فاحتلّ من رتب العلاء شماءها
ليل الزمان ونهت غلّواءها
فالآن يولي جوده إعطاءها
فيها يوقع للسعود جلاءها
لا رهّوها يحنى ولا هو جاءها
أعلت على قيم النجوم بناءها
شفعاً يبادر بنلها شفعاءها
فسقى عمائرها وجاد قواءها
عليها فتمنح بأسها وسخاءها
وسمت وطالت نضرة نظراءها
لسراقات فخارها جوزاءها
حتى تُصرّع حولها أكفاءها
من عزّة ألويتها وكتباءها

قد خلّفوا الأيام طيبَ خلائق
يَنْضُونَ في طلب النفائس أنفُساً
وإذا انتصوا يوم الكريمة بيضَهُمْ
لا عذر عندَ المكرمات لهم متى
قومُ الأمير فمن يقوم بما لهم
صفحاً جميلاً أيّها الملك الرضى
تقف القوافي دونهن حسيرةً
فعلّ علياكم تسامح راجياً

[في رثاء طليطلة]

ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة أعادها الله تعالى للإسلام :

لثُكُّلِكَ كيفَ تبتسم الثغورُ
أما وأبي مصاب هدّة منه
لقد قُصِمَتْ ظهورُ حين قالوا
ترى في الدهرٍ مسروراً بعيشٍ
أليس بها أبيضُ النفس شهيم
لقد خضعت رقابٌ كُنَّ غُلباً
وهانَ على عزيزِ القوم ذلٌّ
طليطلةُ أباحَ الكفرُ منها
فليسَ مثالها إيوانُ كسرى
محسنةٌ محسنةٌ بعيدُ
ألم تكُ معقلاً للدينِ صعباً
وأخرج أهلها منها جميعاً

سروراً بعدما سُبِّتْ ثغورُ
تبيّرُ الدينَ فاتصل الثبورُ
أميرُ الكافرين له ظهورُ
مضى عنا لطيّته السرورُ
يديرُ على الدوائرِ إذ تدورُ
وزال عتوُّها ومضى الثغورُ
وسامح في الحريمِ فتى غيورُ
حماها ، إنَّ ذا نبأ كبيرُ
ولا منها الخورتنقُ والسديرُ
تناولها ومطلّبها عسيرُ
فدلهُ كما شاء القديرُ
فصاروا حيثُ شاء بهم مصيرُ

وكانت دارَ إيمان وعلم
 فعدت دارَ كفر مصطفاة
 مساجدُها كنائسُ ، أيُّ قلب
 فيا أسفاه يا أسفاه حزناً
 وينشر كل حسن ليس يطوى
 أدبيلت قاصرات الطرف كانت
 وأدركها فتورٌ في انتظار
 وكان بنا وبالقيينات^١ أولى
 لقد سخنت بحالتهن عين^٢
 لئن غبنا عن الإخوان إنا
 نذور كان للأيام فيهم
 فإن قلنا العقوبة أدركتهم
 فإنا مثلهم وأشد منهم
 أنامن أن يحل بنا انتقام
 وأكل للحرام ولا اضطرار
 ولكن جرأة في عقر دار
 يزول الستر عن قوم إذا ما
 يطول علي ليلي ، رب خطب
 خذوا ثار الديانة وانصروها
 ولا تنهوا وسلوا كل غضب
 وموتوا كلكم فالموت أولى
 أصبراً بعد سبي وامتحان

معلمها التي طمست تنير
 قد اضطربت بأهلها الأمور
 على هذا يقر ولا يطير ؟
 يكرّر ما تكررت الدهور
 إلى يوم يكون به النشور
 مصونات مساكنها القصور
 لسرب في لواحظه فتور
 لو انضمت على الكل القبور
 وكيف يصح مغلوب قرير
 بأحزان وأشجان حضور
 بمهلكهم فقد وفّت النذور
 وجاءهم من الله النكير
 نجور وكيف يسلم من يجور
 وفينا الفسق أجمع والفجور
 إليه فيسهل الأمر العسير
 كذلك يفعل الكلب العقور
 على العصيان أرخيت الستور
 يطول لوله الليل القصير
 فقد حامت على القتلى النور
 تهاب مضارباً منه النحور
 بكم من أن تجاروا أو تجوروا
 يلام عليهما القلب الصبور

فَأَمْ الثَّكَلِ مِذْكَارٌ وَلُودٌ
نَحُورٌ إِذَا دُهِينَا بِالرِّزَايَا
وَنَجْبِنُ لَيْسَ نَزَارٌ ، لَوْ شَجَعْنَا
لَقَدْ سَاءَتْ بِنَا الْأَخْبَارُ حَتَّى
أَتْنَا الْكُتُبُ فِيهَا كُلُّ شَرٍّ
وَقِيلَ تَجَمَّعُوا لِفِرَاقِ شَمَلِ
فَقُلْ فِي خِطَّةٍ فِيهَا صَغَارٌ
لَقَدْ صَمَّ السَّمِيعُ فَلَمْ يَعُولِ
تَجَاذِبْنَا الْأَعَادِي بِاصْطِنَاعِ
فَبَاقٍ فِي الدِّيَانَةِ تَحْتَ خِزْيِ
وَأَخْرُ مَارِقٌ هَانَتْ عَلَيْهِ
كَفَى حَزَنًا بِأَنَّ النَّاسَ قَالُوا
أَنْتَ كَ دُورَنَا وَنَفَرْنَا عَنْهَا
وَلَا تَمَّ الضِّيَاعُ تَرُوقُ حَسَنًا
وِظَلٌّ وَارْفٌ وَخَرِيرٌ مَاءٌ
وَيُؤْكَلُ مِنْ فَوَاكِهِهَا طَرِيٌّ
يُؤَدِّي مَغْرَمٌ فِي كُلِّ شَهْرٍ
فَهَمُّ أَحْمَى لِحُوزَتِنَا وَأُولَى
لَقَدْ ذَهَبَ الْيَقِينُ فَلَا يَقِينُ
فَلَا دِينَ ، وَلَا دُنْيَا وَلَكِنْ
رَضُوا بِالرَّقِّ يَا لِلَّهِ مَاذَا
مَضَى الْإِسْلَامَ فَابْنِكَ دَمًا عَلَيْهِ
وَنُحٌ وَانْدَبٌ رِفَاقًا فِي فَلَائِ
وَلَا تَجْنَحْ إِلَى سِلْمٍ وَحَارِبِ

وَأَمْ الصَّقْرِ مِقْلَاتٌ نَزُورٌ
وَلَيْسَ بِمَعْجَبٍ بِقَرِّ نَحُورٌ
وَلَمْ نَجْبِنُ لَكَانَ لَنَا زَيْرٌ
أَمَاتَ الْمُخْبِرِينَ بِهَا الْخَبِيرُ
وَبَشَّرْنَا بِأَنْحَسْنَا الْبَشِيرُ
طَلِيظَةٌ تَمْلِكُهَا الْكَفُورُ
يَشِيبُ لِكَرْبِهَا الطِّفْلُ الصَّغِيرُ
عَلَى نَبِيٍّ كَمَا عَمِيَ الْبَصِيرُ
فَيَنْجَذِبُ الْمَخُولُ وَالْفَقِيرُ
تَنْبِطُهُ الشَّوْبِيهَةُ وَالْبَعِيرُ
مِصَائِبُ دِينِهِ فَلَهُ السَّعِيرُ
إِلَى أَيْنَ التَّحَوُّلُ وَالْمَسِيرُ
وَلَيْسَ لَنَا وَرَاءَ الْبَحْرِ دُورٌ
نَبَاكِرُهَا فَيَعْجَبُنَا الْبُكُورُ
فَلَا قَرٌّ هُنَاكَ وَلَا حَرُورٌ
وَيُشْرَبُ مِنْ جِدَاوِلِهَا نَمِيرُ
وَيُؤْخَذُ كُلُّ صَائِفَةٍ عَشُورُ
بِنَا وَهُمْ الْمَوَالِي وَالْعَشِيرُ
وَعَرَّ الْقَوْمَ بِاللَّهِ الْغُرُورُ
غُرُورٌ بِالْمَعِيشَةِ مَا غُرُورُ
رَأَاهُ وَمَا أَشَارَ بِهِ مُشِيرُ
فَمَا يَنْفِي الْجُحَى الدَّمْعُ الْغَزِيرُ
حَيَارَى لَا تَحْطُّ وَلَا تَسِيرُ
عَسَى أَنْ يُجَبَّرَ الْعِظْمُ الْكَسِيرُ

أنعمى عن مرأشدا نا جمیعاً وما إن منهم إلا بصیرُ
 ونلقى واحداً ويفرُّ جَنَعُ كما عن قانصٍ فرَّت حمیرُ
 ولو أنا ثبتنا كانَ خیراً ولكن ما لنا کرمٌ وخیرُ
 إذا ما لم یکن صبرٌ جمیلٌ فلیس بنافع عددٌ کثیرُ
 ألا رجلٌ له رأيٌ أصیلٌ به مما نحاذرُ نستجیرُ
 یکرُّ إذا السیوف تناولتَهُ وأین بنا إذا ولت کرورُ
 ویطعن بالقتنا الخطارَ حتی یقول الرمح ما هذا الخطیرُ
 عظیم أن یكون الناسُ طرّاً بأندلسٍ قتیلٌ أو أسیرُ
 أذکرُ بالقراع اللیث حرصاً علی أن یقرع البیضَ الذکورُ
 یادرُ خرقها قبل اتساع لخطب منه تنخسفُ البلورُ
 یوسع للذی یلقاهُ صدرأ فقد ضاقت بما تلقى صدورُ
 تنغصت الحیاةُ فلا حیاةُ وودع جیرة إذ لا مجیرُ
 فلیلٌ فیهم مستکنٌ ویومٌ فیهم شرٌّ مستطیرُ
 ونرجو أن یتیحَ الله نصرأ علیهم ، إنه نعم النصیرُ

[فونية الرندي وشيء من شعره]

ومن مشهور ما قيل في ذلك قول الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف
 الرندي رحمه الله تعالى^١ :

١ هو صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم ابن علي بن شريف يكنى بأبي
 الطيب وأبي البقاء ؛ كان فقيهاً حافظاً متفنناً في النثر والنظم ؛ وله مقامات ومختصر في الفرائض
 وكتاب اسمه الروابي (أو الكافي) في نظم القواني (منه عدة مخطوطات ، إحداها بالرباط رقم ك :
 ١٧٣٠) انظر ترجمته في الذيل والتكملة ٤ : ١٣٧ ومسالك الأبصار ١١ : ٤٨٠ والإحاطة
 (المخطوطة المغربية : ١٧٩ ونسخة الاسكوريال رقم : ١٦٨٣ ومجلة معهد الدراسات الإسلامية
 ٦ : ٢١١) .

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ
 هي الأمور كما شاهدتها دُولُ
 وهذه الدار لا تُبقي على أحد
 يمزق الدهرُ حتماً كلَّ سابعةٍ
 وينتضي كلَّ سيفٍ للفناء ولو
 أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ
 وأين ما شاده شدَّادٌ في لآرم
 وأين ما حازه قارون من ذهب
 أتى على الكلَّ أمرٌ لا مردَّ له
 وصار ما كان من مُلكٍ ومن ملكٍ
 دارَ الزمانُ على داراً وقَاتِلِهِ
 كأنما الصعب لم يسهل له سبب
 فجائعُ الدهرِ أنواعٌ منوعَةٌ
 وللحوادثِ سُلوَانٌ يسهلها
 دهي الجزيرةَ أمرٌ لا عزاء له
 أصابها العين في الإسلام فامتحنَتْ
 فاسأل بكتنسية ما شأن مُرْسِيَةٍ
 وأين قُرْطبة دارُ العلوم ، فكم
 وأين حمصٌ وما تحويه من نُزّه
 قواعد كُنَّ أركان البلاد فما
 تبكي الحنيفة البيضاء من أسف
 على ديار من الإسلام خالية
 حيث المساجد قد صارت كئناس ما
 حتى المحاريب تبكي وهي جامدة

فلا يُغرَّ بطيب العيش لإنسانُ
 من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ
 ولا يدوم على حال لها شانُ
 إذا نبتت مشرفياتٌ وخرُصانُ
 كان ابن ذي يزن والغمد غمدانُ
 وأين منهم أكاليل وتيجانُ
 وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ
 وأين عادٌ وشدَّادٌ وقحطانُ
 حتى قضوا فكأنَّ القوم ما كانوا
 كما حكى عن خيال الطيف وسانُ
 وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ
 يوماً ولا ملك الدنيا سليمانُ
 وللزمانِ مسرّاتٌ وأحزانُ
 وما لما حلَّ بالإسلام سُلوَانُ
 هوى له أحدٌ وانهدَّ شهانُ
 حتى خلت منه أقطارٌ وبلدانُ
 وأين شاطبة أم أين جِيَانُ
 من عالمٍ قد سَمَا فيها له شانُ
 ونهرها العذب قيّاضٌ وملآنُ
 عسى البقاء إذا لم تبقَ أركانُ
 كما بكى لفراق الإلف هَيْمَانُ
 قد أقفرت ولها بالكفر عُمرَانُ
 فيهن إلا نواقيس وصلبانُ
 حتى المنابر ترثي وهي عيدانُ

يا غافلاً^١ وله^٢ في الدهر موعظة^٣
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه^٤
تلك المصيبة أنست^٥ ما تقدمها
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة^٦
وحاملين سيوف الهند مرهقة^٧
وراتعين وراء البحر في دعة^٨
أعندكم نبأ من أهل أندلس^٩
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم^{١٠}
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم^{١١}
ألا نفوس أبيات لها همم^{١٢}
يا من لذلة قوم بعد عزهم^{١٣}
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم^{١٤}
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم^{١٥}
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم^{١٦}
يا رب أم وطفل حيل بينهما^{١٧}
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت^{١٨}
يقودها العليج للمكروه مكرهة^{١٩}
لمثل هذا يدوب القلب من كمد^{٢٠}

إن كنت في سنة فالدهر يقظان^{٢١}
أبعد حمص تغر المرة أوطان^{٢٢}
وما لها مع طول الدهر نسيان^{٢٣}
كأنها في مجال السبق عقبان^{٢٤}
كأنها في ظلام النقع نيران^{٢٥}
لهم بأوطانهم عز وسلطان^{٢٦}
فقد سرى بحديث القوم ركبان^{٢٧}
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان^{٢٨}
وأنتم يا عباد الله إخوان^{٢٩}
أما على الخير أنصار وأعوان^{٣٠}
أحال حالهم كُفّر وطغيان^{٣١}
واليوم هم في بلاد الكفر عبدان^{٣٢}
عليهم من ثياب الذل ألوان^{٣٣}
لهالك الأمر واستهوتك أحزان^{٣٤}
كما تفرق أرواح وأبدان^{٣٥}
كأنما هي ياقوت ومرجان^{٣٦}
والعين باكية والقلب حيران^{٣٧}
إن كان في القلب إسلام وإيمان^{٣٨}

انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة
وبسطة وغيرهما ممّا أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف ، وما اعتمده
منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبه ، ومن له أدنى ذوق علم أن ما
يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة ، وغالب ظني أن تلك الزيادة
لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك

بالمشرق والمغرب ، فكأن بعضهم لما أعجبه قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات ، وقد بينت ذلك في « أزهار الرياض »^١ فليراجع .

وصالح بن شريف الرندي صاحب القصيدة من أشهر أدباء الأندلس ، ومن بديع نظمه قوله^٢ :

سَلِّمْ عَلَى الْحَيِّ بِذَاتِ الْعَرَارِ وَحَيٍّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الدِّيَارِ
وَخَلِّ مَنْ لَمْ عَلَى حَبِّهِمْ فَمَا عَلَى الْعُشَّاقِ فِي الذَّلِّ عَارِ
وَلَا تَقْصِرْ فِي اغْتِنَامِ الْمُنَى فَمَا لِيَالِي الْأَنْسِ إِلَّا قِصَارِ
وَإِنَّمَا الْعَيْشُ لِمَنْ رَامَهُ نَفْسٌ تَدَارِي وَكُؤُوسٌ تَدَارِ
وَرَوْحُهُ الرَّاحُ وَرِيحَانُهُ فِي طَيْبِهِ بِالْوَصْلِ أَوْ بِالْعُقَارِ
لَا صَبْرَ لِلشَّيْءِ عَلَى ضِدِّهِ وَالْحَمْرُ وَالْهَمُّ كَمَا وَنَارِ
مُدَامَةٌ مُدْنِيَّةٌ لِلْمُنَى فِي رِقَّةِ الدَّمْعِ وَلَوْنِ النَّضَارِ
مِمَّا أَبُو رَيْقٍ أَبَارِقُهَا تَنَافَسَتْ فِيهَا النُّفُوسُ الْكِبَارِ
مُعِلَّتِي وَالْبِرَّ مِنْ عَلْتِي مَا أَطِيبَ الْحَمْرَةَ لَوْلَا الْخَمَارِ
مَا أَحْسَنَ النَّارَ الَّتِي شَكَّلَهَا كَالْمَاءِ لَوْ كَفَّ شَرَارَ الشَّرَارِ
وَبِي وَإِنْ عُدْبَتُ فِي حَبِّهِ بِيَعْدِهِ عَلَى اقْتِرَابِ الْمَنَارِ
ظَبِيٌّ غَرِيرٌ نَامَ عَنْ لَوْعَتِي وَلَا أَذُوقُ النَّوْمَ إِلَّا غِرَارِ
ذُو وَجَنَةٍ كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ قَدْ بُهِّرَ الْوَرْدُ بِهَا وَالْبَهَارِ
رَجَعْتُ لِلصَّبُوةِ فِي حَبِّهِ وَطَاعَةَ اللُّهُوِ وَخَلَعَ الْعِيدَارِ
يَا قَوْمُ قُولُوا بِذِمَامِ الْهُوَى أَهْكَذَا يَفْعَلُ حُبُّ الصَّغَارِ
وَلَيْلَةٌ نَبَّهْتُ أَجْفَانَهَا وَالْفَجْرُ قَدْ فَجَّرَ نَهْرَ النَّهَارِ
وَاللَّيْلُ كَالْمَهْزُومِ يَوْمَ الْوَعَى وَالشُّهْبُ مِثْلُ الشُّهْبِ عِنْدَ الْفَرَارِ

١ أزهار الرياض ١ : ٤٧ .

٢ بعضها في الإحاطة : ١٨٦ .

كأنما استخفى السها خيفةً
لذلك ما شابت نواصي الدجى
وفي الثريا قمرٌ سافرٌ
كأنّ عنقوداً تثنى به
كأنها تسبكُ دينارَه
كأنما الظلماء مظلومة
كأنما الصبحُ لمشاقيه
كأنما الشمسُ وقد أشرقت
محمدٌ محمدٌ كاسمه
أما المعالي فهو قطبٌ لها
مؤنل المجدي صريح العلاء
تزهى به لحم وساداتها
يفيضُ من جود يديه على
اليمن من يُمناه حكم جرى
أخٌ صفا منه لنا واحدٌ
فإن شكرنا فضله مرةً
ونحن منه في جوار العلاء
الحافظُ الله وأسمائه

وطولبَ النجمُ بثارِ فثار
وطارَحَ النسرُ أخاهُ فطار
عن غرة غير منها السفار
إذ صار كالعرجون عند السرار
وكفها يفتلُ منه السوار
تحكمَ الفجرُ عليها فجار
عزٌ غنّى من بعد ذلّ افتقار
وجهُ أبي عبد الإله استنار
شخصٌ له في كل معنى يشار
والقطبُ لا شكّ عليه المدار
مهدبُ الطبعِ كريمُ النجار
وتنمي قيسٌ له في الفخار
عافيه ما منه تحارُ البحار
واليسرُ من شيمة تلك اليسار
فالدهرُ مما قد جنى في اعتذار
فقد سكرنا من ندهاءُ مرار
تدورُ للسعدِ بنا منه دار
لذلك الجارِ وذلك الجوار

[رسالة ابن عميرة إلى ابن الأبار في سقوط بلنسية]

رجع - وقد رأيت أن أثبت هنا رسالةً خاطب بها الكاتب البارع القاضي
أبو المطرف ابن عميرة المخزومي الشيخ الحافظ أبا عبد الله ابن الأبار ، يذكر له

١ الإحاطة : بها ماثل .

أخذ العدو مدينة بِلَنْسِيَة وهي ^١ :

ألا فَيْثَة للدهر تَدُئُو بَمَنْ نَأَى وَبُقْيَا يرى منها خلاف الذي رأى
ويا مَنْ عذيري منه، يَغْدِر مَنْ أوى إليه ولا يدري سوى خُلْفٍ من وأى ^٢
ذخائر ما في البر والبحر صيدهُ فلا لؤلؤاً أبقي عليه ولا وأى

أيها الأخ الذي دُهِش ناظري لكتابه ، بعد أن أدهش خاطري من إغبابه ،
وسرني من بشره إيماض ، بعد أن ساءني من جهته إعراض ، جرت على ذكره
الصلة فقوم قِدْحَ نَبَعْتِهَا ، وروى أكناف تَلَعْتِهَا ، وأحدث ذكراً من عهدنا
الماضي فنَقَطَ وجه عروسه ، وشعشع خمر كؤوسه ، وسقى بماء الشيبية ثراه ،
وأبرز مثل مرآة الغربية مرآه ، فبورك فيه أحوذياً وَصَلَ رَحْمَه ، وكسا منظره
من البهجة ما كان حَرَمَه ، وحيّاً الله تعالى منه وليّاً على سالف عهدي تمادى ،
وبشعار ودي نادى ، وبيّن الإحسانَ شيمته ، وأبان والبيانُ لا تنجابُ عنه
ديمته ، ولا تغلو بغير قلمه قيمته ، واعتذر عن كلمة تمنى تبديلها ، ودعوة
ذكر وجوم النادي لها ، ثم أرسلها تَرَجُفُ بوادرها من خيفة ، وتوغر بوغم ^٣
صدر قلم وصحيفة ، وتندر من ريحانة قريش أن تمنعه عرفها ، وتحديق إليه
طرفها ، واتقى غارة على غيرة ، من الناجي برأس طيميرة ، ولم يأمن هجران
المهاجر بعد وصله ، وعكر عكرمة المغطي بحلمه على أبي جهله ، وعند ذكر
كتيبة خالد أججم ، وذاكر يوم أحاطت به فارس فاستلحم ، فاعتذر عمّا قال ،
وأضمر الحذر إلا أن يقال ، فمَهْلًا أيّها الموفى على علمه ، النافث بسحر
قلمه ، أتظن منزلتك في البلاغة ومهتبعها لاحب ، ومنزعها بالعقول لاحب ،
تسفل وقد ترفعت ، أو تخفى وإن تلفعت ، عرفناك يا سوّدة ، وشهرت حلّة

١ ورد بعض هذه الرسالة في الروض المعطار : ٤٨ .

٢ وأى : وعد . ٣ في الأصول : رجم ؛ والوغم : الحقد والثرة .

عطاردي الملاحه والجودة ، فلم حين تهب الأخ الأوحده من قصي غطاريقها ، ولو استثار من حفاظها تالدها وطريقها ، لم يذكر يد قومه عند أبيها ، وقد رام خطه أشرف على تأبيها ، حين أهاب بكم لمهمه ، ودعا منكم أخاه لأمه ، ولولا ذلك لما خلا له وجه الكعبه ، ولا خلص من تلك المضايق الصعبة ، وبأن أعرتموه نجدتكم الموصوفة ، غلب على ما كان بأيدي صوفه ، فكيف نجد اليد عند عمنا ، أو نشخذ أسنة الألسنة لدمنا ، أو كيف نلقاكم بجدنا ، وأبوكم أبو بكر معدنا ، وما تيامنكم إلى سبأ بن يشجب ، وإن أطلنا فيه التعجب ، بالذي يقطع أرحامنا ، ويمنع اشتباكنا والتحامنا ، بعد أن شددنا فعالنا بفعلكم ، ورأينا أقدامنا في نعالكم ، ولو شتمت توعدمت بأسود سؤددكم عند الإقدام ، وإلحاق إلحاقكم في ضرب الهام ، لكن نقول إن قومنا لكيرام ، ولو شاءوا كان لنا منهم شيرة وعرام .

وأعود من حيث بدأ الأخ الذي أبته شوقي ، وأتطعم حلاوة عشرته باقية في حاسة ذوقي ، طارحني ^٢ حديث مؤرد جف ، وقطين خف ، فيا لله لأترباب درجوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قصت الأجنحة وقيل طيروا ، وإنما هو القتل أو الأسر أو تسيروا ، فتفرقوا أيدي سبأ ، وانتشروا ملء الوهاد والرئبي ، ففي كل جانب عويل وزفرة ، وبكل صدر غليل وحسرة ، ولكل عين عبرة ، لا ترقأ من أجلها عبرة ، داء خامر بلادنا حين أتاها ، وما زال بها حتى سجي على موتاها ، وشجا ليومها الأطول كهلهما وفتاها ، وأنذر بها في القوم بجران أنيجه ^٣ ، يوم أثاروا أسدها المهيجه ، فكانت تلك الحظمة طلل الشؤبوب ، وباكورة البلاء المصبوب ، أثكلتنا إخواناً أبكانا نعيمهم ، ولله أحوذيتهم

١ بعد أن ألمع إلى مآثر مخزوم وذكر بعض رجالها ، عاد يتحدث عن قضاة ومواقفها ، ثم تحولها بنسبها إلى يمن .

٢ من هنا في الروض المعطار .

٣ يريد أن البهران (أي المرض) الذي أصاب أنيجه كان إنذاراً بما بعده من سقوط بلنسية .

وَالْمَعِيَهُمْ ، ذَاكَ أَبُو رَبِيعِنَا ١ ، وَشَيْخَ جَمِيعِنَا ، سَعِدَ بِشَهَادَةِ يَوْمِهِ ، وَلَمْ يَرِ
 مَا يَسُوعُهُ فِي أَهْلِهِ وَقَوْمِهِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَخَذَ مِنَ الْأُمِّ بِالْمَخْنَقِ ، وَهِيَ بِلَتْسِيَّةِ ذَاتِ
 الْحَسَنِ وَالْبَهْجَةِ وَالرُّونِقِ ، وَمَا لَبِثَ أَنْ أُخْرِسَ مِنْ مَسْجِدِهَا لِسَانَ الْأَذَانِ ، وَأَخْرَجَ
 مِنْ جَسَدِهَا رُوحَ الْإِيمَانِ ، فَبَرِحَ الْخَفَاءُ ، وَقِيلَ : « عَلَى آثَارِ مَنْ ذَهَبَ الْعَفَاءُ » ،
 وَانْعَطَفَتِ النَّوَابِثُ مَفْرَدَةً وَمُرْكَبَةً كَمَا تَعَطَفَ الْفَاءُ ، فَأَوْدَتِ الْخَفَةَ وَالْحَصَافَةَ ،
 وَذَهَبَ الْجِسْرُ وَالرُّصَافَةُ ، وَمَزَقَتِ الْحَلَةَ وَالشَّمْلَةَ ، وَأَوْحَشَتِ الْجُرْفَ وَالرَّمْلَةَ ،
 وَنَزَلَتْ بِالْحَارَةِ وَقَعَةَ الْحَرَّةِ ، وَحَصَلَتِ الْكَنِيسَةُ ٢ مِنْ جَاذِرِهَا وَظَبَائِهَا عَلَى طَوْلِ
 الْحَسْرَةِ ، فَأَيْنَ تِلْكَ الْخِمَائِلُ وَتَنْضُرَتِهَا ، وَالْجِدَاوِلُ وَخَضْرَتِهَا ، وَالْأَنْدِيَّةُ وَأَرْجُهَا ،
 وَالْأَوْدِيَّةُ وَمُنْعَرَجُهَا ، وَالنَّوَاسِمُ وَهَبُوبُ مُبْتَلَّهَا ، وَالْأَصَائِلُ وَشُحُوبُ مَعْتَلَّهَا ،
 دَارَ ضَاخَكَتِ الشَّمْسِ بَحْرُهَا وَبُحَيْرَتِهَا ، وَأَزْهَارَ تَرَى مِنْ أَدْمَعِ الطَّلِّ فِي
 أَعْيُنِهَا تَرْدُدُهَا وَحَيْرَتِهَا ، ثُمَّ زَخَفَتْ كَتَيْبَةَ الْكُفْرِ بِزُرْقِهَا وَشُقْرَهَا ، حَتَّى
 أَحَاطَتْ بِجَزِيرَةِ شَقْرَهَا ، فَأَهَا لَمَسَقَطِ الرَّأْسِ هَوَى نَجْمُهُ ، وَلَفَادِحِ الْخَطْبِ سَرَى
 كَلْمُهُ ، وَيَا لِحَتَّةِ أَجْرَى اللَّهِ تَعَالَى النَّهْرِ تَحْتِهَا ، وَرَوْضَةِ أَجَادِ أَبِي إِسْحَاقَ ٣ نَعْتَهَا ،
 وَإِنَّمَا كَانَتْ دَارُهُ الَّتِي فِيهَا دَبٌّ ، وَعَلَى أَوْصَافِ مَحَاسِنِهَا أَكْبَ ، وَفِيهَا أَتَتْهُ
 مَنِيَّتُهُ كَمَا شَاءَ وَأَحَبَ ، وَلَمْ تَعْلَمْ بَعْدَهُ مَحْبِينَ قَشِيبِهِمْ إِلَيْهَا سَاقُوهُ ، وَدَمَعَهُمْ عَلَيْهَا
 أَرَاقُوهُ ، وَقَدْ أُثْبِتُ مِنَ النِّظْمِ مَا يَلِيقُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ :

أَقْلَوْا مَلَامِي أَوْ فَقُولُوا وَأَكْثَرُوا مَلُومُكُمْ عَمَّا بِهِ لَيْسَ يُقْصِرُ
 وَهَلْ غَيْرُ صَبٍّ مَا تَنِي عِبْرَاتِهِ إِذَا صَعَدَتْ أَنْفَاسُهُ تَتَحَدَّرُ
 يَحْنُ وَمَا يَجْدِي عَلَيْهِ حَيْنُهُ إِلَى أَرْبَعٍ مَعْرُوفُهَا مَتَنَكُرُ

١ هو أبو الربيع ابن سالم شيخ ابن الأبار الذي استشهد في أنيعة مقبلا غير مدبر وهو يحض الناس على القتال ، وقد طعن في السن .

٢ يعدد أبو المطرف هنا المعالم البارزة في بلنسية .

٣ يعني ابن خفاجة وهو بلدي أبي المطرف فهما من جزيرة شقر .

ويندبُ عهداً بالمشقرِّ فاللوى
تغيرَ ذاكَ العهدُ بعدي وأهله
وأفقرَ رَسْمُ الدَّارِ إِلَّا بَقِيَّةً
فَلَمْ تَبْقَ إِلَّا زَفْرَةٌ لِثَرِّ زَفْرَةٍ
وإلا اشتياقٌ لا يزالُ يَهْزُنِي
أقولُ لساري البرقِ في جنحِ ليلةٍ
تعرضُ مجتازاً فكانَ مذكراً
أتأوي لقلبٍ مثل قلبك خافقٍ
وتحملُ أنفاساً كَوْمَضِكِ نارها
يقرُّ بعيني أن أعارين من نأى
وأن يترءاك الخليطُ الذين همُ
كفى حزنًا أنا كأهلٍ مُحَصَّبٍ
وأنَّ كلينا من مَشُوقٍ وشائقٍ
ألا ليتَ شعري والأمانِيُّ ضلَّةٌ
هل النهْرُ عقدٌ للجزيرةِ مثلما
وهل للصِّبَا ذيلٌ عليه تجرُّهُ
وتلك المغاني هل عليها طلاوة
ملاعبُ أفراسِ الصِّبَابَةِ والصِّبَا
وقبلي ذاكَ النهْرِ كانت معاهدُ
بحيث بياضُ الصبحِ أزرارِ جيبه
ليالٍ بماءِ الوردِ ينضحُ ثوبها
وبالجليل الأذنى هناكَ خُطِي لَنَا
جَنَابُ بَاعِلَاهُ بهارٍ ونرجسٍ
وموردنا في قلبِ قلتِ كمقلةٍ

وأين اللوى منهُ وأين المشقرُّ
ومن ذا على الأيامِ لا يتغيرُ
لسائلها عن مثلِ حالي تُخبرُ
ضلوعي لها تنقذُ أو تنفطرُ
فلا غايةٌ تدنُّو ولا هو يفتُرُ
كلانا بها قد باتَ يبكي ويسهرُ
بعهد اللوى والشئِ بالشئِ أيذكرُ
ودمعُ سفوحٍ مثل قطركِ يقطرُ
إذا رُفعتُ تبدو لمن يتنورُ
لما أبصرته منكَ عيناى تبصرُ
بقلبي وإن غابوا عن العينِ حُصِرُ
بكلِّ طريقٍ قد نفرنا ونفِرُ
بنارِ اغترابٍ في حشاهِ تسعُرُ
وقولي ألا يا ليتَ شعري تخيرُ
عهدنا وهل حصباؤه وهي جوهرُ
فيزورُ عنهُ موجهُ المتكسرُ
بما راقَ منها أو بما رقَ تسحرُ
تروحُ إليها تارةً وثبكرُ
بها العيشُ مطلولُ الحميلةِ أخضرُ
تطيبُ وأردآنُ النسيمِ تُعطرُ
وطيبُ هواءٍ فيه مسكٌ وعنبرُ
إلى اللهوِ لا تكبو ولا تتعثرُ
فأبيضُ مفرُّ الثنايا وأصفرُ
حذاراً علينا من قَدَى العينِ تسرُ

وكم قد هبطنا القاع نذعر وحشيه ويا حسنه مستقبلاً حين يذعر
 نقودُ إليه طائعاً كلَّ جارح له منخرٌ رجبٌ وخصرٌ مضمرٌ
 إذا ما رميناهُ به عبث به مؤللةُ الأطراف عنهن تكشرُ
 تضمُّ لأروى النيقِ حزانَ سهلها وقد فُقدت فيها مهاةٌ وجوذرُ
 كذلك إلى أن صاح بالقوم صائحُ وأنذر بالبين المشتتِ منذرُ
 وفرقهم أيدي سباً وأصابهم على غيرَةٍ منهم قضاءً مقدرُ

ونعود إلى حيثُ كنّا من تبدّد شمل الجيرة ، وطَيّ بساط الجزيرة : أما شاطبة فكانت من قصبتها شوساء الطرف ، وببطحائها عروساً في نهاية الظرف ، فتخلّتي عن الذروة منْ أخلاها ، وقيل للكافر : شأنك وأعلاها ، فقبل أن تضع الحرب أوزارها ، كَشَطَطَ عنها إزارها ، فاستحلَّ الحرمة أو تأوَّلتها ، وما انتظر أقصر المدة ولا أطولها ، وأما تُدمير فجاء عودها على المهْصُر ، وأمكنت عَدوها من القَصْر ، فداجى الكفر الإيمان ، وناجى الناقوس الأذان ، وما وراءها من الأصقاع التي باض الكفرُ فيها وقرَّخ ، وأنزل بها ما أنسى التاريخ ومنْ أرَّخ ، فوصفكم على الحادثة فيها أتى ، وفي ضمان القدرة الانتصاف من عدوِّ عثا وعتا . وإنّا لنرجوها كرة تفك البلاد من أسْرِها ، وتجبرها بعد كَسْرِها ، وإن كانت اللوثة العامرية منعت بالقراع ذِمارها ، ورفعت على اليَفْع نارها ، فهذه العمرية بتلك المنقبة أخلق ، والعدوِّ لها أهيب ومنها أفرق ، وما يستوي نسب مع البقل نَبَّت ، وبالمستفيض من النقل ما ثَبَّت ، وآخر علت سماؤه على اللمس ، ورسا ركنه في الإسلام رُسُو قواعده الخمس ، وكان كما قال أبو حنيفة في خبر المسح : جاءنا مثل الشمس ، والأيام العمرية هي أم الوقائع المحكية ، ومن شاء عدها من اليرموكية إلى الأركية ، وهذه الأيام الزاهرة هي زبدة حلاوتها ، وسجدة تلاوتها ، وإمامتها العظمى أيدها الله تعالى ، تُمَهِّلُ الكافر مدّة إملائه ، ثم تشفي الإسلام من دائه ، وتطهّر الأرض بنجس دمائه ، بفضل الله تعالى ، المرجو

زيادة نعمه قبلها وآلائه .

راجعت سيدي مؤدياً ما يجب أداؤه ، ومقتدياً وما كلُّ أحدٍ يحسُنُ اقتداؤه ، وإنّما ناضلت تُعَلِيّاً^١ ، وعهدي بالنضال قديم ، وناظرت جدلياً ، وما عندي للمقال تقديم ، وأطعتهُ في الجواب ولقرّيجتي يعلم الله تعالى نُكُول ، وروّيتي لولا حق المسألة بطير الحوادث المرسلّة عَصَفُ مأكول ، أتم الله تعالى عليه آلاءه ، وحفظ مودّته وولاءه ، ومتع بخلّته الكريمة أخلاءه ، بمنّه ، والسلام ؛ انتهت الرسالة .

ورأيت في رحلة ابن رشيد لما ذكر أبا المطرّف ما صورته : وأما الكتابة فقد كان حامل لوائها ، كما قال بعض أصحابنا : لأن الله تعالى له الكلام ، كما ألان الحديد لداود عليه السلام ، وأخبرني شيخنا أبو بكر أن شيخه أبا المطرّف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلّم في النوم ، فأعطاه حزمة أقلام ، وقال : استعن بهذه على كتابتك ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم ؛ انتهى .

[رسالة ابن الأبار التي أجاب أبو المطرف عنها]

وبعد كتبي لهذه الرسالة رأيت أن أذكر رسالة الحافظ ابن الأبار التي هذه جوابٌ عنها ، وهي من غرض ما نحن فيه فلنقتبس نور البلاغة منها ، وهي :

سيدي وإن وجمَ لها النادي ، وجمجم بها النادي ، ذلك لصغرها عن كبره في المعارف . الأعلام ، وصدورها يوغر صدور الصحائف والأقلام ، وأعيد رِيحانة قريش ، أن تروح من حفيظتها في جيش ، قد هابتها مغاوير كل حيّ ، وأجابتها الغطاريف من قُصَيّ ، تدلف بين يديها كتيبة خالد ، وتحلف لا قدحت نار الهيجاء بزّند صالده ، أو تنصف من غامطها ، وتقذف به وسط غُطامطها^٢ ،

١ أي من بني ثعل وهم مضرب المثل في رمي السهام .

٢ الغطامط : الموج المرتفع .

لا جرم أنتي من جرمتي حذر ، وعمّا وضحت به قيمتي للمجد معتذر ، إلا
أن يصوح من الروض نبتة وجنّاته ، ويصرح بالقبول حلمه وأناته ، الحديث عن
القديم شجّون ، والشأن بتقاضي الغريم شؤون ، فلا غرو أن أطارحه إيّاه ،
وأفاتحه الأمل في لُقياه ، ومن لي بمقالة مستقلة ، أو إيخالة غير مُخلة ، أبت
البلاغة إلا عمادها ، وعلى ذلك فاستنبىء عمادها : درجت اللدات والأتراب ،
وخرجت الرومُ بنا إلى حيث الأعراب ، أيام دفعنا لأعظم الأخطار ، وفجعنا
بالأوطان والأوطار ، فإلامَ نداري بَرَحَ الألم ، وحتّامَ نساوي النجم في الظلم ،
جمع أوصاب ما له من انفضاض ، ومضض اغتراب شد عن ابن مُضاض^١ ،
فلو سمع الأول بهذا الحادث ، ما ضرب المثل بالحارث ، يا لله من جلاء ليس به
يدان ، وثناء قلّمًا يُسفر عن تدان ، وعد الجدد العاثر لقاءه فأنجز ، ورام الجكّد
الصابر انقضاه فأعجز ، هؤلاء الاخوان ، مكثهم لا يمتع به أوان ، وبينهم
كنّبت الأرض ألوان ، بين هائم بالسرى ، ونائم في الثرى ، من كل صنديد
بطل ، أو منطبق غير ذي خطل ولا خطل ، قامت عليه النوادب ، لما قعدت
النواب ، وهجمت بيوتها لمنعاه الجماجم والنواب ، وأمّا الأوطان المحبّب
عهدنا بحكم الشباب ، المشبّب فيها بمحاسن الأحباب ، فقد ودّعنا معاهدنا
ودّاع الأبد ، وأخنى عليها الذي أخنى على لبّد ، أسلمها الإسلام ، وانتظمها
الانتثار والاصطلام ، حين وقعت أنسرُها الطائرة ، وطلعت أنحسُها العائرة ،
فغلب على الجندل الحزن ، وذهب مع المسكن السكّن :

كزعزع الريح صكّ الدوح عاصفها فلم يدّع من جنّي فيها ولا غصن
واهاً وآهاً يموت الصبر بينهما موت المحامد بين البخل والجبن
أين بلسنسية ومغانيتها ، وأغاريد ورقيها وأغانيتها ، أين حلّي رصافتها

١ يريد الحارث بن مضاض الجرهمي وله في تفرق جرهم قصيدة باكية ؛ ولكن أين تفرق قومه ما
حل ببلنسية ؟

وجسرها ، ومنزلا عظامها ونصرها ؟ أين أفاؤها تندى غصّارة ، وذكاؤها
تبدو من خضارة ؟ أين جداولها الطفّاحة وخمائلها ؟ أين جنباتها النفاحة وشمالها ؟
شداً ما عطل من قلائد أزهارها نحرها ، وخلعت شعشعانية ضحاها بحيرتها
وبحرها ، فأية حلية لا حيلة في صرفها مع صرف الزمان ، وهل كانت حتى
بانة إلا روتق الحق وبشاشة الإيمان ، ثم لم يلبث داء عقرها ، أن دبّ إلى جزيرة
شقرها ، فأمرّ عذبها التّمير ، وذوّى غصنها التّصير ، وخرسّت جمائم
أدواحها ، وركدت نواسم أرواحها ، ومع ذلك اقتحمت من الأيام دانية ،
فنزحت قطوفها وهي دانية ، ويا لشاطبة وبطحائها ، من حيف الأيام وإنحائها ،
والهفاه ثم لهفاه على تدمير وتلاعها ، وجيآن وقلاعها ، وقرطبة ونواديها ،
وحمص وواديها ، كلتها رعي كلّوها ، ودهي بالتفريق والتمزيق مكلّوها ،
عض الحصار أكثرها ، وطمس الكفر عينها وأثرها ، وتلك لإبيرة بصدّد
البوار ، وريّة في مثل حلقة السّوار ، ولا مريّة في المريّة وخفضها على الحوار ،
إلى بنيات ، لواحق بالأمهات ، ونواطق بهك لأول هاتف بهات .

ما هذا النفخ بالمعمور ؟ أهو النفخ في الصّور ؟ أم التّفنر عارياً من الحج
المبرور ؟ وما لأندلس أصيبت بأشرفها ، ونقيصت من أطرافها ؟ قوّض عن
صوامعها الأذان ، وصمّت بالنواقيس فيها الآذان ، أجنّت ما لم تجنّ
الأصقاع ؟ أعقّت الحق فحاق بها الإيقاع ؟ كلا بل دانت للسّنة ، وكانت من
البدع في أحسن جنة : هذه المروانية مع اشتداد أركانها ، وامتداد سلطانها ،
ألق حُبّ آل النبوّة في حبات القلوب ، وألوت ما ظفرت من خلعه ولا قلعه
بمطلوب ، إلى المرابطة بأقاصي الثغور ، والمحافظة على معالي الأمور ، والركون
إلى الهضبة المنيعه ، والروضة المربعة ، من مُعادة الشيعة ، وموالة الشريعة ،
فليت شعري بم استوثق تمحيصها ؟ ولم تعلق بعموم البلوى تخصيصها ؟
اللهم غفراً طالما ضرّ ضجر ، ومن الأنباء ما فيه مُزدجّر ، جرى بما لم نقدره
المقدور ، فما عسى أن ينفث به المصدور ؟ وربنا الحكيم العليم ، فحسبنا

التفويض له والتسليم ، ويا عجباً لبني الأصفر أنسيت مَرَجَ الصَّفَرِ ، ورميها يوم اليرموك بكل أغلب غَصَنَفَرٍ ؟ دع ذا فالعهد به بعيد ، ومن اتعظ بغيره فهو سعيد ، هلاً تذكرتِ العامرية وغزواتها ، وهابتِ العمرية وهبواتها ، أما الجزيرة بخيلها محذقة ، وبأحاديث فتحها مصدقة ، هذا الوقت المرتقب ، والزمان الذي زجيت له الشهور والحقب ، وهذه الإمامة أيدها الله تعالى هي المنقذة من أسرها ، والمنقذة لسلطانها مراسم نَصْرُهَا ، فيتاح الأخذ بالنار ، ويُزاح عن الجنة أهل النار ، ويعلم الكافر لمن عُقْبِي الدار .

حاورتُ سيدي بشار الفاجي الفاجع ، وحاولت براء الجوى من جوابه بالعلاج الناجع ، وبودتي لو تقع في الأرجاء مُصَابِقة ، فترفع من الأرزاء معاينة ، أليس لديه أسوأُ المكلوم ، وتدارك المظلوم ؟ وبيديه أزيمة المنشور والمنظوم : خيال يختر (؟) في إقناع إيراد ، وصوغ ما لم يخطر على قلب زيد ولا بخاطر زياد ، بُسَّتِ الجبال الطوامح فما بستُ وأبو فتحها^١ ، وغيضت البحار الطوافح فمن يعبا بالركايا ومَتَّحها ، أين أبو الفضل ابن العميد من العماد الفاضل ، وصَمَّصامة عمرو من قلمه الفاضل ؟ هذا مِدْرَهْهَا الذي فعل الأفاعيل ، وأحمدها^٢ الذي سما على إبراهيم وإسماعيل^٣ ، وهما إماما الصناعة ، وهما البراعة والبراعة ، بهما فخرٌ من نطق بالضاد ، وبسببهما حسدت الحروف الصاد ، لكن دفعهم بالراح ، وأعرى مُدْرَعَهُم من المراح ، وشرف دونهم ضعيف القصب على صَمِّ الرماح ، أبقاه الله تعالى وبيانه صادق الأنواء ، وزمانه كاذب الأسواء ، ولا زال مكانه مجاوزاً ذُوَابَةَ الجوزاء ، وإحسانه مكافئاً بأحسن الجزاء ؛ والسلام .

١ يشير إلى أبي الفتح البستي ؛ وفي الأصول : « لما » .

٢ أحمدها : هو أحمد بن عميرة المخزومي ، يريد أنه تفوق في النثر على أولئك الأعلام .

٣ إبراهيم هو الصابي أبو إسحاق ، وإسماعيل هو الصاحب بن عباد .

[فصول من درر السمط لابن الأبار]

وقد عرّفت بابن الأبار في « أزهار الرياض » بما لا مزيد عليه ، غير أنني رأيت هنا أن أذكر فصولاً مجموعة من كلامه في كتابه المسمى بـ « درر السمط في خبر السبط » .

قال رحمه الله تعالى^١ : رَحْمَةُ اللهِ وبركاته عليكم أهل البيت ، فروع النبوة والرسالة ، ويتنايع السماحة والبسالة ، صفوة آل أبي طالب ، وسرارة^٢ بني لؤي بن غالب الذين حباهم^٣ الروح الأمين ، وحلاّهم الكتاب المبين ، فقلّ في قوم شرّعوا الدين القيسم ، ومنعوا اليتيم أن يقهر والأيتيم ، ما قدّم من أديم آدم أطيب من أبيهم طينة ، ولا أخذت الأرض أجمل من مساعيمهم زينة ، لولاهم ما عبّد الرحمن ، ولا عهد الإيمان ، وعقيد الأمان ، ذؤابة غير أشابة ، فضلهم ما شأنه نقص ولا شابه ، سرارة محلّتهم سر المطلوب ، وقرارة محبتهم حبّات القلوب ، أذهب الله عنهم الرجس ، وشرّف بخلقهم الجنس ، فإن تميزوا فبشريعتهم البيضاء ، أو تميزوا فلعشيرتهم الحمراء ، من كل يعسوب الكتيبة ، منسوب لنجيب ونجبية ، نجارهُ الكرم ، وداره الحرم ، نمتّه العرّانين من هاشم إلى النسب الأصرح الأوضح^٤ ، إلى نبعة قرعها في السماء ومغرسها سرّة الأبطح ، أولئك السادة أحيي وأفدي ، والشهادة بجهنم أوفي وأودي ، ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه .

فصل^٥ — ما كانت خديجة لتأتي بخديج^٦ ، ولا الزهراء لتلد إلاّ أزاهر

١ درر السمط : الورقة الأولى .

٢ الدرر : سرارة .

٣ الدرر : حياهم .

٤ الأوضح : سقطت من الدرر .

٥ الدرر : ١٥ .

٦ الخديج : الناقص .

كالسَّراج ، مثل النحلة لا تأكل إلاّ طيباً ، ولا تضع إلاّ طيباً ، خلدت بنتُ
خُوَيْلِدٍ ليزكو عقبها من الحاشر العاقب^١ ، ويسمُو مَرَقِيبًا على النجم الثاقب ،
لم تحدِّ بمثلها المهاري ، ولم يلد له غيرها من المهاري ، آمت من بعولتها قبله ،
لتصل السعادة بجملها حبَّله ، ملاك العمل خواتمه ، رَبَّ رَبَّاتِ حِجَالٍ ، أنفذ
من فحول رجال :

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهِلالِ^٢

هذه خديجة من أخيها حزام أحزم ، ولشعار الصدق من شعارات القص
ألزم ، ركنت إلى الركن الشديد ، وسُدَّتْ للهدى كما هديت للتسديد ، يوم
نبيء خاتم الأنبياء ، وأنبيء بالنور المنزل عليه والضياء .

فصل^٣ - وكان قبيل المبعث ، وبين يدي لمّ الشعث ، يثابر على كل حسنى
وحسنة ، ويجاور شهراً من كل سنة ، يتحرى حِراء بالتعهد ، ويزجي تلك
المدة في التعبد ، وذلك الشهر المقصور على التبرر ، المقدور فيه رفع التضرُّر ،
شهر رمضان ، المنزل^٤ فيه القرآن ، فيبناه ، لا ينام قلبه وإن نامت عيناه ، جاءه
الملك مبشراً بالنُّجْح ، وقد كان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفَلتَق الصبح ، فغمره
بالكلاءة ، وأمره بالقراءة ، وكلّما تجسَّس له غَطَّه ثم أرسله ، وإذا أراد الله
بعبد خيراً غسله :

تريدن إدراك المعالي رخيصة ولا بدُّ دون الشَّهْد من إبر النحلِ

كذلك حتى عاذ بالأرق من الفرق ، وقد علقَ فاتحة العلق ، فلا يجري

١ الحاشر العاقب من أسماء الرسول (ص) .

٢ من قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة .

٣ الدرر : ١٨ .

٤ الدرر : الذي أنزل .

غيرها على لسانه ، وكأنما كتبت كتاباً في جنانه .

فصل ١ - ولما أصبح يؤمُّ الأهل ، وتوسط الجبل يريد السهل ، وقد قضى الأجل ، وما نضا الوجل ، نوجي بما في الكتاب المسطور ، ونوهي كما نوهي موسى من جانب الطُّور ، فعرض له في طريقه ، ما شغله عن فريقيه ، فرفع رأسه متأملاً ، فأبصر الملك في صورة رجل متمثلاً ، يُشرفه بالنداء ، ويهوفه بالاجتباء ، وإنما عضد خبر الليلة بعيان اليوم ، وأري في اليقظة مصداق ما أسمع في النوم ، ليحق الله الحق بكلماته ، وعلى ما ورد في الأثر ، وسرد رُواة السير ، فذلك اليوم كان عيد فطرنا الآن وغير بدع ولا بعيد ، أن يبدأ الوحي بعيد كما ختم بعيد ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ (المائدة : ٣) فبهت عليه السلام لما سمعه وراءه ، وثبت لا يتقدم أمامه ولا يرجع وراءه :

وَقَفَ الهوى بي حيث أنتَ فليس لي مُتَقَدِّمٌ عَنْهُ ولا مُتَأَخِّرٌ ٢

ثم جعل في الخوف والرجاء ٣ ، لا يقلب وجهه في السماء ، إلا تعرض له في تلك الصورة ، وعرض عليه ما أعطاه الله سبحانه من السورة ، فيقف موقف التوكل ، ويمسك حتى عن التأمل ٤ :

تتوق إليك النفس ثم أردُّها حياء ، ومثلي بالحياء حقيق
أذود سوام الطرف عنك ، وماله إلى أحد إلا إليك طريق

فصل ١ - وَقَطِنْتَ خديجة لاحتباسه ، فأمننت في التماسه ، تزوجوا الودود

١ الدرر : ٢٠ .

٢ البيت مغير التافية وصوابه « متأخر عنه ولا متقدم » وهو لأبي الشيص الخزاعي . (الأغاني ١٥ :

٣٣٦ والشعر والشعراء : ٧٢٢) .

٣ الدرر : بين الرجاء والخوف .

٤ الشعر للمجنون (ديوانه : ٢٠٧) .

٥ الديوان : أرد سواء .

٦ الدرر : ٢٤ .

الولود ، ولفورها بل لفوزها بعثت في طلبه رُسُلُهَا ، وانبعثت تأخذ عليه شعاب مكة وسُبُلُهَا :

إنَّ المحبَّ إذا لم يُسْتَرَزَّرْ زارا

طال عليها الأمد ، فطار إليها الكمد ، والمحِبُّ حقيقة ، من لا يفريق فيقة ،
بالنفس النفيسة سماحه وجوده ، وفي وجود المحبوب الأشرف وجوده^١ :

كأنَّ بلاد الله ما لم تكن بها وإن كان فيها الخلق طرّاً بلاقع
أَقْضَيْتُ نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى وَيَجْمَعُنِي وَالْمَهْمُ بِاللَّيْلِ جَامِع
نَهَارِي نَهَارِ النَّاسِ حَتَّى إِذَا دَجَا لِي اللَّيْلُ هَزَنَتْنِي إِلَيْكَ الْمُضَاجِع
لَقَدْ ثَبَتَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَتَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ

فصل ٢ - وبعد لأيٍ ما ورد عليها ، وقعد مضيئاً إليها ، فظفقت بحكم الإجلال
تمسح أركانها ، وتفسح مجال السؤال عما خلف له مكانه ، فباح لها بالسر المغيب ،
وقد لاح وسم الكرامة على الطيب المطيب ، فعلمت أنه الصادق المصدوق ،
وحكمت بأنه السابق لا المسبوق ، اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، وما
زالت حتى أزلت ما به من الغمّة ، وقالت : إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة :

إنّني تفرستُ فيكَ الخَيْرَ أعرفه والله يعلمُ أن ما خانني البَصْرُ
أنتَ النبيُّ ومنَّ يحرمُ شفاعتهُ يوم الحساب فقد أزرى به القدرُ

لا ترهب فسوف تبهر ، وسيبندو أمرُ الله تعالى ويظهر ، أنت الذي سجعت
به الكهان ، ونزلت له من صوامعها الرهبان ، وسارت بنجر كرامته الركبان ،
أنت الذي ما حملتُ أخف منه حامل ، ودررت ببركته الشاة فإذا هي حافل :

١ ينسب الشعر للمجنون (ديوانه : ١٨٥) كما ينسب لابن الدمينية (ديوانه : ٨٨) .

٢ الدرر : ٢٦ .

وأنتَ لما ولدت أشرقْتَ الـ أرضُ وضاعتْ بنُوركِ الأفقِ
فنحنُ في ذلك الضياء وفي النورِ وسُبلَ الرِّشادِ نخرقُ

فصل ١ - وما لبثت أن غلقت أبوابها ، وجمعت عليها أثوابها ، وانطلقت إلى ورَقَّةَ بنِ نوفل ، تطلبه بتفسير ذلك المَجْمَل ، وكان يرجع إلى عقلِ حَصِيف ، ويبحث عن يَبْعَثُ بالدين الحنيف ، فاستبشر به ناموسا ، وأخبر أنه الذي كان يأتي موسى ، فازدادت إيماناً ، وأقامت على ذلك زماناً ، ثم رأت أن خبر الواحد قد يلحقه التفتيد ، ودرت أن المجتهد لا يجوز له التقليد ، طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فرجعت أدراجها في ارتياد الإقناع ، وألقي في روعها إلقاء الخمار والقناع ، فهناك وَصَحَ لها البرهان ، وَصَحَ لها أن الآتي مَلَكٌ لا شيطان :

تدلّي عليه الروحُ من عند ربّه ينزّلُ من جوّ السّماءِ ويرفَعُ
نشاوره فيما نُريدُ وقصدنا إذا ما اشتهى أنا نطيعُ ونسمعُ

فصل ٣ - سبقت لها من الله تعالى الحسنى ، فصنعت حسناً وقالت حسناً ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، ما فتر الوحي بعدها ، ولا مظل الحقُّ الحيُّ وعدها ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، دانت لحب ذي الإسلام ، فحيّاها الملكُ بالسّلام من الملك السّلام ، مَنْ كان لله كان الله له ، أغنت غنّاء الأبطال ، فغنّاها لسان الحال :

هل تذكرينَ فدَتِكِ النفسُ مجلسنا يومَ التقينا فلمْ أنطق من الحَصْرِ

١ الدرر : ٣٠ .

٢ الدرر : لديها .

٣ الدرر : ٣٢ .

٤ الدرر : دانت بالحق دين الإسلام .

٥ الدرر : فغنّاها .

لا أرفعُ الطرفَ حولي من مراقبةٍ بَقِيًّا عليَّ ، وبعضُ الحزمِ في الحذرِ
يُسِّرُ لاحتِمالِ الأذى والنصبِ ، فبشرتُ بيتَ في الجنةِ من قَصَبِ ،
هل أمنتُ^١ إذ أمنتُ من الرعبِ ، حتى غنيتُ عن الشَّبعِ بما في الشَّعبِ :
لا تحسبِ المجدَ تمرّاً أنتَ آكله لن تبلُغِ المجدَ حتى تلعقِ الصَّبْرَ^٢
وهاهنا احتملتُ عض الحصارِ ، وما أطاقتُ فقَدَ المختارِ :

يطولُ اليومُ لا ألقاكُ فيهِ وشهر^٣ نلتقي فيهِ قصير^٤
والحبيبُ سَمِعُ المحبِّ وبصره ، وله طولُ محياه وقصره :

أنتَ كلُّ الناسِ عندي فإذا غيبتَ عن عيني لم ألقَ أحدَ
مكثتُ للرياسة^٥ مواسيةً وآسيةً ، فثلثتُ في مجبوحةِ الجنةِ مريمَ وآسيةً ، ثم
رَبعتُ البتُولَ فبرعتُ ، نطقتُ بذلك الآثارَ وصدعتُ ، خيرَ نساءِ العالمينَ أربعَ .
فصل^٦ - إلى البتُولِ سِيرَ بالشرفِ التالِدِ ، وسيقُ الفخرِ بالأُمِ الكريمةِ والوالِدِ ،
حلتُ في الجليلِ الجليلِ ، وتحلَّتْ بالمجدِ الأثيلِ ، ثم تولتُ إلى الظلِّ الظليلِ :
وليسَ يصحُّ في الأفهامِ شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ
وأبيها إن أم أبيها ، لا تجدُ لها شبيهاً ، نثرةِ النبيِّ ، وطلَّةِ الوصيِّ ، وذاتِ

١ الدرر : ما أمنت .

٢ الشعر في أمالي القالي (١ : ١١٢) لبعض العرب .

٣ الدرر : وحول .

٤ البيت لجميل بثينة في ديوانه : ٩٩ وأمالي القالي ١ : ٢٠٢ والزهرة : ٦٠ وروايته : يطول اليوم
إن شحطت نواها ، وحول . . . إلخ .

٥ الدرر : للرسالة .

٦ الدرر : ٣٧ .

الشرف المستولي على الأمدِ القصي ، كلُّ ولدِ الرسولِ درَج في حياته ، وحملت هي ما حملت من آياته ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، لا فرع للشجرة المباركة من سواها ، فهل جدّوَي أوفر من جدّواها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، حُفَّت بالتطهير والتكريم ، وزُفَّت إلى الكفوِّ الكريم ، فوردا صفو العارفة والمنّة ، وولدا سيدي شباب أهل الجنة ، عوضت من الأمتعة الفاخرة ، بسيدي الدنيا^١ والآخرة ، ما أثقل نحوها ظهراً ، ولا بذل غير درعه مهراً ، كان صِفْرَ اليدين من البيضاء والصفراء ، وبجالة لا حيلة معها في إهداء الحلة السّراء ، فصاهره الشارع وخالته^٢ ، وقال في بعض^٣ صلوك لا مال له ، نرفع درجات من نشاء .

فصل :

أنتهبُ الأيامُ أفلاذَ أحمد وأفلاذُ مَنْ عاداهمُ تتعدّدُ^٣
ويضحى وَيظنّما أحمد وبناته وبنّتُ زيادٍ وردها لا يُصردُ^٤
أني دينه في أمنه في بلاده تضيقُ عليهم فُسحةٌ تتوردُ^٤
وما الدين إلا دين جدّهم الذي به أصدرُوا في العالمين وأوردوا

انتهى ما سنح لي ذكره من « درر السمط » وهو كتاب غاية في بابه ، ولم أورد منه غير ما ذكرته ؛ لأن في الباقي ما تُشم منه رائحة التشيع ، والله سبحانه يسامحه بمنّه وكرمه .

رجع إلى ما كنا بسبيله ، فنقول : قد ذكرنا في الباب الثاني رسالة أبي المطرف ابن عميرة إلى أبي جعفر ابن أمية^٤ ، وهي مشتملة على التلّيف على الجزيرة الأندلسية ، حين أخذ العدو بكنسسية ، وظهرت له مخايل الاستيلاء على ما بقي

١ الدرر : سيدي في الدنيا .

٢ صرح باسمه في الدرر - وهو معأوية - ولعل المقري كنى عنه تقوى وورعاً .

٣ في الأصول : تتوّد ، وصوبناه عن الدرر .

٤ انظر الجزء الأول من النفع ص : ٣٠٥ .

من الأندلس ، فراجعها فيما سبق ، وإن كان التناسب التام في ذكرها هنا
فالمناسبة هناك حاصلة أيضاً ، والله سبحانه الموفق . وذكرنا هناك أيضاً جملة
غيرها من كلامه - رحمه الله تعالى - تتعلق بهذا المعنى وغيره ، فلتراجع
ثمة .

[نهاية الأندلس كما يصورها. كتاب «جنة الرضى» لابن عاصم]

ورأيت أن أثبت هنا ما رأيته بخط الأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبي عبد
الله محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ما صورته ١ :
حدثني الفقيه العدل سيدي حسن ابن القائد الزعيم الأفاضل سيدي إبراهيم العراف
أنه حضر مرة لإنزال الطلسم المعروف بفروج الرواح من العلية بالقصبة القديمة
من غرناطة بسبب البناء والإصلاح ، وأنه عاينه من سبعة معادن مكتوباً فيه :

إيوانُ غرناطةَ الغراءُ معتبرٌ طِلْسَمُهُ بولاءِ الحالِ دَوَّارُ
وفارسٌ رُوحُهُ رِيحٌ تدبِّرهُ من الجِمامِ ، ولكنْ فيه أسرارُ
فسوف يبقى قليلاً ثم تطرفهُ دَهْيَاءُ يخربُ منها الملكُ والدَّارُ

وقد صدق قائل هذه الأبيات ، فإنه طرقت الدهياء ذلك القطر الذي ليس
له في الحسن مثال ، ونسَلَ الخطب إليه من كل حدب وانثال ، وكل ذلك من
اختلاف رؤسائه وكبرائه ، ومقدّميه وقضاته وأمرائه ووزرائه ، فكلُّ يرومُ
الرياسة لنفسه ، ويجر نارها لقرصه ، والنصارى - لعنهم الله تعالى - يضرّبون
بينهم بالخداع والمكر والكيد ، ويضرّبون عمراً منهم بزَيْد ، حتى تمكنوا من
أخذ البلاد ، والاستيلاء على الطارف والتلاد . قال الرئيس القاضي العلامة الكاتب
الوزير أبو يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى في كتابه «جنة الرضى في التسليم

١ انظر هذا الخبر والشعر عن الطلم في أزهار الرياض ٣ : ٣١٤ .

لما قدر الله تعالى وقضى « ما صورة محل الحاجة منه ^١ : ومن استقرأ التواريخ المنصوصة ، وأخبار الملوك المقصوصة ، علم أن النصارى - دمرهم الله تعالى - لم يدركوا في المسلمين ثاراً ، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل ودياراً ، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصاراً ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف ، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة ، وتخريشهم بالكيد والحيلابة بين حُماتها في الفتن المُبيرة ، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة ، والآراء لا مفرقة ولا مختلفة ، والعلماء بمعاونة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة ، فالحرب إذ ذاك سجال ، والله تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال ، وللممانعة في غرض المدافعة ميدان رَحْب ومَجَال ، وروية وارتجال .

إلى أن قال : وتناولت الأيام ما بين مُهادنة ومقاطعة ، ومضاربة ومقارعة ، ومنازلة ومنازعة ، ومواقفة وممانعة ، ومحاربة وموادعة ، ولا أَمَل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين ، وإعمال الحيلة على المؤمنين ، وإضمار المكيدة للموحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ، وهو يُظهر أنه ساعٍ للوطن في العاقبة الحسنى ، وأنه مُنطَوٍ لأهله على المقصد الأسنى ، ومهتم بمراعاة أمورهم ، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهُورهم ، وهو يُسِرُّ حَسَناً في ارتغائه ، ويُعْمَل الحيلة في التماس هُلْكَ الوطن وابتغائه ، فتباً لعقول تقبل مثل هذا المحال ، وتصديق هذا الكذب بوجهِه أو بحال ، وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكّر في نفسه ، وعرض هذا المسموع على مدركات حسّه ، وراجع أوليَّات عقله وتجربيات حدسه ، وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه ، فأنا أناشده الله هل بات قطُّ بمصالح النصارى وسلطانهم مهتماً ، وأصبح من خطب طرَقهم مغتماً ، ونظر لهم نظر المفكّر في العاقبة الحسنة ، أو قصد لهم قصد المدبر

١ من هنا يشترك النفع مع أزهار الرياض ١ : ٥٠ - ٥٥ في النقل عن كتاب ابن عاصم .

في المعيشة المستحسنة ، أو خطر على قلبه أن يحفظ في سبيل القرية أربابهم وصلبانهم ، أو عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه أجباهم ورهبانهم ، فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث ، ولم يشرب قلبه حبّ التلث ، ويكون صادق اللهجة ، منصفاً عند قيام الحجّة ، فسيعرف أن ذلك لم يخطر له قطُّ على خاطر ولا مرّ له ببال ، وأن عكس ذلك هو الذي كان به ذا اغتباط وبفعله ذا اهتبال ، وإن نسب لذلك المعنى فهو عليه أثقل من الجبال ، وأشد على قلبه من وقع النبال ، هذا وعقده التوحيد ، وصلاته التوحيد ، وملته الغراء ، وشريعته البيضاء ، ودينه الحنيف القويم ، ونبيّه الرؤوف الرحيم ، وكتابه القرآن الحكيم ، ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم ، فكيف نعتقد هذه المربية الكبرى ، والمنقبة الشهري ، لمن عقده التلث ، ودينه المليث ، ومعبوده الصليب ، وتسميته التصليب ، وملته المنسوخة ، وقضيته المنسوخة ، وختانه التغطيس ، وغافر ذنبه القسيس ، وربّه عيسى المسيح ، ونظره ليس البين ولا الصحيح ، وأن ذلك الرب قد ضُرج بالدماء ، وسقي الخلل عوض الماء ، وأن اليهود قتلته مصلوباً ، وأدركته مطلوباً ، وقهرته مغلوباً ، وأنه جزع من الموت وخاف ، إلى سوى ذلك ممّا يناسب هذه الأقاويل السخاف ، فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة ، من الخير مقدار الذرة ، أو يُطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة ؟ اللهم احفظ علينا العقل والدين ، واسلك بنا سبيل المهتمدين .

ثم قال بعد كلام ما صورته : كانت خزانة هذه الدار النصريّة مشتملةً على كل نفيسة من الياقوت ، وبتيمة من الجواهر ، وفريدة من الزمرد ، وثمينة من الفيروزج ، وعلى كل واقٍ من الدروع ، وحامٍ من العُدّة ، وماضٍ من الأسلحة ، وفاخر من الآلة ، ونادر من الأمتعة ، فمن عقود فذة ، وسلوك جمّة ، وأقراط تفضل على قرطبيّ ماريّة نفاسةً فائقةً وحسناً رائقاً ، ومن سيوف شواذ في الإبداع غرائب في الإعجاب ، منسوبات الصفائح في الطبع ، خالصات الحلّي من التبر ، ومن دروع مقدّرة السرد متلاحمة النسيج ، واقية للناس في يوم

الحرب ، مشهورة النسبة إلى داود نبي الله ، ومن جَوَاشِنَ سَابِغَةَ اللَّبْسَةِ ، ذهبية الحلية ، هندية الضرب ، ديباجية الثوب ، ومن بيضات عسجدية الطَّرْقِ ، جوهرية التنضيد ، زبرجدية التقسيم ، ياقوتية المركز ، ومن مناطق لُجَيْنِيَّةِ الصَّوْغِ ، عريضة الشكل ، مزججة الصفح ، ومن دَرَقِ لمطية ، مصممة المسام ، لينة المجسة ، معروفة المنعة ، صافية الأديم ، ومن قِيسِيَّ ناصعة الصبغة ، هلالية الخِلْقَةِ ، منعطفة الجوانب ، زارية بالحواجب ، إلى آلات فاخرة من أتوار^١ نحاسية ، ومنابر بلورية ، وطيافير^٢ دمشقية ، وسبحات زجاجية ، وصحاف صينية ، وأكواب عراقية ، وأقداح طباشيرية ، وسوى ذلك مما لا يحيط به الوصف ، ولا يستوفيه العد ، وكل ذلك التهبه شُواظِ الفتنة ، والتقمه تيار الخلاف والفرقة ، فرزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله ، وتقتصر ديار الملوك المؤتلة النعمة عن بعضه فضلاً عن كَلِّهِ ؛ انتهى كلامه رحمه الله تعالى^٣ .

رجع - ولما أخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومُرْسِيَّةِ وغيرها انحاز أهل الإسلام إلى غَرْنَاطَةِ والمريَّةِ ومالِقَةَ ونحوها ، وضاق الملك بعد اتساعه ، وصار تنين العدو يلتقم كل وقت بلداً أو حصناً ، ويهصر من دَوْحِ تلك البلاد غُصْنًا ، وملك هذا التزرَّ اليسيرَ الباقي من الجزيرة ملوكُ بني الأحمر ، فلم يزالوا مع العدو في تعب وممارسة كما ذكره ابن عاصم قريباً ، وربما أثنوا في الكفار كما عُلِمَ في أخبارهم ، وانتصروا بملوك فاس بني مَرِّينَ ، في بعض الأحيان .

ولما قصد ملوك الإفرنج السبعة في المائة الثامنة غَرْنَاطَةَ ليأخذوها اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مَرِّينَ يستنجدونهم ، وعينوا للرسالة الشيخ

١ ص ق : أتاور ؛ والأتوار : الآنية ، والمفرد تور .

٢ الطيافير : أطباق مستديرة عميقة قاعها مستو وحافاتها مرتفعة .

٣ إلى هنا وقف النقل في أزهار الرياض .

أبا إسحاق ابن أبي العاصي والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي نفع الله تعالى بهم ؛ ثم بعد سفرهم نازل الإفرنج غرناطة بجمسة وثلاثين ألف فارس ونحو مائة ألف راجل مقاتل ، ولم يوافقهم سلطان المغرب ، ففرض الله تعالى ببركة المشايخ الثلاثة أن كُسِرَ النصراني في الساعة التي كسر خواطيرهم فيها صاحب المغرب ، وظهرت في ذلك كرامة لسيدي أبي عبد الله الطنجالي رحمه الله تعالى .

ثم إن بني الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء الكفار على الجبل كانوا في جهاد وجياد في غالب أوقاتهم ، ولم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولتهم الهرم الذي يلحق الدول ، فلما كان زمانُ السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصراني الغالبي الأحمر ، واجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبد الله محمد ابن سعد المدعو بالزغل قد بويغ بمالقة ، بعد أن جاء به القواد من عند النصراني وبقي بمالقة برهة من الزمان ، ثم ذهب إلى أخيه ، وبقي من مالقة من القواد والرؤساء فوضي ، وآل الحال إلى أن قامت مالقة بدعوة السلطان أبي الحسن ، وانقضت الفتنة . واستقل السلطان أبو الحسن بملك ما بقي بيد المسلمين من بلاد الأندلس ، وجاهد المشركين ، وافتتح عدة أماكن ، ولاحت له بارقة الكرة على العدو الكافر ، وخافوه ، وطلبوا هُدنته ، وكثرت جيوشه ، فأجمع على عرضها كلها بين يديه ، وأعد لذلك مجلساً أقيم له بناؤه خارج الحمراء قلعة غرناطة ، وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة عام اثنين وثمانين وثمانمئة ، ولم تزل الجنود تُعرض عليه كل يوم إلى الثاني والعشرين من محرّم السنة التي تليها ، وهو يوم ختام العرض ، وكان معظم المنتزهين والمتفرجين بالسيكة وما قارب ذلك ، فبعث الله تعالى سيلاً عريماً على وادي حدّره بحجارة وماء غزير كأفواه القيرب ، عقاباً من الله سبحانه وتاديباً لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر ، واحتمل الوادي ما على حافتيه من المدينة من حوانيت ودور ومعاصر وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق ، وبلغ تيار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم ،

ولم يُسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد . وكان بين رؤساء الإفرنج في ذلك الوقت اختلاف ، فبعضهم استقل بملك قرطبة ، وبعض بإشبيلية ، وبعض بشريش ، وعلى ذلك كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات ، وركن إلى الراحة ، وأضاع الأجناد ، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس ، ورَفَضَ الجهاد والنظر في الملك ، ليقضي الله تعالى ما شاء ، وكثرت المغارم والمظالم ، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه ، وكان أيضاً قد قتل كبار القواد وهو يظن أن النصارى لا يغزون بعدُ البلاد ، ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد . واتفق أن صاحب قشتالة تغلب على بلادها بعد حروب ، وانقاد له رؤساء الشرك المخالفون ، ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد ، والطريق إلى الاستيلاء على البلاد ، وذلك أنه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف وهما من بنت عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر ، وكان قد اصطفى على أمهما رومية كان لها منه بعض ذرية ، وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية ، فخيَّف أن يقدم أولاد الرومية ، على أولاد بنت عمه السنية ، وحدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب ، لميل بعضهم إلى أولاد الحرة ، وبعض إلى أولاد الرومية ، وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لأمدٍ حدّوده وضربوه ، ولما تم أمدُ الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الأولاد ، وتشكى الناسُ مع ذلك بالوزير والعمال لسوء ما عاملوا به الناس من الحيف والجور ، فلم يُصغ إليهم ، وكثر الخلاف واشتدَّ الخطب ، وطلب الناسُ تأخير الوزير ، وتفاقم الأمر ، وصح عند النصارى - لعنهم الله تعالى - ضَعْفُ الدولة واختلاف القلوب فبادروا إلى الحامة^١ فأخذوها غدراً آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، وغدوا للقعة ، وتحصنوا بها ، ثم شرعوا في أخذ البلد ، فملأوا الطرق خيلاً ورجالاً ، وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين ، ونهبوا

١ ص ق : الحمة .

الحريم ، والناسُ في غفلةٍ نيامٍ من غير استعداد كالسكارى ، فقتل من قضي الله تعالى بتمام أجله ، وهرب البعض وترك أولاده وحريمه ، واحتوى العدو على البلد بما فيه ، وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عندما بلغهم العلم ، وكان النصارى عشرة آلاف بين ماشٍ وفارس ، وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه ، وإذا بالسرعان من أهل غرناطة وصلوا ، فرجع العدو إلى البلد ، فحاصروهم المسلمون ، وشدّ دوا في ذلك ، ثم تكاثرو المسلمون خيلاً ورجالاً من جميع بلاد الأندلس ، ونازلوا الحامة ، وطمعوا في منع الماء عن العدو ، وتبين للعامة أن الجند لم ينصحوا ، فأطلقوا ألسنتهم بأقبح الكلام فيهم وفي الوزير ، وبينما هم كذلك إذا بالنذير جاء أن النصارى أقبلوا في جمع عظيم لإغاثة من بالحامة من النصارى ، فأقلع جندُ المسلمين من الحامة ، وقصلوا ملاقاته الواردين من بلاد العدو ، ولما علم بهم العدو ولّوا الأدبار من غير ملاقاته محتجين بقتلتهم ، وكان رئيسهم صاحب قرطبة .

ثم إن صاحب إشبيلية جمع جنداً عظيماً من جيش النصارى الفرسان والرجالة ، وأتى لنصرة من في الحامة من النصارى ، وعندما صبح هذا عند العسكر اجتمعوا ، وأشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد ، والصلاحُ الرجوعُ إلى غرناطة ليستعد الناس ويأخذوا ما يحتاج إليه الحصار من العدة والعدد ، فعندما أفلح المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون ، وتشاوروا في إخلاتها أو سكنائها ، واتفقوا على الإقامة بها ، وحصّنها ، وجعلوا فيها جميع ما يحتاج إليه ، وانصرف صاحب إشبيلية ، وترك أجناده ، وفرّق فيهم الأموال ، ثم عاد المسلمون لحصارها ، وضيقوا عليها ، وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة عنه ، ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين ، وخاب السعد بذلك بأن شعّر بهم النصارى ، فعادوا عليهم ، وتردّى بعضهم من أعلى الجبل ، وقتل أكثرهم ، وكانوا من أهل بسطة ووادي آش ، فانقطع أملُ الناس من الحامة ، ووقع الإياس من ردها .

وفي جمادى الأولى من السنة تواترت الأخبار أن صاحب قَشْتَالَة أتى في جنود لا تُحْصَى ولا تحصر ، فاجتمع الناسُ بغرناطة ، وتكلموا في ذلك ، وإذا به قد قصد لوشة ونازلها قصداً أن يضيفها إلى الحامة ، وجاء بالعدة والعدد ، وأغارت على النصارى جملة من المسلمين ، فقتلوا مَنْ لحقوه ، وأخذوا جملة من المدافع الكبار . ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غرناطة ، وناوشوا النصارى ، فألجئوهم إلى الخروج عن الحيام ، وأخذوها وغيرها ، فهرب النصارى ، وتركوا طعاماً كثيراً وآلة ثقيلة ، وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة .

وفي هذا اليوم بعينه هرب الأميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفاً من أبيهما أن يفتك بهما بإشارة حَظِيَّتِهِ الرومية ثُرَيَّا ، واستقرا بوادي آش . وقامت بدعوتهما ، ثمَّ بايعتهما تلك البلاد المرية وبَسْطَة وغرناطة ، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقة .

وفي صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة اجتمع جميع رؤساء النصارى ، وقصدوا قرى مالقة وبلش ، في نحو الثمانية آلاف . وفيهم صاحب إشبيلية وصاحب شَرِيش وصاحب إستجة وصاحب أنتقيرة وغيرهم ، فلم يتمكنوا من أخذ حصن ، ونشوا في أوعار ومضايق وخنادق وجبال ، واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة ، وصار المسلمون ينالون منهم في كل محل ، حتى بلغوا مالقة ، ففر كبيرهم ، ومَنْ بقي أسر أو قُتل ، وكان السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكَب ، وبقي أخوه أبو عبد الله بمالقة ومعه بعض الجند ، وقُتل من النصارى في هذه الواقعة نحو ثلاثة آلاف ، وأسر نحو ألفين ، من جملتها خال السلطان وصاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب أنتقيرة وغيرهم ، وهم نحو الثلاثين من الأكابر ، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة ، وبعقب ذلك سافر أهل مالقة لبلاد النصارى ، فكسروا هنالك كسرة شنيعة قُتل فيها أكثر قوَاد غرب الأندلس .

ولمّا استقرّ السلطان أبو عبد الله ابن السلطان أبي الحسن بغرناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغربية تحرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها ، وأتى ابنه السلطان أبو عبد الله في جند غرناطة والجهة الشرقية ، والتقوا في موضع يُعرف بالدب ، فكُسِرَ السلطان أبو عبد الله .

ولمّا سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة بأن عمّه بمالقة غم من النصارى أعمال السفر للغزو بأهل بلاده من غرناطة والشرقية ، وذلك في ربيع الأول من السنة ، إلى أن بلغ نواحي لشانة ، وقتل وأسرَ وغنم ، فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعه كبير قبيرة ، وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار ، فانكسر الجند ، وأسر من الناس كثير وقتل آخرون ، وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبد الله ، ولم يُعرف ، ثم علم به صاحب لشانة ، وأراد صاحب قبيرة أن يأخذه منه ، فهرب به ليلاً ، وبلغه إلى صاحب قشتالة ، ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد ، وتفاعل به ، فقلّمًا توجه لجهة أو بعث سريةً إلاّ وبعثه فيها .

ولمّا أسر السلطان أبو عبد الله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الأندلس ، وذهبوا لمالقة للسلطان أبي الحسن ، وذهبوا به لغرناطة ، وبايعوه ، مع أنّه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره ، وأصابه ضرر ، ولمّا تعذّر أمره قدّم أخاه أبا عبد الله . وخلع له نفسه ، ونزل بالمنكب ، فأقام بها إلى أن مات ، واستقل أخوه أبو عبد الله المعروف بالزغل بالملك بعده .

وأما أبو عبد الله ابن السلطان أبي الحسن فهو في أسر العدو .

وفي شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثمانمائة خرج العدو في قوّة إلى نواحي مالقة ، بعد أن كان في السنة قبلها استولى على حصون ، فاستولى هذه السنة على بعض الحصون ، وقصد ذكوان ، فهدّ أسوارها ، وكان بها جملة من أهل الغربية ورندة ، ودخل ألف مدرع ذكوان عنوة ، فأظفر الله تعالى بهم أهل ذكوان ، فقتلوهم جميعاً . ثم طلبوا الأمان وخرجوا .

ثم انتقل في جمادى الأولى إلى رُنْدَة وحاصرها ، وكان أهلها خرجوا إلى نصره ذكوان وسواها ، فحاصر رُنْدَة وهدّ أسوارها ، وخرج أهلها على الأمان ، وطاعت له جميع تلك البلاد ، ولم يبق بغربي مالقة إلا مَنْ دخل في طاعة الكافر وتحت ذمته ، وضيق بمالقة ، وفرّق حصصه على بعض الحصون ليحاصروا مالقة ، وعاد إلى بلاده .

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحبُ غرناطة لتحصين بعض البلاد ، وبينما هو كذلك إذا بالخبر جاءه أن محلة العدوّ خارجة لذلك الحصن .
وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنودُ النصارى على الحصن ، كانوا قد سرّوا إليه ليلاً ، وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين ، فقاتلهم المسلمون من غير تعب ، فاقتل نظامُ المسلمين ، ووصل النصارى إلى خباء السلطان ، ثم التحم القتال واشتد ، وقوّى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى شراً هزيمة ، وقتل منهم خلائق ، وقصر المسلمون خوفاً من محلة سلطان النصارى إذ كانت قادمة في أثر هذه ، ولما رجعت إليهم الفلّول رجعوا القهقري ، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات ، وجعلوا ذلك كله بالحصن ، ولم يحدث شيء بعد إلى رمضان ، فتوجه الكافر لحصن قبيل ونازله وهدّ أسواره ، ولما رأى المسلمون أن الحصن قد دُخِلَ طلبوا الأمان ، وخرجوا بأموالهم وأولادهم مؤمنين ، وفرّ الناس من تلك المواضع من البراجلة هاربين ، واستولى العدوّ على عدّة حصون مثل مشاقر وحصن اللوز ، وضيق العدوّ بجميع بلاد المسلمين ، ولم يتوجه لناحية إلا استأصلها ، ولا قصّدَ جهة إلا أطاعته وحصّلها ، ثم إن العدوّ دبّر الحيلة مع ما هو عليه من القوة ، فبعث إلى السلطان أبي عبد الله الذي تحت أسرهِ وكساه ووعده بكل ما يتمناه ، وصرفه لشرقي بسطة ، وأعطاه المال والرجال ، ووعده أن مَنْ دخل تحت حكمه من المسلمين وبايعه من أهل البلاد فإنّه في الهدنة والصلح والعهد والميثاق الواقع بين السلطانين ، وخرج لبلى فأطاعه أهلها ، ودخلت بلى في طاعته ، ونودي بالصلح في الأسواق ، وصرخت

به في تلك البلاد الشياطين ، وسرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين من غرناطة ،
 وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يخفى ، وتبعهم بعض
 المفسدين المحبين في تفريق كلمة المسلمين ، وممن مال إلى الصلح عامة غرناطة
 لضعف الدولة ، ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماستها بتقبيح وتحسين ،
 إلى أن قام ربص البيازين بدعوة السلطان الذي كان مأسوراً عند المشركين ،
 ووقعت فتنة عظيمة في غرناطة نفسها بين المسلمين لما أراده الله تعالى من استيلاء
 العدو على تلك الأقطار ، ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة ، وعظم الخطب ،
 وكانت الثورة ثالث شهر ربيع الأول عام أحد وتسعين وثمانمائة ، ودامت الفتنة
 إلى منتصف جمادى الأولى من العام ، وبلغ الخبر أن السلطان الذي قاموا بدعوته
 قدم على لوشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمه الزغل صاحب
 قلعة غرناطة ، بأن العم يكون له الملك ، وابن أخيه تحت إيلته بلوشة أو بأي
 المواضع أحب ، ويكونون يداً واحدة على عدو الدين ، وبينما هم في هذا إذا
 بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحنة قوية وعدد وعدد ، ونازل لوشة
 حيث السلطان أبو عبد الله الذي كان أسيراً ، وضيق بها الحصار ، وقد كان دخلها
 جماعة من أهل البيازين بشية الجهاد والمعاضدة وليهم ، وخاف أهل غرناطة
 وسواها من أن يكون ذلك حيلة ، فلم يأت لنصرتهم غير البيازين ، واشتد عليهم
 الحصار ، وكثرت الأقاويل ، وصرحت الألسن بأن ذلك باتفاق بين السلطان
 المأسور وصاحب قشتالة ، ودخل على أهل لوشة في ربصهم ، وخافوا من
 الاستئصال ، فطلبوا الأمان في أموالهم وأنفسهم وأهليهم ، فوفى لهم صاحب
 قشتالة بذلك ، وأخذ البلد في السادس والعشرين لجمادى الأولى سنة إحدى وتسعين
 وثمانمائة . وهي - أعني لوشة - كانت بلد سلف الوزير لسان الدين ابن
 الخطيب ، كما ذكرناه مستوفى في غير هذا الموضع . وهاجر أهل لوشة إلى
 غرناطة ، وبقي السلطان أبو عبد الله الذي كان مأسوراً مع النصراني بلوشة ،
 فصرح عند ذلك أهل غرناطة بأنه ما جاء للوشة إلا ليُدخل إليها العدو الكافر ،

ويجعلها فداء له ، وقيل : إنه سَرَّحَ له حينئذ ابنه إذ كان مرهوناً في الفداء ، وكثر القيل والقال بينهم وبين أهل البيازين في ذلك ، وظهر بذلك ما كان كامناً في القلوب ، ثم رجع صاحب قشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور .

وفي نصف جمادى الثانية خرج إلى إلبيرة فهدد بعض الأسوار ، وتوعد الناس ، فأعطاه أهلُه الحصنَ على الأمان ، فخرجوا وقدموا على غرناطة ، ثم فعل بحصن الملتين^١ مثل ذلك ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، ولما ضاقوا ذرعاً أعطوه بالمقادة على الأمان ، فخرجوا إلى غرناطة وأطاع أهل قلنبيرة من غير قتال ، فخرجوا إلى غرناطة ثم وصل العدو إلى مُنتَ فريد ، فرمى عليهم بالمحرقات وغيرها وأحرق دار العدة ، فطلبوا الأمان ، وخرجوا إلى غرناطة ، وانتقل للصخرة فأخذها ، وحصن هذه الحصون كلها ، وشحنها بالرجال والعدة ، ورتب فيها الخليل لمحاصرة غرناطة ، ثم عاد الكافر لبلاده ، وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بأن من دخل في حكمه وتحت أمره فهو في الأمان التام ، وأشاعوا أن ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب إفرنسية ، فخرج لبلش وأطاعته ، ثم بعث لمن والاه من البلاد أنه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق . وأن من دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى عليه ، وأن معه وثائق بخطوط السلاطين ، فلم يقبل الناس ذلك ، إلا القليل منهم مثل أهل البيازين ، فلهجوا بهذا الصلح ، وأقاموا على صحته الدلائل ، وتكلموا في أهل غرناطة بالكلام القبيح ، مع تمكن الفتنة والعداوة في القلوب ، فبعث له أهل البيازين أنه إذا قدم بهذه الحجج لتلك الجهات اتبعه الناس ، وقاموا بدعوته من غير التباس ، فأتى على حين غفلة ، ولم يكن يظن إتيانه بنفسه ، فأتى البيازين ودخلها ونادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح . فلم يقبل ذلك منه أهل غرناطة . وقالوا : ما بعهد لوشة من قدام . ودخل ربص البيازين سادس شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة ، وعمه بالحمراء .

١ هذا ما ثبت في ص ؛ وفي ق : الملتين ، وفي دوزي : الملتين .

انتقل للقلعة ، واشتد أمر الفتنة ، ثم إن صاحب قشتالة أمَدَّ صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها ، واشتد أمره بذلك ، وعظمت أسباب الفتنة ، وفشا في الناس القتل والنهب ، ولم يزل الأمر كذلك إلى السابع والعشرين من محرّم سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، فعزم أهل غرناطة مع سلطانهم على الدخول على البيازين عتّوة ، وتكلم أهل العلم فيمن انتصر بالنصارى ووجوب مدافعته ، ومن أطاعه عصى الله ورسوله ، ودخلوا على أهل البيازين دخول فِشَل ، ثم إن صاحب غرناطة بعث إلى الأجناد والقواد من أهل بسطة ووادي آش والمرية والمنكبّ وبلش ومالقة وجميع الأقطار ، وتجمعوا بغرناطة ، وتعاهدوا ، وتحالفوا على أن يدهم واحدة على أعداء الدين ، ونصرة من قصده العدو من المسلمين ، وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك فخرج بمحلته قاصداً نواحي بلش . وكان صاحب البيازين بعث وزيره إلى ناحية مالقة وإلى حصن المنشأة يذكر ويخوف ، ومعه النسخة من عقود الصلح ، فقامت مالقة وحصن المنشأة بدعوته ، ودخلوا في إيالته خوفاً من صاحب قشتالة وصدولته ، وطمعاً في الصلح وصحته ، ثم اجتمع كبار مالقة مع أهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة ، والسبب الحامل لهم على ذلك ، فلم يرجع أهل بلش عمّا عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الأندلس من العهود والمواثيق .

وخرج صاحب قشتالة قاصداً بلش مالقة ، ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها ، ولما صح عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس ، فأشاروا بالمسير لإغاثة بلش للعهد الذي عقده ، وأتى أهل وادي آش وغيرها وحشود البشرات ، وخرج صاحب غرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة ، ووصل بلش ، فوجد العدو نازلاً عليها برآً وبحراً ، فنزل بجبل هنالك ، وكثر لفظ الناس ، وحملوا على النصارى من غير تعبئة ، وحين حرّكهم للحملة بلغ السلطان الرّغْل أن غرناطة بايعت صاحب البيازين ، فالتقوا مع النصارى فثلين وقبل الالتحام انهزموا ، وتبددت جموعهم مع كون

النصارى خائفين وجالين منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فرجعوا منهزمين ، وقد شاع عند الخوارج ثورة غرناطة على السلطان ، فقصدوا وادي آش ، وعاد النصارى إلى بلش بعد أن كانوا رتبوا جيوشهم للقاء السلطان وأهل غرناطة ، فلمّا عادوا إلى بلش دخلوا عنوة ربضها ، وضيقوا بها ، وكانت ثورة غرناطة خامس جمادى الأولى .

ولمّا رأى أهل بلش تكالب العدو عليهم وإدبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الأمان ، فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من السنة ، وأطاعت النصارى جميع البلاد التي بشرقي مالقة وحصن قمارش .

ثمّ انتقل العدو إلى حصار مالقة ، وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين ، وأتى إليها النصارى بالميرة ، ولمّا نزل بلش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائد شريش الذي كان مأسوراً عندهم ، فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فاره وهو حصن مالقة بدعوة صاحب وادي آش ، وارتحل صاحب قشتالة إلى مالقة ونازلها برّاً وبحراً ، وقاتله أهلها قتالاً عظيماً بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم . وطال الحصار حتى أداروا على مالقة من البر الخنادق والصور والأجفان من البحر ، ومنع الداخل إليها ، ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار . وحاربوا حرباً شديداً ، وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض ، وضيقوا عليهم بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام فأكلوا المواشي والخيل والحمير ، وبعثوا الكتب للعدوتين وهم طامعون في الإغاثة فلم يأت إليهم أحد . وأثر فيهم الجوع . وفشا في أهل نجدتهم القتل ، ولم يُظهِروا مع ذلك هلعاً ولا ضعفاً ، إلى أن ضعف حالهم . ويسوا من ناصر أو مغيث من البر والبحر ، فتكلموا مع النصارى في الأمان كما وقع ممن سواهم ، فعوتبوا على ما صدر منهم وما وقع من الخفاء ، وقيل لهم

١ من الطعام : سقطت من ص .

لما تحقق العدو التجاءهم : تَوَمَّسُونَ من الموت ، وتعطون مفتاح القلعة والحصن ،
والسلطان ما يعاملكم إلا بالخير إذا فعلتم ، وهذا خداع من الكفار ، فلما تمكن
العدو منهم أخذهم أسرى ، وذلك أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ،
ولم يبق في تلك النواحي موضع إلا وملكه النصارى .

وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو الكافر إلى الشرقية وبلش التي
كانت في الصلح ، فاستولى عليها ، واحتجوا بالصلح ، فلم يلتفت إليهم ، وأخذ
تلك البلاد كلها صلحاً ، ثم رجع لبلاده .

وفي عام أربعة وتسعين وثمانمائة خرج لبعض حصون بسطة فأخذها بعد حرب ،
واستولى على ما هنالك من الحصون ، ثم نازل بسطة ، وكان صاحب وادي آش
لما تعين العدو بمحلته بعث جميع جنده وقواده ، وحشده أهل نجدة تلك البلاد من
وادي آش والمرية والمنكب والبشرات ، فلما نزل العدو بسطة أتت الحشود
المذكورة ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة حتى تفهقر
العدو عن قرب بسطة ، ولم يقدر على منع الداخل والخارج ، وبقي الأمر كذلك
رجباً وشعبان ورمضان ومحلات المسلمين نازلة خارج البلد ، ثم إن العدو شد الحصار
وجدد في القتال ، وقرب المدافع والآلات من الأسوار حتى منع الداخل والخارج
بعض منع ، واشتد الحال في ذي القعدة وذي الحجة وقل الطعام ، وفي آخر
ذي الحجة اختبروا الطعام في خفية فلم يجدوا إلا القليل ، وكانوا طامعين في إقلاع
العدو عند دخول فصل الشتاء ، وإذا بالعدو بنى وعزم على الإقامة ، وقوي
اليأس على المسلمين ، فتكلموا في الصلح على ما فعل غيرهم من الأماكن ، وظن
العدو أن الطعام لم يبق منه شيء ، وأن ذلك هو الملجأ لهم للكلام ، وفهموا
عنه ذلك ، فاحتالوا في إظهار جميع أنواع الطعام بالأسواق ، وأبدوا للعدو
القوة مع كونهم في غاية الضعف ، والحرب خدعة ، فدخل بعض كبار
النصارى للتكلم معهم وهو عيّن ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس ، وعند
تحققهم بقاء الطعام والقوة أعطوهم الأمان على أنفسهم دون من أعانهم من أهل

وادي آش والمنكبّ والمرية والبشرات ، فإن دفعوا هؤلاء عنهم صح لهم الأمان ، وإلاّ فلا ، فلم يوافق أهلُ البلد على هذا ، وطال الكلام ، وخاف أهل البلد من كشف السرّ ، فاتفقوا على أن تكون العقدة على بسطة وادي آش والمرية والمنكبّ والبشرات ، ففعلوا ذلك ، ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدو على شروط شرطوها وأمور أظهروا بعضها للناس وبعضها مكتوم ، وقبض الخواص مالاّ ، وحصلت لهم فوائد .

وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين وثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة وملكوها ، ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام ، وقالوا لهم : مَنْ بقي بموضعه فهو آمن ، ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالماً ، ثم أخرج العدو المسلمين من البلد ، وأسكنهم بالربّض خوف الثورة ، ثم ارتحل العدو للمرية ، وأطاعته جميعُ تلك البلاد ، ونزل صاحبُ وادي آش للمرية ليلقاه بها ، فلقيه وأخذ الحصون والقلاع والبروج ، وباع له السلطان أبو عبد الله على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحب ، فوعده بذلك ، وانصرف معه إلى وادي آش ، ومكّنه من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور ، وأطاعته جميعُ البلاد ، ولم يبق غير غرناطة وقراها ، وجميعُ ما كان في حكم صاحب وادي آش صار للنصارى في طرفة عين ، وجعل في كل قلعة قائداً نصرانياً ، وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم الكفار مالاّ من عند صاحب قشتالة إكراماً منه لهم بزعمهم ، فتبّأ لعقولهم ، وما ذلك منه إلاّ توفير لرجالهم وعدّته ودفع بالتي هي أحسن ، ثم أخذ برج الملاحه وغيره ، وبناه وحصّنه ، وشحن الجميع بالرجال والذخيرة ، وأظهر الصحبة والصلح مع صاحب وادي آش ، وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكرراً منه وخداعاً ودهاء ، ثمّ بعث في السنة نفسها رسلاً لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما مكّنه عمّه من القلاع والحصون ، ويكون تحت إيادته ، ويعطيه مالاّ جزيلاً على ذلك ، وأي بلاد شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه ، قالوا :

وأطعمه صاحبُ غرناطة في ذلك ، فخرج العدو في محلاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة ، وهذا في سر بين السلطانين ، فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصة والعامّة وأخبرهم بما طلب منه العدو وأن عمّه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه ، وليس لنا إلا إحدى خصلتين : الدخول تحته . أو القتال . فاتفق الرأي على الجهاد والوفاء بما عقده من صلح ، وخرج بمحلتة . ثم إن صاحب قشتالة نزل على مرج غرناطة ، وطلب من أهل غرناطة الدخول في طاعته . وإلا أفسد عليهم زروعهم ، فأعلنوا بالمخالفة ، فأفسد الزرع . وذلك في رجب سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة . ثم ارتحل العدو عند الإياس منهم ذلك الوقت ، وهدم بعض حصون . وأصلح برج همدان والملاحية ، وشحنهما بما ينبغي . ثم رجع إلى بلاده . وعند انصرافه نزل صاحب غرناطة بمن معه إلى بعض الحصون التي في يد النصارى ففتحها عنوة ، وقتل مَنْ فيها من النصارى ، وأسكنها المسلمين . ورجع لغرناطة ، ثم أعمل الرحلة إلى البشرات في رجب المذكور ، فأخذ بعض القرى . وهرب مَنْ بها من النصارى والمرتدين أصحابهم . ثم أتى حصن أندرش فتمكن منه ، وأطاعته البشرات ، وقامت دعوة الإسلام بها . وخرجوا عن ذمة النصارى . وهناك عمّه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملّة وافرة ، فقصدهم في شعبان من غرناطة ، واستقرّ عمّه بالمريّة . وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات إلى برّجة ، ثم تحرك عمّه مع النصارى إلى أندرش فأخذها لرمضان . وخرج صاحب غرناطة لقرية همدان . وكان برجها العظيم مشحوناً بالرجال والعدة والطعام ، فحاصره أهل غرناطة . ونصبوا عليه أنواعاً من الحرب . ومات فيه خلق كثير منهم ، ونقبوا البرج الأول والثاني والثالث ، وألجؤوهم للبرج الكبير . وهو القلعة ، فنقبوها ثم أسروا من كان بها . وهم ثمانون ومائة ، واحتوا على ما هنالك من عدة وآلات حرب .

وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب ، فلما وصل حصن شلوبانية نزله ، وأخذته عنوة بعد حصاره ، وامتنعت القلعة ، وجاءتهم الأمداد من مالقة بجرأ فلم تقدر على شيء ، وضيّقوا بالقلعة ، فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحلته لمرج غرناطة ، فارتحل صاحب غرناطة عن قلعة شلوبانية ، وجاء غرناطة ثالث شوال ، وبعد وصولهم غرناطة وصل العدو إلى المرج ومعه المرتدون والمدجنون ، وبعد ثمانية أيام ارتحل العدو لبلاده بعد هدم برج الملاحه وإخلائه وبرج آخر ، وتوجه إلى وادي آش ، فأخرج المسلمين منها ، ولم يبق بها مسلم في المدينة ولا الرّيبض ، وهدم قلعة أندرش ، وحاف على البلاد ، ولما رأى ذلك السلطان الزّغسل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد عمّ سلطان غرناطة بادر بالجواز لبر العدو فجاز لوهران ، ثمّ لتلمسان ، واستقر بها ، وبها نسله إلى الآن يُعرفون ببني سلطان الأندلس ، ودخل صاحب قشتالة لأقاصي مملكته بسبب فتنة بينه وبين الإفرنج ثم تحرك صاحب غرناطة على برشانة وحاصرها وأخذها ، وأسر من كان بها من النصارى وأرادت فتياه^١ القيام على النصارى ، فجاء صاحب وادي آش ففتك فيهم .

وفي ذي القعدة من السنة رفع صاحب غرناطة من السند وخلت تلك الأوطان من الانس .

وفي ثاني عشري جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة ، وأفسد الزرع ، ودوخ الأرض ، وهدم القرى ، وأمر ببناء موضع بالسور والحفير ، وأحكم بناءه ، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صرّف الهمة إلى الحصار والإقامة ، وصار يُضيق على غرناطة كل يوم ، ودام القتال سبعة أشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين ، غير أن النصارى على بعد ، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية

١ ق ص : رفقياه .

جبل شلّير ، إلى أن تمكن فصل الشتاء ، وكتب البرد ، ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وقطع الجالب ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ، ومنع المسلمين من الحرث والسبب ، وضاق الحال ، وبان الاختلال ، وعظم الخطب ، وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ، ففرّ ناس كثير من الجوع إلى البشرات ، ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السنة ، وقل الطعام ، ثم تفاقم الخطب ، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم ، وقالوا : انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم ، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلموا في هذا المعنى ، وأن العدو يزداد مدّده كل يوم ، ونحن لا مدد لنا ، وكان ظننا أنه يُقلع عنا في فصل الشتاء ، فخاب الظن ، وبني وأسس ، وأقام ، وقرب منا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم ، فانفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفاً على نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطاً أرادوها ، وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش : منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنه من حمراء غرناطة والمعاقلة والحصون ، ويحلف على عادة النصارى في العهود ، وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتنّ عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة ، فانقادوا إليها ، ووافقوا عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة ، فقبلها منهم ، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء .

وفي ثاني ربيع الأول من السنة - أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم

وعقارهم ، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً ، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبيل سلطانهم قبل ، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعياناً نصّ عليهم ، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سيبل عليه لمالكة ولا سواه . والسلطان يدفع ثمنه لمالكة ، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنح ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ثم بعد تلك المدة يُعطون عشر ما لهم والكراء^١ ، وأن لا يؤخذ أحد بدينه غيره ، وأن لا يُقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ، ولا يعاتب على من قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى^٢ ولا يسفر لجهة من الجهات ، ولا يزيدون على المغارم المعتادة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثّة ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين . ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله . ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ، ولا يمنح مؤذن ولا مصلّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ، وأمثال هذا مما تركنا ذكره .

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد . ولما علم ذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلح ، وشملهم حكمه على هذه الشروط . ثم أمر العدو الكافر ببناء ما يحتاج إليه في

١ ثم . . . والكراء : سقطت من ص .

٢ أيام . . . النصارى : سقطت من ص .

الحمراء وتحصينها ، وتجديد بناء قصورها وإصلاح سورها ، وصار الطاغية يخلف إلى الحمراء نهاراً ويبيت بمحلته ليلاً إلى أن اطمأن من خوف الغدر ، فدخل المدينة ، وتطوّف بها ، وأحاط خبراً بما يرومه . ثم أمر سلطان المسلمين أن يتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له وسكناه بأندرش ، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها ، ثم احتال في ارتحاله لبر العدو ، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور ، فكتب لصاحب المرية أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدو ، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له ، فصرف في الحين بنص هذا الكتاب ، وركب البحر ، ونزل بمليلة ، واستوطن فاساً ، وكان قبلُ طلب الجواز لناحية مراکش ، فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء ووباء .

ثم إن النصارى نكثوا العهد . ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة ، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر ، ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ، ثم تعدوا إلى أمر آخر ، وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً ، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم . وهذا كان السبب للتنصر ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت ، وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا الناس ، فلم ينفهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسيياً ، إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر ، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين

يعبد الله في خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث ، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً ، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المعرة ، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الحالية وبلادها ، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرياً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا ، وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال ، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصف ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقرضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس ، ومحيت رسومها ، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله ، واسطة عقدهم ، ومشيد مبانيهم الأنيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة ، وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس ، العائد منها للملكة في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس ، وهو سلطان لسان الدين ابن الخطيب ، وقد ذكرنا جملة من أخباره في غير هذا الموضع ، ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطره بمرج غرناطة ابن فرج

[ابن إسماعيل] بن يوسف بن نصر بن قيس ، الأنصاري ، الخزرجي ، رحمهم الله تعالى جميعاً .

وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه ، متلهفاً على ما خلفه ، وبني بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتها ودخلتها ، وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ، ودفن بإزاء المصلّى خارج باب الشريعة وخلف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد وعقب هذا السلطان بفاس إلى الآن ، وعهدي بذريته بفاس سنة ١٠٢٧ ، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويُعدّون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

[رسالة المخلوع أبي عبد الله إلى الشيخ الوطاسي]

وقد رأيت أن أذكر هنا الرسالة التي كتب بها المخلوع المذكور إلى سلطان فاس الشيخ الوطاسي^١ ، وهي من إنشاء الكاتب المجيد البارع البليغ أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي رحمه الله تعالى وسماها بـ «الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس» ونصها بعد الافتتاح :

مولى الملوكِ ملوكِ العربِ والعجمِ رَعِيًّا لِمَا مِثْلُهُ يُرْعَى مِنَ الدَّمِ
بِكَ اسْتَجْرْنَا وَنَعْمَ الْجَارُ أَنْتَ لِمَنْ جَارَ الزَّمَانُ عَلَيْهِ جَوْرَ مُنْتَقِمِ
حَتَّى غَدَا مَلِكُهُ بِالرَّغْمِ مُسْتَلْبًا وَأَفْطَعُ الْخَطْبِ مَا يَأْتِي عَلَى الرَّغْمِ
حُكْمٌ مِنْ اللَّهِ حَتْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ وَهَلْ مُرَدٌّ لِحُكْمٍ مِنْهُ مِنْحَمِ
وَهِيَ اللَّيَالِي وَقَاكَ اللَّهُ صَوْلَتْهَا تَصُولُ حَتَّى عَلَى الْأَسَادِ فِي الْأَجْمِ
كُنَّا مُلُوكًا لَنَا فِي أَرْضِنَا دَوْلٌ نَمْنَا بِهَا تَحْتَ أَفْنَانٍ مِنَ النِّعَمِ

١ وردت هذه الرسالة في أزهار الرياض ١ : ٧٢ - ١٠٢ .

يُرْمَى بِأَفْجَعِ حَتَفٍ مِّنْ بَيْنِ رُمَى
 وَأَيِّ مَلِكٍ بَظَلَّ الْمَلِكِ لَمْ يَنْمِ
 بِأَدْمُعٍ مَزْجَتْ أَمْوَاهُهَا بِدَمٍ
 يُشْمُ بَوَّ الصَّغَارِ الْأَنْفَ ذَا الشَّمَمِ
 فَالْمَلِكُ بَيْنَ مَلُوكِ الْأَرْضِ كَالرَّحِمِ
 وَاعْطَفَ وَلَا تَنْحَرِفَ وَاعْذِرْ وَلَا تَلْمِ
 نُذَنْبَ وَلَوْ كَثُرَتْ أَقْوَالُ ذِي الْوَحْمِ
 أَرَادَتْ أَنْفُسُنَا مَا حَلَّ مِنْ نِقَمِ
 فِي زَاخِرِ بَأْكَفِ الْمَوْجِ مَلْتَطِمِ
 طِفْلِ تَشَكَّى بِفَقْدِ الْأُمِّ فِي الْيَمِّ
 فَإِنَّ مَحْرُوسَهُ لَحِمٌّ عَلَى وَضْمِ
 فِي جَحْفَلِ كَسْوَادِ اللَّيْلِ مَرْتَكِمِ
 أَنْ ابْنَهُ الْبِرِّ قَدْ أَشْفَى عَلَى الرَّجْمِ
 أَجَارَهُ مِنْ أَعَارِبٍ وَمِنْ عَجَمِ
 أَسْدَى إِلَيْهِ مِنَ الْآلَاءِ وَالنَّعَمِ
 وَخُطَّ مَسْطُورُهَا فِي الْوَحِّ بِالْقَلَمِ
 وَعُدَّتْ أَحْرَارُنَا فِي جَمَلَةِ الْخَدَمِ
 « ضَيْفِ أَلْمِ بِفَاسٍ غَيْرِ مَحْتَشَمِ »^١

فَأَيْقَظَتْنَا سَهَامٌ لِلرَّدَى صَيْبٌ
 فَلَا تَمْ تَحْتَ ظِلِّ الْمَلِكِ نَوْمَتَا
 يَبْكِي عَلَيْهِ الَّذِي قَدْ كَانَ يَعْرِفُهُ
 كَذَلِكَ الدَّهْرُ لَمْ يَبْرَحْ كَمَا زَعَمُوا
 وَصِلْ أَوْاصِرٌ قَدْ كَانَتْ لَنَا اشْتَبَكَتْ
 وَابْسِطْ لَنَا الْخُلُقَ الْمَرْجُوعَ بِاسْطُهُ
 لَا تَأْخُذْنَا بِأَقْوَالِ الْوَشَاةِ وَلَمْ
 فَمَا أَطَقْنَا دِفَاعاً لِلْقَضَاءِ ، وَلَا
 وَلَا رَكُوباً بِإِزْعَاجِ لِسَابِحَةِ
 وَالْمَرْءُ مَا لَمْ يُعَيْنَهُ اللَّهُ أَضْيَعُ مِنْ
 وَكَلَّ مَا كَانَ غَيْرَ اللَّهِ يَحْرُسُهُ
 كُنْ كَالسَّمْوَالِ إِذْ سَارَ الْهَمَامُ لَهُ
 فَلَمْ يَبِيعْ أَدْرُعَ الْكَنْدِيِّ وَهُوَ يَرَى
 أَوْ كَالْمَعْتَى مَعَ الضَّلِيلِ الْارْوَعِ إِذْ
 وَصَارَ يَشْكُرُهُ شُكْرًا يَكْفِيهِ مَا
 وَلَا تَعَاتَبْ عَلَى أَشْيَاءٍ قَدْ قُدِّرَتْ
 « وَعَدَّتْ عَمَّا مَضَى إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ »^٢
 إِلَيْهِ حَنَانِيكَ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ عَلَى

١ من قول كعب بن زهير :

أذنب وإن كثرت في الأقاويل

لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم

٢ من قول الأعشى :

في جففل كسواد الليل جرار

كن كالسموال إذ طاف الهمام به

٣ مضمن من الشعر القديم .

؛ اقتبس صدر بيت المتنبي ، وعجزه « السيف أحسن فعلا منه باللم » .

فَأَنْتَ أَنْتَ ، وَلَوْلَا أَنْتَ مَا نَهَضَتْ
 رَحْمَاكَ يَا رَاحِمًا يَنْمِي إِلَى رُحْمَا
 فَكُم مَوَاقِفُ صَدَقٍ فِي الْجِهَادِ لَنَا
 وَالسَيْفُ يُخْضِبُ بِالْمَحْمَرِّ مَنْ عَلَّقَ
 وَلَا تَرَى صَدْرَ عَضْبٍ غَيْرِ مُنْقَصِفٍ
 حَتَّى دُهَيْنَا بِدُهْيَا لَا اقْتِدَارَ بِهَا
 فَقَالَ مَنْ لَمْ يَشَاهِدْهَا فَرَبَّتَمَا
 هِيَهَاتَ لَوْ زَبَنْتَهُ الْحَرْبُ كَانَ بِهَا
 تَاللَّهِ مَا أَضْمَرْتُ غَشًّا ضَمَائِرُنَا
 لَكِنْ طَلَبْنَا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي طَلَبْتُ
 فَخَانَنَا عِنْدَهُ الْجَدُّ الْخَثُورُ ، وَمَنْ
 فَاسْوَدَّ مَا اخْضَرَ مِنْ عَيْشِ دَهْتِهِ عِدًّا
 وَشَتَّتَ الْبَيْنَ شِمْلًا كَانَ مُنْتَظِمًا
 فَرَبًّا مَبْنِي شَدِيدٍ قَدْ أَنْأَخَ بِهِ
 قَمْنَا لَدَيْهِ أَصِيلَانًا نَسَائِلُهُ
 وَمَا ظَنَّنَا بِأَنْ نَبْقَى إِلَى زَمَنِ
 لَكِنْ رَضِيَ بِالْقَضَا الْجَارِي وَإِنْ طَوَيْتُ
 لِبَيْتِكَ يَا مَنْ دَعَانَا نَحْوَ حَضْرَتِهِ
 وَاعْطَى الْأَمَانَ الَّذِي رُصَّتْ قَوَاعِدُهُ
 خَلِيفَةَ اللَّهِ وَافَاكَ الْعَبِيدُ فَكُنْ
 وَبَيْنَ أَسْلَافِنَا مَا قَدْ عَلِمْتَ بِهِ

بنا إليها خُطَا الوخَاةِ الرَّسْمِ
 فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْأَتْبَاعِ وَالْحَشْمِ
 وَالْحَيْلُ عَالِكَةُ الْأَشْدَاقِ لِلْجُحْمِ
 مَا أَيْضُ مِنْ سَبُلٍ وَأَسْوَدٌ مِنْ لَمْ
 وَلَا تَرَى مَتْنٌ لَدُنْ غَيْرِ مُنْحَطِمِ
 سَوَى عَلَى الصَّوْنِ لِلْأَطْفَالِ وَالْحَرَمِ
 يُخَالُ جَاغِمَهَا يَقْتَادُ بِالْحَطْمِ
 أَعْيَى يَدًا مِنْ يَدِ جَالَتْ عَلَى رَحْمِ
 وَلَا طَوَتْ صِحَّةً مِنْهَا عَلَى سَقَمِ
 وَوَلَاتْنَا قَبْلَنَا فِي الْأَعْصِرِ الدَّهْمِ
 تَقَعْدُ بِهِ نَكَبَاتُ الدَّهْرِ لَمْ يَقُمْ
 بِالْأَسْمِرِ اللَّدْنِ أَوْ بِالْأَبْيَضِ الْحَدْمِ
 وَالْبَيْنِ أَقْطَعُ لِلْمَوْصُولِ مِنْ جَلَمِ
 رَكِبَ الْبَلَا فِقْرَتُهُ أَدْمَعُ الدِّيمِ
 أَعْيَا جَوَابًا وَمَا بِالرَّبِيعِ مِنْ لَأْرَمِ
 نَرَى بِهِ غُرَّرَ الْأَجَابِ كَالْحَمَمِ
 مَتَا الضَّلُوعِ عَلَى بَرْحٍ مِنَ الْأَلَمِ
 دَعَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْحُجَّاجِ لِلْحَرَمِ
 عَلَى أَسَاسٍ وَفَاءٍ غَيْرِ مُنْهَدِمِ
 فِي كُلِّ فَضْلٍ وَطَوَّلٍ عِنْدَ ظَنِّهِمْ
 مِنْ اعْتِقَادِ بِحُكْمِ الْإِرْثِ مُقْتَسِمِ

١ يشير إلى قولهم « أذل من يد في رحم » .

٢ من قول النابغة :

وقفت فيها أصيلاناً أسائلها عيت جواباً وما بالربيع من أحد

وأنتَ منهم كأصلٍ مُطعمٍ غُصْنًا
 وقد خَطَوْتَ خَطَاهُمْ فِي مآثرهم
 وصيتُ مولى الورى الشيخ الإمام غدا
 سلالةُ الأمراءِ الجلَّةِ الكبرا
 بنو مَرين ليوثُ في عرينِ ابوا
 النازلين من البيضاء وسطِ حِمَى
 والجنائسينِ بدُهُمِ الخليلِ كل ذرا
 يريكَ فارسُهُم إن هزَّ عاملُهُ
 ليثًا على أجدلِ عارٍ مِن أجنحةِ
 في اللامِ يدغمُ من عَسَالِهِ أَلْفًا
 أهلُ الحفيظةِ يومِ الروعِ يحفظهمُ
 يا من تطيرُ شرارَ منه محرقةُ
 هُمُ بطائفةِ التثليثِ قد فتكوا
 وإن يلثمهمُ يومِ الوغى رهجُ
 تضيءُ آراؤهمُ في كلِّ معضلةِ
 هذا ولو من حياءِ ذاب محتشمُ
 طابت مدائحهمُ إذ طابت أنفسهمُ
 لله درهُمُ والسَّحْبُ باخليةِ
 بحيثِ الأفقِ يُرى من لونِ حمرةِ
 هناكَ تنهلُ أيديهمُ بصوبِ حياءِ
 وأنَّ بَيْتِي زيادًا طالما ذُكرا
 أحلامُ عادٍ وأجسامُ مطهرةُ

أو كالشراكِ الذي قد قُدَّ من آدمِ
 فلمْ يذموا إذن فيها ولم تدمِ
 في الناسِ أشهرَ من نارٍ على علمِ
 ء العليةِ الظهراءِ القادةِ البهمِ
 رؤيا قرين لهم في البأسِ والكرمِ
 أحمى من الأبلقِ السامي ومن إرمِ
 والداعسينِ بسُمِّ الخطِ كل كمي
 في مارقِ بَلَطَى الهيجاءِ مضطرمِ
 يسطو بأرقمِ لدأغِ بغيرِ فَمِ
 ولم نجدِ أَلْفًا أصلاً بمدغمِ
 من عصمةِ اللهِ ما يُرْبِي على العصمِ
 لكلِّ مدرعِ بالخزمِ محتزمِ
 كمثل ما يفتك السرحانُ بالغنمِ
 أنسوكَ ما ذكروه عن ذوي اللثمِ
 إضاءةَ السُرجِ في داجٍ من الظلمِ
 لذابِ منهمُ حياءِ كلُّ محتشمِ
 فاشتقتِ النسماتُ أسماءً من النسمِ
 بدرهنِ على الأنعامِ والنعمِ
 كالشيبِ يَحْضِبُ بالحناءِ والكتَمِ
 يحيي بالاجداثِ ما فيها من الرممِ
 إذ أَلَّتْ أحاديثُ بذكرهمِ
 مِن لَمَعَةِ والآفاتِ والأثمِ

يرونَ حقّاً عليهم حفظ جوارهمِ
 فروعهُ بالدواهي لا يراع ، ولا
 همُّ البحار سماحاً غير أنّ بها
 وليس يسلم من حتفٍ محاربهمُ
 كمُ فيهمُ من أميرٍ أوحدٍ ندُسِ
 ولا كسبطِ أبي حسون^١ من حسنت
 هذاكم ابن أبي ذكري الهمام فقل
 خليفة الله حقّاً في خليفته
 مهما ترَ قَسَماتٍ منه نيرةً
 فوجههُ بدُجى أو كفهُ بجدى
 وفضلهُ وله الفضل المبين جرى
 وجودهُ المتوالي للبرية ما
 إذا ابتغت نِعماً منه العفاة له
 وإنّ يعبس زمانٌ في وجوههمِ
 وجه تبين سِماتٍ المكرمات بهِ
 وراحةٌ لم تزلْ في كلِّ آونةٍ
 لله ما التزمته من نوافلهِ
 أنسى الخلائفَ في حلمٍ وفي شرفٍ
 فجاز معتمداً منهم ومعتضداً
 وناصر الدين في الإقبال فاق ، وفي
 أفعالٍ أعدائه مُعتلةً أبداً

فلم يُضِرْ نازلٌ فيهم ولم يُضَمِ
 يغمُّ منها بما يعرو من الغممِ
 ما قد أنافَ على الأطوادِ من هممِ
 حتى يكون إليهم مُلقى السّلمِ
 يُقرطسُ الغرض المقصود بالفهمِ
 أمداحهُ حُسن ما فيه من الشيمِ
 في أصله المتقى من مجده العممِ
 كنائبِ نابٍ في حكمٍ عن الحكمِ
 تئل بنازله ما جلٌّ من نعمِ
 أبهى من الزهر أو أندى من الديمِ
 كجري الآمالِ في الأقطارِ والأممِ
 وجوده بينها طراً بمنهدمِ
 لم يسمعوا كلمةً منه سوى نعمِ
 لم يبصروا غير وجهٍ منه مبسمِ
 كما تين سماتُ الصدقِ في الكلمِ
 في نيلها راحةُ الشاكي من العدمِ
 أيامَ لا فرّضَ مفروضٍ بملتزمِ
 وفي سخاءٍ وفي علمٍ وفي فهمِ
 وامتاز عن واثقٍ منهم ومعتصمِ
 حجة العلمِ أزرى بابنه الحكمِ
 متى يرمُ جزمهسا بالخذفِ تنجزمِ

١ أبو حسون : هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ بن أبي زكريا يحيى بن زيان الوطاسي ويعرف
 بابن حسون الباذسي ، بويغ بفاس أول مرة سنة ٩٣٢ .

فويل أهل القلى من حية ذكرٍ
 راموا عداوة مَنْ إن شاء غادرهم
 فسوف يأكلهم من جيشه لجب
 وإن أعراب إذ ساروا لغايته
 وهم كما قاله ماضٍ «أرى قدمي
 فقل إذن للمناوي الناو لان أذى
 له صوارم لو ناجتك ألسنها
 وأن روحك عن قرب سيقبضه
 فهو الذي ما له نداءً يشابهه
 يدبر الأمر تديراً يخلصه
 ويصر الغيب لحظّ الذهن منه إذا
 وينعم النظر المفضي بناظيره
 ذو منطق لم تزل تجلو نتائجه
 ومسمع ليس يصغي للوشاة فلم
 فمقله لا توازيه العقول ، وهل
 إليه جميع الورى من بدو أو حضر
 شدوا وجدوا ولا تعنوا ولا تنهوا
 هذا الإمام المريني السعيد له
 قد أقسمت أنه المنصور ألسنة
 فشيءه ووالوه تروا عجباً
 والحمد لله إذ أبهى خلافته
 حريز حريز وعز قائم وندى
 دامت ودام لها سعد يساعدها
 فالله عز اسمه قد زانها بحلى

للمتلبّ اللهام المجر ملتقم
 مثل الأحاديث عن عاد وعن لادم
 بكلّ قرم إلى لحمانهم قرم
 لسائرون إلى لقم على لقم
 بسعيه نحو حنفي قد أراق دمي
 يا غرّ غرك ما أبصرت في الحلم
 لبشرك بعمر منك منصرم
 قبض المسلم ما قد حاز من سلم
 من كل متصف بالدهي متمم
 ممّا عسى أن يرى فيه من الوهم
 تعمى عن أدراكه الحاظ كل عمي
 لصوب وجه صواب واضح اللقم
 عن مبطل بخصام المبطل الخصم
 ينفق لديه الذي عنهم إليه نمي
 يوازن الطود ما قد طال من أكم؟
 نداء مرتبب بالنصر مرتسم
 قد لفها الليل بالسواقّة الحطم
 سعد يؤيده في كل مصطدم
 من نخبة الأوليا مبرورة القسم
 وتظفروا معه بالأجر والغنم
 كهناً لنا من يخيم فيه لم يرم
 غمر دراك بلا من ولا سام
 في كل مبتدا منه ومختتم
 من غرّ أمداحه كالدرّ في النظم

الواهبُ الألفُ بعد الألفِ من ذهبٍ
 والفاعلُ الفعلُ لم يهَمُّ بهِ أحدٌ
 ذاكم هو الشيخُ فاعجب إنّه هَرِمٌ
 وحسبنا أن أيدينا بهِ اعتصمت
 فما مخالفه يوماً بمضطهدٍ
 ولا موافيه في جهْدٍ بمطرحٍ
 ولا محيّا محييه بمُنكسِفٍ
 وما تَكَرّمه سرّاً بمُنكشِفٍ
 وليسَ لامحُ مرآهٍ بمكتسِبٍ
 ولا مقبَلٌ يَناه الكَريمَة في
 وما وسيلتنا العظمى إليه سوى
 وإنما هي وما أدراك ما هي من
 نبينا المصطفى الهادي بخيرِ هدى
 داعي الورى من أولي خيم وأهل قبرى
 عليه منّا صلاة الله ما ذُكرتُ
 وما تشفّع فيها بالشفيع له

ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، أنت ولينا
 فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك
 المصير ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ، نعم المولى
 ونعم النصير .

أما بعد حمد الله الذي لا يُحمد على السراء والضراء سواه ، والصلاة والسلام
 على سيدنا ومولانا محمد الذي طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح . يدعو إلى سبيل

١ صدر قصيدة البوصيري المشهورة في مدح الرسول (س) .

كل فلاح ، أولي قلوب غافلة ونفوس سَواه ، والرضى عن آله وأصحابه وعِترته الأكرمين وأحزابه الذين تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه ، وعزروه ونصروه في حال قربه ونَواه ، فيا مولانا الذي أولانا من النعم ما أولانا لا حَطَّ الله تعالى لكم من العزة رواقاً ، ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصاناً ولا أوراقاً ، ولا زالت مخضرة العود ، مبتسمةً عن زهرات البشائر متحفة بشمرات السعود ، مطورة بسحائب البركات المتداركات دون بُروق ولا رُعود ، هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب زمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم ، وما الذي يقول مَنْ وَجْهُهُ خَجَلٍ ، وفؤاده وَجَلٍ ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل ، ببيدَ أني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر ، واحترامي إليه أكبر : اللهم لا بريء^١ فأعتذر ، ولا قوي فأنتصر ، لكني مستقيل ، مستنيل مستعتب مستعفر ﴿ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (يوسف : ٥٣) ، هذا على طريق التنزل والإنصاف ، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف ، وأما على جهة التحقيق ، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق^٢ : « والله إني لأعلم أني إن أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أني منه بريئة لأقول ما لم يكن ، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني ، فأقول ما قاله أبو يوسف : صبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . على أني لا أنكر عيوبني فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبي فأنا جبلُ الذنوب ، إلى الله أشكو عَجْرِي وبُجْرِي ، وسقطاتي وغلطاتي : نعم كل شيء ولا ما يقوله المتقول ، المشنع المهور ، الناطق بضم الشيطان المُسَوَّل ، ومن أمثالهم « سُبَّتِي واصلدق ، ولا تَفْتَرِ ولا تَخْلُقِ » ، أفمثلي كان يفعل أمثالها ، ويحتمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ؟ ويهلك نفسه ويحبط أعمالها ، عياداً بالله

١ ص ق : لا بريكة .

٢ انظر إمتاع الأسماع : ٢٠٩ مع اختلاف في النص .

من خسران الدين ، وإيثار الجاحدين والمعتدين ، قد ضللت إذأ وما أنا من المهتمدين ،
 وإيتمُّ اللهُ لو علمت شعرة في فَوْدَيَّ تميل إلى تلك الجهة لقسَطَعْتها ، بل لقطفت
 ما تحت عمامتي من هامتي وقطَعْتها ، غير أن الرعاع في كل وقت وأوان ،
 للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ، كان أحمق أو أجهل من أبي ثروان^١ ،
 أو أعقل أو أعلم من أشجَّ بني مروان^٢ ، رَبِّ مَتَّهَم بري ومسربلٍ بسربال
 وهو منه عري ، وفي الأحاديث صحيح وسقيم ، ومن التراكيب المنطقية منتج
 وعقيم ، ولكنَّ ثمَّ ميزان عقل ، تُعتبر به أوزان النقل ، وعلى الراجح الاعتماد ،
 ثمَّ إشاعة الأحماد ، المتصل المتباد ، وللمرجوح الاطِّراح ، ثمَّ التزام^٣ الصراح ،
 بعد النقص من الراح ، وأكثر ما تسمعه الكذب ، وطبع جمهور الخلق إلاَّ من
 عصمه اللهُ تعالى إليه منجذب ، ولقد قَدِفْنَا من الأباطيل بأحجار ، ورُمِينَا بما لا
 يُرمى به الكفَّار ، فضلاً عن الفجَّار ، وجرى من الأمر المنقور على لسان زيد
 وعمرو ما لديكم منه حفظ الجار ، وإذا عظم الإنكاء ، فعلى تكاءة التجلد الاتكاء ،
 أكثر المكثرون ، وجهد في تعثيرنا المتعثرون ، ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا
 في سلك الملاحدة ، أكفراً أيضاً كفراً ، غفراً^٤ اللهم غفراً ، أعد نظراً يا عبد
 قيس ، فليس الأمر على ما خيَّلَ لك ليس ، وهل زدنا على أن طلبنا حقنا . ممن
 رام مَحَقَّة ومَحَقْنَا ، فطاردنا في سبيله عُدَاة كانوا لنا غائظين ، فانفتق علينا فتق
 لم يمكنَّا له رتق ، وما كنا للغيب حافظين . وبعد فاسأل أهل الحل والعقد ، والتمييز
 والنقد ، فعند جُهَيْسَتِهِم تلقى الخبر يقينا ، وقد رضينا بحكمهم يؤثمننا فيوبقنا
 أو يبرئنا فيقينا ، إيه يا من اشْرأبَّ إلى ملامنا ، وقدح حتى في إسلامنا ، رويداً
 رويداً ، فقد وجدت قوة وأيداً ، ويحك إنما طال لسانك علينا ، وامتد بالسوء

١ هو هبنقة القيسي مضرب المثل في الحمق .

٢ هو عمر بن عبد العزيز .

٣ ق ص : الزم .

٤ ص ق : غداً .

إلينا ، لأن الزمان لنا مصغر ولك مكبر ، والأمر عليك مُقبل وعنا مُدبر ، كما قال كاتب الحجاج الموبر ، وعلى الحملة فهبنا صرنا إلى تسليم مقالك جدلاً ، وذهبنا فأقررنا بالخطأ في كل وِرْدٍ وصدَر . فله درُّ القائل ^١ :

إن كنتُ أخطأتُ فما أخطأَ القدر

وكأنَّا بعتسف إذا وصل إلى هنا ، وعدمُ إنصافه يَعَلِّمُه إلنا ، قد ازورَّ متجانفًا ، ثمَّ افترَّ متهانفًا ، وجعل يتمثل بقولهم : إذا عيِّروا قالوا مقادير قدرت ، وبقولهم : المرء يعجزه المحال ، فيعارض الحق بالباطل ، والحالي بالعاطل ، ومنزع بقول القائل : ربَّ مسمع هائل ، وليس تحته [من] طائل ، وقد فرغنا أول أمس من جوابه ، وتركنا الضغن يلصق حرارة ^٢ الجوى به . وسلم الآن بما يوسعه تسكيتًا . ويقطعه تبكيتًا . فنقول له : ناشدناك الله تعالى ، هل اتفق لك قطُّ وعرض . خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض ؟ مع اجتهادك أثناءه في إصدارك وإيرادك ، في وقوعه على وفق اقتراحك ومُرادك ، أو جميع ما تزاوله بإدارتك ، لا يقع إلَّا مطابقاً لإرادتك . أو كل ما تقصده وتنويه ، تحرزه كما تشاء وتحويه ؟ فلا بد أن يقر اضطراراً ، بأن مطلوبه يشذ عنه مراراً ، بل كثيراً ما يفلت صيدهُ من أشراكه . ويطلبه فيعجز عن إدراكه ، فنقول : ومسألنا من هذا القبيل ، أيها النبي النبيل . ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ما شينا ، ممَّا يسايرنا في غرضنا منه ويماشينا ، كقوله صلى الله عليه وسلم « كلَّ شيء بقضاء وقدر ، حتى العجز والكيس » وقوله أيضاً « لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدرُوا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدرُوا عليه » أو كما قال ، صلى الله عليه وسلم ،

١ هو أبو العتاهية (ديوانه : ٤٤٩) وقيله :

هي المقادير فلمني أو فذر تجري المقادير على غرز الإبر

٢ ص : حرازة .

فأخْلِقْ به أن يلوذ بأكتاف الإحجام . ويزمّ على نفثة فيه كأنما ألبم بلجام ،
حينئذ نقول له والحق قد أبان وجهه وجلاله ، وقهره بمجته وعلاه : ليس لك
من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله ، وفي مُحاجة آدم وموسى ما يقطع لسان
الخصم ، ويرحضُ عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من درّان الوصم ،
وكيفما كانت الحال ، وإن ساء الرأيُ والانتحال . ووقعنا في أوجال وأوحال ،
فثُلَّ عرشنا ، وطويت فرُشنا ، ونكس لِيوانا . ومُلِك مثنوانا ، فنحن أمثل
من سوانا ، وفي الشر خيار ، ويد اللطائف تكسر من صوابة الأغيار ، فحتى
الآن لم نقتد من اللطيف تعالى لطفاً ، ولا عدنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على
جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفاً ، وإلاّ فتلك بغداد دار السلام ،
ومتَّبَوُا الإسلام . المحفوف بفرسان السيوف والأقلام ، مثابة الخلافة العباسية ،
ومقر العلماء والفضلاء أولي السِّير الأويّسيّة^١ . والعقول الإياسية^٢ . قد
نوزلت بالجيوش ونزلت ، وزوولت بالزحوف وزلزلت . وتحيّف جوانبها الحيف ،
ودخلها كفار التتار عتوة بالسيف ، ولا تسَلّ إذ ذاك عن كيف ، أيام تجلت
عروس المنية كاشفة عن ساقها مبدية ، وجرت الدماء في الشوارع والطرق
كالأنهار والأودية ، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتصاة بالعمائم
في رقابهم والأردية ، وللنجيع سيول ، تخوضها الخيول ، فتخضبها إلى أرساغها ،
وتهم ظماؤها بوردها فتتكلم عن تجرعها ومساعها ، فطاح عاصمها ومستعصمها ،
وراح ولم يعدُ ظالمها ومتظلمها ، وخربت مساجدها وديارها ، واصطلم بالحسام
أشرارها وخيارها ، فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف ، حسبما عرفت أو حسبما
تعرف ، فلا تك متشككاً متوقفاً ، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين
من قِفاً ، فأين تلك الجحافل ، والآراء المدارة في المحافل ؟ حين أراد الله تعالى

١ نسبة إلى أويس القرني الزاهد .

٢ نسبة إلى إيّاس بن معاوية القاضي الذي يضرب به المثل في الزكّانة .

بإدالة الكفر ، لم تُجندِ ولا قلامه ظفر ، إذن فمن سَلَمَتْ له نفسه التي هي رأسُ ماله ، وعياله وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله ، وكلّ أو جلّ أو أقلّ^١ ريشه ، وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ، ثم وجد مع ذلك سبيلاً إلى الخلاص ، في حال مياسرة ومساهلة دون تصعب واعتياص ، بعدما ظن كل الظن أن لا محيد ولا مناص ، فما أحقّه حينئذٍ وأولاه ، أن يحمّد خالقه ورازقه ومولاه ، على ما أسداه إليه من رِفْدِه وخيره ، ومعافاته ممّا ابتلي به كثير من غيره ، ويرضى بكل إيراد وإصدار ، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار ، فالدهر غدّار ، والدنيا دار مشحونة بالأكدار ، والقضاء لا يُردّ ، ولا يُصدّ ، ولا يغالب ، ولا يطالب ، والدائرات تدور ، ولا بدّ من نقص وكمال للبدور ، والعبء مطيع لا مطاع ، وليس يطاع إلاّ المستطاع ، وللخالق القدير جلّت قدرته في خليفته علم غيبٍ للأذهان عن مداه انقطاع .

وما لي والتكلف لما لا أحتاج إليه من هذا القول ، بين يدي ذي الجلال والمجادة والفضل والطّول؟ فله من العقل الأرجح ، ومن الخلق الأسجح ، ما لا تلتاط معه تهمني بصفه^٢ ، ولا تنفق عنده وشاية الواشي لا عدوّ من نقره ، ولا فاز قِدْحُه بظفّره ، والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب ، وتجرب براحتها إلى المتاعب ، وقديماً للأكياس من الناس خدعت ، وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت ، وفعلت بهم ما فعلت بيسار الكواعب تلك التي جبتّ وجدعت ، ولئن رهصت وهصرت ، فقد نهت وبصّرت ، ولئن قرعت وأمعضت ، لقد أرشدت ووعظت ، ويا ويلنا من تنكرها لنا بكرة ، ورميها لنا في غمرة أيّ غمرة ، أيام قلبت لنا ظهر المِجَنّ ، وغيم أفقها المصحّي وأدجن ، فسرعان ما عايننا حبالها مُنْبَتَّةً ، ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغتة ، فمن استعاذ من شيء

١ ق ص : أعقل . ٢ يريد : لا تعلق بقلبه .

فليستعذ ممتاً صرنا إليه من الحَوَر بعد الكَوَر ، والانحطاط من النجد إلى الغور :

فبيننا نسوس الناس والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سوقةٌ نَتَنَصَّفُ^١
فأفٍ لَدُنْيا لا يدوم نعيمها تَقَلَّبُ تارات بنا وتصرَّفُ

وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً ، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً ، ولم
نفزع إلى غير بابكم المنيع الجنب ، المنفتح حين سُدَّتْ الأبواب ، ولم نلبس غير
لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب ، وإلى أمه يلجأ الطفل
لجأ اللهْفان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف في الأَجْفان من الأَجْفان ، ووجهُ الله
تعالى يبقى وكلُّ مَنْ عليها فانٍ ، وإلى هنا ينتهي القائل ثم يقول : حسبي هذا
وكفان .

ولا ريب في اشتمال العلم الكريم ، على ما تعارفه الملوك بينها في الحديث
والقديم ، من الأخذ باليد عند زلّة القَدَم ، وقرع الأسنان وعض البنان من الندم ،
ديناً تديننت حتى مع اختلاف الأديان ، وعادة اطَّردت فيهم على تعاقب الأزمان
والأحيان .

ولقد عرض علينا صاحب قَشْتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من
أمانه المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر
مجاورة الصُّقر ، ولا سوِّغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهراي الكفر ، ما وجدنا عن
ذلك مندوحة ولو شاسعة ، وأمنا من المطالب المشاغب حُمَّة شَرِّ لنا لاسعة ،
وإدَّكرنا أيَّ ادكار ، قول الله تعالى المنكِرِ لذلك غاية الإنكار ﴿لَمْ تَكُنْ أَرْضُ
اللهِ واسِعَةً﴾ وقول الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام
« أنا بريء من مؤمن مع كافر لا تترأى ناراهما »^٢ وقول الشاعر الحاث على

١ ورد البيتان في قصة حرقه بنت النعمان تحاطب فروة بن إياس بن قبيصة (المحاسن والأضداد :
١١٥) .

٢ نص الحديث : أنا بريء من كل مسلم مع مشرك ، قيل : لم يارسول الله؟ قال : لا تترأى ناراهما .

حث المطية ، المتثاقلة عن السير في طريق مننجاتها البَطِيَّة :

وما أنا والتلددَ نحو نجد وقد غصت تهامة بالرجالِ

ووصلت أيضاً من الشرق إلينا ، كتبُ كريمة المقاصد لدينا ، تستدعي الانحياز إلى تلك الجَنَبَات ، وتتضمن ما لا مزيد عليه من الرغبات ، فلم نخر إلا دارنا التي كانت دار آباءنا من قبلنا ، ولم نرتضِ الانضواء إلا لمن بجبله وصلَ جبلنا ، وبريش نبله ريشَ نَبْلُنَا ، إدلالاً على محل إخاء متوارثٍ لا عن كلاله ، وامتنالاً لوصاة أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالة وجلالة ، إذ قد روينا عن سلف من أسلافنا ، في الإيضاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا ، أن لا يبتغوا إذا دهَمَهم داهم بالحضرة المرينية بدلاً ، ولا يجلدوا عن طريقها في التوجه إلى فريقها ١ معدلاً ، فاخترقنا إلى الرياض الأريضة الفجاج ، وركبنا إلى البحر الفُرات ظهر البحر الأُجاج ، فلا غرَوَ أن نردَ منه على ما يقر العين ، ويشفي النفس الشاكية من ألم البين ، ومن توصل هذا التوصل ، وتوسل بمثل ذلك التوسل ، تطارحاً على سدة أمير المؤمنين ، المحارب للمحاربين ، والمؤمن للمستأمنين ، فهو الخليق الحقيقي بأن يسوغ أصفى مشاربه ، ويبلغ أوفى مآربه ، على توالي الأيام والشهور والسنين ، ويخلص من الشبور إلى الحبور ، ويخرج من الظلمات إلى النور ، خروجَ الجنين ، ولعل شعاع سعادته يفيض علينا ، ونفحة قبول إقباله تسري إلينا ، فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر ، لإنشاد قول الشريف الرضي في الخليفة القادر ٢ :

عظفأ أمير المؤمنينَ فإننا في دوحَةِ العلياء لا نتفَرَّقُ
ما بيننا يومَ الفخارِ تفاوتٌ أبدأ ، كلانا في المعالي مُعَرَّقُ
إلا الخِلافةَ ميّزتك ، فإنتي أنا عاطلٌ منها وأنت مطوَّقُ

١ ص : افرقيا .

٢ ديوان الرضي ٢ : ٤٢ .

لا بل الأخرى بنا والأحجى ، والأنيح لسعينا والأرجى ، أن نعدل عن هذا المنهاج ، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج ، وينشد ما قال في الشيرازي ابن حجاج^١ :

الناسُ يَفْقِدُونَكَ اضطراراً منهم ، وأفديكَ باختيارٍ
وبعضُهم في جوارِ بعضٍ وأنتَ حتى أموتَ جاري
فِعشٌ لخبزي وعشٌ لمائي وعشٌ لداري وأهلِ دارِي

ونستوهب من الوهاب تعالى جلَّتْ أسماؤه ، وتعاضمتْ نعمائِهِ ، رحمةً تجعل في يد الهداية أعينتنا ، وعصمةً تكون في مواقف المخاوف جُنَّتنا ، وقبولاً يعطف علينا نوافر القلوب ، وصنعاً يُسني لنا كلَّ مرغوب ومطلوب ، ونسأله وظالماً بَلَغَ السائل سؤالاً ومأمولاً . متاباً صادقاً على موضوع الندم محمولاً ، ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً . عن أرض أورثها مَنْ شاء من عباده معقبا لهم ومُديلاً ، وسادلاً عليهم من ستور الإملاء الطويلة سُدولاً ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَكُنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح : ٢٣) فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيراً ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، لم نستطع عن مورده صدوراً ، وكان أمر الله قَدَرًا مقدوراً . ألا وإن لله سبحانه ، في مقامكم العلي الذي أيده وأعانه ، سرّاً من النصر يترجم عنه لسان من النصل ، وترجع فروع البشائر الصادقة ، بالفتوحات المتلاحقة ، من قاعدته المتأصلة ، إلى أصل ، فيمثله يجب اللباز ، والعباذ ، ولشبهه يحق الالتجاء ، والارتجاء ، ولأمر ما آثرناه واخترناه ، بعد أن استرشدنا الله سبحانه واستخرناه ، ومنه جلّ جلاله نرغب أن يَخِيرَ لنا ولجميع المسلمين ، ويؤوينا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع وجناب رفيع أمين ، آمين آمين ، ونرجو أن يكون ربنا ، الذي هو في جميع الأمور حسبنا ، قد خار لنا حيث أُرشدنا وهدانا ،

١ من أبيات لابن حجاج في أبي الفضل الشيرازي (البيته ٣ : ٤٧) .

وساقنا توفيقه وحدانا ، إلى الاستجارة بملك حَقِي ، كريم وفي ، أعزّ جاراً من أبي دواد ، وأحمى أنفأ من الحارث بن عباد ، يشهد بذلك الداني والقاصي والحاضر والباد ، إن أبحاث ملهوفاً فما الأسود بن قنان يُذكر ، وإن أنعش حُشاشة هالكٍ فما كعب بن مامة^١ على فعله وحده يُشكر ، جلسه كجلس القعقاع بن شور^٢ ، ومُذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب إلى ثور^٣ ، إلى التحلي بأمهات الفضائل ، التي أضدادها أمهات الرذائل ، وهي الثلاث : الحكمة والعدل والعفة التي تشملها الثلاثة الأقوال والأفعال والشماثل ، وينشأ منها ما شئت من عزم وحزم ، وعلم وحلم ، وتيقظ وتحفظ ، واتقاء وارتقاء ، وصول وطول . وسماح ونائل ، فبنور حلاه المُشرق ، يفتخر المغربُ على المُشرق ، وبمحتده السامي خطرته في الأخطار ، وبيته الذي ذكره في النباهة والنجابة قد طار ، يباهي جميع ملوك الجهات والأقطار ، وكيف لا وهو الرفيع المُستَمَى والنَّجَار ، الراضع من الظهارة صَفْوَ ألبان ، الناشئ من السراوة وسط أحجار ، في ضِضِيءِ المجد وبجوح الكرم ، وسراوة أسرة المملكة التي أكنافها حرم ، وذوابة الشرف التي مجاذبتها لم تُرَم ، من معشر أيّ معشر بخلوا إن وهبوا ما دون أعمارهم ، وجَبَّسُوا إن لم يحموا سوى ذِمارهم ، بنو مرين ، وما أدراك ما بنو مرين :

سَمُّ العُدَاةِ وآفَةُ الجُرُورِ ؛

النازلونَ بكلِّ معرِكٍ والطيبونَ معاقدِ الأزرِّ

لهم من الهفوات انتفاء ، وعندهم من السيِّر النبوية اكتفاء ، انتسبوا إلى بر

١ مضرب المثل في الإيثار لأنه آثر صاحبه النمري على نفسه بالماء ومات ظمأ .

٢ يضرب به المثل في حسن المجالسة ، قال الشاعر :

وكننت جليس قعقاع بن شور ولا يشقى بقعقاع جليس

٣ يريد سفيان الثوري ، والرباب مجموعة قبائل فيها ثور وعوف وضبة .

٤ صدر هذا البيت من شعر الخرنق « لا يبعدن قومي الذين هم » .

ابن قيس ، فخرجوا في البرّ عن القيس^١ ، ما لهم القديم المعروف ، قد نفذ في سبيل المعروف ، وحديثهم الذي نقلته رجال الزحوف ، من طرق القنا والسيوف ، على الحسن من المقاصد موقوف ، تحمّد من صغيرهم وكبيرهم ذابلهم ولدتهم ، فله آباء أنجبوهم وأمّهات ولدتهم :

شُمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأولِ^٢

إليهم في الشدائد الاستناد وعليهم في الأزمات المعوّل ، ولهم في الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الخطو الواسع والباع الأطول ، كأنما عناهم بقوله جرّول^٣ :

أولئك قومٌ إن بنّوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزّوا بها وإن أنعموا لا كدروها ولا كدّوا
وتعدّلني أبناء سعدٍ عليّهمُ وما قلتُ إلاّ بالتي علمتُ سعد

وبقوله الوثيق مبناه ، البليغ معناه^٤ :

قومٌ إذا عقدوا عقداً بلجارهمُ شدوا العنّاجَ وشدوا فوقه الكرباً^٥
يزيحون عن النزيل كل نازح قاصم ، وليس له منهم عائب ولا واصم ، فهم أحق بما قاله في منقر قيس بن عاصم^٦ :

١ القيس : المقايسة .

٢ عجز بيت لحسان ، صدره « بيض الوجوه كريمة أحسابهم » .

٣ ديوان الخطيئة : ٤١

٤ ديوان الخطيئة : ١٦ .

٥ العنّاج : حبل يجعل في أسفل الدلو تشد به العراقي ، والكرب عقد مثني يشد على العراقي ، والمعنى : إذا عقدوا أوفوا لمن عقدوا وكان عقدهم وثيقاً .

٦ من الحماسية ٦٨٦ (شرح المرزوقي : ١٥٨٤) وروى القتبسي في عيون الأخبار (١ : ٢٨٦) أنه قال هذا الشعر حين بلغه أن ابن أخيه قتل ابنه .

لا يَفْطَنُونَ لَعَيْبِ جَارِهِمْ^١ وَهُمْ لِحَفْظِ جَوَارِهِمْ فُطْنُ^٢

حُلام هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جَعَل ، وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل ، ثمّ هو عليهم وعلى من سواهم بالأوصاف الملوكية مستعل ، ارفضّ مُزَنهم منه عن غيث مُلِثٍ يمحو آثار اللزبة ، وانشق غيلهم منه عن ليث ضارٍ متقبض على برائنه للوثبة ، فقل لسكان الفلا : لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم ، فلا يبالي المرحان المواشي سواء مشى إليها النَّقَرى أو الجفلى^٣ ، بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل عِرْنين ، ثم يتلع بعد أشلاءهم المعفّرة ابتلاع التين . فهو هو كما عرفوه ، وعهدوه وأفوه ، أخو المنايا ، وابن جلا وطلّاع الثنايا ، مجتمع أشدّه ، قد احتنكت سنه وبان رشدّه ، جاد مجدّد ، محترم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجلد :

لا يشرب الماء إلاّ من قليبِ دمٍ ولا يبيتُ له جارٌ على وجلٍ^٤

أسديّ القلبِ آدميّ الرواء ، لابس جلد النمر يزوي العناد والنواء^٥ :

وليسَ بشاويّ^٦ عَليّه دمامةٌ إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهمٍ
ولكنّه يسعى عليه مفاضةٌ دلاصٌ كأعيانِ الجرادِ المنظّمِ

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين ، والوحي الوحي^٧ للاحقين به خاضعين ، قبل أن تساقوا إليه مقرّنين في الأصفاد ، ويعيا الفداء بنفائس النفوس والأموال على الفاد ، حيثنذ بعض ذو الجهل والفدامة ، على يديه حسرة وندامة ، إذا رأى

١ النقرى : الدعوة الخاصة ، والجفلى : العامة ، يعني وحده أو مع جماعة .

٢ البيت لأبي سعيد الخزومي (أمالي القالي ١ : ٢٥٩) .

٣ انظر اللسان (شوه - عين) .

٤ الشاوي : صاحب الشاه .

٥ في ق ص : والوجل والوجل .

أبطال الجنود، تحت خوافق الرايات والبُنود، قد لفحتهم نار ليست بذات خمود،
وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عادٍ وثمود، زعقات تؤزّ الكتائب
أزّاً، وهمزاً محققاً للخليل بعد المد المشبع للأعنة همزاً، وسلاً للهندية سلاً وهزاً
للخطيئة هزاً. حتى يقول النسر للذئب: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ
أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ (مريم: ٩٢)، ثق خليفة الله بذاك، في كل من رام
أذى رعيتك أو أذاك، فتلك عادة الله سبحانه وتعالى في ذوي الشقاق والنفاق،
الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق، وينصبون حبال البغي والفساد
في جميع النواحي والآفاق، فلن يجعلهم الله عز وجل من الآمنين، أتى وكيف
وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه لا يُصلح عمل المفسدين، ولا يهدي كيد
الخائنين، وها نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم،
بعدما زيننا معاطفها باستعفافكم بدرّ ثناء أبهى من در العقد العظيم، منتظمين في
سلك أوليائكم، متشرفين بخدمة عليائكم، ولا فقندَ عزة ولا عدمها، من قصد
مثابكم العزيزة وخدمها، وإن المرامي على سنائكم، لجدير بحرمتكم واعتنائكم،
وكل ملهوف تبواً من كنفكم حصناً حصيناً، عاش بقية عمره محروساً من الضيم
مصوناً، وقد قيل في بعض الكلام: من قعدت به نكاية الأيام، أقامته إغاثة
الكرام، ومولانا أيده الله تعالى ولياً ما يرفه إلينا من مكرمة بكر، ويصنعه لنا
من صنيع حافل يخلد في صحائف حسن الذكر، ويروي معنن حديث حمده
وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر، وغيره من ينام عن ذلك
فيوقظ، ويسترسل مع الغفلة حتى يُذكر ويوعظ، وما عهد منذ وُجد إلا
سريعاً إلى داعي الندى والتكريم، بريئاً من الضجر بالمطال والتبرم، حافظاً للجار
الذي أوصى النبي، صلى الله عليه وسلم، بحفظه، مستفرغاً وسعه في رعيه
المستمر ولحظه، آخذاً من حسن الثناء في جميع الأوقات والآناء بحظه:

١ ص: وغزاً.

فهو من دَوْحَةِ السَّنَا فرعٌ عزٌّ
كفهُ في الأحمالِ أغزرُ وبلٌ
حلمه يُسفرُ اسمهُ لكَ عنهُ
لا تَسَلَهُ شَيْئاً ولا تَسْتَله
فنداهُ هو الفُراتُ الذي قدُ
وحِمَاهُ هو المنبِيعُ الذي تَرَ
فدعوا ذهنهُ يزاولُ قولي
دام يَجِي بكلِّ صنعٍ ومنٍ

ليس يحتاجُ مجتنيهِ لهُزٌّ
وذَراه في الخوفِ أَمْنَعِ حرزِ
فتفهّمُ يا مدَّعي الفهمِ لغزِي
نظرة منه فيك تغني وتجزِي
عام فيه الأنامُ عَومَ الإوزِ
جع عنه الخطوبُ مرجعِ عجزِ
فهو أدرى بما تضمّنَ رمزي
ويعافى من كلِّ بؤسٍ ورجزِ

وكانّا به قد عمل على شاكلة جلاله ، من مد ظلاله ، وتمهيد حلاله ، وتلقى ورودنا بحسن تهلله واستهلاله ، وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله ، وإيرادنا على حوض كوثره المُترَع بزُلاله ، والله سبحانه يسعد مقامه العلي ويسعدنا به في حله وارتحاله ، ومآله وحاله ، ويؤيد جنده المظفّر ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوه واستنزاله ، وهزّ النوابل لإطفاء ذُباله ، وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن يريه قرّة العين في نفسه وأهله وخدامه وأمواله ، وأنظاره وأعماله ، وكافة شؤونه وأحواله ، وأحق ما نصل بالسلام وأولى ، على المقام الجليل مقام الخليفة المولى ، أزكى الصلاة والسلام على خاتمة أنبيائه وأرساله ، سيدنا ومولانا محمد ، صلّى الله عليه وسلّم وعلى جميع أصحابه وآله ، صلاة وسلاماً دائماً موصولين بدوام الأبد واتّصاله ، ضامين لمجددهما ومرددهما صلاح فاسد أعماله ، وبلوغ غاية آماله ، وذلك بمشيئة الله تعالى وإذنه وفضله وإفضاله ؛ انتهى .

[ترجمة محمد العربي كاتب الرسالة نقلاً عن الوادي آشي]

وكاتب هذه الرسالة على لسان السلطان المخلوع ، قال الوادي آشي في حقه ١ :

١ انظر تعريفاً بالفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الله العقيلي العربي صاحب هذه الرسالة في أزهار الرياض ١ : ١٠٣ .

إنه إمام الصناعة ، وفارس حلبة القرطاس والبراعة ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة الذي قطف الكمال لما نور ، ورتب محاسن البديع في درر فقره وطور ، وغرف من بحر عجاج ، واقتطف من خاطر وهاج ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي ، وما أحسن قوله فيمن قد ظفر به المسلمون :

ألا ربَّ مغرورٍ تنصّر ضلّةً فحاقَ بهِ شؤمُ الضلالِ وشرُّهُ
فإن يرتفع عند النصارى بالابتدا فكم عندنا من حرف جبلٍ يجره

وقال الوادي آشي أيضاً في موضع آخر ما نصه : ولشاعر العصر ، ومالك زمامي النظم والنثر ، والفقير العالم المتقن المتفنن العارف الأوحده النبيه النبيل ، سيدي محمد العربي وصل الله تعالى رفعة قدره ، وحرس من غير الأيام أشعة بدره^١ :

الحبُّ في جُمهورِ أنواره فأينَ الاخوانُ والاجبابُ
وأينَ أينَ الاجتماعاتِ ، قدُ تهَيَّأتْ لهنَّ الاسبابُ
وأينَ بنتَ الجينِ ؟ مهما بدتْ طارتَ إليها شوقاً آلبابُ
وأينَ الالبانُ لأكوابها في بُرمِ الأرزِ تسكابُ
واللحمُ بالبسباسِ قدُ ألفتُ لطبخه في القدرِ الاحطابُ
والعودُ ذو دندنةٍ يطبّي آثارها للطارِ دبدابُ
وملحِ الأصواتِ قد طورحتُ وجاءَ معبدُ وزريابُ^٢
وفُضَّ للهوِ ختامُ ولم يُسدَّ في وجهِ الهوى بابُ
وقيلَ للوقارِ قمُ قبلَ أنْ تُسلَبَ عنكَ الآنَ الاثوابُ
وكلُّ إنسانٍ وما يشتهي ليسَ على مناهُ حُجابُ

١ قد تقرأ القصيدة معربة بشيء من التمسف ، ولكني أعتقد أنها قد تعد من الشعر الملحون .

٢ سقط هذا البيت من ص .

مسترسلاً ليس له عدلٌ
في راحة خلعت أرسانها
فكلُّ بستانٍ قد استأسدت
وأطلع الترابُ أدواحهُ
لما تحلّت بحلى زهرها
عرائسٌ ليس لها في سوى
أيام تبدي ثمرات بدا
كأنه في العينِ ياقوت أو
هيئات هيئات أمان لها
ما حوت الرؤوسُ أمثالها
قد عاق عن ذلك دهرٌ به
يرومُ الانسانُ غلاباً له

وقال رحمه الله تعالى لما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة :

بالطبلِ في كلِّ يومٍ وبالتفجيرِ نراعُ
وليسَ من بعد هذا وذاك إلا القراعُ
يا ربَّ جبركَ يرجو من هيص منه الذراعُ
لا تسلبني صبراً منه لقلبي ادراعُ

وله رحمه الله تعالى في الموشحات اليدُ الطولى ، فمن ذلك قوله :

بدرَ أهلِ الزمانِ الرفيعِ القسدرِ
لا تزلْ في أمانِ من كسوفِ البدرِ

وله من أخرى :

هَلْ يَصِحُّ الْأَمَانُ مِنْ شِبْهِ الْبَدْرِ
وهو مثل الزمان مُنْتَمِ لِّلْغَدْرِ

لَمْ يَغْرَ الْأَغْرَ غَيْرَ غَمْرِ جَاهِلٍ
عَيْشُهُ الْخَلْوُ مَرٌّ وَهُوَ فِيهِ نَاهِلٌ
وَالصَّبَا الْغَضَّ مَرٌّ وَهُوَ عَنْهُ ذَاهِلٌ

مَرشَفُ الْبَهْرَمَانِ فَوْقَ ثَغْرِ الدَّرِّ
مَطْمَعٌ لِلْأَمَانِ بِاقْتِرَابِ الدَّرِّ

وعارض رحمه الله تعالى بهاتين الموشحتين الموشحة المشهورة :

ضاحكٌ عَنْ جُمَانٍ سَافِرٌ عَنْ بَدْرِ
ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ وَحَوَاهُ صَدْرِي

وممن عارض هذه الموشحة ابن أرقم إذ قال :

مِيسَمُ الْبَهْرَمَانِ فِي الْمِحْيَا الدَّرِّي
صَادَ قَلْبِي وَبَانَ وَأَنَا لَمْ أُدْرِ

والإنصاف أن معارضة العربي أحسن من هذه .

وله أيضاً معارضتان غير ما تقدم : الأولى قوله :

بَانَ لِي ثَمَّ بَانَ ذَا خُدُودِ حُمْرِي
يَنْشِي مِثْلَ بَانَ فِي ثِيَابِ خَضْرِي

والثانية قوله :

هَلْ لِمَرَآكَ ثَانَ فِي سَنَاهُ الدَّرِّي
أَوْ لِحُوبَايَ ثَانَ عَنْ هَوَاهَا الْعُدْرِي

يا مليحاً جلا عن محياً جميل
 همتُ فيه ولا هيمان جميل
 ملٌ قليلاً إلى منْ إليكَ يميل
 عاشقٌ فيكَ فانْ كاتمٌ للسرِّ
 لكَ منه مكان في صميمِ الصدر

ومن نظم العربي المذكور لما عرض عليه السلطان رياسة كتابه من قصيدة :

أوجهُ سَعْدِي انحطَّ عنه اللثام أم بدرٌ أفقٍ فُضِّ عنه الغمام
 أم أنا في حالي لا عقلَ لي أم حلمٌ قد لاح لي في المنام
 يا لكَ مرأى منْ رأى حسنه هيج للقلب غراماً فهام
 كأنما أقبس نور البهائم من وجه مولانا الإمام الهمام
 ابن أبي الحسن الأسرى الذي قد كان للأملاك مسك الختام
 ضرغامٌ قد أنجبَ شبيهاً له في صدق بأسٍ ومضاء اعتزام
 حامى وسامى فأفَاعيلُهُ تَنقُلُها أبناء سامٍ وحام
 دام لهُ النَّصْرُ الذي جاءه والسيف من طلى أعاديهِ دام
 فيا أمير المؤمنين الذي له بعروة اليقين اعتصام
 أبشر بجدِّ مقبلٍ لم يؤل إلى انصرافٍ لا ولا لانصرام
 وعزة لم يُفْضِ بنيانها إلى انهدادٍ لا ولا لانهدام
 لله منكَ مَلِكٌ جُنْدُهُ زُهرُ النجوم^٢ وهو بدرُ التمام
 ومنها :

يطرب من مادحه مثلما يطربُ قلب الصبِّ سجعُ الحمام

١ قد : سقطت من ق ص .

٢ ق : الدراري .

فيفعل الشعر بأعطفاه ما ليس تفعل بين المدام
وإن حكي في حسنه يوسفاً فمدحه يُشبه زهر الكمام
ومنها :

فداره لَيْسَتْ بِيَغْدَادِهِمْ مَعَ أَنَّهَا تُدْعَى بدار السلام
ومنها :

أَسْأَلُهُ الْإِعْفَاءَ مِنْ كُلِّ مَا أَعْجِزُ عَنْ حَمْلِهِ لَهُ وَالتَّرَامِ
ومنها :

مُسْتَشْفِعاً لَهُ بِخَيْرِ الْوَرَى مُحَمَّدَ عَلَيْهِ أَزْكَى السَّلَامِ
ومنها :

وَكُلُّ إِنْسَانٍ وَمَا اخْتَارَهُ وَرُبَّ ذِي عَذْرِ قَدْ أَضْحَى يِلَامِ
وآخرها :

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ غَدَا لِلشَّمْلِ بَعْدَ الْانْصِدَاعِ التَّثَامِ
ولنختتم هذه الترجمة بقوله^١ :

جز بالبساتين والرياض فما
واعجب بها للنبات ولتلك في
وقدس الله عند ذاك وقل
أبهج مرثيتها^٢ وأحلاه
أسفله ناظراً وأعلاه
سبحانه لا إله إلا هو

سبحان وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين والحمد لله رب العالمين.

انتهى المجلد الرابع

١ الأبيات في أزهار الرياض ١ : ١٠٣ .

٢ ق : مرآة .

محتويات المجلد الرابع

٥ - ٣٤٩

الباب السابع (تتمة)

- ٤٧٦ - بين أبي بكر ابن القبطرنة وابن صارة ٥
- ٤٧٧ - مراسلات شعرية بين أبي بكر الزبيدي والحاجب المصحفي، وشيء من شعر الزبيدي ٧
- ٤٧٨ - تفوق سهل بن مالك في مجلس شعري بستة ٨
- ٤٧٩ - بين ابن مطروح البلنسي وأبي الربيع ابن سالم ٨
- ٤٨٠ - أبو أمية ابن حمدون على باب الشلوين ٩
- ٤٨١ - هجاء النحلي لابن صمادح وعفو هذا عنه ٩
- ٤٨٢ - الرصافي يتشوق إلى بلده بلنسية ٩
- ٤٨٣ - شعر لأبي بكر الشلطيشي ١٠
- ٤٨٤ - « لأبي بكر ابن العطار اليايسي ١٠
- ٤٨٥ - « لمحمد بن حسن الجبلي النحوي ١٠
- ٤٨٦ - « لمحمد بن حرب ١٠
- ٤٨٧ - محمد بن اليسع وإهداؤه الورد لعارض الجيش ١١
- ٤٨٨ - شعر لأحمد بن أفلح ١١
- ٤٨٩ - « لأحمد بن تليد الكاتب ١١
- ٤٩٠ - « لإسحاق بن المنادي ١٢
- ٤٩١ - « لغالب بن عبد الله الثغري ١٢
- ٤٩٢ - « لابن الإمام الغرناطي في هجاء مراکش ١٢
- ٤٩٣ - « لابن الحمارة في أبي القاسم ابن عشرة . وموشحة للتطيلي ١٣
- ٤٩٤ - بين محمد بن عباد وابن القابلة السبي ١٣
- ٤٩٥ - شعر لابن خروف (والصحيح لابن طلحة الصقلي) ١٤
- ٤٩٦ - ابن خفاجة وابن عائشة وابن الرقاق في بستان ١٤

- ٤٩٧ - ابن زنون وكتاب « التحف والظرف » ومعارضات سينية . . . ١٥
- ٤٩٨ - شعر لأبي بكر ابن حبيش ١٦
- ٤٩٩ - « لأبي بكر ابن يوسف اللخمي ١٦
- ٥٠٠ - بين أبي زيد ابن أبي العافية وابن العطار القرطبي ١٧
- ٥٠١ - ثلاثة أدباء من مرسية يصلون خلف إمام يخطيء في القراءة . . . ١٨
- ٥٠٢ - شعر لابن خفيف في أحذب وصبي ١٨
- ٥٠٣ - « لأبي الصلت في الخمول ١٨
- ٥٠٤ - « لبعض المعارضة كتب به لأبي العباس ابن مضاء ١٩
- ٥٠٥ - « لأبي عبد الله القرطبي يستنجز وعداً ١٩
- ٥٠٦ - « لابن هذيل كتب به إلى الغني بالله ١٩
- ٥٠٧ - « لابن الزقاق في غلام يهودي ١٩
- ٥٠٨ - « لأبي حيان الجياني ١٩
- ٥٠٩ - بين أحد أدباء مرسية وأبي العباس ابن سعيد ٢٠
- ٥١٠ - شعر للسميسر في قرابة السوء ٢٠
- ٥١١ - « لابن خفاجة في الأندلس ٢٠
- ٥١٢ - « لبعض الأندلسيين ٢٠
- ٥١٣ - « لأبي يحيى ابن هشام القرطبي في خائط ٢٠
- ٥١٤ - « لأبي جعفر ابن عبد الولي البنسي ٢١
- ٥١٥ - « لأبي العباس القيحاوي ٢١
- ٥١٦ - « لابن جحاف البنسي ٢٢
- ٥١٧ - « لأبي العباس المالقي ٢٢
- ٥١٨ - بين ابن عبد المنعم وأبي عبد الله الشاطبي وابن قوشرة ٢٢
- ٥١٩ - ابن الصائع النحوي يذيل على بيتي الحريري ٢٣
- ٥٢٠ - عبادة يمدح أبا بكر والد الوزير أبي الوليد ابن زيدون ٢٣
- ٥٢١ - شعر لابن قرمان الزجال ، وترجمة له ٢٣
- ٥٢٢ - نقول عن المطمح : ٢٥ - ٥٥

- ٢٥ 1 - ابن القوطية
- ٢٥ 2 - ابن مغيث
- ٢٥ 3 - ابن سيده
- ٢٨ 4 - أبو محمد غانم المخزومي
- ٢٨ 5 - أبو عمر ابن عيد البر
- ٣٠ 6 - أبو بكر ابن أبي الدوس
- ٣١ 7 - أبو الفضل ابن الأعلم
- ٣٥ 8 - يوسف بن هارون الرمادي
- ٤٠ 9 - محمد بن هانيء
- ٤٦ 10 - ابن فرج صاحب « الحدائق »
- ٤٨ 11 - أبو عبد الله ابن الحداد
- ٥١ 12 - الأسعد بن بليطة
- ٥٢ 13 - عبادة بن ماء السماء
- ٥٣ 14 - ابن عائشة
- ٥٥ ٥٢٣ - ترجمة ابن أبي خالد اللخمي الإشبيلي عن « تحفة القادم »
- ٥٩ ٥٢٤ - شعر للأعمى التطيلي في وصف السفينة
- ٥٩ ٥٢٥ - « لابن وهبون في وصف الأسطول
- ٦٠ ٥٢٦ - « لابن خفاجة
- ٧٦ - ٦٠ ٥٢٧ - قطعة منقولة عن المغرب
- ٦٠ 1 - عبيد الله بن جعفر الإشبيلي
- ٦١ 2 - علي بن جعدر الزجال
- ٦١ 3 - أحمد المقرئ الكساد
- ٦٢ 4 - أبو القاسم المنشي
- ٦٢ 5 - أبو زيد العثماني
- ٦٢ 6 - أبو زكريا الأركشي
- ٦٣ 7 - أبو عمران الطرياني
- ٦٣ 8 - أبو عمرو ابن حكيم
- ٦٣ 9 - علي بن الجعد القرموني
- ٦٤ 10 - أبو الحسن ابن لبال

- ٦٤ 11 - أبو جعفر الشريشي .
- ٦٤ 12 - أبو العباس ابن شكيل الشريشي .
- ٦٥ 13 - أبو عمرو ابن غياث .
- ٦٥ 14 - ابن عبد العزيز يخاطب ابن عبدون .
- ٦٥ 15 - أبو القاسم ابن عبد العزيز .
- ٦٥ 16 - أبو عبد الله الجزيري الثائر .
- ٦٦ 17 - بين المنصور وعبد الملك الجزيري .
- ٦٧ 18 - بين الحجاري وابن حصن الجزيري .
- ٦٨ 19 - بين ابن سعيد وأبي العباس ابن بلال .
- ٦٩ 20 - أبو الوليد القسطلي .
- ٧٠ 21 - أبو كثير الطريقي .
- ٧٠ 22 - أبو عامر ابن الجحد .
- ٧٠ 23 - أبو عبد الله محمد الشلبي .
- ٧٠ 24 - أبو بكر ابن الملح .
- ٧١ 25 - أبو القاسم ابن الملح .
- ٧٢ 26 - أبو بكر ابن عبد القادر الشلبي .
- ٧٢ 27 - أخو ابن السيد البطليوسي .
- ٧٢ 28 - أبو بكر ابن الروح الشلبي .
- ٧٣ 29 - أبو بكر ابن المنخل الشلبي .
- ٧٣ 30 - أبو بكر ابن عمار .
- ٧٣ 31 - أبو الفضل ابن الأعلم .
- ٧٤ 32 - الرمادي .
- ٧٤ 33 - أبو الفضل ابن الأعلم .
- ٧٥ 34 - إدريس بن اليمان العبدي .
- ٧٥ 35 - بين الهيم وطيفور (مهاجاة) .
- ٧٦ 36 - أبو عمران ابن سعيد عند ابن حمدين .
- ٦٩ ٥٢٨ - شعر لبعض أهل الأندلس .
- ٧٧ ٥٢٩ - رسالة الأعلم الشتمري في معنى « المسهب » .
- ٧٩ ٥٣٠ - رسالة الأعلم الشتمري في المسألة الزنبرية وسيبويه .

- ٨٦ شعر لأبي إسحاق الإلبيري ٥٣١ -
- ٨٦ « لابن صارة في أبي الفضل ابن الأعلم ٥٣٢ -
- ٨٦ « لابن هانيء الأندلسي ٥٣٣ -
- ٨٧ « للقسطلي في أسطول المنصور ٥٣٤ -
- ٨٧ « للجراوي ، وفي معناه لصفوان وابن مجبر ٥٣٥ -
- ٨٨ « لبعضهم في الباذنجان ٥٣٦ -
- ٨٩ « لابن خروف ٥٣٧ -
- ٨٩ « لأبي القاسم ابن هشام ٥٣٨ -
- ٨٩ « لبعضهم ٥٣٩ -
- ٩٠ « لأبي الوليد الرقشي ٥٤٠ -
- ٩٠ « لأبي الحسن ابن عيسى ٥٤١ -
- ٩٠ « لأبي ذر الخشني ٥٤٢ -
- ٩٠ « لابن أبي خالص الرندي ٥٤٣ -
- ٩٠ « لابن مفوز المعافري ٥٤٤ -
- ٩٠ « لأبي الوليد ابن زيدون ٥٤٥ -
- ٩١ « للهيثم ٥٤٦ -
- ٩١ « لابن عياض القرطبي ٥٤٧ -
- ٩١ « لأبي الحسين النفزي ٥٤٨ -
- ٩١ « لابن صارة ٥٤٩ -
- ٩٢ أشعار للمعتمد بن عباد ٥٥٠ -
- ٩٤ شعر لابن زيدون في المعتضد ٥٥١ -
- ٩٤ « للمعتمد في وصف مجن ٥٥٢ -
- ٩٤ مجلس غناء ينذر بنهاية الرشيد ابن المعتمد ٥٥٣ -
- ٩٦ المغني السوسي عند المعتضد في مجلس مماثل ٥٥٤ -
- ٩٦ شعر للمعتمد بعدما خلع وسُجن ٥٥٥ -
- ٩٦ ابن البانة يزور المعتمد بأغمات ٥٥٦ -

٩٨	٥٥٧ - لسان الدين يزور قبر المعتمد
٩٩	٥٥٨ - مقطعات لابن زيدون
١٠٠	٥٥٩ - شعر للأسعد بن بليظة
١٠٠	٥٦٠ - « لابن خلصة المكفوف
١٠١	٥٦١ - « لابن الحداد في مدح المعتصم
١٠٢	٥٦٢ - « لعبد الجليل بن وهبون
١٠٢	٥٦٣ - « لابن أبي وهب الأندلسي
١٠٢	٥٦٤ - « لابن اللبابة
١٠٣	٥٦٥ - « للقرزاز في مدح ابن صمادح
١٠٣	٥٦٦ - أشعار وخمسة لأبي الحسن ابن الحاج
١٠٦	٥٦٧ - أشعار لابن خفاجة
١٠٧	٥٦٨ - شعر لابن الرفاء
١٠٧	٥٦٩ - « لأبي محمد ابن عبد البر
١٠٨	٥٧٠ - أشعار للسميسر
١٠٩	٥٧١ - شعر لابن شاطر السرقسطي
١٠٩	٥٧٢ - « للحصري
١٠٩	٥٧٣ - « لابن عبد الصمد
١٠٩	٥٧٤ - « لابن عبد الحميد البرجي
١٠٩	٥٧٥ - « لعبادة
١١٠	٥٧٦ - « لابن المطرف المنجم
١١٠	٥٧٧ - « لأبي الحسن ابن اليسع
١١٠	٥٧٨ - « للمستنصر وجوابه من ابن عميرة
١١٠	٥٧٩ - « لأبي العباس الرصافي
١١١	٥٨٠ - « لأبي الربيع ابن سالم
١١١	٥٨١ - أشعار لأبي القاسم ابن الأبرش
١١٢	٥٨٢ - بيت لابن حريق

- ٥٨٣ - شعر لابن العطار الإشبيلي ١١٢
- ٥٨٤ - نقول شعرية من التكملة : ١١٢
- 1 - 22 - اللص ، الإلبيري ، ابن مسلمة ، ابن أبي ركب ، أبو المعالي الإشبيلي ،
ابن الأنقر ، ابن فتح الثفري ، ابن نصير ، ابن ميمون ، ابن الحداد ،
بعض الجزريين ، المعتمد ، البرياني ، السميسر ، أبو الربيع الكلاعي ،
عبد الحق الإشبيلي ، ابن صارة ، أبو محمد الطائي ، ابن حزم ، أبو
عبد الله الجلي ، محمد بن عبد الله الحضرمي ١١٢-١١٩
- ٥٨٥ - أشعار لابن الأبار القضاعي ١١٩
- ٥٨٦ - كتاب الحل التيجانية ١٢١
- ٥٨٧ - مقطعات لابن مفوز ١٢١
- ٥٨٨ - أشعار لابن مكنون وتصحيح ما نسب إليه خطأ ١٢٢
- ٥٨٩ - اتصال صاحب المسهب بعبد الملك بن سعيد ١٢٣
- ٥٩٠ - ابن مرزقان يصف شمعة ١٢٤
- ٥٩١ - أشعار لأبي الأصغ ابن رشيد الإشبيلي ١٢٤
- ٥٩٢ - أشعار لأبي بكر ابن حجاج الغافقي ١٢٥
- ٥٩٣ - شعر لأبي وهب ابن عبد الرؤوف النحوي ١٢٦
- ٥٩٤ - « للقلط ١٢٦
- ٥٩٥ - « لابن المبارك الحبيبي ١٢٦
- ٥٩٦ - « لأحمد بن عثمان المرواني ١٢٦
- ٥٩٧ - « لعبد الله المرواني ١٢٧
- ٥٩٨ - « لإبراهيم بن إدريس العلوي ١٢٧
- ٥٩٩ - قصة هذيل الإشبيلي مع سائل عريان ١٢٧
- ٦٠٠ - حكاية ابن عمار مع شيخ ذي نادرة ١٢٧
- ٦٠١ - قصة السارق المشهور بالبازي الأشهب ١٢٨
- ٦٠٢ - قصة منصور بن عبد المؤمن مع أحد البنائين ١٢٩
- ٦٠٣ - أشعار لأحمد المقرئ الكساد ١٢٩
- ٦٠٤ - رأي القرموطي المرسي وقد عرض عليه الأذفونش تغيير دينه ١٣٠

- ٦٠٥ - شعر لابن سالم الغرناطي على ألسنة الأطباء ١٣٠
- ٦٠٦ - « لابن عمر الإشبيلي الخطيب ١٣٠
- ٦٠٧ - « لعبد الرحمن العثماني ١٣٠
- ٦٠٨ - « لأبي عمران موسى الطرياني ١٣١
- ٦٠٩ - بين مجاهد والمنصور الأصغر . وموقف الوزير التاكرني ١٣٢
- ٦١٠ - شاعر يهجو رندة ١٣٢
- ٦١١ - شعر لحبلاص الرندي ١٣٣
- ٦١٢ - « لابن سعيد في مجلس ذكر فيه صديقه الأندي ١٣٣
- ٦١٣ - « لأرقم لما فناه بنو ذي النون من نسبهم ١٣٤
- ٦١٤ - بين ابن سفيان وأبي أمية ابن عصام ١٣٤
- ٦١٥ - شعر لابن أرفع رأسه في مجلس المأمون بن ذي النون ١٣٤
- ٦١٦ - « لأبي أحمد عبد المؤمن الطليطي ١٣٥
- ٦١٧ - « لابن العسال الزاهد ١٣٥
- ٦١٨ - أشعار لأبي جعفر الوقشي وشيء من أخباره ١٣٥
- ٦١٩ - « لأبي الوليد الوقشي ١٣٧
- ٦٢٠ - مروءة أبي الحسين ابن أبي جعفر الوقشي وظرفه ١٣٨
- ٦٢١ - أبو الحسين علي بن الحمارة ومهارته في الموسيقى ١٣٩
- ٦٢٢ - أمثلة من تبجر أهل الأندلس في العلم ١٣٩
- ٦٢٣ - رسالة ابن حبيش في جواز « ماذا » التكريرية دلالة على الحفظ ١٤١
- [ترجمة اليفرني النحوي المعترض على ابن حبيش] ١٤٦
- رجع إلى كلام الأندلسيين ١٤٧
- ٦٢٤ - مقطوعتان لصالح بن شريف الرندي ١٤٧
- ٦٢٥ - شعر لبعض الأندلسيين ١٤٧
- ٦٢٦ - شعر يرجح أنه لأندلسي ، في المقص ١٤٧
- ٦٢٧ - مؤلفون يردون على كتاب « المقرب » لابن عصفور ١٤٨
- ٦٢٨ - من شعر حازم ومعارضة التجاني له ١٤٨
- ٦٢٩ - بين أبي بكر ابن الملح وابنه ١٤٨

١٤٩	٦٣٠ - قصيدة لابن صفوان المالقي
١٥٠	٦٣١ - شعر لابن إدريس القضاعي الاصبهوني
١٥٠	٦٣٢ - قصيدة لمحمد التطيلي الهذلي القرناطي
١٥٢	٦٣٣ - بين ابن حسداي ويحيى الجزائر في عودته إلى الجزائر
١٥٣	٦٣٤ - شعر لأبي الحسن ابن الحداد
١٥٣	٦٣٥ - « لابن مطروح في عزل وال »
١٥٣	٦٣٦ - « لابن الحاج البليقي »
١٥٣	٦٣٧ - « لأبي الحجاج يوسف الفهري الداني »
١٥٤	٦٣٨ - « لبعضهم في الرثاء »
١٥٤	٦٣٩ - « لأبي جعفر البغيل »
١٥٤	٦٤٠ - « لأبي جعفر اللماحي المالقي »
١٥٤	٦٤١ - « لأبي جعفر ابن طلحة »
١٥٤	٦٤٢ - « لأبي جعفر الغساني الوادي آشي »
١٥٥	٦٤٣ - « لأبي بكر ابن بقي »
١٥٥	٦٤٤ - « للمتوكل بن الأفضس ولبعض المشاركة »
١٥٦	٦٤٥ - « لابن خلصة الضرير »
١٥٦	٦٤٦ - « لابن اللبانة »
١٥٦	٦٤٧ - « لابن اليمان العبدري »
١٥٧	٦٤٨ - « لابن الدودين البلنسي »
١٥٧	٦٤٩ - « لابن أبي الحصال »
١٥٧	٦٥٠ - « لغالب الحجام »
١٥٧	٦٥١ - أشعار لابن عائشة
١٥٨	٦٥٢ - شعر لأبي محمد ابن سفيان
١٥٨	٦٥٣ - « لابن الزقاق »
١٥٩	٦٥٤ - مقطعات ليحيى السرقسطي
١٥٩	٦٥٥ - شعر للرصافي في دولاب
١٥٩	٦٥٦ - « للصابوني . وابن أبي ركب »

- ١٦٠ ٦٥٧ - شعر لبعضهم خاطب به ابن حزم ، وجوابه عليه .
- ١٦٠ ٦٥٨ - « للرصافي وخبر عنه »
- ١٦١ ٦٥٩ - « لابن مجبر آتهمه ابن القطان بانتحاله »
- ١٦٢ ٦٦٠ - مجلس فيه أبو بكر ابن طاهر والحشني وأبو حفص ابن عمر .
- ١٦٢ ٦٦١ - صديق أمي لأبي الحسين الصوفي يقول شعراً .
- ١٦٢ ٦٦٢ - محاجة بين الوقشي وابن سراج
- ١٦٣ ٦٦٣ - ترجمة أبي الحسن ابن أضحى
- ١٦٦ ٦٦٤ - ذكر جملة من نساء الأندلس :
- ١٦٦ 1 - أم السعد بنت عصام الحميري
- ١٦٧ 2 - حسانة التميمية
- ١٦٩ 3 - أم العلاء بنت يوسف الحجازية
- ١٦٩ 4 - أمة العزيز
- ١٧٠ 5 - أم الكرام الصادحية
- ١٧٠ 6 - الفسائية البجائية
- ١٧١ 7 - العروضية مولاة أبي المطرف ابن غلبون
- ١٧١ 8 - حفصة بنت الحاج الركونية
- ١٧١ ٦٦٥ - [استطراد بقصتين]
- ١٧٢ رجوع إلى أخبار حفصة
- ١٧٨ ٦٦٦ - [سلمى بنت القراطيسي]
- ١٧٨ رجوع إلى حفصة
- ١٧٩ ٦٦٧ - [أبو جعفر ابن سعيد]
- ٢٠٢ ٦٦٨ - [أخيل الرندي]
- ٢٠٣ ٦٦٩ - [ترجمة اللص]
- ٢٠٤ رجوع إلى أخبار أبي جعفر ابن سعيد
- ٢٠٥ رجوع إلى أخبار النساء
- ٢٠٥ 9 - ولادة بنت المستكفي
- ٢١١ 10 - اعتماد الرميكية ، زوجة المعتمد
- ٢١٣ ٦٧٠ - [أخبار المعتمد]

٢٢٨	.	.	.	[تراجم منقولة عن الفتح]
٢٢٨	.	.	.	١ - ترجمة ابن النبي .
٢٣١	.	.	.	٢ - « ابن لبال
٢٣٤	.	.	.	٣ - « عبد المعطي أبي بكر
٢٣٦	.	.	.	٤ - « ابن بقي
٢٤١	.	.	.	رجع إلى بني عبّاد .
٢٤٣	.	.	.	٦٧٢ - [ابن جاخ والمعتضد]
٢٤٥	.	.	.	رجع إلى أخبار بقية بني عبّاد .
٢٤٩	.	.	.	٦٧٣ - [الراضي ابن المعتد]
٢٥٦	.	.	.	٦٧٤ - [مدائح ابن اللبانة في بني عبّاد]
٢٥٩	.	.	.	٦٧٥ - [مقتطفات من أخبار المعتد]
٢٦٤	.	.	.	٦٧٦ - [ابن زيدون عند بني عبّاد]
٢٧٠	.	.	.	رجع إلى بني عبّاد .
٢٧١	.	.	.	٦٧٧ - [مقطعات لابن حمديس]
٢٧١	.	.	.	رجع إلى بني عبّاد .
٢٧٢	.	.	.	[رجوع إلى ذكر الرميكية]
٢٧٤	.	.	.	٦٧٨ - [عود إلى أخبار المعتد]
٢٨٣	.	.	.	رجع إلى أخبار النساء
٢٨٣	.	.	.	11 - العبادية جارية المعتضد . ✓
٢٨٤	.	.	.	12 - بثينة بنت المعتد .
٢٨٥	.	.	.	13 - حفصة بنت حمدون .
٢٨٦	.	.	.	14 - زينب المرية .
٢٨٦	.	.	.	15 - غاية المنى .
٢٨٧	.	.	.	16 - حمدة بنت زياد المؤدب .
٢٩٠	.	.	.	17 - عائشة بنت أحمد القرطبية .
٢٩١	.	.	.	18 - مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري .
٢٩٢	.	.	.	19 - أسماء العامرية .
٢٩٢	.	.	.	20 - أم الهناء بنت القاضي ابن عطية .
٢٩٣	.	.	.	21 - مهجة القرطبية .

٢٩٣	22 - هند جارية أبي محمد الشاطبي
٢٩٤	23 - الشلبية
٢٩٥	24 - نزّهون الغرناطية
٢٩٦	٦٧٩ - [ابن قزمان]
٢٩٧	رجع إلى أخبار نزّهون .
٢٩٨	٦٨٠ - مقطعات لابن الزقاق
٣٠١	٦٨١ - شعر للخفاجي .
٣٠١	٦٨٢ - مقطوعتان لأبن صارة .
٣٠١	٦٨٣ - مقطعات لابن العطار .
٣٠٢	٦٨٤ - بين ابن خاتمة وابن جزري
٣٠٣	٦٨٥ - شعر للسultan أبي الحجاج النصري .
٣٠٣	٦٨٦ - « لأبي القاسم ابن حاتم .
٣٠٤	٦٨٧ - « للفقير محمد بن سعيد الأندلسي
٣٠٤	٦٨٨ - « لابن جبير اليحصبي .
٣٠٤	٦٨٩ - « لقاضي مالقة إبراهيم البدوي .
٣٠٤	٦٩٠ - مصحف في جامع العديس بخط ابن مقلة
٣٠٥	٦٩١ - شعر لابن عبدون
٣٠٥	٦٩٢ - « لابن المناصف وآخر
٣٠٦	٦٩٣ - « لابن عمّار
٣٠٦	٦٩٤ - « لأبي الوليد الوقشي .
٣٠٦	٦٩٥ - « لأبي عبد الله ابن الصفار وغيره
٣٠٦	٦٩٦ - « لأبي مروان الجزيري
٣٠٧	٦٩٧ - « لحسان المصيصي .
٣٠٧	٦٩٨ - « لأبي عمرو بن مهيب
٣٠٧	٦٩٩ - « لعبد الله الجذامي .
٣٠٨	٧٠٠ - « لعبد الله بن أحمد المالقي قاضي غرناطة .
٣٠٨	٧٠١ - « لابن الحسن المدحجي

- ٧٠٢ - شعر لمحمد بن عبد الرحمن الغرناطي في الشعب والقبيلة والعمارة . . . إلخ ٣٠٩
 ٧٠٣ - « لأبي محمد الكلاعي الجلياني وقد دخل على ابن رشد . . . ٣٠٩
 ٧٠٤ - « لأبي عبد الرحمن ابن جحاف البلنسي ٣٠٩
 ٧٠٥ - « لأبي محمد ابن برطله ٣٠٩
 ٧٠٦ - « وترجمة لأبي بكر ابن حبيش ٣١٠
 ٧٠٧ - « لأبي بكر ابن القبطرنة في طلب باز ٣١٣
 ٧٠٨ - بين المعتمد وابن عمّار ٣١٣
 ٧٠٩ - شعر لذي الوزارتين أبي عيسى ابن لبون ٣١٤
 ٧١٠ - خبر الحجاري صاحب المسهب وانصرافه إلى ابن هود ٣١٤
 ٧١١ - أشعار في الزهد ٣١٥ - ٣٤٩

1 - 70 - ابن خليل ، عبد الحق الإشبيلي ، ابن صالح الكنافي ، ابن الغماز ، الإلبيري ، ابن العريف ، ابن الأبرش ، ابن صقر ، ابن الأبار ، ابن عبد ربه ، ابن قاسم ، الأعمى التطيلي ، ابن الغماز ، الإلبيري ، ابن أبي ركب ، ابن خميس ، ابن هارون القرطبي ، ابن صارة ، ابن الحاج البكري ، أبو الربيع ابن سالم ، يحيى التطيلي ، مغربي لعله أندلسي ، ابن عبد البر ، ابن عياش ، عبد الوهاب المالقي ، عبد الحق الإشبيلي ، الجلياني ، عبد العليم الطرطوشي ، عبد المحسن البلنسي ، ابن فرج الميرتلي ، غانم المالقي ، ابن العريف ، المحاربي : غريب الطليطلي ، ابن الطراوة ، أبو الربيع سلام الباهلي ، الزبيدي ، ابن الطلاء ، ابن حوط الله ، الهيثم الاشبيلي ، ابن افریولة ، ابن مجبر ، أبو الحجاج المنصفي ، ابن الصائغ الأموي ، الحميدي ، ابن محرز ، ابن حزم ، ابن الغماز ، ابن الزقاق ، ابن صالح الشاطبي ، أيمن الغرناطي ، الزبيدي ، فقيه طليبري ، ابن مغاور ، ابن صفوان ، بعض الأندلسيين ، أبو جعفر القيسي ، ابن أبي العاصي ، ابن الزيات ، ابن صارة ، ابن صاحب الصلاة الداني ، أبو الحكم الأموي ، الإلبيري ، ابن خاتمة ، الحميدي ، أبو بكر ابن جبير ، ابن جبير اليحصبي ، القلبي .

الباب الثامن

في تغلب العدو على الأندلس واستغاثة أهلها معاصريهم لإنقاذها ٣٥٠ - ٥٥٣

٢٥٠	ظهور بلاي وخلفائه .
٣٥٢	الاستيلاء على طليطلة .
٣٥٤	وقعة الزلاقة نقلاً عن الروض وغيره .
٣٧٧	دخول الأندلس في طاعة الموحدين
٣٧٨	عبد المؤمن بن علي .
٣٧٨	يوسف بن عبد المؤمن .
٣٨٠	يعقوب المنصور .
٣٨٣	محمد الناصر ووقعة العقاب
٣٨٣	نهاية الموحدين
٣٨٤	ظهور ابن هود وابن الأحمر
٣٨٥	الدولة المرينية .
٣٨٦	رسالة من أبي الحسن المريني إلى الملك الصالح
٣٩٤	جواب الملك الصالح من إنشاء الصفدي
٣٩٩	إجازة من الصفدي رواية الرسالتين
٣٩٩	أبو الحسن يكتب ثلاثة مصاحف .
٤٠٠	نبذة من أخبار أبي الحسن المريني
٤٠٤	رسائل للسان الدين ابن الخطيب .
٤٠٤	١ - رسالة إلى أحد سلاطين بني مرين
٤١١	٢ - رسالة أخرى في استنهاض السلطان المريني
٤١٥	٣ - رسالة على لسان يوسف بن نصر إلى سلطان فاس
٤٢٠	٤ - رسالة إلى السلطان المريني في الاعتذار عن فرار أبي الفضل المريني من غرناطة
٤٢٤	٥ - رسالة على لسان الغني بالله إلى أبي عنان
٤٢٩	٦ - رسالة عن الغني بالله إلى الأمير السعيد

٤٣٢	.	.	.	٧ - رسالة على لسان أبي الحجاج إلى أبي عنان .
٤٣٦	.	.	.	٨ - رسالة على لسان يوسف النصري .
٤٣٨	.	.	.	٩ - رسالة في حاجة الأندلس إلى بر العدو .
٤٤٢	.	.	.	١٠ - رسالة عن أبي الحجاج إلى الرعايا .
٤٤٤	.	.	.	١١ - رسالة توضح ضيق حال الأندلس .
٤٤٥	.	.	.	١٢ - من رسالة طويلة .
٤٤٦	.	.	.	ضبياع المدن الأندلسية :
٤٤٧	.	.	.	طليطلة - ٤٧٨
٤٤٨	.	.	.	وقعة بطرنة - ٤٥٦
٤٤٩	.	.	.	بريشتر - ٤٥٦
٤٥٤	.	.	.	استرجاع بريشتر
٤٥٥	.	.	.	تظيلة وطرسونة
٤٥٥	.	.	.	بلنسية والقنيطور
٤٥٦	.	.	.	نهاية بلنسية .
٤٥٧	.	.	.	قصيدة ابن الأبار السنية
٤٦٠	.	.	.	كشندة - ٥١٤
٤٦١	.	.	.	لوشة - ٦٢٢
٤٦١	.	.	.	المرية - ٥٤٢
٤٦٢	.	.	.	[ترجمة الرشاطي]
٤٦٣	.	.	.	استرداد المرية وضياعها نهائياً
٤٦٤	.	.	.	[شعر في معركة العقاب]
٤٦٥	.	.	.	[ابن وزير]
٤٦٥	.	.	.	ضياع ماردة .
٤٦٦	.	.	.	[المظفر وابنه المتوكل]
٤٦٧	.	.	.	[شعر للفاززي]
٤٦٨	.	.	.	[ترجمة الفاززي]
٤٦٩	.	.	.	سقوط ميورقة نقلاً عن ابن عميرة .
٤٧١	.	.	.	[سعيد بن حكيم في منورقة]
٤٧٢	.	.	.	سقوط عدة مدن (شقر ، سرقسطة ، شاطبة ، قرطبة ، إشبيلية)

٤٧٣	.	.	.	موقعة أنيشة وترجمة أبي الربيع ابن سالم
٤٧٦	.	.	.	[ابن العربي وموقعة ٥٢٧]
٤٧٧	.	.	.	[قصيدة الوقشي في مدح أبي يعقوب]
٤٧٩	.	.	.	[قصيدة في استنهاض الحفصي بعد سقوط بلنسية]
٤٨٣	.	.	.	[قصيدة في رثاء طليطلة]
٤٨٦	.	.	.	[نونية الرندي وشيء من شعره]
٤٩٠	.	.	.	[رسالة ابن عميرة إلى ابن الأبار في سقوط بلنسية]
٤٩٦	.	.	.	[رسالة ابن الأبار التي أجاب أبو المطرف عنها]
٥٠٠	.	.	.	[فضول من درر السمط لابن الأبار]
٥٠٧	.	.	.	نهاية الأندلس عن كتاب «جنة الرضى» لابن عاصم
٥٢٩	.	.	.	[رسالة المخلوع أبي عبد الله إلى الشيخ الوطاسي]
٥٤٨	.	.	.	[ترجمة كاتب الرسالة محمد العربي]

Abu 'l- 'Abbās A. al- Maqqarī

NAFH AT-TĪB

IV

Edited and Annotated

by

Ihsān 'Abbās, Ph. D.

Dar SADER

P.O.B. 10

BEIRUT, Lebanon

1968